

الترجمة العربية الكاملة الوحيدة

كفاحي

أدولف هتلر

❖ مذكرات هتلر كما كتبها بقلمه.
❖ يمكنك الآن قراءة كتاب هتلر الشهير كاملاً دون اختصار وباللغة العربية.
❖ الكتاب مترجم نقلاً عن نسخة موثوق بها لم تخضع إلى أي تحريف أو تعديل.

ترجمه إلى العربية وقدم له وعلق عليه

أكرم مؤمن

مكتبة
البركتين



للنشر والتوزيع والتصدير

نافذتك على الفكر العربي
والعالمي من خلال ما تقدمه
لك من روائع الفكر العالمي
والكتب العلمية والأدبية
والطبية ونسوار التراث
واللغات الحية. شعارنا:
قدم الجديد..

وبسعر أرخص

يشرف عليها ويديرها
مهندس

مصطفى عاشور

٧٦ شارع محمد فريد - النزهة - مصر الجديدة - القاهرة
تليفون: ٢٦٢٧٨٩٦٣ - ٢٦٢٨٩٢٧٢ فاكس: ٢٦٢٨٠٨٢٢
Web site: www.ibnsina-eg.com
E-mail: info@ibnsina-eg.com

جميع الحقوق محفوظة للناس

لا يجوز طبع أو نسخ أو تصوير أو
تسجيل أو اقتباس أي جزء من
الكتاب أو تخزينه بأية وسيلة
ميكانيكية أو إلكترونية بدون إذن
كتابي سابق من الناشر.

كفاحي/ أدولف هتلر، ترجمه إلى العربية وقدم له وعلق عليه:
أكرم مؤمن.

١- القاهرة: مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، ٢٠١٠ .
٥٤٤ ص: ٢٤ سم.

في رأس العنوان: الترجمة العربية الكاملة الوحيدة.
تدمك ٨ ٩٥٦ ٢٧١ ٩٧٧ ٩٧٨

١- هتلر، أدولف (١٨٨٩ - ١٩٤٥) - مذكرات شخصية.

٢- الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥)

٣- ألمانيا - تاريخ - عصر الرايخ الثالث (١٩٣٣ - ١٩٤٥)

١- مؤمن، أكرم (مترجم) ب- العنوان ٩٢٠

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٣٢٦٤

الترقيم الدولي: 978-977-271-956-8

تصميم الغلاف: إبراهيم محمد إبراهيم

إخراج فني: وليد مهني علي

تطلب جميع مطبوعاتنا من وكيلنا الوحيد بالملكة العربية السعودية

مكتبة الساعي للنشر والتوزيع

ص.ب ٥٠٦٤٩ الرياض ١١٥٣٣ - هاتف: ٤٣٥٣٧٦٨ - ٤٣٥١٩٦٦ - ٤٣٥٩٠٦٦

فاكس: ٤٣٥٥٩٤٥ جوال: ٥٥٠٦٧١٩٦٧

جدة: هاتف/ فاكس: ٦٢٩٤٣٧٧ جوال: ٥٥٠٦٧١٩٦٦

E-mail: alsaaay99@hotmail.com

مطابع العبور الحديثة - القاهرة

تليفون: ٤٦٦٥١٠١٣ فاكس: ٤٦٦٥١٠٩٩

كلمة المترجم

يسعدني أن أضع هذه الترجمة الكاملة لكتاب "كفاحي" بين يدي القارئ العربي. وقد فضلت أن تكون هذه الترجمة دقيقة وكاملة وألا أُلجأ فيها إلى الاختصار أو التبسيط. لذلك فقد كتبت كل ما ذكره "أدولف هتلر" في كتابه وذلك نقلاً عن نسخة موثوق بها ولا أعتقد أنها تعرضت إلى أي نوع من التحريف أو التعديل.

لكنني لاحظت في كثير من الأحيان أن هتلر يشير في كتابه إلى بعض الموضوعات التي يعتبرها معروفة للقارئ، وكان عليّ أن أوضح تلك الموضوعات لمن يقرأها بعد ما يقرب من قرن من الزمان. وقد تصادف أن بدأت في ترجمة هذا الكتاب الهام بعد دراستي لتاريخ الحرب العالمية الأولى في مراجع عديدة باللغتين الإنجليزية والعربية، وقد ساعدني ذلك على فهم كثير مما قد يبدو غامضاً لقارئ لا يعرف تاريخ تلك الفترة التي تحدث عنها هتلر بالتفصيل، كما استفدت من ذلك أيضاً في إعداد هوامش هذا الكتاب.

كتب هتلر الجزء الأول من كتاب "كفاحي" وهو سجين في قلعة في بافاريا. والأحداث التي ذكرها هتلر في هذا الكتاب تساعدنا على فهم سبب سجنه. فقد عاش هتلر في مرحلة ذابت ألمانيا فيها أكبر الإهانات، وجاء ذلك بعد أقل من قرن من واقعة تقطيع أوصال الإمبراطورية الألمانية على يد نابليون، وتمكن الجنود الفرنسيين من احتلال كامل للأراضي الألمانية.

وفي عام 1923م غزت القوات الفرنسية ألمانيا واحتلت إقليم "الور" وعدة مدن في حوض نهر الراين. وكان ذلك انتهاكاً واضحاً للقانون الدولي احتج عليه الدبلوماسيون البريطانيون في ذلك الوقت. ولم يكن الألمان قادرين على الدفاع عن أنفسهم، وذلك بسبب نزع سلاحهم طبقاً لمعاهدة فرساي التي وقعت في نهاية الحرب العالمية الأولى. وقد جعل ذلك ألمانيا في موقف شديد الحرج، وذلك لأن فرنسا أطلقت حملة دعائية تطالب في الوقت نفسه بفصل الراين عن ألمانيا وإنشاء دولة الراين المستقلة.

وانهالت الأموال لرشوة المحرضين على هذه الفكرة وفي الوقت نفسه قامت عدة حركات تطالب بانفصال بافاريا وإقامة مملكة كاثوليكية فيها، على أن يكون ذلك تحت

إشراف فرنسا، مثلما حدث من قبل في عام 1805م عندما نصب نابليون "ماكسيميليان" ملكاً على بافاريا.

وتنامت الحركة الانفصالية في حوض الراين لدرجة أن بعض الدبلوماسيين الألمان البارزين أيدوها وذلك بحجة أن انفصالها سيساعد ألمانيا على مطالبة فرنسا بالتعويضات.

كما ذهب الحركة الانفصالية في بافاريا إلى ما هو أبعد من ذلك، وكان لها معانٍ أعمق. فانفصال بافاريا وقيام دولة كاثوليكية فيها لابد أن يتلوه اتحاد مع النمسا الكاثوليكية وقد يكون ذلك تحت قيادة ملك من عائلة "هابسبرج". وبهذا تنشأ دولة كاثوليكية تمتد من حوض الراين في بافاريا والنمسا إلى وادي الدانوب وتكون تحت حماية عسكرية وسياسية فرنسية. وهذا الحلم يبدو خيلاً اليوم لكنه كان معقولاً جداً في ذلك الوقت. وكان ذلك يعني عزل ألمانيا تماماً، وكان ذلك هو ما تسعى إليه الدبلوماسية الفرنسية. وقد يكون هذا الحلم غريباً على كل من لم يعاصر الفترة التي كتب فيها هتلر هذا الكتاب.

وفي مطلع عام 1923م كانت الحركة الانفصالية في بافاريا على وشك أن تصبح حقيقة واقعة. حيث توقف الجنرال "فون لوسو" القائد العام في بافاريا عن تلقي الأوامر من برلين وأصبح العلم الألماني نادر الوجود في بافاريا. وقرر رئيس وزراء بافاريا إعلان استقلال بافاريا عن الجمهورية الألمانية. وقد حدد لذلك موعداً (9 نوفمبر عام 1923م) وهو يصادف الذكرى الخامسة لتأسيس الجمهورية الألمانية (تأسست في 9 نوفمبر عام 1918م)⁽¹⁾.

تزعّم هتلر حركة مضادة، فقد حرك كتائبه العسكرية حول ميونخ وأعد لإقامة تظاهرة قومية وسانده "لودندورف". وظن هتلر أن وجود "لودندورف" قائد الحرب العالمية وهيئته سيكون كافياً لكسب ولاء الجيش.

ثم أعلن عن إقامة اجتماع في مساء يوم الثامن من نوفمبر، وحضرته الجمعيات الوطنية البافارية ورئيس الوزراء "الدكتور فون كير". وبدأ رئيس الوزراء في قراءة الإعلان الرسمي الذي يعلن استقلال بافاريا وانفصالها عن الجمهورية. وأثناء قراءة الإعلان دخل هتلر القاعة وتبعه لودندورف وانفض الاجتماع.

وفي اليوم التالي نزلت القوات النازية إلى الشارع للتظاهر من أجل اتحاد الوطن. وسارت القوات في صفوف منتظمة بقيادة هتلر ولودندورف. وعندما وصلت الحشود إلى أحد الميادين الرئيسية في المدينة فتح الجيش النار عليهم، فمات ستة عشر من الجنود

(1) أشار هتلر إلى قيام تلك الثورة في ألمانيا في العديد من المواضع في هذا الكتاب على اعتبار أنها كارثة، ولم يعتبر هتلر قادة الثورة والحكومات التي جاءت بها أفضل من العهد الملكي على الإطلاق.

المشاركين في المسيرة فوراً، ومات اثنان آخران متأثرين بالجراح، كما أصيب عدد آخر. وسقط هتلر على الأرض وأصيب في عظام العنق بينما استمر لودندورف في السير إلى أن وصل إلى المتاريس التي يطلق الجيش نيرانه من خلفها، ولم يستطع جندي منهم أن يصوب سلاحه تجاه قائده "لودندورف".

ألقي القبض على هتلر ورفاقه وسُجن في قلعة لاندزبرج. وفي يوم 26 فبراير عام 1924م مُثل هتلر أمام محكمة الشعب في ميونخ، وحكم عليه بالسجن في القلعة لمدة خمسة أعوام، كما حكم على عدد من رفاقه بمدد مختلفة. أعيد هتلر إلى سجن القلعة وظل هناك حتى يوم 20 ديسمبر من نفس العام عندما أطلق سراحه. وبذلك يكون إجمالي فترات سجن هتلر هي ثلاثة عشر شهراً كتب خلالها الجزء الأول من هذا الكتاب: "كفاحي".

فإذا علمنا كل ذلك، فلنا أن نتخيل الضغط النفسي الذي كان هتلر يعاني منه أثناء كتابة الجزء الأول من الكتاب. لذلك فقد استخدم كلمات قاسية عن الفرنسيين وعن القادة الألمانين القدامى ونواب البرلمان وعن اليهود وغيرهم ممن انتقدتهم في ذلك الجزء. وقد كتب هتلر الجزء الثاني من هذا الكتاب بعد إطلاق سراحه وبعد جلاء الفرنسيين. وبذلك يتضح للقارئ أن جزئي الكتاب قد كتب قبل بدء الحرب العالمية الثانية بسنوات كثيرة، فقد طبع الكتاب بجزئيه وبيعت نسخه في أوائل الثلاثينيات من القرن الماضي. لذلك لا يجب أن يتعجب القارئ أن الكتاب يشير إلى الحرب العالمية الأولى (1914-1918م) بكلمة "الحرب العالمية" فقط، فلم تكن الحرب العالمية الثانية قد بدأت بعد، لذلك فقد كانت الحرب العالمية الأولى لا تزال تسمى "الحرب العالمية" فقط.

وقد استخدم هتلر في كتابه لغة حماسية قوية تتفق مع ما اشتهر به من خطابة تثير قلوب الجماهير من حوله، لكنه كان يصبغ كل القضايا التي تناولها في كتابه هذا برأيه الخاص الذي يعتبره حقيقة مسلماً بها، ويبدو أنه كان يدرك أن هذا الأمر قد يكون موضع نقد عند صدور الكتاب، لذلك كان يضرب العديد من الأمثلة في كثير من المواقف ليؤكد كلامه.

وهناك أفكار أساسية سائدة كانت تفرض نفسها على كتاب "كفاحي" ومنها محاولات هتلر لكشف ألقنة اليهود ومعارضته لنظام الأغلبية البرلمانية وكرهه لتجار السياسة وغيرها من موضوعات فرضت نفسها على قلمه في غير موضع من هذا الكتاب. كما تحدث هتلر عن طائفة من الناس استخدم في وصفهم عدة تعبيرات مثل: دعاة السلام، محبي السلام، الاستسلاميين، لكنه كان يقصد دائماً من يحبون اللجوء إلى الطرق السلمية

في كل الأمور حتى وإن كانت مهينة ومذلة أي أنه لم يقصد بكل هذه التعبيرات محبي السلام الحقيقي، أي السلام والكرامة.

كما كان هتتر يؤمن برقي الجنس الآري وتميزه على بقية أجناس العالم وقد ناقش ذلك في الكتاب في مواضع كثيرة، وكان يرى أن الحفاظ على هذا الجنس وبقائه نقياً وبلا اختلاط مع الأجناس الأخرى يؤدي إلى قوة الشعب الألماني والشعوب الأوروبية. وهذا واضح أيضاً في مواضع متعددة من الكتاب.

وقد طبع كتاب "كفاحي" عدة طبعات أثناء فترة حكم هتتر، ويقال: إن طبعاته التجارية وصلت إلى 5200000 نسخة وأن هتتر جنى من ورائها ما يعادل ثلاثة ملايين دولار، كما أن الكتاب كان يوزع في عهد هتتر على كل المواليد وكل المقبلين على الزواج وكل المحالين للتقاعد مجاناً.

أما المنهج الذي وضعته لنفسه في ترجمة هذا الكتاب فقد اعتمد على عدة أمور أساسية أولها ترجمة كامل النص لأن التراجم العربية السابقة كلها اعتمدت على اختصار الكتاب إلى حد كبير مما قد يجعل بعض موضوعاته غير واضحة أو مبتورة. كما التزمت بنسخة واحدة أترجم منها ولا ألجأ إلى غيرها من الترجمات وهي نسخة إنجليزية موثوقة لم تخضع إلى أي تحريف أو تعديل أو اختصار.

وكذلك فقد قمت بنفسه بترجمة كامل الكتاب دون اللجوء إلى مساعدة فريق من المترجمين حتى تكون طريقة الترجمة المتبعة واحدة ويتوحد المصطلح المستخدم في الكتاب فلا يلاحظ القارئ أي اختلاف في الأسلوب وقد كلفني ذلك التفرغ التام للكتاب لعدة أشهر متتالية. وأخيراً فقد اتبعت أسلوب ترجمة معاني الفقرات دون اختصار وليس الترجمة الحرفية التي لا يلتزم بها سوى المترجم الآلي الذي لا يملك عقلاً فتأتي ركيكة أو غير مفهومة على الإطلاق في أغلب الأحيان.

وها هو ذا كتاب "كفاحي" من تأليف أدولف هتتر أضعه كاملاً ولأول مرة بلغة الضاد بين يدي القارئ العربي في كل مكان وأتمنى أن ينال عملي هذا استحسانه.

والله الموفق ..،،

أكرم مؤمن

akram_momen@hotmail.com



هتلر في سطور :

1889	20 أبريل - ولد أدولف هتلر في مدينة برونو
1907	فشل هتلر في دخول كلية الفنون
1909-1913	هتلر يعيش حياة بائسة في فيينا
1914-1918	هتلر يشارك في الحرب العالمية الأولى التي انتهت بهزيمة ألمانيا
1919	هتلر ينضم إلى حركة سياسية أصبحت فيما بعد حزب العمال الألماني
1920	تأسيس الحزب النازي
1921	انتخاب هتلر رئيساً للحزب
1924	محاكمة هتلر وسجنه في قلعة لاندزبرج
1924	هتلر يؤلف الجزء الأول من كتاب "كفاحي" في السجن
1924	إطلاق سراح هتلر (في شهر ديسمبر)
1930	وصول الحزب النازي إلى السلطة في ألمانيا
1933	هتلر يصبح مستشاراً لألمانيا
1939	بداية الحرب العالمية الثانية
1945	نهاية الحرب العالمية الثانية بهزيمة ألمانيا وانتحار هتلر في 30 أبريل



نهاية هتلر :

كانت أسباب سقوط هتلر كثيرة، ومنها الخيانة ومحاولات الاغتيال التي وصلت إلى ثلاث محاولات في نفس العام (عام 1944م)، وقد أدت تلك المحاولات إلى اشتداد مرضه، مما دعاه إلى تناول العديد من الأدوية وجعل من حوله وهو في مخبئه السري تحت الأرض يصفونه بأنه كان صاحب الوجه ومرتخي الكتفين ومرتعش اليدين وهزيل البدن.

وفي نهاية الحرب العالمية الثانية وبعد انقلاب الموازين وتعثر الألمان، ظل هتلر في برلين وأعلن أنه لن يتخلى أبداً عنها، وقد اختبأ هو ورفاقه في مخابئ سري تحت الأرض وذلك لأن طائرات الحلفاء كانت تقصف برلين على مدار الساعة. وفي 13 إبريل 1945م ارتفعت معنويات هتلر ومن معه بخبر موت الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت، لكن سرعان ما بدأت المعنويات تهبط مرة أخرى مع وصول أخبار اقتراب قوات الحلفاء من برلين.

وفي 29 إبريل كتب هتلر وصيته وذكر فيها تعيين كارل دوينتز خليفة له في حكم ألمانيا النازية من بعده، وأعلن في نفس اليوم أنه تزوج من إيفا براون التي ساندته طوال هذه الفترة العصيبة.

وفي اليوم التالي، استيقظ هتلر وراح يحيي رفاقه وحرسه الخاص، ثم دخل جناحه في الساعة الثالثة ظهراً، وفي تمام الساعة الثالثة وخمس عشرة دقيقة قتل هتلر كلبه المفضل بلوندي ثم انتحر بإطلاق النار على نفسه، وانتحرت زوجته بتناول السم.



كفاحي



أدولف هتـلر

ترجمه إلى اللغة العربية
وقدم له وعلق عليه :

أكرم مؤمن

مقدمة المؤلف

في يوم الأول من أبريل عام 1924م بدأت تنفيذ الحكم باعتقالي في قلعة لاندزبرج، وذلك بعد صدور الحكم علي من محكمة الشعب في ميونخ في ذلك الوقت.

وبعد سنوات طويلة من العمل بلا انقطاع أصبح من الممكن بالنسبة لي أن أبدأ عملاً طلبه مني كثير من الناس وشعرت أنه ضروري ومفيد للحزب. لذلك فقد قررت أن أخصص كتاباً من جزئين ليس فقط لأشرح فيه أهداف حركتنا ولكن كي أوضح تطورها أيضاً. فهناك الكثير مما يمكننا أن نتعلمه من هذا الكتاب أكثر من أي بحث مذهبي آخر.

وسوف يتيح ذلك لي الفرصة أيضاً لأتمكن من وصف مراحل حياتي، وهذا الوصف ضروري لتوضيح جزئي الكتاب وكشف الأساطير المختلفة التي نسجتها الصحافة اليهودية حولي.

وهذا الكتاب لا أوجهه للأجانب ولكن لأعضاء الحركة⁽¹⁾ الذين يؤمنون بها ويريدون دراستها بتمعن. فأنا أعرف أن قليلاً من الناس تجذبهم الكلمة المكتوبة عن الكلمة المسموعة، وأن كل الحركات العظيمة على وجه هذه الأرض مدينة بتطورها للمتحدثين العظام وليس للكتاب العظام.

لكن وعلى أي حال، فإن الدفاع عن أي عقيدة ومبادئها الأساسية لابد أن يكون مكتوباً. وأتمنى أن يكون هذا الكتاب بجزئيه لبنة أساهم بها في عمل كبير.

أدولف هتлер

قلعة لاندزبرج

(1) يقصد الحركة الاشتراكية القومية التي تزعمها وتحولت بعد ذلك إلى حزب سياسي.

ذكريات



الفصل الأول

في بيت إسرنج



من حسن الطالع أنني ولدت في مدينة برونאו. فهذه المدينة الصغيرة الواقعة على خط الحدود بين دولتين يبدو أن توحيدهما - على الأقل بالنسبة لجيل الشباب - مهمة يجب علينا أن نخصص لها حياتنا وأن نستخدم كل الطرق الممكنة لتحقيق ذلك.

فلا بد من عودة أراضي النمسا الألمانية إلى ألمانيا العظيمة. وهذا ليس له أي علاقة بالحسابات الاقتصادية مهما كانت. لا ... لا. هذه الوحدة لا بد أن تحدث حتى لو أدت إلى تحيز اقتصادي أو إلى مساوئ اقتصادية. فشعب الدم الواحد لا بد أن ينتمي إلى نفس الدولة. وليس من حق الشعب الألماني أن يفكر في سياسة استعمارية قبل أن يوحد جميع أفرادها في دولة واحدة. وعندما تحتوي حدود الدولة الألمانية على جميع أبناء الأمة وتجد أنها غير قادرة على توفير سبل المعيشة لهم تظهر حاجة الشعب في الحصول على أراضٍ أجنبية. ويكون المحراث في ذلك الوقت هو السيف، وتكون آلام الحرب هي المصدر الرئيسي لرزق الأجيال القادمة.

لذلك كانت هذه المدينة الحدودية الصغيرة بالنسبة لي رمزاً لمهمة كبرى. وهي أيضاً تشير من جهة أخرى إلى درس يمكن تطبيقه حتى يومنا هذا. فمنذ ما يزيد على مئة عام كانت هذه البقعة المنعزلة مسرحاً لمأساة مؤسفة أثرت على الأمة الألمانية بالكامل وستذكر إلى الأبد في دوريات تسجيل التاريخ الألماني على أقل تقدير.

ففي الوقت الذي تعرض فيه مسقط رأسي إلى إهانة كبرى قُتل بائع كتب يسمى "جوناث بالم" وهو وطني قوي ومعاد للفرنسيين، وقد قتل لأنه يحب ألمانيا بشدة. فقد رفض أن يفصح عن أسماء زملائه أو رؤسائه الذين قاموا بأعمال المقاومة. وقد حدث نفس الشيء مع "ليو شلاجتر"، فكلاهما كان متهماً أمام الفرنسيين. وكلاهما ضحى بنفسه ولم يفصح "ليو شلاجتر" عن أسماء المقاومين. وقد توصل الفرنسيون إلى المقاومين، لكن "ليو شلاجتر" تحمل غالب المسؤولية فنال حكماً بالإعدام بينما نال باقي المقاومين أحكاماً متفاوتة بالسجن.

❖ | أبي.. وأمي..

وفي هذه المدينة الصغيرة المليئة بذكرى الشهداء الألمان، المدينة ذات الدم البافاري والحكم النمساوي، نشأ والدي خلال نهاية القرن الماضي. كان والدي موظفاً مدنياً يقوم بعمله بإخلاص شديد. وكانت أمي ترعى شؤون البيت، وقد كرست حياتها لرعاية أطفالها بحب وإخلاص. لكن ذاكرتي لا تحتفظ بالكثير من الذكريات عن تلك المرحلة، وذلك لأن والدي اضطر إلى مغادرة تلك المدينة الحدودية التي أحببتها بعد عدة سنوات، وعمل بوظيفة جديدة بمكتب للبريد في باسو، وبذلك أصبحنا في ألمانيا فعلاً.

وكان من المعتاد بالنسبة للموظف المدني النمساوي في ذلك الوقت أن ينتقل بصفة دورية من وظيفة إلى أخرى. لذلك فقد انتقل أبي للعمل في ليز بعد فترة وجيزة من عمله في باسو، وهناك استقال واستعان بمعاشه لمواجهة متطلبات الحياة. لكن هذا لم يكن يعني أن الرجل العجوز قد توقف عن العمل.

كان أبي ابن رجل فقير يسكن في كوخ، وبينما هو فتى صغير شعر بالملل وغادر مدينته. وعندما بلغ الثالثة عشر فقط من عمره حزم أمتعته وابتعد عن مدينته. وبالرغم من أحاديث القرويين المحبطة، فقد اتجه إلى فيينا ليتعلم حرفة هناك، وكان ذلك في عام 50 من القرن الماضي. وقد كانت تجربة قاسية، فقد قرر أبي أن يترك وطنه ويواجه المجهول. ولم يكن في جيبه وقتئذ سوى ثلاثة جيلدرات. وعندما وصل إلى سن السابعة عشر كان قد تعلم حرفة وتمرس فيها إلا أنه لم يكن راضياً، بل على العكس تماماً، فقد أدى التراجع الاقتصادي المستمر في تلك الفترة والشقاء والحاجة المستمرين إلى تأييد قراره بالتوقف عن العمل الحرفي والسعي إلى ما هو أفضل. وقد كان يعتقد وهو صبي أن راعي الأبرشية في مدينته هو أقصى ما يمكن أن يصل إليه الإنسان من مناصب. لكن المدينة الكبيرة وسعت مداركه فأصبح يعتبر أن المسؤولين الحكوميين هم أصحاب أعلى

المناصب. لذلك فقد بدأ الشاب ابن السبعة عشر عاماً - الذي مرسته الحياة فبدا كما لو كان كبيراً في السن - حلمه الخاص وتمسك به حتى تمكن من تنفيذه، فقد أصبح موظفاً مدنياً. وقد تمكن من ذلك وهو في سن الثالثة والعشرين. وبذلك حافظ على الوعد الذي قطعه على نفسه وهو فتى فقير بالأ يعود إلى قريته قبل أن يحقق ذاته.

لقد حقق ما كان يريد، لكنه عندما عاد إلى القرية لم يتذكره أحد فقد تركها وهو فتى صغير، بل إن القرية نفسها أصبحت غريبة بالنسبة له.

لكن والذي كان قد تجاوز السادسة والخمسين وترك عمله، ولم يستطع البقاء عاطلاً ولو ليوم واحد. فاشترى مزرعة متاخمة لمدينة "لامباخ" التجارية شمال النمسا وقام بزراعتها بنفسه.

وهكذا وبعد عمر طويل قضاه في مهنته عاد أبي إلى الحياة التي عاشها والده.

❖ مواهب متعددة.. وأحاديث حماسية..

وفي تلك الفترة بدأت تتكون عندي مبادئ الخاصة، فقد قضيت أوقاتاً طويلة وأنا أتجول في أماكن فسيحة في طريقي إلى المدرسة كما أنني اختلطت مع أشرس الأطفال مما سبب لأمي متاعب كثيرة. وقد أدى ذلك كله إلى عكس الأوضاع تماماً فأصبحت أحب البقاء في البيت، فلم أفكر أبداً في اختيار مكان ما لقضاء الإجازة، لكنني كنت في الوقت نفسه لا أتعاطف مع أبي في الطريقة التي يمارس بها عمله. وأعتقد أن موهبة فطرية بدأت في ذلك الوقت في التطور عندي وهي موهبة الحديث والتي صقلت وتشكلت من خلال أحاديثي الحماسية مع زملائي. وقد أصبحت قائد مجموعة تتلقى العلم بسهولة في المدرسة لكنها كانت صعبة الإدارة. وكنت أتدرب على الغناء في دير كنيسة "لامباخ" في أوقات فراغي، وهذا ما أدى إلى تبوئي لمكانة جيدة جعلتني مبهوراً جداً بالطقوس الكنسية، ولم يكن هناك ما هو أسمى بالنسبة لي من النظر إلى رئيس الدير والذي يمثل أعلى النماذج المثالية للبشر التي تستحق أن نسعى للوصول إليها. وكان نفس الأمر قد حدث لأبي وهو لا يزال صبياً عندما شاهد كاهن كنيسة القرية. لكن يبدو أنني كنت أعتقد ذلك لوقت قصير، حيث لم تؤد نزاعات فترة الشباب مع أبي إلى أن يقدر قيمة المواهب الخطابية من ابنه فهي تبشر بالعمل الذي ينوي الاتجاه إليه. ولذلك لم يستطع أن يفهم أفكار الصبية التي كانت تملأ رأسي في ذلك الوقت. وقد شعر أبي بالقلق لهذا التناقض في شخصيتي.

﴿ قراءتي المفضلة: الشؤون العسكرية.. ﴾

وفي الحقيقة لم تدم هذه المرحلة الانتقالية طويلاً، بل تركت مكانها لآمال أفضل منها تناسب طبيعتي. فبعد البحث في كتب أبي صادف أن وقع في يدي مطبوعات عن موضوعات عسكرية. وكان أحد تلك الموضوعات يتحدث عن الصراع العسكري الفرنسي الألماني وحرب 1870-1871م. وكان هذا العمل يتكون من جزئين من الدوريات المصورة التي تعود إلى تلك الفترة. وقد أصبحت قراءتي المفضلة. وبعد فترة قصيرة بدأ هذا الصراع يأخذ مكانه في عقلي. ومنذ ذلك الوقت أصبحت أكثر اهتماماً وتحمساً لكل ما له علاقة بالحرب أو الأمور العسكرية.

لكن هذه القصة عن الحرب الفرنسية الألمانية كان لها مغزاها الخاص عندي من ناحية أخرى. فلأول مرة بدأ السؤال يطرح نفسه - حتى وإن كان غير واضح - فما هو الفارق بين الألمان الذين خاضوا تلك الحرب وغيرهم من الألمان؟ ولماذا لم تشارك فيها النمسا أيضاً؟ ولماذا لم يشارك أبي وغيره في هذا الصراع؟ ألسنا جميعاً ننتمي إلى هذا الوطن؟

وكانت هذه هي المرة الأولى التي شغلت فيها تلك المشكلة عقلي الصغير. وبناء على ما توصلت إليه من إجابات عن تلك الأسئلة كان لزاماً عليّ أن أقبل بالواقع بالرغم من الحقد الدفين لأن كل الألمان لا يستظلون بمظلة إمبراطورية بسمارك. وكان هذا أمراً لا أستطيع فهمه.

﴿ أبي يريدني أن أصبح موظفاً عمومياً.. ﴾

أتخذ قرار بضرورة أن أتعلم. فبعد أن فكر أبي في الأمر ككل وفي مزاجي المتقلب بصفة خاصة قرر أن المواد التقليدية التي تدرس في المدارس العامة غير مناسبة لمواهي الطبيعية ورأى أن المدارس غير التقليدية⁽¹⁾ تناسبني أكثر. فقد كانت موهبتي الواضحة في الرسم جلية أمام عيني، وكان يرى أن الرسم هو أحد المواد المهمة في التعليم الألماني. وربما يكون تذكره للطريق الصعب الذي مر به قد ساهم في اعتباره للدراسة التقليدية غير عملية مما جعله لا يثمنها كثيراً. وكانت ذاكرته تحتفظ بفكرة أن ولده لابد أن يكون مسئولاً بالحكومة. فقد قرر في داخله أن أسلك هذا الطريق. تسببت الصعوبات التي مر بها والدي في طريق حياته العملية إلى التغالي في تقييم ما حققه، فقد جاء ذلك نتيجة كفاح

(1) المدارس غير التقليدية هي تلك المدارس التي كانت تهتم في ذلك الوقت بالحرف والفنون.

وتعب شديدين. كما أن افتخار الرجل العصامي قد دفعه إلى ضرورة أن يسلك ولده نفس الطريق وأن يصل إلى منصب أعلى إن أمكن. وذلك بالإضافة إلى أنه شعر أن ما قام به في حياته من عمل قد جعله في مكانة تيسر نجاح ابنه في نفس الطريق. لم يكن يفكر أبداً أنني يمكن أن أرفض ما يعتبره كل شيء في الحياة بالنسبة له. فقد كان قرار أبي واضحاً وبسيطاً وملزماً - من وجهة نظره. فرجل يمثل هذه الطبيعة، وبعد أن أصبح مستبداً بفضل كل ما مر به من خبرات صعبة في الحياة لا يمكن أن يسمح لفتى بلا خبرة ولا مسؤولية أن يختار عمله. فالتعامل مع ما يخص مستقبل الأبناء أمر حساس ومهم وجزء كبير من مسؤولية الأبوين، وهذا أمر بالطبع يتعارض مع ما شعرت به من واجب علي أن أقوم به. لذلك كان لابد من أن يحدث غير ما يتمناه أبي.

فقد وجدت نفسي مدفوعاً للمعارضة لأول مرة في حياتي وكان عمري في ذلك الوقت أحد عشر عاماً. وكنت لا أهتم بمدى صعوبة وعناد والدي الذي وضع خطته وحدد آراءه وبدأ في التنفيذ. فلم أكن أقل عناداً في رفض تلك الأفكار التي أوليها اهتماماً قليلاً أو لا أوليها أي اهتمام على الإطلاق.

❖ | لن أكون موظفاً مدنياً:

لم يفلح أي قدر من التحفيز أو التهديد بعظائم الأمور في توقي عن تلك المعارضة. فلن أصبح موظفاً رسمياً بالدولة تحت أي ظرف. وقد أدت كل محاولات أبي لكي يحبيني في هذا العمل بتصوير ما كان عليه أثناء وظيفته إلى مزيد من المعارضة من جانبي. فقد كنت أصاب بالغثيان عندما أشعر بأنني سألتصق بمقعد خلف مكتب في يوم ما. فهذا أمر كنت أكرهه في ذلك الوقت، فكيف لي أن أقضي بقية عمري في ملء استثمارات وأوراق رسمية.

ولنا أن نتصور الأفكار التي تأتي في عقل صبي لا يمكن وصفه سوى أنه "صبي طيب" بكل معنى الكلمة. فقد كانت الواجبات المدرسية السهلة جداً تسمح لي بأن أقضي وقتاً في الهواء الطلق أكثر من الوقت الذي أقضيه داخل البيت. والآن وعندما يستفحص خصومي السياسيون حياتي بإمعان ويصلون إلى أيام صباي فإنهم يتمسكون بتعبيرات مثل "تلك الخدع الشائنة التي اعتاد "هتلر" عليها وهو صغير". وأنا أشكر السماء لأنني أتذكر تلك الأيام السعيدة وأجد فيها ما ينعش ذاكرتي. فقد كانت الحقول والغابات هي المسرح الذي خضت فيه كل نزاعاتي.

فحتى انضمامي إلى مدرسة غير تقليدية لم يغير طبيعتي في قضاء الوقت. لكن لدي الآن معركة أخرى أخوضها.

وبما أن خطة أبي لكي يجعل مني موظفاً حكومياً قد تناقضت مع رغباتي الواضحة، فقد كان النزاع لا يزال محتماً. وكنت أكنم آرائي الشخصية وبالتالي أتجنب النزاعات الدائمة المتكررة. فقد كان قرارى الشخصى بعدم العمل كموظف حكومى كافياً فى ذلك الوقت لكي يستريح عقلى تماماً. وقد تمسكت بهذا الأمر بعناد شديد. لكن الموقف ازداد صعوبة عندما أصبح عندي خطتي الخاصة وكان لابد أن أقدمها لأبى كاقترح معارض. وقد حدث ذلك عندما كنت فى الثانية عشر من عمري. ولكنى لا أستطيع أن أتذكر الآن كيف حدث ذلك بالضبط. لكنى قررت فى يوم من الأيام أن أكون رساماً. فقد كان مما لا شك فيه أننى أحب الرسم وهذا من بين الأسباب التى جعلت والدى يرسلنى إلى مدرسة غير تقليدية. لكنه لم يعتقد أبداً أن تنمو تلك الموهبة إلى درجة تجعلنى أحترف الرسم. وعلى العكس مما توقعت تماماً، فعندما جددت رفضى للخطة المفضلة لأبى والخاصة بمستقبلى، سألتنى أبى لأول مرة ماذا أريد أن أكون، فكان ردى الطبيعى الذى سبق أن أعددته تلقائياً. سكت أبى لبرهة، ثم تعجب قائلاً: "رسام؟"

يبدو أن أبى ظن أن بعقلي شيئاً ما، وأن عليه ألا يأخذ كلماتى مأخذ الجد أو أنه لم يفهم كلماتى. لكن عندما شرحت فكرتى له ولاحظ مدى جديتى رفض الفكرة بحزم كما هو معروف عنه. وجاء قراره بسيطاً وواضحاً بحيث لن يغيره أى شيء حتى وإن كانت طبيعتى تميل إليه.

قال الأب: "فنان ... لن يكون ذلك طوال حياتى." لكن الابن كان قد ورث بعضاً من عناد والده بالإضافة إلى صفات أخرى خاصة به، لذلك فقد كان جوابى بنفس القدر من الحماس. لكنه جواب يقول العكس تماماً. وهنا وصل الصراع بيننا إلى مأزق، فلن يتخلى أبى عن إصراره وأنا كذلك لن أتخلى عن عنادى.

ومن الطبيعى ألا يكون الموقف الناتج عن ذلك موقفاً ممتعاً. فقد كان الرجل الكهل قلقاً وكذلك كنت أنا بالرغم من حبي له. وقد منعني والدى من أن أحلم بأي أمل فى احتراف مهنة الرسم. لكنى تقدمت خطوة إلى الأمام وصرحت بأننى لن أدرس أى شيء آخر سوى الفن. وتوتر الموقف أكثر بسبب هذا التصريح، لذلك قرر الشيخ أن يمارس سلطاته الأبوية ويفرضها بأي ثمن. وهذا أدى بي إلى اتباع أسلوب الصمت الحذر، لكنى بدأت تنفيذ تهديدي. فقد أدركت أنه عندما يلاحظ والدى أننى لا أحرص أى تقدم فى المدرسة غير التقليدية فسوف يضطر إلى أن يتركنى أمارس المهنة التى أحببتها.

❖ | المعنى الحقيقي للتاريخ..

ولا أعرف إذا ما كانت حساباتي صحيحة أم لا. لكن كان من الواضح أنني فشلت في إحراز أي تقدم في المدرسة. فقد كنت أدرس المواد التي أحبها فقط وخاصة تلك المواد التي شعرت بأنها ستكون مفيدة لي في عملي كرسام في المستقبل. وكنت أهجر تماماً كل ما يبدو لي غير هام بناء على هذه الفكرة. وكانت درجاتي المدرسية على النقيض ما بين منخفضة جداً في بعض المواد ومرتفعة جداً في البعض الآخر وذلك بناء على اهتمامي بمواد دون سواها. فقد كان من الممكن أن نقرأ تقديراتي على التوالي هكذا : جيد جداً، ممتاز، ثم متوسط أو أقل من متوسط في مواد أخرى. وكانت المواد التي أحبها هي الجغرافيا والتاريخ بصفة عامة وكانت تلك المادتان هما أحب المواد إلي وكنت الأول على فصلي فيهما.

وعندما أنظر إلى الخلف بعد كل تلك السنين وأحكم على تلك التجربة أتوصل إلى حقيقتين هامتين تتجليان بوضوح أمامي وهما :

الأولى: لقد أصبحت مؤمناً بقوميتي.

والثانية: لقد تعلمت وفهمت المعنى الحقيقي للتاريخ.

❖ | صراع من أجل اللغة الألمانية..

فقد كانت النمسا القديمة دولة متعددة القوميات. وفي تلك الأيام لم يستطع مواطنو الإمبراطورية الألمانية فهم تلك الحقيقة من خلال الحياة اليومية في هذه الدولة. فبعد النصر الساحق ومرور الجيوش المنتصرة في الحرب الفرنسية الألمانية أصبح الألمان في الدولة الألمانية ينفرون من الألمان الموجودين خارج حدود الأرض الألمانية وذلك لأنهم لم يقدروا الألمان حق قدرهم ولم يحرصوا على ذلك.

لم يدرك الألمان في داخل الدولة أنه إن لم يكن الألمان في النمسا من أفضل الأعراق فلم يكن لهم أن يحصلوا على هويتهم وينتموا إلى إمبراطورية ذات 52 مليون فرد، وقد نشأت نفس الفكرة في داخل ألمانيا نفسها بالرغم من أنها كانت فكرة خاطئة. فقد ظن الناس أن النمسا ما هي إلا دولة ألمانية مستقلة. وقد أدى هذا الخطأ إلى نتائج رهيبية، لكنها كانت شهادة جيدة جداً لشخصية عشرة ملايين ألماني يعيشون في ذلك الجزء الشرقي. حيث كان قلة من الألمان في داخل الدولة يعرفون بذلك الصراع المريع الذي يمر به هؤلاء الألمان في الشرق يومياً حتى يحافظوا على اللغة الألمانية والمدارس الألمانية والشخصية الألمانية. واليوم فقط وبعد أن خرج عدة ملايين من أخوتنا خارج

الدولة - حيث اضطرتهم الظروف للعيش تحت إمرة أجنبي وهم يحملون بالوطن الأم الذي تتوجه إليه كل أحلامهم وآمالهم - فقد أدركوا أهمية القتال دفاعاً عن العرق الذي ينتمون إليه. وأخيراً ربما يستطيع الناس هنا وهناك كبح عظمة الروح الألمانية التي سادت في الشرق الألماني القديم ومكنت هؤلاء الناس - الذين عاشوا معتمدين بالكامل على مواردهم - من الدفاع عن الإمبراطورية من جهة الشرق لعدة قرون فحافظوا على اللغة الألمانية من خلال حرب عصابات لاستنزاف قوى العدو. وكانت الإمبراطورية الألمانية في ذلك الوقت مهتمة بتوسيع مستعمراتها وغير عابئة بما يسال من دماء وضحايا يموتون على بواباتها.

وما كان يحدث دائماً في كل مكان وفي كل صراع حدث أيضاً في الصراع من أجل اللغة والذي استمر في النمسا القديمة. وكان هناك ثلاث جماعات: المحاربون والحراس والخونة وكان هذا التصنيف يحدث حتى في المدارس. وكان من المعتاد أن يشتد الهجوم القاسي حول المدارس حيث توجد رياض الأطفال التي تنشأ فيها البذور الجديدة التي كانوا يريدون فصلها عن سبقتهم من أجيال. لذلك كانت الأهداف التكتيكية للقتال تنصب على الطفل وكانت أول صيحة موجهة للطفل وتقول: "يا شباب ألمانيا، لا تنسوا أنكم ألمان. تذكري أيتها البنت الصغيرة أنك ستصبحين في يوم ما أمّاً ألمانية".

إن من يعرفون طبع الصغار يدركون مدى إصغائهم وفهمهم لتلك الصيحات. وقد قاد الشباب الكفاح بأشكال متعددة، وبطرقهم وأسلحتهم المختلفة. فقد رفضوا غناء الأغاني غير الألمانية. وكلما بُذل مجهود لكسبهم وإخراجهم من التحالف الألماني، ظهر منهم أبطال ألمان عظماء. فقد جندوا أنفسهم لشراء كل ما يؤكل حتى يوفروا كل بنس لجبهة القتال عند الكبار. كما كانوا على وعي تام بكل ما يقوله أي معلم من غير الألمان إن كان يتناقض مع الوحدة الوطنية. كما ارتدوا الشعارات الممنوعة التي تدل على عرقهم الأصل، وكانوا سعداء بما وقع عليهم من عقاب من جراء ذلك حتى وإن كان عقاباً بدنياً. لقد كانوا أمثلة في الولاء يتعلم منها الكبار درساً.

❖ الولاء للشعب..

وهكذا وفي سن مبكرة اشتركت في الصراع الذي أشعله الوطنيون ضد بعضهم البعض في النمسا القديمة. وعندما عقدت اجتماعات اتحاد حدود شرق ألمانيا واتحاد المدارس ارتدنا ألوان الحنطة والأسود والأحمر والذهبي للتعبير عن ولائنا. وكنا نحبي بعضنا البعض بكلمة: "تحياتي" وبدلاً من السلام الوطني النمساوي غنينا السلام الوطني الألماني بالرغم من التحذيرات والعقوبات. وعلى ذلك تلقى الشباب تعليماً سياسياً في حين كان

المواطنون جميعاً -أو لنقل- جزء كبير من أبناء الدولة لا يعرف كثيراً عن جنسيته بالإضافة إلى اللغة. وبالطبع لم أكن أنتمي أو أراهن على كلا الفريقين. فبعد وقت قصير أصبحت "وطنياً ألمانياً حريصاً" وكان هذا المصطلح يختلف عن معناه الحالي عندما يوصف به من ينتمون إلى الأحزاب اليوم.

وقد كبرت في هذا الاتجاه الوطني بسرعة وعندما أصبحت في سن الخامسة عشر أدركت أن الفرق بين وطنية السلالة الحاكمة والوطنية القومية يعتمد على مفهوم كلمة "الشعب" لذلك كان ولائي التام لذلك النوع الأخير.

وقد يكون هذا الاختيار غير مبرر بالمرة عند هؤلاء الذين لم يكلفوا أنفسهم عناء دراسة الأحوال الداخلية التي انتشرت في عهد إمبراطورية هابسبرج.

❖ | مدرس التاريخ هو الذي يحدد مستقبل حياتي..

وكان تاريخ العالم يدرس في مادة التاريخ في المدارس النمساوية، حيث إن تاريخ النمسا كان محدوداً جداً. وقد ارتبط قدر هذه الدولة بشدة ببقاء ألمانيا وتطورها ككل. لذلك فهناك قسم من التاريخ الألماني والتاريخ النمساوي لا يمكن تصوره. فعندما صُنّف الشعب الألماني في دولتين بدأ تقسيمه.

كانت هناك إمبراطورية لا تزال قائمة في فيينا وكانت تبدو كآثار قديمة وغامضة أكثر منها ارتباط ملحوظ مع ذلك الاتحاد.

وعندما تحطمت دولة هابسبرج في عام 1918م تعالت صيحات الألمان النمساويين من أجل الاتحاد مع ألمانيا الأم. كان ذلك هو صوت رغبة جماعية تعيش في قلوب الشعب وتسعى للعودة إلى البلد الأم التي لا يمكن أن تتسى. لكن هذه الرغبة العامة لا يمكن أن نفسرها بمجرد ربطها بما درسه الفرد النمساوي في مادة التاريخ. فهناك معين لا ينضب وخاصة في أوقات الدمار والنسيان، وكان صوت هذه الرغبة الهادئ يذكر بالماضي ويطلب من الشعب أن ينظر إلى ما هو أبعد من الحرب الحالية التي تسعى إلى مستقبل جديد.

إن تدريس تاريخ العالم فيما يسمى بالمدارس المتوسطة لا يزال غير كاف. فقليل من المدرسين يدركون أن الغرض من تدريس التاريخ ليس مجرد تذكّر وحفظ التواريخ والأحداث. فالطالب لا يجب أن يحفظ التاريخ المحدد لموقعة ما أو تاريخ ميلاد أحد القادة أو غيره، ولا يريد أبداً أن يعرف متى ارتدى صاحب الإمبراطورية التي يعيش فيها التاج. فهي كلها أمور غير هامة بالمرة.

إن دراسة التاريخ تعني البحث عن القوى التي أدت إلى تلك النتائج التي نراها أمام أعيننا وتعتبر أحداثاً تاريخية. إن فن القراءة والدراسة ينبع من تذكر كل ما هو ضروري ونسيان كل ما هو غير ضروري.

ربما تأثر مستقبل حياتي كله بمدرس التاريخ الذي تعلمت على يديه، فقد كان يعلم - مثل قلة آخرين - كيف يمكن لتلك النظرة للتاريخ أن تسود في مجال التدريس والاختبارات. إنه المعلم دكتور/ ليوبولد بوتش الذي تعلمت على يديه في لينز. فقد كان تجسيدا نموذجياً للصفات الضرورية للمعلم طبقاً للنظرية التي شرحتها سابقاً. فقد كان رجلاً كبيراً في السن له طبيعة حادة لكنه طيب القلب. وقد كان متحدثاً لبقاً وكان قادراً على نقل حماسه إلينا. وحتى اليوم لا يمكنني أن أتذكر هذه الشخصية المحترمة دون تأثر، فهو شخصية أخذتنا بما لها من تحمس من حاضرها إلى الماضي فكنا ننسى الحاضر تماماً ونسمح لأنفسنا بالعيش في الماضي كما لو كنا مسحورين. كان يغوص بنا في عتمة وضباب آلاف السنين فيحول ذاكرة التاريخ التي تتحدث عن الماضي الميت إلى واقع حي. وكنا نتقد حماسه عندما نستمع إليه، وأحياناً كنا نتأثر حتى تسيل دموعنا.

وكان من حسن الحظ أن الأستاذ لم يكن قادراً فقط على توضيح الماضي بأمثلة من الحاضر ولكنه كان يستخرج أيضاً دروساً للحاضر من ذلك الماضي. فقد كان يفهم المشكلات اليومية جيداً أكثر من أي فرد آخر، وكانت مشكلات تحرير عقولنا في ذلك الوقت. وهذا التوهج الوطني الذي لاحظناه بطريقتنا كصغار كان يستخدمه كوسيلة للتعليم وذلك بقدر استطاعته وحسه الفكاهي. وكان بهذه الطريقة يحافظ على نظام الفصل ويظل ممسكاً بزمام انتباهنا أكثر مما لو استخدم أي طريقة أخرى.

❖ عائلة هابسبرج.. وخيانة الشعب الألماني..

ولأنني تعلمت على يد مثل هذا المعلم أصبح التاريخ مادتي المفضلة. وكنتيجة طبيعية لذلك - ولكن بدون علم مدرسي - أصبحت متمرداً صغيراً. فمن ذا الذي يمكنه أن يدرس التاريخ الألماني على يد مثل ذلك المعلم ولا يصبح عدواً للدولة التي دمر زعمائها مقدرات الأمة الألمانية؟ وأخيراً.. كيف يمكن للفرد أن يظل تابعاً مخلصاً لإمبراطورية عائلة هابسبرج، وهي عائلة أثبتت تصرفاتها في الماضي والحاضر أنها دائمة الاستعداد لخيانة آمال الشعب الألماني من أجل أي مصالح شخصية حقيرة. ألم نر ونحن صغار أن عائلة هابسبرج لم ولن تحب الشعب الألماني؟

انعكس ما درسناه في التاريخ عن السياسة التي اتبعتها عائلة هابسبرج على خبراتنا في الحياة اليومية. فقد غزا سُم الأعراق الأجنبية الشعب في الشمال والجنوب، إلى أن

أصبحت فيينا نفسها مدينة غير ألمانية. فقد فضل البيت الإمبراطوري التشيك على الألمان في كل المناسبات. وفي الحقيقة فإن يد العدالة المطلقة والجزاء الذي لا يرحم هما ما ألقي بعدو الألمنة الأول في النمسا وهو الأرشيديوق فرانز فردناند، فسقط برصاصات كان هو أول من شجعها⁽¹⁾. وبسبب ما قام به من أعمال بدأت من أعلى واتجهت إلى الأسفل تحولت النمسا إلى دولة مستعبدة.

كانت الأعباء التي ألقيت على كاهل الشعب الألماني كبيرة جداً ، وكانت التضحيات التي قدمها الشعب بالمال والدم ثقيلة للغاية.

وكل ذي عقل يمكنه أن يعرف أن كل ذلك قد ضاع هباء. وما أثر فينا بمرارة شديدة هو إدراكنا أن النظام بالكامل كان يستتر خلف الاتحاد مع ألمانيا، بينما العمل على ألمنة الإمبراطورية النمساوية القديمة يزداد بطناً ويختفي تماماً. وكان يبدو أحياناً ممنوعاً في داخل ألمانيا نفسها. كما سعى من ينافقون عائلة هابسبرج إلى جعل الشعب يعتقد ظاهرياً أن النمسا لا تزال دولة ألمانية مما زاد من الشعور بكرهية العائلة الإمبراطورية وأثار روح التمرد والغضب.

لكن - وفي داخل الإمبراطورية الألمانية ذاتها - رأى قادتها في ذلك الوقت أن كل هذا ليس له أي معنى. وأصبحوا كالعُميان، فهم يجلسون بجانب جثة متحللة عليها كل علامات التعفن، ويرون أنها علامات لبدء حياة جديدة. ومن هذا الاتحاد التعس بين الإمبراطورية الألمانية والدولة النمساوية التخيلية بدأت بذرة الحرب العالمية وأيضاً علامات الانهيار الأخير.

وفيما يلي من أوراق هذا الكتاب سأغوص في أعماق المشكلة. وكيفي هنا أن أقول: إنني في سنوات شبابي الأولى توصلت إلى نتائج لم أتخل عنها أبداً. فقد أصبحت في الحقيقة مقتنعاً جداً بهذه النتائج كلما مرت السنون. وكانت هذه النتائج كالتالي: إن حل الإمبراطورية النمساوية هو الشرط الأول للدفاع عن ألمانيا وعليه فإن الإحساس القومي يتضامن مع مناصرة الأسرة الحاكمة. وأخيراً وقبل كل شيء، فإن عائلة هابسبرج كتب عليها أن تجلب سوء الحظ للأمة الألمانية.

وكنتيجة منطقية لكل تلك الثوابت ثار في داخلي شعور قوي بالحب لوطني الألماني النمساوي وكرهية عميقة للدولة النمساوية المنفصلة.

نمت نوعية التفكير التاريخي بداخلي أثناء دراسة التاريخ في المدرسة ولم تفارقني بعد

(1) ولي عهد النمسا وهذا الحادث يعتبر الشرارة الأولى التي أشعلت نيران الحرب العالمية عام 1914م. وقد اغتيل على يد صربي متعصب في مدينة سراييفو عاصمة البوسنة والهرسك.

ذلك. فقد أصبح تاريخ العالم مصدراً لا ينضب لفهم الأحداث التاريخية الجارية وهي ما يعرف بالسياسة. ولذلك فأنا لم أكن أتعلم السياسة ولكني تركت السياسة تعلمني.

❖ لا للوظيفة الحكومية..

وقد كنت ثائراً في مجال السياسة بنفس قدر تمردني في مجال الفن. وكان في العاصمة المحلية لشمال النمسا في ذلك الوقت مسرح لا بأس به - إلى حد ما. وكان يعرض عليه كل شيء تقريباً. وقد شاهدت فيه مسرحية "وليم تل" عندما كنت في الثانية عشرة من عمري. وكانت تلك أولى تجاربي مع المسرح وبعد عدة أشهر حضرت أول أوبرا سمعتها في حياتي. وكنت منبهراً بها. وقد كان حماسي لكاتبها بلا حدود. مما دفعني أن أسمع له أوبرات أخريات مرات ومرات. وأنا اليوم أعتبر نفسي محظوظاً لأن تلك العروض الراقية في تلك المدينة الصغيرة مهدت لي الطريق وجعلت من الممكن لي أن أحضر عروضاً أفضل فيما بعد.

لكن كل ذلك ساعد على تعميق كرهني الشديد للعمل الذي اختاره لي والدي، وقد أصبحت تلك الكراهية قوية بصفة خاصة عندما يشعر الشاب الريفي بالضيق، وهي مرحلة أصابتي بالكثير من الآلام. فأصبحت أكثر اقتناعاً بأنني لن أكون سعيداً إذا عملت كموظف حكومي. والآن وبعد أن علمت المدرسة غير التقليدية بميلي للرسم فإن ما أطمح إليه قد أوشك قريباً. ولم تفلح اللعنات والتهديدات في تغيير هذا الطموح. فأنا أريد أن أصبح رساماً وليس هناك قوة في العالم يمكنها أن تجبرني على أن أكون موظفاً مدنياً. لكن الملمح الوحيد الغريب في ذلك الموقف هو أنني كلما أكبر في العمر يزداد اهتمامي بالفن المعماري. وقد اعتبرت أن تلك الحقيقة ما هي إلا امتداد طبيعي لحبي للرسم وشعرت بالسرور في داخلي لأن مجال حبي للفن قد توسع. ولم أكن أظن أن ذلك سيتغير أبداً في يوم من الأيام.

إلا أن مسألة عملي قد حسمت بأسرع مما كنت أتوقع.

فقد رحل عنا والدي فجأة وأنا في سن الثالثة عشر، وكان لا يزال بصحة جيدة حينما أنهت سكتة قلبية حياته بلا ألم فتركنا جميعاً نشعر بالحرمان. وقد كان جُل ما يحلم به هو أن يساعد ابنه في الحصول على وظيفة، حتى يحميني مما كان يتعرض له من محن حادة مر بها. لكنه علم في النهاية أن كل هذا السعي يضيع هباء. ولم يكن هو نفسه يدرك أنه يغرس بذور مستقبل جديد لم يتوقعه أي منا في ذلك الوقت. وفي البداية لم يتغير أي شيء.

فقد شعرت أُمي أن من واجبها أن تستكمل تعليمي طبقاً لآمال أبي، وذلك يعني أنها

ستعديني لوظيفة مدنية. أما من جهتي أنا فقد كنت قد قررت بحزم أشد من قبل أنني لن أصبح موظفاً حكومياً تحت أي ظرف من الظروف. وكانت المناهج وطرق التدريس في المرحلة المتوسطة بعيدة جداً عن طموحاتي فأصبحت غير مكترث بالدراسة تماماً. وجاء المرض ليساعدني ويحدد مصيري خلال عدة أسابيع قليلة، حيث انتهى ذلك الصراع العائلي. فقد تأثرت رثائي بشدة من المرض ونصح الطبيب أمي بشدة ألا توظفني في أي عمل مكتبي تحت أي ظرف من الظروف. وقد أمر الطبيب بضرورة اهتمامي بالدراسة في المدرسة غير التقليدية لمدة عام على الأقل. وكنت أحلم بتلك الفترة سراً. وكنت أسعى إلى ذلك بشدة. والآن تحقق الحلم بضربة واحدة تقريباً. فبعد أن تأثرت أمي بمرضني وافقت أن أترك المدرسة غير التقليدية وألتحق بأكاديمية فنية.

وكانت تلك هي أيامي السعيدة التي ظننتها مجرد أحلام، لكنها ظلت أحلاماً إلى الأبد. فقد وضع موت أمي بعد ذلك بعامين نهاية قاسية لكل مشروعاتي الجميلة. فقد عانت من مرض طويل وموجع لم يسمح بأي قدر من الأمل في الشفاء منذ البداية. وبالرغم من أن موتها كان متوقعاً إلا أنه جاء كضربة قاسية بالنسبة لي. فقد كنت أحترم أبي، لكني كنت أحب أمي، وكان عليّ أن أقرر بسرعة بسبب الفقر والحياة القاسية، فقد نضبت كل موارد الأسرة بالكامل تقريباً أثناء مرض أمي الحاد. ولم يكن المعاش الذي قرر لي كيتيم كافياً لتكاليف ضروريات الحياة. وكان عليّ أن أكسب ما أقتات به بطريقة ما أو بأخرى.

جمعت ثيابي في حقيبة سفر، وبعزيمة قوية لا تقهر في داخلي غادرت القرية متجهاً إلى فيينا. وكنت أتمنى أن أتفوق على ما فعله أبي منذ خمسين عاماً. فقد قررت أن أصبح شيئاً ما، لكنني لن أكون موظفاً مدنياً بالتأكيد.





سنوات الغربة والمعاناة في فيينا

تحدد قدرتي في اتجاه واحد بعد وفاة أمي. فأثناء الشهور الأخيرة من مرضها وقبل وفاتها ذهبت إلى فيينا وحضرت اختبار الدخول في أكاديمية الفنون الجميلة. ذهبت مسلحاً بمجموعة كبيرة من لوحاتي وكنت على قناعة بأنني سأخوض الاختبار بكل سهولة. فقد كنت متقدماً بصورة ملحوظة على زملائي في المدرسة غير التقليدية في مادة الرسم، ومنذ ذلك الوقت حققت تقدماً أكثر من عادي في الرسم. لذلك فقد كنت واثقاً من نفسي وفخوراً وسعيداً بما أعتبره نجاحاً مضموناً بلا شك.

ولكن حدث هناك ما لم يكن متوقعاً: فقد بدا لي أنني مؤهل أكثر للرسم التخطيطي وليس تصوير المناظر والأشخاص، وظهرت براعتي هذه خاصة في أفرع الرسم المعماري المتعددة. وكان اهتمامي بالمعمار في ذلك الوقت يتزايد. وقد تقدمت في هذا المجال بخطوات مسرعة خاصة بعد زيارتي الأولى لفيينا والتي استمرت لمدة أسبوعين. وكنت لم أبلغ السادسة عشرة بعد. فقد ذهبت إلى متحف "هوف" لدراسة اللوحات الموجودة في المعرض الفني هناك، لكن المبنى ذاته استحوذ على كل اهتمامي منذ الصباح الباكر وحتى وقت متأخر من الليل، فقضيت غالب وقتي في زيارة المباني العامة المتعددة هناك. وكانت تلك المباني هي ما يلفت انتباهي بصفة رئيسية. فقد وقفت لساعات وساعات أتأمل مباني الأوبرا والبرلمان، وكانت لتلك المشاهد تأثيرها السحري عليّ كما لو كنت أطلع مشهداً من مشاهد ألف ليلة وليلة.

والآن جئت إلى هذه المدينة الجميلة للمرة الثانية، وكنت شغوفاً جداً لسماع نتيجة اختبار الدخول إلا أنني كنت واثقاً في نفس الوقت من أنني سأكون من الناجحين. فقد كنت واثقاً جداً من نجاحي لدرجة أنني عندما سمعت بخبر فشلي نزل عليّ كصاعقة من السماء. لكن الحقيقة كانت أنني فشلت. ذهبت لمقابلة رئيس الأكاديمية وطلبت منه أن يشرح الأسباب التي جعلتهم يرفضوني كطالب في المدرسة العامة للرسم، وهي جزء من الأكاديمية. فقال: إن ما أحضرته معي من رسوم تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن رسم الأشخاص والمناظر لا يناسبني. كما أن نفس الرسوم تشير بوضوح إلى قدراتي في التصميم المعماري. لذلك فلم تكن مدرسة الرسم مناسبة لي بل مدرسة الفن المعماري، وهي أيضاً جزء من الأكاديمية. في البداية كان من المستحيل أن أصدق كيف حدث ذلك، فأنما لم أذهب إلى مدرسة فن معماري قط. ولم أتلق أي دروس في التصميم المعماري.

وعندما غادرت مقر الأكاديمية في قصر "هانس" كنت أشعر بخيبة الأمل. فقد شعرت بعدم التوازن مع نفسي لأول مرة في سن الشباب. وذلك لأن ما سمعته عن قدراتي في السابق يبدو لي الآن كومضات كشفت الازدواجية التي عانيت منها لوقت طويل. لكنني سأكون أكثر دقة بداية من الآن.

اقتنعت خلال أيام أنني يجب أن أكون معمارياً. لكن الطريق صعب للغاية بالطبع، وعلى الآن ألا أهمل بعض تلك المواد التي كنت أهملها وأنا في المدرسة غير التقليدية. وكان من الضروري أن أدرس في المدرسة الفنية للمباني قبل أن أسجل نفسي في دورات المدرسة المعمارية في الأكاديمية. لكن هذه المدرسة كانت تطلب شهادة إنهاء الدراسة المتوسطة ممن يلتحقون بها. وهي شهادة لم أكن قد حصلت عليها. وبهذا أصبح حلمي - بالمقاييس البشرية - في أن أعمل في المجال الفني مستحيلًا.

وبعد وفاة أمي جئت إلى فيينا للمرة الثالثة. وكنت أتوي أن تستمر هذه الزيارة لعدة سنوات. ولأنني سبق لي الذهاب إلى هناك فقد كان بإمكانني أن أستعيد هدوئي وعزمي القديم. فعادت إليّ تقتي بنفسي وبدأت عيناى تركز على هدفي. سأكون معمارياً. فالعقبات التي توضع في طريقنا ليس لمجرد الخوف منها بل من أجل أن نتجاوزها أيضاً. وكنت مصراً على تجاوز تلك العقبات. وكانت صورة والدي في مخيلتي دائماً، فقد صنع نفسه بجهد الخاص ووصل إلى منزلة موظف مدني بالرغم من كونه ريفياً فقيراً وابن صانع أحذية. أما أنا فبدايتي أفضل، كما أن فرص الكفاح أفضل. وفي ذلك الوقت كان نصيبي في الحياة يبدو شاقاً، لكنني أراه اليوم عملاً من أعمال العناية الإلهية الرحيمة. فقد رعايني الله من كل ما يهددني بالدمار وبهذا زادت إرادتي قوة كلما زادت العقبات، وأخيراً انتصرت الإرادة.

وأنا مدين بالفضل لتلك الفترة من حياتي لأنها جعلتني أقوى ومكنتني من أن أكون صلباً كما هو حالي الآن. كما أنني مدين بالفضل أيضاً لأن تلك العقبات جنبتي الحياة الخالية الهادئة إلا من حب أمي، فأبدلتني المحن بأم جديدة. وعلى الرغم من أنني قد تمردت على ذلك القدر فيما بعد باعتباره صعباً للغاية، إلا أنني مدين للفقر والبؤس الذين عانيت منهما فعرفت حقيقة الشعب الذي دافعت عنه فيما بعد.

❖ | خطران على وجود الشعب الألماني:

وقد تفتحت عيناى في تلك الفترة على خطرين، وكنت لا أكاد أعرف اسميهما حتى ذلك اليوم ولا أعرف كيف يكون خطرهما على وجود الشعب الألماني، وهما الماركسية واليهودية.

بالنسبة لكثير من الناس فإن الاسم "فيننا" يعني الحفلات البريئة مرتفعة الأصوات، أي أنها مكان احتفال كبير. لكنها بالنسبة لي - للأسف - كانت تذكرني بفترة من أكثر فترات التعاسة في حياتي. وحتى اليوم فإن مجرد ذكر تلك المدينة يثير الأفكار الكثيرة في عقلي. فقد عشت خمس سنوات في فقر مدقع مثل أهل مدينة "فاكين"⁽¹⁾. خمس سنوات عملت فيها كعامل موسمي أو كرسام لأشياء تافهة، فقد كان عليّ أن أكسب قوت يومي. وكان ذلك القوت هو في الواقع كسرات قليلة غير كافية لمواجهة الجوع الذي كنت أعانيه بصفة دائمة. كان ذلك الجوع هو الحارس الذي يلزمني ويشاركني في كل ما أفعل. فقد كان كل كتاب أشتريه يعني مزيداً من الجوع، وكل زيارة للأوبرا كانت تعني مصاحبة ذلك الرفيق الثقيل لعدة أيام تالية. وكنت عادة أحاول مقاومة ذلك الصديق اللدود. لكنني تعلمت في تلك الفترة أكثر مما تعلمته في أي وقت من قبل. ولم تكن لي أي متع في الحياة سوى دراسة المعمار وزيارات نادرة للأوبرا بالإضافة إلى كتبي.

لذلك فقد قرأت قدراً كبيراً من الكتب وفكرت ملياً فيما قرأت. فقد خصصت كل وقت الفراغ بعد العمل للقراءة فقط. ولذلك وخلال سنوات قليلة استطعت أن أحصل على معارف كثيرة جداً أجدها مفيدة حتى اليوم.

ولكن الأكثر من ذلك هو أنني في تلك السنوات تكونت لدي فكرة عن الحياة وعن العالم وتبلورت في عقلي. وقد أصبحت الأساس الصلب الذي أتصرف بناء عليه في تلك الفترة. ومنذ ذلك الوقت توسعت أساسيات معرفتي بقدر قليل لكنني لم أغير فيها شيئاً.

ولكن وعلى العكس تماماً فأنا اليوم مقتنع تماماً - وبصفة عامة - أن الشباب يبدعون أفكارهم الخلاقة الأساسية التي يقوم عليها فكرهم عندما تلوح لهم أفكار خلاقة. وقد فرقت بين الحكمة التي نصل إليها بتقدم العمر والتي يمكن أن تنتج فقط عن التجارب الكثيرة العميقة التي نمر بها، وبين الإبداع الخلاق للشباب الذي يتفتح من خلال أفكار خصبة دون أن تكون لهم القدرة على تطبيقها فوراً، وذلك لجزالتها الشديدة. وهؤلاء الشباب هم من يقيمون البيوت فتصبح صروحاً ضخمة، لكن حكمة الكبار أيضاً هي ما يمهد للعبقريّة الخلاقة لهؤلاء الشباب.

✦ الطبقة المتوسطة والطبقة العاملة..

لا تختلف الحياة التي قضيتها مع والدي في كثير من حياة كثيرين آخرين. فقد كنت أنظر إلى الأمام دون التفكير في الغد، ولم تكن هناك أي مشكلة اجتماعية عليّ أن

(1) ذكرهم "هومير" في "الأوديسة" وكانوا يحبون الحياة الرغدة أكثر من العمل أي أنهم كانوا طفيليين.

أواجهها. وهؤلاء الذين قضيت معهم طفولتي ينتمون إلى الطبقة المتوسطة الصغيرة. ولذلك فقد كان لهم عالمهم الخاص الذي لا يختلط مع عالم العمال الحرفيين. وإن كان هذا يبدو غريباً للوهلة الأولى، لكن الفاصل بين الطبقتين المختلفتين اقتصادياً - وذلك لأن الطبقة المتوسطة أعلى اقتصادياً بدرجة واضحة مقارنة بطبقة العمال - كان أعمق مما يظن الناس. ويمكن سبب ذلك الفرق والذي يمكن أن نسميه عداً في الخوف الذي يسيطر على أي فئة اجتماعية تتجاوز مستوى العمال اليدويين. وهو خوف من احتمال الانتكاس والعودة إلى الوضع السابق أو على الأقل التراجع إلى تصنيف العمال. بالإضافة إلى أن هناك ما ينفر من تذكر ثقافة الفقر في الطبقة الدنيا والطريقة الخسنة التي يتعاملون بها مع بعضهم البعض. لذلك فإن من يقف على الدرجة الأولى من درجات السلم الاجتماعي يجد أنه من المؤلم أن يضطر إلى أي علاقة مع ذلك المستوى الثقافي والمعيشي الذي تركه من قبل.

لكن كان من المعتاد أن يجد الذين ينتمون إلى ما يمكن أن نسميه الطبقة العليا سهولة التعامل مع من هم من أقل الطبقات اجتماعياً والاختلاط بهم. وذلك لأن المتطلع هو كل من يرفع نفسه بمجهوده الخاص إلى طبقة اجتماعية أعلى من الطبقة التي كان ينتمي إليها. وفي هذه الحالة فإن الصراع العنيف الذي يمر به عادة ما يدمر ما لديه من تعاطف. إن كفاحه من أجل البقاء يقتل إحساسه ببؤس من تركهم وراء ظهره.

ومن هنا كان القدر رحيماً بي. فقد دفعتني الظروف إلى العودة إلى ذلك المجتمع الفقير غير الآمن اقتصادياً الذي كان والدي قد رفع نفسه منه خلال سنوات عمره المبكرة. وهكذا اختفت من حياتي الرغبة في التعلم التي تملكنتني كشاب ينتمي إلى الطبقة المتوسطة. فأنا الآن ولأول مرة أدرك أنني أعرف الرجال وأعرف كيف أفرق بين المظهر الأجوف أو السلوك الهمجي وبين الطبيعة الداخلية الحقيقية للناس الذين يبدوون كذلك.

❖ فيينا البراقة.. مدينة المتناقضات!

ومع بداية القرن كانت فيينا قد أخذت موقعها بين المدن التي تعاني من أحوال اجتماعية ظالمة. فالثراء الفاحش والفقر المدقع البغيض يختلطان في تضاد واضح. ففي وسط المدينة وداخلها يشعر الفرد بنبض الإمبراطورية التي تجمع 52 مليون نسمة بكل ما في ذلك من بهاء والقصر الإمبراطوري يتوسطه كمغناطيس يجذب الثروات والعقول الذكية من كل أنحاء الإمبراطورية. وقد ساعد على زيادة ذلك الجذب سياسة أسرة هابسبرج الحاكمة التي كانت تجمع كل شيء لصالحها وبجوارها.

كانت سياسة المركزية هذه ضرورية لجمع كل شتات تلك الأعراق المختلفة. لكن نتيجتها كانت تجمع عدد كبير جداً من كبار المسؤولين في المدينة، فأصبحت المدينة فجأة هي العاصمة ومقر إقامة الإمبراطور.

لكن فيينا لم تكن مجرد مركز سياسي وثقافي للإمبراطورية، فقد كانت أيضاً مركزاً تجارياً. وبالإضافة إلى حشود من كبار ضباط الجيش وكبار المسؤولين والفنانين والعلماء كان هناك أيضاً الكثير من العمال. فقد تواجه الفقر المدقع مع ثراء الطبقة الأرستقراطية وطبقة التجار وجهاً لوجه. كان آلاف العاطلين يتسكعون أمام القصور، وفي شوارع النمسا القديمة كان المشردون يتجمعون معاً في الأماكن المظلمة القذرة عند القنوات.

ولم تكن هناك أي مدينة ألمانية أخرى يمكن أن تدرس فيها تلك المشكلة أفضل من فيينا. لكن يجب أن أحذر هنا من الأوهام التي تقول بأن هذه المشكلة "سوف تُدرس" من أعلى لأسفل. وذلك لأن من لم يلدغ من الأفعى لا يعرف كيف يكون سمها. ومحاولات دراسة تلك المشكلة بأي طريقة أخرى ستؤدي إلى حديث لا معنى له وأوهام عاطفية. وكلاهما ضار. فالأول لن يستطيع الوصول إلى أصل المشكلة والثاني لا معنى له بالكامل. وأنا لا أعرف أيهما أسوأ: أن نتجاهل التوتر الاجتماعي كما يفعل أغلبية الذين يحظون بنصيب وافر من الحظ والذين ارتفعوا إلى طبقات اجتماعية من خلال عملهم الجاد. أو أن نكون مثل هؤلاء الذين يتصرفون بتواضع ويتجملون بادعاء أنهم يتعاطفون مع الشعب. هؤلاء مذبذبون أكثر مما يتصورون فهم ينقصهم الدافع لكي يفهموا القضية. لذلك فهم يفاجأون بأن الضمير الاجتماعي الذي يعتزون به بلا أي نتائج عملية، بل إنه يعبر عن كثير من النوايا الطيبة فقط، ثم بعد ذلك نقول: إن الشعب لا يعترف بالجميل.

لا يدرك مثل هؤلاء الناس أنه لا يوجد هنا مكان للأنشطة الاجتماعية فقط وأن الاعتراف بالجميل أو الشكر أمر غير متوقع. فالأمر لا يتعلق بتوزيع امتيازات على الإطلاق ولكنه مجرد تطبيق للعدالة. وقد كنت محمياً من إغراءات دراسة القضايا الاجتماعية بالطريقة التي سبق أن أوضحتها، وذلك لسبب بسيط وهو أنني دُفعت عنوة للحياة بين الناس الذين طحنهم الفقر. وعلى ذلك لم يكن المطلوب مني أن أدرس القضية من الخارج فقد كنت أجد الآثار في نفسي.

وعندما أحاول الآن أن أتذكر توالي انطباعاتي خلال تلك الفترة، فأنا أفعل ذلك فقط من خلال نظرة شاملة تقريباً. وسأصف هنا الانطباعات الهامة فقط والتي أثرت على شخصياً وكانت تهزني بشدة. وسوف أذكر دروساً قليلة تعلمتها من التجربة التي مررت بها في تلك الفترة.

❖ | البحث عن عمل:

في تلك الفترة لم يكن من السهل الحصول على عمل، ولذلك اضطرت لأن أبحث عن عمل ليس كحرفي ماهر ولكن كعمالة زائدة مستعدة لتنفيذ أي عمل يسند إليها بالصدفة، وذلك لمجرد أن أجد قوت يومي.

وهكذا وجدت نفسي مثل كثير من المهاجرين الأوروبيين الذي تكلفوا عناء السفر بإرادة حديدية وذلك من أجل إنشاء وجود جديد في العالم الجديد والحصول على بيت جديد لكل منهم. وقد تجردوا من كل تحيز طبقي أو مهني ومن كل بيئة وتقاليد، فقدموا أي خدمة تفتح أبوابها أمامهم وهم يزدادون إيماناً يوماً بعد يوم بالفكرة القائلة بأن العمل الشريف لا يشين صاحبه بأي حال، ولا يهم نوع ذلك العمل. وهكذا وضعت قلمي فيما اعتبرته عالماً جديداً، فهو عالم جديد حقاً، ثم اندفعت إلى الأمام.

وسرعان ما اكتشفت أن هناك عملاً متوافراً دائماً، لكنني تعلمت أيضاً أن فقدان هذا العمل يمكن أن يحدث بسرعة وسهولة. وكان عدم التأكد من القدرة على الحصول على قوت يومي هو أكثر ما يشعرني بالحزن في تلك الحياة الجديدة التي اقتحمتها في سن مبكرة.

وعلى الرغم من أن العامل الماهر نادراً ما يظل عاطلاً عن العمل في الشوارع مثل العمال غير المهرة، فهو لا يلقي نفس المصير. وهو لا يواجه الجوع نتيجة للبطالة وعدم حاجة سوق العمل إلى العمال، إلا أن الإغلاق والإضراب يحرمان العامل الماهر من فرصة كسب قوت يومه. وهنا أيضاً كان عنصر عدم تأكد الفرد من كسب قوت يومه هو أكثر ما يسود في النظام الاقتصادي ككل.

ينجذب الشاب الريف الذي يهاجر إلى المدينة الكبيرة إلى ما يوصف بأنه عمل سهل لساعات قليلة - وقد يكون ذلك حقيقة. وقد ينتشي لوميض الأضواء التي تنتشر عبر المدن الكبرى. وكالعادة السائدة في الريف، فهو يفضل أن يكون في عمل ذي دخل ثابت يومي، كما أنه لا يترك عمله القديم من أجل عمل جديد إلا عندما يكون متأكداً منه. وبما أن هناك ندرة شديدة في عمال الزراعة فإن احتمال البقاء بدون عمل في الريف لفترة طويلة نادر جداً. فمن الخطأ أن نفترض أن الشاب الذي ترك الريف إلى المدينة مصنوع من مادة أخرى غير تلك المادة الجيدة التي صنع منها أولئك الذي يظلون في قراهم ويعملون في الأرض. بالعكس تماماً، فقد أظهرت التجارب أن الأفضل والأوفر صحة هم من يهاجرون وليس العكس.

❖ | مدينة تحطم الرجال..

ومن بين هؤلاء المهاجرين كان المهاجرون إلى أمريكا والفتيان الخدم في الريف الذين

يقررون ترك قراهم والهجرة إلى المدينة الكبيرة التي يعيشون فيها غرباء. حيث يكون الواحد منهم مستعداً للمخاطرة فيما هو غير مضمون. وهو في الغالب قد جاء إلى المدينة وفي جيبه مبلغ بسيط من المال، لكنه لا يفقد الأمل في الأيام الأولى إذا لم يحالفه الحظ ويجد عملاً. فإذا ما وجد عملاً ثم يفقده بعد فترة قصيرة تزداد الحالة سوءاً. فإيجاد عمل جديد صعب جداً خاصة في الشتاء وأحياناً يكون مستحيلًا. حيث إن الحياة تكون محتملة خلال الأسابيع القليلة الأولى، حيث يمكنه استلام إعانة البطالة من اتحاد العمال التابع له وبهذا يمكنه أن يستمر. لكنه عندما ينفق آخر ما معه من مال ويتوقف اتحاد العمال عن إمداده بالمال بسبب طول فترة البطالة يبدأ التوتر الحقيقي. فهو في هذه الحالة يتسكع هنا وهناك وهو جائع. كما قد يرهن أو يبيع آخر ما يملك من حاجيات. ثم تبدو ملابسه رثة بعد ذلك، وكلما زاد فقره واتضح ذلك من مظهره، انحدر إلى مستوى اجتماعي أقل ثم يختلط مع أولئك الذين يسممون أفكاره بالإضافة إلى الحالة الصحية السيئة جداً. ثم لا يجد مأوى بعد ذلك، وإذا كان ذلك في الشتاء يكون متوتراً للغاية. ثم يحصل أخيراً على عمل. لكن القصة القديمة تعيد نفسها. ويتكرر الموقف مرة أخرى. ومرة ثالثة وربما تكون تلك المرة هي الأسوأ، ثم يبدأ في عدم الاكتراث رويداً رويداً بتلك المأساة التي لا تنتهي. وأخيراً يعتاد على تكرارها. وسرعان ما يتحول الرجل المعتاد على العمل الشاق إلى التعود على ذلك الوضع ويتحول تدريجياً إلى أداة في أيدي البعض ممن هم معدومو الضمير الذين يستثمرونه من أجل أهدافهم الدنيئة. وعادة ما يطرد من العمل دون ارتكاب أي خطأ، لذلك فهو الآن لا يبالي ما إذا كان الإضراب الذي يشارك فيه يهدف إلى تأمينه مادياً أم إلى تدمير الدولة والنظام الاجتماعي بالكامل والحضارة نفسها. وبالرغم من أن طبيعته لا تميل إلى الخروج في إضراب إلا أنه يشارك فيه بسبب عدم المبالاة التامة.

لقد رأيت هذا يحدث أمام عيني في آلاف الحالات. وكلما رأيت حالات منها، كرهت هذه المدينة العملاقة التي تجذب الرجال إلى صدرها حتى تحطمهم بلا رحمة في النهاية. وعندما يصلون يجدون أنفسهم لا يزالون على صلة بأهاليهم في الريف، فإذا ما استمروا بالمدينة انقطعت هذه الصلة.

❖ | الإسراف في أيام الرخاء..

وقد تعمقت في حياة المدينة العاصمة كثيراً لدرجة أنني لاحظت مفعول هذه التجربة على شخصي وشعرت بآثارها على نفسي. وكان هناك ما هو واضح جداً أمام عيني وهو ذلك التغير المفاجئ من البطالة إلى العمل ثم العكس، لذلك فإن التقلب المستمر الذي تسببه المكاسب والنفقات يحطم في النهاية الإحساس بالاقتصاد عند كثير من الناس، كما يبعدهم عن تنظيم الإنفاق بطريقة متعقبة. ثم يعتاد الجسد على التقلب من الشبع إلى الجوع، فنحن نأكل بشراهة في أيام الرخاء ونتضور جوعاً في الأيام السيئة.

وفي الحقيقة أطاح الجوع بكل خطط ترشيد الإنفاق بطريقة منتظمة في الأيام الطيبة حتى نجد ما نقتات به في أيام البطالة. وسبب ذلك هو أن الحرمان الذي يتحملة العامل العاقل لا بد من تعويضه في أحلام يقظة يشاهد فيها العامل نفسه وهو يأكل كميات كبيرة من الطعام مرة أخرى. ويتطور ذلك الحلم فيصبح رغبة عارمة في التخلص من كل ما يكبح النفس عندما يعود العمل والكسب مرة أخرى. ولذلك فبمجرد ما يجد العامل عملاً آخر من جديد ينسى تماماً تنظيم الإنفاق مما يكسبه بل إنه ينفقه إلى آخر بنس لدرجة أنه لا يفكر في الغد. وهذا يؤدي إلى اضطرابات في الميزانية المنزلية الأسبوعية بسبب عدم التنظيم المتعلق للإنفاق. وعندما تحدث الظاهرة التي ذكرتها في البداية⁽¹⁾ يكفي الدخل لنفقات خمسة أيام فقط وليس سبعة وأحياناً يكفي ثلاثة فقط في مراحل متقدمة، ومع تكرار الحالة يكفي الدخل لنفقات يوم واحد فقط، ثم يختفي العامل في إحدى ليالي الاحتفالات.

وعادة ما تكون هناك زوجة وأطفال في القرية. وعادة ما يصابوا بعدوى الإنفاق بنفس الطريقة خاصة إذا كان ذلك الزوج كريماً معهم ويريد أن يفعل كل ما في استطاعته من أجلهم ويحبهم بطريقته الخاصة طبقاً لما تمليه عليه ثقافته. وبالتالي فإن البيت في الريف ينفق دخل الأسبوع في يوم أو يومين أيضاً. فالأسرة تأكل وتشرب معاً طالما أن المال لم ينفد ثم تجوع معاً في نهاية الأسبوع. وتتجول الزوجة هنا وهناك وتتخلص على الجيران وتقترض القليل، ثم تنقل كاهلها بدين قليل لأصحاب المتاجر في محاولة منها أن تستمر أيام تناول الطعام حتى نهاية الأسبوع. وتجلس الأسرة معاً حول طعام الغداء الهزيل على الطاولة، وعادة لا يكون هناك أي شيء يؤكل. وهم ينتظرون يوم تسلم الأجر ويتحدثون عنه ويضعون الخطط. وعندما يكونون جوعى يحلمون بما سيتوافر لديهم. وهكذا يعتاد الأطفال الصغار على البؤس منذ بداية حياتهم.

❖ البؤساء!

وتبلغ المأساة ذروتها عندما يخرج الزوج منذ بداية الأسبوع وتحتج الزوجة بسبب حبها لأطفالها. ثم تبدأ المشكلات والشجار ويعتاد الزوج على الشرب بسبب بعده عن زوجته. فيصبح مخموراً مساء كل يوم سبت. وعلى الزوجة أن تدافع عن وجودها ووجود أطفالها لذلك فهي تطارده من المصنع إلى الحانة حتى تحصل على شلنات قليلة مما كسب من أجر. وعندما يعود أخيراً إلى بيته ربما يوم الأحد أو الإثنين يكون قد أففق آخر شلن في جيبه وآخر بنس، وتتوالى المشاهد المؤلمة، مشاهد تستغيث برحمة الله.

وقد شاهدت مئات الحالات من تلك القصة، في البداية كنت أشمز وأغضب، لكنني فيما

(1) يقصد إسراف العمال في أيام الرخاء وعودتهم للجوع والفقر بعد إنفاق كل ما لديهم من مال.

بعد كنت أعرف القصة التراجيدية بالكامل وأنفهم الأسباب القوية التي أدت إليها. إنهم الضحايا التعساء للظروف الصعبة.

وقد كانت أحوال البيوت سيئة للغاية في ذلك الوقت. فقد عاش عمال فيينا فيما يحيط بها من أماكن مروعة وبائسة. وأنا أرتعد حتى اليوم عندما أتذكر الحجرات الكئيبة التي عاش فيها هؤلاء الناس، وتلك الملاجئ الليلية وأحياء الفقراء والأماكن المظلمة والروائح الكريهة والشرور الكثيرة.

ماذا يمكن أن يحدث لو انقضت حشود من هؤلاء العبيد المحررين من أحيائهم الحقيبة على بقية من يعيشون من أناس في المدينة؟ فهذا العالم الآخر لا يفكر في مثل ذلك الاحتمال. فهم يسمحون لأولئك الناس بالتحرك دونما أي اهتمام بهم وربما دونما أي شك - وذلك لأنهم لا يفهمون الأمر جيداً - في أنه إن عاجلاً أم آجلاً فإن القدر سيقنص منهم إن لم يعالجوا الأمر في وقت مناسب.

واليوم أشكر العناية الإلهية التي أرسلتني إلى مثل تلك المدرسة. فهناك لا أستطيع إهمال الأمور التي لا أجدها ممتعة. وقد حصلت على درس مهم تعلمته في تلك المدرسة.

وحتى لا نياس تماماً ممن وصفتهم من الناس الذين عشت بينهم فإن عليّ أن أطلع على حياتهم من مظهرها الخارجي ثم أتوصل إلى الأسباب التي وصلت بهم إلى تلك الحال. وكان عليّ بعد ذلك أن أستمع إلى كل شيء دون ملل. لأن كل من نشأ في تلك المآسي والصعاب ووسط تلك القذارة والانحطاط لم يكونوا آدميين بل مجرد نتائج سلبية لقوانين فاشلة. وكان في حياتي الخاصة صعوبات منعتني من الإفراط في الشفقة والتعاطف عندما أرى هذا الإنتاج المتدني الناشئ تحت ضغط الظروف القاسية. لا ... فالتعاطف هو الطريق الخاطئ.

❖ طرق الإصلاح..

وفي أثناء تلك الفترة كنت أرى أن هناك طريقة مزدوجة يمكن من خلالها فقط إصلاح تلك الأحوال. وهذه الطريقة هي كالتالي:

أولاً: خلق ظروف أساسية ثابتة للتطور الاجتماعي عن طريق إيجاد إحساس عميق بالمسؤولية الاجتماعية بين عامة الناس.

وثانياً: دمج هذا الإحساس بالمسؤولية الاجتماعية مع عزيمة لا تكل من أجل القضاء على كل بؤر التطفل التي لن تقبل التطور.

وكما أن الطبيعة تعتني بالحفاظ على البراعم الجيدة للأنواع التي لا تزال موجودة

وتتقي الجيد منها حتى تحافظ على بقاء الأنواع. فإن حياة الإنسان أيضاً تخضع لعملية انتقاء صناعية من أجل تحسين الأجيال القادمة، لكنها تفشل في 99% من الحالات، وذلك لأن معالجة المشكلة من جذورها هي أفضل طريق من أجل مستقبل أفضل.

وقد تأكدت بشدة أثناء كفاحي من أجل البقاء في فيينا أن الهدف من كل الأنشطة الاجتماعية لا يجب أن يكون فعل الخير فقط، فهذا أمر سخيف وعديم الفائدة، لكنه يجب أن يكون أيضاً وسيلة لإيجاد طريقة لتقليل العجز في اقتصادنا وحياتنا الثقافية - وهو عجز يؤدي بالضرورة إلى تراجع مستوى الفرد أو أنه يأخذه نحو هذا التراجع على أقل تقدير. وترجع صعوبة استخدام كل الطرق المتاحة حتى تلك الطرق القاسية للقضاء على العداء بين الطبقة العاملة والدولة إلى عدم التأكد من الدوافع والأسباب الحقيقية لتلك الظاهرة المعاصرة. وسبب تلك الحالة من عدم التأكد هو الشعور بالذنب الذي يشعر به كل فرد لأنه شارك في مأساة انحطاط تلك الطبقة الاجتماعية. وذلك لأن هذا الشعور يشل أي جهد يهدف إلى اتخاذ قرار أو فعل حاسم وقاطع. ولأن الناس الذين يخصصهم هذا الأمر متأرجحون، فهم يشعرون بالخوف وغير مقبلين على اتخاذ حتى القرارات الهامة المتعلقة بتحديد مصيرهم. وعندما يكون الفرد مثقلاً باللوم من ضميره في هذا المجال فإنه - وفي هذه الحالة فقط - يثور على حياة الطفيليين ويندفع بكل ما فيه من قوة ليقضي على المشكلة من جذورها.

لكن الدولة الألمانية ليس لديها أي أحساس بالحقوق الاجتماعية أو التشريع الاجتماعي، لذلك كانت غير قادرة على إخفاء تلك التجمعات الضارة بصورة واضحة.

لا أدري ما أكثر ما أفرعني في ذلك الوقت: البؤس الاقتصادي لهؤلاء الزملاء أم عاداتهم وأخلاقياتهم السيئة أم مستواهم الثقافي المتدني.

وكم من مرة ثارت الطبقة المتوسطة عند سماعها ما يجعلها تغار على أخلاقياتها من أحد المتشردين الذين يستحقون الشفقة وهو يقول: إن كل الأمور متساوية بالنسبة له وأنه لا يهمله سواء كان مواطناً ألمانياً أم لا، فكل ما يهمله هو أن يجد ما يجعله يحافظ على جسده وروحه، ويحفظ حياته، وعندئذ يكون في وطنه. لقد احتجوا بشدة ضد هذا الإحساس الضعيف بالوطنية وأعربوا عن فزعهم الشديد من هذا الشعور.

لكن كم من الناس سأل نفسه لماذا يعتبر نفسه أفضل من الآخرين عاطفياً؟ وكم من الناس يعرف أن فخره الطبيعي بأنه مواطن في أمة طيبة ناشئ من عدد لا نهائي من أمثلة صادفته تذكره بعظمة البلد الأم والأمة بكل ما يمكن من طرق فنية وثقافية؟ وكم منهم يدرك أن كبرياء الوطن الأم يعتمد بشدة على إدراك كل تلك المفاهيم؟ وهل تشارك

الطبقة المتوسطة البسطاء من الناس في هذه المعاني النبيلة اللازمة كأساس ضروري للفرد حتى يشعر بالفخر بوطنه ؟

ولا يمكننا هنا أن ننكر أن هناك ظروفاً مماثلة في دول أخرى وأن طبقات العمال في هذه الدول قد حافظت على وطنيتها. وحتى إذا كان الأمر كذلك فإن هذا لا يعتبر مبرراً لإهمالنا لهذا الأمر. لكن الأمر ليس بهذه الصورة. فالتعليم الذي يبالغ في تلقين حب الوطن - كما هو الحال في فرنسا على سبيل المثال - يركز على عظمة فرنسا في كل جوانب "الثقافة" أو كما يقول الفرنسيون "الحضارة". فالتلميذ الفرنسي لا يتعلم الأهداف الإيجابية فقط، بل إن العظمة السياسية والثقافية للدولة موضع اهتمام كبير، لذلك فهو يتعلم تلك المفاهيم بطريقة فعالة جداً.

ومثل هذا النوع من التعليم يلتزم دائماً بالأفكار العامة بشدة بحيث يجب أن تحفر - باستخدام التكرار المستمر إذا لزم الأمر - في أذهان وذاكرة الناس.

وفي حالتنا هذه فإننا - على أي حال - غير مذنبين فقط بما نرتكب من آثام سلبية، لكننا أيضاً نساهم في إفساد ما تعلمه بعض الأفراد في المدرسة، وذلك مثل الفئران التي تمرح في جسد الأمة وتقرض أي ذكريات في قلوب العامة حتى تلك الذكريات التي يخلفها البؤس والشقاء فينا.

﴿ البيئة وانعكاساتها على الأطفال.. ﴾

ولندع القارئ يتخيل الصورة التالية :

هناك مكان للإقامة في قبو، وهذا المكان يتكون من غرفتين رطبتين، وفي هذا المكان يعيش رجل وأسرته وعددهم جميعاً سبعة أشخاص. ولنفترض أن أحد الأطفال هو ولد في الثالثة من عمره. وهذا هو العمر الذي يبدأ الأطفال فيه بإدراك الانطباعات حولهم. وفي حالة ما إذا كان الشخص موهوباً بالفطرة فإن آثار تلك الانطباعات التي يتلقاها في أيامه الأولى تؤثر فيه حتى يصل إلى سن متقدم جداً. والآن، فإن ذلك الضيق في المساحة واكتظاظ هؤلاء البشر لن يؤدي إلى حياة سعيدة. سيكون هناك شجار ونوبات من الغضب. ويمكننا أن نقول: إن هؤلاء الناس يستطيعون العيش مع بعضهم البعض بصعوبة، بل إنهم يعيشون فوق بعضهم البعض. إن سوء التفاهم - الذي يختفي بينهم إن هم عاشوا في بيت رحب يعيش أفرادهم في مساحات كافية لكل منهم - يواجههم هنا ويصبح مصدراً للنزاعات المزمنة. ويظل الموقف محتملاً طالما أن هناك رعاية بقدر ما للأطفال. وحتى في تلك الحالة لا يكف الأطفال عن الشجار مع بعضهم البعض، لكن سرعان ما ينتهي الشجار وينسونه تماماً. وقد يسقط الأبوان في مشاحنات يومية عادة ما

تصل إلى نوع من الغلظة لا يمكن تصوره. لذلك فلا بد لنتائج هذه الأوضاع أن تبدو واضحة على الأطفال فيما بعد. ولابد للفرد أن يكون ذا خبرة في تلك البيئة حتى يمكنه أن يتخيل ما يحدث من اتهامات متبادلة عندما يهين الأب الأم جسدياً ويسيء معاملتها وهو ثمل.

وفي سن السادسة لا يستطيع الطفل أن يتجاهل تلك التفاصيل القذرة التي يجدها الكبار أيضاً مقززة. وبعد أن يصاب المواطن الصغير بسموم سوء الأخلاق ويعاني من سوء التغذية ويمتلئ رأسه بالفاذورات يذهب إلى المدرسة الابتدائية. وهناك يتعلم القراءة والكتابة بصعوبة حيث لا توجد أي فرصة للتعليم في البيت. وعلى العكس تماماً، فإن الأب والأم يتحدثان أمام الأطفال بطريقة منحطة عن المدرس والمدرسة كما أنهما يميلان إلى إهانة المدرس بدلاً من أن يعلما طفلهما كيف يحترم أستاذه وينحني له ويحترم عقله. إن ما يسمعه هذا الصغير في البيت لا يؤدي إلى مزيد من الاحترام لمن هم حوله من البشر. فهو لا يسمع أي كلام طيب عن طبيعة البشر ككل، كما يسمع السباب لكل الهيئات المحيطة به بدءاً من المدرسة وحتى الحكومة. ولا يهم إذا كانت الدولة والنظام الاجتماعي مهتمين بالأمر أو أن يكون ذلك له علاقة بالدين والأخلاق. فهما يهزوان بذلك كله. وعندما يترك الفتى اليافع المدرسة في سن الرابعة عشر، يصبح من الصعب وصف أهم صفاته الشخصية: جهل لا يوصف بكل ما يمكن أن يسمى معرفة حقيقية مع وقاحة ساخرة اجتمعت مع اتجاه أخلاقي مخيف يبدأ في سن مبكرة جداً.

فأي موقف من مواقف الحياة يمكن أن يؤثر على هذا الشخص الذي لا يحترم أي شيء مقدس ولم يمارس أي شيء نبيل، بل على العكس تماماً، فهو معتاد على أحقر الخبرات الإنسانية. هذا الطفل ينشأ على عادة سب أي سلطة في سن الخامسة عشر. وهو أيضاً معتاد على البذاءة وسوء الخلق، وهو لا يفكر في أي شيء يمكن أن يدفعه إلى أشياء راقية. وهكذا يدخل هذا الفتى الصغير مدرسة الحياة.

وهو يتبع نفس نمط الحياة التي عاشها مع والده وهو طفل. فهو يتسكع هنا وهناك ويعود إلى البيت في أي وقت، كما أنه يحرس ذلك القلب المنكسر الذي منحه الحياة. وهو يسب الله (حاشا لله تبارك وتعالى⁽¹⁾) ويسب العالم أجمع وينتهي به المآل إلى إصلاحية للأحداث. وهناك يتلقى الجزء الأخير من ثقافته، ويتعجب نظراؤه من الطبقة المتوسطة من انعدام شعوره الوطني وحماسه!!

(1) كان لابد لي أن أترك العبارة كما هي ليتضح للقارئ مدى سوء الأخلاق والجهل بكل القيم الخلاقية والدينية كما وصفه هنتلر، لكن في نفس الوقت كان عليّ أن أعلن عن اشمزازي من ذلك وارتعادي من مجرد تصوره ورفضني التام له بالطبع.

ويوماً بعد يوم تشهد الطبقة المتوسطة ظاهرة انتشار هذا السم بين الناس من خلال المسرح والسينما والصحافة الصفراء والكتب الداعرة، كما أنهم يندهشون من ذلك المستوى الأخلاقي المؤسف وعدم الاهتمام بعامة الناس. ويبدو أن السينما والصحافة وما في حكمهما من وسائل إعلامية تنقل إلى الأفراد معنى عظمة البلاد بطريقة منفصلة تماماً عما يتلقاه الفرد من تعليم ابتدائي.

أدركت بعد ذلك - بسرعة - ما لم أكن أدركه من قبل. وهو كما يلي :

إن موضوع إصباغ الجنسية على الشعب هو أهم شرط من شروط إقامة مجتمع صحي يمهّد الطريق أمام تعليم الفرد. فعندما تثمر تنشئة الأسرة والتعليم الذي يتلقاه الطالب في المدرسة ويتم نقل المعارف للفرد في مجالات الثقافة والاقتصاد وقبل كل شيء ذلك السمو السياسي لبلده، عندئذ وفي ذلك الوقت فقط يمكنه أن يفخر بأنه مواطن في هذا البلد. فأنا أحارب فقط من أجل ما أحب. وأنا أحب ما أحترمه فقط. ولكي أحترم شيئاً ما لا بد أن يكون لدي بعض المعلومات عنه.

وبمجرد أن استيقظت في داخلي هذه المشكلات الاجتماعية وأثارت اهتمامي، بدأت في دراستها بطريقة أساسية. فتكشّف لي عالم جديد وغير معروف.

❖ | القراءة والرسم حتى الصباح..

وفي عامي 1909-1910م تمكنت من تحسين وضعي لدرجة أنني لم أعد بحاجة للعمل كعامل أجير يومياً لكسب قوتي. فقد أصبحت رساماً للتصميمات ومصوراً بالألوان المائية. وكانت حرفة فقيرة جداً إذا تناولناها من ناحية الدخل، وذلك لأنها كانت تكاد تكفي لضروريات الحياة. لكنها كانت مهمة بالنسبة لي، فهي ذات علاقة بطموحي القديم. بالإضافة إلى أنني لا أكون منهكاً للغاية عندما أعود إلى البيت في المساء مثلاً اعتدت من قبل حينما كنت لا أستطيع مواصلة القراءة وأغط في النوم من التعب فوراً. كما أن حرفتي الحالية تتمشى مع ما أخططه لنفسي في المستقبل. بالإضافة إلى أنني أصبحت المسيطر على كيفية توزيع وقت العمل بطريقة أفضل مما قبل. فكنت أرسم من أجل لقمة العيش وأدرس لأنني أحب الدراسة.

لذلك كنت قادراً على اكتساب المعرفة النظرية حول القضايا الاجتماعية وكان ذلك ضرورة حتمية لاستكمال ما أتعلّمه من تجارب الحياة. وقد درست كل ما وجدت من كتب عن ذلك الموضوع وكنت أتمعن فيما أقرأ بعمق. وأعتقد أن البيئة التي عشت فيها في ذلك الوقت كانت تعتبرني رجلاً غريب الأطوار.

وبالإضافة إلى دراسة الموضوعات الاجتماعية كرسى جهدي لدراسة المعمار. وذلك جنباً إلى جنب مع الموسيقى، فأنا أعتبرها ملكة الفنون. وكانت دراستها بالنسبة لي تعني المتعة وليس العمل. وكنت أستطيع القراءة أو الرسم حتى الساعات الأولى من الصباح دون الإحساس بالتعب. ومع مرور الوقت أصبحت واثقاً من تحقيق حلمي بمستقبل مشرق، حتى وإن كان عليّ أن أنتظر لسنوات طوال حتى يتحقق ذلك الحلم. وكنت على قناعة تامة بأن اسمي ينال شهرة في مجال المعمار.

أما ما كنت أهتم به بقدر كبير - إلى جانب دراستي الاحترافية - فهو كل ما يتعلق بالسياسة وكان ذلك لا يمثل لي أي أهمية كبرى. ولكن على العكس تماماً، فقد كنت أعتبر ذلك الاهتمام بالسياسة مجرد جزء من الواجبات الإجبارية المفروضة على كل من له عقل مفكر. فمن لا يفهم عالم السياسة من حوله ليس له أي حق في النقد أو الشكوى. لذلك كنت مستمرّاً في قراءة الموضوعات السياسية بقدر كبير. لكنها كانت قراءة ذات مغزى مختلف عن غالب ما يحدث مع من يسمون بالـ"مفكرين".

❖ | القراءة الواعية..

فأنا أعرف أناساً يقرأون بلا ملل، كتاباً بعد كتاب، وصفحات تلو الأخرى، لكني لا يمكنني أن أسميهم بالقراء الجيدين. وهم بالطبع على علم بقدر هائل من المعلومات إلا أن عقلهم غير قادر على تقسيم وتصنيف تلك المواد التي جمعوها من الكتب. كما أنهم ليس لديهم القدرة على التفريق بين ما هو مفيد وما هو غير مفيد حتى يستطيعون الاستفادة من المفيد وتجنب ما هو غير مفيد أثناء القراءة. فإن لم تكن قادراً على ذلك فلا فائدة من القراءة. فالقراءة ليست غاية في حد ذاتها بل هي وسيلة للوصول إلى غاية والهدف الرئيسي منها هو دفع المواهب والقدرات التي يمتلكها كل فرد. وعلى ذلك فكل فرد يسعى للحصول على المواد والمعلومات الضرورية لمهنته في الحياة بغض النظر عما إذا كانت تلك المهنة هي المصدر الرئيسي لكسب قوت يومه أو أن تكون مهنة لتحقيق طموح إنساني أعلى. وهذا هو الهدف الأول من القراءة. والهدف الثاني هو الحصول على معرفة عامة بالعالم الذي نعيش فيه. وفي كلتا الحالتين - على أي حال - فإن المعلومات التي يكتسبها الفرد من القراءة لا يجب أن تخزن في الذاكرة طبقاً لطريقة ورودها في فصول الكتاب، بل إن كل معلومة صغيرة يمكن أن نتعامل معها كأنها حجر صغير يضاف إلى لوحة فسيفساء، فيجد مكانه المناسب بين كل القطع الأخرى التي تساهم في خلق صورة العالم في ذهن القارئ. وإن لم يحدث ذلك فإن المعلومات الناتجة عن القراءة ستكون مبعثرة ومختلطة. وهذا الاختلاط لا يعتبر غير مفيد فقط لكنه أيضاً يجعل صاحبه التعس

مزهواً بنفسه. وذلك لأنه يعتبر نفسه رجلاً متعلماً بحق، ويعتقد أنه يعرف شيئاً عن الحياة. كما أنه يعتقد أنه حصل على المعارف، بينما الحقيقة هي أن أي زيادة في تلك المعارف تجذبه أكثر وأكثر بعيداً عن الحياة الواقعية وينتهي به الأمر في أي مصحة أو أن يعمل بالسياسة ويكون نائباً في البرلمان.

ومثل هذا الشخص لا ينجح في تحويل معارفه إلى تجارب عملية عندما تحين الفرصة، وذلك لأن أدواته العقلية غير معدة لتلبية متطلبات الحياة اليومية. فمعارفه مخزنة في عقله مثل نصوص الكتب التي قرأها وبنفس الترتيب الذي قرأ به. فإذا ما أراد القدر يوماً ما أن يستخدم معارف تلك الكتب من أجل غايات عملية محددة فعليه أن يتذكر اسم الكتاب ورقم الصفحة، وذلك لأن هذا الساذج بمفرده لن يكون قادراً على الاستفادة من المعلومة دون الرجوع إليها وتذكر موضعها. فإذا لم يذكر الصفحة التي قرأ فيها هذا الموضوع في وقت مناسب، فإن هذا القارئ المطلع سيجد نفسه في حالة من الضيق واليأس. فببداً في البحث حالات مشابهة وهو نائر جداً، ويصبح من شبه المؤكد أنه سيصل إلى معلومات خاطئة.

فإذا كان هذا الوصف غير دقيق، فكيف لنا أن نفسر المنجزات السياسية التي حققها أبطال البرلمان والذين يشغلون مراكز كبرى في حكومة بلادنا؟ يمكننا أن نعزي هذه الأفعال التي قام بها قادة سياسيون ليس إلى حالتهم الجسدية ولكن ببساطة إلى ما يتعاملون به من مكر وخداع.

❖ | التسلح بالمعلومة..

ويجب الاحتفاظ - من الكتاب أو الصحيفة - بكل ما يلزم الاحتفاظ به في الذاكرة من معلومات لأنها تلبي احتياجات الفرد أو تعتبر قيمة في حد ذاتها كمعلومات عامة. وبالتالي فإن ما يتعلمه الفرد يتكامل مع ما في عقله عن هذه المشكلة أو تلك كما أنه يصبح الصورة التي في الذاكرة أو يكبرها حتى تصبح صحيحة وأكثر دقة. فإذا ما احتاجت بعض المشكلات العملية إلى تفحص أو إلى حل، فإن الذاكرة تنتقي المعلومة المناسبة فوراً من بين الكميات الكبيرة من المعلومات التي تم جمعها خلال أعوام طويلة من القراءة وتجعلها قابلة للاستخدام فيصل القارئ إلى رأي جديد واضح حول المشكلة، ويتوصل إلى حل حاسم لها.

وهكذا فقط تكون للقراءة قيمة أو معنى.

والمحدث - على سبيل المثال - الذي لا يملك مصادر المعلومات الجاهزة والضرورية لتناول الموضوع الذي يتحدث فيه بطريقة لائقة يكون غير قادر على الدفاع

عن آرائه أمام معارضيه حتى وإن كانت تلك الآراء صحيحة وكاملة ومقبولة. ففي كل محادثة تخذله ذاكرته فجأة. فلا يستطيع تذكر براهين تؤكد كلامه. وطالما أن على المتحدث أن يدافع عن نفسه بطريقته، يكون الموقف سهلاً، لكن الخطر يكمن عندما يوجد بين العامة من يدعى العلم بكل شيء وهو في الحقيقة لا يعرف أي شيء.

وقد حرصت منذ صغرى على قراءة الكتب بالطريقة الصحيحة وكنت محظوظاً لأنني أملك ذاكرة قوية وذكاء يساعداني. ومن هذا المنطلق كانت إقامتي في فيينا مفيدة ومثمرة. ف خبراتي من الحياة اليومية كانت مستمرة بالتزامن مع دراسة أهم المشكلات المتعددة من زوايا جديدة. وبقدر ما كنت في وضع يمكنني من إعداد قواعد نظرية بقدر ما كنت بعيداً عن خطر التحذلق بالكلمات، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كنت أيضاً بعيداً عن التأثير الشديد بما حولي من خداع.

حددت لي خبرات الحياة اليومية في ذلك الوقت ما يمكنني من وضع الدراسة النظرية الأساسية لمشكلتين مهمتين جداً بعيداً عن المشكلة الاجتماعية.

❖ الماركسية واتحادات العمال..

يبدو أنه من المستحيل أن نحدد بداية اهتمامي بالدراسة المتعمقة للتعاليم الماركسية وصفاتها، وذلك لأنني في الواقع قد انطلقت إلى عمق المشكلة مباشرة.

فكل ما كنت أعرفه عن الديمقراطية الاشتراكية في فترة الشباب كان قليلاً جداً وهذا القليل أغلبه خاطئ. فحقيقة أن هذه الحركة التي قادت الكفاح العالمي ونادت بالانقراض السري كانت ترضييني. وذلك لأن تفكيري كان يقودني في ذلك الوقت إلى أن ذلك سيضعف نظام هابسبرج الذي أكرهه بعمق. كما أنني كنت مقتنعاً بأن على الأمة الألمانية أن تظل باقية حتى وإن كان عليها أن تضحي. فبالرغم من بطء وطول فترة ضم النمسا الألمانية فإن الدولة لم تثبت بأنها إمبراطورية قادرة على الاستمرار. وكان السؤال هو: كيف يمكن للسلاف أن يكون لديهم القدرة المطلوبة من أجل وجود سياسة بناء؟ لذلك فإنني رحبت بكل لحظة تؤدي إلى الوصف النهائي لتلك الأمة الغريبة التي أعلنت أنها ستطبع عشرة ملايين نسمة بالطابع الألماني. فكلما زادت اللغات المستخدمة في الدولة - حتى في داخل البرلمان - اقتربت ساعة تفكك تلك الإمبراطورية.

لذلك لم أكن أشعر بأي كراهية تجاه السياسة الديمقراطية الاشتراكية المعتادة. وذلك لأن هدفها المعلن هو رفع مستوى طبقة العمال وكنت أظن هذا الهدف - بسبب جهلي في ذلك الوقت - هو سبب آخر يجعلني أؤيد الديمقراطية الاشتراكية ولم أكن ضدها. لكن الملامح التي جعلتني أمجر تلك الحركة الاشتراكية الديمقراطية تمثلت في عدائها تجاه

الكفاح من أجل أمانة النمسا وتضامنها المؤسف مع الأصدقاء السلوفاك الذين استقبلوا تلك الأفكار بالترحيب لأنها لا تقدم أي مميزات عملية، ولكنها على العكس تبقى على التحفظ المتعجرف وتفتح الباب للمتسولين كي يحصلوا على إجابة ترضي تصرفاتهم.

لذلك فكلمة "الماركسية" كانت غير معروفة بوضوح بالنسبة لي وأنا في سن السابعة عشرة من عمري، بينما كنت أعتبر "الديمقراطية الاشتراكية" و"الاشتراكية" كمراذفات. لكن عيناى تفتحت على ضربة مفاجئة من يد القدر فأدركت تلك الطبيعة غير المتوازنة لنظام يخدع الشعب.

وحتى ذلك الوقت كانت معرفتي بالحزب الاشتراكي الديمقراطي هي مجرد معرفة أحد المشاهدين لاجتماعاتهم التي يحضرها أعداد كبيرة من الناس. ولم يكن عندي أي فكرة عن تعاليم الديمقراطية الاشتراكية أو عن أفكار مناصريها. وفجأة وجدت نفسي وجهاً لوجه مع نتاج تعاليمهم والتي يسمونها بـ "المذهب". وبهذه الطريقة كانت عدة أشهر قليلة كافية بالنسبة لي لكي أدرس ما كان يحتاج في ظروف أخرى إلى عقود من الزمن لدراسته. فمن تحت عباءة الفضيلة الاشتراكية وحب الفرد لجاره ينتشر طاعون حقيقي إلى الخارج، وإن لم يتم القضاء على هذا الطاعون في العالم نهائياً، فمن الممكن أن ينجح بسرعة في القضاء على الجنس البشري.

وقد كان أول انتهاك لي مع الديمقراطيين الاشتراكيين عندما كنت أعمل في مجال البناء.

ومنذ أن بدأت العمل كان الموقف غير محبب لي. فقد كانت ملابسي لا تزال بهيئة. وكنت حريصاً في طريقة تعاملتي ومتحفظاً في كلامي. وكان فكري لا يزال مشغولاً بحاضري وفرص المستقبل أمامي لدرجة أنني لم أكن أهتم كثيراً بما يحيط بي مباشرة. فقد كنت أبحث عن العمل حتى لا أتضور جوعاً وحتى أستطيع أيضاً أن أستكمل قراءاتي، على الرغم من أن ذلك قد يكون بطيئاً. ويحتمل أنني لم أكن أعياً بزملائي إلى أن وقع حدث في ثالث أو رابع يوم لي في العمل ودفعني لأن أتخذ موقفاً محدداً. فقد أمروني أن أشارك في اتحاد العمال⁽¹⁾.

كنت في ذلك الوقت لا أعلم أي شيء عن الاتحادات العمالية. فلم تكن لدي فرصة لتكوين رأي حول فوائدها. لكن عندما أخبروني بأن عليّ أن أنضم للاتحاد رفضت. والأسباب التي عللت بها رفضي هي أنني لا أعرف أي شيء عن هذا الأمر وأني لا

(1) قد يبدو للقارئ أن هتلر يخرج من الحديث عن الماركسية فجأة ليتحدث عن اتحادات العمال، لكن ذلك غير صحيح، فسوف يشير هتلر فيما بعد إلى سيطرة الماركسيين على تلك الاتحادات.

أسمح لنفسني بأي حال أن تدفع قسراً لشيء ما. وربما يكون السبب الأول هو ما حماني من الطرد الفوري. فقد ظنوا أنني من الممكن أن أقتنع خلال عدة أيام وأكون سهل الانقياد. لكنهم كانوا مخطئين بشدة. فبعد أسبوعين وجدت أنه من المستحيل تماماً أن أتخذ مثل تلك الخطوة، وذلك بالرغم من أنني كنت على استعداد لأن أتخذها من قبل. فقد أصبحت أكثر قدرة على معرفة زملاء العمل بشكل أفضل خلال تلك الأيام الأربعة عشر، ولم تكن هناك أي قوة في العالم يمكن أن تدفعني للانضمام إلى منظمة اتضح لي أنني لا أحب ممثليها. ظهر استيائي خلال الأيام الأولى.

✦ الماركسية عقيدة حاكمة ومدمرة..

ففي أثناء راحة منتصف اليوم كان زملاء لي يعرجون إلى حانة قريبة بينما يظل البعض الآخر عند المبنى الجاري العمل فيه ويتناولون هناك وجبة الظهر، وهي عادة ما تكون وجبة غير كافية بالمرّة. وكان هؤلاء من المتزوجين. وكانت زوجاتهم يحضرن لهم الحساء في أوان متهاكة. ومع نهاية الأسبوع ازداد عدد من يبقون لتناول وجبتهم عند المبنى. وعلمت السبب فيما بعد. فهم يتحدثون في السياسة.

وكنت أتناول زجاجة حليب وبعض كسرات من الخبز في مكان متطرف وناء؛ وذلك لأدرس تلك البيئة في حذر أو أتأمل مصيري الصعب. ولقد سمعت أكثر مما يجب، وكنت عادة أعتقد أن بعض ما يقولونه يقصدون به أن يصل إلى أذني بغرض دفعي إلى أن أتخذ القرار. لكن كل ما سمعت تسبب في نفوري أكثر. فقد كانوا يحطون من قدر كل شيء، الأمة لأنها من اختراع الطبقة الرأسمالية (لقد سمعت تلك الجملة كثيراً)، والأرض الأم لأنها أصبحت أداة في أيدي الطبقة المتوسطة على حساب الطبقات العاملة، وسلطة القانون لأنها وضعت لكبح العمال، والدين لأنه وسيلة لتخدير الشعب حتى يمكن استثماره فيما بعد، والأخلاق لأنها شعار الأغبياء والجبّاء. لم يتركوا شيئاً إلا ومرغوه في الوحل.

في البداية كنت ألوذ بالصمت لكن ذلك لم يستمر لفترة طويلة. ثم بعد ذلك بدأت أشارك في مناقشاتهم وأرد على ما يقولون. وكان عليّ أن ألاحظ أن ذلك سيكون بلا جدوى طالما أنني ليس لديّ قدر كاف من المعلومات عن القضايا المطروحة. لذلك قررت الرجوع إلى المصادر التي يقول المتحدثون إنهم يستمدون منها معلوماتهم، فالتهمتها كتاباً بعد كتاب ومنشوراً تلو الآخر.

وكنا نتحاور مع بعضنا البعض عند موقع المبنى. ويوماً بعد يوم كنت أزداد معرفة بمستوى زملائي في تلك الموضوعات التي يدعون أنهم خبراء فيها. وفي يوم من الأيام لجأ أشد خصومي إلى أفكّ الأسلحة فاضطر إلى استخدام شيء آخر غير قوة العقل. فكانت القوة البدنية فوراً. حيث أمرني قادة الخصوم أن أغادر المبنى وإلا سيلقوني من

فوق السقالات العلوية. ولأنني كنت بمفردي ولا يمكنني أن أبدي أي مقاومة بدنية، لذلك فضلت الخيار الأول ورحلت، لكنني كنت قد اكتسبت خبرة جديدة على أي حال.

ابتعدت عنهم وأنا في شدة السخط، لكنني كنت متأثراً جداً لدرجة حالت دون تذكري هذا الموقف أو التفكير فيه مرة أخرى. وعندما بدأت أهدأ تغلبت على روح العناد وقررت أن أعود إلى العمل في عالم البناء بأي ثمن. وقد أصبح هذا القرار أكثر قوة بعد عدة أسابيع، عندما انتهت كل مدخراتي القليلة وبدأ الجوع يؤلمني بلا رحمة. ولم يعد لدي أي بديل. فحصلت على عمل آخر وتركته لنفس الأسباب.

ثم سألت نفسي: هل هؤلاء الناس يستحقون أن يكونوا من الشعب العظيم؟ وكان سؤالاً محيراً بشدة، فإذا كانت الإجابة: نعم، فمعنى ذلك أن الكفاح من أجل الدفاع عن جنسية الفرد لا يستحق النضال أو التضحيات التي نطالب بها أفضل عناصرنا إن كانوا مهتمين بهذه الحشود من الناس. ومن جهة أخرى، إذا كانت الإجابة: "لا". فإن هؤلاء الأفراد لا يستحقون هذه الأمة، وعليه فإن أمتنا بحاجة إلى رجال، وكان ذلك أثناء أيام العناء العقلي والتفكير العميق في العدد المتزايد - بصفة مستمرة - من أفراد الشعب ممن لا يستطيعون مجرد التفكير في انتمائهم لهذه الأمة.

وبعد عدة أيام كان الشعور مختلفاً، فقد نظرت إلى المستويات المتداخلة لعمال فيينا الذين يسرون في مظاهرة ضخمة. فوقفت صامتاً مصعوقاً لمدة ساعتين تقريباً وأنا أشاهد هذا التين البشري الضخم الذي بدأ يتفرق أمام عيني. وعندما غادرت الميدان أخيراً واتجهت إلى حيث يوجد مسكني شعرت بالرعب والحزن. وفي طريقي شاهدت صحيفة العمال في محل لبيع التبغ. وكانت تلك الصحيفة هي النافذة الإعلامية الرئيسية للديمقراطية الاشتراكية في النمسا. وفي هذا المقهى الرخيص الذي اعتدت الذهاب إليه لقراءة الصحف يتجمع أفراد الشعب العاديين، لكنني كنت لا أهتم بالصحيفة العمالية المعروضة هناك ولم أكن أوليها بأكثر من نظرة عابرة حتى ذلك اليوم. فقد كانت طريقته تعتمد على النقد اللاذع. وتحت تأثير المظاهرة وجدت صوتاً بداخلي يدفعني لشراء الصحيفة من محل التبغ وأن أقرأها بدقة. لذلك أخذتها معي إلى البيت وقضيت فترة المساء بكاملها وأنا أقرأ في الصحيفة، بالرغم مما فيها من بهتان وكذب متدفق وغضب متتال.

✦ | كتب خادعة.. وصحف فاجرة..

ومن خلال الصحف اليومية للحركة الديمقراطية الاشتراكية تمكنت من دراسة الشخصية الداخلية لهذا النظام السياسي وفلسفته بطريقة أفضل مما حصلت عليه من أي كتب في السابق.

فقد كان هناك تفاوت ملفت بين الاثنين. فالكتب تتناول نظرية الاشتراكية الديمقراطية بأسلوب عال يتحدث عن الحرية والكرامة الإنسانية والجمال، وكل ذلك يعلن من خلال شعور بتوقع حدوثه وتأكيد ذلك. فالكلمات منمقة بدقة لتبهر القارئ وتضله. ومن جهة أخرى نجد أن الصحافة اليومية تتناول تعاليم هذا الإصلاح الإنساني بطريقة شديدة القسوة. فلا توجد طريقة مبسطة بالإضافة إلى أن ذلك يمكن استثماره في حملات تشويه السمعة. فقد كان أولئك الصحفيون فنانين في ليّ الحقائق وتقديمها بطريقة خادعة. وقد كان ما يذكر في الكتب موجهاً إلى السذج من طبقة المفكرين المزعومة والذين ينتمون إلى الطبقتين الوسطى والعليا. أما دعايات الصحف فهي موجهة لعامة الشعب.

أيقظ هذا البحث في الكتب والصحف ودراسة التعاليم الاشتراكية الديمقراطية في حبي لشعبي. لذلك تحول ما كان يبدو في البداية عقبة لا يمكن اجتيازها إلى مناسبة لمزيد من الاقتراب الودود.

وبمجرد أن فهمت طريقة عمل هذا النظام الضخم من أجل تسميم عقول الشعب، أدركت أن الأحمق فقط هو من يقع ضحية له. وخلال السنوات التي تلت ذلك أصبحت أكثر استقلالية وأكثر قدرة على فهم الأسباب الخفية لنجاح تعاليم الديمقراطية الاشتراكية. لقد فهمت الآن معنى تلك الأوامر التي منعت قراءة أي كتب أو صحف ليست حمراء، كما أنها سمحت في نفس الوقت بالاجتماعات الحمراء فقط. وفي ضوء تلك الحقيقة القاسية استطعت أن أفهم النتائج الحتمية لتلك التعاليم المتعصبة.

❖ | حملة إرهابية من الأكاذيب والافتراءات..

يمكن لعقول الشعب أن تصل فقط إلى كل ما هو قوي ومتصلب. مثل المرأة التي تتأرجح ما بين وزن الأمور بالعقل والرغبة الجارفة المبهمه في شخص قوي يكمل وجودها، فهي تتحني أمام الرجل القوي ولا تنتظر للضعيف. وهكذا فإن جموع الشعب يفضلون الحاكم الذي يتضرعون إليه والذي يملأ قلوبهم بإحساس بالأمان من خلال تعاليم لا تحتمل أي تمرد وليس من خلال تعاليم تتيح لهم حرية الاختيار. كما أن فكرتهم عن كيفية الاختيار ضعيفة جداً، لذا فهم يشعرون بأنهم منبوذون. وهم يشعرون بقليل من الخذي لما يلقونه من إرهاب فكري كما أنهم لا يكادون يشعرون بأن حريتهم كأدميين يساء استخدامها بطريقة فظة. وعلى الرغم من ذلك ليس لديهم أدنى شك في زيف هذه التعاليم بالكامل. فهم يرون القوة العاشمة والقسوة الشديدة فيما يقال ويستسلمون له دائماً.

فإذا ما كانت هناك معارضة للديمقراطية الاشتراكية تقوم على تعاليم حقيقية، فإن الكفاح سيكون أشد مرارة. حيث إن تلك التعاليم الصادقة سوف تسود في النهاية إذا فرضت بنفس القدر من القسوة.

وخلال أقل من عامين تمكنت من الحصول على فكرة واضحة عن الاشتراكية الديمقراطية وتعاليمها وطرق انتشارها.

وقد لاحظت سوء استخدام تلك الطريقة التي تنتشر بها الحركة التي تأتي من خلال حملة إرهاب عقلي ضد الطبقة المتوسطة، وهم غير مستعدين سواء أخلاقياً أو دينياً لتحمل تلك الهجمات. وتتكون خطة الاشتراكية الديمقراطية من قدر هائل من الأكاذيب والافتراءات ضد من يظنون أنه أشد معارضيتهم، إلى أن يضحى هؤلاء بمن هو موضع للهجوم على أمل أن يعيشوا في سلام، إلا أن هذا الأمل دائماً لا يتحقق، فهم لا يعيشون في سلام أبداً.

وتتكرر نفس الطريقة مرات ومرات إلى أن يشل الخوف من هؤلاء الكلاب المسعورة كل ضحاياهم.

❖ | الإرهاب بالإرهاب!..

وقد أدركت الديمقراطية الاشتراكية قيمة القوة من خلال ما مرت به من تجارب، ولهذا السبب فهي غالباً ما تهاجم هؤلاء الذين تستشعر منهم أنهم من راسخي العقيدة، وهي غالباً ما تكون صفة نادرة جداً. ومن جهة أخرى، فإنها تمتدح كل ضعيف من معارضيتيها باحتراس شديد وذلك طبقاً لقدراته العقلية المعروفة أو المتوقعة. كما أنهم أقل خوفاً من الرجل الذكي الذي لا يملك القوة مما لو كان شخصية قوية ذات ذكاء متوسط، وفي نفس الوقت فإنهم يمدحون من حرموا من الذكاء وقوة الإرادة.

وتعرف الاشتراكية الديمقراطية كيف تخلق انطباعاً بأنهم هم حماة السلام الوحيدون. وعلى هذا الأساس فهم يعملون بحذر لكنهم لا يغفلون عن هدفهم الأسمى، فهم يهزمون موقعاً تلو الآخر وفي نفس الوقت، وذلك من خلال إما التهديد أو السرقة في وضوح النهار. وهم يستخدمون تلك الطرق الأخيرة عندما يكون انتباه الناس مشغولاً بأمر آخر ولا يودون التحول عنه، أو عندما يعتبر عامة الناس أن حدثاً ما غير هام فلا يتحدثون عنه باعتباره فضيحة وهذا يثير حنق المعارض الخبيث.

وهذه الخطط تقوم على الاستفادة من الهفوات الإنسانية ولا بد لها أن تنجح، حتى وإن تم حسابها علمياً، لكنها لا تقلح في ذلك إذا علم الطرف الآخر كيف يقاوم الغازات السامة بالغازات السامة⁽¹⁾، وعلى الضعيف أن يعرف أن الأمر هنا قائم على القول: "أكون أو لا لأكون".

(1) من الواضح تأثر هتلر بالحرب العالمية الأولى التي استخدمت فيها الغازات السامة لأول مرة، والتعبير "مقاومة الغازات السامة بالغازات السامة" يقصد به مقاومة العدوان بمثله بالضبط.

كما أنني فهمت أيضاً أن الإرهاب البدني له دلالاته عند العامة وعند الفرد. وهنا أيضاً يحسب الاشتراكيون الآثار النفسية بدقة.

يلقى الإرهاب الذي يحدث في الورش والمصانع وخطوط التجميع والمظاهرات الكبرى نجاحاً دائماً طالما أنه لا يقابله أي نوع من الإرهاب الأشد.

ثم بعد ذلك يرفع الحزب صرخة مدوية مرعبة ضد القتل الأزرق وتأييداً لسلطة الدولة التي تبرأوا منها منذ قليل. وهم بذلك يهدفون بصفة عامة إلى إيجاد مزيد من الارتباك العام حتى يحصلون على فرصة أفضل لتحقيق أهدافهم دون أن يلاحظهم أحد. وتقوم فكرتهم على إيجاد بعض المتباعدين من المسؤولين الكبار بالحكومة الذين يأملون بالفوز برضى هؤلاء المعارضين حتى يتذكروهم فيما بعد إذا وقعت أحداث، ثم يستخدموهم في القضاء على كل من يعارض ذلك الوباء العالمي.

ويمكن قياس الانطباع الذي تتركه تلك الخطط في عقول جموع الشعب - سواء كانوا من المعارضين أم من الأتباع - فقط بواسطة من يعرف عقول العامة، ليس من الكتب ولكن من الحياة العملية. وذلك لأن أتباع الديمقراطية الاشتراكية يعتبرون نجاح تلك الخطط انتصاراً للطريق الصحيح لقضيتهم، ومن جهة أخرى فإن المعارض المهزوم عادة ما يفقد الثقة في فاعلية أي جديد من المقاومة.

وكلما فهمت طرق الإرهاب البدني التي استخدموها، تعاطفت مع الكثيرين ممن تعرضوا له.

وأنا الآن مدين بالفضل للمحن التي مررت بها في تلك الفترة لأنها كانت الوسيلة التي جعلتني أفكر مرة أخرى في شعبي، كما أن تلك الخبرات مكنتني أيضاً من التفريق بين القادة المزيفين والضحايا المضللين.

❖ الإصلاح الاجتماعي وضحاياه..

ولنا أن نعتبر أن هؤلاء المذكورين أخيراً ضحايا. فقد انتهت توأ من تصوير تلك الصفات التي تتصف بها عقول من يقفون على أدنى درجة من درجات السلم الاجتماعي، لكن تلك الصورة تصبح غير متناسبة إن لم أضف أنني لا زلت أجد ضوئاً ينبثق من بين تلك الجموع. وذلك لأنني لاحظت قليلاً من التضحية بالنفس وشعوراً بالولاء بين هؤلاء الرجال، فهم لا يطلبون الكثير من الحياة وراضون بما يحيط بهم. وقد كان ذلك حقيقياً خاصة بين الأجيال الأكبر سناً من العاملين. وبالرغم من تزايد اختفاء تلك الصفات بين الشباب بسبب انتشار تأثير المدينة الكبيرة عليهم، إلا أنه كان من بينهم الكثير من المتوازنين الذين حافظوا على أنفسهم ولم تلوثهم البيئة القذرة المحيطة بهم. فإذا كان

هؤلاء يساندون الأنشطة السياسية التي يقوم بها عدو شعبنا، فإن ذلك بسبب أن هؤلاء العمال المحترمين لم يفهموا ولا يستطيعون فهم الأعمال الشائنة التي يدرسها ملقنو العقائد الاشتراكية. بالإضافة إلى أنه لا يوجد أي جزء آخر من المجتمع يعتني بالطبقات العاملة. وأخيراً فقد أدت الأحوال الاجتماعية بمن يتصرفون بطريقة مخالفة عليهم أن يستسلموا بالرغم من معارضتهم لذلك في البداية. لقد جاء اليوم الذي أصبح للفقر فيه اليد الطولى ودفع هؤلاء العمال إلى الانضمام إلى صفوف الاشتراكية الديمقراطية.

وفي عديد من المناسبات وقفت الطبقة المتوسطة موقفاً محدداً ضد أكثر الطبقات القانونية للطبقة العاملة. وقد كان هذا التصرف شائناً وغير أخلاقي، ولم يحقق أي مكاسب من أي نوع للطبقة البرجوازية. وكانت النتيجة أن يهجر العامل الأمين مبادئه الخاصة بالمنظمات الصناعية وينجرف في أمور السياسة.

وكان ملايين وملايين من العمال الذين كانوا معادين للحزب الاشتراكي الديمقراطي في البداية، إلا أن دفاعاتهم تلقت عواصف متعددة واضطروا إلى الاستسلام في النهاية. وهذه الهزيمة كانت بسبب غياب أحزاب الطبقة المتوسطة الذين عارضوا كل المطالب الاشتراكية التي قدمتها طبقة العمال. فجاء هذا الرفض قصير النظر ولم يبذل أي مجهود لتحسين أحوال العمال، ورفضوا كذلك وضع ضوابط لحقوق العمال في حالات حوادث المصانع، ورفضوا تحريم عمل الأطفال ورفضوا مناقشة الإجراءات الوقائية بالنسبة للعاملات من الإناث وخاصة الحوامل منهن، وهذا بدعم قادة الحزب الديمقراطي الاشتراكي الذين تحينوا لكل فرصة سنحت فاستثمروها لدفع حشود من الناس إلى شباكهم. ولن تستطيع أحزاب الطبقة المتوسطة في بلادنا بأي حال إصلاح ذلك الخراب الذي حدث نتيجة لأخطاء ارتكبوها. وذلك لأنهم وضعوا بذور الكراهية عندما عارضوا أي جهد يبذل من أجل الإصلاح الاجتماعي. كما أنهم أتاحوا الفرصة - على الأقل - أمام الحزب الاشتراكي الديمقراطي لينفرد بمصالح الطبقة العاملة.

وقد أصبح ذلك أساساً أخلاقياً يقوم عليه وجود الاتحادات الصناعية، لذلك أصبحت المنظمة العمالية ومنذ ذلك الوقت أهم منظمة سياسية تجند الأفراد وتدعم كوادر الحزب الاشتراكي الديمقراطي.

وبينما كنت أدرس الأحوال الاجتماعية المحيطة بي أرغمت - سواء كنت أريد ذلك أم لا - على أن أحدد موقفي من الاتحادات الصناعية. ولأنني كنت أعتبرها تابع لا تتفصل عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي، فكان قرارى سريعاً وخاطئاً. فقد تيرأت منهم بالطبع. لكن القدر تدخل في هذا الأمر أيضاً ولقنني درساً، وكانت النتيجة أنني قد غيرت رأيي الذي كونه منذ البداية.

ف عندما بلغت العشرين من عمري تعلمت كيف أفرق بين الاتحادات الصناعية كوسيلة للدفاع عن الحقوق الاجتماعية للعاملين وتقاتل من أجل ظروف أفضل لهم، وبين - من جهة أخرى - الاتحاد الصناعي كأداة سياسية يستخدمها الحزب في الصراع الطبقي.

❖ أهمية الاتحادات العمالية..

ي علم الاشتراكيون الديمقراطيون الأهمية الشديدة لحركة الاتحادات العمالية. ولقد جعلوها كأداة يستخدمونها بنجاح، بينما فشلت أحزاب الطبقة المتوسطة في فهم ذلك ففقدت هيبتها السياسية. كانوا يعتقدون أن اعتراضهم المتعجرف سيوقف من نمو الحركة ويدفعها إلى موقف الضعف. لكن كان من العبث والكذب أن نقول: إن حركة الاتحادات العمالية في حد ذاتها كانت معادية للأمة. لكن العكس هو الصحيح. فإذا وجهت أنشطة اتحادات العمال نحو تحسين أحوال تلك الطبقة، ونجحت في تحقيق ذلك، فإن تلك الأنشطة لا تعادي الدولة، لكنها أنشطة وطنية بكل ما في الكلمة من معنى. وبهذه الطريقة فإن منظمات الاتحادات العمالية تساعد في إيجاد الظروف التي لا مفر منها في النظام العام للتعليم الوطني. ولابد من الانتباه لها جيداً وهي تحطم الجرائم النفسية والجسدية للمرض الاجتماعي ومن ثم تنتشر الرخاء العام في البلاد.

وليس من الضروري أن نتساءل عن أهمية الاتحادات العمالية.

ف طالما أن هناك موظفين يهاجمون التفاهم الاجتماعي ولديهم أفكار خاطئة عن العدالة، فإن من واجب من يستخدمهم - لأنهم أيضاً من أفراد هذا الشعب - أن يحمي الاهتمامات العامة من جشع هؤلاء الأفراد وجنونهم. لأن حماية الولاء لهذا الشعب والثقة فيه مهم كأهمية تأمين الصحة العامة.

ف كلا الأمرين يهدد أولئك العاملين غير المدركين لواجباتهم كأفراد في مجتمع هذه الأمة بشدة. إن طمعهم وعدم إحساسهم بالمسؤولية ينثر بذور مشكلات المستقبل. وتقليل أسباب ذلك التطور عمل يحتاج إلى عزيمة الدولة كلها.

وليس علينا أن نناقش موضوع: هل العامل حر في أن يهرب في أي وقت من نتائج الظلم الذي عانى منه فعلاً على يدي صاحب العمل، أو ربما يعتقد أنه قد عانى منه، أي أنه وبمعنى آخر يمكنه أن يترك العمل؟ لكن ... لا. هذا الأمر ما هو إلا خدعة للفت الانتباه وتحويله عن المشكلة الرئيسية وهي: هل من بين اهتمامات الأمة أن تزيل أسباب التوتر الاجتماعي؟ إذا كان الأمر كذلك، فلا بد أن يستمر القتال بالأسلحة الوحيدة التي تبشر بالنصر. لكن العامل لم يكن أبداً في وضع يجعله يقف في وجه صاحب العمل، وذلك لأن الأمر هنا ليس مجرد انتصار للحق. فإذا كان الحق معترف به كمبدأ للهداية في

مثل تلك العلاقات، فإن النزاع لا يقع على الإطلاق. لكن السؤال هنا هو: من هو الأقوى؟ وإذا كانت الحالة مختلفة عن ذلك فإن تعاطف العدالة وحده يحل النزاع بطريقة محترمة، ويحسن الوضع وما كانت الأمور تصل إلى ذلك الحد من النزاع قط.

لكن ... لا. فإذا كانت معاملة الرجال بطريقة غير اجتماعية وغير محترمة تؤدي إلى المقاومة، فإن الطرف الأقوى يمكنه أن يفرض قراره على الصراع إلى أن تتمكن السلطات الشرعية من إزالة الظلم الواقع. وعليه يبدو من الواضح أن العامل الفرد ليس أمامه أي فرصة لكسب الصراع الذي يسقط فيه هو وزملاءه وأن يكونوا جبهة واحدة أمام صاحب العمل بمفرده، فهو يمثل بمفرده قوة الشعب واهتمامه بما يقدمه من صناعة أو تجارة.

لذلك فإن اتحادات العمال تطمح في غرس وتقوية شعور بالمسؤولية الاجتماعية في حياة العمال وفتح الطريق أمام النتائج العملية لذلك. وبهذا تميل إلى إزالة أسباب الاحتكاك فهي مصدر دائم لعدم الرضا والشكوى.

أما الادعاء بأن اتحادات العمال لم تحقق هذه الوظيفة المطلوبة جداً فيقع عند أبواب أولئك الذين سدوا الطريق أمام قوانين الإصلاح الاجتماعي، أو يعتبرون أن هذا الإصلاح غير فعال وتدميره من خلال نفوذهم السياسي.

وقد أخفق السياسيون من الطبقة المتوسطة في فهم - أو بالأحرى لم يكن لديهم رغبة في الفهم - أهمية حركة اتحادات العمال. وبالتالي انتهز الاشتراكيون الديمقراطيون الفرصة التي لاحت لهم من جراء السياسة الخاطئة وأدخلوا اتحادات العمال تحت حمايتهم فقط، وذلك دون أي احتجاج من الجانب الآخر. وبهذه الطريقة أسسوا لأنفسهم حصناً صلباً يمكنهم أن يتواروا وراءه عندما يحدث في الصراع أي مواقف حرجية. لذلك أصبح الهدف الحقيقي للحركة يتجه تدريجياً نحو مجرد العفو ثم تم تبديله بأهداف أخرى. وذلك لأن الاشتراكيين الديمقراطيين لم يكفوا أنفسهم عناء احترام الهدف الرئيسي الذي تأسست من أجله حركة الاتحادات العمالية. واستثمروا الحركة بالكامل في خدمة أهدافهم السياسية.

❖ | انحراف اتحادات العمال عن أهدافها الرئيسية:

وخلال عدة عقود قليلة غيرت اليد الماهرة للاشتراكية الاجتماعية حركة اتحادات العمال، فتحولت من حركة أعدت في الأصل للدفاع عن حقوق الإنسان إلى أداة لتدمير البناء الاقتصادي للأمة. ولم يسمح لاهتمامات الطبقة العاملة في أي وقت أن تسبق هذا الهدف، وذلك لأن تطبيق الضغوط الاقتصادية في مجال السياسة يكون ممكناً دائماً إذا كان أحد الأطراف بلا ضمير والطرف الآخر كسول وسهل الانقياد، وفي تلك الحالة فإن كلا الشرطين متوافران تماماً.

ومع بداية القرن الحالي⁽¹⁾ توقفت حركة الاتحادات العمالية عن تناول الهدف الذي أنشئت من أجله. وبدأت تسقط عاماً بعد عام تحت السيطرة السياسية للاشتراكيين الديمقراطيين حتى أصبحوا يُستخدمون أخيراً ككبش فداء لصراع تلك الطبقة. وكانت الخطة لتحطيم الصرح الاقتصادي - من خلال ضربات متتالية - الذي بذل في بنائه والعناية به وقت طويل واهتمام كبير. وبمجرد الوصول إلى ذلك الهدف، فإن تدمير الدولة يعتبر نتيجة طبيعية، وذلك لأن الدولة ستحرم من مؤسساتها الاقتصادية. ويتضاءل الاهتمام بالمصالح الحقيقية لطبقة العمال - من جانب الاشتراكيين الديمقراطيين - إذا رأى قادتهم الماكرون أن من المهم جداً لمصالحهم السياسية أن تبقى الطلبات الاجتماعية والثقافية للجموع العريضة من العمال بلا حل، لأن من الخطورة أن يشعر جماهير العمال أنهم أصبحوا مجرد مواد مهملة في الصراع السياسي.

وقد خلقت الصورة القاتمة التي تعرض نفسها أمام عيني أي فرد من أفراد هذه الطبقة المشتركة في هذا الصراع كثيراً من القلق بين أفراد هذه الطبقة لدرجة أنهم يمنعون ويعارضون حتى العناصر الضرورية للإصلاح الاجتماعي. واستمرت الأحوال كذلك لدرجة أن القادة لم يحاولوا حتى مجرد تبرير مثل تلك السياسة غير المنطقية.

وكلما تعلمت الجموع أن تزيد من مطالبها وتبرزها فإن احتمال تنفيذ تلك المطالب يتضاءل وتقل الإجراءات التي تتخذ لتحسين الظروف لتصبح غير ملحوظة. وفي ذلك الوقت يصبح من الممكن إقناع الجموع الكادحة بأن تلك الإجراءات السخيفة التي تمت ما هي إلا خطة شيطانية لإضعاف قوتهم - إن أمكن - وشل حركتها بالكامل. وأنا لا أندش من نجاح هذه المزاعم عندما أتذكر ما تملكه تلك الجموع الغفيرة من قدرات للتفكير.

«كن رقيقاً لنا.. وإلا سنكسر جمجمتك»!

أما في معسكر الطبقة المتوسطة كان هناك سخط شديد ضد النوايا السيئة لخطط الاشتراكية الديمقراطية. لكنهم لم يفعلوا شيئاً للقيام بهجوم مضاد⁽²⁾ من جانب الطبقة المتوسطة. وكان يجب أن يكون خوف الاشتراكيين الديمقراطيين من تحسين أحوال طبقة العمال سبباً في دفع أحزاب الطبقات المتوسطة لتبذل أقصى ما في وسعها لتتنزع أهم أسلحة قادة ذلك النزاع، لكنها لم تفعل.

وبدلاً من مهاجمة مواقع أعدائها، قبلت أحزاب الطبقة المتوسطة بأن تظل تحت

(1) يقصد القرن العشرين بالطبع.

(2) من الواضح في أسلوب هتلر في الكتابة أنه متأثر جداً بالمصطلحات العسكرية، فهو يستخدمها حتى في الحديث عن المشكلات الاجتماعية للطبقات الكادحة.

الضغط. وأخيراً استخدموا طرقاً بطيئة للغاية وبدون أي فاعلية تذكر لدرجة أنها لم تحدث أي تأثير وتم إيقافها. ولذلك فقد ظل الموقف على حاله كما كان قبل تدخل الطبقة الوسطى. لكن التذمر تزايد وأصبح أكثر خطورة.

ثم اقتحم "اتحاد الصناعات الحر" الحياة السياسية مثل العاصفة، كما اقتحم حياة كل الناس. وكان أداة أكثر من مرعبة للإرهاب الذي هدد أمان واستقلال البناء الاقتصادي للأمة وأساسيات الدولة وحرية الأفراد. وفوق كل ذلك فإن "اتحاد الصناعات الحر" هو ما حول كلمة "الديمقراطية" إلى تعبير سخيف وحقير وأهان الحريات وسمم شعور الناس بشعاره: "إن لم تكن رقيقاً لنا سنكسر جمجمتك".

وهكذا كنت أتعرف على ما يحيط بي في تلك الفترة. وخلال الأعوام التالية ازدادت خبراتي وتوسعت، لكن لم أغير أي شيء في هذا المجال.

وكلما ازدادت علماً بالأشكال الخارجية للاستراكية الديمقراطية، زادت رغبتني في فهم الطبيعة الداخلية لتعاليمها.

❖ | اعرف عدوك!

وقد كان المسجل رسمياً عن الحزب في هذا المجال غير كاف. كما كانت المناقشات التي تتناول القضايا الاقتصادية زائفة ومبرراتها غير مقنعة. ولم يكن اتجاه الاشتراكية الديمقراطية في معالجة الأهداف السياسية على قدر من الإخلاص. بالإضافة إلى أنني كنت أكره بشدة طرقهم الحديثة في الخداع أثناء تقديمهم لأرائهم. فالجمل المتوهجة والعبارات الغريبة غير المفهومة تدعي بأنها تحتوي على أفكار عظيمة لكنها كانت خالية منها وليس لها أي معنى. وعلى الفرد أن يكون منحنياً وبدائياً في مدنا الحديث حتى يشعر بالراحة في تلك المتاهة العقلية الشاذة، وذلك حتى يتوصل إلى تعبيرات مفهومة من بين تلك الكلمات ذات الرائحة الكريهة التي نتحدث عن الحرية!! وكان من الواضح أن هؤلاء المؤلفين (لنتك البيانات السياسية) يعتمدون على ذلك التواضع المتمثل في قطاع من الشعب الذي يرى أن من لا نفهم كلامه لابد وأن يكون حكيماً.

وعند مواجهة سخافة وعبث تلك التعاليم مع ما يحدث منها في الظاهر توصلت تدريجياً حتى وصلت إلى فكرة واضحة عن الأهداف التي تسعى إليها.

وأثناء ذلك كنت أعاني من أحاسيس داخلية سوداء وأتوجس شراً. فأنا أواجه تعاليم قائمة على الأنانية والعداء، وتحسب حساباتها بدقة حتى تحقق النصر، لكن نصرها سيكون ضربة قاتلة للإنسانية.

وفي نفس الوقت اكتشفت العلاقات القائمة بين تلك التعليمات الهدامة والشخصية المميزة للشعب، والتي كانت حتى ذلك الوقت غير معروفة لي.

ومعرفة اليهود هي المفتاح الذي قد يَمَكِّن الفرد من أن يفهم الطبيعة الداخلية وبالتالي الأهداف الحقيقية للاشتراكية الديمقراطية.

فمن يعرف هذا العدو ينجح في إزالة الغشاوة من عينيه التي كانت تحجب عنه أهداف حزبه وتوصلها لها بطريقة زائفة. وبعد الخوض في عبارات اجتماعية ضبابية ومظلمة يتم التوصل إلى وجه الماركسية الكريه.

❖ | علاقتي باليهود..

ومن الصعب بل ومن المستحيل عليّ اليوم أن أحدد متى بدأت أفكر في كلمة "اليهود". ولا أتذكر أنني سمعت تلك الكلمة في البيت طوال حياة والدي. وإذا ما استخدم هذا الاسم أمامي بطريقة محتقرة كنت أظن أن الرجل المسن كان يعتبر هؤلاء الذين ينتمون إليه مجرد مجموعة من الرجعيين غير المتعلمين. وكان الرجل قد ألف الحياة في أي بلد أثناء فترة عمله الوظيفي، لكنه كان ذا آراء وطنية قوية وكان لتلك الآراء تأثير عليّ أنا أيضاً. وفي المدرسة - أيضاً - لم أجد أي داع لتغيير ما تكوّن عندي من أفكار في البيت.

حيث عرفت في المدرسة غير التقليدية أن هناك يهودياً من بين الفتيان. وكنا جميعاً نعامله بحذر ونحفظ في علاقاتنا معه، لكن ذلك كان فقط بسبب تحفظه وبعض أفعاله التي جعلتنا نحاط. وبخلاف ذلك لم يكن لي أو لزملائي أي تحفظ آخر عليه.

وعندما كنت في الرابعة عشر أو الخامسة عشر من عمري صادفت كلمة "يهودي" في بعض المحاورات السياسية. وهذا هو ما أثار قليلاً من الضيق في داخلي، فلم أكن أستطيع تجنب ذلك الشعور بعدم الراحة الذي ينتابني عندما كنت أسمع عن نزاعات دينية. لكن في تلك الفترة لم أكن أشعر بأي شيء تجاه اليهود.

كان هناك القليل جداً من اليهود في لينز. فقد تحول اليهود الذين عاشوا هناك خلال عدة قرون إلى أوروبيين في مظهرهم فأصبحوا مثلهم مثل أي فرد آخر حتى أنني كنت أعتبرهم من الألمان. وسبب أنني لم ألاحظ حماقة هذا الوهم هو أن العلامة الظاهرة الوحيدة التي اعتبرتها كفارق بيننا وبينهم هو ممارستهم لديانتهم الغريبة. ولأنني اعتقدت أنهم مضطهدون بسبب عقيدتهم زادت كراهيتي لسماع التعليقات عنهم إلى حد الاشتمئزاز. لكنني لم أكن أعرف أن هناك شيئاً ما يسمى بـ "عداء منظم للسامية".

ثم جئت إلى فيينا.

ولأنني انشغلت في البداية بالكثير من الانطباعات عما أحاط بي من معمار وانغمست في مشكلاتي، فلم أفرق في البداية بين الطبقات الاجتماعية المختلفة التي يتكون منها سكان هذه المدينة الضخمة. وعلى الرغم من أنه كان هناك 200 ألف من اليهود يسكنون فيينا والتي يبلغ تعدادها في ذلك الوقت 2 مليون نسمة، إلا أنني لم ألاحظهم. فخلال الأسابيع الأولى لإقامتي لم تكن عيناى وعقلي قادرين على استقبال كل تلك الأفكار والقيم الجيدة. وبعد أن استقر بي الحال واعتدت على ما يحيط بي، وبعد أن أصبحت الصورة المهزوزة أكثر وضوحاً، استطعت الحصول على فكرة أوضح عن عالمي الجديد، وتطرقنت إلى مشكلة اليهود.

لن أقول: إن الطريقة التي تعرفت بها على مشكلة اليهود كانت غير سارة بالنسبة لي. فاليهودي بالنسبة لي حتى الآن ما هو إلا رجل من ديانة مختلفة، ولذلك وبناء على التسامح بين البشر، فأنا أرفض وجوب مهاجمته لأنه من عقيدة مختلفة. لذلك كنت أعتبر أن النعمة التي استخدمتها صحافة أعداء السامية في فيينا لا ترتفع إلى منزلة ثقافة شعب عظيم. وتذكرت أحداثاً محددة وقعت في العصور الوسطى وشعرت أنه لا يجب أن تتكرر تلك الأحداث. وبصفة عامة فإن تلك الصحف المعادية للسامية ليست صحفاً من الدرجة الأولى - ولم أكن أعرف وقتها سبب ذلك - لذلك فقد اعتبرت ما كتبوه ما هو إلا نتاج للغيرة والحقد وليس تعبيراً مخلصاً عما في رؤوسهم من أفكار خاطئة. وقد تأكد رأيي عندما قرأت الطرق المحترمة التي ردت بها الصحافة العظيمة على تلك الهجمات أو أنها تجاهلتها ببساطة شديدة، وهذا ما اعتبرته بعد ذلك أفضل الطرق.

❖ | صحافة فيينا.. والتعلق الرخيص..

وكننت في ذلك الوقت أتعمد قراءة صحف كثيرة وشعرت بالدهشة لغزارة المعلومات التي تقدمها للقارئ وللطريقة النزيهة التي تقدم بها مشكلات محددة. وكننت أحترم طريقتهى الوقورة، لكن في بعض الأوقات كان الأسلوب المتوهج غير مقنع، فلم أحبه. وكننت أعزي كل ذلك إلى التأثير الشديد لتلك المدينة الضخمة التي أعيش فيها.

ولأنني كنت أعتبر فيينا في ذلك الوقت عاصمة للعالم، كنت أعتبر أن ذلك كاف للصفح عن أخطاء الصحافة. لكنني كنت عادة ما أتضايق من الدلال الذي كانت تستخدمه الصحافة تملقاً للقصر. فلم يحدث أمر بسيط في البلاد إلا وقدمته بطريقة تمجده وتضخمه للقارئ. لقد كانت طريقة حمقاء خاصة عندما كانت تستخدم تعبير "أكثر الملوك حكمة عبر كل الأزمنة" فقد ذكرني ذلك بالرقصة التي يؤديها الديك البري في فصل التزاوج تودداً إلى وليفته. لقد كانت ثقافة حمقاء. وأنا أرى أن ذلك وصمة في جبين الديمقراطية الحرة.

وكنيت أعتقد أن تلك الطريقة لإطراء القصر لا تهتم بالشعب. وكانت تلك هي أول وصمة تلحق بتقييمي العام لصحافة فيينا العظيمة.

❖ | مهادة للقصر.. وتحامل على ألمانيا..

وكنيت وأنا في فيينا مستمراً في متابعة ما يحدث في ألمانيا باهتمام شديد، سواء كانت أحداثاً سياسية أم ثقافية. وكنيت أشعر بالفخر والإعجاب عندما أقرن نهضة الإمبراطورية الألمانية الصغيرة مع ما يحدث من تراجع في النمسا. وعلى الرغم من أن السياسة الخارجية لتلك الإمبراطورية كانت مصدراً لسعادة حقيقية بصفة عامة إلا أن ما يحدث في الداخل من تطورات سياسية لم يكن مرضياً دائماً. فلم أكن مستحسناً الحملة التي بدأت في ذلك الوقت ضد "وليم الثاني". ولم أكن أعتبره مجرد إمبراطوراً ألمانياً فقط، لكنه قبل كل شيء كان هو من أنشأ الأسطول الألماني. وعندما منع الإمبراطور من الحديث في البرلمان كنت في شدة الغضب، وذلك لأن هذا المنع جاء ممن ليس له فيه أي حق. ففي جلسة واحدة ثرثر نفس أعضاء المجلس بكلام أكثر مما قاله جميع الأباطرة - حتى أولئك الضعفاء منهم - طوال عدة قرون.

وقد تضايقت لأنني علمت أن الأمة التي يدعي فيها الأحقق بأن من حقه أن ينتقد وأن يكون له حق العمل كمشرع للشعب في مجلس النواب، يمكن أن يكون صاحب التاج فيها موضع تأنيب من جانب المجلس البائس لهؤلاء الحمقى الذين ليس لهم مثيل.

وتألمت أكثر عندما لاحظت الطريقة التي تهادن بها الصحافة في فيينا بطانة قصر هابسبرج وشعورها بالفرح الغامر مع أي إشارة توحى برضاء القصر. وفي نفس الوقت تناولت تلك الصحف كل ما يخص الإمبراطورية الألمانية بتوتر، وحاولت أن تخفي عداها تحت عباءة الوفاق التي ترتديها. لكن ذلك العداء كان جلياً أمام عيني. فقد كانوا يدعون أنهم ليس لديهم أي نية في التدخل في الشؤون الداخلية لألمانيا - لا قدر الله - كما ادعوا أنهم لو تدخلوا في تلك القضايا الحساسة بطريقة ودية فإنهم يقومون بواجبهم بحكم الاتحاد بين البلدين، كما أنهم يعبرون أيضاً عن التزاماتهم الصحفية بصدق. وبعد الاعتذار عن تناول القضية الحساسة بطريقة ودية، تناولوها بطريقة مؤلمة وجارحة.

كل ذلك جعل دمائي تغلي. وأصبحت الآن أكثر وأكثر حرصاً عندما أقرأ صحافة فيينا العظيمة.

❖ | أفضل السياسيين الألمان..

لكنني لاحظت أن إحدى الصحف المعادية للسامية تناولت هذا الموضوع بطريقة أكثر احتراماً.

أما ما كنت أبغضه بشدة ويثير أعصابي، فهو تلك الصحف التي تنشر الإعجاب بفرنسا. وكان على الذي كتب ذلك المديح المعسول لـ "الأمة المثقفة العظيمة" أن يشعر بالخزي لأنه ألماني. وقد حدث ذلك عدة مرات وجعلني ألقى بالصحيفة "العالمية". ثم أصبحت بعد ذلك أقرأ صحيفة "فوكسلات" وهي أصغر كثيراً من حيث الحجم لكنها كانت تعالج مثل تلك الموضوعات بطريقة محترمة. ولم أكن أؤيد تلك النغمة الحادة لأعداء السامية، ولكنني وجدت ما تكتبه يدفعني للتفكير فيه بعمق مرات ومرات.

ومن خلال تلك القراءات على أي حال علمت من هو الرجل وما هي الحركة اللذان يحددان مصير فيينا. إنه الدكتور كارل ليجر والحركة الاشتراكية المسيحية. فعندما وصلت فيينا كنت أشعر أنني أعارضهما. فقد كنت أعتبر ذلك الرجل وتلك الحركة من الرجعيين.

إلا أن شعوراً بالعدل دفعني لأغير رأيي عندما أتحت لي الفرصة أن أعرف الرجل وأعماله. ثم تحول هذا الرأي ببطء إلى إعجاب علني بعد أن أتحت لي الفرصة لتكوين رأي على أسس أفضل. وأنا الآن - وأيضاً في ذلك الوقت - أعتبر أن الدكتور كارل ليجر من أفضل السياسيين الألمان. كما أدى ذلك أيضاً إلى كثير من التغيرات في رأيي عن الحركة الاشتراكية المسيحية.

وتغيرت أفكاري عن عداء السامية أيضاً مع مرور الوقت، لكن ذلك كان أصعب تغير يحدث لي. فقد تطلب صراعاً داخلياً عظيماً. وبعد صراع بين العقل والعاطفة كان النصر للعقل، وبعد عامين أصبحت أعتمد على العقل الذي أصبح حارساً أميناً ومستشاراً دائماً.

❖ | الرجل ذو الجلباب الأسود!

وأثناء ذلك الصراع المرير بين العقل الهادئ والعواطف التي نشأت عليها استقدت من الدروس التي تعلمتها في شوارع فيينا، فقد قدمت لي دعماً لا يقدر بمال. وكنت في ذلك الوقت أسير كالعَمِيان في شوارع المدينة الكبيرة - كما كنت أفعل في أيامي الأولى - لكن عيوني تفتحت ليس فقط لدراسة المباني بل لدراسة البشر أيضاً.

وفي يوم وأنا أمر في أحد شوارع وسط المدينة رأيت شخصاً يرتدي جلباباً أسود ذا أحزمة تربط من الخلف. وكانت أول فكرة ترد على خاطري هي: هل هذا يهودي؟ وكانوا لا يظهرون بهذا المظهر في "لينز" راقبت الرجل خلسة بحذر. ولكن كلما راقبته وتفرست في ملامحه تبلور سؤال في ذهني وهو: "هل هذا الرجل ألماني؟"

وكعادتي دائماً في تلك الظروف رجعت إلى الكتب لكي تزِيل ما بي من شكوك. ولأول

مرة في حياتي اشتريت نشرات عداء للسامية بعدة بنسات. لكن لسوء حظي كانت كلها تبدأ بافتراض أن القارئ يعرف بعض المعلومات عن قضية اليهود أو سمع عنها على الأقل. بالإضافة إلى أن اللهجة التي تتحدث بها كل تلك المنشورات أثارت شكوكي مرة أخرى، وذلك لأن الجمل الموجودة بها كانت سطحية كما أن الأدلة كانت غير علمية. وعدت إلى عاداتي القديمة في التفكير لعدة أسابيع أو ربما عدة أشهر. لكن الموضوع كان مهماً والاتهامات كانت بعيدة المدى لدرجة أنني خشيت أن أتعامل معها بطريقة ظالمة، لذلك عانيت من القلق والحيرة.

وبالطبع توصلت إلى أن الأمر ليس مجرد شك في أن هناك من الألمان من هم من ديانة أخرى، ولكنه حديث عن شعب مختلف بالمرّة ليس عن الألمان. وذلك لأنني بمجرد أن بحثت الأمر وبدأت ألاحظ اليهود، بدت لي فيينا بمظهر آخر. فكلما اتجهت إلى مكان كنت أقابل اليهود وكلما صادفتهم كنت ألاحظ بوضوح وبطريقة ملفتة أنهم يختلفون بشدة عن المواطنين. وكان ذلك في وسط المدينة بصفة خاصة وفي الحي الموجود شمال الدانوب، فقد كان يحفل بأناس - بالرغم من ملابسهم الخارجية - لا يشبهون الألمان على أي حال.

لكن الحيرة التي ظلت تطاردني في هذا الموضوع انتهت مع بعض أنشطة اليهود أنفسهم. فهناك حركة كبرى تسمى الصهيونية تنتشر بينهم. وهدفها هو تأكيد شخصية القومية اليهودية، وكانت تلك الحركة ممثلة بقوة في فيينا.

وتبدو الصهيونية من مظهرها الخارجي مجرد مجموعة يهودية تتزعم تلك الحركة، لكن الأغلبية العظمى لا يوافقون عليها أو حتى يتبرأون منها. لكن دراسة الموقف توضح أن تلك المظاهر الخارجية كانت مضللة عمداً. لقد نشأت تلك المظاهر وسط نظريات معتمدة تخدم مبادئ النفعية إن لم تكن تقصد الخداع الصريح. أما اليهود الذين يبدون متحررين فلم يتبرأوا من الصهيونيين ولم يعتبروهم إخوة لهم في العرق ولكن إخوة لهم في الديانة اليهودية لكنهم أعلنوا عن ديانتهم أمام العامة بطريقة غير عملية، وهذا يكشف الشعب اليهودي نفسه.

وهكذا، نجد أنه لا يوجد أي شرح في تماسكهم الداخلي.

وسرعان ما أصابني هذا النزاع الزائف بين الصهيونية واليهود الأحرار بالاشمزاز، وذلك لأنه كان زائفاً ويتناقض بطريقة مباشرة مع الأخلاق والشخصية النقية وهي ما يعتز به عرفنا الأصيل دائماً.

والنظافة - سواء كانت في الأخلاق أم غيرها - كان لها معنى مختلف عن أولئك

الناس. فهم شديداً الحياء عندما تنتظر إليهم، وهم أيضاً كذلك عندما لا تنتظر إليهم على الإطلاق. لكن رائحة هؤلاء الذين يرتدون القفطان عادة ما تجعلني أشعر بالغثيان، وذلك بالإضافة إلى الملابس الرثة والمظهر الوضيع.

كل تلك التفاصيل الدقيقة لم تكن جذابة بالتأكيد، لكن الصفة المقززة كانت تختفي تحت مظهرهم القذر والتي يكتشفها الفرد فجأة عندما يطلع على ذلك العفن الأخلاقي الذي اختاروه لأنفسهم.

وقد جعلني النشاط الملحوظ لليهود في عدة جوانب من جوانب الحياة أشعر بأهمية الموضوع بسرعة، فدخلت إلى داخل أسرارهم شيئاً فشيئاً. وتساعلت هل يوجد أي مشروع غير واضح، أي نوع من أنواع القذارة - خاصة في الحياة الثقافية - لم يشارك فيه يهودي واحد على الأقل؟ وبمجرد أن وضعت يدي على الجرح المتفحرج اكتشفت بسرعة أن اليهود - مثل الدودة في الجسد المتعفن - يفرعون من أي ضوء مفاجئ.

❖ | وباء أخلاقي أسوأ من الطاعون الأسود!

وقد تزايد الاتهام الموجه لليهود بمجرد أن اكتشفت أنشطتهم في الصحافة، والفن والأدب والمسرح. لكن كل الاعتراضات الطفيفة ليس لها أي تأثير الآن. فيكفي أن ننظر إلى الملصقات التي تعلن عن الإنتاج البشع في السينما والمسرح، وندرس أسماء المؤلفين الذين يتم مدحهم بشدة حتى يساندوا القضايا اليهودية دائماً. إنه وباء... وباء أخلاقي. وباء أصيب به عامة الناس، إنه أسوأ من الطاعون الأسود الذي حدث من زمن طويل. فهذا السم القاتل يعد بكميات كبيرة ويتم توزيعه. وبالطبع فإنه كلما تدنى المستوى الأخلاقي والعقلي لكاتب مثل تلك الأعمال الفنية زاد إبداعه. ووصل ذلك إلى الحد الذي جعل واحداً منهم يعمل مثل مضخة المجاري ويلقي بقاذوراته مباشرة في وجه الآخرين من إخوته في الإنسانية. وهنا لابد أن نتذكر أنه ليس هناك حد لعدد هؤلاء الناس. ولابد أن نتأكد أن واحداً منهم يمكنه أن يفسد عقول عشرة آلاف من البشر. إنها فكرة مخيفة، لكن لا يمكن تجنبها، وذلك لأن كل هؤلاء اليهود بطبيعتهم يقومون بهذا الدور المخذي.

أهم لذلك يسمون بالشعب المختار ؟

بدأت بعد ذلك في فحص أسماء كل صناع تلك المنتجات القذرة في حياتنا الثقافية. وكانت نتيجة البحث تتمشى مع الاتجاه الذي كونته عن اليهود. وعلى الرغم من أن أحاسيسي كانت تقول ذلك لآلاف المرات إلا أن العقل قال كلمته الآن.

فقد كانت الحقيقة أن تسعة أعشار ذلك التراث القذر والفن التافه والعروض المسرحية ينتمي إلى جماعة من الناس تمثل واحداً في المائة فقط من الأمة. وهذه حقيقة لا يمكن إنكارها. ثم بدأت أفحص الصحافة العالمية التي أفضّلها وأنا أحتفظ بهذه الحقيقة في عقلي أثناء القراءة.

وكلما تعمقت في التكفير قل احترامي لتلك الصحافة التي كنت معجباً بها في السابق. فقد أصبح أسلوبها منفراً وكنت مضطراً لرفض أفكارها لأنها ضحلة وسطحية تماماً. كما أن ادعاءها بأنها تقدم الحقائق والآراء بطريقة نزيهة كان يعني بالنسبة لي كثيراً من الزيف وليس الحقيقة. وذلك لأن كتابها كانوا من اليهود.

وأصبحت الآلاف من التفاصيل التي لاحظتها من قبل تستحق الانتباه الآن. فبدأت أفهم وأستوعب الأشياء التي كنت أراها من منظور آخر من قبل.

فقد رأيت سياسة حرية الصحافة من جهة أخرى، حيث إن الطريقة المحترمة التي ترد بها على معارضيتها - أو الصمت في ظروف أخرى - اتضح لي الآن أنها جزء من طريقة مأكرة وحقيرة لخداع القارئ. كما أن نقدها المسرحي البارع كان دائماً يمتدح الكتاب اليهود، كما كان نقده الموجه للألمان لاذعاً.

كما أن النقد الخفيف الموجه إلى وليم الثاني قد أوضح سياستهم التي استمرت في مدح الثقافة والحضارة الفرنسية. أما صفحات التسلية فقد كانت تافهة وداعرة. كما أن لغة تلك الصحافة كانت بصفة عامة تتحدث بلسان الأجانب. والاتجاه العام كان يحط من قدر الألمان وكان ذلك متعمداً بالتأكيد.

ولكن ما هي تلك المصالح التي دفعت صحافة فيينا حتى تتبع تلك السياسة ؟ أم أن ذلك كان بمحض الصدفة ؟ وفي محاولة إيجاد إجابة على تلك الأسئلة أصبت بالتردد تدريجياً.

لكن هناك ما حدث وساعدني أن أصل إلى قرار مبكر. بدأت أدرك معاني عدة أحداث متتالية تحدث في حياتنا في فيينا. وكانت كلها مستلهمة من الاتجاه العام للسلوكيات والأخلاقيات التي مارسها اليهود علانية وكان من الممكن أن ننسبها لهم بدون شك. وهنا، ومرة أخرى كانت الحياة التي درستها في الشوارع توضح معنى الشر بدقة.

حيث يمكن دراسة الدور الذي يلعبه اليهود في ظاهرة البغاء، وفي تجارة الرقيق الأبيض في هذه المدينة بطريقة أوضح من أي مدينة أخرى في غرب أوروبا، فيما عدا بعض الموانئ جنوب فرنسا. حيث يمكنك السير في الليل في الشوارع وأن تشاهد عند كل تقاطع - سواء كنت تريد ذلك أم لا - أحداثاً من نوع ما، وكان ذلك أمراً لم يعرفه الألمان إلا بعد الحرب التي جعلته معروفاً بل وحتمي بالنسبة للجند على الجبهة الشرقية.

سرت رجفة باردة في عمودي الفقري عندما تأكدت أن نفس ذلك اليهودي الوقح ذي الدم البارد هو من يظهر براعته في توصيل ذلك الاستثمار المفضّل إلى حثالة المقيمين في المدينة الكبيرة. ثم اشتد غضبي.

ولم أتردد في تناول مشكلة اليهود من جميع جوانبها علناً. نعم ... قررت أن أفعل ذلك منذ اليوم. كما قررت أن أتبع اليهودي في كل مجالات الحياة الثقافية والفنية، وفي كل مظاهر الحياة في أي مكان. وفجأة قابلت يهودياً في مركز لم أكن أتوقعه فيه. لقد أصبح اليهود الآن قادة للحزب الاشتراكي الديمقراطي. وعندما اتضح لي ذلك انقلبت كل الموازين. فقد انتهى صراعي الداخلي تماماً.

✦ | علاقتي مع العمال!

أما عن علاقتي مع زملائي من العمال فقد كنت عادة ما أتعجب من سهولة تغييرهم لأرائهم في نفس الموضوع وتكرار ذلك، ويحدث ذلك أحياناً خلال أيام وأحياناً أخرى خلال ساعات قليلة. ووجدت أنه من الصعب عليّ أن أعرف كيف يفقد أصحاب الأفكار المقبولة صوابهم الذي يتحدثون به كأفراد مع بعضهم البعض بمجرد بدء العمل كجماعة. وكان يمكن أن تؤدي تلك الظاهرة إلى أن أفقد الأمل. فقدت اعتدت أن أختلف معهم لعدة ساعات ثم لا أكاد عندما أصل بهم إلى ما أعتبره نوعاً معقولاً من التفكير أن أفرح بهذا النجاح حيث أكتشف في اليوم التالي أن كل شيء ضاع هباء. وكان من المحزن أن أعتقد بأنني عليّ أن أبدأ من جديد، فأكون مثل بندول الساعة الذي لا يهدأ أبداً، فهم سرعان ما يعودون إلى آرائهم العبيثية.

وقد استطعت فهم موقفهم تماماً. فقد كانوا غير راضين عن الطبقة التي ينتمون إليها ويلعنون حظهم العسير الذي كان قاسياً عليهم بشدة. كانوا يكرهون مستخدميهم، فهم يعتبرون أنهم يتحكمون في مصائرهم الصعبة بلا رحمة. وعادة ما كانوا يستخدمون لغة بذئنة ضد المسؤولين الذين كانوا يتهمونهم بعدم التعاطف مع أحوال العمل التي يعاني منها الشعب العامل. كما أنهم كانوا يحتجون على تكلفة المعيشة وكانوا يصطفون في الشوارع دفاعاً عن مطالبهم. كل ذلك يمكن تفسيره على أسس سليمة. لكن ما لا يمكن فهمه هو تلك العداوة غير المحدودة التي يعبرون عنها تجاه غيرهم من المواطنين وكذلك تحقيرهم لأمتهم، فهم يسخرون من عظمتها ويسبون تاريخها ويلطخون أسماء أهم رجالها. إن تاريخ أجدادهم وعشيرتهم لم يكن مفهوماً لهم ولا يصدقونه، فكان ذلك أمراً غريباً ضد الطبيعة.

ويمكن للفرد أن يعالج ذلك المرض مؤقتاً، لعدة أيام أو عدة أسابيع على الأكثر. ولكن

عندما تقابل من يتراجع عن آرائه وتجده قد عاد كما كان من قبل، فهذا المرض المخالف للطبيعة سرعان ما يصيبهم من جديد.

❖ | اليهود والصحافة الاشتراكية..

ثم اكتشفت تدريجياً أن اليهود يسيطرون على الصحافة الاشتراكية الديمقراطية. لكن لم أعر ذلك اهتماماً كبيراً وذلك لأن صحفاً أخرى كانت أيضاً في نفس الوضع. لكن الحقيقة الملفتة في هذا الأمر هو أن اليهود ليس لهم أي علاقة بأي صحيفة يمكن أن نسميها "وطنية" بكل معنى الكلمة الذي درسته.

وبعد أن بذلت مجهوداً في التغلب على رفضي الطبيعي بدأت أقرأ الموضوعات المنشورة في الصحافة الماركسية، لكن كلما فعلت ذلك زادت كراهيتي لها. ثم بدأت أقرأ عن نشرها هذا الهراء الضار. فوجدتهم جميعاً بداية من الناشر ونهاية بأصغر واحد فيهم من اليهود. فاسترجعت أسماء قادة الماركسية وأدركت أن أغلبهم من "الشعب المختار"، وكذلك ممثلي الحزب الاشتراكي الديمقراطي في الوزارة وكذلك رؤساء الاتحادات الصناعية ومثيري الشعب في الشوارع. الصورة الآتمة تطاردني في كل مكان، لن أنسى أبداً تلك الأسماء : أوسترلنز - ديفيد - أدلر - إلينبوجن وغيرها من أسماء. وهناك حقيقة واحدة أصبحت واضحة بالنسبة لي. فهذا العرق يسيطر على الحزب الاشتراكي الديمقراطي الذي مر بنزاعات طويلة مع صغار مسئوليه منذ شهور.

شعرت بسعادة في النهاية لأنني تيقنت من أن اليهود ليسوا ألماناً.

وهكذا توصلت أخيراً للأرواح الشريرة التي تضلل شعبنا. إن إقامتي في فيينا لمدة عام كانت كافية للتأكد من أنه لا يوجد عامل يؤمن بشدة بالأفكار والانطباعات التي يقولها وأنه من الممكن أن يتنازل عنها أثناء حوار واضح وشرح كاف. وقد أصبحت خبيراً في العقائد الماركسية بالتدريج واستقدت منها في تقريب ما أؤمن به للآخرين. وقد نجحت تقريباً في كل الحالات. فمن الممكن إنقاذ جموع الشعب لكن ذلك يحتاج إلى وقت طويل وصبر كبير يخصص لهذا الهدف. أما اليهودي فهو لا يتحزح قدر أنملة عن أفكاره.

❖ | التحذير من الخطر الماركسي..

وكان من البديهي أن أحاول أن أوضح للناس ما في تلك التعاليم من حماقة. فتحدثت مع المقربين مني حتى ألمني حلقي وبح صوتي. واعتقدت أنني تمكنت أخيراً من إقناعهم بالخطر الكامن في الماركسية، لكنني كنت قد وصلت إلى النتيجة العكسية. كان يبدو لي أن الآثار الفورية المدمرة للتطبيق العملي للنظرية الماركسية قد أصبحت واضحة، لكن عناد المؤمنين بالماركسية كان أقوى.

وكلما تحاورت معهم تعلمت طرقهم في المحاوره. فهم في البداية يعتمدون على جهل معارضيههم، لكن عندما يجدون أنهم تورطوا جداً ولا يستطيعون الخروج، يلعبون لعبتهم فيدعون بأنهم بسطاء وسذج. فإذا أخفقوا - بالرغم من حيلهم الماكرة - يدعون أنهم لا يفهمون ما يقوله الرأي المضاد ثم يوجهون الحوار إلى أي مجال آخر. وهم يتحدثون عن البديهيات والتفاهات، فإذا ما وافقتهم عليها يطبقونها على مشكلات أخرى وموضوعات ذات طبيعة مختلفة تماماً عن موضوع الحوار. فإذا واجهتهم بهذه النقطة يهربون مرة أخرى ولن تستطيع إعادتهم للموضوع الأساسي والوصول إلى ما هو مفيد. وعندما يريد المتحدث أن يقبض بقوة على أي من هؤلاء المبشرين فلن يجد في يده أي شيء فهو يفر من بين أصابعه كأي مادة هلامية ثم يعود ليلمسك مرة أخرى بعد دقيقة واحدة ليبدأ حواراً آخر. أما إذا اضطر محاروك إلى التسليم بأنك على حق، وتظن أنك قد كسبت الموقف بعد طول عناء، تجد مفاجأة في انتظارك في اليوم التالي. حيث يتناسى اليهودي كل ما حدث في اليوم السابق ويبدأ من جديد في ترديد سخافاته السابقة وكأن شيئاً لم يحدث. فإذا جنّت إليه ساخطاً وذكرته بهزيمة الأمس بيدي الدهشة ويدعي أنه لا يتذكر أي شيء إلا شيئاً واحداً وهو أنه أثبت بالأمس أن كلامه صحيح. وفي بعض المرات كنت أصعق. فلم أكن أعرف أيهما كان يحيرني، غزارة ما يستخدمون من كلمات أم الطريقة الماهرة التي يغلفون بها كذبهم. وتدرجياً، بدأت أكرههم.

لكن وعلى الرغم من ذلك كان لكل هذا جانبه الجيد، فكلما عرفت القادة - أو على الأقل المسؤولين عن الدعاية - في الاشتراكية الديمقراطية زاد حبي للشعب. وعندما كنت أفكر في الطرق الشيطانية التي يستخدمونها لا أرى أنه من الواجب علينا أن نلوم ضحاياهم. فقد وجدت من الصعب عليّ جداً أن أشارك في هذا الجدل المضلل حول الأعراق. وكان من غير المجدي أن نحاول أن نكسب هؤلاء الناس بالحوار، فأقواهم لا تعرف الحق، وهم ينكرون الكلمات التي قالوها منذ لحظات قليلة، ثم يستخدمونها مرة أخرى بعد عدة دقائق لخدمة أهدافهم في الحوار. وكلما عرفت اليهودي جيداً صفت عن العمال.

وفي رأيي أن من يستحق اللوم لا يوجد بين العمال، ولكنه موجود بين هؤلاء الذين لا يكفون أنفسهم عناء التعاطف مع أبناء أمتهم ليقدّموا للعمال من أمتهم ما يستحقونه بقوة العدالة وذلك بمحاصرة المحرضين والمفسدين.

وقد دفعتني خبراتي اليومية إلى أن أبدأ في دراسة متأنية لمصادر تعاليم الماركسية ذاتها. فقد كانت آثارها معروفة لي بالتفصيل. وقد لاحظت التطور اليومي للماركسية. ويمكن للفرد أن يستخدم خياله قليلاً لكي يتنبأ بالنتائج التي يمكن أن تلي ذلك التطور

للماركسية. وكانت الأسئلة الوحيدة أمامي في ذلك الوقت هي: هل كان المؤسسون يتوقعون تلك الآثار التي نراها اليوم لأعمالهم كما هو حاصل اليوم ؟ أم أن هؤلاء المؤسسين كانوا ضحايا لما وقع من أخطاء ؟ بالنسبة لي: كلا الاحتمالين قائم.

فإذا كانت الإجابة على السؤال الثاني بالإيجاب، فإن من واجب كل مفكر أن يعارض تلك الحركة الشريرة من منطلق منعها من الوصول إلى أسوأ النتائج. أما إذا كانت الإجابة على السؤال الأول بالإيجاب فإن من الواجب أن يوصم الكتاب الأصليون لهذه الشرور التي أصابت الأمة بكل ما يجسده الشر من معنى. لأن عقل الوحش فقط - وليس عقل الإنسان - هو الذي يضع تلك الخطة التي تؤدي في النهاية إلى انهيار الحضارة الإنسانية وتحول العالم إلى صحراء جرداء.

فإذا كانت الحالة كذلك، فإن الخيار الوحيد المطروح هو القتال، ولا بد أن يستخدم هذا القتال كل أسلحة روح الإنسان وعقله، وأن يستفيد من إرادته ويترك للقدر تحديد صاحب الكفة الراجحة. لذلك بدأت في جمع معلومات عن مؤلفي تلك التعليمات مع دراسة مبادئ الحركة.

❖ | لغة اليهود..

وفي الحقيقة فقد تمكنت من تحقيق هدفي بسرعة أكثر مما توقعت بناء على النظرة العميقة التي كنت قد اكتسبتها عن قضايا اليهود. وقد كانت معلوماتي قبل ذلك سطحية. وقد مكنتني تلك المعلومات التي حصلت عليها حديثاً فقط من القيام بمقارنة عملية بين المحتوى الحقيقي والنظريات الطنانة التي وضعها مؤسسو الحزب الاشتراكي الديمقراطي وذلك لأنني أستطيع الآن التعرف على لغة اليهود. فأنا أعرف أن اليهودي يستخدم لغة تخفي أفكاره أو على الأقل تحجبها، لذلك فمن غير الممكن اكتشاف هدفه الحقيقي من خلال الاستماع إلى ما يقوله، لكن ذلك ممكن عند قراءة ما بين السطور. وقد كانت تلك المعرفة باستخدام اليهود للغة سبباً في ثورة كبرى في داخلي مررت بها. فبعد أن كنت أفتح قلبي لكل الأوطان في العالم أصبحت ظاهرياً - معادياً للسامية أكثر وأكثر. وفي مناسبة واحدة فقط بعد ذلك - ولآخر مرة - سمحت لنفسني بالتفكير في الآراء المخالفة التي كانت تسبب لي الكثير من القلق.

وبينما كنت أراجع أنشطة الشعب اليهودي بدقة عبر فترات طويلة جداً من التاريخ ازدادت شغفاً وسألت نفسي ما إذا كان القدر - ولأسباب خفية لا يستطيع الفقراء مثلي الوصول إليها - قد أراد لهذا الشعب الصغير أن يكون هو المنتصر في النهاية ؟ وهل هذا الشعب الذي عاش سائحاً على الأرض تلقى وعداً بأن وطنه هو الكرة الأرضية كنوع من

التعويض له ؟ وهل يقوم كفاحنا من أجل البقاء على حقائق أم أنه مجرد وهم ؟ وقد أجاب القدر لي على هذه الأسئلة مما مكنتني من بدء دراسة منفصلة وشاملة للماركسية ولأنشطة الشعب اليهودي المرتبطة بها.

حيث تتكرر التعاليم اليهودية للماركسية المبادئ الأرستقراطية للطبيعة وتستبدلها بامتنياز دائم يخصصهم فقط ويدعمون ذلك بأعداد غفيرة من المؤيدين بما لهم من ثقل. وبهذا فهم ينكرون أهمية شخصية الفرد ويطعنون في أن للأمة والعرق معاني مباشرة، وهم بذلك يزيلون أساس الوجود الإنساني والحضارة الإنسانية. فإذا قبلنا بالتعاليم الماركسية كأساس للحياة في هذا الكون فإنها ستؤدي إلى اختفاء كل نظام يستخدم العقل البشري. وهكذا فإن اتباع مثل ذلك القانون قد يؤدي إلى الفوضى التي يمكن أن نعلم في بناء الكيانات الكبرى التي نعرفها، وتكون النتيجة أن يختفي ساكنو هذه الأرض في النهاية.

فإذا ما انتصر اليهودي - بمعاونة من العقيدة الماركسية - على شعوب هذا العالم، فإن نتيجته يتم بعد فناء الجنس البشري، وتعود الأرض إلى مدارها الطبيعي في الفضاء بدون أي حياة بشرية على سطحها كما فعلت لعدة ملايين من السنين من قبل.

لذلك فأنا أعتقد أن ما أفعله اليوم يتمشى مع إرادة الله الخالق. فأنا أقف في وجه اليهود مدافعاً عما يريد الله.





افكار سياسية ننبت عن إقامتي في فيينا

المشاركة السياسية قبل الثلاثين:

لا يجب على الإنسان - بصفة عامة - أن يشارك⁽¹⁾ في الحياة السياسية قبل وصوله سن الثلاثين، بالرغم من أن هناك استثناءات لمن هم موهوبون فطرياً ويملكون قدرات سياسية تفوق العادة. هذا هو رأيي اليوم على الأقل. وسبب ذلك أن قدرات الرجل العقلية تكون قادرة على فهم تلك الموضوعات بطريقة جيدة عندما يصل إلى تلك السن، وذلك بالقدر الذي يسمح بتكوين قاعدة من المعرفة تمكنه من تقييم كل المشكلات السياسية التي تنشأ أمامه مع مرور الأيام، كما تمكنه أن يعتق مبدأً محدداً يلتزم به عند تناول كل مشكلة من تلك المشكلات. أي أنه لابد له من مجموعة من الأفكار الغزيرة التي يمكنه أن يستخدمها معاً في تكوين اتجاه محدد واضح يعبر عن أفكاره الشخصية ونظراته للحياة، وهذا ما نسميه النظرة العامة. ثم لابد له أيضاً من قدرات عقلية تمكنه من تكوين رأيه الخاص في موضوعات محددة، ولابد له أن يتحلى بالصفات الضرورية التي تمكنه من التمسك بالمبادئ التي يكون منها آراءه السياسية. والرجل بهذه المواصفات يكون مؤهلاً - من ناحية الشخصية على الأقل - لممارسة دوره في السياسة العامة.

ولكن إن لم تتوفر تلك الشروط المبدئية، وخاض الرجل غمار السياسة قبل أن يكون مؤهلاً لذلك. فإنه يغامر بأمرين : أولهما أنه قد يكتشف أثناء الأحداث أن موقفه الذي يتخذه تجاه بعض القضايا موقف خاطئ، وعليه أن يتخلى عن موقفه الأول أو أن يتمسك به رغم علمه بالخطأ وتمتعه بمزيد من الخبرة والمعرفة. وذلك لأنه إذا ترك ما تمسك به من قبل سيجد نفسه في موقف صعب، وذلك لأنه سيبدو أمام الناس غير ثابت على مبدأ ولن يكون له حق في أن يتوقع من أتباعه أن يستمروا في ولائهم له، كما أن الأتباع أنفسهم قد يعتبرون أن تغيير رأي قائدهم لا يعني سوى عجز متأصل في شخصيته عن إبداء الرأي الصواب. بالإضافة إلى أن هذا التغيير قد يحدث فيهم إحساساً بالهزيمة أمام معارضي ذلك القائد.

(1) الشرح الذي ذكره هتلر بعد ذلك يوضح أن المشاركة المقصودة هي المشاركة الفعالة في الحياة السياسية، وليست مشاركة الفرد العادي بالانتماء إلى حزب ما مثلاً.

أما إذا اتبع الطريقة الثانية - وهذا هو ما يحدث كثيراً اليوم - فإنه لن يكون متحمساً للاستمرار في الدفاع عن تلك الأفكار التي أدرك أنها خاطئة، فيأتي دفاعه عن القضية بأكملها هشاً وسطحياً، بينما يكون من داخله غير مؤيد لما يحتج سياسياً من أجله - فلن نجد من يضحى من أجل ما لا يؤمن به، وبالتالي تزداد مطالبه من أتباعه. وفي الحقيقة كلما زاد عدم إخلاصه زادت مطالبه من أتباع مبدئه السياسي. وأخيراً نجده يطرح جانباً آخر علامة من علامات القيادة الحقّة ويبدأ لعبة السياسة. وهذا يعني أنه يصبح واحداً من هؤلاء الذين يتمسكون بعدم الثبات مع الاستبداد والغطرسة وعادة ما يبرع مثل ذلك القائد في تكرار الكذب دون أدنى شعور بالخذي.

فإذا نجح مثل هذا الشخص - من سوء حظ الكثير من الرجال المحترمين - في أن يكون نائباً في البرلمان يتضح منذ البداية أن أساس نشاطه السياسي المستميت يكمن في الحفاظ على هذه البقرة الحلوب التي تمده بما يفتات به هو وأسرته. وكلما كانت زوجته وأبنائه متواكلين عليه كان أكثر حرصاً على استمرار بقائه كعضو في البرلمان. لذلك فإن أي شخص يظهر قدرات سياسية واضحة يصبح عدواً له. كما أنه يرى أن أي اتجاه سياسي جديد قد يعتبر بداية لسقوطه. وهو يعتبر أي شخص أفضل منه مصدراً للتهديد المستمر. وسوف أتناول فيما بعد بالتفصيل مشكلة هذا النوع من التمثيل البرلماني وما تجلبه من شرور.

وعندما يصل الرجل إلى سن الثلاثين تكون الفرصة لا تزال سانحة أمامه لتعلم المزيد. هذا أمر واضح. لكن ما سيتعلمه بعد ذلك يعتمد على ما تلقاه من قواعد أساسية. لذلك فلا بد أن يأتي ما يتعلمه ملائماً لما كونه من آراء ونظرة عامة يؤمن بها. ولا يعني ما يستجد عليه من تعلم أن يهجر ما نشأ عليه من مبادئ ولكنه يضيف إليها وبين يدي على أساسها. ولذلك لن يشعر زملاؤه بأنه قد ضلّهم. بل بالعكس، تتزايد ثقّتهم فيه عندما يدركون أن صفات قائدهم تتطور بانتظام مع تقبله للأفكار الجديدة. وفي تلك الحالة يعتبر أتباعه أن هذه الصفة تساعد على إثراء المعتقد الذي يؤمنون به. كما يرون أن كل تطور في هذا المجال يعتبر دليلاً جديداً على صحة مبدئهم السياسي بصفة عامة.

❖ زعماء السياسة غير المؤهلين:

أما القائد الذي يتخلى عن القاعدة التي أقام عليها مبادئه الأساسية عندما يدرك أنها كانت غير سليمة، فهو يعتبر قائداً محترماً فعلاً عندما يعلن عن استعداده للاعتراف بنتائج آرائه الخاطئة. ويجب عليه في تلك الحالة أن يتمتع عن المشاركة في أي أنشطة سياسية عامة بعد ذلك. فإذا كان قد ضل طريقه مرة في أمور هامة، فقد يضل مرات أخرى. لكن وعلى أي حال، ليس من حقه أن يتوقع مساندة المواطنين له أو أن يطلب منهم ذلك.

وقليلاً ما حدث ذلك بين قادتنا اليوم وهذا يثبت مدى الفساد العام الذي استشرى في هؤلاء المتأمرين الذين يعتبرون أنفسهم الآن زعماء للسياسة، فليس من بينهم شخص واحد فقط مؤهل لهذه المهمة.

وعلى الرغم من أنني في تلك الفترة كنت أعطي كثيراً من وقتي للاعتبارات السياسية إلا أنني امتنعت عن المشاركة العلنية في السياسة. حيث كنت أتحدث فقط مع عدد محدود من الناس عما يجيش في صدري ويتسبب في أرقى الدائم. وقد كان لعادة التحدث مع عدد محدد من الناس بهذه الطريقة مميزات كثيرة في حد ذاتها. وبالإضافة إلى التحدث إليهم كنت أتعلم كيف أتحمس طريقي فيما يحملون من أفكار وآراء كانت بسيطة في مجملها. وهكذا كنت أنتهز كل فرصة ممكنة لأعرف المزيد عن الناس. ولم يكن هناك مكان مناسب لتلك الدراسة في ألمانيا أفضل من فيينا.

ففي مملكة دنيا القديمة كان الفكر السياسي أوسع وأكثر تعدداً مما هو الحال في ألمانيا في ذلك العهد فيما عدا مناطق محددة من بروسيا وهامبورج والمناطق المحيطة ببحر الشمال. وعندما أتحدث عن النمسا هنا أقصد ذلك الجزء من إمبراطورية هابسبرج الذي - بسبب ما فيه من مواطنين ألمان - أوجد الأساس لتكوين هذه الدولة، كما أن مواطينه ظلوا لعدة قرون مصدراً وحيداً للحياة الثقافية لذلك النظام السياسي الذي قام على أساس مصطنع. ومع مرور الزمن اعتمد بقاء الدولة النمساوية وثباتها أكثر وأكثر على استمرار وبقاء إمبراطورية هابسبرج.

كانت المناطق الشاسعة المتوارثة تمثل قلب الإمبراطورية. وكان ذلك القلب ينبض دائماً بدماء الحياة في كل الأنظمة السياسية والثقافية. وكانت فيينا تمثل العقل والإرادة في ذلك القلب. وبدت فيينا في ذلك الوقت بمظهر يجعل الإنسان يعتقد أنها ملكة متوجة يعيش تحت سيطرتها تكتلات من قوميات متعددة في ظل حكم أسرة هابسبرج⁽¹⁾ الملكية. إن جمال المدينة الأخاذ يجعل الإنسان ينسى علامات الحزن الناتجة عن وهن الشيخوخة التي تعاني منها الدولة ككل.

❖ الصورة الخداعة لمدينة فيينا:

وبالرغم من أن الإمبراطورية كانت واهنة من الداخل بسبب النزاع الرهيب الدائر بين القوميات المختلفة، كان العالم الخارجي - وألمانيا بالذات - يرى الصورة الخارجية الجميلة فقط لهذه المدينة. وكانت الخدعة كبرى، حيث بدت فيينا في قمة إشراقها. وكان حاكمها يجيد قواعد لعبة الحكم فأعاد المدينة القديمة التي يقع بها مقر الإمبراطور إلى قمة بهائها القديم. لقد كان من سلالة آخر الألمان الذين استعمروا الشرق ولم يكن رجل دولة

(1) آل هابسبرج: هم الحكام ذوو الأصل الألماني الذين حكموا النمسا في الفترة من 1278م إلى 1918م. (الناشر).

بالمعنى الحقيقي. إنه دكتور ليجر، الذي أحرزت المدينة الضخمة - وهي العاصمة التي تضم مقر إقامة الإمبراطور - في عصره كحاكم لها الكثير في جميع الأنشطة البلدية سواء كانت اقتصادية أو ثقافية، فخفق قلب الإمبراطورية النابض بنشاط متجدد. وقد أثبت بذلك أنه رجل دولة أكثر ممن كانوا يسمون بالدبلوماسيين في تلك الفترة.

ثم تمزق هذا الكيان السياسي متعدد القوميات المسمى بالنمسا أخيراً وذلك ليس دليلاً على عجز الجانب الألماني في تلك المنطقة الشرقية. فقد كان الانهيار نتيجة حتمية لموقف استحالة الفكك منه. حيث لم يستطع عشرة ملايين مواطن أن يتماسكوا معاً ويدعموا دولة بها خمسين مليون مواطن من قوميات مختلفة، في حين أن هناك اشتراطات مبدئية أولية كان لابد من تحقيقها أولاً ثم تحدث الفائدة منها فيما بعد.

❖ تميز ورُقِّي الألمانى النمساوي:

والألماني النمساوي صاحب فكر راق. فهو معتاد على الحياة في إمبراطورية كبرى ويعرف ما عليه من مسؤوليات في مثل ذلك الموقف. وهو المواطن الوحيد - من بين من يعيشون في الإمبراطورية - الذي ينظر إلى ما هو أبعد من الحدود التي يحكمها التاج. كما أنه على وعي بكل حدود الدولة. وفي الحقيقة، فقد خدمه القدر لأنه من الدولة الأم وقد حاول أن يقوم بالمهمة الكبرى التي أُلقيت عليه نتيجة لذلك. وهذه المهمة هي الحفاظ على موروث الألمان النمساويين والذي دافع عنه أسلافهم عدة مرات في الشرق. ولابد من أن نتذكر أن الألمان النمساويين لا يمكنهم التخلي عن ذلك أبداً لأن عقول وقلوب أفضل رجالهم كانت تتوق إلى أقربائهم في الأرض الأم، لذلك فهم يعملون بجزء من طاقتهم ويستبقون جزءاً ليستخدمونه في بلادهم الأم.

كما أن الآفاق العقلية للألماني النمساوي واسعة نسبياً. واهتماماته التجارية واضحة في كل قطاع من قطاعات الإمبراطورية متعددة القوميات. وهو يملك بين يديه إدارة جميع أكبر المشروعات المهمة تقريباً. وقد أمد الدولة بأنفع خبرائها وموظفيها، كما كان مسئولاً عن استمرار التجارة الخارجية في البلاد طالما أنها خارج سيطرة اليهود. ويعد الألماني النمساوي بمثابة الأسمنت الذي يدعم كيان الدولة. فهو يؤدي واجباته العسكرية بعيداً خارج حدود الدولة الأم. وعلى الرغم من أن المجند قد يلتحق بالنظام الألماني إلا أنه قد يعمل في الهرسك أو في فيينا أو غيرها. وكان الضباط في جيش هابسبرج لا يزالون من الألمان وكذلك كانت العناصر الكبرى المسيطرة على الخدمات المدنية، وكانت الفنون والعلوم في يد الألمان. وباستثناء تلك الفنون القذرة الحديثة التي يمكن أن تنتجها قبيلة من الزنوج، كان الفن الأصيل يخرج من بين يدي الألمان من الشعب. وكانت فيينا تمد الإمبراطورية بشطريها من معين لا ينضب في الموسيقى والمعمار والنحت والرسم.

وأخيراً فإن العنصر الألماني هو من يحدد السياسة الخارجية، وذلك بالرغم من أن عدداً قليلاً من المجرّبين يعملون في هذا الحقل.

وعلى أي حال فإن كل جهود الحفاظ على وحدة الدولة باءت بالفشل، وذلك لأنها افتقدت أهم ما يجب توافره فيها.

وكانت هناك وسيلة واحدة متاحة للسيطرة على القوى المتعددة لتلك القوميات المختلفة. وهذه الطريقة هي حكم الدولة النمساوية وتنظيمها من الداخل بالاعتماد على المركزية. وليست هناك طريقة أخرى يمكن تصورها للحفاظ على بقاء الدولة.

وكانت هناك فترات مضيئة يتم الوصول إليها عندما تشرق هذه الحقيقة. لكنها سرعان ما تصبح طي النسيان أو أن يتم تجاهلها عمداً وذلك للصعوبات التي تواجه تحويلها إلى حقيقة عملية. وكان لابد لكل مشروع يهدف إلى إعطاء الإمبراطورية شكلاً فيدرالياً أن يصبح غير فعال وذلك لأنه لا توجد سلطة مركزية يمكنها أن تمارس صلاحيات كافية في الدولة حتى تتماسك عناصر الفيدرالية معاً. ولابد أن نتذكر في هذا المجال أن الأحوال في النمسا كانت تختلف تماماً عن تلك الأحوال التي تميز الدولة الألمانية التي أسسها بسمارك. فكانت ألمانيا تواجه عقبة واحدة. وهي عقبة تغيير الأعراف السياسية، وذلك لأن الثقافة في دولة ألمانيا في عهد بسمارك كانت تنبع من مصدر واحد. وكانت الإمبراطورية تحتضن جنساً واحداً أو قومية واحدة مع أعداد بسيطة جداً من الأقليات الأجنبية.

❖ | النمسا وصراع القوميات:

أما الأحوال السكانية في النمسا فقد كانت على العكس تماماً. ففيما عدا المجر لم تكن هناك أي تقاليد سياسية، فهي صاحبة تاريخ عظيم يفوق أي دولة من دول التحالف. وحتى إن كانت هناك أي تقاليد سياسية، فإن الزمن قد محا أي أثر لها، أو على الأقل قلّلها إلى درجة لا تذكر. وهذا هو العهد الذي بدأت فيه مبادئ الدولة في التزايد، فأبقيت هذه الظاهرة الصفات القومية في تلك الدول المختلفة التي يتكون منها عرش هابسبرج. وكان من الصعب أن نسيطر على حركة تلك القوى الوطنية التي استيقظت لتوها. فقد كان هناك دول نامية تلاصق الإمبراطورية المزدوجة⁽¹⁾ وكانت شعوبها من نفس جنس القوميات التي تتكون منها إمبراطورية هابسبرج. وكانت تلك الدول الجديدة قادرة على ممارسة نفوذ أكبر من العنصر الألماني.

(1) المقصود بـ"الإمبراطورية المزدوجة" إمبراطورية النمسا والمجر والتي كانت تتكون من النمسا والمجر وبوهيميا (تشيكوسلوفاكيا) وأجزاء من رومانيا ويوغسلافيا (البوسنة والهرسك) وإيطاليا وكانت تسمى كذلك إلى أن انهارت بسبب الحرب العالمية الأولى.

وفي ذلك العهد أيضاً ظهر مبدأ القوميات، وحتى فيينا لم تستطع الصمود طويلاً أمام هذا الصراع. وعندما نشأت بودابست⁽¹⁾ وتحولت إلى مدينة كبيرة أصبحت منافساً يافعاً لم يكن من واجبه أن يحافظ على بقاء تماسك الأجزاء المتشعبة للإمبراطورية، بل مساندة جزء واحد منها فقط. وبمرور الوقت اتبعت براغ⁽²⁾ نفس أسلوب بودابست ثم اتبعتهم كثير من المدن بعد ذلك.

صعدت تلك المدن إلى مستوى المدن الكبرى بعد أن كانت مدناً إقليمية وأقيمت فيها مراكز ثقافية مستقلة. ومن خلال ذلك استمدت الصفات القومية المحلية أساساً روحياً أكبر وأحرزت مزيداً من التعمق في قلوب الناس. وكان لابد من مجيء الوقت الذي تقوى فيه اهتمامات تلك الدول المختلفة وتعلو على اهتماماتها الاستبدادية الخاصة. وبمجرد الوصول إلى هذه المرحلة كان حكم النمسا مضموناً.

كان هذا التطور ملحوظاً وواضحاً منذ موت جوزيف الثاني⁽³⁾. وكانت سرعة التطور تعتمد على عدد من العوامل، وكان لبعض تلك العوامل جذورها في داخل الإمبراطورية ذاتها، بينما نتجت بعض العوامل الأخرى عن موقف الإمبراطورية في السياسة الخارجية.

وكان من المستحيل أن تتجح أي جهود في تحقيق تماسك دائم في الدولة النمساوية إلا بتنفيذ سياسة مركزية حازمة ودائمة. ولابد من التمسك بمبدأ استخدام لغة واحدة كالغة رسمية للدولة قبل أي شيء آخر. وبذلك يمكن توكيد التوحيد الرسمي لهذه الدولة الشاسعة. وبذلك تسيطر الحكومة على مجريات الأمور التي لا يمكن أن تستمر الدولة متحدة بدونها. وبنفس الطريقة، يجب استخدام المدرسة وغيرها من أشكال التعليم في تلقين الإحساس بالموطنة. ومثل هذا الهدف يمكن تحقيقه خلال عشرة إلى عشرين عاماً. أما الجهود فهي تستمر لعدة قرون، وذلك لأن مشكلات الاستعمار وطول بقائه تعتبر عنصراً أهم بكثير من نتائج الجهود الحالية.

ومما لا شك فيه أنه في مثل هذه الظروف يجب أن تدار الدولة وتتم السيطرة عليها من منطلق التمسك بمبدأ الوحدة.

وبالنسبة لي، فقد تعلمت كثيراً عندما فكرت في سبب عدم حدوث ذلك أو بالأحرى لماذا لم يقم أحد بذلك؟ فمن تسببوا في الانفصال عليهم أن يتحملوا مسئولية انهيار إمبراطورية هابسبرج.

(1) بودابست: عاصمة جمهورية المجر.

(2) براغ عاصمة جمهورية تشيكوسلوفاكيا سابقاً والآن هي عاصمة دولة التشيك.

(3) جوزيف الثاني (1741-1790م) إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة (1765-1790م) وملك بوهيميا والمجر

(1780-1790م) وقد أنشأ عدة إصلاحات اجتماعية تهدف إلى كبح جماح الامتيازات الوراثية. (الناشر).

❖ | عدم كفاءة السلطة الحاكمة في النمسا:

وقد اعتمد وجود النمسا القديمة - أكثر من أي دولة أخرى - على وجود حاكم قدير وقوي. لكن إمبراطورية هابسبرج كانت تفتقد وحدة العرق التي تكون أساساً لدولة تقوم على القومية يستمر وجودها بالرغم من عدم كفاءة السلطة الحاكمة. فعندما تتكون الدولة من أفراد متجانسين فإن ذلك يساعد على تماسك الدولة والحفاظ على بقائها بالرغم من الفترات الطويلة من الحكم الخاطئ والإدارة السيئة. وعادة ما يحدث أن نشعر أن الحياة السياسية توقفت في مثل تلك النظم إلا أننا نجد أن الأمة الصامتة تنهض وتستعرض قدراتها الخارقة أمام العالم في الوقت المناسب، فتظهر ما لديها من طاقات.

لكن الموقف مختلف تماماً في الدولة التي يكون سكانها غير متجانسين، فليس هناك دم واحد يربطهم، لكن ما يربطهم هو نظام الحكم الواحد. فإذا ما أظهر نظام الحكم ضعفاً في هذه الدولة فإن ذلك لن يؤدي إلى بقاء الدولة في حالة سبات، لكنه سيوقظ الصفات الفردية التي تدعم قيام جماعات عرقية. وهذه الصفات لا تظهر طالما أن هناك حكماً مركزياً قوياً. كما أنها يمكن أن تصبح غير ضارة بعد عدة قرون من التعليم والتقاليد والاهتمامات المشتركة. وكلما كانت تلك الدول صغيرة، اعتمد كيانها على قدرات وقوة الحكومة المركزية. وإذا كانت نشأتها ناتجة عما قامت به شخصية قوية أو قائد يتصف بالعبقريّة، فإنها - وفي كثير من الأحيان - تنهار بمجرد اختفاء تلك الشخصية وذلك لأنها - بالرغم من عظمتها - شخصية تقف بمفردها. ولكن وحتى بعد عدة قرون من التعليم المشترك، فإن الصفات العرقية المفرقة التي تحدثت عنها قد لا تختفي تماماً. فقد تكون في حالة سبات ثم تستيقظ فجأة عندما يتضح ضعف التعليم والحكومة المركزية وتعجز عن الوقوف في وجه دعاة الانفصال وتكوين عرقيات واضحة المعالم.

وتكمن جريمة حكام هابسبرج المأساوية في عدم القدرة على إدراك كل هذه الحقائق. وقد أظهر القدر مستقبل الدولة جلياً أمام عيني أحد حكام عائلة هابسبرج، لكن ذلك لم يتكرر مرة أخرى.

فقد كان جوزيف الثاني - الإمبراطور الروماني للدولة الألمانية - شديد القلق عندما أدرك معنى نقل مقره ليصبح عند أطراف حدود إمبراطوريته وأن الوقت قد حان للانقلاب والتغيير بسبب تعدد الجنسيات، إلا أنه وفي اللحظة الأخيرة تغلب على العواقب الوخيمة التي نتجت عن إهمال من سبقوه من الحكام. فقد قام هذا العملاق القوي بكل ما يمكن عمله من جهود للتغلب على إهمال وكسل من سبقوه. واستطاع خلال عقد واحد من الزمان أن يصلح ما تم تخريبه في عدة قرون. وإذا ما كان القدر قد أمهله فرصة لمدة

أربعين عاماً أخرى، أو أن جيلين بعده استمروا فيما بدأه لكانت المعجزة قد تحققت. لكنه مات بعد عشر سنوات من الحكم وذهب عمله معه إلى داخل القبر، وسكن هناك إلى الأبد ولم تبد أي علامة لبث الروح في مثل هذا العمل مرة أخرى. ولم يكن من خلفوه قادرين على تلك المهمة ولا لديهم ما يكفي من سلطات قوية للقيام بها.

❖ | مظاهر الانهيار في النمسا:

وعندما لاحت أولى علامات الثورة في أوروبا انتشرت نيرانها تدريجياً في النمسا. وعندما انتشرت النيران وأصبحت واضحة في النمسا، دعمتها الظروف السياسية والاجتماعية ومدتها بالوقود اللازم، وذلك عن طريق تلك الجماعات العرقية المتعددة المنتشرة بين الوطنيين.

وقد اتخذت الحركة الثورية الأوروبية الأولى في عام 1848م شكل النزاع الطبقي في غالب بقية الدول تقريباً، لكنها اتخذت في النمسا شكلاً جديداً آخر من أشكال النزاع العرقي. وبمجرد أن نسي الألمان النمساويون أصول الحركة - أو ربما أخفقوا في ذلك - نجدهم يشاركون في الانتفاضة الثورية، وبذلك يحددون أقدارهم لأنهم ساعدوا في إحياء روح الديمقراطية العرقية التي - خلال وقت قصير - قضت على المبادئ التي قامت عليها.

وكانت الضربة الكبرى الأولى الموجهة إلى سيادة العنصر الألماني في تلك الإمبراطورية المزدوجة هي قيام برلمان دون الإصرار على أن تكون هناك لغة واحدة تستخدم في كل التعاملات الرسمية العامة في الدولة. ومنذ تلك اللحظة كتب على الدولة أن تنهار إن عاجلاً أم آجلاً. وكل ما حدث بعد ذلك لم يكن سوى تصفية تاريخية لما تبقى من الإمبراطورية.

وكانت متابعة تطور ذلك الانفصال مأساوية وتعليمية في نفس الوقت. فقد جاء تنفيذ قرار التاريخ محملاً بالآلاف التفاصيل. وكانت الأعداد الكبيرة ممن يعيش معصوب العينين من الناس لا تشعر بعلامات الانفصال وذلك يثبت أن الله قد حكم على النمسا بالدمار. وأنا لا أريد الدخول في تفاصيل ذلك لأنها خارج مجال هذا الكتاب. ولكنني أود أن أتناول تلك الأحداث التي كانت أسباباً مباشرة أدت إلى انهيار الأمم والدول ولذلك فهي مهمة بالنسبة لنا في العصر الحالي. كما أن دراسة تلك الأحداث ساعدت على تكوين نظرتي السياسية.

وكان البرلمان (المجلس الإمبراطوري) أو الريخستان كما كان يسمى في النمسا من بين أهم الهيئات التي عانت من مظاهر الانهيار التي استشرت في كل هيئات الدولة.

وكان من الواضح أن هذا المجلس قد أنشئ على غرار المجلس الموجود في إنجلترا، أرض الديمقراطية الجديدة. فقد نقل ذلك التنظيم الممتاز لهذه الهيئة إلى النمسا مع إجراء تعديلات بسيطة.

❖ الفرق بين البرلمان النمساوي والبريطاني:

اتباع النموذج النمساوي من المجلس - تماماً مثلما هو موجود في بريطانيا - طريقة القاعتين، للنواب ومجلس للعموم، وأقيم في فيينا. لكن المقرات كانت مختلفة إلى حد ما. فعندما بنى باري مقرات البرلمان على نهر التيمز كان يستحضر تاريخ الإمبراطورية البريطانية ليستلهمه في عمله. ووجد في هذا التاريخ مادة تكفي لـ 1200 ركن وزاوية وعمود في ذلك الصرح الشامخ. وقد جعلت رسومه وتمائيله من مجلس الشيوخ ومجلس العموم أماكن تدل على عظمة الأمة.

وهنا تواجه فيينا أولى الصعاب. فعندما انتهى هانسن - المهندس المعماري - من وضع آخر بلاطة في القصر الرخامي الذي سيكون مقراً للهيئة الجديدة من ممثلي الشعب كان عليه أن يعود إلى موضوعات العالم الكلاسيكي القديم لينجز خطة الديكور التي أعدها. وكان هذا الصرح المتكلف يتزين بصور وتمائيل رجال الدولة من الإغريق والرومان والفلاسفة. وقد كان رمزاً ساخراً غير مقصود، فالجوادان اللذان يزينان المبنىين يندفع كل منهما مبتعداً عن الآخر ويتجه إلى طرف بعيد من أطراف المعمورة. ولم يكن هناك رمز أفضل من ذلك للتعبير عما يحدث من أنشطة داخل هذا البناء.

وكان "القوميون" ضد أي نوع من أنواع تمجيد التاريخ النمساوي على ديكورات هذا المبنى، وأصرروا على أن ذلك يعتبر إهانة لهم وأنه سيثير كثيراً من الغضب.

وقد حدث نفس الشيء في ألمانيا، وذلك في مبنى "الرايخ ستاج" (البرلمان) الذي أنشأه "الوت"، فالمبنى لم يقدم إلى الشعب الألماني إلى أن دقت طبول الحرب العالمية. ثم كتب عليه الإهداء.

كنت في العشرين من عمري عندما دخلت ذلك القصر لأول مرة لأشاهد وأسمع ما يدور في قاعات النواب.

وكنت دائماً أكره البرلمان، ليس كهيئة في حد ذاتها، لكن على العكس تماماً. كنت أكرهه كمكان يضع التصورات للحرية السياسية التي لم أكن أتصورها من الحكومة. ومن خلال نظرتي لعائلة هابسبرج كنت أعتبر أن التفكير في أي نوع من الدكتاتورية كطريقة للحكم هو جريمة ضد الحرية والعقل.

كما أن إعجابي بالبرلمان البريطاني ساعد في تكوين ذلك الرأي، ولقد تشربت بذلك الشعور بالإعجاب دون أن أشعر بتأثيره على ما أقرأ من صحف، بينما كنت لا أزال

صغيراً في السن. ولم يكن من الممكن أن أتخلص من كل ذلك الإعجاب فجأة. فقد أثرت فيّ بشدة تلك الطريقة التي ينجز بها مجلس العموم البريطاني وظيفته، وهذا التأثير بسبب المصطلحات البراقة التي تنقل بها الصحف النمساوية أخبار ذلك المجلس إلينا. وقد اعتدت أن أسأل نفسي: هل توجد طريقة أفضل من حكم الشعب لنفسه؟

لكن هذه الاعتبارات وضعت الأساس الذي قامت عليه كراهيتي للبرلمان النمساوي. فالطريقة التي يظهر بها الممثلون في البرلمان تبدو بلا قيمة عند المقارنة مع النموذج المقارن به. كما أن توجهي هذا قد تأثر أيضاً بما يلي :

❖ | العنصر الألماني في البرلمان النمساوي:

اعتمد بقاء العنصر الألماني في النمسا على موقفه في البرلمان. وحتى الوقت الذي تم العمل فيه بموافقة الغالبية بالاقتراع السري، كان الألمان من النواب هم الأغلبية في البرلمان، بالرغم من أنها لم تكن أغلبية مؤثرة. وقد كان ذلك سبباً في إحداث توتر لأن نسبة الاشتراكيين الديمقراطيين لا يمكن الاعتماد عليها عندما يدور نقاش حول قضايا وطنية. وكان الاشتراكيون الديمقراطيون يقفون ضد الألمان في القضايا ذات الأهمية الكبرى بالنسبة للعنصر الألماني، وذلك لأنهم يخشون فقدان تأييد أتباعهم من جماعات القوميات الأخرى. وفي ذلك الوقت - وقبل استخدام الموافقة الجماعية - لم يكن من الممكن اعتبار الحزب الاشتراكي الديمقراطي حزباً ألمانياً. وقد وضع البدء في استخدام طريقة الموافقة الجماعية نهاية للنزق العددي الواضح للعنصر الألماني، فأصبح الطريق واضحاً أمام التخلص من ألمنة الدولة النمساوية.

وقد أدت الغريزة القومية عندي وحب بقائها إلى استحالة أن أرحب بنظام تمثيل لا يوجد فيه العنصر الألماني بطريقة لائقة، كما أنه في حالة تضليل مستمر من جانب شريحة الاشتراكيين الديمقراطيين. وكان من غير الممكن أن نعزو كل هذا وغيره من العيوب إلى النظام البرلماني فقط ولكن أيضاً إلى الدولة النمساوية بذاتها. فلازلت أعتقد أنه إذا كان من الممكن استعادة الأغلبية الألمانية في الهيئة البرلمانية، فلن تكون هناك فرصة لمعارضة هذا النظام طوال فترة بقاء الدولة النمساوية القديمة.

❖ | زيارة إلى البرلمان النمساوي متعدد القوميات:

هكذا كان الموقف العام في ذلك الوقت، عندما دخلت تلك القاعات الجليدة كثيرة النزاعات. وكنت أعتبرها جليدة نظراً لما تحتويه من جمال وعظمة الصرح المعماري. إنها أعجوبة إغريقية على أرض ألمانية.

لكنني سرعان ما غضبت للمنظر البشع الذي وقعت عليه عيناى. فقد كان هناك عدة مئات من النواب يناقشون مشكلة اقتصادية كبرى وهامة وكان لكل نائب الحق في أن يقول رأيه.

وقد كانت تلك التجربة التي تمت في يوم واحد كافية لتزويدي بما يكفيني لعدة أسابيع بعد ذلك.

كان المستوى الفكري للحوار منخفضاً جداً. وأحياناً لم يكن الجدل مفهوماً على الإطلاق. وكان العديد من الموجودين لا يتحدثون باللغة الألمانية بل بلغتهم العامية السلافية أو بلهجات محلية. لذلك فقد سنحت لي الفرصة لأن أستمع بأذني لما كنت حتى ذلك الوقت أحصل عليه من الصحف. إنهم مجموعة مضطربة من الناس، الكل يلح في كلامه إلى الآخرين ويوبخهم. وهناك واحد منهم من كبار السن يثير الشفقة، فهو يقرع الجرس ويبذل مجهوداً شديداً حتى يعود المجلس إلى هدوئه ورزائته بعد أن يستعطفهم بود، ثم ينبههم، ثم يحذرهم بشدة. لم أستطع مقاومة الضحك.

وبعد عدة أسابيع أخرى قمت بزيارة ثانية. وفي هذه المرة رأيت المجلس بصورة مختلفة تماماً، لدرجة أنني اكتشفت أنه نفس المكان بصعوبة بالغة. فقد كانت القاعة شبه خالية، كانوا نائمين في الغرف السفلية. وكان هناك القليل من النواب فقط يجلسون في مقاعدهم، يتتأهبون في وجوه بعضهم البعض. وكان واحد منهم يلقي خطبة. وكان هناك نائب يجلس على كرسي رئيس الجلسة وهو ينظر حوله في ملل.

ثم بدأت بعد ذلك أفكر بجدية في الأمر ككل. وكنت أذهب إلى البرلمان كلما توافر لدي وقت لأشاهد ما يحدث في صمت ولكن بتيقظ. استمعت إلى الحوارات طالما أنها مفهومة، كما درست الصفات المميزة لتلك "النخبة" من النواب متعددي القوميات التي تتكون منها الدولة متعددة الأطياف. وبالتدريج تكونت آرائي حول ما أشاهد.

وكان عام من المتابعة الهادفة كافياً لتحويل أو تدمير أفكاري السابقة حول هذا البرلمان بالكامل. فلم أعد أعارض الهيئة الفاسدة المفروضة على البرلمان النمساوي فقط. لا... فقد أصبح من المستحيل أن نقبل النظام ذاته. وكنت حتى ذلك الوقت أعتقد أن العيوب المهلكة في البرلمان النمساوي كانت بسبب عدم وجود الأغلبية الألمانية، لكنني عرفت الآن أن الهيئة نفسها سيئة من حيث الشكل والمضمون.

وقد فرضت عدة مشكلات نفسها على تفكيري. فقد درست المبدأ الديمقراطي "اتخاذ القرار بأغلبية الأصوات" عن قرب، كما درست أيضاً الأهمية الأخلاقية والأدبية للنواب، فهم من اختارتهم الأمة وأسندت إليهم مهمة العمل في هذه الهيئة.

وهكذا وفي نفس الوقت تعرفت على البرلمان ذاته وعلى الموجودين فيه. ولذلك وخلال عدة أعوام استطعت تكوين صورة واضحة وحية لأكثر الظواهر لفتاً للأنظار في عصرنا - وهي نائب البرلمان. أما الصورة التي أخذتها أنا عنه فقد حفرت في ذهني ولم تتغير منذ ذلك الوقت.

ومرة أخرى منعتني تلك الدروس التي أخذتها من واقع الحياة من التمسك بنظرية قد تتخدع كثيراً من الناس للوهلة الأولى، بالرغم من أن هذه النظرية في حد ذاتها قد تكون عرضاً من أعراض تدهور الإنسان.

❖ الديمقراطية والماركسية:

حيث تبشر الديمقراطية التي تمارس في غرب أوروبا اليوم بالماركسية. وفي الحقيقة، لن تتمكن الأخيرة من الظهور دون وجود الأولى. فالديمقراطية هي البيئة التي ينمو فيها الوباء الماركسي ويكبر وينتشر. ومع البدء في استخدام نظام البرلمان أجهضت الديمقراطية الفحش والبذاءة⁽¹⁾ لكن نيرانها خبأت ولم تعد مؤثرة.

وأنا مدين للقدر لأنني صادفت هذه المشكلة وأنا لا أزال في فيينا. وذلك لأنني إن كنت في ألمانيا في ذلك الوقت ربما كنت أجد لها حلاً سطحياً. ولو أنني كنت في برلين عندما أدركت لا منطقية هذا الكيان البرلماني فربما اتجهت إلى أقصى الطرف الآخر واعتقدت - مثل كثير من الناس ودون سبب وجيه - أن الحل أمام الشعب والإمبراطورية يكمن في دعم وإعادة مساندة مبدأ السلطة الاستبدادية. إن من يعتقدون في ذلك لا يدركون ما حولهم من نزعات، كما أنهم يجهلون آمال الشعب.

وفي النمسا، كان من غير الممكن أن أضل بسهولة. فمن المستحيل الوقوع في خطأ تلو الآخر. فإذا كان البرلمان عديم الفائدة فإن عائلة هابسبرج أسوأ منه، أو أنها ليست أفضل منه بأي حال على أقل تقدير. كما أن المشكلة لا تحل بمجرد رفض النظام البرلماني. فالسؤال يفرض نفسه فوراً: وماذا بعد؟ إذا تم إلغاء برلمان فيينا والتبرؤ منه، فإن نتيجة ذلك أن نترك كل الصلاحيات في أيدي عائلة هابسبرج. وكانت هذه الفكرة بالذات مستحيلة بالنسبة لي.

وبما أن تلك المشكلة كانت صعبة في النمسا، كان على وأنا لا أزال في سن مبكرة أن أستعرض كل الجوانب الهامة للقضية بعمق أكثر مما أفعل.

(1) من الواضح من هذا التعبير وتعابير أخرى في الكتاب الأصلي تأثر هتلر بمسرحية "دكتور فاوست" فقد استعار كثيراً من تعبيراتها في كتابه.

وكان عدم وجود أي مسئولية من أي نوع ملقاة على الهيئة البرلمانية هو أهم ما لفت نظري وأثر فيّ ودفعني إلى التفكير الجاد.

❖ الآثار المدمرة للبرلمان..

وقد أصدر البرلمان عدة قرارات أو قوانين كانت لها أكثر الآثار المدمرة. وبالرغم من ذلك فلا يوجد من هو مسئول عنها. ولا يوجد من يمكن استدعاؤه للسؤال. وكان من المؤكد أننا لا نستطيع القول أن الوزارة تنتهي مسئوليتها بعد انتهائها إذا جلبت لنا الدمار. كما لا يمكننا القول بأن مسئوليتها عما قامت به تنتهي عند تواجد ائتلاف جديد في الوزارة أو عند حل البرلمان. فلا بد إذن أن يكون هناك من هو مسئول عما يتخذ من قرارات، وأن نتحدد هذه المسئولية في فرد.

فهل كان من الممكن أن يستدعى قادة البرلمان أمام أي نوع من المحاكمة بناء على طلب من النواب وأن يصدر أمر بذلك ؟ لا... فبدلاً من وضع أفكار وخطط بناءة كان على رجل الدولة أن يحاول أن يجعل الرؤوس المتحجرة تفهم ما يقدم من مشروعات. فهل من واجباته أن يدرّبهم ويعلمهم حتى ينال رضاهم الثمين ؟

فهل كان من الضروري لرجل الدولة أن يكون موهوباً في الإقناع بقدر يناسب قدرته على تصور الضوابط السياسية الكبرى وتحقيقها عملياً ؟

وهل يعني إخفاق رجل الدولة في تحقيق أغلبية في الأصوات لتأييد سياسته في المجلس أنه غير كفء، حتى وإن كان الحاضرون قد حضروا بالصدفة واستخدم نظام تصويت لا يدار دائماً بنزاهة ؟

وهل كانت هناك أي حالة من قبل امتدح فيها مجلس كهذا مفهوماً سياسياً عظيماً قبل أن يتم تطبيق هذا المفهوم عملياً، ثم ثبتت عظمته ونجاحه أمام الجميع ؟

وماذا يفعل رجل الدولة إن لم ينجح في كسب البرلمانيين متعددي النزعات ونيل رضاهم حول سياسته ؟ هل يشتري هذا الرضا مقابل نوع من المكافآت ؟

أو ... عندما يواجه رجل الدولة غياباً وعناداً من مواطنيه، فهل يتوقف عن دفع ودعم الإجراءات التي يراها مهمة جداً لحياة الأمة ؟ هل يتقاعد أم يظل في منصبه ؟

وفي مثل هذه الأحوال، ألا يجد صاحب الشخصية الجيدة نفسه وجهاً لوجه مع تناقض لا تفسير له بين ما يؤمن به من أفكار سياسية من جهة وأخلاقياته - أو بالأحرى أمانته - من جهة أخرى ؟

فأين نرسم الخط الفاصل بين الواجب العام والكرامة الشخصية ؟

أليس من واجب كل قائد حقيقي أن يتبرأ من فكرة نزوله إلى منزلة السمسار في مجال السياسة ؟

ومن جهة أخرى، ألا يشعر كل سمسار بالخرج من العمل بالسياسة، ألا يرى أن المسؤولية في النهاية لن تلقى عليه شخصياً، ولكنها ستلقى على مجموعة كبيرة من الناس لا يمكن استدعاؤها لسؤالها عما تفعل ؟

أليس من الممكن أن يؤدي برلماننا الذي يستخدم وسيلة الأغلبية العددية إلى تدمير مبدأ القيادة ؟

وهل يعتقد أي فرد أن تقدم الإنسان يكمن في عقل الأغلبية فقط وليس في عقل شخص واحد فقط ؟

أو هل يمكن أن نفترض أن الحضارة الإنسانية في المستقبل ستكون قادرة على التمشي مع هذا الوضع على اعتبار أنه شرط لبقائها ؟

ألسنا نحتاج اليوم - أكثر مما مضى - إلى عقول خلاقة وبصورة لا يمكن الاستغناء عنها ؟

إن المبدأ البرلماني الذي يضيف قوة تشريعية على قرار الأغلبية يرفض مبدأ السلطة الفردية ويحدد نسبة عددية ممن هم متواجدون بالقاعة لتتم الموافقة. وهذا يتعارض مع المبدأ الأرستقراطي وهو قانون طبيعي قديم. لكن علينا أن نتذكر بالطبع - أن هذه الفترة انحطت فيها مبادئ الأرستقراطية، ولا يمكن تطبيق ذلك على العشرة آلاف الأولى من علية القوم.

ومن يقرأ الصحافة اليهودية لن يلاحظ بسهولة ذلك الأثر المدمر الذي أحدثه البرلمان إن لم يكن ذا فكر مستقل ويمكنه تناول الحقائق بنفسه. فالبرلمان مسئول مبدئياً عن اندفاع عامة الناس من الطبقة الوسطى إلى مجال السياسة. وعند مواجهة هذه الظاهرة فإن من يملك صفات القيادة قد يمتنع عن المشاركة في الحياة السياسية، وذلك لأنه في ظل هذه الظروف فإن الموقف لا يستدعي رجلاً ذا قدرات بناء دولة ولكن رجل قادر على الجدل لصالح الأغلبية. وعليه فإن هذا الموقف يروق للبسطاء ويجذبهم بسرعة.

❖ | السمسار السياسي..

وكلما كان السمسار السياسي ضيق الأفق وكلما كانت معارفه ضئيلة، كانت قدراته أعلى عندما يحسب رصيده السياسي، كما أنه سيكون ميالاً لاحترام النظام الذي لا يحتاج إلى قدرات خلاقة أو حتى مواهب من الطبقة العالية أو هذا النوع البارع من المواهب

العالية. وهذا السمسار يقيّم هذا النوع من ذوي المواهب المتوسطة والبسيطة أكثر من أهل العبقريّة الفذة. وهو يعرف دائماً أن نتيجة أي شيء يفعله مقبول كرجل دولة وأن نهايته ستكون دائماً عالياً عند النجوم، وأن عليه في يوم ما أن يفسح المجال أمام غيره ممن يملك نفس العقلية. وهذه علامة أخرى من علامات عصرنا المنقسخ، حيث يتزايد عدد رجال الدولة باستمرار ويتراجع عدد الشخصيات الفردية العظيمة. وسنجد أن الرجل ذا القدرات السياسية الحقيقية يرفض أن يعمل حاجباً لمجموعة من الحمقى. وهؤلاء الحمقى يمثلون الأغلبية- أي الأكثرية متحجرة العقول.

وحتى يتم خداع النواب، فلا بد من وجود قائد متساو معهم في العقلية. لذلك ستكون الفرصة متاحة أمام كل فرد منهم ليجادل وهو بين نظرائه، لذلك فإن كل واحد منهم يشعر بأنه قد يصل إلى القمة يوماً ما. فإذا كان "بيتر" في القمة اليوم، فلماذا لا يكون "بول" في القمة غداً؟

وهذا الاختراع الجديد للديمقراطية يرتبط بشدة مع ظاهرة غريبة انتشرت حديثاً إلى درجة ضارة، وهي ظاهرة جبن قطاع كبير من قاداتنا السياسيين. فعندما تكون هناك قرارات هامة يجب أن تتخذ، فهم يسعدون بحظهم الذي يجعلهم يختفون خلف ما يسمى بالأغلبية.

وبمتابعة أحد أولئك المتلاعبين بالسياسة فإننا نلاحظ كيف يتملق الأغلبية من أجل الحصول على موافقتها على أي إجراء يتخذه. وعليه أن يشارك في الجريمة لكي يتمكن من نقل المسؤولية عنها إلى أكتاف الآخرين في الوقت المناسب. وهذا هو السبب الرئيسي الذي جعل هذا النوع من النشاط السياسي مكروهاً من جانب الشجعان وذوي الشخصيات القوية، لكنه وفي الوقت نفسه يجذب الأنواع الأدنى من الناس، وذلك لأن الشخص غير الراغب في أن يكون مسؤولاً عما يفعل ويبحث دائماً عما يتخفى وراءه يجب أن يصنف على أنه من الخدم والأوغاد. فإذا ما صادف أن يخرج القائد الوطني من بين صفوف طبقة السياسيين الدنيا، فسرعان ما تفصح النتائج الخبيثة عن نفسها. ولن يجرؤ عندئذ أي فرد أن يقوم بخطوة مهمة. سيستسلم الجميع أمام البذاءة والافتراءات بدلاً من استجماع الشجاعة واتخاذ موقف محدد. ولكن ليس هناك من هو مستعد للمغامرة بمنصبه وعمله في مقابل الدفاع عن منهج سياسي محدد.

وهناك حقيقة يجب دائماً أن تكون في أذهاننا، وهي أن الأغلبية لا يمكن أبداً أن تحل محل الفرد. وهي لا تمثل الجهل فقط بل تمثل الجبن أيضاً. فمائة رأس مقولب لا تساوي عقل رجل مفكر. أي أن مائة جبان لن يكونوا قادرين على دعم أي خط سياسي يحتاج إلى أخلاق وقوة وصبر.

وكلما كان عبء المسؤولية على كتف كل قائد خفيفاً، زاد عدد هؤلاء الذين يشعرون

بضرورة التخلص من طاقاتهم التي لا تتوقف من أجل الأمة، حيث لن يستفيدوا منها. فهم أهم المستبعبين لدرجة أنهم يجدون صعوبة في الانتظار إلى أن يأتي دورهم، فهم يقفون في صف طويل ويتألمون ويحزنون عندما يعدون من هم أمامهم ويحسبون الساعات التي سوف تمر قبل أن يصلوا إلى المقدمة. كما أنهم يتابعون كل تغير يحدث في العاملين في المناصب التي يطمحون إليها ويسعدون بكل فضيحة تطيح بواحد من المنتظرين قبلهم. فإذا ما تمسك أحدهم بمقعده لفترة طويلة فإنهم يعتبرون ذلك انتهاكاً لتفاهم معترف به يقوم بينهم. وهم يغضبون ولا يهدأون إلى أن يضطر هذا الشخص المتهور إلى الخروج وترك منصبه. وبعد ذلك تكون فرصته في الحصول على فرصة أخرى ضئيلة. وعادة ما يضطر هؤلاء الناس من أصحاب المقاعد إلى التخلي عن مناصبهم إلى الوقوف في طابور انتظار آخر إلا إذا تم استبعادهم نتيجة احتجاج الآخرين من الطامحين إلى نفس الهدف والواقفين في نفس الطابور.

ونتيجة ذلك كله هي تغيرات متتالية في المناصب العامة والوظائف العليا مع تأثير طفيف على العامة، لكنه قد يؤدي إلى كارثة بسهولة في حالة نشوء أزمة عكسية. ولا يقع الجهلاء وقليلو الخبرة فقط كضحايا لهذه الحالة البرلمانية، وذلك لأن القائد الحق قد يتأثر بها مثله في ذلك مثل الآخرين - إن لم يكن أكثر منهم - لذلك فعندما تسنح الفرصة أمام رجل قدير ويصل إلى موقع القائد، فإنه بمجرد اتضاح تفوق هذا القائد تتكون ضده جبهة متحدة ومنظمة، وخاصة إذا كان لأبد هذا القائد - بالرغم من أنه ليس من نفس الطبقة - أن يندمج مع هؤلاء السذج من المشاهير وينزل إلى مستواهم. إنهم يريدون من ينضم إلي فريقهم ويتخذون موقفاً عدائياً ضد أي رجل يستعرض ذاته بوضوح فيطفوا فوقهم جميعاً ويعلموا على مكانتهم. وهذه الموهبة حادة وظاهرة جداً عندهم بالرغم من أنهم غافلون عن موضوعات أخرى.

وتكون النتيجة الحتمية هي التذني المستمر للمستوى الفكري للطبقة الحاكمة. ويمكن للفرد أن يتنبأ دائماً بمقدار معاناة الأمة من تلك الحالة إذا كان لا ينتمي إلى تلك الطبقة من "القادة".

❖ النظام البرلماني وكفاءة النواب:

وكان النظام البرلماني في النمسا القديمة يمثل النموذج الأصلي للوصف الذي ذكرته من قبل.

وعلى الرغم من أن إمبراطور النمسا كان يختار رئيس الوزراء النمساوي، إلا أن هذا الاختيار لا يصبح نافذاً إلا بعد موافقة البرلمان. وقد اتضحت كل معالم الديمقراطية الغربية في الجدل والمساومة حول كل منصب وزاري. كما أصبحت الفترة ما بين

استبدال شخص بآخر في منصب ما أقصر تدريجياً، وهي تنتهي بمطاردة عنيفة. ومع كل تغيير تتراجع صفات رجل الدولة في المنصب المعني، ولا يبقى في النهاية سوى ذلك النوع الحقير من المساومين السياسيين. وتقاس صفات رجال الدولة طبقاً لمقدار البراعة التي يتعاملون بها مع بعضهم البعض، وعن طريق تلك البراعة يضمون إتلافاً صغيراً لغيره من الائتلافات، واحداً تلو الآخر. أو بمعنى آخر، فإن البراعة في التعامل مع الصفقات السياسية الصغيرة هي النشاط السياسي الوحيد المناسب لقدرات هؤلاء النواب.

وفي هذا المنطلق، كانت فيينا هي المدرسة التي تقدم أكثر الأمثلة المؤثرة.

وهناك صفة أخرى لفتت اهتمامي تماماً مثل الصفات التي تكلمت عنها، وهي التناقض بين مواهب ومعارف نواب الشعب من جهة وطبيعة المهام التي يواجهونها من جهة أخرى. ولا يستطيع الإنسان أن يقاوم التفكير الجاد - سواء أراد ذلك أم لا - في هذا المظهر المعرفي الضيق لهؤلاء النواب المختارين والقادمين من قوميات متعددة، كما لا يمكننا أن نتجنب التفكير العميق في النظريات التي اكتشفها رموز النبلاء في حياتنا العامة.

وكان من الضروري أن أقوم بدراسة متعمقة وأن أتفحص الطريقة التي يخلص بها هؤلاء السادة في خدمة وطنهم، أو بمعنى آخر: التحليل الدقيق للطريقة الفنية التي يمارسون بها نشاطهم.

وتصبح الصورة العامة للحياة البرلمانية أكثر بؤساً كلما تعمقنا في تكوينها ودرسنا أفرادها ومبادئها بموضوعية شديدة. وفي الحقيقة، فمن الضروري جداً أن نكون موضوعيين بشدة عند دراسة هيئة يتحدث المسؤولون فيها عن "الموضوعية" في كل أحاديثهم وذلك كأساس عادل وحيد للاختبار وإصدار الأحكام. فإذا ما درسنا هؤلاء السادة وقوانين بقائهم تكون النتيجة مدهشة.

لن نجد مبادئ تعجز عن أن تكون مقنعة عندما نتناولها بطريقة موضوعية مثل المبادئ البرلمانية.

وفي فحصنا هذا نتناول الطرق التي يتم من خلالها انتخاب النواب، وكذلك الطرق التي تأتي بهم إلى مناصبهم وتضفي عليهم ألقاباً جديدة. فمن الواضح جداً أن طريقة الانتخاب تحقق قدراً بسيطاً جداً من رغبة العامة من الناس أو الضرورات العامة. ويرى كل من يقدر الذكاء السياسي لجموع المواطنين بدقة أنه غير كاف بقدر يمنحهم حكمة سياسية خاصة تمكنهم من إصدار أحكام في الأمور السياسية، أو من اختيار الأكفاء القادرين على التنفيذ العملي لما لديهم من أفكار.

وفي أي تعريف يمكن أن نقدمه للمصطلح "الرأي العام" نجد أن جزءاً صغيراً منه فقط ينتج عن خبرات شخصية أو رؤية فردية. لكن الجزء الأكبر من التعريف ينتج عن الطريقة التي تقدم بها الموضوعات العامة للناس من خلال نظام معلومات شامل ومؤثر ومستمر.

أما من الناحية الدينية، فإنها تتأثر بشدة بالتعليم، فالباعث الديني ذاته يكمن في داخل الفرد، مثله في ذلك مثل الآراء السياسية الخاصة بجموع المواطنين، وكل ذلك يأتي كنتيجة لتأثيرات تفاعلت في داخل عواطف الفرد وعقله وبناء على النظريات التي يطبقها أحياناً بدقة متناهية ومثابرة.

❖ الصحافة ودورها الخطير في توجيه الناس:

وأكثر أفرع التعليم السياسي - والذي من الأفضل أن نسميه دعاية - فاعلية يأتي من الصحافة. فالصحافة هي الوسيلة الرئيسية المستخدمة في عملية التثوير السياسي. إنها مدرسة لتعليم الكبار. وهذا النشاط التعليمي على أي حال لم يكن في أيدي الدولة لكنه في قبضة شخصيات دينية. فبينما كنت لا أزال شاباً صغيراً في فيينا لاحظت لي فرص ممتازة كي أعرف من يملكون هذه الآلة (الصحافة) التي تعلم جموع المواطنين، وكذلك الذين يمدونها بما تنتشره من أفكار. وفي البداية اندهشت جداً عندما أدركت كيف استطاعت تلك القوى الكبرى في الدولة أن تنتشر معتقدات محددة عند عامة الناس خلال وقت قصير. وبذلك يخلت تكوين الإرادة الحقيقية والمعتقدات الثابتة عند عامة الناس. ويكفي الصحافة عدة أيام فقط لكي تحول أمراً تافهاً إلى قضية هامة للأمة، بينما تتجاهل مشكلات حيوية أخرى تماماً وتخفيها عن أعين العامة.

❖ الصحافة والطريقة اليهودية سيئة السمعة!

وقد برعت الصحافة في الفن السحري لصعود أسماء لم تكن معروفة من قبل خلال أسابيع معدودة. كما أنها ربطت بين تلك الأسماء وبين تحقيق الآمال العظمى لجموع المواطنين. وسرعان ما تستطيع جعل تلك الأسماء أكثر شهرة من أي شهرة يحققها شخص ذو قدرات حقيقية طوال حياته. يحدث كل ذلك بالرغم من أن تلك الأسماء لم تكن معروفة ولم يسمع عنها أحد حتى قبل شهر واحد من أن تزينهم الصحافة في أعين الناس. وفي نفس الوقت نجد أن قدامى المحنكين من السياسيين وغيرهم سرعان ما يخفون من ذاكرة العامة وينسونهم تماماً كما لو كانوا موتى، وذلك بالرغم من أنهم لا يزالون على قيد الحياة ويتمتعون بصحة جيدة وحيوية تامة، بل أحياناً يساء معاملتهم هؤلاء الناس جداً لدرجة أن أسماءهم سرعان ما تصبح رموزاً لأسوأ أنواع الخسة والدناءة. ولكي نقيس التأثير

الضار الحقيقي الذي تمارسه الصحافة، فلا بد لي أن أدرس الطريقة اليهودية سيئة السمعة والتي من خلالها يلوثون سمعة الرجال المحترمين المهذبين بوحل وقاذورات لا تليق بهم، وهذه طريقة دنيئة من طرق استخدام الصحافة لتشويه السمعة، وهي تعتمد على الانتشار في جميع الأنحاء كما لو كانت تتبع طريقة سحرية. إن قطاع الطرق هؤلاء يخطفون كل ما يقع تحت أيديهم ويخدم أهدافهم الشريرة.

إنهم يحشرون أنوفهم في العلاقات العائلية الحميمة جداً ولا يرتاحون إلا عندما يصلون إلى شيء تافه يمكنهم استخدامه لتدمير سمعة ضحيتهم. ولكن إذا لم ينتج كل هذا التلصص عن عدم اكتشاف أي شيء يحط من قدر الضحية أو له علاقة بحياته الخاصة أو العامة، فإنهم يستمرون في سبه ولعنه على أمل أن تلتصق به أي من الانتقادات التي يوجهونها إليه بالرغم من إنكاره لها آلاف المرات. وفي أغلب الحالات يصبح من المستحيل أن يستمر الضحية في دفاعه، وذلك لأن من يتهمه يعمل مع شركاء آخرين له في الجريمة يرددون ما يقول وبلا ملل. وهؤلاء الأوغاد لن يعترفوا أبداً بأنهم يعملون من خلال دوافع لا يدركها العامة أو يفهمونها. لا ... لا. بل إن الوغد الذي يسيء لسمعة معاصريه بهذه الطريقة الشريرة يمكن أن يتوج نفسه بتاج الأمانة ويستخدم العبارات الناعمة ويتغنى بـ "واجباته كصحفي" إلى غير ذلك من العبارات المقولبة. وعندما تجتمع تلك الأسماك الحبارة⁽¹⁾ مع بعضها يتحدثون بكثير من الأحاديث الواهية عما يسمونه بنوع خاص من الشرف وهو شرف مهنة الصحفي. ثم ينحنون ويحيون بعضهم.

هؤلاء هم المخلوقات التي تصنع ثلثي ما يسمى بالرأي العام، ومن خلال ما يقوله الرأي العام تدار الحياة البرلمانية.

وإذا أردت أن أكتب موضوعاً مستوفياً عن تلك العملية بالكامل وأصف كل ما فيها من مظاهر خادعة وجوفاء، فإنني سأحتاج إلى عدة كتب. لكننا إذا تغاضينا عن التفاصيل ونظرنا إلى المنتج نفسه أثناء تشغيله، فإن ذلك في حد ذاته - حسبما أعتقد - كاف ليفتح عيون أكثر الناس سذاجة وبراءة فيروا عبثية هذه الهيئة إذا تناولوها بموضوعية شديدة.

❖ التمثيل البرلماني الديمقراطي والديمقراطية الحقيقية!

ولكي ندرك أن هذا الانحراف ضار وعبثي، فإن أبسط طرق الاختبار هو أن نقارن التمثيل البرلماني الديمقراطي مع الديمقراطية الألمانية الحقيقية. إن أهم صفة للنظام البرلماني الديمقراطي هو أن يتم اختيار عدد من الناس - ليكون

(1) يشبه هتلر الصحفيين الذين يلطخون سمعة الأبرياء بالسّمك الحبار الذي يستخدم الحبر في مهاجمة أي خطر يعرضه.

خمسائة فرد ومن بينهم نساء كما حدث مؤخراً - ليعملوا كنواب في البرلمان ويحولون بصلاحيات إصدار الأحكام النهائية على أي شيء وكل شيء. ومن الناحية العملية، فهم وحدهم يعتبرون الهيئة الحاكمة. فعلى الرغم من أنهم يختارون وزارة تبدو من الخارج أنها تسير أمور الدولة، إلا أن هذه الوزارة ليس لها وجود في حد ذاتها. وفي الحقيقة، إن ما يسمى بالحكومة لا تستطيع فعل أي شيء ضد إرادة المجلس. ولا يمكن محاسبتها على أي شيء وذلك لأن القرار لا يتخذ في الوزارة ولكن من خلال الأغلبية البرلمانية. والحكومة تعمل دائماً كجهاز تنفيذي يقوم بما تأمر به الأغلبية. ويمكن الحكم على قدرات الحكومة السياسية فقط طبقاً لمدى نجاحها في التوافق مع إرادة الأغلبية أو في تحفيز الأغلبية للموافقة على تنفيذ مقترحاتها. لكن هذا يعني أنها تنزل من مستوى السلطة الحاكمة فعلاً إلى مستوى من يستجدي موافقة الأغلبية التي لا بد منها. وفي الحقيقة فإن أول ما تهتم به الحكومة هو أن تؤمن ذاتها. فهي إما أن تتألب حب وتفضيل الأغلبية أو تسعى إلى تكوين أغلبية بديلة تساندها. فإذا ما نجحت في أي من المحاولتين السابقتين، فإنها تستمر في السلطة لفترة أطول. أما إذا أخفقت في ذلك فلا بد لها أن تتسحب. والتساؤل عما إذا كان ذلك القرار صحيحاً أم خاطئاً ليس له أي معنى.

وهكذا لا توجد أي مسئولية عملية. وهذه الحالة تؤدي إلى نتائج يمكن فهمها بسهولة من الاعتبارات التالية :

جاء النواب الخمسمائة الذين اختارهم الشعب من فئات مختلفة، كما تتضح فروق القدرات السياسية فيما بينهم أيضاً، وينتج عن ذلك أنهم جميعاً غير مترابطين وأحياناً ما يبدو بمظهر مؤسف. ومن المؤكد أنه لا يوجد من يعنقد أن نواب الأمة الخمسمائة هم من صفوة العقول. فليس هناك - وأتمنى ذلك - من هو على قدر كاف من الحماقة حتى يدعى أن مئات من رجال الدولة يمكن أن يبرعوا بسبب أوراق وضعها الناخبون في صناديق الاقتراع وهم ليسوا سوى أناس على قدر عادي من الذكاء. كما أن المقولة العبثية التي تدعي بأن العباقرة يولدون من خلال الموافقة الجماعية يمكن إنكارها بقوة. أولاً لأننا قد نكون في عصر مبارك حقاً عندما يظهر رجل الدولة الأصيل بين الناس. وهو لا يشتهر فجأة أبداً بل بعد المئات من اللقاءات مع الناس أو أكثر. وثانياً: عادة ما تعادي الجماهير الغفيرة أي عبقرى ملفت بحكم غريزتها. فمن الممكن أن نرى جملاً يمر من ثقب الإبرة⁽¹⁾ ولا نرى رجلاً عظيماً تكتشفه الانتخابات.

لكننا يمكننا أن نقول أن كل ما حدث في التاريخ من أحداث تتعدى المستوى المتوسط كانت بسبب شخص قوي يدفع الأحداث.

(1) من الواضح أن هتلر يحب استخدام التشبيهات البليغة المعبرة وقد استخدم الكثير منها في هذا الكتاب.

لكن خمسمائة شخص من ذوي العقول متوسطة الذكاء يصدرُونَ أحكاماً في أهم المشكلات التي تؤثر على حياة الأمة ! إنهم ينشئون القاعدة التي تتعلم بدورها كيف تكسب دعم المجلس الشهير في كل خطوة تشريعية قد تتخذها، وهذا يعني أن السياسة التي تستخدم هي سياسة هؤلاء الخمسمائة.

وفي الحقيقة - وبصفة عامة - فإن هذه السياسة تحمل خاتم المصدر الذي صدرت عنه.

هل هؤلاء النواب الذين جاءوا عن طريق صناديق الاقتراع أكفاء حقاً؟

لكن، دعونا نتجاوز القدرات العقلية لهؤلاء النواب ونسائل عن طبيعة المهمة الملقاة على عاتقهم. فإذا تناولنا المشكلات التي يجب مناقشتها وحلها وعلاقتها بأهم وأخطر الموضوعات المتنوعة يمكننا أن ندرك جيداً مدى عدم كفاءة ذلك النظام الحاكم الذي يسند حق اتخاذ القرار لعدد من النواب يملك القليل منهم فقط تلك المعرفة والخبرات التي تؤهلهم للتعامل مع الموضوعات التي يتم تناولها وتحتاج إلى الوصول إلى حلول. فأهم الإجراءات الاقتصاديةية قد أسندت إلى لجنة لا يزيد من درس الاقتصاد من أعضائها عن عشرة. وهذا يعني أن الرأي النهائي يقع في أيدي رجال ليس لديهم أي تدريب تمهيدي قد يجعلهم أكفاء وقادرين على اتخاذ قرار في الموضوعات المطروحة.

الأغلبية الجاهلة!

وهذا المثال ينطبق على كل مشكلة. فالأغلبية الجاهلة عديمة الكفاءة هي دائماً التي تقرر ما يتخذ من إجراءات، كما أن تكوين هذه الأغلبية ليس متنوعاً بينما نجد أن المشكلات متنوعة وتمس أغلب جوانب الحياة العامة. والوصول إلى قرار صائب يصبح ممكناً فقط في حالة إذا كان من حق النواب المختلفين أن يتعاملوا مع القضايا المختلفة. وليس من المنطقي أن نعتبر أن نفس الأشخاص الصالحين لإصدار قرارات تخص مشكلات المواصلات وهم أيضاً قادرون على تناول قضايا السياسة الخارجية، إلا إذا كان كل منهم عبقرياً معروفاً على المستوى الدولي. لكن العباقرة لا يأتي منهم سوى واحد كل قرن. ومعنى ذلك أننا هنا نتعامل مع عقول عادية، وهذا يوضح كيف يظهر هؤلاء السادة المكرمين كثيراً من التهور عند مناقشة موضوعات هامة تتطلب بذل أقصى جهد ممكن حتى وإن كان من يناقشونها من أصحاب العقول العظيمة. إن أهم وأخطر القضايا التي تتعلق بمصير الأمة ومستقبلها تناقش، ويتم التعامل معها في جو أقرب ما يكون إلى مائدة القمار. وفي الحقيقة فإن لعب الورق مناسب أكثر لهؤلاء الناس من اتخاذ قرارات مصيرية تخص الشعب.

وبالطبع، لن نكون عادلين إن افترضنا أن كل عضو في مثل هذا البرلمان هو بطبيعته ممن لا يدركون تلك المسؤولية. فهذا أمر مفروغ منه.

لكن هذا النظام، الذي يدفع الفرد إلى إصدار قرارات تخص قضايا لا يفهم فيها يفقده شخصيته الأخلاقية بالتدريج. وليس هناك من يملك الشجاعة ليقول: "أيها السادة، أنا آسف فنحن لا نعرف شيئاً عما نتحدث عنه. وأنا لست أهلاً لمناقشة هذا الموضوع على الإطلاق." وحتى إذا صدر مثل ذلك التصريح فإنه لن يغير في الأمر من شيء، وذلك لأن هذه الصراحة الواضحة لن يفهمها أحد. وسوف يعتبرون أن من يقول ذلك غبي وغير محترم ولا يجب السماح له بإفساد اللعبة. إن من يعلمون الطبيعة البشرية يعرفون أنه لا يوجد من يحب أن يوصف بالحمق وهو بين نظرائه، وفي بعض الأماكن تعتبر الأمانة دليلاً على الغباء.

وعادة ما يجد الرجل المعتدل نفسه منتخِباً في البرلمان، وقد تدفعه الظروف أن يقبل بالخط العام المهيمن في حد ذاته والذي يعتبر خيانة لثقة الشعب. والشعور بأن امتناع الفرد عن المشاركة في قرار محدد لن يصلح هذا الموقف، كما أنه يدمر كل شعور حقيقي بالكرامة التي قد تنور من وقت لآخر في ضمائر بعض الموجودين. وأخيراً ينجح بقية الأعضاء في إقناعه بأنه سيكون الأسوأ وأنه بمشاركته في القرار قد يمنع شيئاً أكثر سوءاً من الوقوع.

ولابد لنا هنا أن نوضح حواراً مضاداً. فقد يقال: إن العضو لا يملك بالطبع المعرفة المطلوبة للتعامل مع قضية ما، لكن موقفه تجاهها قائم بناء على نصيحة تلقاها من حزبه، حيث يعتبر دليلاً له في كل الأمور السياسية، وقد يقال أيضاً: إن الحزب يخصص لجاناً خاصة ممن يملكون خبرات أكثر مما هو مطلوب للتعامل مع المشكلات المطروحة أمامهم.

ويبدو هذا الحوار مقنعاً للوهلة الأولى، لكن هناك سؤالاً آخر يفرض نفسه، لماذا يتم انتخاب خمسمائة نائب ممن لا يملكون العلم الكافي المطلوب للتعامل مع القضايا المهمة ؟

فليس من أهداف نظامنا البرلماني الديمقراطي الحديث أن يجمع مجلساً من النواب الأذكى والعلماء. لا ... على الإطلاق. لكن الهدف هو جمع مجموعة من معدومي الذات الذين يعتمدون على غيرهم ويحصلون على آرائهم من الغير. وكلما كان انقيادهم سهلاً، كانت قدراتهم العقلية أضيق. وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن من خلالها تنفيذ سياسة الحزب - طبقاً للمعنى الثرير لكلمة "حزب" الآن. وبهذه الطريقة فقط يمكن لمن يمسك بخيوط اللعبة أن يظل في الظلام ويضمن بذلك أنه لن يتم استدعاؤه لیسأل عما يفعل. وفي مثل هذه الظروف لا يمكنك أن تتسبب أي قرار من القرارات التي تتخذ - مهما كانت

آثاره المدمرة على الأمة كلها - إلى الشخص الذي يعرف الجميع أنه صاحب العبقريّة الشريرة المسؤولة عنه ككل. حيث تنتقل المسؤولية بالكامل إلى الحزب ككل. وفي الحقيقة، فإن المسؤولية تختفي بالكامل. فالمسؤولية توجد فقط من خلال الوازع الشخصي وليس من خلال الالتزامات الملقاة على مجلس برلماني ذي متحدثين تافهين.

﴿ البرلمان الفاسد والنواب المفرر بهم: ﴾

يجذب البرلمان الناس المغرر بهم، الذين لا يحبون الحرية. فلن تجد رجلاً سوياً يقبل تحمل مسؤولية ما يتخذ من قرارات ويمكن أن يجذبه هذا المجلس. وهذا هو السبب الذي أدى بمثل هذا النوع من الديمقراطية لتصبح أداة في أيدي هذا الصراع الذي لابد له أن يبتعد عن الحقيقة - حتى تتحقق الأغراض التي يود الحصول عليها - كما سبق أن فعل دائماً وكما سيفعل. وهذا البرلمان لا يمدحه سوى اليهودي، وذلك لأنه برلمان فاسد ومزيف مثله تماماً.

﴿ الديمقراطية الألمانية الحقيقية! ﴾

لكننا نجد أن الديمقراطية الألمانية على العكس من هذا النوع من أنواع الديمقراطية، فهي ديمقراطية حقيقية. حيث يتم اختيار القائد بحرية، وعليه أن يقبل بأن يكون مسؤولاً مسؤولية كاملة عما يفعل وما يترك. كما أن المشكلات التي يتم التعامل معها لا تخضع لاقتراح ويتم الموافقة عليها بالأغلبية، لكن الفرد هو من يحددها. وبما أنه قد قبل بالمسؤولية عما يتخذ من قرارات، وعليه أن يغامر بكل ما يملك في هذا العالم وبحياته أيضاً.

وقد تثار الاعتراضات هنا ويقال: إنه في مثل تلك الأحوال قد يكون من الصعب جداً أن نجد رجلاً يمكن أن يهب نفسه إلى مثل تلك المهمة الخطيرة. لكن الإجابة على هذا الاعتراض تكون كالتالي :

نحمد الله لأن روح الديمقراطية الألمانية التي تمنع غير القادرين ممن يلوون الحقائق من الوصول - باستخدام طرق منحرفة - إلى مناصب تمكنهم من حكم الشعب. فالخوف من تحمل مثل تلك المسؤوليات بعيدة المدى - طبقاً للديمقراطية الألمانية - سوف يفرز الجهلة والعاجزين.

ولكن إذا ما حدث أن يصعد أحدهم خلصة، فإن تحديده واستبعاده بلا رحمة سيكون سهلاً جداً. سيقولون له: "ابتعد أيها الوغد. لا تضع أقدامك هنا. فها هنا توجد بوابات التاريخ، وهي ليست متاحة لمن يبحثون عن المناصب لكنها متاحة للنبلاء فقط."

كانت تلك هي الآراء التي تكونت لديّ بعد عامين من حضور جلسات برلمان فيينا. لذلك لم أذهب إليه بعد ذلك أبداً.

❖ البرلمان النمساوي أحد أسباب تراجع آل هابسبرج:

وقد أصبح البرلمان النمساوي أحد أسباب تراجع حكم أسرة هابسبرج بانتظام خلال السنوات الأخيرة من حكمها. فكلما زاد القضاء على سيطرة الألمان على أحوال البرلمان ساد النظام الذي يتلاعب بمقررات القوميات ويثيرها ضد بعضها البعض. وفي هذا البرلمان الضخم كان العنصر الألماني هو من يعاني من هذا النظام، وهذا يعني أن النتائج تعود على الأمة ككل، لذلك فمع نهاية القرن أصبح البسطاء من الناس يدركون أن القوى المكونة للإمبراطورية المزوجة لم تعد كافية للوقوف أمام ميول الانفصاليين من أصحاب القوميات المحلية.

كما أن الإجراءات التي تبنتها الدولة للحفاظ على بقائها أصبحت أكثر حجارة مما زاد من عدم احترام الدولة. ثم توقف المجريون وغيرهم من شعوب السلاف عن التعريف بأنفسهم بوصفهم جزءاً من الإمبراطورية التي تجمعهم جميعاً، وبالتالي فهم لا يشعرون بضعفها فهو غير ضار لهم. لكنهم رحبوا بمظاهر التراجع التام. وكانوا يتطلعون بشغف شديد إلى التمسك الأخير للدولة وليس إلى استعادتها لمكانتها.

وكان الانهيار التام ملحوظاً في البرلمان من خلال الامتيازات المخزية التي يمنحها لمن يطلبون طلبات مزعجة على حساب العنصر الألماني. وفي جميع أنحاء الدولة، اعتمد دفاع الحكومة عن نفسها على تقلب القوميات ضد بعضها البعض. إلا أن الاتجاه العام لهذا التطور كان موجهاً ضد الألمان، خاصة بعدما انتقل حق ولاية العهد إلى الأرشيدوق فرانز فرديناند. فقد بدأت سياسة زيادة مشاركة التشيك تدريجياً في السلطة، فانتشروا من الطبقات العليا للإدارة وحتى أدنى الطبقات. وقد دعم وريث العرش المزوج هذه السياسة التي تهدف إلى تقليل تأثير العنصر الألماني بكل ما يملك من قوة، أو أنه لعب دور حامي هذه السياسة. وعن طريق استخدام مسئولو الدولة كأدوات، تعرضت المقاطعات الألمانية الخالصة تدريجياً ولكن بجدية - إلى خطر تحويلها إلى مناطق متعددة اللغات. وقد تقدمت تلك الطريقة حتى أنها وصلت إلى جنوبي النمسا، واستمرت في التقدم بسرعة متزايدة، كما اعتبرت فيينا معقلاً للتشيك.

وكانت أسرة هذا الوريث الحديث لعائلة هابسبرج تفضل استخدام اللغة التشيكية فيما بينها. فقد كانت زوجة الدوق كونتيسة تشيكية فيما مضى، وتزوجت الأمير في عرس كبير. وهي قادمة من بيئة تعادي الألمان بطبيعتها. وكانت الفكرة المسيطرة على تفكير

الأرشيدوق هي تأسيس دولة سلافية في وسط أوروبا تقوم على أساس كاثوليكي خالص حتى تكون حصناً يواجه روسيا الأرثوذكسية.

وكما هي العادة في تاريخ عائلة هابسبرج، كان الدين في خدمة السياسة. وهنا تعتبر السياسة مهمة جداً لأنها تتناول المصالح الألمانية. وكانت النتيجة مؤسفة من جوانب عديدة.

فلم تنل العائلة المالكة ولا الكنيسة الكاثوليكية ما كانا يطمحان إليه. فقد فقدت عائلة هابسبرج العرش وفقدت الكنيسة مكانتها العظيمة. وعند توظيف الدوافع الدينية لخدمة السياسة، تنامت عاطفة لم يتوقعها أبداً مثيرو هذه السياسة.

وقد أدت محاولة إبادة الألمان في المملكة بكل الطرق الممكنة إلى قيام حركة مواجهة وهي "كل الألمان" في النمسا.

وخلال الثمانينيات من القرن الماضي وصلت حركة ليبرالية مانشستر - وهي يهودية الأفكار في الأساس - إلى قمة تأثيرها على المملكة المزوجة أو زادت عما كان متوقعاً أيضاً. لكن رد الفعل الذي بدأ لم ينتج عن ميول اجتماعية بل عن ميول سياسية، مثلما يحدث دائماً في النمسا القديمة. فقد دفعت غريزة البقاء بالعنصر الألماني إلى أن يدافع عن نفسه بقوة. وقد بدأ التأثير القوي للاعتبارات الاقتصادية إلا أنه كان تأثيراً ثانوياً. لكن هناك حزبين سياسيين فقط برزا من خلال تلك الفوضى السياسية العامة. أحدهما كان أكثر من وطني والآخر كان حزباً اجتماعياً. لكن كلاهما كان جيداً ومفيداً للمستقبل.

وبعد حرب عام 1866م والتي نتج عنها إهانة النمسا، كانت عائلة هابسبرج تأمل في القيام بعمل انتقامي على الجبهة. إلا أن النهاية المأساوية للإمبراطور مكسيميليان إمبراطور المكسيك منعت التعاون المتوقع مع فرنسا. فقد كانت أهم أسباب مأساة مكسيميليان تقع على عاتق نابليون الثالث، حيث خذله ذلك القائد الفرنسي مما أثار شعوراً عاماً بالسخط. إلا أن عائلة هابسبرج كانت لا تزال مرابضة في مخبئها في انتظار فرصة مناسبة. فإذا افترضنا أن حرب عامي 1870-1871م لم تكن انتصاراً فردياً، لكان من الممكن للقصر في فيينا أن ينتهز فرصة انتصار اللعبة الدموية حتى ينتقم. لكن عندما وصلت التقارير الأولى من الجبهة الفرنسية الألمانية - والتي كانت حقيقية بالرغم من أنها كانت معجزة لا تصدق - لاحظ "أكثر الملوك حكمة" أن الوقت لم يكن مناسباً وحاول قبول الموقف غير المواتي والاستفادة منه قدر الإمكان.

وقد أنتج هذا النزاع البطولي خلال عامي (1870-1871م) معجزة كبرى، وذلك لأن عائلة هابسبرج لم تكن تغير اتجاهها بسبب دافع داخلي ولكن بسبب ضغوط الظروف. إلا

أن الشعب الألماني هناك في النمسا - على أي حال - كان قد وقع في مصيدة عظيمة الانتصار عندما رأوا حلم آبائهم يستعيد نشاطه في عالم حقيقي رائع.

فقد أدرك الألماني النمساوي الحق - بما لا يدع مجالاً للشك - منذ ذلك الوقت أن كونجراتز كانت تراجيديا ضرورية وشرطاً ضرورياً من أجل إعادة بناء الإمبراطورية التي لا يجب أن تستمر محملة بعبء التقيد بالتحالف القديم والذي لم يعد له نصيب - حقيقة - في ذلك الفساد المرّضي. وقبل كل شيء، أصبح الألمان النمساويون يشعرون من أعماقهم أن المهمة التاريخية لعائلة هابسبرج قد وصلت إلى نهايتها وأن على الإمبراطورية الجديدة أن تختار إمبراطوراً بطلاً، ليرتدي تاج المملكة. وكان من الصحيح والعاقل أن يختار القدر سليلاً من هذه العائلة التي خرج منها مضى فريدريك الثاني والذي كان يعتبر رمزاً عظيماً ولامعاً في هذه الأمة وعلى مر العصور.

❖ | إبادة العنصر الألماني!

وبعد الحرب الكبرى عامي 1870-1871م قررت عائلة هابسبرج أن تعمل بكامل عزمها على إبادة العنصر الألماني الخطير - والذي لا يوجد شك في شعوره الداخلي واتجاهاته - ببطء وترو. وأنا أستخدم كلمة إبادة لأنها الكلمة الوحيدة التي تعبر عن النتيجة الحتمية للسياسة السلافية. ثم اشتعلت نار التمرد بين أفراد الشعب الذي صدر الحكم بفناؤه. وهي نيران ليس لها مثيل من قبل في تاريخ ألمانيا الحديث. ولأول مرة يتحول الوطنيون والمناضلون إلى متمردين.

إنهم ليسوا متمردين ضد الدولة أو الأمة ولكنهم متمرّدون ضد هذا النوع من الحكم الذي يقتنعون أنه سوف يجلب الدمار لشعبهم بلا شك. وذلك لأنه وللمرة الأولى في التاريخ الحديث تعارضت وطنية السلالة الحاكمة مع حب الشعب للوطن الأم.

وكان من حسن حظ حركة الاتحاد مع ألمانيا في نهاية القرن الماضي أنها لاحظت وبوضوح جلي أن الدولة يقدر لها الاحترام والحماية بسبب سلطتها فقط عندما تدار تلك السلطة بما يتماشى مع اهتمامات الشعب أو على الأقل بطريقة لا تضر بتلك الاهتمامات.

فسلطة الدولة لا يمكن أن تكون غاية في حد ذاتها، لأنه لو كان الأمر كذلك، فإن وجود أي نوع من أنواع الحكم الديكتاتوري يصبح حتمياً.

إما إذا استخدمت الحكومة السلطة التي في يدها بغرض دفع الشعب إلى الفناء، فإن التمرد لا يصبح حقاً فقط لكنه واجب أيضاً على كل فرد من المواطنين.

أما السؤال عن متى وكيف يحدث ذلك، فلا يمكن الإجابة عليه في مقالات نظرية مطولة ولكن القوة وحدها هي الرد والنجاح هو ما يحدد نهاية الأمر.

وكل حكومة - حتى وإن كانت أسوأ حكومة، وحتى إن كانت تخدع الأمة لآلاف السنين - تدعى أن واجبها هو الحفاظ على هبة الدولة. ويجب على معارضيها الذين يحاربوا من أجل بقاء قوميتهم أن يستخدموا نفس السلاح الذي تستخدمه الحكومة إن استطاعوا أن يظهروا ويضمنوا حريتهم واستقلالهم. وعلى ذلك فإن هذا النزاع تستخدم فيه وسائل شرعية مادامت السلطة التي يجب الإطاحة بها تستخدمها، لكن المتمردين لن يترددوا في تطبيق الطرق غير الشرعية إن استخدمها النظام الظالم.

وبصفة عامة، يجب علينا ألا ننسى أن الهدف الأسمى من الوجود الإنساني ليس الحفاظ على حكومة الدولة، ولكن العكس تماماً هو الصحيح.

فإذا كان العرق مهدداً بالظلم أو الفناء فإن موضوع الشرعية يتوارى ويصبح في مرتبة ثانوية. فقد تستخدم السلطة الحاكمة في مثل تلك الحالة كل الطرق التي تعتبرها شرعية، وفي المواجهة نجد أن مبدأ الحفاظ على بقاء الذات يبرر للمضطهدين في الجانب الآخر استخدام كل الطرق الممكنة وإلى أقصى حد.

وعندما ندرك هذا المبدأ فقط يصبح ممكناً لهذا النضال أن يستمر - ليصنع منه التاريخ أمثلة عظيمة وكثيرة - ضد الاستعباد الأجنبي أو الاضطهاد داخل البلاد.

تعلو حقوق الإنسان على حقوق الدولة. لكن إن هُزم الشعب في كفاحه من أجل حقوقه الإنسانية فهذا يعني أن قيمته ضئيلة وأن القدر لم يسعده بالبقاء في عالم الكرة الأرضية. فالعالم لم يخلق ليسيطر عليه أصحاب القلوب الواهنة.

والنمسا ما هي إلا مثال واضح ولافت لسهولة تخفي الحكم الاستبدادي وراء ما يسمى بالشرعية.

فقد قامت الممارسات الشرعية لسلطة دولة "هابسبرج" في ذلك الوقت على مبدأ معاداة الألمان في البرلمان، وذلك بمساندة ما لديها من أغلبية غير ألمانية والأسرة الحاكمة التي كانت أيضاً تعادي العنصر الألماني. وكانت سلطة الدولة ككل تتمثل في هذين العنصرين، لكن محاولة تغيير الكتلة الألمانية من خلالها فقط كانت بلا معنى. لذلك فإن من قدموا النصيحة باتباع "الشرعية" كطريق وحيد - وكذلك طاعة سلطات الدولة - لا يمكنهم النصيح بالمقاومة، وذلك لأن المقاومة لا يمكن أن تأتي من خلال قنوات شرعية. ولكي يتم اتباع نصيحة المستشارين القانونيين، فلا بد من إبادة العنصر الألماني في المملكة، وهذه الكارثة لن تستغرق وقتاً طويلاً. ولم ينقذ العنصر الألماني من هذا المصير سوى انهيار النظام نفسه.

إن المفكر المتعلم قد يضحي بحياته من أجل ما يعتقد بأنه صحيح وليس فقط من أجل شعبه.

﴿ حزب «كل الألمان» والحزب الاشتراكي المسيحي! ﴾

ولأن الإنسان قد وضع القوانين، فإنه قد يعتقد بالتالي أنه يعيش من أجلها. لكن حركة "كل الألمان" قدمت خدمة في ذلك الوقت قضت بها على كل هذا الهراء، وذلك بالرغم من أن واضعي النظريات والمتخصصين صدموا منها.

فعندما حاولت عائلة هابسبرج الاقتراب من العنصر الألماني، وذلك باستخدام كل الطرق الممكنة والمتاحة لديهم للهجوم، قام حزب "كل الألمان" بهجوم لا يرحم على السلالة الحاكمة الشهيرة. وكان ذلك الحزب هو أول من يتناول حالة الفساد في البلاد أو يتعرض لها، وبذلك تفتحت عيون مئات الآلاف. وكانت إحدى الخدمات الكبرى التي قدمها حزب "كل الألمان" أنه قد حرر مبدأ حب الوطن من الالتزام بأحضان تلك العائلة البائسة.

وعندما ظهر ذلك الحزب لأول مرة ضمن تأييداً كبيراً، وقد كان من الممكن أن تصبح الحركة كتلة كبيرة. لكن، لم يتم الحفاظ على النجاح الذي حدث في البداية، وفي الوقت الذي وصلت فيه إلى فيينا، كان حزب "كل الألمان" قد اختفى وراء الحزب المسيحي الاشتراكي الذي أصبح حزباً حاكماً في ذلك الوقت. وفي الحقيقة، توارى حزب "كل الألمان" إلى مستوى يكاد يقترب من الضالة الشديدة.

وكان صعود حزب كل الألمان من جهة والنقد الساحق الذي حققه الحزب المسيحي الاشتراكي من جهة أخرى مادة تقليدية لما أقوم به من دراسات. وذلك لأنهما لعبا دوراً مهماً في تطور آرائي. فعندما جئت إلى فيينا كان كل تعاطفي مع حزب "كل الألمان".

وقد كنت متأثراً بحقيقة أنهم قادرون على التعبير علناً عما يريدون، وكنت أسعد بإصرارهم على اعتبار أنفسهم جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية الألمانية وانفصلوا عنها مؤقتاً فقط. ولم يفوتوا أي فرصة للتعبير عن رأيهم علانية، وكان ذلك يرفع من حماسي وثقتي. فقد كنت أرى أن التعبير عن الآراء في كل مشكلة تخص "الألمنة" علانية وعدم تقديم أي تنازلات هو الطريق الوحيد لإنقاذ شعبنا. لكن ما لم أفهمه هو سرعة تفكك تلك الحركة بعد بدايتها العظيمة، كما لم أكن أفهم أيضاً كيف حصل الحزب المسيحي الاشتراكي على كل تلك القوة خلال وقت قصير جداً. فقد وصلوا بسرعة إلى قمة شهرتهم.

وعندما بدأت في مقارنة هاتين الحركتين وضع القدر في طريقي أفضل الطرق لفهم أسباب تلك المشكلة المعضلة. وقد ساعد على ذلك ما كنت فيه من ظروف صعبة.

سأبدأ تحليلي بتناول شخصيتين لرجلين ينظر إليهما باعتبارهما مؤسسا الحركتين وهما جورج فون شونرر والدكتور كارل ليجر.

كان كل منهما شخصاً أكبر من أن يقال عنه عضو بارز في البرلمان. فقد عاش كل منهما حياة نظيفة مستقيمة لا عيب فيها برغم من أنهما محاطان بعفن الفساد السياسي من كل جانب. وقد كنت أنا شخصياً أحب في البداية ممثل حركة "كل الألمان" وهو شونرر، وبعد ذلك وبالتدرج شعرت بحب مماثل لزعيم الحزب الاشتراكي المسيحي.

وعندما قارنت بين قدراتهما كان "شونرر" في نظري أفضل، فهو مفكر وأكثر تعمقاً في القضايا الرئيسية. فقد تنبأ بانتهاء دولة النمسا الحتمي بوضوح ودقة أكثر من أي شخص آخر. فإذا ما كانت ألمانيا قد تجاهلت ذلك الإنذار الخاص بإمبراطورية هابسبرج، فإن الحرب الطاحنة التي دخلتها ألمانيا ضد أوروبا كلها لم تكن لتحدث⁽¹⁾.

وبالرغم من نجاح "شونرر" من التعمق في داخل المشكلة إلا أنه كان عادة ما يخطئ في حكمه على الناس.

وهنا تكمن الموهبة الخاصة للدكتور "ليجر". فكان موهوباً بقدرته على التعمق داخل الطبيعة البشرية، ولم يكن يعطي الرجال أكثر مما يستحقون عند تقييمهم لهم. وقد وضع خطته بناء على احتمالات عملية ممكن حدوثها في حياة الإنسان، لكن "شونرر" كان قليل القدرة على التمييز في ذلك المجال. فكل أفكاره عن "كل ألمانيا" كانت صحيحة معنوياً، لكنه لم يكن لديه القوة الكافية أو التفهم الضروري لنشر تلك الأفكار بين عامة الناس. لم يكن قادراً على تشكيل تلك الأفكار بحيث يفهمها عامة الناس من محدودتي القدرات - قدرات الفهم - وممن سيظلون كذلك دائماً. لذلك لم ينجح "شونرر" بكل ما لديه من معارف في تحويلها إلى معارف عملية.

أدى هذا النقص في إدراك طبيعة الإنسان بـ "شونرر" إلى التوصل إلى تقدير خاطئ لقوة حركات محددة وكذلك قوة تأثير الهيئات القديمة.

فقد أدرك "شونرر" في الحقيقة أن المشكلات التي عليه أن يتعامل معها ما هي إلا نظرة عامة (مفهوم عام)، لكنه لم يعرف أن الجماهير العريضة للأمة هي من يستطيع نشر تلك النظرة، والتي يغلب عليها الطابع الديني.

لكنه لسوء الحظ علم جزئياً أن نضال ما تسمى بالطبقة المتوسطة ضعيف. وهذا الضعف ناتج عن اهتماماتهم التجارية، وهي ما يخشون المغامرة به، لذلك فهي تمنعهم من اتخاذ أي إجراء. وبصفة عامة، فإن أي نظرية عامة لا يمكن أن تنجح إلا إذا أعلنت

(1) كما عودنا هتلر ومنذ بداية الكتاب، فله فقرات داخل الفقرة الواحدة من موضوع إلى موضوع، حيث يدرك الارتباط بينهما، لكنه لا يشرح للقارئ ذلك الارتباط باعتبار أن القارئ يعرف تاريخ تلك الفترة، والحرب المقصودة هنا هي الحرب العالمية الأولى.

جموع الجماهير عن استعدادها للعمل كحماة لمبادئها ومحاربين دفاعاً عنها أينما ومتى يكون ذلك ضرورياً.

وقد نتج عن الإخفاق في فهم أهمية الطبقة الدنيا من المجتمع مفهوم غير كاف حول المشكلة الاجتماعية. وقد كان الدكتور ليجر على العكس من "شونرر" في كل ذلك. فقد مكنته معرفته العميقة بالطبيعة الإنسانية من تكوين تقييم صحيح لكل قوى الشعب المختلفة وقد أنقذه ذلك من أن يستهين بقيمة قوى الهيئات القائمة. وربما تكون تلك الصفة بالذات هي ما مكّنه من استخدام تلك الهيئات كوسائل تخدم ما لسياسته من أغراض.

وقد كان الدكتور ليجر يرى أن التناحر السياسي للطبقة العليا في عصرنا هذا غير واضح تماماً ولا يستطيع القتال من أجل حركة جديدة وعظيمة أن يضمن تأمينها. لذلك فقد كرس جل نشاطه السياسي لمهمة كسب دعم طبقات من الشعب المهدد وجودهم بالخطر ودعم روح القتال فيهم وليس إحباطها. وقد كان سريعاً أيضاً في اتباع كل الطرق الممكنة لكسب دعم الهيئات المتواجدة منذ أمد طويل، وذلك حتى يكون قادراً على استخلاص أقصى فائدة من تلك الهيئات القديمة لصالح حركته.

وانتهى الأمر إلى ما يلي، فقد اختار - وقبل كل شيء - أن يكون الأساس الاجتماعي لحزبه الجديد هو الطبقة الوسطى المهددة بالفناء. وبهذه الطريقة ضمن أنصاراً أقوياء مستعدين لتضحيات كبرى وذوي قدرة قتالية جيدة. كما أن اتجاهه بحكمة شديدة وسرعة تجاه الكنيسة الكاثوليكية كسب دعم صغار رجال الدين المسيحيين بأعداد كبيرة لدرجة أن الحزب الكهنوتي القديم اضطر إما للانسحاب من ساحة العمل أو الانضمام إلى الحزب الجديد على أمل الفوز بمنصب تلو الآخر.

لكننا نكون غير عادلين بشدة مع هذا الرجل إن اعتبرنا ذلك أهم صفاته. فهو يملك صفات واضع الخطط القدير كما أنه مصلح عبقرى، إلا أن كل ذلك يعتبر محدوداً إذا ما قورن بقدراته على اقتناص الفرص المواتية وقدراته الخاصة.

وكان الهدف الذي سعى ذلك الرجل الفذ وراءه هو هدف عملي بشدة. كان يتمنى أن يخضع فيينا، وهي قلب المملكة. فمن فيينا تنطلق آخر نبضات الحياة في جسد المملكة المريض الرث المتداعي. فإذا ما تعافى القلب فإن بقية أجزاء الجسد تستعيد حيويتها. وهذه الفكرة صحيحة نظرياً، لكن كان الوقت المناسب لتطبيقها عملياً محدوداً جداً. وكانت تلك هي نقطة ضعف هذا الرجل.

كانت إنجازاته كرئيس لبلدية مدينة فيينا لا نهائية بمعنى الكلمة. لكن كل ذلك لن ينقذ المملكة. فقد جاء متأخراً.

لكن منافسه، "شونرر" نظر إلى ذلك عن قرب، فكل ما فعله الدكتور ليجر عملياً أحرز نجاحاً ساحقاً. لكن النتائج التي كان يتوقعها بعد ذلك النجاح لم تأت. كما أن "شونرر" لم يحقق الغايات التي وضعها لنفسه، لكن مخاوفه تحققت، وبطريقة مفزعة للأسف. وهكذا أخفق الرجلان في تحقيق أهدافهما. لم يستطع ليجر أن ينفذ النمسا ولم يستطع "شونرر" منع تراجع الشعب الألماني في النمسا.

وبدراسة أسباب إخفاق هذين الحزبين نستخرج درساً مفيداً لعصرنا الحالي. إنه مفيد لزملائي، وذلك لأننا نعيش فترة تتشابه في كثير من ظروفها مع ذلك العصر. لذلك فإن هذا الدرس قد يساعدنا على الاحتراس من الأخطاء التي وصلت بإحدى هاتين الحركتين إلى نهاية مؤسفة وحرمت الأخرى من أي نتائج.

❖ | أسباب دمار حركة «كل الألمان»:

وفي رأيي فإن تدمير حركة "كل الألمان" في النمسا يعود إلى ثلاثة أسباب :

يتمثل أول سبب في أن قادة الحركة لم يكن لديهم مفهوم واضح فيما يخص أهمية المشكلة الاجتماعية خاصة بالنسبة لحركة جديدة ذات شخصية ثورية في الأساس. فقد اهتم "شونرر" وأتباعه بالطبقة المتوسطة (البرجوازية) على وجه الخصوص. ولهذا السبب أصبحت حركتهم معتدلة ومستأنسة. فالطبقة الألمانية المتوسطة وخاصة الدوائر العليا منها - هي طبقة مسالمة إلى درجة نكران الذات تماماً فيما يخص أمور الدولة بالرغم من عدم إدراك الفرد لذلك. وفي الأوقات المناسبة وهي أوقات الحكومات الجيدة في هذه الحالة - فإن هذه الصفة تجعل تلك الطبقة ذات قيمة كبيرة بالنسبة للدولة. لكن في حالة وجود حكومة سيئة، تكون هذه الصفة مدمرة. وكان على حركة "كل الألمان" أن تكرر كل جهودها حتى تكسب هذه الجموع من الناس لتضمن إمكانية خوض غمار الصراع المتقد. وقد أدى فشل الحركة في تحقيق ذلك منذ البداية ودون أن يكون لديها دوافع كافية إلى التراجع خلال وقت قصير.

ولم يكن من الممكن - بعد الفشل في إدراك تلك الحقيقة عند بدء الحركة وبعد إهمال وضعها في اعتبارات الحزب الجديد - أن يتم الإصلاح فيما بعد. وذلك لأن العديد والعديد من العناصر البرجوازية كانت قد انضمت إلى الحركة وبأعداد متزايدة مما يحدد توجهها الداخلي وبالتالي يحبط كل توقعات إحرار أي دعم جماهيري. وفي مثل تلك الظروف، فإن تلك الحركة لن تتجاوز مستوى المناقشات والانتقادات. ولم تعد الحركة تتصف بأي عقيدة شبه دينية أو بروح التضحية إطلاقاً. وحل محلها تكتلات تبذل جهوداً إيجابية، وهذا يعني في تلك الحالة الاعتراف بالوضع الراهن، ثم تختفي أهم قضايا النزاع تدريجياً، وتكون النهاية سلاماً مخزياً.

هكذا كانت مقدرات حركة "كل الألمان"، وذلك لأن القادة لم يدركوا منذ البداية أن أهم شرط من شروط النجاح هو أن عليهم كسب مؤيديهم من بين جماهير الشعب العريضة. لذلك فقد أصبحت الحركة حركة برجوازية محترمة وأصيلة وذلك عندما تلتزم بالاعتدال فقط. ومن هذا الفشل نشأ السبب الثاني للانحياز السريع للحركة.

كان موقف الألمان في النمسا بئساً عندما نشأت حركة "كل الألمان". وعاماً بعد عام، أصبح البرلمان يستخدم كوسيلة لفناء السكان الألمان بالتدريج. وكانوا يتحينون دائماً أي فرصة مناسبة للإطاحة بها في البرلمان لكن ذلك لم يحدث سوى مرات قليلة جداً. بعد ذلك واجهت حركة "كل الألمان" مشكلة ذات أولوية شديدة.

وكانت المشكلة هي الإطاحة بالبرلمان، وهل أتباع حركة "كل الألمان" بحاجة إلى دخوله لإضعافه من الداخل؟ وهذا الأسلوب كان متبعاً في ذلك الوقت. أم أن عليهم أن يهاجموه من الخارج؟

فدخلوا إلى البرلمان وخرجوا منه مهزومين، لكنهم كانوا مضطرين للدخول. وذلك لأنه عند إشعال حرب ذات تأثير على مثل هذه الهيئة القوية من خارجها، فمن الضروري وجود الأسلحة اللازمة وهي شجاعة لا تقهر وروح مستعدة للتضحية. وفي هذه الحالات لابد من إمساك الثور من قرنيه، كما أن الدوافع الغاضبة قد تطيح بالمصارع إلى الأرض عدة مرات. لكنه سيقف مرة ثانية إن كان قلبه قوياً، وذلك بالرغم من تكسر بعض عظامه، وبعد صراع طويل وعنيف يصل المصارع إلى الفوز. فالبطولات الكبرى تغري بالخوض في التضحيات العظام من أجلها. وفي النهاية تتوج الروح الشجاعة بالنجاح.

وبعد الوصول إلى هذه النتيجة كان أطفال جموع الشعب يمثلون أهمية كبرى. فهم وحدهم يملكون العزم الضروري والمثابرة على خوض القضية الدموية إلى نهايتها. لكن حركة "كل الألمان" لم تكن تملك كل هذه الجموع الغفيرة، وبالتالي لم يكن لديها أي حل آخر يمكن تنفيذه سوى دخول البرلمان.

ومن الخطأ أن نظن أن هذا القرار قد نتج بعد تردد داخلي، أو أنه جاء بعد دراسة متأنية. لا... فهم حتى لم يفكروا في حل آخر. فهؤلاء الذين شاركوا في هذا التخطيط كانوا يهتدون باعتبارات عامة وشعارات غامضة وذلك فيما يخص معنى وأثر المشاركة بطريقة خاصة في هذه الهيئة التي أدانوها مقدماً. وعموماً فإنهم كانوا يأملون في أنهم بهذه الطريقة يدعمون قضيتهم أمام جموع الشعب، وذلك لأنهم سيكونوا قادرين على الحديث أمام "ممثلي الأمة كلها". ويبدو أيضاً أنهم كانوا يعتقدون أن مهاجمتهم للشر من جذوره

أكثر فاعلية من مهاجمته من الخارج. فقد اعتقدوا أنهم لو كانوا محميين بحصانة برلمانية فإن مركز الواحد منهم يزداد قوة وبذلك تتحسن قدراتهم وترتد من قوة هجومهم. وفي الواقع، تبدل كل شيء إلى العكس تماماً.

فلم يصبح المدى الذي يتحدث أمامه ممثلي حزب "كل الألمان" كبيراً، بل بالعكس، لقد تضاعف، فكل منهم يتحدث مع المجموعة المستعدة لسماعه أو تستطيع قراءة ما يكتب من تقارير.

لكن المستمعين المباشرين كثيري العدد لم يكونوا في قاعات المجلس، ولكن في الاجتماعات الشعبية الكبرى. وهناك فقط يوجد الآلاف من الرجال الذين جاءوا ببساطة ليستمعوا ما يريد المتحدث قوله، بينما جلسات المجلس يحضرها عدة مئات فقط، وفي غالب الأحيان يكون أغلبهم هناك لكسب قوته اليومي من بدلات حضور الجلسات وليس من أجل التتور بمعارف واحد أو اثنين من ممثلي الشعب.

لكن الاعتبار الأهم هو أن الحضور كانوا دائماً هم نفس الأشخاص الذين لا يريدون سماع أي شيء جديد، لأنهم يفتقدون أي قدر متواضع من قوة الإرادة التي تمكنهم من الرغبة في التعلم.

ولن يعلن أي من ممثلي الشعب مساندة الحق وينذر نفسه لخدمته. لا ... لن يتصرف أي من هؤلاء السادة بهذه الطريقة إلا إذا كان يعتقد أنه وعن طريق هذا التحول سيحافظ على مقعده كنائب عن دائرته في البرلمان في دورة قادمة. لذلك فعندما يصبح من الواضح أن الحزب القديم سوف يمر بأوقات عصيبة في الانتخابات المقبلة، يظهر أولئك الذين يبحثون عن حزب جديد تكون احتمالاته الانتخابية أفضل. لكن هذا التغير يصحبه بالطبع طوفان من التغير في الدوافع الأخلاقية حتى يبدو مقبولاً. فعندما يتعرض حزب لكراسية عامة الناس، فإنه يكون مهدداً باحتمال الهزيمة الساحقة في انتخابات ولذلك فهو يشهد هجرة متزايدة، حيث يخرج فئران البرلمان من سفينة الحزب.

كل ذلك يحدث ليس لأن هؤلاء الأفراد يعلمون الجديد حول القضايا المطروحة ويتصرفون بناء على ذلك. لا ... فتغيير الجبهة هذا يحدث بسبب سرعة تحرك أصحاب البصيرة الساعين وراء المقاعد البرلمانية في اللحظة المناسبة ليتمكنوا من القفز في مقعد برلماني وثير لحزب آخر. إن التحدث أمام مثل هذا المجلس يعني إلقاء اللآلئ أمام الحيوانات. ومن الواضح أن الأمر لا يستحق أي عناء، لأن النتيجة سلبية دائماً.

وفيما يلي ما يحدث دائماً: يبع صوت نواب حركة "كل الألمان" دون أي جدوى من أي نوع.

أما بالنسبة للصحافة، فإما أن تتجاهلهم تماماً أو أن تبتر أجزاء من أحاديثهم بطريقة تفقد تماسكها المنطقي أو تغير معناها إلى العكس، مما يجعل العامة يأخذون فكرة خاطئة جداً عن أهداف الحركة. فليس من المهم ما قاله أعضاء هذه الحركة، بل المهم ما نقلته الصحافة على أنه صادر عنهم. فقد كانت الصحافة تنشر فقرات متناثرة بحيث تفقد المعنى المطلوب وتعطي انطباعاً بعدم الترابط وانعدام المعنى. ويكون ذلك مقصوداً ومتعمداً بالطبع. وبالتالي يكون الكلام المؤثر قد قيل أمام عدة مئات فقط من البرلمانيين، ومعنى ذلك معروف بالطبع.

أما الأسوأ فهو ما يلي :

كان من الممكن لحركة "كل الألمان" أن تطمح في النجاح فقط إذا كان قادتها قد أدركوا منذ اللحظة الأولى أن المطلوب هو مذهب جديد وليس حزباً جديداً. وهذا وحده كاف لإثارة القوى الأخلاقية اللازمة لمثل هذا الصراع الضخم. ولابد أن يكون قادة هذا المذهب رجالاً ذوي عقول من الدرجة الأولى وشجاعة لا تقهر. فإذا كان الدفاع عن هذا المفهوم الجديد موجهاً من قبل رجال لهم رجوح بطولية ومستعدون للتضحية بكل شيء، يصبح من المستحيل - خلال وقت قصير - إيجاد أتباع مقاتلين مستعدين للتضحية بأرواحهم من أجل القضية. لكن من يحارب من أجل بقائه ليس لديه ما يتبقى ليضحي به من أجل المجتمع.

ولابد أن يتم إخبار كل شخص مهم بالحركة لضمان الشروط الضرورية للنجاح، لأن الحركة الجديدة تطمح إلى مزيد من الأنصار من أجيال المستقبل لكنها لا تملك مكافأة أعضائها الحاليين. فإذا كان على الحركة أن تقدم عدداً كبيراً من الوظائف والمناصب التي يمكن الوصول إليها بسرعة، فإن عدد الأعضاء الذين لا ضرورة لهم يتزايدون باستمرار، ولابد من أن يأتي اليوم الذي يتفوق فيه عدد المستغلين السياسيين من أعضاء الحزب الناجح حتى أن المحاربين الذين تحملوا عبء المعركة في المراحل الأولى قد يصبحون غرباء في حزبهم أو يطردون من جاء إليه حديثاً باعتبارهم أعضاء غير مرغوب فيهم. وبعد ذلك تصبح الحركة بلا أي هدف تسعى إليه.

وبمجرد أن قرر قادة حركة "كل الألمان" التعاون مع البرلمان فقدت الحركة ريادتها ولم يصبحوا قادة ولا محاربين في الحركة الشعبية، بل مجرد برلمانيين. وبهذا تراجعت الحركة إلى منزلة حزب سياسي عادي، ولم تعد قادرة على مواجهة ما تواجه من أخطار عدائية ولا على مخاطر الاستشهاد. وبدلاً من القتال، فإن قادة حركة "كل الألمان" اعتادوا على التحدث والمباحثات. فسرعان ما وجد البرلمانيون الجدد أن الطريقة الأفضل - لأنها أقل خطراً - للقيام بمهمتهم هي الدفاع عن هذا المفهوم الجديد بسلاح روحي يعتمد على

الخطابة البرلمانية بدلاً من الدخول في حرب يعرضون فيها حياتهم للخطر، كما أنها غير مضمونة النتائج، وهي لن تقدم لهم أي مكاسب شخصية في أفضل الحالات.

وعندما جلسوا في مقاعدهم في البرلمان، كان مناصروهم في الخارج يأملون في حدوث المعجزات ويتوقعونها. وبالطبع لم تحدث أي معجزات. مما جعل مناصري الحركة يفقدون صبرهم بسرعة، وذلك لأن ما يقرأونه من تقارير عن نوابهم لا تصل بهم إلى ما كان متوقعاً منهم عندما انتخبوهم. وليس من الصعب أن نتوقع أسباب ذلك. وهو أن الصحافة العدائية قد امتنعت عن نقل ما كان نواب "كل الألمان" يفعلونه في الواقع.

وبما أن النواب الجدد قد أحبوا هذا النوع المعتدل من الكفاح "الثوري" في البرلمان وفي المجالس التشريعية المحلية، فقد كرهوا بالتدريج ذلك العمل الأكثر خطورة وهو تقديم مبادئ الحركة للجموع العريضة من الناس.

❖ | كيف تتصل بال جماهير وتحصل على دعمهم؟

وهكذا أصبحت اللقاءات الكبرى مع عامة الناس نادرة جداً، وذلك بالرغم من أنها الطريقة الوحيدة لممارسة تأثير حقيقي على الشعب، وذلك لأن التأثير هنا ينتج عن اتصال شخصي مباشر، وبهذه الطريقة يمكن الحصول على دعم قطاعات عريضة من الشعب.

وبعد أن هُجرت الطاولات التي كان المتحدثون يقفون عندها في الحانات الكبرى وهم يتحدثون إلى آلاف البشر - إلى منابر البرلمان أصبحت الأحاديث غير مباشرة، فهي موجهة لنواب "مختارين"، وبهذا فقدت حركة "كل الألمان" شخصيتها الشعبية وخلال فترة قصيرة تراجعت إلى مستوى ناد يناقش المشكلات اليومية بطريقة أكاديمية.

كما لم يعد هناك سعي لتصحيح الانطباع الخاطئ الذي تسببت فيه الصحافة عن طريق الاتصال الشخصي مع الناس من خلال الاجتماعات العامة والتي من خلالها يقدم النواب تقريراً صحيحاً عن أنشطتهم. وكانت النتيجة النهائية لهذا الإهمال هي أن كلمة "كل الألمان" أصبحت ذات جرس غير محبب لأذان جموع الناس.

❖ | القلم والكلمة وأثرهما الساحر!

إن على حراس القلم ومحبي الأدب في يومنا هذا أن يدركوا أن التحول الكبير الذي حدث في هذا العالم لا تقوده حركة بطيئة. لا... إن مهمة القلم دائماً هي تقديم تلك المفاهيم النظرية التي تحرك مثل تلك التغيرات. كما أن القوى التي كانت دائماً وأبداً سبباً في الأحداث التاريخية والدينية والحركات السياسية هي قوى الكلمة السحرية.

فجماهير الشعب العريضة تتصاع أمام الخطابة أكثر من أي قوة أخرى. وكل الحركات

العظمى كانت حركات شعبية ما هي إلا تفجيرات بركانية في العواطف والأحاسيس الإنسانية، وهي تنطلق بلا رحمة على هدى ونور من الكلمة المسموعة التي تلقى أمام الناس. ولم يحدث أبداً أن تتأثر الحركات الكبرى بجماليات الأدب أو أبطال غرف الرسم.

ومن الممكن فقط أن يتحول مصير الأمة بعاصفة من العواطف الجياشة، لكن من يملكون تلك العواطف فقط هم القادرون على إثارتها في الآخرين. ومن خلال تلك الصفة يتمكن القادة المختارون من التحكم في قوة الكلمة التي تشبه طرقات المطرقة وتفتح الباب أمام قلوب الشعب.

كما أن العناية الإلهية لم تبعث برسول غير قادر على نقل الأحاسيس الجياشة ولا على الحديث المؤثر. لذلك فإن على الكاتب أن يتمسك بمحبرته ويشغل نفسه بالأسئلة النظرية حول ما إذا كان يملك تلك القدرات المطلوبة والمعرفة. فإن كانت الإجابة سلبية، فهو لم يولد ولن يختار ليكون قائداً.

ولابد للحركة التي تسعى من أجل أهداف كبرى أن تحذر خطر فقدان الاتصال مع عامة الجماهير. كما لابد من فحص كل مشكلة تواجهها من هذه الناحية أولاً وقبل كل شيء، ثم يجب أن يكون القرار المتخذ متمشياً مع هذا المبدأ.

وعلى الحركة أن تتجنب أي شيء يضعفها أو يقلل من قدرتها على التأثير على الجماهير، وهذا بسبب أن أي فكرة كبرى - مهما كانت جلية ومجيدة - لا يمكن تحقيقها في الواقع دون قوة جموع الشعب المؤثرة. والواقع القاسي فقط هو ما يضع علامات على الطريق إلى الهدف. وعدم القدرة على السير في طريق الصعاب يعني - في عالمنا هذا - التخلي التام عن أهدافنا وغاياتنا سواء شعرنا بهذا التخلي وتعمدناه أم لا.

وفي اللحظة التي وجه فيها قادة حركة "كل الألمان" - عندما قبلوا بمبدأ دخول البرلمان - جل اهتمامهم من الشعب إلى البرلمان فقد ضحوا بالمستقبل في مقابل نجاح وقتي. لقد اختاروا الطريقة السهلة للصراع، فلم يصبحوا جديرين بالفوز في النهاية.

❖ أسباب انهيار حركة «كل الألمان»:

وفي حين اعتدت التفكير بجدية في هاتين المسألتين، ولقد رأيت أن السبب الرئيسي لانهيار حركة "كل الألمان" يكمن في أن هاتين المسألتين لم تتالا تقييماً مناسباً. ويبدو لي أن الحركة قد اختارت أن تسيطر على قيادة العنصر الألماني في النمسا.

وكانت هاتان المشكلتان اللتان أدتا إلى سقوط حركة "كل الألمان" مرتبطتين ارتباطاً وثيقاً ببعضهما البعض. إن الإدراك الخاطئ للقوى الداخلية التي تدفع الحركات الكبرى

إلى الأمام قد أدى إلى تقييم غير مناسب للدور الذي تلعبه جموع الجماهير في هذا الدفع. وكانت النتيجة أن الاهتمام بالمشكلة الاجتماعية كان ضئيلاً جداً وأن محاولات الحركة للسيطرة على عقول الطبقات الدنيا كانت قليلة وضعيفة جداً. وهناك نتيجة أخرى لذلك وهي قبول سياسة البرلمان التي كان لها أثر مماثل فيما يخص أهمية جموع المواطنين.

فإذا كان لدى الحركة تقدير مناسب للقوة الهائلة والثبات الذين طالما أثبتتهما جموع المواطنين في حركات التحرر، لغيرت موقفها من المشكلات الاجتماعية، ولاتبعت سياسة أخرى في الدعاية. وبذلك لم يكن مركز ثقل الحركة ليتحول إلى البرلمان بل كان سيظل في الورش والشوارع.

وهناك خطأ ثالث، والذي كان سبباً رئيسياً من أسباب الفشل في إدراك أهمية جموع المواطنين، فالمواطنون يمكن أن يوجهوا إلى اتجاه محدد على أن يتولى ذلك رجال ذوو مواهب عالية، ثم تتحرك الجموع من تلقاء نفسها وتتحكم فيما تفعل.

ويمكن توضيح سياسة قادة حركة "كل الألمان" في حربها الصعبة ضد الكنيسة الكاثوليكية وحصرها في قصور فهمها للشخصية الروحانية للشعب.

وكانت أسباب انضمام الحزب الجديد إلى الحملة الشعواء ضد روما كما يلي:

❖ عائلة هابسبرج تمضي في تحقيق أهدافها المعادية للألمان:

بمجرد أن قررت عائلة هابسبرج تحويل النمسا إلى دولة سلافية استخدمت كل الطرق الممكنة لخدمة هذا الغرض، ولم تتردد عائلة هابسبرج في تحدي حتى الهيئات الدينية ولم يمنعها ضميرها من فعل أي شيء حتى تحقق فكرة الدولة الجيدة. ومن بين الطرق الكثيرة التي استخدمتها كانت طريقة الاستفادة من الأبراشيات التشيكية ورجال الدين المسيحي الموجودين فيها كأدوات لنشر سيطرة السلاف عبر النمسا. وقد تم ذلك كما يلي :

تم اختيار قساوسة تشيكي في المناطق الألمانية الخالصة. ثم بعد ذلك تم دفع مصالح الشعب التشيكي بالتدريج ولكن بانتظام لتصبح أهم من مصالح الكنيسة، ثم أصبح رعاة الإبراشيات والقسس خلافاً عاملة للقضاء على الألمان.

ولسوء الحظ، فشل رجال الدين المسيحي من الألمان النمساويين تماماً في مواجهة هذه الإجراءات. فلم يكونوا غير قادرين على اتخاذ مبادرة مماثلة فقط، بل إنهم أثبتوا عدم قدرتهم على مواجهة العداء التشيكي بمقاومة كافية أيضاً. وبذلك أجبر العنصر الألماني على التراجع ببطء وانتظام وذلك من خلال الحفاظ على المعتقدات الدينية لأسباب سياسية من جهة والاحتفاظ بمقاومة مناسبة من جهة أخرى. وكانت تلك هي الخطط التي

استخدمت مع المشكلات الصغرى، ولم تختلف الخطط المستخدمة مع المشكلات الكبرى عن ذلك في كثير.

واستمرت عائلة هابسبرج في تحقيق أهدافها المعادية للألمان، وخاصة باستخدام كبار رجال الدين المسيحي، ولم تقابل أي مقاومة قوية، بينما توارت تماماً كل اهتمامات رجال الدين والكهنة الألمان. وكان الانطباع العام السائد هو أن رجال الدين الكاثوليك قد تخلوا عن حقوق الشعب الألماني.

وهكذا بدا أن الكنيسة الكاثوليكية غير متعاطفة مع الشعب الألماني، بل إنها تساند أعداءهم الظالمين. وأصل كل الشرور - في رأي "شونرر" - يكمن في حقيقة أن قيادة الكنيسة الكاثوليكية لم تكن في ألمانيا، وهذه الحقيقة فقط تعتبر سبباً كافياً للموقف العدائي للكنيسة ضد طلبات الشعب.

وقد تراجع ما يسمى بالمشكلة الثقافية إلى الخلف تماماً، وهذا هو ما حدث في كل أنحاء النمسا في ذلك الوقت. ومع افتراض وجود موقف عدائي تجاه الكنيسة الكاثوليكية، لم يتأثر قادة حركة "كل الألمان" كثيراً بموقف الكنيسة في قضايا العلوم لكنه تأثر في الأساس بحقيقة أن الكنيسة لا تدافع عن الحقوق الألمانية وهذا واضح من أفعالها، فهي لم تناصر سوى الذين ينتهكون الحقوق وخاصة السلاف.

ولم يكن جورج شونرر هو ذلك الرجل الذي يقبل أنصاف الحلول. فقد خاض حرباً ضد الكنيسة لأنه كان مقتنعاً بأن ذلك هو الطريق الوحيد الذي يمكنه من إنقاذ الشعب الألماني. وقد بدت حركة "بعيداً عن روما" كطريق مخيف - لكنها الأكثر صعوبة في نفس الوقت - لتدمير قلاع العدو. وقد اعتقد شونرر أن هذه الحركة يمكن أن تستمر بنجاح وأن الشقاق بين الطائفتين الدينتين في ألمانيا سوف ينتهي وأن القوة الداخلية للإمبراطورية والأمة الألمانية ستزايد بسبب هذا الانتصار.

لكن هذه المقدمة المنطقية وكذلك نتائجها المتوقعة كانت خاطئة.

وكان من الصحيح وبلا شك أن قوى المقاومة الوطنية - في كل ما يخص ألمانيا - أضعف بكثير في رجال الكنيسة الكاثوليكية الألمانية عنها فيمن هم من غير الألمان من رجالها وخاصة التشيك. والجاهل فقط من الناس هو من يظن أن رجال الدين المسيحي الألمان قد خطر ببالهم - ولو لمرة واحدة - القيام بعمل هجومي للدفاع عن المصالح الألمانية.

لكن في ذلك الوقت كان الجميع يرى أن كل ذلك مرجعه إلى أننا كنّا كألمان كان علينا أن نعاني، وهذه الصفة تجعلنا ننظر حتى إلى جنسيتنا باعتبارها شيئاً يوجد خارجنا.

وبينما اتبع الكاهن التشيكي طريقة فعالة تجاه شعبه وطريقة موضوعية تجاه كنيسة، اتبع الكاهن الألماني طريقة فعالة تجاه كنيسة وطريقة موضوعية تجاه أمته. وهي ظاهرة - لسوء حظنا - يمكن ملاحظتها بنفس الطريقة في آلاف الحالات.

❖ | الفرق بين الحاخام اليهودي ورجل الدين المسيحي:

إنه بلا شك ميراث كاثوليكي غريب، لكنه شيء بداخلنا ولا يستغرق وقتاً طويلاً حتى ينخر في كل هيئة تقريباً، وخاصة هيئات الدولة ذات الأهداف المثالية. ولنأخذ على سبيل المثال موقف مسئول الدولة من الجهود التي بذلت لإحداث بعث جديد ونقارن هذا الموقف بموقف المسؤولين الحكوميين في أي أمة أخرى في نفس الموقف. وهل يعقل أيضاً أن أي ضباط في جيش أي دولة أخرى في العالم يرفضون التقدم لتحقيق آمال الأمة، ويفضلون التخفي وراء شعار "سلطة الدولة" كما حدث في بلادنا خلال الأعوام الخمس الماضية، ثم ينالون عن هذا الرأي كل تقدير؟ ولنأخذ مثلاً آخر: وهو مشكلة اليهود، ألا تتبنى الطائفتان المسيحيتان موقفاً حالياً لا يستجيب لمطالب الأمة أو حتى المصالح الدينية؟ ولنفكر في موقف أي حاخام يهودي تجاه أي قضية، حتى وإن كانت قضية صغيرة جداً تتعلق بالسلالة اليهودية، ونقارن ذلك الموقف مع موقف الأغلبية من رجال الدين المسيحي عندنا، سواء كانوا كاثوليك أو بروتستانت.

ويمكننا أن نلاحظ نفس الظاهرة كلما لاح لنا أمر مهم أو فكرة جديدة تستحق الدفاع عنها.

إن كل الشعارات مثل "سلطة الدولة" و"الديمقراطية" و"السلام" و"التكافل الدولي" وغيرها تتحول معنا إلى مفاهيم جافة ونظرية، وكلما كانت الضروريات العامة للأمة أكثر أهمية كان الحكم عليها من خلال هذه المفاهيم فقط.

وهذه العادة التعسة التي تجعلنا ننظر إلى كل متطلبات الأمة من وجهة نظر شعار معد مسبقاً تجعل من المستحيل علينا أن نرى الجانب الشخصي في الشيء الذي يتعارض موضوعياً مع معتقدات الفرد. وقد أدى هذا أخيراً إلى انعكاس تام في استخدام الوسائل المؤدية إلى الغايات. لذلك فإن أي محاولة للصحة القومية تواجهها معارضة إذا كانت الشروط التمهيدية لهذه الصحة تستلزم الإطاحة بنظام سيئ وضار قبل كل شيء، وذلك لأن هذا العمل سوف يعتبر انتهاكاً لـ "سلطة الدولة". وبالنسبة لمن يتبنون هذا الاتجاه، فإن "سلطة الدولة" ليست وسيلة يمكن أن نستخدمها للوصول إلى غاية في حد ذاتها، وهم يعتبرون أن ذلك عذر كاف لبقائها التعس. ويطلق هؤلاء الناس صيحات عالية إن حاول أحدهم إقامة ديكتاتورية حتى وإن كان المسئول عنها هو فريدريك الأكبر، حتى وإن كان

السياسيون في ذلك الوقت - والذين يشكلون الأغلبية في البرلمان - صغاراً وغير أكفاء أو من درجة أقل، وذلك لأن التمسك بالمبادئ المجردة للديمقراطية تحترم أكثر من تحقيق رفاهية الأمة. كما أن أي فرد من أفراد الطبقة الأرستقراطية يدافع عن أسوأ ما في الحكم الاستبدادي - بالرغم من أنه قد يؤدي إلى هلاك الشعب - وذلك لأنه يمثل "سلطة الدولة" وآخر يعارض في وجود حكومة مفيدة جداً إن تعارضت فقط مع مفهومه عن "الديمقراطية".

وبنفس الطريقة يبقى نصير السلام الألماني صامتاً بينما تنن الدولة من الظلم الذي تمارسه السلطة العسكرية المتعطشة للدماء، وعندما تؤدي تلك الحالة إلى مقاومة فعالة، تتطلب استخدام القوة، هنا يعارضها نصير السلام ويعتبر أن هذه القوة ضد السلام.

❖ | تشخيص المرض:

وقد نخدع الاشتراكيون الألمان من جانب زملائهم في جميع أنحاء العالم أو ينهبون باسم التكافل، وهم يردون على ذلك بمنتهى الطيبة الأخوية ولا يحاولون أبداً حماية أنفسهم وفعل ما يؤمنهم، لماذا ؟ لأنهم ألمان.

قد يبدو استعراض هذه الحقائق غير ممتع، لكن علينا أولاً أن نبدأ بتشخيص المرض إن كنا نطمح في أي نوع من التغيير.

أدت الظاهرة التي طرحتها للتو أيضاً إلى الطريقة الواهنة التي اتبعها قطاع من رجال الدين المسيحي في معالجة المصالح الألمانية والدفاع عنها.

إن هذا السلوك، وتلك الأوامر التي صدرت من "فوق" - كما نقول - لا تعبر عن نية سيئة. لكنه نقص في العزم والإرادة الوطنية ناتج عن عيوب في نظامنا التعليمي. فبدلاً من تلقين الشباب إحساساً حياً بوطنيتهم الألمانية، كان النظام التعليمي يهدف إلى جعل الشباب يحترمون فكرة المواطنة، كما لو كانت هذه الفكرة صنماً يُعبد.

فالتعليم الذي يصنع منهم رجالاً مخلصين للشعارات مثل: "الديمقراطية" و"الاشتراكية الدولية" و"السلام" تعليم صعب ويتم توجيهه من خارج الحياة ككل، فيتأثرون بتلك الشعارات فقط. لكن - ومن جهة أخرى - فإن توجيههم نحو جنسيتهم الألمانية أصبح واضحاً منذ فترة الشباب وفيما بعدها. وأول ما يفكر فيه نصير السلام الألماني الذي يسلم نفسه جسداً وروحاً لمبادئ نظرية هو التفكير في الموقف الذي يهدد شعبه سواء كان مخطئاً أم مصيباً، وذلك حتى وإن كان الخطر مستفحلاً وظالماً وقادماً من الخارج. لكنه لن يحدد موقفه بين أفراد أمته ويحارب من أجلهم ومعهم من أجل الحفاظ على الذات.

❖ ملاحظات على الطائفة الدينية: البروتستانت!

وهناك مثال آخر يوضح كيف أن هذا يمكن أن يطبق على الطوائف الدينية المختلفة. فالبروتستانت يدافعون عن المثل جيداً طالما أنها صادرة عن عادات ومثل ألمانية المنشأ. لكنها تفشل في اللحظة التي يطلب منها الدفاع عن المصالح الوطنية التي لا تنتمي إلى ما تؤمن به من مثل وقيم أو التي - لسبب ما أو لآخر - قد ترفضها تلك القيم. وعلى ذلك فإن المذهب البروتستانتي يظل مشاركاً في تحسين المثل الألمانية طالما أنها تمس التكامل الأخلاقي أو التعليم القومي، وذلك عند الدفاع عن كياننا الديني أو اللغة أو حرية العقيدة وهذا هو ما قام عليه المذهب البروتستانتي ذاته. لكن تلك البروتستانتية ذاتها تعارض بعنف كل محاولة لإنقاذ الأمة من قبضة عدوها القاتل، وذلك لأن اتجاه طائفة البروتستانت نحو اليهود جامد وثابت. وهذه هي أول مشكلة يجب حلها إلا إذا باعنا جميع محاولات الصورة الألمانية بالفشل والاستحالة.

وخلال إقامتي في فيينا كان لديّ وقت فراغ طويل وفرصة لدراسة المشكلة دون السماح لأدنى قدر من تحيز بالتسلل إلي، ومن خلال تعاملاتي اليومية مع الناس استطعت أن أكون رأياً صحيحاً وذلك باللجوء إلى استخدام آلاف الأمثلة.

في هذا المكان الذي يحوي عدداً كبيراً من القوميات المختلفة كان من الواضح جداً للجميع أن نصير السلام الألماني هو من يحاول التفكير في مصالح أمته بطريقة موضوعية، لكنك لن تستطيع إيجاد يهودي واحد يتجه نفس الاتجاه مع أبناء جنسه. كما أنني وجدت أن الاشتراكي الألماني هو "دولي" بمعنى أنه يرى أن عليه أن لا يطالب بالعدالة لشعبه بأي طريقة أخرى سوى النحيب والنواح مع زملائه الدوليين. ولا أحد يمكنه أن يلوم التشيك أو البولنديين أو غيرهم من الجنسيات على مثل ذلك التصرف. لكنني لاحظت في ذلك الوقت أن هذا الداء سببه - جزئياً - هو تعليمات الاشتراكية وتعليمات دعاة السلام وغيرهم، لكنه نتيجة رئيسية لنظام التعليم القاصر القائم لدينا، كما أن العيوب الموجودة في هذا النظام مسئولة عن نقص الولاء لأهدافنا الوطنية.

لذلك كان أول ما قدمه قادة حركة "كل الألمان" من حوار نظري كأساس لهجومهم على المذهب الكاثوليكي غير مقنع بالمرة.

❖ الإصلاح الديني المطلوب:

وكانت الطريقة الوحيدة لعلاج الداء الذي تحدثت عنه هي تدريب الألمان بداية من سن الشباب على إدراك حقوقهم كشعب، وذلك بدلاً من تسميم عقولهم وهم لا يزالون أطفالاً صغاراً بفضل هذه الموضوعية الموجهة حتى إلى موضوعات تمس وجودنا ذاته.

وستكون نتيجة ذلك أن يصبح الكاثوليك في ألمانيا - مثلهم في ذلك مثل الكاثوليك في أي دولة أخرى سواء كانت أيرلندا أو بولندا أو فرنسا - من الألمان أولاً وقبل كل شيء. لكن كل ذلك يفترض أولاً تغييراً جذرياً في الحكومة الوطنية.

وقد قدم الدليل على صحة ما أقول عندما نودي على الشعب لآخر مرة ليدافع عن وجوده في صراع ينتهي إما بالحياة أو الموت.

وطالما أنه لا يوجد نقص في قيادات الدوائر العليا، فإن الشعب يؤدي واجباته والتزاماته بقدر هائل. وقد قام الجميع بما يستطيع القيام به - سواء كان (قس بروتستانتياً) أو (كاهن كاثوليكياً) - لمساندة المقاومة والثبات، ليس فقط في داخل الخنادق ولكن أيضاً في البيوت⁽¹⁾. وخلال تلك السنوات كان هناك في كلا المعسكرين الدينيين من يصلي من أجل الحفاظ على بقاء الإمبراطورية الألمانية متحدة ومتماسكة .

وكان على حركة "كل الألمان" في النمسا أن تسأل نفسها هذا السؤال : هل الحفاظ على العنصر الألماني في النمسا ممكن أم لا ، طالما أنه سيظل كاثوليكياً ؟ فإذا كانت الإجابة بالإثبات فإن على الحزب السياسي ألا يتدخل في شئون دينية أو طائفية. لكن، إذا كانت الإجابة بالنفي فلا بد من البدء في إصلاح ديني وليس في تكوين حزب سياسي.

وكل من يعتقد أنه من الممكن الوصول إلى إصلاح ديني من خلال تنظيم سياسي ليس لديه أي فكرة عن تطور المفاهيم الدينية والعقائد وكيف أنها تستمد تأثيرها العملي من الكنيسة.

فلا يمكن لأي فرد أن يخدم سيدين معاً. وأنا أرى أن تأسيس ديانة أو القضاء عليها أكبر أثراً من تأسيس دولة أو القضاء عليها، فما بالك لو كان الحديث عن تأسيس حزب.

وبلا شك، كان هناك دائماً معدومو الضمير من المتشرددين الذين لم يترددوا في أن يتراجعوا باستخدام الدين لصالح أبسط المصالح السياسية. وعادة ما تكون عقول هؤلاء خاوية من أي شيء آخر سوى الاستفادة من الديانات والسياسات. لكن ومن جهة أخرى، من الخطأ أن نعتبر الدين ذاته أو طائفة دينية مسؤولة عن عدد من الأوغاد الذين يستخدمون الكنيسة لأغراضهم الوضيعة تماماً مثلما يستفيدون من أي شيء آخر يشتركون فيه.

إن هؤلاء الكسالى والمحتالين المسترخين على أرائك البرلمان لا يحبون أي شيء أكثر

(1) يشير هتلر هنا إلى ما قام به الشعب الألماني من تحمل لنتائج الحرب العالمية الأولى الوخيمة والتي انتهت بهزيمة الألمان وتكبدهم الكثير من الخسائر والتعويضات.

من التوصل إلى كبش فداء يضحون به بعد وقوع أي حدث سياسي حاد. وعندما تهاجم ديانة أو طائفة دينية وتصبح مسئولة عن سوء تصرف شخصي لأحد النواب، فإنه يشن هجوماً فوراً ويدعو العالم لكي يشاهد براءته وإخلاصه كما يدعي أنه قد أنقذ الكنيسة بكلامه وفصاحته. ولم يستطع عامة الناس الذين هم في الغالب من الأغنياء وضعيفي الذاكرة أن يلاحظ من هو مثير النزاع من بين الكثيرين الذين اشتركوا فيه. كما أنهم لن يتذكروا بداية الشجار وبذلك يفلت هذا الخبيث بفعلته.

إن من يملك هذه الصفات الخبيثة يدرك جيداً أن أفعاله السيئة ليس لها أي علاقة بالدين. لذلك فهو سيضحك في سره من كل قلبه عندما يخسر خصمه الشريف الجاهل اللعبة ويعتزل الحياة العامة - لأنه يفقد كل ثقته في الناس.

لكن - من وجهة نظر أخرى- من الخطأ أن نجعل الدين أو الكنيسة مسئولة عن أخطاء الأفراد. فإذا ما قارنا عظمة الكنيسة الواضحة للجميع مع نقاط ضعف النفس الإنسانية يكون الفرق واضحاً جداً عما هو في أي حالة أخرى. وربما يكون هناك - بالطبع- بعض القس الذين يستخدمون دعوتهم المقدسة للدين في تحقيق طموحاتهم السياسية. وهناك بعض رجال الدين المسيحي الذين نسوا أن من يعمل بالسياسة عليه أن ينصر الحقائق الواضحة الجلية بدلاً من أن يحرض على الغش والخداع. لكن في مقابل كل واحد من هذه النماذج الحقيرة نجد ألف مثال أو أكثر من المخلصين لرسالتهم النبيلة يعملون كحراس أمناء على أرواحنا ونجد أن هاماتهم ترتفع عالياً فوق مستوى هذا الفساد وتبدو كجزر صغيرة ترتفع فوق سطح البحر.

❖ | هل تلوم الكنيسة؟

لا يمكنني أن أتهم الكنيسة، لكن من الممكن اتهام أحد رجال الدين الذين يلبسون روب القسيس إن ارتكب ما هو ضد الأخلاق. ولا يمكنني أيضاً ولو للحظة أن أفكر في لوم الكنيسة إن قام أحد المنتسبين إليها - وهم كثير - بافتراء الكذب وتشويه سمعة أحد الزملاء خاصة في مثل هذا الزمن الذي شاع فيه مثل هذا السلوك. ويجب ألا ننسى أن كل واحد من هؤلاء الأوغاد - وخاصة في زماننا هذا - يقابله ألف من الذين تنزف قلوبهم من ألم التعاطف مع الشعب خلال سنوات العذاب والذين يشاققون للساعة التي يبتسم لنا فيها العالم مرة أخرى، مثلهم في ذلك مثل أفضل ما تضم أمتنا من رجال.

فإذا ما صدر اعتراض بالقول بأننا نهتم بمشكلات الحياة اليومية التافهة قبل المشكلات العقائدية الكبرى والحقائق، فالرد الوحيد على هذا الاعتراض هو أن نسأل سؤالاً: هل تعتقدون أن العناية الإلهية قد استدعتكم لنشر الحقائق في العالم ؟ إذا كان الأمر

كذلك فعليكم بالتنفيذ. لكن عليكم أن تفعلوا ذلك مباشرة وليس من خلال حزب سياسي يستخدم كبوق، وذلك لأنكم بهذه الطريقة تضائلون وظيفتكم. وعليكم أن تضعوا محل الشيء الفاسد شيئاً آخر أفضل منه يستمر في المستقبل.

فإذا لم تكن لديكم الشجاعة الكافية أو إن لم تعرفوا بوضوح ما هو البديل الأفضل، فلتتركوا الأمر برمته. ولكن، مهما حدث فإذا لم تكن لديكم الشجاعة الكافية للقتال المباشر فلا تحاولوا الوصول إلى أهدافكم عن طريق غير مباشر من خلال حزب سياسي.

فالأحزاب السياسية لا تملك حق التدخل في أمور الدين إلا إذا كان أمراً يخص بقاء الأمة تم إعداده كي يضعف العادات والأخلاقيات العرقية.

فإذا ما أساء بعض أصحاب المقامات الكنسية استخدام الطقوس الدينية أو تعاليم الدين حتى يتمكنوا من إيذاء أمتهم، فإن على معارضيتهم ألا يسلكوا نفس الطريق باستخدام نفس الأسلحة.

❖ القائد السياسي وتعاليم الدين:

أما بالنسبة للقائد السياسي فإن تعاليم الدين وعادات المجتمع تعتبر مقدسة وذات حرمة كبرى. وإلا فإنه ليس برجل دولة بل مصالح، وذلك إن كان يملك الصفات الضرورية لتلك المهمة. وأي سلوك آخر غير ذلك سيؤدي إلى كارثة، خاصة في ألمانيا.

وبدراسة حركة "كل الألمان" اقتنعت بشدة - وخاصة خلال السنوات الأخيرة - أن فشلهم في إدراك أهمية المشكلة الاجتماعية جعلهم يفقدون دعم الجماهير العريضة التي تمثل سنداً لا غنى عنه لمثل هذه الحركة. فقد حرم أعضاء الحركة أنفسهم بدخولهم البرلمان من قوة دافعة عظيمة تتمثل في جموع المواطنين بالإضافة إلى أنهم حملوا على أكتافهم كل عيوب البرلمان. كما أن نضالهم ضد الكنيسة جعل من المستحيل قبول موقفهم في كثير من الطبقات الدنيا والمتوسطة بينما حرمهم أيضاً وفي نفس الوقت من أعداد كبيرة من عناصر الطبقة العليا - وكان من بينهم بعض أفضل رجال الدولة. لذلك فقد كانت المحصلة العملية النهائية لهذه الحركة النمساوية سلبية. وبالرغم من أنهم نجحوا في الفوز بمائة ألف عضو لا علاقة لهم بالكنيسة، إلا أنهم لم يمسخوها بأذى. ولم تذرف الكنيسة أي دموع على من فقدت من أفراد، لأنها فقدت هؤلاء الذين توقفوا منذ وقت طويل عن الانتماء إليها من أعماق قلوبهم. والفرق بين هذا الإصلاح الجديد والإصلاح الكبير أن بعض أفضل الأعضاء في عصر الإصلاح الكبير تركوا الكنيسة بسبب معتقدات دينية، بينما في هذا الإصلاح الجديد غادر الكنيسة من كانوا فيما قبل غير مهتمين بشيء وأصبحوا ذوي اهتمامات سياسية فيما بعد. ومن الناحية السياسية فقط، فإن هذه نتيجة ساخرة برئى لها.

ومرة أخرى سقطت حركة سياسية واعدة وتحمل آمال الشعب الألماني، وذلك لأنها لم تلتزم بالحقبة المجردة، وضلت طريقها فذهبت إلى مجالات كان لابد لها أن تفشل فيها.

وما كان لحركة "كل الألمان" أن تقع في مثل هذا الخطأ إن فهمت نفسية الجماهير العريضة حق الفهم. فإذا كان القادة قد أدركوا - لأسباب نفسية فقط - أنه ليس من المناسب أن نضع خصمين أو أكثر أمام الجمهور، لأن ذلك يشتت قواهم القتالية تماماً، بل يجب أن يكون التركيز بكامل قوتهم وبلا انقسام موجه ضد خصم واحد. فلا يوجد في سياسة أي حزب سياسي ما هو أخطر من أن يُترك اتخاذ القرار فيه في أيدي هؤلاء الذين يشاركون في كل الولايم رغم أنهم لا يعرفون كيفية طهي أبسط الأطباق⁽¹⁾.

❖ | دروس التاريخ:

وبالرغم من كل ذلك فإن هناك ما يمكن أن يقال ضد كل الطوائف الدينية، وعلى القادة السياسيين أن يدركوا أن التاريخ علمنا أنه لم يوجد حزب سياسي مر بظروف مماثلة ونجح في تحقيق إصلاح ديني. فنحن لا ندرس التاريخ حتى ننسى دروسه أو نفقد الثقة فيها فيما بعد عندما يحين الوقت لتطبيق تلك الدروس عملياً. ومن الخطأ أن هذه الحالة بالذات كانت مختلفة، لذلك فإن الحقائق التاريخية الخالدة لا يمكن تطبيقها. فنحن ندرس التاريخ حتى نستطيع تطبيق الدروس المستفادة منه في الحاضر، ومن يفشل في ذلك فليس له أن يدعى أنه قائد سياسي. فهو في الحقيقة شخص ضحل أو - كما في أغلب الأحوال - ساذج ومخدوع لا تتناسب نواياه الطيبة مع عدم كفاءته في الأمور العملية.

ويعتمد فن القيادة كما قدمه لنا قادة عظام ذوو شعبية ومن مختلف الأعمار على توحيد اهتمام الشعب ضد عدو واحد وعدم السماح لأي شيء بأن يقسم هذا الاهتمام إلى عدة قطاعات. وكلما توجهت طاقات الكفاح عند الناس إلى شيء واحد فقط، زاد عدد المنضمين الجدد إلى الحركة، فموقفها الموحد يجذبهم كالمغناطيس، وبذلك يتم تعزيز القوة الضاربة للحركة. ولابد للقائد العبقري أن يملك من القدرات ما يمكنه من أن يجعل الخصوم يبدون كما لو كانوا ينتمون إلى نفس الفئة، وذلك لأن الطبيعة الضعيفة والمتردة عند القائد تجعله لا يعرف أين العدل في قضيته إن كان يواجه عدة أعداء مختلفين.

وبمجرد أن تدرك الجموع المترددة أنها تواجه معارضة صادرة من عدة مجموعات من الأعداء، يتنامى شعورهم بالموضوعية ويتساءلون كيف يكون هؤلاء جميعاً على خطأ وتكون حركتهم هي الوحيدة التي على صواب؟

(1) أي أن من يتخذ القرار هم من قلبي الخبرة.

إن هذا الشعور هو الخطوة الأولى تجاه تجمد رغبتهم في الكفاح. فإذا كان هناك عديد من الأعداء المنقسمين إلى عدة مجموعات مختلفة، فمن الضروري تجميعهم معاً لتتكون منهم جبهة واحدة صلبة، لذلك لابد أن ترى جموع مؤيدي الحركة أن هناك عدواً واحداً مشتركاً لابد لهم أن يحاربوه. إن هذا التوحد يؤكد تمسكهم بعدالة قضيتهم ويدعم شعورهم بالعداء تجاه خصمهم المشترك.

❖ لماذا فشلت حركة «كل الألمان»؟

وقد فشلت حركة "كل الألمان" لأن قاداتها لم يدركوا تلك الحقيقة. فقد كانوا يرون هدفهم بوضوح وكانت نواياهم طيبة، لكنهم سلكوا الطريق الخطأ. إن هذا التصرف يمكن مقارنته بتصرف متسلق جبل الألب الذي لا يمل من النظر إلى القمة التي يريد وصولها، ويبدأ تسلقه بكثير من العزم والقوة، لكنه لا ينظر إلى موقع قدميه. فهو يركز بصره على القمة التي يريد الوصول إليها ولا يدرك طبيعة المكان الذي يصعد عليه، فيسقط. أما الطريقة التي بدأ بها أكبر منافسي حركة "كل الألمان" فقد كانت مختلفة تماماً. وقد كانت الطريقة المتبعة جيدة ومختارة بعناية، لكن لم يكن لديها رؤية واضحة لهدف محدد. وقد نجحت سياسة الحزب الاشتراكي المسيحي في كل ما فشلت فيه حركة "كل الألمان" من قضايا، فقد كانت سياسة الحزب الاشتراكي المسيحي صحيحة ومنظمة.

❖ ولماذا نجح الحزب الاشتراكي؟

فقد أدرك هذا الحزب أهمية جموع المواطنين بطريقة صحيحة، وبذلك حصل على دعم أعداد كبيرة من الناس وذلك بتأكيد الشخصية الاجتماعية للحركة منذ بدايتها. ومع تركيز مناشداتهم على القطاع السفلي من الطبقة المتوسطة والحرفيين فقد حصلوا على مناصرين أوفياء ومثابرين ممن يضحون بأنفسهم. وقد حرص قادة الحزب الاشتراكي المسيحي على تجنب كل جدال مع الهيئات الدينية وبذلك ضمنوا تأييد هذه الهيئة الكبرى المؤثرة وهي الكنيسة الكاثوليكية. كما لاحظ هؤلاء القادة أيضاً قيمة الدعاية واسعة المدى، فكانوا خبراء في تحريك النزعة الدينية بداخل القطاعات العريضة من الناس.

❖ أخطاء وقع فيها الحزب الاشتراكي:

أما فشل هذا الحزب في تحقيق حلم إنقاذ النمسا من التفكك فيرجع إلى عيبين رئيسيين خاصين بالطرق التي استخدمها الحزب وعدم قدرتهم على تحديد الغايات التي يريدون الوصول إليها بوضوح. ثم قامت معاداة الحزب الاشتراكي المسيحي للسامية على مبادئ دينية وليست عرقية. وقد أدى ذلك الخطأ إلى ظهور خطأ آخر.

فقد كان مؤسسو الحزب الاشتراكي المسيحي يرون أنهم لا يمكنهم أن يقيموا موقفهم على أساس عرقي إذا أرادوا إنقاذ النمسا، وذلك لأنهم شعروا أن الدولة سرعان ما تتفكك إن استخدموا هذه السياسة. وقد رأى كبار مسؤولي الحزب أن الموقف في فيينا يحتاج إلى الابتعاد عن الإيقاع بين القوميات المختلفة بالإضافة إلى تشجيع كل العوامل المؤدية إلى التوحد.

وفي ذلك الوقت كانت فيينا محاطة بكثير من الأجانب وخاصة التشيك، وكان من المحبب لأي حزب لا يعادي ألمانيا أن يضم تلك الأعداد الهائلة إليه، ويسجلها في قوائمه. فإذا ما تم إنقاذ النمسا، فهذه الأعداد لا غنى عنها. لذلك بدأت محاولات كسب دعم صغار التجار وكان كثير منهم من التشيك، وذلك عن طريق معاداة الليبراليين من مدرسة مانشستر، فقد اعتقدوا أنهم بذلك الاتجاه يكونون قد وجدوا شعاراً ضد الشعب اليهودي، وهو شعار - لما فيه من مضامين دينية - يوحد كل القوميات المختلفة التي يتكون منها سكان النمسا.

وكان من الواضح أن هذا النوع من عداة السامية لم يزعج اليهود كثيراً - على أي حال - وذلك لأنه يقوم ببساطة على أسس دينية. فإذا ما تأزمت الأمور واشتدت، فإن بضع قطرات من الماء كافية للتعميد. وبذلك يتمكن اليهودي من الاستمرار في عمله في أمان ويحافظ على قوميته اليهودية في نفس الوقت.

وفي مثل تلك الظروف السطحية كان من المستحيل أن يتم التعامل مع المشكلة ككل بطريقة متتدة وعقلانية. وكانت النتيجة هي عدم استطاعة كثير من الناس أن يفهموا ذلك النوع من العداة للسامية ولذلك رفضوا المشاركة فيه.

لذلك أصبحت جاذبية تلك الفكرة محدودة في ذوي العقول الضيقة، وذلك لأن القادة قد فشلوا في تجاوز العواطف وإقامة موقفهم على أساس عقلاني صحيح. وقد عارض أصحاب الفكر هذه السياسة منذ البداية. لكنها تزايدت أكثر وأكثر حتى بدت وكأنها محاولة جديدة لهداية اليهود أو كما لو كانت قد أسست للتنافس مع الحركات الأخرى فقط. لذلك فقدت الحركة كل العلامات الدالة على أنها أعدت من أجل أهداف دينية ومهمة جلية. وفي الواقع فقد بدت الحركة أمام بعض الناس - وإن كانوا من العناصر غير المؤثرة على أي حال - على أنها حركة غير أخلاقية وتستحق التوبيخ. وقد فشلت الحركة في إقياظ الشعور بالمشكلة ذات الأهمية الكبرى التي تواجه البشرية جمعاء والتي يؤدي حلها إلى تحديد مصير كل العالم غير اليهودي.

ثم تحول أسلوب الحزب الاشتراكي المسيحي المتردد في التعامل مع مشكلة عداة السامية إلى أسلوب غير فعال تماماً.

فقد كان هذا الأسلوب معادياً للسامية فقط من مظهره الخارجي. وهذا أسوأ من عدم ظهور هذا العداء على الإطلاق، وذلك لأن ظهور هذا الاتجاه قد أعطى بعض الناس شعوراً زائفاً بالأمان حيث اعتقدوا أنه تم الإمساك بالعدو والسيطرة عليه، لكن الحقيقة كانت تقول: إن الشعب نفسه هو من تورط.

فقد عدل اليهود من موقفهم بسرعة بما يتماشى مع هذا النوع من عداء السامية، حيث وجدوا أن استمراره مفيد لهم أكثر من القضاء عليه.

وقد أدت تلك الحركة الكبرى إلى القيام بكثير من التضحيات من أجل الدولة التي تقوم على العديد من القوميات. لكن من قام بتلك التضحيات الكبرى كانوا من الأوصياء على العنصر الألماني.

فلن تستطيع أن تكون قومياً في فيينا دون أن تنهار الأرض من تحت أقدامك. وكان هناك أمل في إنقاذ دولة هابسبرج إذا تجنبنا الحديث عن المسألة القومية، لكن تلك السياسة أدت إلى خراب الدولة. كما أدت نفس السياسة أيضاً إلى سقوط الحزب الاشتراكي المسيحي. وبذلك حرمت الحركة من المصدر الوحيد للطاقة التي كانت تمد الحزب بكل ما يحتاج من قوى دافعة.

وخلال تلك السنوات تابعت الحركتين ولاحظت كيفية تطورهما، وذلك لأن قلبي كان يساند واحدة منهما كما أنني كنت معجبةً بقاءد في الحركة الأخرى وكان يبدو لي كمثال مؤثر لكل من في النمسا من ألمان.

وعندما شقت الجنازة المهيبة لحاكم المدينة طريقها من القاعة الرئيسية بالمدينة إلى «رينج استراس»، وقفت بين مئات الآلاف وشاهدت الموكب المهييب يتقدم. وبينما كنت واقفاً هناك، تأثرت بشدة وحننتي نفسي بأن كل ما قام به هذا الرجل ضاع هباءً، وذلك لأن حظه العنيد لم يرحمه وأدى بهذه الدولة إلى السقوط. فإذا كان الدكتور كارل ليجر قد عاش في ألمانيا، لكان قد وجد مكانه بين كبار قادة شعبنا. ولقد كان من سوء حظ ما قام به من أعمال وسوء حظه هو أنه عاش في تلك الدولة المستحيلة.

وعندما مات كانت نيران البلقان قد اشتعلت وفي حالة من الانتشار شهراً وراء شهر. ولقد كان القدر رحيماً به فلم ير ما كان يكره رؤيته ويحاول منعه.

❖ | أخطاء قاتلة وقع فيها الحزبان:

وقد سعيت إلى تحليل القضية التي أدت بإحدى هاتين الحركتين إلى التوقف غير المجدي وأوقفت تقدم الأخرى. وكانت نتيجة البحث هي اعتقاد عميق بأن الحزبين قد وقعا في الخطأ القاتل التالي - وذلك بغض النظر عن استحالة تماسك دولة النمسا القديمة :

كان حزب "كل الألمان" على حق في أفكاره الرئيسية التي تخص هدف الحركة، وهي القيام بإصلاح ألماني، لكنها لم توفق في اختيار الأسلوب. كان حزباً قومياً لكنه كان قليل الاهتمام بالمشكلة الاجتماعية، ولذلك فشل في الحصول على دعم الجماهير. وقد قامت سياسته المعادية لليهود على أساس من الإدراك الصحيح لمغزى المشكلة العرقية وليس على مبادئ دينية. لكنه أخطأ في تقييم الحقائق واستخدم طرقاً خاطئة في حربه ضد الطوائف الدينية.

أما الحركة المسيحية الاشتراكية فقد كان مفهومها عن الإصلاح الألماني غامضاً، لكنها كانت ذكية ومحظوظة في اختيارها للطرق التي تنفذ بها سياستها كحزب. كما أدركت الحركة المسيحية الاشتراكية أهمية القضية الاجتماعية، لكنها تبنت المبادئ الخاطئة بكفاحها ضد الشعب اليهودي، كما أنها فشلت تماماً في تقدير قيمة الفكرة القومية كمصدر للدعم السياسي.

فإذا كان الحزب المسيحي الاشتراكي بما له من رأي جيد حول قيمة الجماهير - قد أصدر حكماً صائباً أيضاً حول أهمية القضية العرقية التي فهمتها جيداً حركة "كل الألمان" وإذا كان هذا الحزب حزباً قومياً حقاً أو إذا كان قادة حركة "كل الألمان" - من جهة أخرى - بما لديهم من حكم صائب على مشكلة اليهود وفكرة القومية قد امتزجت مع حكمة الحزب الاشتراكي المسيحي وخاصة فيما يتعلق بالسامية، لكننا قد حصلنا على حركة تنجح - في رأيي - في تعديل مصير ألمانيا تماماً.

ولم أكن مقتنعاً تماماً بأي حزب ظهر في ذلك الوقت، ولم أجد نفسي راغبة في أن أسجل اسمي كعضو في أي من الأحزاب القائمة، أو حتى أشارك في نضالهم. وكانت كل تلك التنظيمات في ذلك الوقت تبدو لي منهكة وغير قادرة على تحقيق الصحوة القومية للشعب الألماني بطريقة متعمقة جداً، وليس من الخارج فقط. وكانت كراهيتي لدولة هابسبرج⁽¹⁾ تتزايد كل يوم.

❖ علامات التدهور والشيخوخة تظهر على الدولة النمساوية:

فكلما أوليت اهتماماً خاصاً لقضايا السياسة الخارجية، اقتنعت أن هذه الدولة الهزيلة ستجلب البلاء للألمان. وتزايدت قناعتني بأن قدر الأمة الألمانية لا يتأثر في كثير بما يحدث في هذا المكان بل بما يحدث في داخل الإمبراطورية الألمانية نفسها. وهذا صحيح، ليس فقط فيما يخص المسألة السياسية ولكن أيضاً - وبدرجة مماثلة - جوانب الحياة الثقافية.

(1) كرر هتلر التعبير "دولة هابسبرج" في أكثر من موضع بالكتاب، ويقصد به العائلة النمساوية المالكة بالطبع.

هنا - ومرة أخرى - نجد أن كل الأحوال تؤثر على الثقافة القومية والفن، فقد أظهرت الدولة النمساوية كل علامات التدهور والشيخوخة، أو أنها على الأقل توقفت عن كل مظاهر الانتماء إلى الأمة الألمانية عندما يتطرق الأمر لذلك، وقد ظهر هذا في فنها المعماري. فلم يستطع الفن المعماري الحديث أن يترك أي تأثير كبير في النمسا، ومنذ بناء مبنى "رنج ستراس" - في فيينا على الأقل - أصبحت الأنشطة المعمارية غير مميزة إذا ما قورنت مع خطط التطوير التي كانت تحدث في ألمانيا.

لذلك بدأ شعوري بثنائية وجودي يتزايد، فالعقل والواقع يدفعاني إلى الاستمرار في مهنتي الخشنة في النمسا، بالرغم من أنني يمكنني القول بأن هذه المهنة كانت مصدر حسن الطالع. لكن قلبي كان في مكان آخر.

تنامى شعور بعدم الرضا في داخلي وجعلني أكتب كلما أدركت مدى الخواء الداخلي لهذه الدولة واستحالة إنقاذها من الانهيار. وفي نفس الوقت شعرت بأني متأكد تماماً من أن هذا سيجلب على ألمانيا كل أنواع البلاء.

كنت مقتنعاً بأن دولة هابسبرج تعوق وتمنع كل ألماني بيدي أي علامة من علامات العظمة الحقيقية، كما أنها في نفس الوقت تساعد وتشجع كل الأنشطة المعادية لألمانيا.

أظهر هذا المشهد المتداخل من الأعراق المختلفة الذي شهدته عاصمة الإمبراطورية المزوجة هذا الخليط من التشيك والبولنديين والمجريين والصرب والكروات وغيرهم. وكان بالطبع هناك ذلك الطفيلي الذائب في المجتمع الإنساني، وهو اليهودي، فهو موجود هنا وهناك وفي كل مكان. وقد كرهت المشهد العام ككل. فقد بدت المدينة الضخمة كمثال مجسد للهجين الفاسد.

وكانت اللغة الألمانية التي أتحدث بها منذ طفولتي هي اللغة العامية لبافاريا الدنيا. ولا أنسى أبداً تلك الطريقة في الحديث، كما أنني لم أتعلم لهجة أهل فيينا أبداً.

وكلما طالبت فترة إقامتي في هذه المدينة، زادت كراهيتي لهذا الخليط من الشعوب الذين يعيشون في مهد الثقافة الألمانية. وأصبحت فكرة محافظة هذه الدولة على استمرار وجودها لأي فترة مجرد عبث.

كانت النمسا في ذلك الوقت تشبه قطعة الفسيفساء التي جف الأسمنت المثبت لها فأصبحت قابلة للتفتت. فكلمنا تركنا هذا العمل الفني دون أن يلمسه أحد، ظل متماسكاً وباقياً. ولكن بمجرد توجيه أي ضربة له سيسقط مخلفاً آلاف القطع المتكسرة. لذلك فإن الحالة الآن في الدولة هي انتظار تلك الضربة القاتلة.

ولأن قلبي كان معلقاً دائماً بالإمبراطورية الألمانية وليس بالمملكة النمساوية، فقد بدت لحظة تفكك دولة النمسا بالنسبة لي كخطوة أولى لتحرير الأمة الألمانية.

كل تلك الاعتبارات زادت من تشوقي للذهاب إلى بلدي الذي طالما تمناه قلبي سراً منذ أن كنت شاباً.

وكنت أمل أن أستطيع يوماً ما أن أترك علامة كمعماري وأن أتمكن من الاستفادة من مواهبي في خدمة بلدي سواء في مجال محدود أو مجال كبير حسبما يريد لي القدر.

وهناك سبب أخير لرغبتني في العودة وهو أنني كنت مشتاقاً لأن أكون بين هؤلاء الذين يعيشون ويعملون على تلك الأرض التي يجب أن تتطلق منها الحركة، على أن يكون هدفها هو ما كان قلبي دائماً يشاق إليه - أي - اتحاد الدولة التي ولدت فيها مع الدولة الأم، الإمبراطورية الألمانية.

قد لا يفهم كثير منا معنى هذا التشوق الجارف، لكنني مقبول عند مجموعتين من الناس. الأولى تضم هؤلاء المحرومين من السعادة التي ذكرتها ، والمجموعة الثانية تضم من كانوا سعداء يوماً ما لكنهم فقدوا هذه السعادة بسبب قدرهم القاسي. فأنا أنتمي إلى كل من انتزع من وطنه الأم ثم ناضل من أجل الحفاظ على ميراثه المقدس ولغته واضطهدوا وانتهكوا بسبب ولائهم وحبهم لبلدهم الأم، فحزنوا واشتاقوا للساعة التي يسمح لهم فيها بالعودة إلى صدر أمهم. وأنا أوجه حديثي إليهم. وأعرف أنهم سوف يفهمون كلامي.

إن من جرب أن يكون ألمانياً ثم يحرم من حق الانتماء إلى بلده الأم يستطيع الشعور بالحنين الشديد إلى الوطن الذي يشعر به هذا المنفي. إنه الحزن المستمر، بحيث لا توجد سعادة أو رضا حتى تفتح أبواب الوطن على مصراعيها أمام من جرت في عروقهم دماء الوطن فيجدوا السلام والراحة في ألمانيا.

كانت فيينا مدرسة قاسية بالنسبة لي، لكنني تعلمت فيها أهم دروس حياتي. فقد كنت قد تجاوزت سن الطفولة بالكاد عندما ذهبت لأعيش هناك، وعندما غادرتها كنت رجلاً رزيناً ذا طبيعة مفكرة. وفي فيينا تحصلت إلى الأسس العامة لمفهوم شامل، كما طورت قدرتي على تحليل القضايا السياسية بالذات. ولم أتخل عن هذا المفهوم العام والأفكار السياسية التي تكونت بعد ذلك أبداً، وذلك بالرغم من تشعبها وامتدادها إلى عدة اتجاهات. والآن فقط أدرك قيمة تلك السنوات التي عشتها كعامل حرفي هناك.

وهذا هو ما جعلني أتحدث عن تلك الفترة بالتفصيل. فهناك في فيينا تعلمت من الواقع الواضح أن الحقائق هي ما يمثل الآن المبادئ الأساسية لحزب ينمو خلال خمس سنوات ويتحول من حركة مبتدئة إلى قوة كبرى⁽¹⁾. ولم أكن أعرف كيف سيكون موقفى اليوم من الشعب اليهودي والاشتراكية الديمقراطية والماركسية بوجه عام، وكذلك المشكلات الاجتماعية، وغير ذلك من موضوعات إن لم أكن قد كُنت معتقدات شخصية عن تلك الموضوعات في سن مبكرة، وذلك من خلال تلك الدراسة الشاقة وبسبب ما قدر لي أن أمر به من ظروف.

وبالرغم من أن آلاف وآلاف من قلبي الحظ في الوطن الأم قد فكروا ملياً في الأسباب الداخلية للانقياد، إلا أن ذلك لم يؤد إلى معرفة تامة تعادل معرفة الرجل الذي كافح سنوات كثيرة حتى يكون سيد نفسه.



(1) يقصد الحزب النازي الذي تمكن من تكوينه بسرعة.



❖ لماذا أحببت ميونخ؟

أخيراً وصلت إلى ميونخ في ربيع عام 1912م.

كانت المدينة مألوفة بالنسبة لي كما لو كنت قد عشت فيها لسنوات طوال.

وكان ذلك بسبب أن دراستي للمعمار كانت دائماً تلفت انتباهي إلى عاصمة الفن الألماني. ولابد لنا أن نعرف ميونخ إن أردنا أن نعرف ألمانيا، كما أنه من المستحيل الإلمام بالفن الألماني دون مشاهدة ميونخ.

وإذا أخذنا كل الاعتبارات في الحسبان، فهذه أكثر الفترات سعادة في حياتي قبل الحرب. كان مكسبي هزياً، لكنني لم أكن أعيش من أجل الرسم. فقد كنت أرسم للحصول على ضروريات الحياة أثناء الاستمرار في الدراسة. فقد تمكنت أخيراً من الوصول إلى الهدف الذي وضعته لنفسي في الحياة. وقد كان ذلك كافياً لكي أتحمّل صعاب الحياة اليومية دون مجرد التفكير قليلاً فيها.

ومنذ أول لحظة في إقامتي في ميونخ تقريباً وأنا أحب المدينة أكثر من أي مكان آخر. قلت في نفسي، إنها مدينة ألمانية ! إنها مختلفة تماماً عن فيينا. إنها تجعلني أتضايق من هجرتي إلى تلك المدينة متعددة الأعراق⁽¹⁾. كما أن هناك صفة جميلة أخرى هنا في هذه المدينة وهي الطريقة التي ينطق بها الناس اللغة الألمانية، وكانت أقرب إلى الطريقة التي أتحدث بها مقارنة بلهجة فيينا. وقد أعادتني لهجة ميونخ إلى أيام الشباب، خاصة عندما أتحدث مع من أتوا إلى ميونخ من جنوب بافاريا. كان هناك ألف شيء أو أكثر أحببته في ميونخ أو أحببته عندما صادفته أثناء إقامتي. لكن ما جذبني أكثر كان ذلك التزاوج المذهل بين التراث الشعبي المحلي مع روح الفن الراقي في تلك المدينة. إن هذا التناسق المميز واضح في كل شيء، في المباني والاحتفالات وغيرها. وقد يكون سبب تعلق أوتار قلبي بهذه المدينة كما لم يحدث مع أي مكان آخر في العالم لأن ميونخ كانت سبباً في تطور عملي. ويعود سبب شعوري بسعادة ورضا يغمراني من الداخل منذ بداية زيارتي إلى

(1) يقصد فيينا.

جمال تلك العاصمة التي ربما جذبت كل من وهب الإحساس بالجمال بدلاً من المواهب التجارية.

❖ | مملكة هابسبرج وخدعة الحليف النمساوي:

وبعيداً عن حرفتي، كنت مهتماً بدراسة الأحداث السياسية الجارية، وخاصة تلك الأحداث المرتبطة بالعلاقات الخارجية. وكنت أتناولها من خلال سياسة التحالف الألمانية - منذ أن كنت في النمسا - وأدركت أنني مخطئ تماماً. ففي فيينا لم أكن أدرك مقدار الطريق الذي سارت فيه الإمبراطورية الألمانية لخداع النفس. ففي فيينا كنت مبالاً لأن أفترض - أو ربما أنني دفعت نفسي لذلك لأجد عذراً لألمانيا - أنه من الممكن أن يكون القادة في برلين على علم بمقدار ضعف والتفكك الذي يمكن أن يثبته تحالفهم عندما يجد نفسه وجهاً لوجه مع الواقع. لكنهم - ولأسباب غريبة - امتنعوا عن السماح بنشر تلك الأفكار بدرجة تجعلها معروفة للعامة. وكانت فكرتهم تتمثل في أن بإمكانهم دعم سياسة التحالف مع بسمارك لأنها بدأت فعلاً ولأن توقفها المفاجئ ليس مرغوباً فيه، وذلك لأن هناك دولاً أجنبية أخرى تنتظر فرصة، أو أن ذلك قد ينبه الانتهازيين بالداخل.

لكن سرعان ما تعلمت من خلال احتكاكي بالناس - وهذا بشرفي - أن افتراضاتي كانت خاطئة. لقد اندهشت حين علمت أنه لا يوجد أي فرد - في أي مكان، حتى من بين الطبقات المتعلمة - لديه تصور سليم لمملكة هابسبرج. وكان هناك وهم سائد بين عامة الناس أن حليفنا النمساوي يعتبر قوة يعتمد عليها عند الحاجة وأنه سيطبق قواته عند الحاجة. وظل عامة الناس يعتبرون المملكة المزدوجة "دولة ألمانية" كما اعتقدوا بأنه من الممكن الاعتماد عليها. وقبل كل شيء، أقول بأنهم لم يدركوا أن النمسا لم تصبح دولة ألمانية، كما أن الظروف السائدة في داخل الإمبراطورية النمساوية تدفعها باستمرار وبسرعة متهورة نحو كارثة.

في ذلك الوقت كنت أعرف أحوال دولة النمسا أفضل من السياسيين المحترفين. فهم معصوبو الأعين - كما هم دائماً - ويتعثرون في طريقهم المتجه إلى كارثة لا محالة. وكان الرأي السائد بين جموع الناس يعكس ما نقلته إليهم الدوائر السياسية العليا. وكان كبار رجال السلطة يحنون أمام التحالف كما انحنى القدياء أمام عجل من الذهب. وربما يكونون قد اعتقدوا أن عليهم أن يكونوا مؤدبين وودودين حتى تتوازن الأمور في مواجهة قلة الأمانة من الجانب الآخر. لذلك كانوا ينظرون إلى كل ما يعلن من خلال قيمته الاسمية الكاملة.

وحتى عندما كنت في فيينا، كنت أشعر بالضيق مرات ومرات للتناقض بين ما يقوله

المسؤولون في خطبهم وما تكتبه الصحافة في فيينا. وكانت فيينا لا تزال مدينة ألمانية، من ناحية المظهر الخارجي على الأقل. لكنني واجهت موقفاً مختلفاً تماماً عندما غادرت فيينا أو ألمانيا النمساوية، وجئت إلى مقاطعات السلاف. وكان لابد من إلقاء نظرة على الصحافة في براغ لنعرف أن الخداع حول التحالف الثلاثي يدار من هناك بالكامل. ففي براغ لا يوجد سوى الاستهزاء والسخرية من أفضل ما يقوم به رجال الدولة من أعمال. وحتى في وقت السلام الذي يقبل الإمبراطوران فيه بعضهما فوق الحاجب علامة على الصداقة، كانت تلك الصحف لا تكف عن القول بأن هذا التحالف سينفك مع أول محاولة لذلك.

❖ | التحالف الثلاثي:

ثم تزايد السخط بعد عدة سنوات، عندما وضعت التحالفات في أول اختبار. فلم تكف إيطاليا بالانسحاب من التحالف الثلاثي وتترك العضوين الباقيين يكملان المسيرة بل انضمت إلى أعدائهما. فهل يوجد من ظن يوماً ولو للحظة أن إيطاليا يمكن أن تفعل ذلك وهي من حارب لمساندة النمسا. وقد اعتبر كل فرد لم يعان من تضليل المسؤولين أن ذلك مستحيل، وهذا هو ما شعر به الناس في النمسا أيضاً.

وفي النمسا لم يؤيد التحالف سوى عائلة هابسبرج وألمان النمسا. وقد فعلت عائلة هابسبرج ذلك بعد حسابات دقيقة لمصالحها وضرورياتها، أما الألمان فقد فعلوا ذلك بنية طيبة وجهد سياسي. كانوا يعملون بنية طيبة لدرجة أنهم ظنوا أن إنشاء التحالف الثلاثي يقدم خدمة جليلة للإمبراطورية الألمانية ويقويها ويدعم دفاعها. لقد أظهروا جهلهم السياسي بتمسكهم بتلك الأفكار، وذلك لأنهم بدلاً من أن يساعدوا الإمبراطورية الألمانية قيدها في وضع الاحتضار، كما أن بخضوعهم لمثل ذلك التحالف قد جعلهم فريسة لسياسة عداء ألمانيا التي تنتهجها عائلة هابسبرج. فقد أعطى التحالف لعائلة هابسبرج فرصة لتعتقد أن الإمبراطورية الألمانية لن تتدخل في الشؤون الداخلية، ولذلك فهم في وضع يسمح لهم بممارسة سياستهم الداخلية بسهولة أكثر ومخاطر أقل. وكانت هذه السياسة تتمثل في القضاء على العنصر الألماني تدريجياً. ولا يتم ذلك بالاعتماد على الحكومة الألمانية فقط، بالرغم من أنه يضمن عدم اعتراضها، لكن كان من اللازم الاستمرار في تذكير ألمان النمسا بالتحالف وذلك لإسكاتهم إن أرادوا الاعتراض على الطرق المهيئة التي تستخدم لتوطيد سيطرة السلاف على الإمبراطورية المزدوجة.

ولكن ماذا يمكن لألمان النمسا أن يفعلوا إذا كان شعب الإمبراطورية الألمانية نفسه قد أعلن صراحة أنه يثق في نظام هابسبرج.

فإذا ما حاولوا المقاومة، فإن أهلهم في ألمانيا يعتبرونهم خائنين للمصالح القومية، بالرغم من أنهم ضحوا لعدة عقود من أجل تقاليدهم الألمانية.

وبمجرد أن يمحي أي أثر ألماني في النمسا، فلن يكون للتحالف أي قيمة. ألم يكن من الضروري أن يتم الحفاظ على بقاء العنصر الألماني في النمسا إن كان هذا التحالف ضرورياً للمصالح الألمانية؟ أم أن هناك من يعتقد أنه من الممكن لألمانيا أن تستمر في تحالفها مع عائلة هابسبرج رغم توطين السلاف؟

إن الموقف الرسمي للدبلوماسية الألمانية - وكذلك موقف عامة الناس - تجاه المشكلات الداخلية التي تؤثر على القوميات النمساوية لم تكن غبية فقط، بل كانت بلا عقل. فقد وضعوا - من ضمن مبادئ التحالف - ما يضمن ويؤمن أمة مكونة من سبعين مليون، بينما سمحوا لشريكهم في نفس الوقت بالاستمرار في سياسته التي تحتقر أساس هذا التحالف بشدة وبطريقة ممنهجة عاماً بعد عام. وسوف يأتي يوم لا يتبقى فيه شيء سوى تعاقد رسمي مع دبلوماسي فيينا. أما التحالف نفسه فسوف يترك لألمانيا، حتى تقدم الدعم الفعال. أما بالنسبة لإيطاليا، فقد كان ذلك هو الوضع منذ البداية.

❖ | الحلفاء الإيطاليون:

قلو أن الشعب الألماني درس التاريخ وعلم نفس الشعوب بدقة، فلن يظل واحد منهم معتقداً لمدة ساعة واحدة بأن فيينا وإيطاليا يمكن أن تتقفا معاً وكتفاً إلى كتف في جبهة معركة واحدة. فمن الممكن أن تنفجر إيطاليا مثل البركان لو تجرأت أي حكومة إيطالية على إرسال جندي إيطالي واحد ليحارب في دولة هابسبرج. فهذه دولة متعصبة لا تقف في أي جبهة لمساندة أحد ولكنها تقف في جبهة الحرب فقط إن كانت هي طرف فيها. ولقد شاهدت وأنا في فيينا - وأكثر من مرة - انفجارات مخزية وعداء عميق قام به "الحلفاء" الإيطاليون في دولة النمسا. إن الجرائم التي ارتكبتها عائلة هابسبرج ضد استقلال وحرية إيطاليا لعدة قرون كانت أكثر من أن تتسى حتى مع توفر أفضل النوايا الطيبة. لكن تلك النوايا الطيبة لم تكن موجودة سواء عند عامة الناس أو عند الحكومة. لذلك كان أمام إيطاليا نوعان فقط من التعايش مع النمسا إما التحالف أو الحرب. وكان الاختيار الأول يتيح الفرصة أمام الاستعداد للاختيار الثاني في فترة طويلة.

ومنذ أن بدأت العلاقات بين روسيا والنمسا في التوتر والاقتراب من الحرب، فإن هذا المبدأ الألماني للتحالف قد أصبح بلا معنى لأنه تحالف خطير. وهذا المثال الكلاسيكي يوضح مدى عجز التفكير المنطقي الذي يتناول الخطوط العامة فقط.

لكن، ما هو السبب في تكوين التحالف منذ البداية ؟ لا أتوقع وجود هدف آخر سوى

الرغبة في تأمين مستقبل ألمانيا بطريقة أفضل مما لو كانت تعتمد على نفسها فقط. لكن مستقبل ألمانيا لم يكن يعني أي شيء آخر سوى تأمين وجود الشعب الألماني.

❖ | المشكلة السكانية الألمانية:

والسؤال الوحيد في تلك الحالة هو: ما هو نوع الحياة المفترض للأمة في المستقبل القريب - أي خلال فترة قصيرة يمكن التنبؤ بها؟ وما هي الطرق والوسائل التي يمكن من خلالها وضع الأسس المطلوبة وضمان تأمين هذا التطور من خلال الإطار العام لتوزيع القوى في الأمم الأوروبية؟ ولابد أن يؤدي التحليل الدقيق للمبادئ التي تقوم عليها السياسة الألمانية الخارجية إلى النتيجة التالية:

تعداد الزيادة السكانية السنوية في الشعب الألماني يقترب من 900000 نسمة. ولابد من تزايد مشكلة إعاشة هذا الجيش المضاف إلى التعداد عاماً بعد عام، ولابد من أن يؤدي هذا في النهاية إلى مأساة، إلا إذا وجدت الطرق والوسائل التي تبعدنا عن البؤس والجوع. وهناك أربع طرق لتجنب تلك المفاجعة:

1- كان من الممكن استخدام المثال الفرنسي بتحديد عدد المواليد وبذلك نتجنب الزيادة المفرطة في تعداد السكان.

في بعض الظروف، وفي حالات التوتر أو سوء الأحوال الجوية، وحالات جودة الأرض بمحاصيل ضعيفة، تؤثر الطبيعة في تلك الزيادة السكانية في بعض الدول والأعراق، لكن ذلك يحدث بطريقة قاسية وحكيمة في نفس الوقت، فهي لا توقف التناسل أو تعوقه، بل تعوق وجود مزيد من الأطفال عن طريق التعرض لهذه الاختبارات وللحرمان، فيضطر كل ما هو عليل أو ضعيف إلى الانسحاب. ومن يتحمل تلك الصعاب يكون قد اختبر ألف مرة واشتد عوده ليصبح صالحاً للاستمرار في عملية التناسل، ثم تتكرر عملية الانتقاء هذه عدة مرات. بهذا التعامل القاسي مع الأفراد والتخلص من أي فرد في اللحظة التي تثبت فيها عدم صلاحيته لمواجهة صعاب الحياة تحافظ الطبيعة على العرق قوياً وتحسن الأنواع بشدة.

ويعني تناقص الأعداد - إذن - زيادة القوة، وهذا في النهاية يعني بالطبع تحسن الأنواع.

❖ | تحديد النسل: المشكلة والحل:

لكن الحال يكون مختلفاً إذا بدأ الإنسان عملية تحديد النسل بنفسه. فهو لا يتبع قواعد الطبيعة. إنه من البشر. وهو لا يملك كثيراً من الحكمة، وهو لا يعترض على بقاء الأفراد

أحياء بل يمنع التناسل نفسه. وبالنسبة للفرد الذي ينظر دائماً إلى نفسه وليس إلى العرق الذي ينتمي إليه، فإن هذا الأسلوب من التعامل يبدو أكثر إنسانية وعدالة، لكن نتائجه - للأسف - عكسية أيضاً.

وعندما تترك الطبيعة الإنسان يتناسل وتسمح لكل فرد بالمرور باختيارات قاسية، فإنما هي تختار من يملكون العديد من العناصر وتعتبرهم صالحين للحياة والاستمرار في مهمة الحفاظ على النوع. لكن الإنسان يحد من التناسل ويسعى جاهداً للبقاء حياً مهما كانت التكلفة ويعتبر ذلك حقاً له بمجرد الولادة. وهذا التصحيح الذي تقوم به الإرادة الإلهية يبدو للإنسان مناسباً وإنسانياً جداً، لكنه يسعد بما يثبت أن الطبيعة لا يمكن الاعتماد عليها دائماً. فالقرد المنحدر من سلالة قوية يسعد بأنه قد تمكن من التحكم في عدد أفرادها، لكنه لن يسعد إذا علم أن هذا النظام قد أدى إلى فساد الصفات الشخصية للأفراد.

فبمجرد أن يتم تناول موضوع التناسل ويتراجع عدد المواليد، فإن الصراع الطبيعي من أجل بقاء الأصلح والأقوى يحل محله الضعف لينفذ المخلوقات الضعيفة والمريضة بأي ثمن. وبهذا يكون الأساس هو إيجاد ذرية تتزايد تعاستها جيلاً بعد جيل طالما أننا نتجاهل إرادة الطبيعة.

لكن إذا ما تم تنفيذ هذه السياسة، فإن المحصلة النهائية هي أن الأمة التي تتفادها سوف تندثر في يوم ما وتختفي من على وجه الأرض، وبالرغم من أن الإنسان يمكنه أن يتحدى القوانين الأبدية للتناسل خلال فترة محددة إلا أن الرد الانتقامي سيحدث إن عاجلاً أم آجلاً. لذلك فإن أي سياسة تهدف إلى تأمين وجود الأمة بتحديد أعداد المواليد تحرم هذه الأمة من مستقبلها.

2- والحل الثاني يتمثل في المستعمرات الداخلية. وهذا اقتراح شائع هذه الأيام وكثيراً ما نسمع من يمتدحونه بشدة. إنه اقتراح ذو معنى طيب لكن أغلب الناس يسيئون فهمه، لذلك فهو مصدر لإزعاج لا يمكن تخيله.

من المؤكد أن إنتاجية التربة يمكن أن تزيد في نطاق محدد، لكن ذلك يكون ضمن مدى محدد ولا يعني أنه بلا حدود. وبزيادة القوى الإنتاجية للتربة يمكن الموازنة بين ذلك الإنتاج وزيادة عدد المواليد في ألمانيا لفترة محددة دون التعرض لخطر المجاعة، لكن علينا أن نواجه الحقيقة القائلة بأن المستوى العام للحياة قد ارتفع أسرع من معدل المواليد. وقد تزايدت متطلبات المأكل والملبس عاماً بعد عام ولم تعد مناسبة لأسلافنا الذين عاشوا قبل مائة عام. وعليه فإنه من الخطأ أن نفترض أن الزيادة في إنتاجية التربة ستقدم ما يكفي من متطلبات زيادة السكان. لا. إن هذا صحيح إلى حد ما، لكن جزءاً من هذا الإنتاج الجديد سيبثله الزيادة السكانية بسبب الارتفاع المتطرد في مستوى المعيشة. لكن،

حتى إذا تم تقليل هذه المتطلبات إلى أبعد مدى ممكن، وإذا تمكنا في نفس الوقت من استخدام كل طاقاتنا المتاحة لتكثيف الاستصلاح، فإننا سنصل أيضاً في هذا المجال إلى مستو محدد تحكمه طبيعة التربة ذاتها. ومهما تقانينا في العمل بجد فلن نستطيع زيادة الإنتاج الزراعي عن ذلك الحد. وعليه فإننا نؤجل فقط ساعة الحسم لنصل إليها أخيراً. وأول ظاهرة ستكون تكرار المجاعات من وقت لآخر بعد مواسم المحاصيل السيئة إلى آخر ذلك. ثم تصبح الفترات بين تلك المجاعات أقصر وأقصر كلما زاد عدد السكان، وأخيراً تختفي ظاهرة المجاعات في سنوات قليلة تمثل فيها صوامع الغلال، وسوف يأتي الوقت تصبح فيه الغلال متاحة لكن الحركة صعبة جداً فيضرب الجوع أطراف الأمة. وهنا تتدخل الطبيعة مرة أخرى وتتقي من تكتب لهم الحياة، أو يقوم الإنسان بمنع نفسه من التكاثر بما يحمله ذلك من نتائج قاتلة - سبق أن ذكرتها - تؤثر على الأعراق والأنواع.

وربما نعرض هنا - بطريقة ما أو بأخرى - بالقول بأن المستقبل غير معروف بالنسبة للبشرية جمعاء وأن الأمة الواحدة أو العرق الواحد لا يمكنها تجنب القدر العام. ويبدو هذا الاعتراض مقبولاً منذ الوهلة الأولى، لكن علينا أن نضع ما يلي في حسباننا:

وسيتأتي يوم بلا شك تعاني فيه البشرية جمعاء من الزيادة السكانية وذلك لعدم التمكن من زيادة إنتاج التربة بطريقة تسير زيادة السكان التي لا تتوقف. لذلك لابد من السماح للطبيعة بأن تستخدم طريقتها أو أن ينظم الإنسان هذا الأمر بنفسه ويوجد التوازن المطلوب باستخدام طرق أفضل مما هو متاح لدينا اليوم. لكن بعد ذلك ستحدث المشكلة للبشرية جمعاء، بينما تلك الأعراق التي تعاني الآن هي الأعراق التي لم تعد تملك القوة والجرأة على امتلاك أرض صالحة للوفاء باحتياجاتهم. فحتى اليوم توجد مساحات شاسعة من الممكن زراعتها في جميع أنحاء المعمورة. إنها أراضٍ تنتظر المحراث. فمن المؤكد أن الطبيعة لم تدخر تلك الأراضي لأعراق أو أمم محددة يمكنها أن تستخدمها وتستفيد منها في المستقبل، فهذه الأرض تنتظر من يملك قوة السيطرة عليها والقدرة على زراعتها.

والطبيعة لا تعرف الحدود السياسية. فقد بدأت بإيجاد الحياة على هذه الأرض ثم تابعت ألعاب القوى التي تجري عليها. ومن يظهر شجاعة وقدرة كبيرة هم أحب الناس إليها، لذلك فإنهم يمنحون حق البقاء.

فإذا ما اختارت إحدى الأمم أسلوب المستعمرات الداخلية، بينما بقية الأمم تسعى جاهدة لزيادة مستعمراتها الخارجية حول العالم، ويكون عليها أن تحد من نمو عدد سكانها في الوقت الذي يزيد فيه عدد سكان الأمم الأخرى. وهذا الموقف يحدث لها سريعاً إذا كانت

أراضي الدولة صغيرة. والآن، ومن سوء الحظ فإن أفضل الأمم أو - لنكون أكثر تحديداً- الأمم المتقدمة التي تحمل راية تقدم الإنسانية قد قررت الامتناع عن استعمار أرض جديدة وأن تقع بالاستعمار الداخلي. لكن وفي نفس الوقت نجد أن الأمم ذات النوعية الأدنى تنجح في السيطرة على مساحات كبيرة⁽¹⁾ تستعمرها في جميع أنحاء العالم. وينتج عن ذلك ما يلي:

تضطرب الأعراق ذات الثقافة العالية والأقل قسوة إلى تقليل عدد السكان وذلك لعدم وجود أراض تكفي للسكان، بينما الأمم ذات الأعراق الأدنى تنمو بلا شك، وذلك بسبب الأراضي الكبيرة التي في حوزتها. فإذا ما استمرت تلك الحال، فإن الطبقة الدنيا من المتقنين ستسيطر على العالم لكنها ستكون أكثر نشاطاً وحيوية.

وسوف يأتي الوقت - حتى وإن كان ذلك في المستقبل البعيد - بحيث يصبح هناك احتمالان فقط، إما أن يحكم العالم من خلال المفهوم الحديث للديمقراطية وبالتالي يكون كل قرار لصالح الأعراق الأكثر عدداً أو أن يحكم العالم بقانون التوزيع الطبيعي للقوى ثم بعد ذلك تنتصر الأمم ذات القوة الوحشية لا الأمم التي تمارس ضبط النفس.

لا أحد يشك أن عالمنا هذا سيصبح ذات يوم مسرحاً للصراعات المرعبة من أجل بقاء البشرية. وفي النهاية تنتصر الرغبة في البقاء. وسينعدم الحياء وإنكار الذات تحت الأقدام في وضوح النهار. فقد أصبح الإنسان عظيماً من خلال صراع أبدي، ولا بد لعظمته أن تتوارى خلف سلام أبدي.

❖ | الاستعمار الداخلي:

أما بالنسبة لنا نحن الألمان فإن الشعار "الاستعمار الداخلي" خطير جداً، وذلك لأنه يشجع على الاعتقاد بأننا قد اكتشفنا طريقة تتمشى مع ما نحبه من سلام داخلي وتمكنا من العمل للحصول على ضروريات الحياة فيما يشبه السبات. فإذا ما أخذ الشعب هذه التعاليم على محمل الجد، فإن معنى ذلك نهاية لكل جهود الحصول على مكان نستحقه في هذا العالم. فإذا اقتنع الألماني المعتدل بهذا فإنه سينال فرصة للحصول على لقمة العيش ويضمن مستقبله، وأي محاولة لمشاركة مفيدة في الحصول على الضروريات الحيوية لوطنه ليست واردة على الإطلاق. فإذا وافقت الدولة على ذلك فإن أي سياسية خارجية حقيقية ومفيدة ستكون قد ماتت ودفنت مع أي أمل في مستقبل الشعب الألماني.

(1) ربما يقصد هتلر الاتحاد السوفيتي وهيمنة الشعب السلافي الروسي على هذه المساحات الشاسعة. وقد غزاها هتلر عام 1941م وسماها الوطن الأم.. ربما ليجد الشعب الألماني فيها متنفساً وسعة ليحل مشكلة الكثافة السكانية لديه. (الناشر)

وبمجرد أن نعلم النتائج المترتبة على نظرية "المستعمرات الداخلية" فإننا سنجد أن اليهود - بالصدفة - من أهم الطلائع التي نشرت هذه النظرية الضارة بين أفراد شعبنا. ولا يمكننا أن نؤكد أن أي استعمار داخلي لابد أن يكون أولاً من أجل التخفيف من الشكاوى الاجتماعية. لأن أهم شيء في تنفيذ نظم الاستعمار الداخلي هو تحرير التربة ممن يطمع فيها وتأكيد هذه الحرية. لكن هذا النظام لن يكفي أبداً لضمان مستقبل الأمة دون الحصول على أراض جديدة.

فإذا ما استخدمنا خطة مختلفة، فإننا سريعاً ما نصل إلى نقطة لا يمكن تجاوزها عندما يصبح كل ما يتبقى لدينا من تربة غير صالح للاستثمار، وفي نفس الوقت فإننا سنصل إلى نقطة لا نستطيع القوى البشرية الموجودة لدينا تجاوزها. وفي النهاية لابد أن نقول ما يلي :

إن الاستعمار الداخلي يمكن أن يطبق على أرض الوطن - وهي صغيرة المساحة بالتأكيد - في حدود ضيقة جداً وتحديد النسل الناتج عن هذه الحالة هما عاملان يؤثران سلباً على الموقف العسكري والسياسي للأمة.

إن مقدار الأراضي التي تمتلكها الدولة هو عنصر يحدد سلامتها الخارجية. فكلما كان الشعب يملك أرضاً كبيرة ، كان دفاع الدولة عن هذا الشعب قوياً. والقرارات العسكرية تصدر بسرعة وسهولة وشمول وفاعلية ضد الشعب الذي يملك أرض محدودة وضيقة وليس الشعب الذي يملك أرض ممتدة، بالإضافة إلى أن عظم مساحة أرض الدولة تعتبر في حد ذاتها تأكيداً على أن أي قوة خارجية لن تغامر بسرعة وتغزوها⁽¹⁾، وذلك لأن الصراع في هذه الحالة سيكون طويلاً وشاقاً قبل أن يتم الوصول إلى أمل في النصر. إن المخاطرة كبيرة، والأسباب الاستثنائية فقط هي ما يمكن أن يؤدي إلى مثل ذلك الهجوم. لذلك فإن عظم مساحة الدولة يؤدي إلى الحفاظ على استقلال الدولة وحريتها بسهولة نسبية. وعلى العكس من ذلك، فالدولة ذات المساحة الصغيرة تجذب الغزاة.

❖ المشكلة السكانية: هل الحل في الاستعمار الداخلي أو الخارجي أم تنظيم الصناعة والتجارة؟

وفي الواقع، فإن ما يسمى بالدوائر الوطنية في ألمانيا قد رفضت الاحتمالين الأولين من أجل إيجاد توازن بين التزايد المستمر في أعداد السكان وأراضي الدولة التي لا يمكن أن تتسع بقدر كاف. لكن أسباب هذا الرفض كانت تختلف عما سبق أن أوضحته. لقد اعتمد الرفض في الأساس على عواطف أخلاقية ترفض تحديد النسل. كما أن اقتراحات

(1) لطالما كانت شبه جزيرة سيناء أفضل خط دفاع عن مصر المحروسة على مدى التاريخ وهذا يثبت صحة كلام هنتلر (الناشر).

الاستعمار الداخلي قد رُفضت بسخط شديد لأنه كان من المتوقع أن مثل هذه السياسة قد تعني الهجوم على كبار ملاك الأراضي وأن هذا الهجوم قد يبشر بهجوم عام على الملكية الخاصة ككل، فقد كانت الصيغة التي قدم بها اقتراح الاستعمار الداخلي مبرراً لهواجس كبار ملاك الأراضي.

لكن تلك الصيغة التي قدم بها اقتراح الاستعمار الداخلي المرفوض لم تكن معدة بذكاء وذلك لأنها أثارت قطاعاً عريضاً من الناس ولم تتطرق إلى أصل المشكلة أبداً.

وبقيت طريقتان فقط يمكن من خلالهما تأمين العمل والخبز للشعب المتزايد :

1- من الممكن التفكير في الحصول على أراض جديدة ونقل جزء محدد من السكان المتزايدين بالدولة ليستقروا فيها.

2- يجب علينا أن ننظم صناعتنا وتجارتنا بطريقة تضمن زيادة الصادرات حتى نصبح قادرين على دعم الشعب ورفع قدراته الشرائية وذلك بالاستفادة من عائدات التصدير إلى الأسواق الأجنبية.

لذلك فالمشكلة كالتالي : إما أن نتبع سياسة التوسع الاستعماري داخلياً أو خارجياً، أو أن نتبع سياسة تجارية جديدة. وكلا السياستين كانتا في الحسبان فتم دراستهما وتقديم توصية رفضت من جوانب كثيرة ثم كانت النتيجة اعتماد الحل الثاني في النهاية. لكن الاحتمال الأول كان مقبولاً أكثر على أي حال.

إن مبدأ احتلال أرض جديدة يُنقل إليها السكان الجدد له كثير من المميزات تجعله أكثر جذباً خاصة إن فكرنا في المستقبل كما نفكر في الحاضر.

فأول شيء نذكره هو أنه لن تولى أهمية كبرى لبقاء طبقة الفلاحين كأساس للمجتمع القومي، فكثير من شروخ حياتنا اليوم تتبع من عدم التناسب فيما بين قطاعي الريف والحضر، حيث إن العدد الوفير من صغار ومتوسطي الفلاحين كان دائماً هو أفضل أنواع الحماية التي يمكن للأمة أن تستفيد منها في مواجهة الأمراض الاجتماعية المنتشرة في عصرنا الحالي. بالإضافة إلى أن ذلك هو الحل الوحيد الذي يضمن الخبز اليومي للأمة من خلال ما يسمح به اقتصاد الأمة الداخلي. فإذا ما تم تأمين هذا الوضع فإن التجارة والصناعة سترجعان عن الموضع الذي تحتلانه اليوم في الصدارة ويأخذان الموضع المناسب لهما من الاقتصاد الوطني ويتم التوازن بين العرض والطلب. وبذلك تتخلى التجارة والصناعة عن مكانتهما كأساس للدخل القومي، وتصبحان مجالات إضافية. وعندما تحققان الغرض منهما وهو التوازن بين الإنتاج القومي والاستهلاك المحلي، فإنهما بذلك يستعيدان استغناء الدولة عن الدول الأجنبية وبهذا يتأكد استقلال الدولة وحريةها وخاصة عند مرورها بلحظات حرجة من تاريخها.

إن هذه السياسة الاستعمارية - على أي حال - لن تصل إلى أهدافها هناك في الكامبيرون بل هنا في أوروبا بالتحديد. فعلينا أن نواجه الحقيقة بهدوء واتزان فليس من الممكن أن نحصل أمة واحدة على نصيب من تربة الأرض يعادل خمسين ضعف ما هو متاح أمام دولة أخرى. وعند التفكير في هذا الأمر اليوم ليس لنا أن نسمح للحدود السياسية أن تصرف الانتباه عما هو قائم على العدالة. فإذا كان على الكرة الأرضية مكان كاف للجميع فعلينا أن نشارك في التربة اللازمة جداً للوجود الإنساني.

✦ أوروبا ومستعمراتها والوضع المقلوب:

وبالطبع لن يقوم الناس بهذا التكيف طواعية، فهنا تظهر صفة حب البقاء. وعندما تقابل الطرق الودية للتغلب على المشكلة بالرفض فإن القبضة الحديدية لابد لها أن تحقق ما تم رفضه ودياً. وإذا كان أسلافنا في الماضي قد أصدروا قراراتهم السياسية بناء على نفس هذا المبدأ من الاستسلام كما يفعل جيلنا الحالي، لكنا قد ورثنا منهم ثلث الأرض التي نملكها حالياً وربما كانت الأمة الألمانية التي نحن قلقون على مستقبلها الآن قد محيت. لا. بل نحن مدينون للشرق الألماني⁽¹⁾ بذلك العزم الفطري لأجدادنا القدماء أثناء كفاحهم من أجل البقاء. وبذلك فإننا ندين لنفس السياسة بالقوة الداخلية التي تقوم على توسعة مستعمراتنا السياسية والعرقية والتي - هي وحدها - جعلت من الممكن لنا أن نبقي حتى يومنا هذا. ولا يزال هناك سبب آخر يدل على أن ذلك الخيار هو الحل الصحيح وهو:

كثير من الدول الأوروبية المعاصرة تشبه الأهرامات التي تقف مقلوبة على قممها. فالأراضي الأوروبية التي تملكها تلك الدول صغيرة إلى حد كبير مقارنة مع مستعمراتها البعيدة وتجارتها الخارجية وغير ذلك. وقد يقال: إن تلك الدول تملك قمماً في أوروبا وقواعد في جميع أنحاء العالم على العكس تماماً من الولايات المتحدة الأمريكية، فقاعدتها في القارة الأمريكية وعلاقتها بجميع أنحاء العالم تصدر من القمة. ومن هنا نجد أن القوة الداخلية للولايات المتحدة لا تقارن بأي قوى أخرى. وقد أدى هذا الموقف العكسي إلى ضعف أغلب مستعمرات الدول الأوروبية.

ولا يمكننا اعتبار إنجلترا مثلاً على هذا الكلام، بالرغم من أن نظرة خاطفة على الإمبراطورية البريطانية لا تعطينا فكرة واضحة عن حجم إمبراطورية الأنجلوساكسون في العالم⁽²⁾. لكن، ليس هناك وجه للمقارنة بين إنجلترا وأي دولة أخرى في أوروبا، حيث إنها تكون مع الولايات المتحدة الأمريكية مجتمعاً عريضاً متحد اللغة والثقافة.

(1) الشرق الألماني معناه : النمسا من الجنوب والشرق وروسيا من الشمال الشرقي.

(2) يقصد : لتناثر مستعمراتها وعدم القدرة على تحديد القوة الكلية لهذه الأجزاء المتناثرة بدقة.

❖ الأراضي الروسية الشاسعة هي الحل بالنسبة لألمانيا:

لذلك فإن الاحتمال الوحيد المتاح أمام ألمانيا لتحصل على أراض هو السيطرة على أراض جديدة داخل أوروبا ذاتها. فالمستعمرات لن تؤدي هذا الغرض طالما أنها غير صالحة لإقامة أوروبيين بأعداد كبيرة. وفي القرن التاسع عشر أصبح من المستحيل الحصول على تلك المستعمرات بالطرق السلمية. لذلك فإن أي محاولة لهذا النوع من التوسع الاستعماري تعني صراعاً عسكرياً ضخماً. وعليه فإنه من المناسب أكثر من الناحية العملية أن يبدأ هذا الصراع من أجل أراض جديدة في أوروبا بدلاً من إشعال حرب من أجل أراض بعيدة جداً.

ومثل هذا القرار يحتاج أن تكون الأمة متحدة القوى ومخلصة لتنفيذه. ولا يمكن تنفيذ هذه السياسة - التي يتطلب تنفيذها كل قدر ضئيل من قوتنا وتكاتف الجميع - بطريقة أنصاف الحلول أو بطريقة متسريعة. ويجب على قوى القيادة السياسية في الإمبراطورية الألمانية أن تتوجه بالكامل نحو هذا الهدف. ولا يجب أن تتخذ أي خطوة سياسية من أجل أي اعتبارات أخرى سوى هذه المهمة الكبرى وطرق تنفيذها. فلا بد أن تظل ألمانيا قائمة وهذا لن يتم سوى من خلال الحرب فقط، ولابد من مواجهة مبدأ الحرب بهدوء وعزم ورباطة جأش.

ولابد من دراسة وتقييم نظام التحالفات بالكامل انطلاقاً من هذه النقطة. فإذا كان لابد لنا من الحصول على أراض في أوروبا، فلا بد أن يكون ذلك على حساب روسيا، فإذا ما عادت الإمبراطورية الألمانية إلى السير في طريقها القديم مرة أخرى ولكن هذه المرة للحصول على أراض تصلح للزراعة باستخدام السيف، فإنها بذلك ستجد القوات اليومية لشعبها. ومن أجل تحقيق هذه السياسة فليس هناك من حليف في أوروبا سوى إنجلترا.

فالتحالف مع إنجلترا فقط يحمي ظهر الحملات الصليبية الألمانية الجديدة. ومبررات هذه الحملة أقوى من مبررات أسلافنا القدامى في حملاتهم. فلن يرفض أي من دعاة السلام عندنا أن يأكل خبزاً جاءت حبوب القمح الذي صنع منه من الشرق. لذلك فإن أول محراث نستخدمه لتحقيق هذا الهدف هو "السيف".

ولا يجب أن نضن بأي تضحية مهما كانت كبيرة إذا كانت ضرورية من أجل الحصول على ود إنجلترا. ولابد من أن نتنازل عن المطامع الاستعمارية والبحرية ونتوقف عن محاولات منافسة الصناعة البريطانية.

فالساسة الواضحة والمحددة فقط تؤدي إلى تحقيق هذا لإنجاز. فهي سياسة تتطلب إنكار الذات والسعي إلى غزو أسواق العالم، كما يجب أن توجه كل القوى المتاحة إلى

القوات العسكرية على أرض الواقع. وهذه السياسة تعني فترة من إنكار الذات مؤقتاً من أجل مستقبل عظيم وقوي.

فسوف يأتي اليوم الذي تدخل فيه إنجلترا في مفاوضات معنا بناء على ما قلته من قبل. وذلك لأن إنجلترا سوف تدرك أن المشكلات الناشئة عن الزيادة المطردة في أعداد السكان تدفع ألمانيا للبحث عن حل سواء في أوروبا بمساعدة إنجلترا أو بدون إنجلترا - في مكان آخر من العالم.

❖ | التحالف العبثي بين النمسا وألمانيا:

وربما يكون ذلك هو ما جعل لندن تحاول الاقتراب من ألمانيا عند بداية هذا القرن. وذلك لأنه في ذلك الوقت أفصح هذا الاتجاه في ألمانيا عن نفسه، لكنه بعد لك فضح نفسه بطريقة تراجيدية. ثم عبر الشعب بعد ذلك عن استيائه لدرجة أننا وجدنا أن علينا أن نستبعد خيار التعاون مع إنجلترا. وذلك كما لو كان التحالف يقوم على أي شيء آخر سوى الأخذ والعطاء، وكانت إنجلترا على وشك المشاركة في مثل ذلك الجدل. لكن الدبلوماسيين البريطانيين كان لديهم من الحكمة ما يكفي ليدركوا أن من الضروري تلبية مطالب الحليف.

دعونا نفترض أن السياسة الخارجية الألمانية في عام 1904م أديرت بقدر كاف من الذكاء مكنها من القيام بالدور الذي لعبته اليابان، فلن نستطيع أن نقدر قيمة وعظم النتائج التي تعود على ألمانيا من وراء هذه السياسة.

كانت الحرب العالمية لن تحدث، فالدماء التي كانت يمكن أن تسال في عام 1904م لم تكن بأي حال لتعادل عشر ما أريق من دماء في الفترة 1914-1918م. ثم لنتساءل، ما هو موقع ألمانيا في العالم اليوم ؟ إذن فالتحالف مع النمسا كان عبثياً على أي حال.

فهذه الدولة المومياء لم تتحد مع ألمانيا من أجل شن حرب، ولكن لكي تحافظ على حالة دائمة من السلام الذي كانوا يهدفون إليه من خلال القضاء على العنصر الألماني في الإمبراطورية المزدوجة.

وهناك سبب آخر يجعل هذا التحالف مستحيلاً وهو أنه لا يوجد من يتوقع مشاركة هذه الدولة في فعاليات الدفاع عن مصالح الأمة الألمانية، وذلك لأنها لا تملك قوى كافية ولا إرادة تمكنها من إنهاء سياسة معادة الألمان في داخل حدودها. فإذا كانت ألمانيا ذاتها لم تتحرك بقدر كاف من القوة والحماس ولم تكن حاسمة لتحرم دولة هابسبرج البائسة من حق تحديد مصير عشرة ملايين من السكان الذين يتمتعون بالجنسية الألمانية نفسها، فإن من المؤكد أن دولة هابسبرج لن تساعد في أي حملة ألمانية كبرى. وكانت نظرة ألمانيا

إلى المشكلة النمساوية اختیاراً لقدرتها على الكفاح عندما يكون مصیر الأمة كلها معرضاً للخطر.

وعلى أي حال، كان لا يجب السماح لسياسة اضطهاد الألمان في النمسا بالاستمرار والقوة عاماً بعد عام. وذلك لأن قيمة النمسا كحليف يمكن أن تتأكد فقط في حالة الإبقاء على العنصر الألماني هناك. لكن ذلك لم يحدث.

فلا يوجد ما هو أفظع من النزاع المسلح، لكن وفي النهاية، وفي لحظة غير محببة، كان لابد من مواجهة الموقف وقبوله. فقد ظنوا أنهم سيقطعون ما يربطهم بذلك المقدر لهم، لكنه جذبهم من كل الأربطة وثبتها.

كانوا يحلمون بالمحافظة على السلام العالمي واستيقظوا ليجدوا أنفسهم في حرب عالمية.

وهذا الحلم بالسلام هو سبب واضح آخر لعدم وضع الخيار الثالث⁽¹⁾ السابق ذكره في الحساب عند التفكير في تطوير مستقبل ألمانيا. فقد عرفوا أن الأرض الجديدة يمكن أن تكون في الشرق فقط. لكن هذا كان يعني مزيداً من القتال، وكانوا يريدون السلام بأي ثمن. فقد كان شعار سياسة ألمانيا الخارجية في وقت ما هو: "استخدام كل الطرق الممكنة للحفاظ على الأمة الألمانية." والآن تغير الشعار فأصبح: "الحفاظ على السلام العالمي بكل الطرق الممكنة." ونحن نعرف النتائج التي ترتبت على ذلك وسوف أناقش هذه النقطة بالتفصيل فيما بعد.

وهناك بديل آخر يمكننا أن نقول عنه أنه البديل الرابع، وهو: الصناعة والتجارة العالمية والقوى البحرية والمستعمرات.

وهذا التطور كان يجب أن يتم بسهولة وسرعة، لكن استعمار الأراضي عملية بطيئة تمتد عادة إلى عدة قرون. وهذا هو مصدر قوتها الداخلية، فليست الحماسة المفاجئة هي ما يمكن من توطيد المستعمرات بل ما يتم من عمليات تدريجية مع المثابرة. وهي في ذلك تختلف عن تنمية الصناعة والتي من الممكن أن تتطور بمساعدة الدعاية خلال خمس سنوات فقط. لذلك كانت النتيجة التي تم التوصل إليها ليست ذات طبيعة دائمة بل ذات صفات ضعيفة تشبه رغوة الصابون. فمن الممكن أن يتم البناء بسرعة ولا يتم إمداد الأرض بالفلاحين وإعداد المزارع فيها. لكن الاحتمال الأول⁽²⁾ يمكن تدميره أسرع من الثاني.

(1) وهو خيار احتلال مستعمرات في أنحاء العالم.

(2) يقصد البناء.

وكان على ألمانيا أن تعرف أن اتباع تلك الطريقة سيؤدي إلى حرب لا محالة إن عاجلاً أم آجلاً. فالأطفال وحدهم هم من يرضى بالحلوى والكلام الطيب عن نوايا السلام ويقبلون بـ"التنافس الودي بين الأمم" مع عدم القتال نيابة عنهم على أي حال.

لا. فبمجرد أن سرنا في هذا الطريق، كان على إنجلترا أن تصبح عدواً لنا في أي وقت في المستقبل. وقد جاء ذلك مناسباً لافتراضاتنا البريئة، لكن كان من العبث أن نسخط عندما جاء اليوم الذي عارض فيه الإنجليز توسعنا السلمي بوحشية وغرور عنيف. وكان من المفروض علينا ألا نفعل ذلك أبداً.

وقد كان من الممكن بدء سياسة أوروبية للتوسع في الأرض على حساب روسيا فقط في حالة تحالفنا مع إنجلترا. ومن جهة أخرى يتم تنفيذ سياسة المستعمرات والتجارة العالمية، وهي ضد مصلحة إنجلترا وبالتعاون مع روسيا. لكن اتباع هذه السياسة يعني الإدراك التام لكل نتائجها، ولابد من التخلي عن النمسا بأسرع ما يمكن قبل كل شيء.

وقد أصبح التحالف مع النمسا في بداية هذا القرن عبثاً حقيقياً من جميع النواحي. لكن لم يفكر أحد في التحالف مع روسيا ضد بريطانيا. كما لم يفكر أي أحد في التحالف مع إنجلترا ضد روسيا. وذلك لأن النتيجة الحتمية لكلا الحالتين هي الحرب. وتجنب الحرب هو السبب في إتباع سياسة التجارة والصناعة. فقد كان يُعتقد أن الغزو السلمي للعالم عن طريق التجارة يعتبر طريقة بديلة دائمة تحل محل سياسة القوة. ومن آن لآخر كانت هناك - على أي حال - شكوك حول كفاءة هذه الطريقة وخاصة كلما جاءت تحذيرات غير مفهومة من إنجلترا من آن لآخر. وهذا هو سبب بناء الأسطول. لم يكن بغرض مهاجمة إنجلترا وإبادتها، ولكن للحفاظ على مبدأ غزو العالم بطرق سلمية. لذلك ظل هذا الأسطول متوسط الحجم، ليس من ناحية العدد ومن ناحية حمولة السفن بالطعن فقط ولكن أيضاً من ناحية التسليح، وكانت الفكرة تدور حول تقديم الدليل على النوايا السلمية.

✦ إنجلترا وغزو العالم:

وكانت الثثرة حول غزو العالم بالطرق السلمية هي الخطأ الأكبر، فقد أعلنت السياسة العليا للدولة، وقد زاد من حماقة هذا الأمر عندما تم اختيار بريطانيا كمثال عملي لكيفية تنفيذ الخطط. وقد أدت معتقداتنا التاريخية وأفكارنا الحرفية في هذا المجال إلى أضرار لا يمكن إصلاحها وقدمت الدليل القاطع على أن الناس يدرسون التاريخ ولا يفهمون أي شيء منه. وفي الحقيقة، كان على إنجلترا فعلاً أن تنظر إلى مبدأ غزو العالم سلمياً بالطرق التجارية نظرة عدائية. فلم تكن هناك أمة قد أعدت العدة لغزواتها التجارية بقوة

أكثر مما فعلته إنجلترا بالقوة العسكرية. ولم تقم أي أمة أخرى بالدفاع عن انتصاراتها بقوة أكثر منها. فمعرفة كيفية استخدام السياسة للحصول على مميزات اقتصادية ليست من بين صفات الحكام في إنجلترا، ولا العكس صحيح، وهو تحويل الغزوات الاقتصادية إلى قوة سياسية. وكان من الخطأ الشديد أن نعتقد أن إنجلترا لن يكون لديها الشجاعة لتضحي بالدماء في مقابل تحسين اقتصادها. والحقيقة القائلة بأن إنجلترا لا تملك جيشاً وطنياً لا تدل على أي شيء. وذلك لأن التكوين العسكري في لحظة ما ليس مهماً، بل المهم هو الإرادة والعزم على استخدام كل القوى العسكرية المتاحة. فإنجلترا دائماً لديها ما تريد من قوات. وكانت دائماً تحارب بسلاح يضمن لها النصر. وهي ترسل قوات مرتزقة للحرب طالما أن المرتزقة يوفون بالغرض، لكنها لم تتردد أيضاً في أن تجود بأفضل ما لديها من دماء أبناء الأمة جمعاء إن كان النصر لن يحدث سوى بهذه التضحية. وفي كل الحالات كانت روح القتال والعزم القوي واستخدام أفضل الطرق في إدارة العمليات الحربية على نفس المستوى.

لكن في ألمانيا ومن خلال المدارس والصحافة والصحف الساخرة تكونت فكرة عن الشخص الإنجليزي تدريجياً وأدت إلى أسوأ أنواع خداع النفس. وقد امتد هذا العبث ببطء وإصرار في جميع مناحي الحياة في ألمانيا. وكانت النتيجة نوعاً من الاستخفاف ندفع ثمنه غالباً. فقد كان التضليل شديداً لدرجة أننا كنا ننظر إلى الرجل الإنجليزي على أنه رجل أعمال قاس، لكنه جبان من داخله بدرجة غير معقولة. ولسوء الحظ فإن مدرسي التاريخ عندنا لم ينقلوا إلى عقول طلابهم حقيقة أن الإمبراطورية البريطانية العظيمة لا يمكن أن تقوم على الغش والخدع. والقليلون الذي لفتوا الأنظار إلى هذا الأمر إما أن يتم تجاهلهم أو إسكاتهم. وأنا أستطيع أن أتذكر بوضوح نظرات الدهشة في عيون زملائي عندما أصبحوا وجهاً لوجه مع الإنجليز. فبعد أيام قلائل من الحرب كانوا على ثقة من أن هؤلاء الإسكتلنديين ليسوا مثل من وصفوهم لنا في الرسوم الكاريكاتورية في الصحف الساخرة أو الذين ذكرتهم صحيفة الإكونميك.

وفي ذلك الوقت تكونت أولى أفكارني عن كفاءة كل أنواع الدعاية والإعلام.

وقد خدم هذا التزييف - على أي حال - أغراض من صنعوه. وهذه الرسوم الكاريكاتورية عن الشخص الإنجليزي - حتى وإن كانت ملفقة - يمكن استخدامها لإثبات إمكانية غزو العالم بطريقة سلمية باستخدام التجارة. فإذا نجح الإنجليز نجحنا نحن أيضاً. لكن الساسية الحكيمة وعدم الطعن في الإنجليز كانا سيمثلان عاملين في صالحنا، ولذلك كان من الممكن كسب تعاطف الأمم الصغيرة وثقة الأمم الكبيرة بسهولة أكثر.

❖ عبثية التحالف الثلاثي:

لكننا لم ندرك أن أمانتنا وصدقنا كانا موضع كراهية من شعوب أخرى لأننا صدقنا أنفسنا. وقد نظرت بقوة دول العالم إلى تصرفاتنا على أنها تجسد الخداع المتقن، لكن عندما حدثت الثورة تعجبوا بشدة مما عرفوه عن عقولنا وإخلاصنا بما يتعدى حدود الحمافة بكثير. وبمجرد أن علمنا الدور الذي تلعبه تلك الأمة العابثة من خلال غزو العالم سلمياً بالطرق التجارية، أدركنا أيضاً وبوضوح عبثية الحلف الثلاثي، فمع أي دولة يمكن التحالف إذن؟ فتحالفنا مع النمسا لا يمكننا من الحصول على أراض جديدة باستخدام القوات العسكرية حتى وإن كانت تلك الأراضي في أوروبا. وكانت هذه الحقيقة بعينها هي السبب في ضعف هذا التحالف الثلاثي من الداخل. وقد كان من الممكن لبسمارك أن يسمح لنفسه بإجراء تبديل مؤقت بحسب متطلبات الموقف، لكن من خلفه لا يستطيعون ذلك بالتأكيد حتى بعد اختفاء كل الأسس التي قام عليها هذا التحالف الثلاثي. ففي عهد بسمارك كانت النمسا لا تزال تعتبر أمة ألمانية، لكن الاستخدام التدريجي للاقتراع بغالبية الأصوات حول الدولة إلى دولة البرلمان التي لا يكاد يسمع فيها صوت للألمان.

❖ التحالف المشؤوم مع النمسا:

ومن خلال وجهة نظر السياسة العرقية هذه، أصبح هذا التحالف مع النمسا مشؤوماً. فقد سمح لقوة سلافية جديدة كبرى بالتكون والنمو بالقرب من حدود الإمبراطورية الألمانية. وفيما بعد التزمت تلك القوة بالتعامل مع ألمانيا بطريقة تختلف عن تعاملها مع روسيا على سبيل المثال. ثم أصبح التحالف بعد ذلك أكثر خواء وضعفاً، وذلك لأن مؤيديه الوحيدين كانوا يفقدون نفوذهم ويدفعون بانتظام إلى خارج معظم المناصب الرسمية. وفي عام 1900م تقريباً دخل التحالف مع النمسا في نفس الحالة التي يمر بها التحالف بين النمسا وإيطاليا.

وكان هناك خيار واحد فقط: إما أن نساند عائلة هابسبرج المالكة أو الاعتراض على اضطهاد العنصر الألماني في النمسا. لكن هذا الاتجاه - وبصفة عامة - يؤدي إلى نزاع علني.

ومن خلال هذه النظرة النفسية، فإن التحالف الثلاثي تقلص لأن حدوده كتحالف يمنع الاعتراض على الوضع الراهن. لكن - ومن جهة أخرى - فإن أي اتحاد تزيد قوته كلما أرادت أطرافه في استخدامه في تحقيق هدف توسعي عملي. وفي هذه الحالة - وفي كل مكان - لا تكمن القوة في الدفاع ولكن في الهجوم.

انتشرت هذه الحقيقة في أماكن كثيرة من البلاد، لكن ولسوء الحظ لم تنتشر على السنة

من يسمون بممثلي الشعب. وفي عام 1912م أشار لودندورف والذي كان يعمل ضابطاً في القوات المسلحة إلى نقاط ضعف التحالف في مذكرة رفعها لرؤسائه، لكن رجال الدولة بالطبع لم يولوا هذا المستند أي اهتمام أو قيمة تذكر. ويبدو أن العقل ما هو إلا صفة تظهر عند مناقشة الموضوعات الأقل أهمية، لكنه يكون غائباً تماماً عندما نتعامل مع تلك السلالة المسماة بالدبلوماسيين.

وكان من حسن حظ ألمانيا أن حرب عام 1914م قامت، وكانت النمسا سبباً رئيسياً فيها، لذلك كان على عائلة هابسبرج أن تشارك فيها. فلو افترضنا أن الحرب قد اندلعت بطريقة أخرى، كانت ألمانيا ستقف وحيدة بالاعتماد على ما لديها من موارد فقط. فلم تكن دولة هابسبرج مستعدة أبداً ولا رغبة في المشاركة في حرب تسببت فيها ألمانيا، أو بمعنى آخر إذا كانت ألمانيا قد دفعت إلى الدخول في حرب لأسباب خاص بها، فإن النمسا كانت ستظل محايدة حتى تحمي نفسها من الثورة التي قد تندلع فور بدء الحرب مباشرة. فالعنصر السلافي كان سيفضل تقوية المملكة المزدوجة في عام 1914م بدلاً من مساعدة ألمانيا في الحرب. لكن في ذلك الوقت كان من يفهم هذه المخاطر المستفحلة الناتجة عن التحالف مع تلك الإمبراطورية قليلون جداً.

فقد كان للنمسا العديد من الأعداء الذين كانوا يتطلعون بشغف إلى ميراث هذه الدولة المتداعية للسقوط. لذلك زاد عداؤهم لألمانيا تدريجياً، ولذلك كانت ألمانيا عقبة في طريقهم طالما أنها حافظت على المملكة المزدوجة من الانهيار والتفكك وقد كان ذلك هو حلم الكثيرين. وكان هناك اعتقاد راسخ بأن الطريق إلى فيينا يمر ببرلين.

كما فقدت ألمانيا بدخولها في هذا التحالف أفضل فرص الدخول في تحالفات أخرى. وبدلاً من احتمالات هذه التحالفات الجيدة دخلنا في حالة من التوتر المستمر مع روسيا وحتى مع إيطاليا. وذلك بالرغم من أن الاتجاه العام في روما كان في صالح ألمانيا ومعاد للنمسا، وهو عداا ظل في حالة سبات في داخل الفرد الإيطالي ينفجر بعنف في الوقت المناسب.

ومنذ اتباع السياسة التجارية الصناعية لم يكن هناك أي دافع لشن الحرب على روسيا. لكن أعداء الدولتين (النمسا وألمانيا) كانوا يريدون أن تقوم حرب في تلك الظروف. وفي الحقيقة لم يكن هؤلاء الأعداء من اليهود والماركسيين الذين حاولوا إشعال الحرب بين البلدين فقط.

كما أن التحالف كان يمثل خطراً داهماً على أمن ألمانيا، وذلك لأن أي قوة عظمى كانت تعادي إمبراطورية بسمارك يمكنها أن تحرك العديد من الأمم الأخرى في حرب ضد ألمانيا مع وعد مغر لهم بنهب التحالف النمساوي.

وكان من الممكن إثارة كل المنطقة الشرقية من أوروبا وخاصة روسيا وإيطاليا أيضاً. ولم يكن التحالف العالمي الذي تكون تحت قيادة الملك إدوارد ليتحقق لو لم يوح التحالف الألماني مع النمسا بمغانم كبرى. وهذا هو ما سمح بجمع العديد من الأعراق في مكان واحد يتم منه الهجوم. وكان كل طرف يريد أن يثري نفسه على حساب النمسا إذا انضم إلى الهجوم العام على ألمانيا. وقد زاد دخول تركيا كشريك صامت في هذا التحالف المشؤم من الخطر الذي تتعرض له ألمانيا إلى درجة غير عادية.

❖ | تدمير ألمانيا هو الهدف:

وقد أغرى الميراث النمساوي التمويل الدولي لليهود حتى يتمكنوا من تنفيذ خطتهم لتدمير ألمانيا، وذلك لأن ألمانيا لم تستسلم بعد للنفوذ الدولي الذي مارسه قادتهم على دول أخرى.

وكان التحالف مع مملكة هابسبرج - الذي أمقته بشدة منذ أن كنت لا أزال في النمسا - موضوعاً لجزء من اهتماماتي وجعلني أفكر فيه كثيراً وباستمرار إلى أن توصلت أخيراً إلى النتائج التي ذكرتها سابقاً.

وعلى مستوى المقربين مني الذين لم أكن أخفي عنهم اقتناعي بأن هذا الاتفاق المشؤم مع دولة لا بد لها أن تنهار سيجلب كارثة إلى ألمانيا إن لم تحرر نفسها منه في الوقت المناسب. ولم أتردد للحظة في تلك القناعة التي لم أتخل عنها حتى عندما تسببت الحرب العالمية في توقف التفكير العقلاني ليحل محله حمساً أعمى، ولم أتردد في ذلك حتى عندما أكون بين هؤلاء الذين يفكرون تفكيراً موضوعياً ببرود. وفي الخنادق جهرت برأيي كلما جرت مناقشات حول هذا الأمر. فقد كنت أرى أن التخلي عن مملكة هابسبرج لا يمثل أي تضحية إن استطاعت ألمانيا من خلال ذلك التخلي أن تقلل عدد أعدائها، وكان على ملايين الألمان الذين يلبسون الخوذات المعدنية ذلك أن لا يفعلوا ذلك من أجل الإبقاء على عائلة مالكة فاسدة ولكن من أجل إنقاذ الشعب الألماني.

وقبل الحرب اتضح خلال بعض الغشاشيات أن هناك قطاعاً من عامة الألمان لا يزال يعاني من هواجس حول الأهمية السياسية للتحالف مع النمسا. وقد أصدرت الدوائر المحافظة الألمانية من وقت لآخر تحذيرات حول الإفراط في الثقة في ذلك التحالف. لكن هذه التحذيرات ذهبت مع الريح مثلها في ذلك مثل كل الاقتراحات المقبولة الأخرى. وكان الاعتقاد العام السائد هو أن الإجراءات الصحيحة قد اتخذت لغزو العالم وأن نجاح هذه الإجراءات سيكون ساحقاً وأن التضحيات لا تذكر.

ومرة أخرى نجد أن العلماني البسيط لا يستطيع القيام بأي عمل سوى متابعة السبيل

المتند للنخبة نحو كارثة وحثم لشعبهم المحبوب لكي يتبعونهم مثلما اتبع الفران الزمار الأرقط في "هاملين".

إذا ما نظرنا إلى الأسباب التي سمحت بخديعة الشعب بمقولة غزو العالم سلمياً من خلال التغلغل التجاري، وكيف كان لنا أن نضع الحفاظ على سلام العالم كهدف من أهداف الأمة، فسند أن كل ذلك كان مناسباً للزيف الذي انتشر في جسد الدبلوماسية الألمانية.

❖ | الأمة الجادة والأمة الطفيلية:

لقد أدى التقدم العلمي الهائل في ألمانيا وتطور الصناعة والتجارة بصورة مذهلة إلى أننا نسينا أن الدولة القوية هي شرط أساسي هام لكل هذا النجاح. لكن على العكس تماماً، فقد ذهبت بعض الدوائر إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير بتأييدها لنظرية أن الدولة مدينة بوجودها لهذه الظاهرة وهي أنها - وقبل كل شيء - كيان اقتصادي ولا بد أن تبقى كذلك وتحافظ على مصالحها الاقتصادية. لذلك، كان من المعروف أن الدولة تعتمد على البناء الاقتصادي. وكانوا يعتبرون هذا الشرط بديهياً وعقلياً وضرورياً.

والآن، فإن الحقيقة الواقعة هي أن الدولة ذاتها ليس لها أي علاقة بأي مفهوم اقتصادي أو تطور اقتصادي. فذاك الاقتصاد لا ينشأ عن تعاون بين أطراف متعاقدة داخل أرض محددة وبغرض خدمة الأهداف الاقتصادية. فالدولة ما هي إلا مجتمع من الناس ذوي طبيعة تتوارث معتقدات دينية فطرية، وقد نظم المجتمع بطريقة تضمن بقاء النوع وتساعد على تحقيق الأهداف التي وضعتها العناية الإلهية لكل عرق أو جنس. هنا - وهنا فقط - تتضح أهداف ومعنى الدولة. والنشاط الاقتصادي ما هو إلا واحد من الطرق الكثيرة المتعددة الضرورية للحفاظ على تلك الأهداف، لكن النشاط الاقتصادي لم يكن أبداً غاية الدولة، إلا إذا كانت الدولة قائمة على أساس زائف وغير طبيعي. وهذا وحده يوضح كيف أن مثل هذه الدولة لا تحتاج بالضرورة لحدود معينة كشرط لإنشاءها. ويصبح هذا الشرط ضرورياً عند من يعتمدون في قوتهم اليومي ومعيشتهم هم ومن يعولون على الصناعة التي يقومون بها وهذا يعني أنهم مستعدون للكفاح من أجل البقاء من خلال عملهم. أما من يستطيعون شق طريقهم كالطفيليات، فهم يتسللون إلى الكيان السياسي ويتركون للآخرين العمل نيابة عنهم تحت مزاعم مختلفة بتكوين دولة دون التقيد بحدود الأرض. وهذا ينطبق بصفة رئيسية على تلك الأمة الطفيلية التي تفرس الأمناء من الناس وخاصة في الوقت الحالي، وهم اليهود.

لم يكن للدولة اليهودية أي حدود مكانية. فهي منتشرة في جميع أنحاء العالم، وبدون حدود من أي نوع. وهي تتكون حصرياً من عرق واحد فقط. وهذا هو السبب الذي يجعل

اليهود دائماً يكونون دولة داخل الدولة. وكان الإبحار بسفينة اليهود التي تحمل علم الدين أكثر الحيل التي استخدموها إبداعاً وذلك لأن تسامح الأوروبيين كان مستعد دائماً لاحتواء العديد من المعتقدات الدينية.

وغريزة حب بقاء النوع هي السبب الرئيسي الذي يؤدي إلى تكوين المجتمعات الإنسانية، لذلك فالدولة ما هي إلا كيان عرقي وليست هيئة اقتصادية. والفارق بين الاثنين كبير جداً لدرجة تجعل من يسمون برجال الدولة في عصرنا الحالي لا يفهمون معناه. وهذا هو السبب الذي جعلهم يميلون للاعتقاد أن الدولة يمكن أن تكون بناء اقتصادياً، بينما الواقع يقول أن الدولة تنتج دائماً ولا تتكاسل عن ممارسة تلك الخواص التي تؤدي إلى الحفاظ على الأنواع والأعراق. لكن هذه الخواص تظهر دائماً وتعمل من خلال طبيعة بطولية وليس لها أي علاقة بالأنانية التجارية، وذلك لأن الحفاظ على النوع يفترض دائماً أن الفرد مستعد دائماً لأن يضحي بنفسه. وهذا واضح في أبيات الشاعر :

فإن لم تفعل ما يؤمن حياتك فلن تفوز بها حتى لنفسك⁽¹⁾

فالتضحية بوجود الفرد ضرورية من أجل ضمان بقاء النوع. لذلك فإن الشعور بالتماسك هو الشرط الرئيسي لإنشاء الدولة والحفاظ عليها. وهذا ينتج عنه تنمية روح البطولة عند من يعيشون على أراضي دولتهم، أما الشعب الطفيلي فإنه يلجأ لمزيد من الحيل والغدر الذي يمكن أن يجدي إلا إذا جعلنا تلك الصفات البطولية فطرية في الناس وجعلنا الاتجاهات السياسية المختلفة التي يظهر منها هؤلاء الطفيليون مجرد مظهر خارجي للتعبير عن تلك الصفات الداخلية المتأصلة. وفي البداية على الأقل، فإن تكوين الدولة يمكن أن ينشأ فقط من خلال إظهار تلك الصفات البطولية التي تحدثت عنها. وعلى من يخفقون في الصراع من أجل البقاء أو من يصبحون من الخدم أن يختفوا تماماً إن عاجلاً أم آجلاً، وهم ممن لم يظهروا أي قدرات بطولية أو ممن يسقطون كضحايا لغدر الطفيليين⁽²⁾. وحتى في هذه الحالة الأخيرة لا يكون الفشل بسبب عجز القدرات العقلية ولكن بسبب نقص في الشجاعة والعزم. وقد وقعت محاولة لحجب الطبيعة الحقيقية لذلك الفشل بادعاء أنه إحساس إنساني.

❖ السلطة السياسية والموقف الاقتصادي:

كما أن الخواص والصفات التي تقوم عليها أسس بناء الدولة لا علاقة لها بالموقف الاقتصادي. وهذا يتضح جداً ويتجلى في حقيقة أن القوى الداخلية للدولة نادراً ما تتزامن

(1) أبيات مقتبسة من قصيدة للشاعر الألماني شيلر.

(2) يشير هتلر دائماً لليهود بكلمة الطفيليين، وذلك على اعتبار أنهم شعب بلا وطن يعيش طفلياً في جميع دول العالم.

مع ما يسمى بتوسعها الاقتصادي. وعلى العكس تماماً، فهناك أمثلة لا حصر لها على أن فترة الرخاء الاقتصادي تشير إلى اقتراب سقوط الدولة. فإذا كان من الصحيح لنا أن ننسب قيام المجتمعات الإنسانية إلى القوى الاقتصادية فإن قوة تلك الدولة حينئذ تصل إلى ذروتها خلال فترات الرخاء الاقتصادي وليس العكس.

وتاريخ بروسيا يوضح بطريقة لا تحتمل الشك أن الفضائل العادية التي يتصف بها الشعب هي ما يكون وجود الدولة وليس ظروفها الاقتصادية. وبفضل تلك الفضائل في حمايتها فقط يمكن تنمية الأنشطة الاقتصادية وازدهارها فيما بعد إلى أن يأتي وقت تتراجع فيه القدرات السياسية الخلاقة. وهنا يتراجع أيضاً البناء الاقتصادي، وهي ظاهرة تحدث الآن أمام عيني. فالمصالح المادية للبشر تزدهر فقط في ظل وجود الفضائل. وبمجرد أن يصبح الاقتصاد أساساً للحياة فإنه سيمحو وجود تلك الحياة.

فكلما كانت السلطة السياسية بالذات في ألمانيا قوية، تحسن الموقف الاقتصادي أيضاً. لكن عندما تحتل الاهتمامات الاقتصادية فقط مقدمة الحياة عند الناس وتضع أهدافاً مبهمه في الخلفية فإن الدولة تنهار ويتبع ذلك خراب اقتصادي بالتأكيد.

❖ ما الذي يدفع الفرد إلى التضحية؟

فإذا ما تناولنا السؤال حول نوعية القوى الضرورية لخلق الأمة والحفاظ على بقائها، فسند أننا كالتالي : قدرة الفرد على التضحية واستعداده لها من أجل الصالح العام. كما يمكننا أن نثبت أن تلك الصفات لا علاقة لها على الإطلاق بالاقتصاد من خلال الإشارة إلى الحقيقة البسيطة التي تقول أن الإنسان لا يضحى بنفسه من أجل مصالح مادية. وبمعنى آخر، فهو مستعد للتضحية من أجل المثل وليس من أجل التجارة. ولم يظهر ذلك جلياً في الشعب الإنجليزي إلا أثناء الحرب العالمية. فقد كنا نحارب من أجل الخبز، لكن الإنجليز أعلنوا أنهم يحاربون من أجل الحرية. ولم يحاربوا من أجل حريتهم على الإطلاق، لا ... بل من أجل حرية الأمم الصغرى. وقد ضحك الشعب الألماني على تلك الوقاحة التي أغضبتهم، وهذا يوضح كيفية تراجع ما يسمى بالفكر السياسي فيما بين من يسمون بالسياسيين في ألمانيا حتى قبل الحرب. فهؤلاء الدبلوماسيين ليس لديهم أي فكرة عما يدفع بالإنسان لمواجهة الموت برغبته وإرادته.

وكلما استمر الشعب الألماني - أثناء الحرب العالمية - في الاعتقاد بأنه يحارب من أجل المثل، ظل متماسكاً. لكنه بمجرد أن علم أنه يقاتل من أجل قوت يومه تخلى عن القتال.

وقد تعجب رجال دولتنا الأذكى بشدة من هذا التحول في المشاعر. فلم يفهموا أبداً أن

الرجل عندما يستدعى للنضال من أجل أسباب مادية فقط، فإنه سيتجنب الموت قدر المستطاع. وذلك لأن الموت والاستمتاع بالنصر مفهومان غير متجانسين.. وأضعف النساء تتحول إلى بطللة إذا تعرضت حياة طفلها للخطر. وقد كانت الرغبة في إنقاذ العرق وأرض الوطن أو الدولة - التي تعتبر مصدراً لحماية العرق - هي الحافز الذي دفع بالإنسان عبر كل العصور لمواجهة أسلحة الأعداء.

وقد يعتبر ما يلي حقيقة طالما أثبتت أنها صحيحة :

لم تنشأ أي دولة من خلال العلاقات التجارية التي تهدف إلى تحقيق غايات سلمية، لكن الدول تقوم دائماً بالحفاظ على الجماعات العرقية سواء كانت تلك الصفة ظاهرة وواضحة وسواء كان ذلك من خلال التضحيات البطولية أو الخداع الماكر. والدول الأوروبية تمثل الحالة الأولى⁽¹⁾، فقد قامت على مبدأ العمل وتنمية الثقافة، وخير مثال للحالة الثانية هو تلك المستعمرات الطفيلية لليهود. ولكن بمجرد أن تتغلب المصالح الاقتصادية على الاهتمامات العرقية والثقافية في شعب أو دولة فإنها ستؤدي إلى الخضوع والقهر.

وقد دل الاعتقاد الذي شاع في ألمانيا قبل الحرب بأنه من الممكن لألمانيا أن تفتح العالم وتغزوه من خلال نظام التغل التجاري السلمي وسياسة استعمارية فقد دل على تراجع الصفات التي تدعم وجود الدول وبقائها، كما أشار أيضاً إلى تراجع في البصيرة وقوة الإرادة والعزم وهي صفات لصيقة لتلك الصفات التي تحافظ على بقاء الدولة. وقد كانت الحرب العالمية ونتائجها تصفية طبيعية لهذا التراجع.

وبالنسبة لمن لم يفكر في الأمر بعمق، فإن هذا الاتجاه للشعب الألماني - بصفة عامة - هو لغز لا يمكن حله. لكن وعلى أي حال، فإن ألمانيا ذاتها ما هي إلا مثال رائع لإمبراطورية قامت على سياسة القوة. وقد قامت بروسيا التي كانت الخلية التي تولدت منها الأمة الألمانية على أعمال بطولية ملفتة وليس عن طريق المال والتجارة. وكانت الإمبراطورية نفسها هي التعويض المادي للقيادة التي اتبعت سياسة القوة والبرسالة العسكرية.

❖ كيف تفككت الصفات السياسية للشعب الألماني؟

ولكن كيف تفككت الصفات السياسية للشعب الألماني إلى هذه الدرجة ؟ لم تكن ظاهرة واحدة فقط هي المسؤولة عن هذا التدهور، بل كانت هناك أعراض مرضية قد ظهرت بأعداد مفرزة وظاهرة الآن مثل القرحة القاتلة إما في كل أركان الهيئة السياسية أو في

(1) أي أنها قامت على التضحيات البطولية.

جسد الأمة. ويبدو أن يداً خفية قد حقنت كل هذا السم القاتل في مجرى دم هذا الجسد الذي كان بطلاً في يوم ما، مما سبب شللاً أثر على العقل وعلى غريزة حب البقاء.

وخلال الفترة 1912-1914م كنت أفكر في تلك المشكلات ذات العلاقة بالحلف الثلاثي وفي السياسة التجارية التي تنتهجها ألمانيا. ومرة أخرى توصلت إلى استنتاج أن التفسير الوحيد لهذا اللغز يكمن في أعمال تلك القوة التي تعرفت عليها في فيينا، أقصد تعاليم الماركسية ونظريتها العامة وأعمالها المنظمة التي تقوم بها في جميع أنحاء الدولة.

وللمرة الثانية خلال حياتي أعكف على دراسة تلك التعاليم الهدامة. لكن هذه المرة - على أي حال - لم يكن دافعي هو دراسة تلك المسألة بما لها من تأثيرات وانطباعات تنعكس على الحياة اليومية بل إنني توجهت إلى دراسة الظواهر العامة في الحياة السياسية في ألمانيا. وبالتنقيب مرة أخرى في التراث الثقافي لهذا العالم الجديد والسعي إلى تحصيل رؤية واضحة عن نتائج تعاليمه، لذلك ربطت ما بين التعاليم النظرية للماركسية بما يحدث من أحداث وظواهر نتيجة لأنشطتها في مجالات السياسة والثقافة والاقتصاد.

ولأول مرة في حياتي توجه اهتمامي إلى الجهود التي بذلت للقضاء على هذا الوباء العالمي.

❖ | العلاقة بين الماركسية واليهود:

قرأت تشريع بسمارك من حيث مفاهيمه الأصلية وتطبيقه ونتائجه. ثم تكونت أسس لآرائي بالتدريج، وقد أثبتت تلك الأسس أنها صلبة مثل الصخر. لذلك فإنني لم أغير اتجاهي نحو القضية بصفة عامة أبداً. كما قمت أيضاً بتحليل شامل ودقيق للعلاقات بين الماركسية واليهود.

وخلال فترة إقامتي في فيينا كنت أعتبر ألمانيا كياناً ضخماً هادئاً، لكن كان لدي شكوك في ذلك الوقت وكانت تلك الشكوك تؤرقني. وقد اعتدت على نقد السياسة الخارجية الألمانية أمام المحيطين بي وأمام معارفي، وذلك لسطحياتها في التعامل مع الماركسية بالرغم من أنها كانت أهم مشكلة في ألمانيا في ذلك الوقت. فلم استطع فهم كيفية امتناعهم عن مواجهة ذلك الخطر الذي تستفحل نتائجه إن نجح في تطبيق الأهداف المعلنة للماركسية. وكنت أحذر من حولي من الناس في تلك الفترة المبكرة كما أحذر جموع الناس الآن من الشعار ذي الطبيعة الكسولة الواهنة: "لن يحدث لنا أي شيء" فقد أدى مثل ذلك الشعار إلى تدمير إمبراطورية كبرى. فهل من الممكن أن تتجو ألمانيا من ظواهر تعرضت لها كثير من المجتمعات الأخرى؟

وخلال عامي 1913-1914م أعلنت رأبي لأول مرة أمام كثير من الجماعات - أصبح بعضهم الآن أعضاء في الحركة الاشتراكية القومية - وقلت أن مشكلة كيفية حماية مستقبل ألمانيا يمكن حلها إذا انتهت مشكلة القضاء على الماركسية.

وقد اعتبرت أن السياسة المدمرة للتحالف الثلاثي هي إحدى النتائج الناشئة عن تعاليم الماركسية، حيث كانت هناك إنذارات تشير إلى أن هذه التعاليم تفسد الأسس الصحية للسياسة والاقتصاد في الخفاء. وحتى بعض المتورطين في ذلك الفساد لم يدركوا أن أهدافهم وأفعالهم تتبع من خلال تلك النظرية الماركسية التي يتبرأون منها علانية.

وقبل ذلك بكثير بدأ التدهور الأخلاقي والديني في الشعب الألماني وذلك بالرغم من أن من تأثروا بهذا التراجع لم يعرفوا - كما يحدث دائماً - تلك القوى التي تحطم وجودهم. وقد حاولوا أحياناً أن يعالجوا المرض بتزيين الأعراض، وقد اعتبروها سبباً في حد ذاتها. لكن، لم يكن هناك من يعرف السبب الحقيقي لذلك المرض أو يريد أن يعرفه. لم تكن هذه الطريقة للصراع مع الماركسية فعالة وتشبه استخدام المرهم لتسكين الألم فقط.



الحرب العالمية



خلال السنوات العاصفة من شبابي لم يكن هناك ما يحبط روحي الجامعة سوى التفكير في أنني ولدت في زمن قرر فيه العالم بوضوح ألا يحتفي سوى برجال الأعمال والساسة. ويبدو أن عاصفة المنجزات التاريخية قد خمدت للأبد، كما يبدو أن المستقبل قد ارتبط بما يسمى بالتنافس السلمي بين الأمم، وهذا يعني ببساطة نظاماً من الاستثمار المتبادل بطرق مخادعة، فقد تم استبعاد مبدأ اللجوء إلى استخدام القوة للدفاع عن النفس. وقد افترضت دول كثيرة - كل على حده - أن اقتناص الصفقات التجارية واغتصاب الأراضي هي أشياء مسلم بها ويمكن أن تحدث من أي منهم تحت أي ذريعة. وكان كل ذلك يصاحبه صياح عال غير مجد. وقد كتب لهذا الاتجاه أن يتطور ويستمر بالتدريج. فالحصول على استحسان العامة يتطلب أن يتحول العالم إلى محل كبير متعدد الطوابق. وفي ردهات هذا المحل تقف صفوف التماثيل النصفية التذكارية التي تخلد هؤلاء المستغلين الذين أثبتوا أنهم الأكثر كفاءة في تجارتهم وأنهم الإداريين المسالمون. ومن الممكن أن يكون التجار من الإنجليز والموظفون الإداريون من الألمان. بينما يضحي اليهود بالأرباح في مقابل الملكية، فهم عادة ما يقسمون بأنهم لم ينالوا أي ربح وأن عليهم دائماً أن "يدفعوا الثمن". كما أنهم متميزون جداً في إجادة اللغات الأجنبية.

لماذا لم أولد منذ مائة عام مضت؟ اعتدت أن أسأل نفسي هذا السؤال. لماذا لم أولد في عصر حرب التحرير، حيث كان الإنسان ذا قيمة حتى وإن كان لا يعمل.

وقد اعتدت أن أقول لنفسي إنني وصلت إلى هذه الأرض بعد مواعي المناسب بفترة طويلة، وكنت أشعر بالحزن لأنني لو كنت جنّت في ذلك الوقت لعشت حياة هادئة بلا مشكلات. وأنا فتى صغير، كان من الممكن وصفي بأي شيء عدا أن أكون مسالماً، وقد باعت كل محاولات تحويلي إلى شخص مسالم بالفشل.

ثم وقعت حرب البور وكانت تشبه البرق في الأفق البعيد. وقد اعتدت متابعة أخبارها في الصحف يوماً بعد يوم وكنت ألتهم ما يرد من أخبارها التهاماً، وكنت أسعد عندما أتصور أنني يمكنني حضور هذا الصراع البطولي حتى وإن كان ذلك من مسافة بعيدة.

وعندما قامت الحرب الروسية اليابانية كنت أكبر سناً وأكثر قدرة على تقييم الظروف. وفي أثناء المحادثات مع الناس كنت أتخذ جانب اليابان في ذلك الوقت لأسباب قومية، وكنت أعتبر أن هزيمة روسيا ضربة موجهة إلى السلافية النمساوية.

وقد مضت أعوام كثيرة بعد ذلك إلى أن وصلت إلى ميونخ. وقد أدركت الآن أن ما كنت أعتبره تدهوراً مرضياً لم يكن سوى الهدوء الذي يسبق العاصفة. فعندما كنت لا أزال في فيينا كانت منطقة البلقان متوترة وكانت النذر تصدر من هنا وهناك من أن لآخر، لكنها سرعان ما غابت في ظلمات مشئومة. ثم اندلعت حرب البلقان، ثم اجتاحت ذلك الإعصار أماكن متفرقة من أوروبا. وقد شعر الناس بالظلم والتوجس في فترة الهدوء التي تلت ذلك، وقد زاد هذا الشعور بدرجة كبيرة لدرجة أنهم توقعوا حدوث كارثة قريباً وكانوا ينتظرونها بتوتر. وكانوا يأملون أن تنقذهم السماء من تلك المأساة. لكن حدث ما كانوا يتوقعون واندلعت الشرارة الأولى وضربت الأرض. وقامت العاصفة وتشابك الرعد مع زئير المدافع في الحرب العالمية.

❖ | الشرارة الأولى لاندلاع الحرب:

فعندما وصلت الأخبار إلى ميونخ محملة بقصة اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند، كنت في البيت طوال اليوم ولم أعرف تفاصيل القصة. وفي البداية كنت أخشى أن تكون الرصاصات قد أطلقها طالب ألماني نمساوي وصل إلى حالة من السخط الشديد بسبب تواصل الأنشطة المؤيدة للسلافيين التي يقوم بها وريث عرش هابسبرج فأراد أن يحرر الشعب الألماني من هذا العدو الموجود في الداخل. وكان من السهل جداً أن نتوقع نتائج هذا الافتراض. كان من الممكن أن تحدث موجة جديدة من الاضطهاد تكون دوافعها مبررة أمام العالم أجمع. لكنني سرعان ما سمعت أسماء القتلة وعلمت أنهم من الصرب. وقد صعقت لهذا الانتقام الشديد الذي دبره القدر. فقد وقع أكبر أصدقاء السلاف ضحية لرصاصات أطلقها الوطنيون السلاف.

ومن الظلم أن نلوم حكومة فيينا في ذلك الوقت على الإنذار الذي أصدرته، وذلك لأن أي قوة أخرى في العالم كانت ستفعل ذلك في نفس الظروف ونفس الموقف، ولم تكن لتفعل أي شيء غير ذلك. فالإلى الجنوب من الحدود النمساوية يوجد عدو قاس ورهيب ينغمس في أعمال الإثارة ضد الإمبراطورية المزدوجة على فترات متباعدة ثم أصبحت تلك الأعمال أكثر تكراراً. وكان هذا العمل الممتد لا يهدأ إلى أن جاءت اللحظة المناسبة لتدمير الإمبراطورية. وفي النمسا كان هناك شعور بالخوف - في الفترة الأخيرة قبل الحرب - من أن تلك اللحظة المناسبة قد تأتي بموت الإمبراطور العجوز، فمجرد حدوث ذلك فإن المملكة لن تبدي أي نوع من أنواع المقاومة. وقد كانت الدولة تعرف ولعدة سنوات مضت شخصية فرانسيس جوزيف فهو يبدو في عيون العامة مساوياً للإمبراطور وقتله يعادل القضاء على الإمبراطورية. وفي الحقيقة، كانت إحدى الحيل الماكرة لسياسة

السلافية تتمثل في دعم الانطباع بأن الدولة النمساوية تدين بوجودها إلى نبوغ وعبقريّة الملك فقط. وهذا النوع من الإطراء كان مقبولاً في العديد من الدوائر وذلك لأنه لا علاقة له بما يقدمه الإمبراطور من خدمات من قريب أو بعيد. وكانت هناك حقيقة يتم تجاهلها تماماً - وربما عمداً - وهي أنه كلما استمر الملك في الاعتماد على ما يسمى بـ "المواهب الإدارية لحكيم كل العصور" كلما أصبح الموقف مفاجئاً أكثر وخاصة عندما حدث ما لا يحمد عقباه.

فهل من الممكن أن نتصور إمبراطورية النمسا بلا حاكم ؟ أن تتكرر مأساة مارياتريزا مرة أخرى ؟

من الظلم فعلاً أن نلوم حكومة فيينا لأنهم أشعلوا حرباً كان من الممكن تجنبها. فقد كانت الحرب آتية لا محالة. ربما تكون قد أجلت لمدة عام أو عامين على الأكثر. لكن سوء حظ ألمانيا - وحظ النمسا أيضاً - كان دائماً يمنحهما السياسيون الذين لا يفكرون كثيراً فيضطرون إلى أن يواجهوا ضربتهم الأولى في الوقت غير المناسب تماماً.

والآن، على من لا يريدون هذه الحرب أن يتحملوا نتائج رفضهم هذا بأنفسهم. وهذه النتائج لابد أن تشمل التضحية بالنمسا. وبالرغم من كل ذلك كان لابد من مجيء الحرب وهي ليست حرباً تشترك فيها كل الأمم ضدنا ولكنهم يشتركون في تقطيع أوصال مملكة هابسبرج. وفي تلك الحالة كان علينا أن نقرر ما إذا كنا سنذهب لمساندة هابسبرج أم ننتحي جانباً كمشاهدين فقط ومعنا أسلحتنا لم تمس، تاركين أقدارنا تسير كما تشاء.

❖ | الجميع متحمس للحرب:

إن من تتعالى أصواتهم باللغات اليوم ومن اقتنعوا بما لديهم من حكمة في تقدير أمور الحرب هم من أدى تعاملهم مع العدو إلى دفعنا نحو الحرب.

فقد كان الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني يسعى ولعدة سنوات إلى إثارة الحرب على روسيا واتبع في ذلك طريقة سرية ماهرة. وبينما كان الحزب الألماني المركزي - وهو يضع أمامه أهدافاً دينية - يسعى إلى جعل الدولة النمساوية هي المركز الرئيسي المحرك للسياسة الألمانية. وعلينا أن نتحمل الآن نتائج هذه الحماسة. فما حدث كان لابد أن يحدث وكان من المستحيل تجنبه بأي حال من الأحوال. والخطأ الذي وقعت فيه الحكومة الألمانية يكمن في أنها ظلت تفقد الفرص المناسبة للتحرك واحدة تلو الأخرى فقط من أجل الحفاظ على السلام بأي ثمن، لذلك دخلت في تحالف من أجل الحفاظ على السلام العالمي ثم أصبحت في النهاية ضحية ائتلاف دولي يعارض جهود ألمانيا من أجل الحفاظ على السلام وكان هذا الائتلاف مصراً على قيام الحرب العالمية.

فإذا كانت حكومة فيينا في ذلك الوقت قد أعدت إنذارها بعبارات أقل عنفاً، لكان الموقف كما هو تماماً لم يتغير فيه أي شيء أبداً لكنه كان سيؤدي إلى سخط عامة الناس فقط. وقد كان الإنذار معتدل جداً وليس زائداً عن الحد أو هجوماً. ومن ينكر ذلك اليوم إما أن يكون من السذج ضعاف الذاكرة أو ممن يتاجرون في الكذب والبهتان عمداً. لذلك فمن المؤكد أن حرب عام 1914م لم يتم فرضها على الجماهير، فقد كان الشعب كله راغباً فيها.

وكانت هناك رغبة في إنهاء الإحساس العام بالتوجس تماماً وإلى الأبد. وبناء على تلك الحقيقة يتضح لنا لماذا تطوع أكثر من مليونين من شباب ألمانيا ورجالها في أسلحة الجيش المختلفة. وكانوا مستعدين لإراقة آخر قطرة من دمائهم من أجل قضية بلادهم.

وبالنسبة لي فقد حان وقت التخلص من التوتر الذي عشته في شبابي وأتقل كاهلي. وأنا لا أجد أي عار في أن أقول أنني تأثرت بحماسة الموقف في ذلك الوقت فركعت على ركبتي وشكرت السماء من أعماق قلبي على أنني عشت في ذلك الزمان.

واندلعت الحرب من أجل الحرية على مستو لم يسبق له مثيل في تاريخ العالم. ومنذ أن وضع القدر بداية لهذه الحرب، ساد عند عامة الشعب قناعة - وظلت تتزايد - بأن هذه اللحظات الحاسمة لا تحدد مقدرات النمسا أو الصرب بل تهدد وجود ألمانيا نفسها.

وأخيراً وبعد سنوات عديدة من العمى رأى الناس المستقبل بوضوح. ولذلك وبعد بدء هذا الصراع الضخم مباشرة حل الصوت الخفيض المناسب والمتعقل محل الحماسة المفرطة، وذلك لأن أحاسيس عامة الناس لم تكن مجرد نزوة عابرة. كان من الضروري فقط أن ندرك صعوبة الموقف وأهميته. وفي ذلك الوقت لم يكن هناك - وبصفة عامة - أدنى توقع بفترة الحرب أو مدة استمرارها. وكان الناس يحلمون بعودة الجنود إلى وطنهم بحلول عيد الميلاد لذلك فقد استمروا في أداء أعمالهم اليومية في صمت.

وما يرغبه الإنسان يحلم به ويعتقد أنه سيحدث. فقد أصبح الغالبية العامة من الشعب قلقين بسبب الحالة العامة لظروف الشعب. وكان من الطبيعي ألا يعتقد أي من أفراد الشعب أن النزاع النمساوي الصربي سيصبح طي النسيان. لذلك كان الجميع يتطلع إلى حل جذري لكل المشكلات. وقد كنت واحداً من الملايين الراغبين في ذلك.

وقد خطرت لي فكرتان عندما وصل خبر حادث سرايفو إلى ميونخ، الأولى أن الحرب آتية لا محالة، والثانية أن على دولة هابسبرج أن توفي الآن بالتحالف الذي وقعت عليه. وأخشى ما كنت أخشاه أن تضطر ألمانيا في يوم ما إلى أن تشترك في نزاع - ربما بسبب التحالف - ليس له علاقة مباشرة بالنمسا. وكنت أخشى في تلك الحالة أن تجد

الدولة النمساوية نفسها - وبسبب الأحوال الداخلية - غير قادرة على أن تقف إلى جوار حليفاتها. لكن هذا الخطر زال الآن. فالدولة القديمة مضطرة إلى دخول الحرب سواء أرادت ذلك أم لا.

وقد كان موقفي من النزاع واضحاً وبسيطاً. فقد كنت معتقداً أنه ليس على النمسا أن تقاتل لتتال حقها من الصرب، ولكن على ألمانيا أن تحارب لتدافع عن وجودها. وتدافع عن حريتها ومستقبلها، فيما أن تكون أو لا تكون.⁽¹⁾ فلا بد الآن من إكمال أعمال بسمارك. وعلى ألمانيا الفنية أن تظهر أننا نستحق ما أراقه أجدانا من دماء في كثير من مجالات البطولة من وسنبرج إلى سيدان إلى باريس. فإذا ما أسفر هذا الصراع عن نصر لنا فإن شعبنا سيعود إلى مكانته بين الأمم الكبرى التي تتصدر العالم. وفي هذا الوقت فقط يمكن للإمبراطورية الألمانية أن تدعي أنها من أبطال السلام دون حاجة إلى تقليل القوت اليومي لأطفالها من أجل الحفاظ على السلام.

وكنت مشتاقاً وأنا صبي ثم وأنا شاب إلى فرصة أثبت فيها أن حماسي الوطنية ليست مجرد كلام. ولم يكن الهتاف يروق لي وكنت أشعر أن المشاركة فيه مهينة وذلك بالرغم من أنني لا أستطيع تفسير هذا الإحساس أبداً، وقد شعرت بالفخر لأنه سيسمح لي بخوض ذلك الاختبار مثل أولئك الملايين من حولي. وكنت أغني أغاني ألمانية وأزأر بصيحات النصر، وأنا اعتقد أنني منحت نعمة كبرى لأنني وقفت أمام محكمة العدالة الخالدة لأعبر عن صحة أحاسيسي.

وكان هناك شيء واحد واضح أمامي منذ البداية، وهو أنه على أن أطرح كتيبي جانباً فالحرب الحتمية الآن. وعلمت أن مكاني هناك، حيث يناديني ضميري.

وقد غادرت النمسا في الأساس لأسباب سياسية. وعلى الآن أن أضع الأسباب النظرية لأرائي السياسية موضع التنفيذ. فالآن بدأت الحرب وأنا لا أريد أن أحارب من أجل قضية هابسبرج، لكنني مستعد للموت في أي وقت من أجل أهلي والإمبراطورية التي ينتمون إليها.

❖ طلب تطوع:

وفي الثالث من أغسطس عام 1914م تقدمت لجلالة الملك لودفيج الثالث بطلب عاجل أطلب فيه السماح لي بالخدمة في فوج بافاريا. وكانت المملكة في حالة انشغال شديد جداً

(1) تعبير استعاره هتلر من مسرحية "هاملت" للمؤلف المسرحي الإنجليزي الأشهر "وليم شكسبير".

في ذلك الوقت، لذلك فقد سعدت جداً بتلقي الرد بقبول طلبي في اليوم التالي. فتحت الخطاب بيد مرتعشة ولا أجد كلمات الآن أصف بها الرضا الذي كنت أشعر به. فقد شعرت بالفخر عندما قرأت تلك الكلمات التي تكلفني بالعمل في فوج بأفاريا. وخلال عدة أيام فقط كنت أرثي ذلك الزي الذي اعتدت ارتدائه لمدة ستة سنوات تالية تقريباً.

فقد بدأت بالنسبة لي، كما هو الحال مع كل ألماني، أهم فترة في حياتي. فقد كنت وجهاً لوجه مع هذا الصراع الشديد، وسقط كل الماضي في طي النسيان. وأنا أنظر إلى تلك الفترة بفخر حزين خاصة ونحن نقرب⁽¹⁾ من الذكرى العاشرة لهذه الحرب. وأتذكر أنني كنت في الأسابيع الأولى من هذه الحرب في أشد مناطق الصراع انتقاداً.

إنني أتذكر المناظر كما لو كانت قد وقعت بالأمس. فأنا أرى نفسي منذ أن كنت بين زملائي الأصغر مني في أول تدريب استعراضي وحتى آخر يوم في الحرب حينما كان علينا أن نغادر الجبهة.

وكنتم قلقاً - مثل جميع من حولي - على شيء واحد وهو أن نصل في وقت متأخر جداً إلى جبهة القتال. ولطالما كدرتني هذه الفكرة وكنتم أزداد مرارة عند الإعلان عن أي نصر جديد يتحقق⁽²⁾. وكان هذا الشعور يتزايد مع أخبار الانتصارات المتتالية.

وأخيراً جاء اليوم الذي غادرنا فيه ميونخ في مهمة حربية. ولأول مرة في حياتي أرى نهر الراين ونحن نتجه غرباً لحراسة النهر الألماني من عدوه التقليدي الطماع. ومع أشعة الشمس الأولى في الفجر التي بزغت من خلال الضباب وكشفت لنا عن تمثال ناينداروالد من جهة واحدة بدأ قطار القوات في صيحات تهتف للراين فشعرت بأن قلبي لا يحتمل هذا التحمس.

❖ | ويلات الحرب:

ثم تلى ذلك ليلة باردة قضيناها في فلاندرز. كنا نمشي صامتين في الليل وعندما تشرق شمس الصباح تصلنا من خلال الضباب والحديد. تفجرت بعض الشظايا في وسط الجنود وتناثرت على الأرض فصدرت هتافات مدوية من حناجر مائتي جندي رداً على أول تحية يلقيها عليهم الموت. ثم تلى ذلك أصوات الرصاص وهدير المدافع وصيحات وأغنيات المقاتلين. تقدمنا بسرعة متزايدة وعبونا مفتوحة إلى أن وصلنا أخيراً إلى ساحة معركة هناك خلف حقول الشمندر والمروج الخضراء. ثم سمعنا صوت غناء يأتي من

(1) كتب هتلر هذا الجزء من الكتاب في عام 1924م.

(2) كان يشعر بالمرارة لأنه كان يود المشاركة في تلك الانتصارات.

بعيد لكنه يقترب أكثر وأكثر. وكلما انتشر القتل فينا ، انتقلت الأغنية إلى من يجاورنا وهي تقول : "ألمانيا .. ألمانيا أرواحنا فداك."

وبعد أربعة أيام قضيناها في الخنادق عدنا. حتى خطواتنا كانت قد تغيرت، فلم تعد مثلما كانت من قبل. وأصبح الفتیان في سن السابعة عشر كما الرجال. ولم يكن المنتسبون للفوج (1) قد تدربوا على القتال بما فيه الكفاية، لكنهم عرفوا كيف يموتون مثل قدامى الجنود.

وكانت تلك هي البداية. وهكذا استمر بنا الحال عاماً بعد عام، وحل إحساس بالكرامة محل الإحساس الرومانسي بروح القتال وهذأت الحماسة تدريجياً وتلاشت المعنويات العالية أمام الخوف من الموت الحاضر دائماً. وجاء وقت شعر فيه كل واحد منا أن بداخله نزاع بين غريزة حب البقاء ونداء الواجب وكان عليّ أن أمر بهذا الصراع أيضاً، فالموت كان ييحث عن ضحايا في كل مكان، كما كان هناك شيء قاس بلا اسم يتذمر داخل الجسد المتعب ويقدم نفسه تحت مسمى الصالح العام. لكنه كان الخوف في حقيقة الأمر، وقد انتشج بعباءة ليفرض نفسه على كل فرد. لكن كلما نصحننا هذا الصوت بالتعقل وأجهد نفسه في ذلك ، اتضح وأصبح أكثر إقناعاً وزادت المقاومة، وأخيراً انتهى النزاع الداخلي وانتصر نداء الواجب. وفي شتاء عام 1915م-1916م كنت قد تغلبت على هذا الصراع الداخلي. وقد أكدت الإرادة سيادتها التي لا تقبل الجدل. وبينما كنت في الأيام الأولى أسير إلى القتال وأن مرح وسعيد، أصبحت الآن هادئاً وصبوراً. واستمرت قدراتي العقلية في التحمل. وقد وضعني القدر بعد ذلك في اختبار نهائي دون أن يشعر بذلك عقلي أو أعصابي. ليصبح المتطوع الشاب محارباً قديماً.

وهذا التحول حدث في جميع أنحاء الجيش. فقد أدى القتال المستمر إلى أن أصبح الجميع كبيراً في السن وخشناً وصلباً، وبذلك كانوا يواجهون كل غارة بثبات وشجاعة.

الآن فقط يمكن الحكم على هذا الجيش، فبعد عامين أو ثلاثة من القتال المستمر والمرور من معركة إلى أخرى ومواجهة الأعداد الكبيرة والأسلحة الكثيرة بشجاعة وقوة وبعد عناء الجوع والحرمان حان الوقت لكي أقيم قدرتي القتالية.

لن يجرو أحد أن يتحدث عن البطولة خلال ألف عام قادمة دون أن يتحدث عن الجيش الألماني في الحرب العالمية. حيث سيسترجع الجميع رغم مرور الزمن هؤلاء الذين ارتدوا الخوذات الحديدية دون تخاذل أو جبن وكانوا أبطالاً. وطالما أن هناك ألمانيا على قيد الحياة فانهم سيشعرون بالفخر لأنهم أحفاد لأولئك الألمان العظام.

(1) الفوج الثاني مشاة الذي انضم إليه هتلر متطوعاً.

وكننت في ذلك الوقت جندياً لا يحب التدخل في شئون السياسة وذلك لأن الوقت لم يكن مناسباً. وأنا لازلت أعتقد أن الصبي الذي يعمل في الإسطنبول في تلك الأيام قد خدم وطنه أفضل من أكثر نواب البرلمان تميزاً. فلم تزد كراهيتي لهؤلاء النواب أكثر من ذلك الوقت عندما توقف كل المحترمين منهم عن قول ما يريدون قوله في وجه الأعداء أو ظلوا صامتين ليقوموا بواجبهم في مكان آخر. لقد احتقرت هؤلاء السياسيين ولو كان الأمر بيدي لأخذتهم إلى كتيبة عمل ومنحتهم الفرصة للثرثرة فيما بينهم دون أن يؤثر ذلك على الشعب العظيم أو يضره.

في تلك الأيام لم أكن أهتم بالسياسة، لكنني لم أستطع تكوين رأي حول بعض الأحداث التي لم تؤثر على الأمة كلها فقط بل أيضاً علينا نحن الجنود بالذات. وكان هناك أمران تسببا لي في كثير من التوتر في ذلك الوقت وكننت اعتبرهما ضد مصالحنا.

❖ دور الصحافة المشبوهة:

فبعد انتصاراتنا الأولى المتلاحقة بفترة قصيرة بدأ قطاع من الصحافة في إلقاء المياه الباردة نقطة نقطة على حماس عامة الشعب. ولم يكن ذلك واضحاً لكثير من الناس في البداية. وكانوا يفعلون ذلك من وراء قناع النوايا الطيبة وروح الاهتمام الشديد. فقد قالوا لعامة الناس: إن الاحتفال بالانتصارات ليست في محلها لأنها انتصارات لا تستحق تعبير الأمة العظيمة عن سعادتها بها. وأن ثبات وشجاعة الجندي الألماني ما هي إلا حقائق معروفة لا تتطلب بالضرورة إقامة احتفالات من أجلها. كما تساءلت الصحافة عن رأي الدول الأجنبية، ألن يكون رد فعل الأجانب على الاحتفال الهادئ الرزين أفضل من رد فعله على هذا التهليل؟ لقد حان الوقت بالتأكيد - كما تقول الصحافة - لننتذكر نحن الألمان أن هذه الحرب لم تكن من أعمالنا، لذلك فليس من العار أن نعلن عن رغبتنا في التوصل إلى تفاهم بين الأمم المتحاربة. ولهذا السبب بالذات لا يجب أن نطبخ أعمال جيشنا الجليلة بالتهليل غير اللائق لأن بقية دول العالم لن تفهم ذلك. بالإضافة إلى أنه لا يوجد ما هو أفضل من أن يقوم البطل الحقيقي بما عليه في هدوء وأن يستمر فيما يعمل بتواضع وينسى ما قام به. كانت تلميحات الصحافة تشير إلى ما يشبه ما ذكرت.

وبدلاً من الإمساك بهؤلاء من أذانهم الطويلة وإلقائهم في خندق وتعليقهم بالحبال من رقابهم حتى لا تجرح حماسة الأمة بما يقول فرسان الكلمة هؤلاء، سمح للحملة الصحفية العامة بالاستمرار ضد ما كان يسمى بـ"الصور غير اللائقة وغير الكريمة للاحتفال".

ويبدو أنه لم يوجد أي ممن يعرفون أنه بمجرد إخماد الحماس الشعبي فلا شيء يستطيع إشعاله من جديد إذا دعت الحاجة لذلك. فهذا الحماس ما هو إلا نشوة يجب أن

نحافظ عليها مرتفعة دائماً. فكيف يمكن بدون تلك الحماسة أن نتحمل ذلك الصراع الذي - طبقاً للمعايير الإنسانية - يلقي بمتطلبات هائلة على كاهل الأمة ؟ وكنت على علم جيد جداً بنفسية الجماهير العريضة وأعرف أن هذا الحماس ما هو إلا المروحة التي تبقي النيران قوية فيظل الحديد ساخناً. وكنت أعتبر أيضاً أنه من الخطأ ألا نحاول رفع الروح المعنوية عند العامة أكثر. لذلك فإنني لا أفهم إطلاقاً لماذا استخدمت الطريقة العكسية وهي طريقة إخماد حماس المواطنين.

❖ | التهوين من أمر الماركسية وهي الطريق إلى الخراب:

وهناك شيء آخر كان يثيرني جداً وهو الطريقة التي تم بها قبول الماركسية واحترامها. وهذا كله بحسب اعتقادي يوضح مدى جهلهم بطاعون الماركسية. فقد كان يعتقد أن إلغاء التمييز بين الأحزاب أثناء الحرب سيجعل الماركسية معتدلة ومقبولة.

لكن الأمر هنا لا يخص حزباً بل عقيدة من الواضح أنها ستقود الإنسانية إلى الخراب. وليس هناك ما هو واضح ومفهوم عن فحوى هذه العقيدة، فلم يحذر منها أحد في جامعاتنا التي يسيطر عليها اليهود ولأن مسئولينا المتكبرين البيروقراطيين لم يروا أنه من المهم قراءة موضوع لم يكن مقررًا عليهم في الجامعة. وكان إلى جانب تلك التيارات تيار ثوري قوي، لكن هؤلاء العباقرة لم يعيروهم اهتمامهم. وهذا هو سبب تأخر أجهزة الدولة دائماً عن القطاع الخاص. وكان من الممكن أن نقول: إن مبدأ الطبقة الأرستقراطية هو: "لن نشغل بالنا بما لا نعرفه". وفي أغسطس من عام 1914م كان العامل الألماني يعتبر تابعاً للماركسية الاشتراكية. وهذا خطأ فادح. فعندما جاءت الساعات الحاسمة أطلق العامل الألماني قبضته القوية عن هذا الوباء وبدون ذلك لم يكن قادراً على الحرب أو مستعداً لها. وكان الناس حمقى بقدر كاف جعلهم يتخيلون أن الماركسية قد أصبحت الآن وطنية، وهذه خديعة أخرى تدل على أن من هم في السلطة لم يكلفوا أنفسهم أي عناء لقراءة التعاليم الحقيقية للماركسية. فإذا كانوا قد فعلوا ذلك، لم تكن هذه الأخطاء الحمقاء لتحدث أبداً.

وكان على الماركسية التي كانت ولا تزال وستظل تهدف إلى تدمير كل الأمم غير اليهودية أن تشهد في تلك الأيام من شهر يوليو عام 1914م كيف ثارت الطبقة العاملة في ألمانيا وتجلت فيها الروح الوطنية ووقفت بجانب الدولة الأم بعد أن نظمت نفسها بسرعة. وخلال عدة أيام انقشعت سحابة الدخان المخادعة عن مدعى الوطنية وسرعان ما وجد زعماء اليهود أنهم منبوذون. وقد بدا الأمر وكأنه لم يعد هناك أي أثر لهذا الجنون الذي حاول غزو أفكار الشعب الألماني لمدة سنتين عاماً. وكان ذلك يوماً أسود بالنسبة لمضلي العمال الألمان. ففي اللحظة التي أدرك فيها القادة الخطر الذي يهددهم، سحبوا قبعة الغش على آذانهم ولعبوا دوراً آخرس في صحوة الأمة من جديد دون أن يسموا أنفسهم.

وكان الوقت قد حان للتعامل مع كل العصابة اليهودية الموجودة في المناصب العامة. وكان لابد لهذا التعامل أن يحدث بغض النظر عن أي اعتراض ينتج عنه. وفي ضربة واحدة - في أغسطس عام 1914م - طردت كل أفكار الهراء الخاصة بالتماسك الدولي من عقول الطبقات العاملة الألمانية. وبعد أسابيع قليلة وبدلاً من ذلك الهراء الذي كان لا يزال يتردد في آذانهم، سمعوا صوت تفجر قنبلة أمريكية الصنع فُجرت فوق رؤوس صفوف من جنود المشاة كرمز للصدقة الدولية. والآن وبعد أن أعاد العامل الألماني اكتشاف طريق الوطنية كان من واجب أي حكومة تضع الشعب في حساباتها أن تنتهز هذه الفرصة لتستأصل بلا رحمة كل ما يعارض الروح القومية.

وبينما يموت زهرة شباب الأمة على الجبهة كان الوقت كافياً داخل الوطن الأم لاستئصال ذلك الأذى. ولكن بدلاً من تنفيذ ذلك، مد صاحب الجلالة القيصر يده إلى هؤلاء المجرمون القدامون وأكد لهم حمايته وسمح لهم باستعادة توازنهم.

وبهذا تمكنوا من بدء العمل مرة أخرى، وهذه المرة كانوا أشد حرصاً من المرة السابقة إلا أنهم لا يزالوا مخربين. وبينما يحلم الشرفاء من الناس بالمصالحة، كان هؤلاء المجرمون الكاذبون يعدون العدة للثورة.

وكان من الطبيعي أن أتوتر بسبب أنصاف الإجراءات التي تتخذ في ذلك الوقت. لكني لم أظن أبداً أن من الممكن أن تكون النتيجة النهائية بهذا القدر من التدمير والخراب.

لكن ماذا كنا نفعل في ذلك الوقت؟ نقلق بقيادة هذه الحركة في السجون أم نحاكمهم ونخلص الأمة منهم؟ كان لابد من استخدام إجراءات عسكرية صارمة للقضاء على هذا الشر من جذوره. وكان لابد من إلغاء الأحزاب وعودة البرلمان إلى رشده حتى وإن قيدت الحريات إذا استلزم الأمر. وكان من الأفضل أن يحل البرلمان فوراً. ومثلما تحل الجمهورية الآن الأحزاب عندما تشاء، كان هناك في تلك الأيام مبررات أكثر لاستخدام تلك الإجراءات حيث كان وجود الأمة ذاته معرضاً للخطر. وقد يؤدي هذا الاقتراح إلى سؤال وهو: هل من الممكن أن نقضي على الأفكار بالقوة والسلاح؟ هل من الممكن مهاجمة أي مذهب عام بالقوة المادية؟

❖ هل يمكن القضاء على الأفكار بالقوة والسلاح؟

في ذلك الوقت كنت أقلب هذه الأسئلة مرات ومرات في رأسي. وبدارسة حالات عديدة من التاريخ، وخاصة تلك الحالات التي نتجت عن ظروف دينية، توصلت إلى ما يلي من نتائج أساسية:

لا يمكن أبداً التخلص من الأفكار والأنظمة الفلسفية والحركات القائمة على أساس

محدد سواء كان صحيحاً أم لا باستخدام القوة بعد أن تكون قد تجاوزت عمراً محدداً إلا في حالة واحدة وهي أن تستخدم تلك القوة لخدمة فكرة أو مفهوم جديد يمكن أن ينتشر بسرعة شديدة.

فاستخدام القوة فقط دون دعم أخلاقي يقوم على مفاهيم روحية لن يقضي على أي فكرة أو يوقف دعايتها، إلا إذا كانت هي مستعدة للقضاء عليها وعلى آخر رجل اعتنقها وكذلك كل العادات التي قد تتركها وراءها. وفي غالب الأحوال كانت نتيجة مثل هذا التصرف أن يتم القضاء عليها إما مؤقتاً أو إلى الأبد، وذلك في الدول التي تتمتع بالتميز من الناحية السياسية، لكن التجربة أوضحت أيضاً أن استخدام الطريقة المتعطشة للدماء في اقتلاع تلك الحركات تثير قطاعاً كبيراً من الجماهير، وفي الحقيقة فإن أي حادث ليس له علاقة بالدوافع الدينية يعتبر ظالماً من الناحية الأخلاقية ويؤدي إلى معارضة أفضل عناصر الشعب.

لذلك يتزايد عدد المقتنعين من أتباع هذه العقيدة المضطهدة كلما زاد الاضطهاد. وهنا يكون القضاء التام على تلك العقيدة الجديدة ممكناً من خلال خطة طويلة للقضاء عليها. لكن ذلك يعني - في النهاية - خسارة كثير من دماء أبناء الأمة أو الدولة. ثم يتم الانتقام لهذه الدماء فتستنزف الأمة وتتهار قواها. وهذه السياسة محكوم عليها بالفشل منذ البداية، وذلك إن كان المعتقد الذي تهاجمه قد انتشر على نطاق واسع.

وهذا هو سبب وجوب القضاء على مثل تلك المعتقدات منذ مراحلها الأولى. فمع مرور الوقت تتزايد قدرتها على المقاومة إلى أن تصل إلى عمر محدد تنتقل فيه القيادة إلى الشباب بشكل مختلف ولأسباب أخرى.

وتظل الحقيقة قائمة وهي أن كل محاولات القضاء على مذهب ما - تقريباً - دون الاعتماد على بعض الأسس الدينية لمهاجمته ومحو كل مؤسساته قد أدت في كثير من الحالات إلى تحقيق العكس تماماً وذلك للأسباب التالية :

عندما تستخدم القوة فقط في القضاء على انتشار مذهب ما فلا بد من توظيف هذه القوة بطريقة منتظمة ومستمرة. وهذا يعني أن فرص نجاح القضاء على هذا المذهب تكمن فقط في دوام وتماسك الطريقة المتبعة. وعندما يلوح أي مظهر من مظاهر التردد وتعاقب فترات التسامح وفترات استخدام القوة، فإن ذلك المذهب الذي تستخدم تلك القوة ضده لن يتعافى ويستعيد قوته فقط بل إن أي أعمال تأتي بعد ذلك ستزيد من دعمه بمزيد من المؤيدين الذين يصدمون مما يرون من ظلم الطريقة المستخدمة ضدهم. كما يزداد عداة الأنصار القدامى ويصبحون أكثر ولاء لذلك المذهب. لذلك فعند استخدام القوة يعتمد

النجاح على الطريقة المتناسكة التي تستخدم بها. وهذا التماسك - على أي حال - يجب أن يبدأ من إطلاق معتقدات دينية محددة. فكل نوع من أنواع القوة غير المدعومة بالنواحي الروحية ستكون غير مضمونة وغير حاسمة. وهذه القوة تفتقد الثبات الذي يمكن أن يتواجد فقط في مذهب يجد أبطالاً مقاتلين يدافعون عنه. وهذه القوة تعتمد على طاقات الأفراد لذلك فهي تتأثر من وقت لآخر بمن يتحكم فيها من أفراد وبشخصياتهم وقدراتهم.

لكن هناك شيئاً آخر يجب أن أقوله: وهو أن كل مذهب سواء كان دينياً أم سياسياً - وإن كان المجالان يتداخلان أحياناً - لا يحارب من أجل تدمير الأفكار المعارضة له والمنشرة في العالم كله بنفس قوة محاربتة من أجل نشر أفكاره. وهكذا يركز على الهجوم وليس على الدفاع. وهذا يميزه لوضوح أهدافه، فذلك يساعده على تحقيق أفكاره الخاصة. والعكس صحيح حيث يصعب معرفة الوقت الذي يمكننا أن نقول فيه متى نتوصل إلى القضاء التام على مذهب محدد. ولهذا السبب فقط فإن أي مذهب ذي طبيعة هجومية تكون خطته واضحة ويكون أقوى وأكثر فاعلية من المذهب الذي يستخدم طريقة الدفاع فقط. وإذا ما استخدمت القوة في الصراع مع قوى روحية، فإن هذه القوة ستظل دفاعية طالما أن المدافعين عنها ليسوا رسلاً ولا قوياً الشكيمة.

❖ استخدام القوة للصراع مع أي مذهب سيئ بالفشل:

وإذا أردنا الاختصار فلنأخذ لنا نضع ما يلي في عقولنا: سوف تنتهي أي محاولة للصراع مع مذهب ما باستخدام القوة بالفشل إن أخفق ذلك الصراع في أن يتخذ شكل القتال من أجل إنشاء نظام روحي جديد شامل. ومن الممكن فقط أن تستخدم القوة باستمرار وثبات في حالة الصراع بين مذهبين مختلفين فهي تقرب الموازين عادة لصالحها في نهاية الأمر. لذلك فشل الصراع ضد الماركسية.

وهذا هو السبب الذي جعل تشريعات بسمارك ضد الاشتراكية تفشل وترتبط بالفشل على المدى الطويل، بالرغم من كل شيء. فهي ينقصها وجود مذهب جديد يكون الصراع من أجل توطيده ودعمه. لكن استخدام ما يسمى بـ "سلطة الدولة" و "القانون النظام" يصلح كأساس لقوة دافعة في صراع مصيري - إما حياة أو موت - وهو ما نتوقع سماعه من المسؤولين المغرورين.

ولأن ذلك الهجوم لم يكن وراءه أي دوافع مناسبة تدعمه فقد اضطر بسمارك إلى تسليم إدارة تلك الإجراءات التشريعية لتقييم من جانب من تشبّعوا بتعاليم الماركسية. وكان الموقف يثير الضحك، فالمستشار الحديدي يسلم أقدار صراعه ضد الماركسية إرضاء للطبقة المتوسطة (البرجوازية) من الديمقراطيين. لقد ترك الغنم يحرس الحديقة. لكن ذلك

جاء كنتيجة حتمية للإخفاق في إيجاد مذهب جديد يمكنه أن يجذب المخلصين الأبطال وينشأ من نفس المصدر الذي نشأت عنه الماركسية. وهذا هو سبب بؤس الحملة التي قام بها بسمارك.

ولكن هل تغيرت الظروف أثناء الحرب العالمية - أو في بدايتها على الأقل ؟ لا، لم تتغير الظروف بأي حال من الأحوال.

فكلما فكرت في ذلك الوقت في ضرورة تغيير اتجاه الحكومة التنفيذية نحو الاشتراكية الديمقراطية - كتجسيد للماركسية المعاصرة - أدركت مدى الحاجة إلى إيجاد بديل عملي لهذا المذهب. فلم يعد هناك دعم للاشتراكية الديمقراطية، فماذا يمكننا أن نقدمه للجماهير بدلاً منها ؟ حيث لا توجد حركة واحدة تبشر بنجاحها في جذب أعداد كبيرة من العمال الذين أصبحوا الآن - على أي حال - بلا قادة، ثم تحافظ على هؤلاء العمال كمؤيدين لها، لكن ليس لنا أن نتخيل أن من انتهى لتوه من الالتحاق بحزب طبقي أن يلتحق بسرعة بحزب برجوازي - أو بمعنى آخر - هيئة تابعة لطبقة أخرى. وذلك لأن تلك الهيئات مهما بدت مرضية إلا أنها لا تستطيع أن تنكر نظرة الدبلوماسيين البرجوازية للفروق بين الطبقات كعامل مهم جداً في الحياة الاجتماعية، بالإضافة إلى أنها لا تعتبر ميزة لهم من الناحية السياسية. فإذا ما تجاهلوا هذه الحقيقة فإنهم سيظهرون بمظهر وقح وكاذب.

وبصفة عامة، لا بد لنا أن نحترس من الظن بأن الجماهير العريضة غبية أكثر من اللازم. فالأحاسيس قادرة على الحكم على الأمور السياسية أكثر من العقل. لكن من الممكن الرد فوراً على من يرى أن الاعتماد على الأحاسيس دليل كاف على غياب عامة الناس لأن الديمقراطية السلمية ليست أقل سخفاً من ذلك، وهذا بالرغم من أن معظم مؤيديها تقريباً من الطبقة المتوسطة (البرجوازية). وطالما أن هناك من المواطنين من يتجرع ما تكتبه الصحافة الاشتراكية الديمقراطية يومياً، فإنهم سيصبحون جميعاً على المدى الطويل من نفس المزيج بالرغم من اختلاف أمزجتهم. وفي كل الحالات فإن المدير واحد - اليهود.

وعلياً أن نحرص على دعم معارضة الحقائق الثابتة. فلا يمكن أن ننكر حقيقة أن موضوع الطبقة الاجتماعية لا علاقة له بقضية المثل، بالرغم من أن هذا المطب قد استخدم أثناء الانتخابات. فالعجرفة الطبقيّة في قطاع كبير من شعبنا - بالإضافة إلى النظر إلى الطبقة العاملة باحتقار - واضحة وليست مجرد أحلام. لكنها لا تمثل سوى أفكار ما يسمى بطبقة المفكرين، فهم لم يدركوا حتى الآن أن الظروف التي يمكنها أن تمنع طاعوناً مثل الماركسية من الانتشار ليست قادرة بالطبع على استعادة ما فقد.

لن تستطيع الأحزاب البرجوازية - كما يسمون أنفسهم - أن تكسب طبقة العمال. وذلك لأنهما عالمان مختلفان عن بعضهما. فكل منهما لديه فكرة سائدة وهي أن عليه أن يحارب الآخر. لكن هذا القتال سيكون المنتصر فيه هو الماركسية فقط، وليس أحد هذين الطرفين.

وفي عام 1914م كان هناك قتال واضح ضد الاشتراكية الديمقراطية. لكن عدم وجود أي بديل عملي جعل من غير الممكن أن نتوقع فترة استمرار القتال.

وقبل الحرب بكثير كان رأيي كذلك أيضاً وهذا هو السبب الذي جعلني لا أنضم إلى أي من الأحزاب القائمة. وأثناء الحرب كنت مقتنعاً باستحالة الصراع مع الحزب الاشتراكي الديمقراطي سوى بالطريقة الشاملة، لكن تحقيق هذا الهدف يتطلب وجود حركة أكبر من مجرد حزب برلماني وهي لم تكن موجودة في ذلك الوقت على أي حال.

وكنيت أناقش تلك الحاجة مع زملائي، وهذا هو ما دعاني فيما بعد إلى أن أفتنع بفكرة العمل السياسي. وذلك لأنني كنت دائماً أؤكد لأصدقائي أن ذلك فقط هو ما جعلني أنشط في الانتخابات العامة بعد الحرب بالإضافة إلى عملي الحرفي. وأنا متأكد من أنني توصلت إلى هذا القرار بعد تفكير جاد طويل.



الدعاية الحربية



كلما نظرت إلى الأحداث السياسية من حولي كان يستحوذ على نفسي ذلك الدور الفعال الذي تلعبه الدعاية. وقد لاحظت أنها وسيلة تجيد الماركسية الاشتراكية استخدامها ببراعة وتعرف كيف تستفيد منها عملياً. وهكذا توصلت بسرعة إلى أن الاستخدام الصحيح للدعاية ما هو إلا فن في حد ذاته وأن أحزابنا البرجوازية تجهل هذا الفن. وقد أظهر الحزب الاشتراكي المسيحي فقط - وخاصة في عهد دكتور ليجر - قدراً من الكفاءة في استخدام هذه الوسيلة وهو مدين لها بكثير مما حقق من نجاح.

وفي أثناء الحرب أتيحت لنا أفضل الفرص لقياس النتائج الهائلة التي يمكن الحصول عليها من خلال الاستفادة من نظام دعاية يتم تطبيقه. ومرة أخرى ولسوء الحظ تركنا كل شيء للجانب الآخر. أما ما قمنا به نحن فقد كان أسوأ من سيء. وكان ذلك يعني الفشل التام لكل النظام الإعلامي الألماني، وقد كان الفشل واضحاً أمام كل جندي مما دفعني إلى أن أدرس مشكلة الدعاية بصورة أوسع. وقد أتيحت لي فرصة كبيرة لتعلم درس محدد حول هذا الأمر، وقد تعلمت ذلك من الأعداء لسوء الحظ، فقد استثمر العدو قصر نظرنا بكفاءة شديدة لدرجة أن من يقيم ذلك العمل يعتبره عبقرياً. وقد وجدت في تلك الدعاية التي قام بها العدو العديد من الدروس المستفادة. لكن للأسف لم تألفت تلك الدروس المستفادة انتباه العباقرة من جانبنا. فقد كانوا فوق كل ذلك، فهم أدركوا أن يقبلوا التعلم من أحد. وعلى أي حال، فقد كانوا غير راغبين أيضاً في التعلم بصدق.

فهل كانت لدينا أي دعاية على الإطلاق؟ للأسف، لا أرد سوى بالنفي فقط. فكل ما تم اتخاذه في ذلك الاتجاه لم يكن كافياً على الإطلاق، وقد ثبت منذ البداية أنه خاطئ وعديم والنفع وضار. أما مادته فقد كانت غير كافية. ومن الناحية النفسية كان خاطئاً تماماً. ولابد لمن يتناول الدعاية الألمانية بدقة أن يصل إلى نفس هذا الحكم عليها. فلم يكن شعبنا قادراً حتى على الإجابة على أبسط الأسئلة وهو: ما إذا كانت الدعاية وسيلة أم غاية؟

❖ | الدعاية وسيلة أم غاية؟

والدعاية ما هي إلا وسيلة، لذلك يجب أن يُحكم عليها من خلال الغاية التي وضعت من أجلها. فيجب أن تنظم بطريقة تمكنها من تحقيق الأهداف المرجوة منها. فمن الواضح

بالطبع أن أهمية الأهداف تتنوع من حيث علاقتها بالضرورة العامة، وعليه فإن الصفات الداخلية للدعاية تتغير بتغير الهدف. إن القضية التي كنا نحارب من أجلها أثناء الحرب هي أنبل وأرقى ما يناضل من أجله الإنسان، فقد كنا ندافع عن حرية واستقلال بلدنا وعن توفير الأمن والرفاهية لمستقبلنا وعن كرامة أمتنا. وعلى الرغم من كل الآراء المختلفة فإن هذه الكرامة موجودة أو لا بد لها أن توجد. وذلك لأن الأمة بلا كرامة ستفقد حريتها واستقلالها إن عاجلاً أم آجلاً. هذا بالإضافة إلى أن الحكم العادل جداً لجبل من الجبناء لن يؤدي إلى الحرية. فالعبد لا يمكن أن يكون مكرماً، وذلك لأن تلك الكرامة سرعان ما تصبح محل ازدراء من الجميع.

لقد شنت ألمانيا الحرب من أجل بقائها. وكان يجب أن يكون الهدف من دعايتها هو دعم روح القتال فيمن يخوضون هذا الصراع ودفعهم إلى النصر.

لكن، عندما تحارب الأمم من أجل بقائها على الكرة الأرضية، فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: "لكون أو لا نكون؟" ولابد من الإجابة عليه. ثم بعد ذلك ننحي كل الاعتبارات الإنسانية الأخلاقية جانباً، فهذه المثاليات ليست قيمة قائمة بذاتها في مكان ما، لكنها من صنع الخيال المبدع للإنسان، وهي تختفي عندما يختفي الإنسان. والطبيعة لا تعرف أي من تلك المثل، بالإضافة إلى أنها من الصفات التي تتحلّى بها أمم محددة أو أعراق بعينها، وتعتمد قيمتها على ما تقوم عليه من أحاسيس عرقية. كما أن المثاليات الإنسانية والأخلاقية تختفي باختفاء ساكني الأرض فهم من وضع تلك المثاليات وحدد معاييرها.

وكل تلك القيم تتراجع إلى المرتبة الثانية من الأهمية عندما تتنازل الأمة من أجل وجودها. كما يجب منعها من التدخل في الصراع بمجرد أن تبدأ في تهديد قوة الأمة التي شنت الحرب. فهذا هو الأثر الوحيد الملموس دائماً لتلك القيم إن تدخلت في أي صراع.

❖ الحرب.. والاعتبارات الأخلاقية:

أما فيما يخص الجزء الذي تلعبه أحاسيس البشر فقد قال مولتك أن أهم شيء في وقت الحرب هو التوصل إلى قرار بأسرع ما يمكن، كما أن أكثر أنواع القتال قسوة هي أيضاً أكثرها إنسانية. فعندما يحاول البعض الرد على هذا التعقل بأحاديث طنانة عن الأخلاقيات وغيرها، فهناك رد وحيد فقط على ذلك. وهو أن القضية الهامة التي يبدأ بسببها القتال دفاعاً عن وجود الأمة يجب ألا يحل محلها أي اعتبارات أخلاقية. فقد كان نير العبودية وسيظل دائماً من أسوأ التجارب التعسة التي يمكن أن يتحملها البشر. فهل يرى أحفاد "شوابنج"⁽¹⁾ أن قدر ألمانيا هو مسألة أخلاقية اليوم؟ بالطبع أنا لا أناقش هذه القضية مع

(1) حي شوابنج في ميونخ هو حي الفنانين وفيه يقيمون أستوديوهاتهم ويلقون محاضراتهم، وتتجمع فيه الطبقة البوهيمية منهم.

اليهود وذلك لأنهم مخترعو هذه الثقافة. حيث يعتبر وجودهم ذاته رفضاً مجسداً لما خلقه الله من جمال في خلقه.

وبما أن التفكير فيما هو جميل وما هو إنساني لا علاقة له بالحرب، فهي أيضاً أفكار لا علاقة لها بالدعاية الحربية.

وأثناء الحرب كانت الدعاية وسيلة تستخدم من أجل الوصول إلى غاية. وهذه الغاية هي الكفاح من أجل بقاء أمة ألمانيا. وعليه فيجب النظر إلى الدعاية من حيث خدمتها لهذا الغرض. وهنا تصبح الأسلحة الأكثر فتاكة هي الأكثر إنسانية إن كانت ستساعد في التوصل إلى الحسم، كما أن الطرق التي تستخدم لضمان بقاء الأمة وكرامتها هي الطرق التي يمكن وصفها بأنها جيدة وجميلة. وهذه هي الطريقة الوحيدة الممكنة التي يمكن أن تستخدم في الدعاية الحربية في صراع لا ينتج عنه سوى الحياة أو الموت.

فإذا ما أدرك من يملكون ما يسمى بمراكز السلطة ذلك، فلا يجب أن تكون الطريقة المستخدمة للدعاية الحربية كسلاح في الحرب والأهداف المستخدمة فيها تلك الدعاية غير محددة. فما هذه الدعاية سوى سلاح، وهو سلاح مرعب حقاً إن كان في يد من يعرفون كيف يستخدمونه.

❖ | لمن نوجه الدعاية؟

والسؤال الثاني ذو الأهمية الشديدة هو: لمن نوجه الدعاية ؟ هل نوجهها إلى الطبقة المتعلمة ؟ أم للطبقة الأقل تعليماً ؟

على الدعاية أن تكون موجهة للجماهير العريضة من الناس، وبالنسبة للطبقة المتعلمة أو من يسمون بهذا الاسم اليوم، فإن الدعاية ما هي إلا شرح علمي. والدعاية لا علاقة لها بالعلم إلا في قليل جداً، مثل استخدام الإعلان للوحة فنية، وذلك عند مناقشة ما تعنيه اللوحة في الإعلان والرسالة التي تقدمها من خلاله. والفن المستخدم في الملصقات الدعائية تحدده قدرات المصمم على جذب انتباه الجماهير من خلال الشكل والألوان التي يستخدمها. كما أن ملصق الإعلان عن معرض للفنون ليس له أي هدف آخر سوى إقناع عامة الناس بأهمية المعرض. وكلما كان الفن المستخدم في الملصق جيداً ، حقق هدفه بطريقة أفضل. لكن الملصق الإعلاني لا يمكنه أن يأخذ مكان الأعمال الفنية التي تعرض في قاعات الفن لمجرد أنه يمكن أن يؤثر في عامة الناس وينقل لهم الرسالة المرجوة من ورائه. فهذا شيء آخر مختلف تماماً. لذلك فمن يرغبون في دراسة فن العرض، يدرسون شيئاً آخر مختلفاً تماماً عن عرض الملصق، كما أن مجرد التجول في صالات المعارض لن يفيد في هذا المجال إطلاقاً. فلا بد للطالب دارس الفن أن يدرس كل قطعة معروضة بعناية شديدة وببطء حتى يكون رأياً مناسباً عنها.

ويمكن تطبيق نفس الأمر عند الحديث عن الدعاية. فالغرض من الدعاية ليس مجرد توجيه فرد واحد بل جذب انتباه عامة الناس إلى أمور محددة ولا بد أن تدرك الجماهير أهمية هذه الأمور بهذه الطريقة الدعائية.

❖ | فن الدعاية:

وفن الدعاية هنا يضع الأمر بوضوح وقوة أمام عقول الناس حتى تتكون قناعة عامة بوجود حقائق محددة لا لبس فيها وبضرورة وجود أشياء أخرى لا بد منها. ولكن لأن هذا الفن ليس غاية في حد ذاته ولأن هدفه هو نفس هدف المصق الإعلاني - وهو جذب انتباه عامة الناس وليس مجرد توجيه من لديهم رأي قائم على علم ودراية بالأمر أو من يريدون تكوين رأي على أسس موضوعية - وذلك لأن هذا ليس هو الغرض من الدعاية، فلا بد للدعاية أن تخاطب مشاعر عامة الناس وليس عقولهم.

ولا بد للدعاية أن تقدم بطريقة شعبية وأن تراعي الفروق العقلية حتى لا تكون أعلى من مستوى عقول عامة الناس، فهي موجهة إليهم أولاً. لذلك فلا بد لها أن تخاطب الناس بلغة تناسب أqlهم علماً ومعرفة. فعندما يتطلب الأمر جذب انتباه أمة بأكملها إلى ما تقدمه الدعاية - مثلما يحدث في الدعاية الحربية - فلن يكون هناك مجال للعناية الشديدة باحتمال وجود كبار المتقنين بين عامة الناس الذين نخاطبهم.

وكما كانت هذه الدعاية معتدلة وهي تخاطب عواطف الجماهير، كان نجاحها حاسماً. وهذا هو أهم اختبار لقيمة تلك الدعاية وليس مجرد استحسان طبقة محددة من المتقنين أو الفنانين.

ويمكن فن الدعاية في القدرة على إيقاظ مخيلة عامة الناس من خلال تسلسلها إلى مشاعرهم عن طريق إيجاد أفضل الصيغ النفسية التي تجذب انتباههم وتروق لقلوبهم. فإن لم يكن ذلك مفهوماً لهؤلاء الذين هم في موقع المسؤولية عن تلك الدعاية عندنا فهذا دليل على تفاهتهم وقصور عقولهم.

فبمجرد أن ندرك ضرورة تركيز قوى الدعاية التحفيزية على عامة الناس فإننا سنصل إلى ما يلي من دروس هامة : من الخطأ أن ننظم الدعاية المباشرة بطريقة أنظمة التوجيه العلمي.

❖ | كيف تخاطب الجماهير؟

فالقدرات الحسية عند الجماهير محدودة جداً وذكائهم محدود. ومن جهة أخرى، فهم سريعو النسيان. فإذا كانت الحالة كذلك، فيجب أن تنحصر كل الدعاية الفعالة في وصفات مقولبة. ولا بد من ترديد الشعارات باستمرار وإصرار حتى يفهمها آخر فرد من أفراد

عامة الناس. فإذا نسينا ذلك المبدأ وقمنا بمحاولات للتجريد والعمومية ستفقد الدعاية فاعليتها، وذلك لأن عامة الناس لن يفهموا ما يقدم لهم بهذه الطريقة. لذلك، فكلمنا وصالت الرسالة المرجوة إلى كثير من الناس، تمكنت الدعاية من اكتشاف الخطة المناسبة لها أكثر من الناحية النفسية.

ومن الخطأ أن نهزأ بقدرات العدو كما فعلت الصحف الفكاهية في النمسا وألمانيا، فهذه نقطة أساسية تقوم عليها دعايتها. فهذا مبدأ خاطئ من أساسه، وذلك لأن جنودنا عندما يواجهون العدو يصلون إلى انطباع مختلف تماماً. وهنا يكون لذلك الخطأ آثاره المدمرة. فبمجرد أن يدرك الجندي الألماني قوة العدو الذي يجب عليه أن يقاقله يشعر بأنه قد خدع بما قدم إليه من معلومات مضللة. وهكذا فإن تلك المعلومات لا ترفع من روحه المعنوية وتقويه بل تأتي بنتيجة عكسية تماماً. ثم ينهار الجندي في النهاية.

❖ كفاءة الدعاية البريطانية والأمريكية وقصور دعايتها:

وفي المقابل، نجد أن الدعاية البريطانية والأمريكية كانت ذات كفاءة، فقد صورت الألمان لشعوبها على أنهم برابرة وهمج، كما أنها أعدت الجنود لويلات الحرب وحذرتهم من أي أوهم. كما أن الأسلحة المخيفة التي واجهها هؤلاء الجنود في الحرب لأول مرة أكدت على أن المعلومات التي تصلهم من حكوماتهم صحيحة فزادت ثقتهم فيها. وبذلك زاد سخطهم وكرهيتهم لعدوهم سيئ السمعة. كما أن الخراب المخيف الذي أحدثته الأسلحة الألمانية كان مثلاً آخر يوضح وحشية وهمجية هؤلاء البرابرة. أما الحلفاء فلم يتركوا وقتاً لجنودهم للتفكير فيما تحدثه أسلحتهم من دمار. لذلك فإن الجندي البريطاني لم يشعر بأن ما تلقاه من معلومات وهو في وطنه كان غير صحيح. ولسوء الحظ، كان العكس هو الصحيح عند الألمان، فقد أدركوا أخيراً أن كل ما قيل لهم في بلادهم كان مجرد خداع وغش. وقد حدث ذلك لأنهم وثقوا فيما قدمته لهم الدعاية الحربية في الوطن والتي تتغنى بما لدينا من مواهب خاصة يشيد بها بعض الأغبياء، ولم يتركوا فرصة للعقول الذكية لتتحكم في تلك الدعاية.

وبهذا قدمت لنا الدعاية الألمانية مثلاً لا يقارن حول كيفية عدم القيام بالدور الإعلامي على الوجه الصحيح، وما هذا المثال سوى نتيجة للإخفاق التام في عدم الأخذ بأي اعتبارات نفسية في الحساب.

أما العدو فقد قدم - على أي حال - ذخيرة من المعارف يمكن أن يتعلمها أصحاب العقول الذين لم تتصلب مداركهم بعد ولا تزال عيونهم مفتوحة ممن استمعوا لدعاية العدو لمدة أربعة أعوام ونصف.

وأسوأ شيء على الإطلاق أن الشعب لم يعرف أول شرط ضروري لأي نوع من

أنواع الدعاية، وهو الاتجاه المحدد المنظم تجاه كل مشكلة يتم تناولها. وقد ارتكبت أخطاء كثيرة جداً في هذا المجال منذ بداية الحرب لدرجة تجعلك تشك أن ذلك يعود فقط إلى حماقة وغباء الشعب المستقبل لها.

فماذا يمكننا أن نقول - على سبيل المثال - عن ملصق يعلن عن نوع جديد من الصابون بالتركيز على أفضل مواصفات الأنواع المنافسة؟ ليس لنا سوى أن نهز رؤوسنا. نفس الشيء يحدث في الدعاية السياسية. فليس الهدف من الدعاية أن تصدر أحكاماً حول حقوق متعارضة وإعطاء كل منها حقه، بل أن تؤكد على ما نراه من الحق. كما أن الدعاية لا تقدم الحقيقة المجردة بالطريقة التي تخدم الطرف الآخر، ولا تقدمها طبقاً لقواعد العدل النظرية، بل تقدم فقط ذلك الجزء من الحقيقة الذي يتمشى مع مصالحها.

ومن الخطأ الشديد أن تناقش الدعاية من المسؤول عن اندلاع الحرب وأن نعلن أن المسؤولية لا تنحصر في ألمانيا فقط. بل يجب أن نلقي بالمسؤولية كاملة على أكتاف العدو دون مناقشة على الإطلاق.

لكن، ما هي نتائج ذلك؟ فالشعب لا يتكون من دبلوماسيين وأساتذة قانون ولا من أشخاص قادرين على إصدار أحكام تقوم على العقل طبقاً لشروط محددة، بل هم حشود من البشر يتأرجحون دائماً ما بين فكرة وأخرى. لذلك فبمجرد أن تشير الدعاية إلى أن عدونا له بعض الحق فإنها تضع الأساس لتقدير مدى عدالة قضيتنا. والجماهير لا تستطيع أن تدرك الحدود بين أخطاء العدو وأخطائنا. وهنا تفقد الجماهير الثقة وتتردد وخاصة عندما لا يقع عدونا في نفس الخطأ بل يلقي بكامل المسؤولية علينا. وأكبر دليل على ذلك أن الشعب أصبح أخيراً يصدق ما يقال في دعاية العدو، فهي دعاية متسقة ومتماسكة، ولا تشبه ما يقال في دعايتنا. وقد تزايد ذلك كلما تزايد الوله بالموضوعة التي أمنها شعبنا. فقد أصبح كل فرد يعتني بما يحدث من ظلم للعدو حتى وإن كان ذلك يسبب لنا إصابات خطيرة أيضاً.

وكان من الطبيعي ألا يشعر الشعب بأن من هم في موقع المسؤولية قد أخفقوا في تعلم أي شيء يخص هذا الموضوع.

❖ | الدعاية والعواطف:

إذا كان أغلب أفراد أمة ما أنثويي الطباع والمظهر، فمن الممكن قيادتهم من خلال العواطف وليس من خلال العقل الرزين. فالعواطف - على أي حال - ليست معقدة بل بسيطة ومتماسكة. وهي ليست متعددة الاختلافات بل لا يوجد فيها سوى الحب والكراهية والصحيح والخاطئ والحقيقة والزيف. وهي لا تعرف أبداً أنصاف الحلول. وقد أدركت

الدعاية الإنجليزية بالذات هذا المعنى بطريقة مذهلة وطبقت ما تعلمته تطبيقاً عملياً. فلم تسمح بتسلل أي نوع من أنواع أنصاف الأحكام حتى لا يكون هناك أي شك.

والدليل على إجادتهم لفهم مشاعر عامة الناس بسيط وواضح في سياستهم التي نشرت حكايات عن الرعب والاعتداءات المتوحشة وتزامن ذلك مع ما يقع من اعتداءات فعلاً. وبذلك تمكنت وبراعة شديدة من جعل الجبهة متماسكة بالاعتماد على أساس أخلاقي صلب حتى في وقت الهزائم الكبرى. كما أنهم اتهموا عدوهم الألماني بأنه المسئول الوحيد عن شن الحرب - وهذا محض افتراء وخداع - ونشروا ذلك الإثم بصورة ممتازة ومحسوبة بدقة لتصل إلى الجماهير، فم يعرفوا أن جموع الشعب دائماً ما تتطرف في مشاعرها. وبهذه الطريقة صدق الشعب هذه الكذبة الشريرة.

كما أن فاعلية هذا النوع من الدعاية تتضح لأنه - وبعد مرور أربع سنوات ونصف - لم يستمر فقط في دعايته بل استطاع أن يضعف من عزم شعبنا داخل الوطن.

وبما أن دعايتنا لم تحقق أي نتائج مشابهة فلن نتناول أي شيء يذكر، فجرائيم عدم الكفاءة قد غزتها منذ البداية وذلك بسبب ما هي فيه من لبس وغموض. كما أن طبيعة محتوى تلك الدعاية لا تجعلنا نتوقع أنها قادرة على تحقيق الانطباع المطلوب في قلوب الجماهير. ولم يقتنع بأن الحديث عن السلام بهذا القدر من التحمس يمكن أن يؤدي إلى انتقاد روح الموت من أجل الوطن في رجالنا سوى رجال الدولة عندنا فقط. لذلك لم يكن هذا المنتج الخاص بنا⁽¹⁾ عديم الأهمية فقط بل ضار أيضاً.

❖ الدعاية سلاح مهم من أسلحة الحرب:

وبغض النظر عن الموهبة المستخدمة في تنظيم الدعاية، فلن يكون لها أي نتيجة إن لم يكن هناك أي اهتمام بتلك المبادئ الأساسية. فالدعاية يجب أن تكون محدودة في عدد الموضوعات البسيطة تقدم مرات ومرات. فالمثابرة - كما حدث في عدد لا حصر له من الحالات - هي أهم وأول شرط للنجاح.

وليس لحماية الأخلاق وذوي العقول الكبيرة أن يشاركوا في توجيه الدعاية على وجه الخصوص. فسرعان ما يحولها حماة الأخلاق إلى ما يشبه حفلات الشاي الأدبية. أما بالنسبة للمجموعة الثانية فعلينا أن نحترس من أنهم في حالة سعي دائم وراء كل ما يسبب الإثارة.

فهؤلاء عادة ما يملون من كل شيء. وهم في سعي دائم وراء التغيير، كما أنهم غير

(1) يقصد الدعاية السيئة.

قادرين على تصوير احتياجات من يعيشون بينهم في حي واحد، فما بالك لو قلنا: إن نفهم تلك الاحتياجات وأصحاب العقليات الكبيرة هم أول من ينتقد الدعاية، أو رسالتها على الأقل، فهذا يبدو بالنسبة لهم شيء عادي لا يقوم به أحد. وهم في بحث دائم عما هو جديد وفي تشوق دائم للتغيير، لذلك فهم أعداء كل جهد يبذل للتأثير على جماهير الشعب بطريقة فعالة. ففي اللحظة التي تتوجه فيها رسالة الحركة الدعائية طبقاً لرغباتهم ستصبح مفككة ومبعثرة.

وليس من أهداف الدعاية أن تحدد سلسلة من التعديلات العاطفية من أجل إسعاد طبقة محددة. فواجبها الأساسي هو إقناع عامة الناس الذين يحتاجون لوقت لفهم المعلومات المقدمة إليهم والتفكير فيها ومن ثم استيعابها، لذلك فالتكرار المستمر هو الطريقة الناجحة لطبع أفكار محددة في ذاكرة هذه الجموع.

ويجب أن يركز أي تغيير يحدث في موضوع رسالة الدعاية على الوصول إلى نفس النتيجة. كما يجب عرض الشعار الرئيسي بعدة طرق ومن عدة زوايا، لكن في النهاية يجب التأكيد على استخدام نفس الطريقة. وبهذه الطريقة فقط يمكن للدعاية أن تكون ذات آثار متماسكة وفعالة.

ويمكن فقط الوصول إلى النجاح في النهاية عن طريق التمسك بتلك الخطوط العامة واتباعها بدقة واتساق. وهنا يمكننا أن نجني ثمار هذه الطريقة المثابرة وهي تتمثل في نتائج مذهشة لا يمكن تصديقها.

ويعتمد نجاح أي إعلان سواء كان ذا صبغة تجارية أو سياسية على مدى الثبات والاستمرار المستخدمين فيه.

وفي هذا المجال أيضاً فإن الدعاية التي نظمها أعداؤنا تضع أمامنا مثلاً ممتازاً. فقد قصرت عملها على موضوعات قليلة. وهي موضوعات أعدت من أجل عامة الناس، وكانت هذه الموضوعات تتكرر بلا ملل. وبمجرد أن تثبت هذه الموضوعات التي عُرضت على الشعب والطريقة التي عرضت بها نجاحاً وفاعلية، يتم التمسك بها دون أدنى تعديل طوال فترة الحرب. وفي البداية يبدو هذا الأمر سخيفاً ثم يعتبر مزعجاً وفي النهاية يتم تصديقه.

لكنهم فهموا شيئاً آخر في إنجلترا: وهو أن احتمال نجاح استخدام هذا السلاح يتوقف على استخدام عامة الناس له، ولذلك فعندما استخدموه على هذا الأساس كانت له عائدات كبيرة.

فقد اعتبروا الدعاية في إنجلترا كسلاح من أول أسلحة الحرب، أما نحن فقد اعتبرناها آخر أمل للحياة يتعلق به العاطلون العاملون بالسياسة والأبطال من ممارسي حق الإضراب. وبصفة عامة، كانت نتائج حربنا الدعائية سلبية.



بدأ العدو في عام 1915م دعايته بين صفوف قواتنا. وقد تزايدت كثافة هذه الدعاية مع بداية عام 1916م، ومع بداية عام 1918م تحولت الدعاية إلى عاصفة. ويمكننا الآن تقييم هذه العاصفة خطوة خطوة. فقد بدأ جنودنا تدريجياً يفكرون بالطريقة التي يريدها العدو. ولم تظهر أي دعاية مضادة من الجانب الألماني.

وفي ذلك الوقت كانت قيادة قواتنا - برئاسة قائد قدير وذو عزم - راغبة ومستعدة لأن تأخذ بزمام الحرب الدعائية أيضاً. لكن ولسوء الحظ لم يكن لديهم الوسائل التي تمكنهم من ذلك. كما أن قادة الجيش يرتكبون خطأ نفسياً إن هم تولوا مهمة تدريب العقول. فذلك لا بد أن يأتي من الجبهة الداخلية حتى يكون مؤثراً. وبهذه الطريقة فقط يمكن للدعاية أن تكون مؤثرة في رجال استمروا في القيام بأعمال لا أخلاقية لمدة أربعة أعوام تقريباً وذاقوا كل أنواع الحرمان من أجل هذا الوطن. لكن ... ماذا فعل الشعب في الداخل؟ وهل كان هذا الفشل الداخلي بسبب جهل أم نية الخبيثة؟

وفي صيف عام 1918م اتبعت الصحافة الألمانية سياسة غير مناسبة بالمرة، بل إنها تعتبر جرماً غريباً. فقد كنت أسأل نفسي سؤالاً يزيد من غضبي يوماً بعد اليوم وهو: أليس لدينا أي شخص قادر على إيقاف هذا التدمير المستشري في جنودنا البواسل؟

فماذا حدث في فرنسا خلال تلك الأيام من عام 1914م التي غزا فيها جيشنا هذه الدولة وتقدم من نصر إلى آخر؟ وماذا حدث في إيطاليا عندما انهارت قواتها على جبهة "ايسونزو"؟ ثم، ماذا حدث في فرنسا مرة أخرى خلال فصل الربيع من عام 1918م، عندما تمكنت الفرق الألمانية من احتلال المواقع الفرنسية الرئيسية في قصف مدفعي خاطف ومكثف ضرب باريس من مسافة بعيدة؟

كيف تمكنوا من دفع العزيمة الواهنة للقوات المنسحبة وضخ نيران الحماس الوطني فيهم! كيف تمكنت دعايتهم وقدراتهم من إيقاظ روح القتال عند الجماهير في هذه الجبهة الكسيرة وزرعت في رؤوس الجنود اعتقاداً راسخاً بالنصر في النهاية.

❖ | آه.. لو كنت مسئولاً عن الدعاية!؟

وفي نفس الوقت، ماذا كنا نحن فاعلين في نفس هذا المجال؟ لا شيء أو حتى أسوأ من لا شيء. فكم غضبت وشعرت بسخط شديد مرة تلو الأخرى كلما قرأت الصحف

الحديثة وأدركت طبيعة اغتيال عامة الناس التي كانت مستخدمة، وذلك من خلال التأثير على عقول الشعب والجنود. وقد تعذبت أكثر من مرة وأنا أفكر أن لو كانت العناية الإلهية قد أودعت مسئولية الدعاية الألمانية في يدي بدلاً من أيدي غير المؤهلين الجهلة من المجرمين والضعاف، فربما كانت نهاية هذا الصراع قد تغيرت.

وخلال تلك الأشهر شعرت بأن القدر قد أبقاني في جبهة القتال وفي موقع يمكن لرصاصة طائشة صادرة من زنجي⁽¹⁾ أو غيره من جنود الأعداء أن تنتهي حياتي، بينما يمكنني أن أقدم الكثير لبلادنا الأم لو كنت في مكان آخر. كما أنني كنت جريئاً بقدر كاف لدرجة جعلتني أتوقع أنه كان بإمكانني إدارة أعمال الدعاية بطريقة ناجحة.

لكنني لم أكن معروفاً، كنت مجرد واحد من بين ثمانية ملايين. لذلك فقد كان من الأفضل لي أن يظل فمي مغلقاً وأن أقوم بواجبي في الموقع الذي قدر لي أن أكون فيه قدر استطاعتي.

وفي صيف عام 1915م أُلقيت أول منشورات العدو على خنادقنا. وهي كلها تحكي نفس القصة بطريقة ما أو بأخرى، لكن مع اختلاف بسيط في الصياغة. وخلاصة القصة هي: "إن الإجهاد يدب في أوصال ألمانيا وأن الحرب سوف تنتهي على أي حال لكن احتمالات انتصارنا تتضاءل يوماً بعد يوم، والناس في الجبهة الداخلية مشتاقون للسلام، وهذا هو ما لا يسمح به القيصر والقيادات العسكرية، وأن العالم الذي يعرف ذلك جيداً لا يشن حرباً على الشعب الألماني بل على الرجل المسئول عن الحرب وهو القيصر، لكن هذا النزاع لن ينتهي قبل القضاء على عدو السلام العالمي وهو القيصر. لكن، عندما تنتهي الحرب فإن كل الشعوب الديمقراطية الحرة ستقبل الشعب الألماني عضواً في عصبة السلام العالمي. وسوف يحدث ذلك بمجرد القضاء على ذلك العسكري القادم من بروسيا."

ومن أجل توضيح وتجسيد كل ذلك، كانت المنشورات عادة تحتوي على "رسائل من الوطن" يؤكد محتواها ما تبثه الدعاية الإعلامية للعدو.

❖ الدعاية المسيئة لبروسيا.. وخطابات النسوة!

وبصفة عامة، كنا نضحك على هذه المحاولات فقط. كنا نقرأ المنشورات ونرسلها إلى رئاسة القاعدة ثم ننساها إلى أن تأتي الرياح بمنشورات جديدة إلى داخل الخندق. وكانت هذه المنشورات تسقطها طائرات تستخدم خصيصاً لهذا الغرض.

(1) لا يخفى هتزر تعصبه وعنصريته.. فهو يسخر من الجنود الأفارقة السود الذين جندتهم بريطانيا وفرنسا واستجلبتهم من المستعمرات ليحاربوا في صفيهما. (الناشر)

لكن هناك شيئاً لافتاً في تلك المنشورات، فقد كانت المنشورات الملقاة على قطاع القوات البافارية تسعى جاهدة إلى إثارة المشاعر ضد البروسيين، وقد أكدت تلك المنشورات للجنود أن بروسيا - وبروسيا فقط - هي المذنبة والمسئولة عن إشعال حرب دائمة، كما أكدت عدم وجود أي عداة تجاه البافاريين، لكن من المستحيل مساعدتهم طالما أنهم ملتزمون بخدمة مصالح بروسيا ويحاولون درء الخطر عن بروسيا.

وقد بدأت هذه الدعاية المتواصلة في التأثير الحقيقي على جنودنا في عام 1915م. فقد بدا الشعور المعادي لبروسيا ملحوظاً في صفوف قوات بافاريا، لكن المسؤولين لم يفعلوا أي شيء مضاد لهذه الدعاية. وهذا يعتبر جريمة أكبر بكثير من مجرد السهو، وذلك لأنه - إن عاجلاً أو آجلاً - لن يكونوا مسئولين وحدهم عن التكفير عن ذنب الحرب بل الأمة الألمانية كلها، وبالتالي البافاريين أيضاً. وقد حققت دعاية العدو نجاحاً لا شك فيه في هذا الاتجاه بدءاً من عام 1916م.

وبنفس الطريقة، كانت تأتينا خطابات مباشرة من الوطن ولها نفس الأثر. لذلك لم يصبح العدو بحاجة إلى أن يرفق مثل هذه الخطابات مع منشوراته. كما لم يحدث أي شيء يحذر مما يأتينا من داخل الوطن من خطابات سوى تحذيرات شفوية يلقاها القادة التنفيذيين الكبار. وقد غرقت الجبهة بكاملها في السموم التي ترسلها نساء بلا عقول من داخل أرض الوطن دون أن يفكرن ولو للحظة أن فرصة العدو الأخيرة في النصر النهائي تتضاعف بسبب ذلك العمل أو في أنهن يضاعفن من آلام رجالهن على الجبهة بتلك الفعلة. وقد كلفتنا تلك الخطابات الغبية التي كتبتها نساء ألمانيات أرواح مئات من الآلاف من جنودنا.

لذلك وفي عام 1916م كانت هناك عدة ظواهر لافتة. كانت الجبهة بكاملها تشكو وتتذمر، كما كانت غير راضية عن كثير من الأشياء التي اعتادت عليها من قبل. فبينما هم جوعى وصابرون، وأقاربهم في الداخل في شدة، كان هناك في أحياء أخرى حفلات وعريضة. نعم، حتى على الجبهة ذاتها لم تكن الأمور على ما يرام من هذه الناحية.

❖ عودة الجرحى.. وجبناء الحرب..

فحتى في المراحل الأولى من الحرب اعتاد الجنود الشكوى من تلك الأمور، لكن كان هذا النقد يواجه بالرد: "هذه أمور داخلية." فيتوقف من كان يشكو ويتذمر عن الشكوى ويواصل مهامه في صمت، كما لو كانت الأمور طيبة. كما أن المجموعة التي كانت تبدي علامات عدم الرضا منذ لحظات، تدافع الآن عن خندقها بكل قوتها كما لو كان قدر ألمانيا قد تعلق بتلك الياردات القليلة من الأرض المحفور فيها الخندق. وبهذا ظل الجيش القديم

متألقاً في أداء واجبه. لكن تغيراً مفاجئاً في حياتي وضعني في مكان عايش في هذا التضاد بين الجيش والجهة الداخلية.

ففي نهاية شهر سبتمبر عام 1916م أرسلت فرقتي العسكرية إلى معركة "سوم". وكان ذلك بالنسبة لنا بداية لسلسلة من الأعمال الثقيلة، وكان الانطباع السائد هو أننا ذاهبون إلى الجحيم لا محالة وليس إلى الحرب. لكننا تجمّلنا أسابيع من القصف المدفعي المتواصل، وكنا أحياناً نتخلى عن أجزاء من الأرض ثم نستردها فيما بعد مرة أخرى، لكننا لم نستسلم أبداً. وفي السابع من أكتوبر عام 1916م أصبت لكنني كنت محظوظاً لأنني استطعت العودة إلى خطوطنا، ثم أمر بعد ذلك بنقلي في قطار الإسعاف إلى ألمانيا.

وكان عامان قد مرّا منذ أن غادرت الوطن لكنهما كانا في مثل تلك الظروف يبدوان كدهر لا ينتهي. فلم أكن أعرف كيف يبدو الناس بدون ملابس عسكرية. وفي مستشفى الإخلاء في "هرميس" فزعت عندما سمعت فجأة صوت امرأة ألمانية تعمل ممرضة وهي تتحدث مع أحد المصابين المجاورين لي. عامان كاملان، مروا دون أن أسمع صوت أي امرأة.

وكلما اقترب قطار الإسعاف من ألمانيا، شعر كل منا بعدم الراحة. فقد رأينا في الطريق كل تلك الأماكن التي مررنا عليها قبل عامين وكنا لا نزال منطوعين صغار، ثم أخيراً رأينا أول بيت ألماني بمثلثاته الشهيرة العالية والرسوم على النوافذ، إنه الوطن !

يا له من تغيير ! من أرض معركة "سوم" الجرداء إلى الأسرة البيضاء النظيفة داخل هذا المبنى الرائع. وقد ترددت في البداية قبل أن أدخل فيه. كما أنني اعتدت على وجودي في هذا العالم الجديد مرة أخرى ببطء شديد. لكن هذا العالم كان للأسف مختلف من عدة أوجه.

فهنا نفتقد روح الجنود على الجبهة، ولأول مرة أقابل شيئاً لم يكن معتاداً على الجبهة حتى ذلك الوقت وهو الافتخار بالجبن. فقد كنا نستمع إلى الشكوى والتذمر على الجبهة لكن ذلك لم يصل أبداً إلى درجة التمرد أو الافتخار بالخوف. لا .. فعلى الجبهة الجبان ليس له وصف آخر سوى الجبن، وجميع من حوله بلا استثناء يحتقرون جبنه، كما أنهم يحترمون البطل جداً في نفس الوقت. لكن هنا في المستشفى تختلف هذه الروح من عدة جوانب. فمثيرو الشغب من محبي الكلام منشغلون هنا بالسخرية الشديدة من الجندي الجيد وبتصوير الجندي الضعيف الراكع الجبان بصورة زاهية الألوان. وكان اثنان من البؤساء من أشباه الأدميين مسؤولين عن هذا الافتراء والتشويه. وقد افتخر أحدهم بأنه أصاب يده عمداً بسلك شائك حتى يرسلوه إلى المستشفى. وبالرغم من أن جرحه كان سطحياً إلا أنه يرقد سليماً هنا في المستشفى منذ وقت طويل جداً وأنه سيبقى هنا إلى الأبد. فهناك بعض

من ساعده على ذلك باستخدام الغش والخداع. كما سبق وأرسل إلى هنا في قطار الإسعاف باستخدام الغش والخداع. وكان هذا الشيء عادة ما يفخر بمكره بوقاحة ويعتبر أن ما فعله دليل على الشجاعة التي يعتبرها أكثر من شجاعة الجنود الأبطال الذين ماتوا في الحرب. وقد استمع الكثير منا إلى هذا الحديث في صمت، لكن هناك آخرين أعربوا عن ترحيبهم بما فعله هذا الجندي.

أما بالنسبة لي شخصياً، فقد كنت أعتبر أن هذا المحرض لا يجب أن يسمح له بالتواجد في مكان كهذا. فماذا يمكن أن يحدث؟ لابد أن يعرف المسئولون عن المستشفى هنا من هو هذا الرجل، لكنهم عرفوا بالطبع. ولم يفعلوا أي شيء حياله حتى الآن.

﴿ الجنود الألمان في الجبهة.. وشعب الله المختار قابع في المكاتب! ﴾

وبمجرد أن استطعت المشي مرة أخرى طلبت تصريحاً لزيارة برلين. الحاجة المرة واضحة في كل مكان. المدينة الكبيرة بمن فيها من ملايين البشر كانت تعاني من الجوع. كان الحديث المتكرر الذي أسمعه في أماكن الترفيه وفي نزل الجنود هو نفس ما سمعته في المستشفى. وكان لدي انطباع بأن متعمدي الإثارة يرتادون تلك الأماكن لنشر آرائهم.

لكن الأحوال كانت أسوأ بكثير في ميونخ. فبعد خروجي من المستشفى أرسلت إلى كتبية احتياط هناك. فشعرت بأنني في مدينة غريبة. فالغضب والتأملل والشكوى يواجهونني في كل مكان أذهب إليه. وكان ذلك بسبب الطريقة الخرقاء التي يتعامل بها الضباط غير المكلفين مع الجنود العائدين من الجبهة، فهم لم يمضوا يوماً واحداً على الجبهة ولذلك فهم لا يعرفون كيف يتعاملون مع قدامى الجند. وكان من الطبيعي أن يتحلى هؤلاء الجنود بصفات أصبغتها عليهم حياة الخنادق. لكن ضباط فرق الاحتياط لا يعرفون هذه الصفات ولم يمارسوها. لذلك كان الناس يقدرّون الجنود أكثر مما يفعل ضباط المراكز الرئيسية في الوطن. كان فن التخفي يعتبر دليلاً على الذكاء الشديد والإخلاص للواجب يعتبر علامة ضعف وتعصب. وكانت المكاتب الحكومية مليئة باليهود. حتى أننا يمكننا أن نقول: إن كل موظف كان يهودياً وكل يهودي كان موظفاً. وقد فوجئت بهذا العدد من أفراد الشعب المختار في المكاتب وقارنتهم بالأعداد القليلة جداً لهم على خطوط النار.

وكان الوضع أسوأ في عالم الأعمال. حيث أصبح لا غنى لهذا العالم عن اليهود. فقد بدأوا في امتصاص دم الأمة مثل الحشرات الطفيلية. ومن خلال الشركات الجديدة التي أنشأوها بسبب الحرب وجدوا الطريقة التي يسيطرون بها على تجارة الدولة بحيث لا تتم أية صفقات سوى من خلالهم.

كما كان هناك تركيز خاص على المركزية المطلقة. لذلك كان كل الإنتاج في عامي 1916-1917م تحت سيطرة التمويل اليهودي.

لكن ، لمن اتجه غضب الشعب ؟ كنت أرى اليوم المحتوم يقترب وكان لابد من حدوث الانهيار إن لم تتخذ إجراءات وقائية صارمة.

وبينما انشغل اليهود في نهب الأمة وزيادة الاستبداد فيها، زادت أعمال تحريض الشعب على بروسيا. وكما أنه لم يحدث أي شيء لإيقاف هذا السم الدعائي على الجبهة ولم تتخذ أيضاً هنا في الجبهة الداخلية أي خطوات رسمية ضد هذه الدعاية. فلم يكن هناك من يستطيع أن يفهم أن انهيار بروسيا لن يؤدي أبداً إلى ازدهار بافاريا. لكن على العكس، فانهيار إحداهما سيؤدي بالتأكيد إلى سقوط الأخرى.

وقد أثر في هذا السلوك بشدة. لكني لم أعتبره سوى خدعة يهودية حتى يواجهوا الاهتمام العام إلى شيء آخر غير ما يقومون به. وبينما تنازع البروسيون والبافارليون، نظم اليهود الثورة فقصوا على بروسيا وبافاريا بضربة واحدة.

لم أكن أتحمّل هذا النزاع اللعين بين أفراد الشعب الواحد وفضلت العودة إلى الجبهة مرة أخرى. لذلك فعندما وصلت إلى ميونخ طلبت الالتحاق بالخدمة مرة أخرى. وفي بداية شهر مارس من عام 1917م التحقت بفرقتي العسكرية مرة أخرى على الجبهة.

✦ | المؤامرة!

وقرب نهاية عام 1917م بدا الأمر وكأننا قد تجاوزنا أسوأ مراحل الاستنزاف الأخلاقي على الجبهة. فبعد انهيار روسيا استعداد الجيش بأكمله كل الشجاعة والأمل، وبدأ الجميع يعتقدون مرة أخرى أن هذا الصراع سينتهي لصالحنا. وبدأنا في الغناء من جديد وتوقف نعيق الغربان. وتضاعفت حدة الثقة في مستقبل الأمة من جديد.

وكان لانهيار إيطاليا في خريف عام 1917م أثر مدهش. وذلك لأنه أثبت أنه من الممكن اختراق جبهة أخرى بالإضافة إلى الجبهة الروسية. وقد سيطرت تلك الفكرة على عقول الملايين على جبهة القتال وشجعتهم على انتظار ربيع عام 1918م بشغف. فقد كان من الواضح تماماً أن العدو كان في حالة من الإحباط. وأثناء ذلك الشتاء، كانت الجبهة أكثر هدوءاً من المعتاد، لكنه الهدوء الذي يسبق العاصفة.

فبينما كانت الاستعدادات تجري لبدء هجوم أخير لتنتهي الحرب التي بدت وكأنها أبدية، وبينما كانت الطوابير اللانهائية من ناقلات الجنود والذخائر تصل إلى الجبهة، وبينما كان الجنود يتدربون على الهجمة الأخيرة، حدثت أكبر خيانة لألمانيا في تاريخ هذه الحرب.

فلا بد أن تخسر ألمانيا الحرب. ففي اللحظة التي لاح فيها النصر لألمانيا حيكمت مؤامرة تهدف إلى توجيه ضربة إلى عمق ألمانيا أثناء هجوم فصل الربيع، بحيث تكون ضربة واحدة تأتي من الخلف مما يجعل النصر مستحيلاً. فقد تم تنظيم إضراب عام في مصانع الذخيرة.

فإذا ما حققت تلك المؤامرة أهدافها فمن الممكن أن تنهار الجبهة الألمانية وتتحقق أمنيات الحزب الاشتراكي الديمقراطي بعدم انتصار ألمانيا في هذه الحرب. فالحاجة إلى الذخيرة ستجعل الجبهة تنهار خلال عدة أسابيع فقط، فيصبح من الممكن إيقاف الهجوم وإنقاذ الحلفاء. ثم يتحكم التمويل الدولي في ألمانيا وبالتالي تصل الماركسية في الداخل إلى أهدافها. فقد كان الهدف هو تدمير نظام اقتصاد الدولة وإيجاد سيطرة رأسمالية دولية بدلاً منه. وقد تحقق فعلاً هذا الهدف بسبب الغباء والسذاجة من جانب والخيانة التي لا يمكن أن توصف من جانب آخر.

لكن إضراب مصانع الذخيرة لم يحقق النجاح الحاسم المأمول فيه وهو أن تكون الجبهة خالية من الذخيرة. ففترة قصيرة فقط من عدم وجود الذخيرة ستؤدي إلى كارثة على الجبهة، وكانت تلك هي الخطة الموضوعة. لكن الأضرار الأخلاقية كانت أكبر بكثير.

وأول ما يرد على الخاطر هو هذه الأسئلة: لماذا يحارب الجيش إن لم يكن الشعب يتمنى انتصاره؟ لمن تقدم تلك التضحيات الكبرى، ولماذا يتحمل الجيش كل ذلك الحرمان؟ وهل على الجيش أن يستمر في الحرب من أجل النصر أثناء إضراب الجبهة الداخلية ضده؟

ثم يأتي هذا السؤال في المرتبة الثانية: ما أثر تلك الحركة على العدو؟

وفي شتاء عام 1917م تلبدت سماء الحلفاء بالغيوم. فهم يهجمون على العملاق الألماني لمدة أربع سنوات هجوماً بعد الآخر، لكنهم فشلوا في إخضاعه. وقد اعتاد العملاق الألماني على أن يدفعهم عنه بذراع واحدة تعتمد على الطريقة الدفاعية، وكان على ذراعه الأخرى أن تبقى حرة لتشهر السيف في وجه أعدائه مرة في الشرق ومرة في الجنوب. وأخيراً تخلص الألمان من هؤلاء الأعداء وأصبحت المؤخرة آمنة وتفرغنا للقتال في الغرب. وقد أريقَت انهار من الدماء لإنجاز تلك المهمة. وبما أن العدو قد أخفق في اختراق الدفاع الألماني، فإن على الألمان الآن أن يبادروا بالهجوم. وقد ارتعش العدو وخاف من الانتصار الألماني المرتقب.

وتعاقبت المؤتمرات في باريس ولندن في سلسلة لا تنتهي. فحتى دعاية العدو كانت تلاقي صعوبات. ولم يكن من السهل أن تدعي أن لا أمل للألمان في النصر. وخيم على

الجبهة صمت ووصل إلى قوات الحلفاء. كما خمدت غطرسة أسيادهم فجأة. فقد بدأت الحقيقة المفزعة تسيطر عليهم. فقد تغير رأيهم في الجندي الألماني، فقد كانوا يظنونهم شخصاً أحمقاً يسعى لتدمير نفسه، لكنهم وجدوا أنفسهم الآن وجهاً لوجه مع جندي تغلب على حليفهم الروسي. وبدأت سياسة حصر أعمال العدوان في الشرق - التي فرضها القادة الألمان طبقاً لضروريات الموقف - للحلفاء كضربة تكتيكية عبقرية. فقد كان هؤلاء الألمان يسحقون الجبهة الروسية لمدة ثلاثة أعوام دون أي نجاح يذكر في البداية. وكانت السخرية من هذا الجهد واضحة وكان يُعتقد أنه وعلى المدى الطويل سينتصر العملاق الروسي من خلال ما لديه من قوات كثيرة العدد. ولا بد أن تصاب ألمانيا بالإرهاق بعد أن تفقد الكثير من الدماء. وكان ظاهر الحقيقة يؤكد ذلك.

❖ | العملاق الروسي ينهار:

فمنذ شهر سبتمبر من عام 1914م عندما تدفقت طوابير الأسرى الروس الطويلة على ألمانيا بعد معركة "تاننبرج" كان يبدو أن تلك الحرب لن تتوقف إلا بهزيمة أحد الجيشين وحلول الجيش الآخر محله. فقد بدأت إمدادات القوات التي وضعتها الإمبراطورية الضخمة تحت يد القيصر بلا نهاية. وكان الضحايا الجدد يأتون كل يوم لهذه الحرب. لكن، إلى متى يمكن أن تستمر ألمانيا في ذلك الصراع؟ ألن يأتي اليوم الذي - بعد تحقيق النصر النهائي للألمان - لن يكون فيه أي قوات احتياط في روسيا؟ وماذا يحدث بعد ذلك؟ وطبقاً للمقاييس البشرية، فإن انتصار الروس على ألمانيا يمكن تأجيله، لكنه لا بد أن يحدث حتى ولو بعد حين. لذلك فكل الآمال القائمة على روسيا قد تلاشت اليوم. فقد نضبت موارد الحليف الذي تكبد الكثير من الدماء من أجل المصالح المشتركة للحلفاء وخر راکعاً أمام عدوه القوي. وساد شعور بالرعب والذعر في صفوف قوات الحلفاء الذين كانوا لا يزالون مضطربين باعتقادات خاطئة. وكانوا يخشون قدوم الربيع. فقد أدركوا أنهم فشلوا في كسر أنف الألمان وأن الألمان قد أصبحوا قادرين على التركيز في جبهة واحدة وهي الجبهة الغربية. فكيف لهم أن يتقوا في النصر الآن وهؤلاء الأبطال من رجال ألمانيا يعدون لهجوم كاسح على الجبهة الغربية؟

وقد انعكست ظلال ما حدث في جنوب "تيرول" على الوجوه المتكدرة لقوات الحلفاء في "فلاندرز". وقد حل محل الثقة بالنصر إحساس بالخوف من هزيمة قادمة.

❖ | إضراب عام يجهمز النصر!

وأثناء الليالي الباردة التي كنا نسمع فيها خطوات القوات الألمانية وهي تستعد للتقدم والقيام بالهجوم الكبير، ظهر ضوء متوهج في ألمانيا وأرسل أشعته إلى آخر أمل موجود

على جبهة الأعداء. ففي لحظة إصدار الأوامر النهائية للفرق الألمانية للقيام بالهجوم الكبير بدأ إضراب عام في ألمانيا.

صبق العالم في البداية، ثم بدأت أنشطة الدعاية المعادية مرة أخرى وركزت على هذا الموضوع في اللحظة الأخيرة. فأخيراً جاءتهم الوسيلة التي يمكنهم استخدامها لاستعادة الثقة في جنود الحلفاء. فاحتمالات النصر الضعيفة تقدم الآن على أنها نصر مؤكد. كما تحولت هواجس ما قد يحدث في الأيام القادمة إلى إحساس أكيد بالنصر. أما الأفواج التي كان عليها أن تتحمل الهجمة الألمانية الكبرى فقد أصبحت الآن مقتنعة بأن تلك الهجمة الألمانية لن تنهي هذه الحرب لكن نهايتها ستكون على أيدي من يستطيع الدفاع والمقاومة والتحدي، فليفل الألمان الآن ما يريدون من نصر، فالثورة - وليس الجيش المنتصر - هي ما يسيطر على الشارع الألماني وما يرحب به الشعب.

وقد بدأت الصحافة الألمانية والأمريكية والبريطانية في نشر هذا الاعتقاد بين القراء كما تمكنت الدعاية بمقدرة كبيرة من تشجيع قواتهم على الجبهة.

وكان أفضل علاج يوجه للجنود البريطانيين والأمريكان على الجبهة ليستطيعوا الوقوف على أقدامهم مرة أخرى هو ذلك الشعار: "ألمانيا في ثورة، والنصر للحلفاء بلا شك." وكانت بنادقنا وأسلحتنا الآلية قادرة على بدء الهجوم مرة أخرى، لكنهم الآن يواجهون مقاومة عنيفة مليئة بالثقة بدلاً من الذعر والانسحاب.

وكانت تلك هي نتيجة إضراب مصانع الذخيرة. فقد عادت روح الأمل في النصر في كل الدول المعادية واختفى الشعور باليأس من جبهة الحلفاء. كما أن هذا الإضراب كلّفنا أرواح آلاف من الجنود الألمان. لكن ومع ذلك رشح المسؤولين الحقيرين الذين روجوا لهذا الإضراب في مناصب عامة هامة جداً في ألمانيا بعد الثورة.

وكان من الواضح في البداية أنه من الممكن التغلب على آثار ما حدث في جنودنا، لكن الأثر الذي تركته الدعاية في جنود الأعداء كان بلا نهاية. فلم يعودوا مجرد جيش يدافع عن قضية خاسرة، بل جيش شرس يسعى لتحقيق النصر. وذلك لأن كل المقاييس البشرية تقول: إن النصر مضمون الآن إن استطاعت الجبهة الغربية صد هجوم الألمان ولو لعدة أشهر على الأقل. وقد أدركت برلمانات دول التحالف فرص المستقبل الأفضل فصوتت بالموافقة على تخصيص مبالغ ضخمة لاستمرار الدعاية الحربية والتي كانت موجهة لتفكيك الجبهة الداخلية في ألمانيا.

وكان من نصيبي أن أشارك في أول هجمتين وفي الهجوم الأخير. وقد تركت تلك الهجمات في أثراً عجبياً لم يحدث لي طوال حياتي. وقد كانت تجربة عجيبة لأنه وفي ذلك

الوقت لم تكن الحرب دفاعية بل كانت هجومية كما كان الحال في عام 1914م. وتعاليت صيحات السعادة في الخنادق الألمانية عندما - وبعد ثلاث سنوات في جهنم - جاء وقت تصفية الحسابات. ومرة أخرى سُمعت أصوات النشوة بالنصر بين الجنود وهم يضعون اللمسات الأخيرة للنصر المرتقب. ومرة أخرى تعالت الأغاني الوطنية وتعاليت في السماء أمام صفوف لا متناهية من الجنود.

وفي منتصف الصيف من عام 1918م كانت الجبهة شديدة الحرارة. لكنهم كانوا يتشاجرون في أرض الوطن، فما الأمر؟ سمعنا كلاماً كثيراً قادم من وحدات مختلفة على الجبهة. فالحرب الآن ميؤوس منها، والطائش فقط هو من يحلم بالنصر. الشعب ليس راغباً في استمرار الحرب بل العائلة الحاكمة والرأسماليون فقط. هذه هي الأخبار التي جاءتنا من الداخل وكنا نناقشها على الجبهة.

وفي البداية، كان ذلك سبباً في رد فعل بسيط. فما لنا نحن بأغلبية الأصوات؟ أهذا ما كنا نحارب من أجله لمدة أربع سنوات؟ ومن الجبن أن نجرد قبور أبطالنا من المبادئ التي ضحوا من أجلها. فلم يواجه أبطالنا في فلاندرز الموت المحقق بالشعار "نعيش موافقة الأغلبية" لكنهم واجهوه بالشعار "تموت فداء أرض ألمانيا". وهناك فرق بسيط لكنه غير مهم على أي حال. وقد اختفى غالبية من كانوا يصيحون من أجل الموافقة عندما حان وقت القتال من أجلها. كل هذا الخلط السياسي كان بعيداً عنا ونحن في الجبهة. وكان قليل جداً من نواب البرلمان يظهرون عندما يتجمع المخلصون الألمان.

❖ عصابة السياسيين المخادعين للشعب!!

ولم يعجب قدامى المحاربين بتلك الأهداف الجديدة للحرب التي وضعها السادة/ أوبرت وبارث وليكنخت وغيرهم. فلم نفهم لماذا - وعلى نحو مفاجئ - انتقلت كل الصلاحيات إليهم دون أي تشاور مع الجيش.

وقد كانت لي آرائي الشخصية الخاصة منذ البداية. فقد كنت مشمئزاً بشدة من عصابة هؤلاء السياسيين المشاركين في خداع الشعب. فقد أدركت منذ وقت طويل أن مصالح الأمة تمثل جزءاً صغيراً جداً من اهتمامات هؤلاء الناس، وإن ما يهمهم فقط هو ملء جيوبهم الخاوية. وكنت أرى أنهم يستحقون الشنق، حيث كانوا على استعداد للتضحية بالسلام وبهزيمة ألمانيا إذا كان ذلك ضرورياً للوصول إلى أهدافهم. والتفكير في آمالهم يعني التضحية باهتمامات طبقة العمال من أجل عصابة لصصوص. ومن أجل تحقيق رغباتهم علينا أن نضحى بألمانيا.

وكان غالب أفراد الجيش يشاركونني هذا الرأي. لكن الإمدادات التي كانت تأتينا من

الوطن أصبحت أسوأ فأسوأ بسرعة متزايدة، وسرعان ما أصبح وصولها مصدر ضعف وليس مصدر قوة لنا. فقد كان صغار المتطوعين على وجه الخصوص بلا فائدة. كما كان من الصعب أحياناً أن نصدق أنهم من أبناء هذه الأمة التي أرسلت شبابها إلى هذه المعركة.

وتزايدت علامات التفسخ الأخلاقي في شهري أغسطس وسبتمبر بسرعة على الرغم من أن عدوان الأعداء لم يكن بقوة هجماتنا السابقة على الإطلاق. وعندما نقارن هذه بتلك، فإن معارك "سوم" و"فلاندرز" تبقى في ذاكرتنا لأنها الأشد وطأة والأكثر رعباً.

ومع نهاية شهر سبتمبر احتلت فرقتي - للمرة الثالثة - تلك المواقع التي كنا قد أخذناها بأيدي صغار المقاتلين. يا لها من ذكرى !

هنا كانت أول تجاربنا مع النيران، كان ذلك في شهري أكتوبر ونوفمبر من عام 1914م. فقد استطاع المقاتلون الشبان بكل الحب المتقد في قلوبهم للوطن وأثناء غنائهم للأغاني الوطنية أن يبدؤوا القتال كما لو كانوا ذاهبين للرقص. وقد أريقَت الدماء الغالية من أجل الحفاظ على حرية واستقلال الوطن الأم.

وفي يوليو من عام 1917م وطئنا تلك الأرض التي نعتبرها مقدسة للمرة الثانية. لكن زملائي لم يكونوا مرتاحين هذه المرة لأن بعضهم كانوا لا يزالون فتیاناً صغاراً. أما من ضحوا بأرواحهم وماتوا من أجل الوطن فقد كانت أعينهم تلمع بحماس ذلك الحب.

أما الكبار الذين كانوا قد التحقوا بالفرقة منذ البداية فقد كانوا متأثرين جداً عندما وقفنا على هذه البقعة المقدسة وأقسمنا على: "الولاء والواجب حتى الموت". وكانت الفرقة قد سيطرت على هذه المنطقة بهجوم مفاجئ منذ ثلاثة أعوام. والآن ننادي بالدفاع عنها.

❖ | الإنجليز يشنون هجوماً بالغاز!

وقد مهد الإنجليز لهجومهم الكبير بثلاث أسابيع من القصف المدفعي على "فلاندرز". وهناك كنا نشعر بأرواح الموتى تحوم حولنا. لذلك فإن فرقتنا العسكرية تمسكت بالأرض والتصقت بطميها وتضاريسها. ولم نفزع ولم نتردد بالرغم من أن أعدادنا كانت تتناقص يوماً بعد يوم. وأخيراً بدأ البريطانيون الهجوم في يوم 31 يوليو عام 1917م.

شعرنا ببعض الراحة مع بداية شهر أغسطس. وقد تضاعل وتناثر عدد الجنود في فرقتنا وهم ملطخين بالتمي، أنهم أشبه بالأشباح وليس البشر. وكان الموت الذي حققته قوات الإنجليز يقع على بعد عدة مئات من الياردات.

والآن وفي خريف عام 1918م نقف للمرة الثالثة على الأرض التي حاربنا عليها في

عام 1914م. إنها قرية "كومنز" وكنا نستخدمها من قبل كقاعدة، لكنها الآن داخل منطقة القتال. وبالرغم من أن التغييرات التي حدثت كانت قليلة إلا أن الرجال كانوا مختلفين بطريقة ما أو بأخرى. فهم الآن يتحدثون في السياسة. كما أن السموم القادمة من الوطن كان لها أثرها هنا أيضاً.

وفي ليلة 13-14 أكتوبر شنت القوات البريطانية هجوماً بالغاز على "أبيرز" وقد استخدموا الغاز الأصفر الذي لا نعرف تأثيره على الأقل من خلال خبراتنا الشخصية. لكن، قدر لي أن أجربه تلك الليلة. فعلى نل في جنوب "ورويك" في تلك الليلة كنا عرضة لهجوم مدفعي مكثف بذلك الغاز، واستمر الهجوم لعدة ساعات. ومع منتصف الليل توقف بعضنا عن القتال، وتوقف البعض الآخر إلى الأبد. وفي الصباح شعرت بألم، وكان هذا الألم يتزايد كل ربع ساعة، وفي الساعة السابعة صباحاً كانت عينايا ملتهبتين بشدة فترنحت وسلمت آخر رسالة كان على أن أحملها في تلك الحرب. وبعد عدة ساعات كانت عينايا مثل الجمر المتقد ولم أكن أرى سوى الظلام من حولي. أرسلت إلى المستشفى في "باسوك" بمنطقة "بوميرانيا" وهناك سمعت عن الثورة.

وقد ظل الهواء يحتوي على شيء كريحه ومنفر لفترة طويلة. وكان الناس يتوقعون حدوث شيء ما خلال عدة أسابيع، لكني لم أستطع توقع هذا الشيء. وفي بداية الأمر توقعت إضراباً مثل ذلك الإضراب الذي حدث في الربيع. لكن أنتنا الشائعات الكريهة عن البحرية باستمرار، وقيل: إن جنود البحرية ثائرون. وقد بدا ذلك وكأنه من وحي خيال بعض الشباب. وكان الجميع في المستشفى يتحدثون عن نهاية الحرب ويأملون أن يكون ذلك قريباً. لكن لم يكن هناك من يتوقع أن القرار سيكون مفاجئاً. ولم أكن أستطيع قراءة الصحف.

وفي شهر نوفمبر تزايد التوتر العام. ثم فوجئنا بكارثة وقعت علينا دون سابق إنذار. فقد جاءنا بحارة في عربات نقل كبيرة وطلبوا منا أن نشارك في الثورة. وكان بعض الفتية اليهود هم قادة المقاومة من أجل "الحرية والجمال والكرامة" لوطننا. ولم يكن من بينهم من شارك في أعمال قتال على الجبهة. فقد أعادت مستشفى الأمراض التناسلية ثلاثة من الشرفيين منهم إلى الوطن مرة أخرى. والآن فهم يرفعون راياتهم الحمراء هنا من جديد.

شعرت بتحسن خلال الأيام الأخيرة. فقد أصبح الألم الحارق في عيني أقل. وبدأت أميز الخطوط العامة لما يحيط بي بالتدريج. وكان لدي أمل في أن استعيد بصري بدرجة تمكنني من الالتحاق بعمل فيما بعد. أما عن الرسم ووضع التصميمات فلم يعد ذلك ممكناً بالطبع. وبدأ مشوار الشفاء في الساعة الحاسمة.

وأول ما فكرت فيه هو أن اندلاع هذا التوتر هو أمر محلي فقط. وقد حاولت أن

أفرض هذا الاعتقاد على زملائي، وكان زملائي في المستشفى من البافاريين على وجه الخصوص مستعدين لتصديق ذلك. فهم يميلوا إلى أي شيء إلا الثورة. كما أنني لم أتخيل انطلاق هذا الجنون من داخل ميونخ، فقد كنت أظن أن الولاء لعائلة "وتل" أقوى من إرادة قلة من اليهود. لذلك، لم استطع مقاومة الاعتقاد بأن هذه الثورة ما هي إلا مجرد ثورة في سلاح البحرية وسيتم إخمادها خلال عدة أيام قادمة.

لكن الأيام التالية حملت لنا أكثر الأخبار إبلاماً في حياتي. فقد زادت الشائعات وتواصلت. وعلمت أن ما اعتبرته أمراً محلياً ما هو إلا ثورة عامة في حقيقة الأمر. وبالإضافة إلى ذلك جاءت الأخبار المخزية من الجبهة برغبتهم في الاستسلام. ماذا ! هل هذا ممكن؟

❖ | ألمانيا تتحول إلى جمهورية!

وفي العاشر من نوفمبر زار راعي الإبراشية المحلية المستشفى ليلقي خطاباً. ومن خلال ذلك الخطاب عرفنا القصة كاملة.

كنت متوتراً جداً وأنا استمع إلى الخطاب، وكان الكاهن العجوز يرتعش وهو يقول لنا: إن أسرة "هوهن زولرن" لم تعد الأسرة الحاكمة وأن بلادنا قد أصبحت جمهورية وعلينا أن نصلي لله حتى يحفظ شعبنا في الأيام القادمة ويوفق النظام الجديد. وقد عبر عن تقديره للعائلة المالكة باختصار لما قامت به من خدمات لـ "بومبرانيا" و"بروسيا" وكل أرجاء الوطن ثم بدأ في البكاء. ساد الحضور حالة من الرعب العميق، ولا اعتقد أن هناك عينا واحدة لم تدمع. أما بالنسبة لي فقد انهرت تماماً عندما حاول الرجل العجوز مواصلة حديثه بالقول إن علينا أن ننهي هذه الحرب الطويلة الآن، أنها كما يقول حرباً خاسرة، وسنقع تحت رحمة من ينتصر فيها. وكان على بلادنا أن نتحمل تبعات ثقيلة في المستقبل. وكان علينا أن نقبل بشروط الهدنة وأن نثق في شهامة أعدائنا القدامى. ولم يكن بوسعي أن أواصل الاستماع، كان الظلام يحيط بي وأنا أترنح وأتعثر في طريق عودتي إلى القسم الذي أقيم فيه، ثم دفنت رأسي بين الوسائد والبطاطين.

لم أبك منذ ذلك اليوم الذي وقفت فيه إلى جوار قبر أمي. فقد كانت إرادتي تقوى وتعلو على أي قسوة واجهتني بها الأقدار من قبل. وخلال كل سنوات الحرب حصد الموت أصدقاء صادقين وزملاء من نفس الفرقة، لكنني كنت أشعر بأنه من الإثم أن أقول كلمة واحدة تشير إلى الحزن عليهم. ألم يموتوا من أجل ألمانيا؟ وأخيراً وفي الأيام الأخيرة من الحرب الكبرى تحيط بي الغازات من كل جانب وتتدخل في عيني ويزعجني احتمال العمى طوال حياتي، لكن صوت العقل صاح في فوراً وقال: "أيها اللبأس، هل تبدأ في النحيب

وهناك آلاف ممن هم أسوأ حظاً منك بمئات المرات ؟ لذلك فقط تقبلت قدرتي صمناً وأنا مدرك تماماً أن هذا هو كل ما أستطيع أن أفعله وأن المعاناة الشخصية تتوارى تماماً عند الحديث عن مصائب الأمة.

❖ بطولات وتضحيات ذهبت هباءاً!

لذلك، فقد ذهب كل شيء هباء. ذهبت كل التضحيات والمحن هباء، ذهب الجوع والعطش الذي عانى منه آلاف الأنفس هباء. وذهبت كل الساعات التي تمسكنا فيها بمواقفنا دون خوف من الموت أو حرص على أرواحنا هباء. كما ضاعت أرواح مليوني شخص وهو يؤدون واجبهم أيضاً في مقابل لا شيء. فكرت في مئات الآلاف من الجنود الذين بدأوا الحرب بقلوب يملؤها حب الوطن، لكنهم لم يعودوا إليه أبداً. ألا يجب أن نفتح قبورهم وندع أرواحهم التي لطخت بالدماء والظمي تعود إلى أرض الوطن لتنتقم ممن حرقوا وخانوا أعظم التضحيات التي يمكن لبشر أن يقوم بها من أجل وطنه ؟ فهل مات الجنود من أجل هذه النتيجة في شهري أغسطس وسبتمبر من عام 1914م، أم أنهم ماتوا من أجلها في خريف نفس العام؟ أم من أجل هذه النتيجة اختلطت دماء شباب في السابعة عشر من عمره بتراب أرض "فلاندرز" ؟ أهذه هي ثمار التضحيات التي قدمتها أمهات ألمان بقلوب قوية حين ودعن أبناءهن الذين لم يعودوا أبداً ؟ أم أن ذلك كله قد حدث من أجل أن تتمكن عصابة من المجرمين الأقدار من فرض سيطرتها على الوطن.

ألهذا حارب الجنود الألمان في الحر الشديد والبرد القارس وتحت الثلج والعواصف وتحمل الجوع والعطش والبرد والتعب والسهرة لعدة ليالٍ والمشى لمسافات طويلة ؟ ألهذا السبب عشنا في جحيم القصف المدفعي واختنقنا وتحملنا السعال أثناء هجمات الغاز دون أن نخاف أو ننهار بل تمسكنا بفكرة الدفاع عن أرض الوطن ومواجهة العدو ؟

من المؤكد أن هؤلاء الأبطال يستحقون أن ينقش على قبورهم ما يلي: "أيها المسافر، عندما تصل إلى ألمانيا قل لوطني: إنني أرقد هنا، فقد أخلصت لوطني وأديت واجبي بأمانة."

وهنا في الوطن: أهذه هي التضحيات التي يمكننا أن نفكر فيها فقط ؟ وهل كانت ألمانيا في السابق دولة بلا قيمة ؟ أليس لها تاريخ عظيم وعليها واجب تجاهه ؟ ألا يزال من حقنا أن نشارك في عظمة الماضي ؟ وكيف لنا أن نبرر ما حدث لأجيال المستقبل ؟

❖ خيانة الماركسيين!

يا لها من عصابة من المجرمين المنحرفين الفاسدين.

وكلما حاولت أن أعرف حقيقة ما وقع من أحداث فظيعة، اشتعل رأسي من الغيظ والخزي. إن كل ما شعرت به من آلام في عيني لا يقارن بما وقع من أحداث مؤسفة.

كانت الأيام التالية صعبة التحمل، وكانت الليالي أسوأ منها. فالاعتماد على رحمة العدو هو ما يصدفه الأحق أو يوصي به المجرم. وقد تزايدت كراهيتي لمن أعدوا هذه الجريمة ودبروا لها بكل غدر.

وخلال الأيام التالية اتضح لي مصيري. فعلياً أن أتوقف عن التفكير في مستقبلتي الشخصي، فهذا يسبب لي الكثير من القلق والتوتر. ثم أيقنت أخيراً أنه من المحتم أن شيئاً ما قد حدث، وكنت أخشى حدوث هذا الشيء لفترة طويلة من حياتي لدرجة أنني لم أصدق أنه حدث.

لقد كان الإمبراطور "وليم الثاني" أول إمبراطور ألماني يمد يد الصداقة إلى قادة الماركسية، ولم يكن يشك في أنهم أو غاد بلا أدنى إحساس بالكرامة. فبينما كانت يدهم تصافح يد الإمبراطور، كانت اليد أخرى تتحسس الخنجر.

ولم يكن من الممكن فهم موقف اليهود، فقد كانت الاحتمالات تتأرجح ما بين هذا أو ذلك.

أما بالنسبة لي، فقد قررت في ذلك الوقت أن أشارك في العمل السياسي.





عدت إلى ميونخ قرب نهاية شهر نوفمبر. وذهبت إلى مقر فرقتي العسكرية وكانت تحت سيطرة "مجلس الجنود" في ذلك الوقت. وقد كرهت كل المسؤولين عن إدارتها لذلك قررت أن أغادرها بأسرع ما يمكن. لذلك فقد ذهبت إلى "تروستين" مع صديقي "ارنست شميت" إلى أن تفكك المعسكر. وفي مارس من عام 1919م عدنا إلى ميونخ.

لم يعد الموقف في ميونخ مثلما كان من قبل، فقد تغلغت الثورة هناك دون مقاومة. وقد أدى موت "أيزنر" إلى الإسراع في ذلك التقدم والخضوع لديكتاتوريات المجالس، أو لنصحب القول: الخضوع لسيطرة اليهود والتي بدت مؤقتة لكنها الهدف الرئيسي الذي سعى إليه من أشعل الثورة.

وفي ذلك الوقت خطر على تفكيري عدد لا حصر له من الخطط. وقضيت العديد من الأيام في التفكير فيما يمكن أن أفعله. لكن للأسف كنت أتخلى عن كل فكرة عندما أصل إلى حقيقة أنني شخصية غير معروفة ولهذا فإن الشروط الأساسية للعمل الفعال لا تتوافر في. وسأشرح فيما بعد الأسباب التي جعلتني لا أفكر في الانضمام إلى أي حزب من الأحزاب القائمة.

وكلما زادت الثورة الجديدة من أنشطتها في ميونخ، اتضح لي سوء نية حزب الوسط. وفي الصباح الباكر من يوم 27 أبريل من عام 1919م كان من الممكن أن يتم القبض علي، إلا أن الثلاثة الذين جاءوا للقبض علي لم يستطيعوا مواجهة بندقتي وانسحبوا بعد وصولهم مباشرة.

وبعد عدة أيام من تحرير ميونخ طلب مني أن أمثل أمام لجنة تقص ومقرها فرقة المشاة الثانية من أجل مراقبة الأنشطة الثورية. وكانت تلك هي بداية عملي بالسياسة. وبعد عدة أسابيع قليلة تلقيت تعليمات بحضور عدة محاضرات لأفراد الجيش. وكانت هذه الدورة تهدف إلى تلقين مبادئ محددة يمكن للجندي أن يبني عليها أفكاره السياسية. وكانت الميزة الوحيدة لذلك بالنسبة لي هي أنني تمكنت من مقابلة زملاء من الجنود ممن لهم نفس الفكر وقد تمكنت من مناقشة الوضع معهم. وقد انتهينا جميعاً إلى الاعتقاد بأن ألمانيا لا يمكن أن تنجو من الكارثة الوشيكة على يد هؤلاء الذين شاركوا في الخيانة في شهر نوفمبر. أي أن حزب الوسط والاشتراكيين الديمقراطيين وما يسمى بالمجموعة

البرجوازية الوطنية لن يستطيعوا تعويض ما حدث من خسائر، حتى وإن كانت لديهم أطيب النوايا. فهم يفتقدون عدداً من الشروط الضرورية التي لا يمكن تحقيق تلك المهمة بدونها. وقد أكدت السنوات التالية صدق آرائنا.

❖ التفكير في إنشاء حزب جديد!

وقد ناقشنا على نطاق ضيق موضوع إنشاء حزب جديد. وكانت الأفكار الأساسية التي اقترحناها عندئذ هي نفس الأفكار التي طبقت في الحزب فيما بعد عندما تم تأسيس حزب العمل الألماني. وكان من الواجب أن يكون اسم الحركة الجديدة من نفس هذا النوع حتى يروق لعامة الناس، كما أن كل جهودنا تبوء بالفشل وتذهب هباء إن لم يكن للحركة اسم مقبول. وهذا هو سبب اختيارنا لاسم "الحزب الاشتراكي الثوري" وذلك لأن أهدافنا الاشتراكية كانت أهداف ثورية.

وكان هناك سبب أساسي آخر لهذه التسمية وهو أن العناية التي كنت أوليها للقضايا الاقتصادية خلال سنوات شبابي الأولى كانت مقصورة على اعتبارات ناتجة عن مشكلات اجتماعية. وقد توسعت تلك النظرة فيما بعد عندما بدأت أدرس سياسة التحالف الثلاثي الألماني. وكانت تلك السياسة ناتجة عن تضخيم الموقف الاقتصادي، بالإضافة إلى فكرة مشوشة عن مبادئ ضمان بقاء الشعب الألماني. وكانت تلك الأفكار قائمة على مبدأ يقول: إن رأس المال ينتج فقط عن العمل وأن المال - مثله في ذلك مثل العمل - يخضع لكل العوامل التي يمكن أن تعوق النشاط الإنساني أو تحسنه. لذلك ومن المنطلق القومي، فإن معنى المال يعتمد على عظمة الدولة وحريتها وقوتها، أي أن الاستقلال وحده يمكن أن يسمح لرأس المال بأن يساهم في تطور الدولة ويرعى مصالحها.

ومن هذا المنطلق يجب أن يكون اتجاه الدولة نحو رأس المال بسيطاً وواضحاً إلى حد كبير. ويكون الهدف الوحيد هو أن يبقى المال تابعاً للدولة وألا يسمح لنفسه بحق ريادة المصالح القومية. وعلى ذلك فإن أنشطة رأس المال يجب أن تنحصر في شيئين: الأول هو التأكد من وجود نظام اقتصادي مستقل والثاني هو ضمان الحقوق الاجتماعية للعمال.

❖ فرق بين رأس المال الناتج عن العمل الخلاق.. والمال المستثمر في البورصة والقروض ذات الفوائد!

لم أكن أدرك بوضوح كاف فيما قبل تلك الفروق بين رأس المال الناتج عن العمل الخلاق والمال الناتج عن مجرد أفكار مالية. فقد كان عقلي يحتاج إلى دافع لكي يفكر في هذا الاتجاه. ولم يكن هذا الدافع موجوداً في ذلك الوقت.

وقد جاءني هذا الدافع الآن من أحد الرجال الذين كانوا يلقون المحاضرات في الدورة التي ذكرتها وهو "جوتفريد فيدر".

فلأول مرة في حياتي استمع إلى نقاش حول رؤوس الأموال في البورصة ورؤوس الأموال التي تستخدم في القروض. وبعد أن استمعت إلى أولى محاضرات "فيدر" خطر على ذهني فكرة، فوجدت طريقي إلى أهم شروط تأسيس حزب جديد.

فقد بدا لي أن أهم ما يميز "فيدر" هو وصفه الحاد والقاسي لأموال البورصة وصفقات القروض وهو "ازدواج الشخصية" فكشف عن وجه ذلك المال الذي يعتمد دائماً وأبداً على الفوائد. وقد كانت ردوده على الأسئلة الأساسية متميزة بالتعقل لدرجة أن من انتقدوه لم ينكروا أن أفكاره جيدة إلا أنهم يشكون في إمكانية تنفيذ هذه الأفكار عملياً. وبالنسبة لي، كانت تلك هي أهم النقاط التي تناولها "فيدر" بالرغم من أن الآخرين كانوا يعتبرونها نقطة ضعف.

فليس من واجب من يضع البرامج النظرية أن يشرح الطرق المختلفة التي تمكن من تطبيقها عملياً. فمهمته أن يتناول المشكلة كما هي وعليه أن ينظر إلى الغاية وليس إلى الوسيلة. والسؤال الأهم هو عما إذا كانت الفكرة صحيحة أم لا. أما السؤال عن مدى صعوبة تطبيق تلك الفكرة عملياً فهو أمر آخر. وعندما يبدأ صاحب مهمة وضع مبادئ البرامج أو السياسات في الانشغال بالتفكير فيما إذا كانت تلك الأفكار ملائمة للتنفيذ العملي بدلاً من أن يقتصر عمله على ذكر الحقائق فقط، فإن عمله لن يكون مثل النجوم التي نسترشد بها في الليل بل سيتحول إلى شبه وصفة من وصفات الحياة اليومية. فعلى من يضع البرنامج أن يفكر في الهدف فقط. وعلى القائد السياسي أن يفكر في طريقة الوصول إلى ذلك الهدف. لذلك فإن ما يحكم تفكير شينين: الأول هو تلك الحقائق الأبدية أما الثاني فإنه يهتدي بالظروف التي يمكن أن يتم تنفيذ تلك الحقائق من خلالها.

❖ | القائد السياسي.. والفيلسوف السياسي!

إن عظمة هذا الفرد تعتمد على الحقيقة المطلقة لأفكاره، أما أهمية الأفراد الآخرين فتعتمد على قدراتهم على الحكم على تلك الحقائق والقدرة على استخدامها بتوجيه ممن وضعها. كما أن اختبار عظمة القائد السياسي يكون من خلال نجاح خطته ومشروعاته، فهذا يعني قدرته على الوصول إلى الهدف الذي انطلق من أجله. بينما الهدف النهائي الذي يضعه الفيلسوف السياسي لا يمكن الوصول إليه، وذلك لأن العقل البشري يستوعب الحقائق ويتوقع الغايات ويرأها مثلما يرى البلور، لكنه لا يتمكن من الوصول إليها لأن الطبيعة البشرية ضعيفة وناقصة. وكلما كانت الفكرة مكتملة من الناحية المجردة - وقوية

أيضاً - قلت احتمالات تطبيقها عملياً، طالما أنها تعتمد في تطبيقها على الإنسان. وأهمية الفيلسوف السياسي لا تعتمد على نجاح عملي للخطط التي يضعها ولكن على صحتها المطلقة وتأثيرها على تقدم البشرية. فإذا كان الأمر غير ذلك، فليس لنا أن نعتبر من أرسوا المعتقدات الدينية أعظم الرجال في العالم، وما كانت أهدافهم الأخلاقية وتعاليمهم ممكنة التطبيق.

وهذا الفرق الكبير بين وظيفة الفيلسوف السياسي والقائد السياسي هو السبب في ندرة توافر الصفتين في شخص واحد. وهذا ينطبق بالذات على من يسمون بالسياسيين الناجحين من النوع الصغير الذين لا تزيد أنشطتهم عن مجرد ممارسة فن تنفيذ كل ما هو ممكن، وهذا هو التعريف الذي وضعه بسمارك للسياسة ككل، فإذا ما تجنب هذا السياسي الأفكار الكبرى، سيكون نجاحه مضموناً وسوف يصل إليه بسهولة كما أنه سيكون ملموساً بصورة أوضح. وبناء على هذه الحقيقة، فإن هذا النجاح محكوم عليه بالانتهاء، كما أنه أحياناً لا يستمر حتى موعد وفاة صاحبه. وبصفة عامة يكون عمل هذا السياسي بلا فائدة للجيل التالي من السياسيين، وذلك لأن نجاحهم المؤقت يقوم على تجنب كل المشكلات الكبرى والأفكار الصالحة للأجيال القادمة.

فمهمة البحث عن مثل تصلح للمستقبل عمل غير مجد بصفة عامة ومن يفعل ذلك عادة ما يكون غير مفهوم من جماهير الشعب الذين يعتبرون أن البيرة والحليب أكثر إثارة وتحفيزاً للقيم السياسية من الخطط التي توضع للمستقبل والتي لن تتحقق سوى في وقت لاحق ولن ينال ثمارها سوى الأجيال القادمة.

لذلك فإننا نجد أن كثيراً من السياسيين يتجنبون ذلك التفكير في خطط المستقبل لصعوبة تطبيقها عملياً كما أنهم يريدون الحفاظ على حب الجماهير لهم. فأهمية ونجاح هؤلاء السياسيين تعتمد بشدة على ما يفعلونه في الوقت الحاضر وقد لا تكون لها أي علاقة بالمستقبل. وهذا لا يشعر أصحاب العقول العادية من الناس بأي قلق، فهم راضون بالنتائج الحالية فقط.

أما مركز الفيلسوف السياسي فهو مختلف تماماً. فالحكم على مدى أهمية ما يقوم به من عمل يصدر بناء على علاقته بالمستقبل وعادة ما يسمونه بالـ "حالم". فبينما نجد أن قدرات السياسي تنحصر في إجابة فن "الممكن" نجد أن مؤسس الأنظمة السياسية يطلب المستحيل. وهو عادة لا يسعى إلى شهرة، لكن إن أصبحت أفكارهم خالدة فإن الأجيال القادمة ستعترف بفضلهم.

ونادراً ما حدث أن يكون السياسي في الأجيال الماضية هو نفسه الفيلسوف السياسي. وكلما كان هذا الاتحاد لصيقاً كانت العقبات التي تواجهها أنشطة السياسي كبيرة. ومثل هذا

الشخص لا يعمل من أجل أن تكون مساعيه واضحة ومرضية للجميع بل إنه يحقق غايات يفهمها قلة من الناس فقط. كما أن حياته تتمزق فيما بين الحب والكراهية. كما تتعارض احتياجات معاصريه الذين لا يفهمونه مع مدارك الأجيال القادمة الذين يعمل من أجلهم أيضاً.

وكلما كان العمل الذي يقوم به مثل هذا الرجل من أجل المستقبل عظيماً ، زاد عدم تقدير معاصريه له. وبالتالي فإن صراعه سيكون عظيماً ونجاحه نادر جداً. ومع مرور القرون ومجيء شخص يتمتع بالنجاح في أواخر أيامه فإنه أيضاً لن يسعد بشهرته في المستقبل. لكن هؤلاء الرجال هم أبطال مراثون التاريخ. وما الشهرة المؤقتة إلا قليل مما يستحقون. فالأبطال العظام هم من يحاربون من أجل أفكارهم ومثلهم بالرغم من أنهم لا يلقون أي اعتراف بالجميل من معاصريهم. لكن ذكراهم ستظل باقية في قلوب الأجيال القادمة. لذلك فكل فرد يشعر أن من واجبه أن يكفر عما مضى من التقصير في حق عظام الرجال الذين عانوا من تجاهل معاصريهم. وقد درس الناس حياة أولئك العظام وأعمالهم بتأثر وإعجاب. فهؤلاء الرجال قادرون على مداواة القلوب الكسيرة والتخفيف من اليأس الذي يشعرون به في أيام الظلام والتوتر.

وهذه الفئة لا تشمل عظام رجال الدولة فقط بل كل المصلحين العظام أيضاً. وبالإضافة إلى "فريدريك الأكبر" لدينا أيضاً "مارتن لوتر" و"ريتشارد فاجنر".

✦ | أشرس معركة : هي مواجهة الرأسمال الدولي !

وعندما استمعت إلى المحاضرة الأولى لـ"جوتفريد فيدر" أدركت على الفور أن بها حقائق هامة جداً تخص مستقبل الشعب الألماني. فالفصل التام بين رأس مال البورصة والحياة الاقتصادية للدولة يجعل من الممكن لنا أن نعارض سياسة تدويل الأعمال الألمانية دون أدنى مضرة على رأس المال، لأن ذلك يعني تهديد دعائم استقلال أمتنا. وكنت أرى ما يحدث في ألمانيا بوضوح فأدركت أن أشرس معركة علينا أن نخوضها ليست لمواجهة الدول الأعداء بل مواجهة رأس المال الدولي. وقد رأيت أن محاضرة "فيدر" ما هي إلا صرخة تلفت الأنظار لكفاحنا القادم.

هنا - ومرة أخرى - تؤكد الأحداث مدى صدق ما شعرنا به في ذلك الوقت. فلم يعد حمقى الطبقة المتوسطة من السياسيين إلى السخرية منا بعد ذلك. وقد أدرك هؤلاء السياسيون أن عليهم أن يقولوا الحقيقة وهي أن رؤوس الأموال الدولية في البورصة لا تعتبر العامل المحرض على قيام الحرب بل إنها أيضاً حولت سلام ما بعد الحرب إلى جهنم. وقد أصبح النضال ضد التمويل الدولي وأموال القروض أحد أهم نقاط البرنامج الذي أقامت عليه الأمة الألمانية كفاحها من أجل حرية الاقتصاد والاستقلال فيما بعد.

أما بالنسبة لاعتراض من يسمون بالعملين، فإن الإجابة التالية كافية جداً: كل المخاوف الخاصة بالنتائج الاقتصادية التالية لوقف التبعية الناتجة عن أرباح رأس المال ليست في وقتها. حيث أثبتت المبادئ الاقتصادية المستخدمة حتى اليوم خطورتها على مصالح الشعب الألماني. كما أن الاتجاه المستخدم في مشكلة الحفاظ على وجود أمتنا يشابه ما قدمه لنا الخبراء من نصائح - في كلية الطب في بافاريا على سبيل المثال - حول موضوع إدخال السكك الحديدية. فمخاوف كل أولئك الخبراء لم تتحقق. كما أن من سافروا في عربات هذا الحصان البخاري لم يعانون من الدوار. ومن نظروا إليه لم يمرضوا فتم إزالة السياج الخشبي الذي أقيم لإخفاء الاختراع الجديد فيما بعد.

كما يجب أن نضع ما يلي في حسابنا : قد تكون أي فكرة مصدراً للخطر إن نظرنا إليها كغاية في حد ذاتها، بينما هي في الحقيقة مجرد وسيلة تستخدم في الوصول إلى غاية. وبالنسبة لي وكل الاشتراكيين الوطنيين الحقيقيين هناك اعتقاد واحد نثق به، وهو الشعب وأرض الوطن.

إن علينا أن نحارب من أجل الأمن الضروري لوجودنا وتزايد أبناء عرقنا وشعبنا وتكاثر أطفالنا والحفاظ على عرقنا بلا اختلاط وحرية واستقلال الوطن حتي يتمكن شعبنا من تحقيق المهمة التي كلفه بها الله الخالق.

لذلك فعلى كل الأفكار والقيم وكل المعارف والتعاليم أن تخدم هذه الأهداف. ويجب علينا أن نتناول كل شيء من هذا المنطلق، فإما أن نوجهها إلى استخدام عملي أو أن نهملها. فالأفكار النظرية لا يمكن أن تكون مجرد عقيدة إن جعلنا كل شيء في خدمة الأغراض العملية في حياتنا اليومية.

لذلك فإن ما قاله "جوتفريد فيدر" قد جعلني أقرر دراسة قضية لم أكن حتى ذلك الوقت قد تعرفت عليها جيداً.

لذلك فقد بدأت أدرس من جديد ولذلك فقد فهمت لأول مرة الدور الحقيقي الذي يقوم به اليهودي كارل ماركس. وقد أصبحت أفكاره واضحة لي لأول مرة. ولذلك فقد فهمت معنى صراع الاشتراكيين الديمقراطيين ضد الاقتصاد الوطني، إنه صراع لإعداد الساحة لسيطرة دولية حقيقية لرأس مال البورصة. وقد كان هذا المفهوم مهما لي من ناحية أخرى أيضاً.

وفي يوم من الأيام سجلت اسمي في الراغبين في المشاركة في الحديث. وقد حاول أحد المشاركين أن يكسب تأييد اليهود فدافع عنهم دفاعاً مطولاً. وقد أثار ذلك اعتراضي، وقد ساند كثير جداً من حاضري تلك الدورة آرائي. وجاءت نتيجة كل ذلك بعد عدة أيام، فقد نقلت إلى فرقة في ميونخ وعينت فيها "ضابط تعليم".

وكانت روح الالتزام بالنظام ضعيفة بين القوات. فقد كانوا مازالوا يعانون من آثار ما بعد سيطرة "مجلس الجنود". وبالتدريج انتشرت الروح العسكرية والنظام والطاعة بدلاً من "الطاعة الاختيارية" وكان ذلك المصطلح يستخدم للتعبير عن أسس النظام العسكري غير المنضبط عند "كورت ازنر". وكان علينا أن نعلم الجنود التفكير والشعور بطريقة وطنية وقومية. وقد تحدد عملي المستقبلي في هذين الاتجاهين.

وقد أقبلت على عملي بسعادة بالغة وإخلاص. حيث أتحت لي الفرصة للتحدث أمام جمهور كبير. كما استطعت التأكد مما كنت أشعر به حتى ذلك الوقت وهو موهبتي كمتحدث أمام عامة الناس. وقد تحسن صوتي وأصبح كلامي مفهوماً أكثر مما قبل، وذلك على الأقل في القاعات الصغيرة التي يتجمع فيها الجنود.

ولم أسعد بمهمة في حياتي مثل تلك المهمة. فالآن وقبل أن يتم تسريحي أصبح بإمكانني تقديم خدمة مفيدة لهيئة أحبها جداً وهي الجيش.

ويمكنني أن أقول أن أحاديثي كانت ناجحة. فقد وجهت خلال تلك الأحاديث المئات بل الآلاف من الريفيين إلى شعبهم ووطنهم مرة أخرى. كما أنني جعلت تلك القوات قوات وطنية ومن خلال ذلك استعدت النظام العام.

وهنا تعرفت على العديد من الزملاء ممن يفكرون بنفس طريقة تفكيري، وقد أصبحوا فيما بعد أعضاء في المجموعة الأولى التي تكونت منها الحركة الجديدة⁽¹⁾.



(1) يقصد الحركة الاشتراكية القومية التي أنشأها هتلر فيما بعد.

حزب العمل الألماني



وفي يوم تلقيت الأوامر من رؤسائي باستطلاع طبيعة هيئة تبدو من ظاهرها هيئة دبلوماسية وهي تسمى "حزب العمل الألماني"، وكانوا على وشك عقد اجتماع يتحدث فيه "جوتفريد فيدر"، وقد كلفت بحضور ذلك الاجتماع وكتابة تقرير عن الموقف.

وكان من الواضح جداً سبب اهتمام قادة الجيش بمتابعة الأحزاب السياسية. فقد منحت الثورة الجنود حق المشاركة الفعالة في الأحزاب السياسية، فأقبل الشباب قليل الخبرة على الاستفادة من هذا الحق. لكن عندما أدرك حزب الوسط والحزب الاشتراكي الديمقراطي أن الجنود قد تخلوا عن الأحزاب الثورية واتجهوا نحو الحركة الوطنية وحركة الصحة الوطنية شعروا أنهم مضطرون إلى حرمان قوات الجيش من التصويت حتى يحرم من أي نشاط سياسي.

وكان من الواضح أن حزب الوسط والحزب الماركسي قد اتبعا هذه السياسة وإلا لما جردوا الجنود من تلك الحقوق. وكان من الممكن الإطاحة بالحكومة التي شكلت في عام 1918م خلال عدة أعوام بالإضافة إلى عدم تثبيت دعائم احترام الدولة واستقلالها. لكن الجنود كانوا في ذلك الوقت مستعدين لتخليص الأمة من مصاصي الدماء وخدام الحلفاء داخل البلاد. لكن تصويت ما تسمى بالأحزاب القومية لصالح قانون مجرمي الثورة في نوفمبر عام 1918م ساعد على جعل الجيش وسيلة غير فعالة في إصلاح الأمة. وقد أوضح ذلك مرة أخرى أن الشعب يمكن أن ينقاد وراء الشعارات المجردة التي يقبلها أكثرهم سذاجة.

وقد أصبحت عقول الطبقة البرجوازية المتوسطة متحجرة جداً لدرجة أنهم يعتقدون أن الجيش يمكن أن يعود إلى ما كان عليه من قبل أي "حامي الشجاعة الألمانية" بينما كان حزب الوسط والماركسيون يريدون قطع أنياب سم الوطنيين حتى يظل الجيش مجرد قوات للشرطة ولا يعود إلى وضعه كجيش قادر على محاربة الأعداء في الخارج. وقد أكدت الأحداث التي وقعت فيما بعد صدق ذلك.

هل كان السياسيون الوطنيون يعتقدون أن تطوير جيشنا يمكن أن يكون بطريقة غير وطنية؟ فهذا احتمال قائم ويمكن تفسيره بأنهم أثناء الحرب كانوا مجرد متحدثين وليسوا محاربين. أو بمعنى آخر، فقد كانوا برلمانيين ولم تكن لديهم أي فكرة عما يدور في عقول الرجال الذين تذكروا عظمة ماضيهم وأنهم كانوا أفضل جنود العالم في وقت ما.

قررت أن أحضر اجتماع ذلك الحزب الذي كان مجهولاً بالنسبة لي حتى تلك اللحظة. وعندما وصلت إلى غرفة الزوار في تلك الليلة وهي قاعة "سترنكر برولي" وقد أصبح لها معنى تاريخي بالنسبة لنا اليوم، فوجدت أن هناك حوالي 20-25 شخصاً فقط وأغلبهم من الطبقة الدنيا.

وكان موضوع محاضرة "فيدر" مألوفاً بالنسبة لي وذلك لأنني استمعت إليه من قبل أثناء الدورة التي تحدثت عنها من قبل. لذلك كان بإمكانني أن أركز انتباهي على دراسة الموجودين أنفسهم.

وكان الانطباع الذي توصلت إليه ليس بالجميل أو السيء. وقد شعرت أن هناك العديد من التجمعات التي تكونت في ذلك الوقت. فقد كان كل من يشعر بشيء لا يسعده أو يشعر بعدم الثقة في الأحزاب القائمة في ذلك الوقت يكون حزباً. لذلك فقد كانت الأحزاب الجديدة في كل مكان، وكانت تخفي بسرعة أيضاً دون أن تترك أي أثر أو تحدث أي ضجة من أي نوع. وبصفة عامة كان مؤسسي تلك الأحزاب ليس لديهم أي فكرة عن معنى جمع عدد من الناس لتكوين حزب سياسي جديد أو حركة. لذلك فقد اختفت بسرعة لعدم تفهمهم لضروريات الموقف بقدر كاف.

وكنيت أرى أن "حزب العمل الألماني" لا يختلف عن تلك الأحزاب في كثير وذلك عند انتهاء محاضرة "فيدر". وكنيت قد تابعت بما فيه الكفاية وكنيت على وشك الخروج عندما أعلن أن المجال مفتوح أمام أي فرد يود بدء الحوار، لذلك قررت البقاء. لكن النقاش استمر دون التعرض لأي موضوعات مهمة وفجأة بدأ أستاذ في التحدث. وقد بدأ كلامه بالتشكيك في دقة ما قاله "فيدر". وبعد ذلك وبعد رد "فيدر" بطريقة جيدة جداً عاد الأستاذ للتحدث عما يسميه "حقائق أساسية" لكنه تطرق أيضاً إلى نصيحة الحزب الناشئ بأن يضع في برنامجه موضوع فصل بافاريا عن بروسيا⁽¹⁾ كاقتراح رئيسي للحزب. وقد أكد الأستاذ على أن ألمانيا النمساوية ستتنضم إلى بافاريا بما يدعم السلام بصورة أفضل، إلى آخر ذلك من أفكار متطرفة، وهنا شعرت أنه يجب على أن أطلب الكلمة لأعلم ذلك الأستاذ ما تعلمته أنا. وكانت النتيجة أن ذلك الرجل المحترم الذي تكلم من قبل قد غادر كرسيه دون أن ينطق بكلمة. وبينما كنت أتحدث أصغي إلى الجمهور والدهشة تعلو الوجوه. وعندما كنت على وشك أن أحيي الحضور وأنصرف تبعني رجل مسرع وقدم لي

(1) بروسيا مملكة سابقة كانت تشمل شمال ألمانيا وشمال بولندا، وقد أعلنت مملكة بروسيا 1701م، وتوسعت توسعاً كبيراً، وصارت قوة كبيرة في عهد الإمبراطور فريدريك الثاني، وكان لبروسيا دور فعال في توحيد ألمانيا، وصارت جزءاً منها.. واختفت بروسيا بعد الحرب العالمية الأولى من الوجود وتقطعت أوصالها بعد أن أعطى جزء منها لروسيا (كالينجراد) وجزء لبولندا (دانزج). (الناشر).

نفسه. فلم ألحظ اسمه بطريقة صحيحة، لكنه أعطاني كتيب، وكان من الواضح أنه منشور سياسي وطلب مني باحترام شديد أن أقرأه.

❖ | صحوتي السياسية:

وكننت سعيداً جداً لأنني عرفت ما يدور في هذا الحزب دون الحاجة إلى تعب بتكرار حضور اللقاءات. كما أن هذا الرجل الذي أعطاني الكتاب والذي يبدو أنه من طبقة العمال قد ترك في انطباعاً جيداً، لذلك فقد غادرت القاعة.

وكننت أعيش في أحد معسكرات الفرقة الثانية مشاة في ذلك الوقت. وكننت أعيش في غرفة لا تزال تحمل آثار الثورة. وكننت عادة في الخارج طوال النهار إما في أرض معسكر رقم 41 مشاة أو أحضر المحاضرات والاجتماعات التي يعقدها الجيش. وكننت أقضي الليل فقط في مكان إقامتي. وبما أنني كنت أستيقظ كل يوم في الخامسة صباحاً فقد كنت أسعد نفسي بمشاهدة الفئران الصغيرة وهي تلعب في غرفتي الضيقة. وكننت معتاداً على وضع كسرات من الخبز اليابس أو الفتات على الأرض ومراقبة تلك الفئران اللطيفة وهي تلعب حولها وتستمتع بمذاقها. فقد عانيت من الجوع كثيراً أثناء حياتي وأعرف معنى الجوع وأشعر بشدة بما تشعر به هذه المخلوقات الآن.

وفي صباح اليوم التالي للاجتماع الذي ذكرته، صادف أنني استيقظت تماماً من فراشي في الخامسة صباحاً وشاهدت الفئران تلهو معاً. وبما أنني لم أستطع النوم مرة أخرى فقد تذكرت فجأة هذا الكتيب الذي أعطاني إياه أحد العمال في الاجتماع. كان الكتاب عبارة عن مطوية صغيرة وكان هذا العامل هو كاتبها. وقد شرح في هذا الكتيب كيف أن عقله يرفض قيود الماركسية ولغة النقابات العمالية ولذلك فقد عاد لتبني المثل الوطنية. وكان هذا هو سبب تسمية الكتيب "صحوتي السياسية". وقد لفت الكتيب انتباهي بمجرد أن بدأت في قراءته، فقرأته باهتمام إلى آخره. وكان الكتيب يصف ما يشابه ما حدث لي بالضبط منذ عشر سنوات. وبدون أن أشعر استعاد عقلي ما مر بي من تجارب مرة أخرى. وقد عدت بأفكاري إلى ما سبق أن قرأته في نفس اليوم إلا أنني قررت أخيراً ألا أهتم بالأمر أكثر من ذلك.

❖ | حزب العمل الألماني:

وبعد أسبوع أو أكثر تلقيت بطاقة بريدية اندهشت مما جاء فيها وهو قبولي في حزب العمل الألماني. وطلبوا مني الرد على تلك البطاقة وأن أحضر اجتماع لجنة الحزب في يوم الأربعاء التالي.

وكانت تلك الطريقة في الحصول على أعضاء جدد تدهشني، ولم أعرف ماذا يمكنني أن أفعل، هل لي أن أغضب أم أضحك ساخراً من الأمر. فحتى ذلك الوقت لم تكن لدي

أي فكرة عن الانضمام إلى حزب قائم بل كنت أفكر في تأسيس حزب خاص بي. لذلك فقد نظرت لتلبية تلك الدعوة باعتبارها أمراً مستحيلاً.

وكننت على وشك أن أرسل رداً كتابياً عندما استقزني الفضول فقررت حضور الاجتماع في ذلك الموعد المحدد في البطاقة عسى أن يمكنني نقل مبادئي إلى هؤلاء السادة شخصياً.

وجاء يوم الأربعاء، وكان الاجتماع سيعقد في حانة في فندق يسمى روزنباد، وهو فندق لا يقيم فيه سوى قليل من النزلاء. وكان ذلك أمراً مألوفاً عام 1919م حيث كانت فواتير الفنادق الكبرى معقولة وهزيلة، لكن ذلك لم يجد في جذب العملاء، لذلك فلم يسمع أحد عن هذه الحانة من قبل.

مررت من غرفة سيئة الإضاءة ولم يكن من الممكن رؤية أي زائر وبحثت عن الباب المؤدي إلى الغرفة الجانبية وهناك وجدت نفسي وجهاً لوجه مع المجتمعين. وعلى ضوء لمبة جاز ضعيفة شاهدت أربعة من الشباب يجلسون حول طاولة وكان أحدهم هو مؤلف المطوية فحياني بحرارة ورحب بي كعضو جديد في حزب العمل الألماني.

وقد فوجئت بأن رئيس الحزب لم يصل بعد، لذلك فقد قررت ألا أبدأ في شرح موقعي إلا بعد أن يصل. وأخيراً ظهر الرئيس، وكان هو نفسه مدير الحوار في قاعة "سترنكر برولي" عندما تكلم "قيدر".

وقد أثار الأمر فضولي من جديد فانتظرت لأرى ما سيحدث. وقد تعرفت في تلك الفترة على الأقل على أسماء الموجودين والمشاركين في كل أمور الحزب. وكان رئيس الحزب بالطبع هو السيد "هيرر" ورئيس مكتب الحزب في ميونخ هو "أنطون دركسلر".

❖ | أحزاب تدعو إلى الضحك!

قرأت محاضر الاجتماعات السابقة وتم التصويت على الثقة بالسكرتير. ثم جاء تقرير الخزينة. فالحزب يملك 7 ماركات ونصف (وهو مبلغ يعادل سبعة جنيهات إسترلينية وستة بنسات في ذلك الوقت) وعندئذ نال أمين الصندوق ثقة الأعضاء. ثم سُجل ذلك في محضر الجلسة. ثم قرأت ردود كتبها رئيس الحزب على خطابات جاءت للحزب، وكانت قادمة من "كيل" و"دوسلدورف" و"برلين" وكانت الردود كلها تلقى استحساناً من جميع الحاضرين. ثم قرأت الخطابات القادمة من "برلين" و"كيل" و"دوسلدورف" وقوبلت بالرضا. وقد اعتبرت تلك المراسلات علامة واضحة على تزايد أهمية حزب العمل الألماني. ثم جرت مناقشات طويلة حول الردود على تلك الرسائل الجديدة.

وكان الأمر يبدو مملاً للغاية. فالحال تبدو كما لو كان هذا الحزب هو ناد. وكان من المفروض أن أكون عضواً في هذا النادي! ثم نوقشت بعد ذلك قضايا الأعضاء، أو لنقل

موضوع دخولي في المصيدة. فبدأت في توجيه الأسئلة ولم أجد أي شيء في الحزب سوى عدة مبادئ، فلا يوجد برنامج ولا نشرة ولا أي مطبوعات على الإطلاق، فلا توجد بطاقات عضوية ولا حتى ختم للحزب، لا شيء سوى النوايا الطيبة.

فلم أجد أمامي شيئاً سوى أن أضحك، فكل ذلك لا يعني سوى الارتباك التام واليأس العميق الذي تعاني منه كل الأحزاب السياسية وبرامجها وآراءها السياسية. ولم يكن ما يدفع الشباب إلى الانضمام إلى تلك الأحزاب المضحكة سوى صيحة داخلية تقول: إن النظام الحزبي القائم ليس بالقوة التي يمكنها استعادة قوة الأمة الألمانية وتعويض الشعب الألماني عن الأضرار التي لحقت به على أيدي هؤلاء الذين يديرون الأمور الداخلية للدولة. وقد قرأت بسرعة قائمة المبادئ التي يقوم عليها الحزب. وكانت مطبوعة بالآلة الكاتبة على أوراق. وهنا أيضاً وجدت روحاً مشتاقة للعمل والسياسة وتبحث عن الطريق، لكنني لم أجد أي معرفة بالصراع الذي علينا أن نخوضه. وقد جربت بنفسني ذلك الشعور الذي يشعر به هؤلاء وهو التثوق لحركة تكون أكثر من مجرد حزب بكل ما لهذه الكلمة من معنى.

وعدت إلى غرفتي بالمعسكر تلك الليلة وكنت قد لم أجد رأياً قاطعاً في ذلك الأمر وفي مواجهة صعوبة مع نفسي. هل أقبل الانضمام إلى ذلك الحزب أم أرفض؟ كانت كل الاعتبارات تدفعني للرفض، لكن أحاسيسي كانت مرتبكة. وكلما حاولت أن أثبت لنفسي عدم جدوى ما يفعله هذا الحزب بصفة عامة، أجد أحاسيسي متعاطفة معه. ولم أشعر بالراحة في الأيام التالية.

❖ | أهم قرار في حياتي..

وبدأت أفكر في كل الإيجابيات والسلبيات. فقد قررت منذ وقت طويل أن أشارك بفاعلية في السياسة. وكانت هناك حقيقة واضحة أمام عيني وهي أنني لن أستطيع بدء ذلك العمل السياسي سوى من خلال حركة جديدة، لكنني كنت لا أجد ما يحفزني على ذلك. وأنا لست من ذلك النوع من الناس الذين يبدؤون أمراً ما اليوم ثم يهجرونه في اليوم التالي من أجل سيئ آخر جديد. وهذا هو السبب الذي جعل من الصعب علي بشدة أن أنضم إلى حركة جديدة، فلا بد لها أن تكون حركة تحقق كل أحلامي وإلا فليس لي أن أبدأ هذا العمل على الإطلاق. وكنت أعرف أن هذا القرار سيقيدني إلى الأبد بحيث لا يمكنني أن أراجع. وأنا عادة لا أحب العبث المتكاسل بل أحب العمل الجاد من أجل القضية. لكنني أكره من يدعون العلم بكل شيء ولا يكملون أي شيء حتى النهاية. فأنا أكره أصحاب الحرف السبع الذين لا يجيدون أيّاً منها. كما أنني أعتبر ما يقومون به أسوأ بكثير مما لو كانوا قد ظلوا عاطلين ولم يفعلوا شيئاً.

وقد هداني القدر إلى طريق الصواب. فليس لي أن أنضم لحزب كبير موجود منذ زمن طويل وسوف أشرح أسباب ذلك فيما بعد. فهذا الحزب الصغير المضحك بما يضم من عدد قليل من الأفراد يعتبر فرصة فريدة، فهو لم يتحول إلى منظمة جامدة ومتحجرة بعد، وهذا يسمح بنشاط أفراد. لذلك فمن الممكن أن يكون فيه أعمال فعالة، وبما أن تلك الحركة لا تزال صغيرة فمن الممكن أن أشكلها بكل سهولة. فلا يزال من الممكن تشكيل شخصية الحركة وتحديد الأهداف المراد تحقيقها والطريق المتبع، وهذا مستحيل أن يتحقق لو التحقت بحزب كبير قائم منذ زمن.

وكلما فكرت في المشكلة، تأكد لي أن مثل هذه الحركة الصغيرة يمكن أن تكون أداة تمهد الطريق لصحوة الأمة، فهذا غير ممكن من خلال الأحزاب البرلمانية المتمسكة بشدة بأفكار قديمة أو المهمة بدعم النظام الجديد القائم. فلا بد من أن يوجد مذهب جديد وليس مجرد طريقة للاقتراع.

وكان من الصعب جداً أن تتحول النية إلى تطبيق عملي. فما هي الموصفات التي يمكنني الوصول إليها حتى أنتهي من إنجاز تلك المهمة ؟

وكان فقري وعدم وجود أي موارد في يدي - بحسب رأيي - هما أبسط العوائق. لكن كوني شخص غير معروف بالمرة يزيد من تفاقم المشكلة. فأنا واحد من الملايين الذين قد تتاح لهم الفرصة للظهور أو الاختفاء، فحتي الجيران لا يعرفونني. وهناك مشكلة أخرى وهي أنني لم أنه دراستي.

فلا يزال من يسمون بالمفكرين ينظرون باحتقار إلى أي فرد لم يكمل تعليمه ولم يسمح لهم بضخ المزيد من المعارف في عقله. ولم يكن السؤال الشائع عما يمكن أن يفعله الإنسان بل عما درس. فالمتعلمين ينظرون إلى أي أحمق حاصل على شهادات أكاديمية على أنه أفضل ممن هو أقدر منه لكنه لم يحصل على تلك الشهادات القيمة. لذلك فقد كان باستطاعتي أن أتخيل كيف يستقبلني عالم المتعلمين، وقد كنت مخطئاً، وذلك لأنني أدركت فيما بعد أن هناك استثناءات قليلة. وقد تعلمت الكثير والكثير عن بما يمكنني التمييز بين من درسوا في المدرسة ومن تعلموا من الحياة.

وبعد يومين من العزلة والتفكير اقتنعت أن على أن أقوم بالخطوة المتوقعة.

وكان ذلك هو أهم قرار اتخذته في حياتي. والتراجع مستحيل.

لذلك فقد أعلنت أنني مستعد لقبول العضوية المعروضة علي من حزب العمل الألماني واستلمت شهادة عضوية مؤقتة. وكان رقمي عضويتي هو 7.





لماذا انهار الرايخ الثاني^[1]؟

يقاس الانهيار عادة بالفرق بين الوضع الأصلي والوضع بعد الانهيار، وهذه القاعدة يمكن أن تطبق على الأمم والدول. والمسألة الأكثر أهمية هنا هي مدى ارتفاع المستوى الأصلي أو أعلى ارتفاع حققه هذا النظام قبل أن يبدأ الانهيار. (1)

وذلك لأن الانهيار الضخم فقط أو التراجع هو ما يمكن أن يؤثر في الإنجازات الكبرى بحيث يصبح هذا التأثير واضحاً للعيان. وقد حير انهيار الرايخ الثاني أولئك الذين تأثروا به وترك أثره في قلوبهم، وذلك لأن هذا الرايخ قد سقط من ارتفاع يصعب توقعه في أيام البؤس والشقاء.

وقد تأسس هذا الرايخ في ظروف صعبة أثرت في الأمة كلها. فبعد سلسلة متتالية من الانتصارات التي لا مثيل لها سلّمت الإمبراطورية كمكافأة لأبناء وأحفاد الأبطال الذين كافحوا من أجل الأمة، وقد حدث ذلك سواء كان من يتسلمون البلد على وعي بذلك أم لا. وقد شعر الألمان أن هذا التغير لم يحدث من خلال سلسلة مباحثات قام بها سياسيون قادرين ومن خلال قنوات برلمانية، لكن الأمر كان مختلفاً عن أي هيئات دبلوماسية قامت في أي مكان في ظروف عادية. فلم تكن موسيقى البرلمان هي المصاحبة لذلك التغير بل هدير الحرب على طول الجبهة التي تحيط بباريس. وكانت تلك هي الطريقة التي يتم بها العمل الذي قام به رجال الدولة، والذي أسس من خلاله الأمراء والشعب الألماني للرايخ التالي واستعادوا رمز التاج المستبد. ولم تقم دولة بسمارك على الغدر والاعتقال ولكن على الأفواج التي حاربت على الجبهة. وقد كانت الولادة الجديدة لهذه الدولة كافية لكي يحيطوا هذه الإمبراطورية الثانية بهالة من العظمة التاريخية مثل قليل من الأمم السابقة.

ولكن، كيف كان الصعود الذي تلى ذلك! إنه مجرد استقلال يكفل سبل العيش في البلاد. وقد زادت الأمة من حيث العدد والثروات الدنيوية. وقد كفل ذلك كرامة الدولة وكرامة الشعب وحماهما بجيش كان شاهداً على الفرق بين الرايخ الجديد والاتحاد الفيدرالي الألماني السابق.

(1) يستخدم تعبير الرايخ الأول في إشارة إلى الأمة الألمانية في عهد الإمبراطورية الرومانية المقدسة (962م-1806م)، والرايخ الثاني: يطلق على الإمبراطورية الألمانية في الفترة (1871م-1918م)، والرايخ الثالث يطلق على ألمانيا النازية في عهد هتلر في الفترة (1933م-1945م).

إلا أن أقول الإمبراطورية الثانية والشعب الألماني كان شديداً لدرجة أخرست الجميع وجعلت من الصعب معرفة معنى هذا الانهيار أو التفكير فيه. وقد بدا كما لو كان كل الشعب بالكامل غير قادر على تخيل ما كانت الإمبراطورية عليه من تقدم فيما قبل. لذلك فقد بدت تلك العظمة كبرى وهائلة مقارنة مع ما في الحاضر من بؤس. فإذا ما وضعنا ذلك في مخيلتنا عرفنا لماذا شعر الشعب بالدوار عندما كان ينظر إلى عظمة الماضي وينسى النظر إلى أعراض الانهيار الكبير الذي كان واضحاً بطريقة ما أو بأخرى. وهذا بالطبع ينطبق فقط على من يعتبرون ألمانيا أكثر من مجرد مكان للحياة وجلب الرزق، فقد كانوا الوحيدين الذين شعروا بالحالة الحالية وعرفوا أنها مأساة حقيقية. بينما كان بقية الناس يعتبرون أن هذه الأحوال ما هي إلا تحقيق لما كانوا يأملون فيه بصمت.

❖ | علامات الانهيار..

وكانت علامات الانهيار القادم ملحوظة منذ الأيام الأولى، وذلك رغم أن قليلين جداً قاموا بمحاولة استخراج الدروس مما حدث. لكن التغير أصبح ضرورياً الآن أكثر من أي وقت مضى. فأوجاع الجسد يمكن أن تعالج بعد أن يتم تحديد العضو المريض فقط. وكذلك الحال في الأمراض السياسية، يمكن معالجتها فقط بعد التشخيص. كما أنه من الواضح بالطبع أن الأعراض الخارجية للمرض يمكن رصدها بسرعة عن الأعراض الداخلية، وذلك لأنها أعراض تلحظها العين بسهولة أكثر. وهذا هو أيضاً السبب الذي جعل كثيراً من الناس يخطئ ويعتبر أن الأعراض الخارجية هي الأسباب وليست النتائج. كما أنهم يحاولون إنكار وجود تلك الأسباب. وهذا هو ما جعل أغلبية الشعب الألماني يلاحظ انهيار ألمانيا من الناحية الاقتصادية وما تلاها من آثار فقط. وكل منا يتحمل جزءاً من هذا العبء، كما أنه السبب أيضاً في اعتبار أن المأساة الاقتصادية هي السبب فيما نحن فيه الآن من حالة يرثى لها. فالجماهير من عامة الناس لا يرون كثيراً من الآثار الثقافية والسياسية والأخلاقية لهذا الانهيار. وكثير منهم لا يملك كلاً من القوة والمشاعر التي تمكنه من فهم ذلك.

❖ | أسباب الانهيار..

لذلك فإن جماهير الشعب ترى أن أسباب انهيار ألمانيا مفهومة. كما أن هناك قطاعات ذكية من المجتمع تعتبر أن انهيار ألمانيا سببه الكارثة الاقتصادية وبالتالي فقد رأوا أن العلاج يعتمد على حل اقتصادي، وهذا كما يبدو لي هو السبب في عدم تحقيق أي تقدم. فلا يمكن أن يحدث أي تقدم إلا إذا عرفنا أن الاقتصاد لا يلعب سوى دور ثان أو ثالث بينما الدور الأول تلعبه السياسة والأخلاق والعوامل العرقية. وعندما نفهم ذلك فقط يمكننا

فهم أسباب الشرور الحالية وبالتالي نجد الطرق والوسائل التي تعالجها. لذلك فإن التساؤل حول سبب انهيار ألمانيا يعتبر مهماً جداً وخاصة بالنسبة لحركة سياسية تهدف إلى التغلب على تلك الكارثة.

وإذا ما تفحصنا الماضي بغرض اكتشاف أسباب انهيار ألمانيا، فسنجد أنه من الضروري أن نحرص على ألا نتأثر بالنتائج الخارجية التي تصادف أعيننا مما يؤدي بنا إلى تجاهل الأسباب الأوضح التي أدت إلى تلك النتائج.

❖ هل هزيمة ألمانيا هي السبب؟

وأسهل الطرق وأبسطها وأكثرها تقبلاً هو أن نقول: إن حاضرننا السيئ سببه الحرب الخاسرة. وأن هذا هو السبب الحقيقي لما نحن فيه الآن. وقد يكون هناك كثير من الناس ممن يعتقدون في ذلك التفسير العبثي، كما أن هناك أكثر منهم ممن يقولون: إن ذلك بهتان متعمد. وهذا ينطبق على جميع من يأكلون على موائد الحكومة وذلك لأن رُسل الثورة قد أعلنوا مراراً وتكراراً أمام الشعب أنه ليس من المفيد للشعب أن يعرف نتائج الحرب، وعلى العكس تماماً فقد أكدوا للعامة أن التمويل الكبير المخصص للحرب الطويلة هو أمر يخص الدول المتحاربة وأن الشعب الألماني والعمال الألمان ليس لهم علاقة من أي نوع بنتيجة الحرب. كما أكد رسل السلام العالمي أيضاً أن ما يحدث هو صحة للشعب الألماني وليس انهيار وذلك بمجرد أن سقطت القوة العسكرية. ألم تتغنى نفس هذه الدوائر بمدح الحلفاء؟ ألم يلقوا بكامل اللوم على عاتق ألمانيا لأنها كانت تكافح؟ ولكن هل يمكنهم القول أن الهزيمة العسكرية ليس لها أي أثر على الشعب الألماني؟ ألم تلبس الثورة ثياب الاحتفالات ثم منعت تقدم الجيوش المنتصرة التي تحمل رايات ألمانيا فلم يتمكن الشعب الألماني من تأكيد حريته لا في الداخل ولا في الخارج؟ إن لم يكن الأمر كذلك فليجيبني هؤلاء الأوغاد التعساء.

وقد كان هذا النوع من الوقاحة المنتشرة بين اليهود ضرورياً لنشر مقولة أن هزيمة الجيش كانت سبباً في انهيار ألمانيا.

إنهم ينسبون ذلك الانهيار إلى الهزيمة العسكرية.

وكان من الطبيعي ألا أدخل في جدال مع الكذابين ممن ينكرون الآن ما قالوه قبل لحظات. كما أنني لم أكن لأكتب أي كلمة عنهم فهم لا يستحقون ذلك، بل كتبت عن هذا الموضوع فقط لأن هناك من أصحاب العقول الخاوية من يردد كلامهم كالبيغاوات دون أي دوافع شريفة أو تعمد. لكن ما أسجله من ملاحظات موجه أيضاً إلى أتباعنا من المحاربين، وذلك لأن الكلمة الشفهية عرضة للنسيان والتحريف.

❖ | خسارة الحرب لم تكن هي السبب.. وهذا هو البرهان:

وأفضل رد على أن خسارة الحرب تسببت في انهيار ألمانيا هو ما يلي :

من المؤكد أن خسارة الحرب أثرت على مستقبل بلادنا، لكن هذه الخسارة لم تكن سبباً في حد ذاتها. بل كانت نتيجة لأسباب أخرى. وقد كانت النهاية المأساوية لحرب "إما الموت أو الحياة" واضحة لكل صاحب بصيرة ممن يستطيعون التفكير بطريقة سليمة. لكن هناك للأسف أناساً يتوقف فهمهم في اللحظات الحرجة. كما أن هناك البعض الآخر ممن يرون الحقيقة وينكرونها. وهناك من يفاجأ بالحقائق المرة بعد أن يحقق ما يريد. إن مثل هؤلاء هم المسئولون عن الانهيار، وليست الحرب الخاسرة، وذلك على الرغم من أنهم يرجعون الآن كل شيء إلى تلك الحرب. لقد كانت خسارة الحرب حقيقة ناتجة عن أنشطتهم وليست بسبب سوء القيادة كما يحلو لهم القول الآن. فأعداؤنا لم يكونوا من الجبناء. فقد كانوا يعرفون طريق الموت أيضاً. ومنذ أول يوم من أيام الحرب كانوا يتفوقون على الجيش الألماني من ناحية العدد كما كانت المستودعات ومصانع الأسلحة في كل أنحاء العالم تحت أمرهم وتسد أي نقص يحدث في المعدات العسكرية. وكان من المعروف قطعاً أن الانتصارات الألمانية التي حدثت واحداً بعد الآخر خلال عدة أعوام من الحرب ضد العالم أجمع كانت بسبب القيادة الممتازة، وذلك بالإضافة إلى بطولة القوات بالطبع. كما أن تنظيم المعركة يعود فقط إلى قيادة الجيش. وقد كان تنظيم الجيش الألماني وقيادته من أفضل ما شهد العالم على الإطلاق. وأي تقصير حدث واتضح للعيان كان حتمياً ويفوق طاقة البشر. كما أن انهيار الجيش لم يسبب كارثتنا الحالية. فقد كان هذا الانهيار نتيجة لأخطاء الآخرين. لكن هذه النتيجة أدت إلى حدوث انهيار آخر أكثر وضوحاً. ولذلك يمكننا وصف الموضوع بما يلي :

❖ | الهزيمة العسكرية لا تعني موت الأمة:

هل لابد لهزيمة الجيش أن تؤدي إلى سقوط كامل للدولة والأمة ؟ ومتى حدث ذلك بعد أي حرب بائسة ؟ وهل الحروب الخاسرة - الحروب الخاسرة فقط - هي ما يؤدي إلى تدمير الأمة ؟ ويمكن أن تكون الإجابة على هذا السؤال مختصرة إذا أشرنا إلى حقيقة أن هزيمة الجيش سببها هو التراجع الداخلي والجنون وضعف الشخصية وما هي إلا أجزاء لتلك الصفات. فإن لم تكن تلك هي أسباب الهزيمة العسكرية، فإن هذه الهزيمة تؤدي إلى صحو الأمة من جديد وتدفع الأمة جمعاء إلى بذل أقصى الجهود. فالهزيمة العسكرية لا تعني موت الأمة. ويقدم لنا التاريخ أمثلة لا حصر لها تؤكد هذا المعنى.

دعونا نفحص الأعراض الواضحة في ألمانيا في وقت تقبل الشعب الألماني لهذه

الهزيمة. فهل صحيح أن بعض الدوائر استقبلت هزيمة الوطن بفرحة وترحيب بطريقة مخزية ؟ ومن ذا الذي يمكنه أن يتصرف بهذه الطريقة دون أن يجد من ينتقم منه ؟ ألا يوجد بعض الناس ممن أعلنوا أنهم ساهموا في إضعاف الجبهة وحدث الانهيار ؟ لذلك فالعدو ليس هو السبب الوحيد في إلقاء هذا العار على أكتافنا فقد شاركه بعضنا في ذلك. فإذا عانوا مما فعلوه فيما بعد، فهم يستحقون تلك المعاناة. فهل أعلن أي شعب من قبل على مدار التاريخ أنه مسئول عن الهزيمة ؟ بل وأنه تعتمد ذلك وكان على علم به ؟

لا ... أكررها ... لا. فالطريقة التي تعاملت بها الأمة الألمانية مع الهزيمة توضح لنا أن السبب الحقيقي لانهيارنا هو أمر آخر وليس الهزيمة العسكرية وفقدان بعض المواقع أو فشل الهجوم. فإذا كانت الجبهة قد سببت بذلك كارثة للأمة بافساحها الطريق لها لكانت الأمة الألمانية قد استقبلتها بهدوء وبروح مختلفة. وكان لابد لهم من استقبال النتائج وتحملها بعزم أو بحزن. وكان لابد أن تمتلئ قلوبهم بالحزن والغضب الشديد من العدو الذي نال نصراً بالصدفة والقدر. وفي تلك الحالة كان على الأمة أن تواجه الفiasco المهزومة في طريق عودتها وتشكرها على ما قدمت من تضحيات وتطلب منهم ألا يفقدوا الثقة في الإمبراطورية مثلاً فعل مجلس الشيوخ الروماني من قبل. وكان يجب التوقيع على شروط استسلام معتدلة بينما القلوب تخفق أملاً في الانتقام القريب.

هذا هو الاستقبال المناسب للجيش المهزوم الذي تسبب فيه حظ عاثر فقط. كان لا يجب أن يكون هناك أي فرح أو رقص. فالجبن لا يمكن أن يكون مدعاة للتباهي والهزيمة ليست شيئاً مشرفاً. كما لا يجب السخرية من الجنود العائدين من الجبهة وألا تمرغ الأعلام في التراب. وكان يجب ألا تنتشر حالة من الخزي الذي دعا ضابط بريطاني لأن يعلن باحتقار : "أن واحداً من بين كل ثلاثة ألمان خائن". لا ... ليس الأمر كذلك، فقد أكدت السنوات الخمس الماضية أن العالم يحترم الأمة الألمانية.

وهذا يوضح زيف الزعم بأن خسارة الحرب كانت سبباً في تمزق ألمانيا. لا... فالهزيمة العسكرية لم تكن سوى نتيجة لسلسلة من الأعراض المرضية ومسبباتها التي أنخت الأمة الألمانية بالجراح قبل انتهاء الحرب. وكانت الحرب هي النتيجة المأساوية الواضحة للجميع وقد أظهرت السموم التي أصابت عادت وأخلاقيات الأمة كما أوضحت تراجع مبدأ الحفاظ على الذات. وتلك هي الدعائم التي قامت عليها الأمة الألمانية والإمبراطورية.

❖ أساتذة الكذب العظام!!

ولكن يظل اليهود بقدراتهم الواضحة على التزييف وبدعم ممن يدافعون عنهم -

الماركسيين - مسئولين عن الانهيار خاصة بالنسبة لمن أظهروا طاقة كبرى وقدرات عالية في محاولات درء الكارثة التي توقعوها وإيقاد الأمة حتى لا تصل إلى الانهيار التام والخزي. وإلقاء مسئولية الهزيمة في الحرب العالمية على أكتاف "لودندورف"⁽¹⁾ ينزع السلاح من أيدي أصحاب الحق الأخلاقي ويسمح للعدو بأن يساعد المضللين على الإفلات من المحاكمة. كل هذا من وحي المبدأ - الصحيح - القائل أن الكذبة الكبرى تعتمد على قدر من المصادقية وذلك لأن إفساد الجماهير العريضة للشعب يتم بسهولة عند الاعتماد على طبيعتهم العاطفية وليس على الإرادة والعزم. وهكذا فإن عقولهم البسيطة مستعدة للسقوط كضحايا للكذب الكبير والكذب الصغير وذلك لأنهم هم أنفسهم يكدبون كذباً صغيراً في أمور بسيطة لكنهم يخلطون من اللجوء إلى الخداع العام. كما أنه لا يخطر على بالهم أبداً أن يخترعوا كذباً كبيراً ولا يعتقدون أن غيرهم من الناس يملك قدراً من الوقاحة بحيث يشوه الحقائق بطريقة مخزية. وحتى إن كانت الحقائق التي تؤكد ذلك واضحة فإنهم لا يشكون فيمن نسج ذلك الافتراء ويعتقدون بضرورة وجود تفسير آخر. لكن الكذبة الكبيرة الوقحة عادة ما تترك أثراً وراءها حتى بعد انكشافها، وهذه حقيقة يعرفها كل خبراء الكذب وكل ما يحكيون المؤامرات بالكذب والافتراء. ومن يستخدم ذلك الأسلوب يعرف كيفية الاستفادة من الزيف لتحقيق أحقر الأغراض.

ومنذ قديم الأزل واليهود يعرفون كيف يستثمرون الكذب والبهتان. أليس وجودهم ذاته قائماً على كذبة كبرى وهي أنهم مجتمع ديني بينما هم في الحقيقة مجرد عرق؟ وأي عرق! وقد صنف أحد أعظم مفكري العالم اليهود في كل العصور في عبارة صادقة وعميقة وصحيحة جداً. فقد سمهاهم (وهو شوبنهاور) بـ "أساتذة الكذب العظيم". إن من يدركون حقيقة تلك المقولة أو لا يريدون تصديقها لن يستطيعوا أبداً المشاركة في نشر الحقيقة.

لذلك فمن حسن حظ الأمة الألمانية أن فترة الركود والمعاناة قد انتهت فجأة بكارثة فظيعة. فلو كانت الأمور قد استمرت فيما كانت عليه فإن الأمة كانت ستستمر في طريقها إلى خراب أكبر ولكن ببطء. كان المرض سيصبح مزمناً، لكن الكارثة المفاجئة واضحة للجميع. والإنسان لم يقض على الطاعون الأسود بالصدفة لكنه أيضاً لم يسيطر على السل بسهولة. فقد ظهر في موجات مرعبة في البداية أدت إلى وفاة الكثيرين مما أزعج البشرية جمعاء. وكان الثاني يتقدم بمكر والأول ينتشر بصورة مرعبة. وكانت النتيجة - على أي حال - أن الناس واجهوا الأول بكل ما يقدرون عليه من قوة لكنهم حاولوا

(1) وهو قائد الجيش الألماني في الحرب العالمية الأولى.

القضاء على السل بطرق ضعيفة. لذلك تمكن الإنسان من السيطرة على الطاعون بينما لا يزال السل منتشرًا.

❖ أمراض الأمة.. وطرق علاجها:

ونفس الشيء ينطبق على أمراض الأمة. فطالما أن هذه الأمراض ليست ذات طبيعة مأساوية، فإن الناس يعتادون عليها بمرور الوقت، ولكن قد يحدث بالصدفة أن يقرر القدر أن يتدخل ويجعل تلك العملية البطيئة تتفاقم فيصبح الضحية وجهاً لوجه مع المرحلة الأخيرة للمرض. وعادة ما تتخذ إجراءات لمواجهة تلك الكارثة بعزم وسرعة.

لكن حتى في تلك الحالة فإن الشرط الضروري والأساسي للتغلب على مرض ما، هو ملاحظة الأسباب الداخلية التي أدت إلى انتشار ذلك المرض.

والسؤال المهم هنا هو كيفية التفريق بين الأسباب الأصلية والملابس التي نتجت عنها. وترداد صعوبة ذلك كلما استمر وجود الجراثيم في جسد الأمة وكلما سمح لهم بالاستمرار كجزء متمم لهذا الجسد. وقد يصبح من السهل ومع مرور الوقت أن يندمج هذا الجزء بالجسد بحيث يصعب تمييزه وفصل سمومه الخبيثة وذلك لأنه سيكون جزءاً من نسيج الأمة أو أن يتحملهم الشعب باعتبارهم شراً لا بد منه، لذلك فإن المحاولات العنيفة الهادفة إلى تحديد مواقع تلك الجراثيم الغريبة ليست ضرورية.

وخلال الفترة الطويلة من السلام قبل الحرب الأخيرة كانت هناك شرور واضحة هنا وهناك وبالرغم من أن هناك جهود قليلة - باستثناء بسيط جداً - قد تمت لاكتشاف أصول تلك الشرور. كما أن تلك الاستثناءات كانت تركز على تلك الشرور في الحياة الاقتصادية فقد كانت أكثر وضوحاً للعيان عن الشرور التي ظهرت في كثير من المجالات الأخرى. وكانت هناك الكثير من علامات التدهور التي تستوجب التفكير العميق والدارسة. وطالما أننا نتناول الاقتصاد فلا بد لنا أن نقول ما يلي :

إن زيادة عدد السكان في ألمانيا قبل الحرب قد أدت إلى تصدر مشكلة القوات اليومية كل الأمور والإجراءات السياسية والاقتصادية. لكن وللأسف، كان كل المسؤولين غير قادرين على الوصول إلى الحل الصحيح وفضلوا الوصول إلى أهدافهم بطرق رخيصة. لذلك جاء التبرؤ من فكرة الحصول على مستعمرات جديدة وحل محلها رغبة محمومة غزو العالم تجارياً مما أدى إلى إيجاد صناعة كبرى غير ضارة.

وأول وأخطر نتيجة لذلك كانت إضعاف طبقة الفلاحين، فقد تناسب تدهورهم مع زيادة طبقة العمال في المناطق الحضرية إلى أن وصل ذلك التوازن إلى درجة مزعجة تماماً.

وقد أصبح الفارق الكبير بين الأغنياء والفقراء واضحاً جداً. فالرفاهية والفرح يعيشان بالقرب من بعضهما لدرجة لا تحمد عقابها. وقد جلبت الحاجة والبطالة الخراب لبعض الناس وتركتهم وهم ساخطون وناقمون. وكانت نتيجة ذلك أن انقسم الشعب إلى طبقات سياسية. وانتشر السخط بالرغم من الرخاء التجاري. ثم وصلت الأمور أخيراً إلى مرحلة أدت إلى اعتقاد عام بأنه "لا يمكن لهذا الحال أن يستمر". وذلك بالرغم من عدم قدرة أي فرد على توقع ما يمكن أن يحدث.

وكانت هناك علامات واضحة وثابتة تشير إلى تعمق وانتشار السخط. والأسوأ من ذلك أن هناك نتائج أخرى أصبحت واضحة بعد اتجاه الأمة إلى التصنيع.

وقد أصبح المال صنماً يسجد له الجميع ويعبده بعد أن سيطرت التجارة على الأمة إلى حد ما. فقد نسي الجميع الدين ولم يصبح هناك مجال للتعبد. فالعبادة للثروة فقط. وهنا بدأت فترة الانحلال التام الذي أصبح ضار جداً لأنه بدأ في وقت كانت الأمة في حاجة لأفكار مجيدة في تلك الأوقات الحرجة. وكان لابد لألمانيا أن تتدرب بالسيف على حماية جهودها من أجل الحفاظ على القوات اليومية لشعبها بطرق سلمية.

لكن لسوء الطالع حظيت سيطرة المال على دعم من جانب القطاع الذي كان يجب عليه أن يرفض ذلك. كما أن صاحب الجلالة القيصر قد اقترب خطأ بترقيع الممثلين الجدد للتمويل برأس المال إلى مستوى النبلاء. وقد كان ذلك سبباً جعل بسمارك نفسه يفشل في تحديد الخطر الداهم الحقيقي في هذا المجال. ومن الناحية العملية كانت كل المثل والفضائل قد انتقلت إلى مرتبة ثانية عند من يعملون بالمال، وذلك لأنه كان من الواضح أن مجرد السير في ذلك الطريق فإن السيف سيتوارى إلى منزلة ثانية تأتي بعد المال.

وقد نجحت العمليات المالية بسهولة أكثر من العمليات العسكرية. ولم يعد لأي بطل عظيم أو رجل دولة مخلص علاقة بأي بنك يهودي قريب منه. وبدأ النبلاء يفقدون الكثير والكثير من صفات العرق الألماني التي كانت شرطاً في وجوده وذلك لدرجة أن المصطلح "عامي" كان مناسباً لهم في كثير من الحالات.

وقد حدثت سلسلة من التمزق الاقتصادي عندما تضاءلت سيطرة الأفراد على مصالح السوق الثابتة وتحول كل البناء الاقتصادي تدريجياً إلى أيدي شركات البورصة.

وهنا تحول العمل إلى وسيلة في أيدي طبقة من المستغلين معدومي الضمير.

وتزايد نزع الملكيات الخاصة بالأفراد على نطاق واسع. وبدأت دوائر التبادل المالي في الاتساع وتقدمت ببطء وثبات نحو السيطرة على حياة الأمة ككل.

وقد بدأ تدويل الاقتصاد الألماني قبل الحرب بطريقة غير مباشرة وهي إصدار الأسهم. وقد حاول قطاع من الصناعيين الألمان أن يدفعوا هذا الخطر إلا أنهم استسلموا في النهاية قبل أن يتحد جامعي رؤوس الأموال وقد ساعد رجال من الحركة الماركسية ذلك التجمع ودعموه.

وكانت الحرب المستمرة ضد الصناعات الألمانية الثقيلة هي البداية الملموسة لتدويل الحياة الاقتصادية الألمانية كما يتصورها الماركسيون. وكان من الممكن أن يصل ذلك إلى نهاية ناجحة بما حققه الماركسيون من نجاح من خلال الثورة. وبينما أنا أكتب هذه الكلمات الآن هناك هجوم على خطوط السكك الحديدية الألمانية التي ستحول إلى أصحاب الأموال الدولية. وبهذا تكون "الاشتراكية الديموقراطية الدولية" قد حققت أحد أهدافها الرئيسية.

ويتضح الدليل على أن تحويل ألمانيا إلى أمة تجارية في أن أحد رواد الصناعة الألمانية قال عند نهاية الحرب أن التجارة بهذه الطريقة هي الطريق الوحيد الذي سيجعل ألمانيا تقف على قدميها مرة أخرى.

كان كل ذلك الهراء يتردد بينما كانت فرنسا تعيد بناء التعليم العام على أسس إنسانية، فقد توقفت عن نشر فكرة أن حياة الأمة تعتمد على التجارة وليس على القيم المثالية.

وقد أدى البيان الذي أذاعه "ستنز" على العالم في ذلك الوقت إلى فوضى كبرى. فقد أصبح ما قاله على الفور شعاراً سائداً لكل الدجالين ومحبي التحدث من رجال الدولة الذين قادهم القدر إلى التحكم في ألمانيا بعد الثورة. وكان من أهم دلائل الانهيار الألماني هو ذلك الترايد المستمر في عادة تنفيذ نصف المطلوب فقط (أنصاف الحلول). وكان ذلك بسبب عدم الشعور بالأمان المنتشر في كل مكان. كما يمكن أن نرجعه أيضاً إلى قدر من الجبن الناتج عن سبب ما. أما المرض الأخير فكان يتفاقم بسبب نظام التعليم.

كان التعليم في ألمانيا قبل الحرب يعاني من عدد كبير من نقاط الضعف. وكان مقصوراً فقط على نقل المعارف ولا يهتم كثيراً بتطوير القدرات العملية. كما أنه لم يهتم كثيراً بتطوير شخصية الفرد، فكان يولي هذا الأمر أهمية إذا كان ذلك ممكناً. كما لم يكن هناك أي اهتمام يذكر بتنمية الشعور بالمسؤولية. وكانت نتيجة ذلك هي تخريج أناس واسعبي المعرفة ممن يتطلعون لمعرفة كل شيء. وقبل الحرب كنا نحن الألمان نقيم ونقبل على هذا الأساس. فكان الألماني مفضلاً بسبب حسن الانتفاع منه، لكن قيمته الشخصية قليلة لأن شخصيته ضعيفة. ومن يعلمون ذلك جيداً يعرفون أن الألماني يشعر بوطنيته

بشدة عندما يكون في بلد أجنبي. وكانت هناك مقولة منتشرة في تلك الأيام وهي: "من الممكن أن تذهب إلى أي مكان في بلدك وقبعتك في يدك".

وهذا النوع من الأدب الاجتماعي يتحول إلى كارثة عندما يصف الآداب الواجب اتباعها في حضرة صاحب الجلالة. فهي آداب تستوجب عدم وجود أي تناقض من أي نوع. كما يجب مدح أي شيء نعرف أن جلالته يحبه.

وفي هذا الموقف تظهر كرامة الإنسان وهي أكثر ما يحتاج إليه وليست المصالح. فقد يكون التذلل في وجود الملوك كافياً للخادم المحترم والباحث عن منصب، وأيضاً لكل أولئك الذين يسعدهم الوجود بالقرب من العائلة المالكة وليس بالقرب من المواطنين الشرفاء. فهذه المخلوقات ذليلة جداً تتحني أمام سيدها وصاحب الفضل عليها لتسعده بتكبره على غيره من الكبار. وهذا يتضح جداً في إصرارهم على أنهم فقط من يسمون بالملكيين فقط. وهذا قدر كبير من الوقاحة لا يقدر عليه سوى الخسيس، أما النبلاء الجدد والناس العاديون فلا يستطيعون ذلك.

ومثل هؤلاء الناس هم من مهد الطريق لسقوط المملكة والملكية. ولم يكن ذلك ممكناً بطريقة أخرى. فمن يعد لكي يدافع عن قضية لا ينحني أمام من يمثلها. ومن يرغب في الحفاظ على هيئة ما ورفاهيتها لن يسمح لنفسه بالجبن والتخاذل إذا أظهر ممثلو تلك الهيئة بعض الأخطاء والزلات. وهو بالتأكيد لن يسعى هنا وهناك ويخبر العالم أجمع بتلك الأخطاء، لكن أصدقاء المملكة الديمقراطيين الزائفين فعلوا ذلك. حيث ذهبوا للملك صاحب التاج وحذروه من خطورة الموقف وطلبوا منه أن يتصرف. لكنهم لم يتركوا للملك حرية التصرف كما يريد - حتى وإن كان هذا التصرف سيؤدي إلى كارثة - لكن من أحدثكم عنه اعتبر أن من واجبه أن يحمي المملكة من الملك نفسه بغض النظر عن المخاطرة الشخصية التي سيقوم بها. فإذا كانت المملكة تعتمد في وجودها على وجود الملك، فهي أسوأ هيئة يمكن تصورها، فالملوك المثاليون نادرون جداً وليس لديهم حكمة ولا تفهم، كما أن شخصياتهم غير متكاملة وذلك بالرغم من أننا نميل إلى اعتبارهم على العكس من ذلك. وهذه حقيقة مرة يواجهها الخدم والمتملقون. لكن كل العقلاء - وهم عماد الأمة - يتبرأون من المقولة غير المعقولة التي تصف الملوك بأنهم حكماء .. إلخ. فالتاريخ هو التاريخ بالنسبة لهؤلاء الناس والحقيقة هي الحقيقة. حتى وإن كان الأمر يخص الملوك. لكن إذا سعدت الأمة بملك عظيم أو رجل عظيم فلها أن تعتبر نفسها متميزة على كل الأمم الأخرى، كما أنها يجب أن تكون شاكرة لله لأنها لم تتعس بحظ عاثر وملك سيئ.

فمن الواضح أن مبدأ الملكية لا يقوم على الشخص ذاته إلا إذا قررت العناية الإلهية

أن التاج يجب أن يوضع على رأس بطل متألق مثل "فريدريك الكبير"⁽¹⁾ أو شخص حصيف مثل "ويليام الأول"⁽²⁾. وهذا يحدث مرة كل عدة قرون، ولا يزيد عن ذلك إلا نادراً.

ولابد لنا أن نؤكد على هذه الحقيقة في الوقت الحاضر وذلك لأن تلك الظاهرة قد حدثت قريباً وكانت مسئولة بشدة عن انهيار المملكة. فقد تحدث هؤلاء الأشخاص مرة أخرى وبقدر كبير من الوقاحة عن "ملكهم" أي الرجل الذي تخلوا عنه في الساعات الحرجة منذ عدة أعوام. ومن يمتنعون عن المشاركة في الغناء الكاذب يصنفون على أنهم من "أسوأ الألمان". وهذا الاتهام يصدر عن نفس الطبقة التي انفضت من حول الملك في عام 1918م وارتدت الشارات الحمراء. فقد ظنوا أن التعقل أفضل من الشجاعة. فلم يهتموا بما حدث للقيصر وتخفوا في ملابس "مواطنين مسالمين" لكنهم اختفوا بسرعة. وبسرعة البرق اختفي جميع أبطال البلاط الملكي ولم يجدهم أحد في أي مكان. ثم عادوا للظهور بحرص واحداً تلو الآخر وقد كانوا من خدم الملك ومستشاريه، لكنهم عادوا ليمارسوا خدماتهم اللسانية تجاه الملكية لكن بعد أن تحمل عنهم الآخرون مشقة مواجهة من يهاجمون الملكية ومنعوا عنهم رجال الثورة. ومرة أخرى عادوا جميعاً وهم يتذكرون الترف المصري⁽³⁾ ويتعجبون إخلاصاً ووفاء للقضية الملكية. وظل الحال كذلك إلى أن جاء يوم ارتفعت فيه الشارات الحمراء. لذلك تفرقت هذه المجموعة المتداعية من عبدة الملكية من جديد في كل اتجاه تماماً مثل الفئران عندما ترى القطعة.

وإن لم يكن الملوك أنفسهم مسئولين عن تلك الظاهرة لكان من الممكن أن نتعاطف معهم. وكان عليهم أن يدركوا أنهم من الممكن أن يفقدوا تيجانهم بسبب هؤلاء الأبطال، لكنهم لن يحافظوا عليه بمساعدتهم أبداً.

كل ذلك الولاء كان مجرد غلطة وناتجاً عن النظام العام للتعليم الذي يحرص على عقوبات قاسية في تلك الحالة فقط. وقد تم الاحتفاظ بهذا الهراء المؤسف في عدة قصور ملكية متتالية مما أضعف المملكة تدريجياً. وعندما ترنح الحكم الملكي انتهى كل شيء. فالمتملقون والمنافقون لا يحبون الموت من أجل أسيادهم. أما الملوك فلم يلحظوا ذلك أبداً. ولم يجهدوا أنفسهم بالتفكير في ذلك. فقد كانت النتيجة الواضحة لذلك النظام التعليمي الخاطئ هي الخوف من تحمل المسؤولية بما يتبع ذلك من ضعف مع المشكلات الهامة المتعلقة بوجود المملكة.

(1) فريدريك الكبير ملك بروسيا توسعت بروسيا في عهده وصارت قوة كبرى في أوروبا.

(2) ويليام الأول (1688م-1740م) هو الأب الروحي للعسكرية البروسية وكان مشهوراً بالكفاءة والنزاهة وله دور كبير في تنشيط الصناعة والتجارة في مملكة بروسيا.

(3) يبدو أنه يشير بهذا التعليق إلى أن بعضهم قد سافر إلى خارج ألمانيا.

وقد بدأ هذا الوباء - على أي حال - في برلماننا الذي اتضح فيه التملص من المسؤولية بجلاء. وللأسف، فقد انتشر هذا المرض ببطء في كل أوجه الحياة لكنه أثر على الأمور العامة بوجه خاص. فالمسؤولية مخفية في كل مكان وقد أدى ذلك إلى وجود أنصاف الحلول أو أنصاف الإجراءات في كل مكان حيث تقل المسؤولية الشخصية عن كل عمل إلى أقل درجة ممكنة.

فإذ فكرنا في موقف الحكومات المختلفة من الظواهر الضارة في الحياة العامة فإننا سندرك على الفور ذلك المعنى المخيف لسانسة أنصاف الحلول وعدم وجود الشجاعة الكافية لتحمل المسؤولية. وسوف أسرد عدداً قليلاً من الأمثلة الكثيرة التي أعرفها جيداً.

ففي مجال الصحافة يقال إنها "القوة العظمى" داخل الدولة. والصحافة هامة جداً بالقطع. ولا يمكننا التقليل من شأنها على الإطلاق، فالصحافة تكمل العملية التعليمية حتى عند الكبار. لكن يمكننا أن نقسم القراء إلى ثلاث مجموعات :

المجموعة الأولى : قراء يصدقون كل ما يقرؤون.

المجموعة الثانية: قراء لا يصدقون أي شيء يقرؤونه.

المجموعة الثالثة : قراء يفكرون فيما يقرؤونه ويكونون رأيهم بناء على ذلك.

● **والمجموعة الأولى** هي بالطبع أكثر عدداً بكثير من بقية المجموعات، فهي تشمل الجماهير العريضة من الشعب. لكنها تكون جزءاً بسيطاً من فكر الأمة. ولا يمكن تقسيم هذه المجموعة من حيث نوع العمل الذي يمارسونه بل من حيث درجة الذكاء. وهي مجموعة تشمل كل من لم يولوا ليفكروا فيما يخصهم أو الذين لم يتعلموا كيف يفعلون ذلك كما أنهم يصدقون كل ما تكتبه الصحافة - إما لعدم الكفاءة أو بسبب الجهل. كما أننا يمكننا أن نضيف إلى تلك الفئة هؤلاء الكسالي الذين لا يقرؤون بالرغم من قدرتهم على ذلك ويتركون هذا الأمر لغيرهم كما أنهم يتقبلون كل ما يقوله الآخرون دون اعتراض. والتأثير الذي تتركه الصحافة في كل هؤلاء تأثير هائل وذلك لأنهم يمثلون - على أي حال - أغلبية الأمة. لكنهم ليسوا في وضع يسمح لهم بانتقاء ما يصدقونه مما يقرؤون أو أنهم لا يودون ذلك. لذلك فإن اتجاههم نحو المشكلات اليومية يتحدد من خلال تأثير خارجي. وكان من الممكن أن يكون كل ذلك مفيداً لو أن التعليم العام ذا طابع جاد، لكن الكذابين والأوغاد سيطروا على ذلك العمل أيضاً.

● **والمجموعة الثانية** صغيرة العدد فهي تتكون - جزئياً - ممن كانوا فيما سبق أعضاء في المجموعة الأولى وبعد تعرضهم للإحباط عدة مرات ولا يصدقون أي شيء مما يقرؤون الآن. كما أنهم يكرهون كل الصحف. وسواء كانوا لا يقرؤون أيّاً منها إطلاقاً

أو أنهم ينزعجون جداً مما يرد في الصحف ويعتبرونه مجرد كذب وبيانات خاطئة. ومن الصعب التعامل مع هذه المجموعة لأنهم يتشككون في الحقيقة دائماً، ولذلك فهم بلا فائدة في أي تحرك إيجابي.

● **والمجموعة الثالثة هي الأقل، وهي تتكون من المفكرين الحقيقيين من الذين علمتهم قدراتهم الشخصية وما مروا به من تعليم كيف يفكرون لأنفسهم وهم يحاولون أن يكونوا رأيهم الخاص في كل شيء كما أنهم ينتقون ما يصدقونه مما يقرؤون. وهم لا يقرؤون أي جريدة دون استخدام ذكائهم فيما يكتبه الصحفيون وهذه مهمة ليست بسيطة بالنسبة للصحفيين. والصحفيون يقدرّون هذا النوع من القراء مع قدر محدد من التحفظ تجاههم.**

وهنا نجد أن ما تقدمه الصحافة من هراء يعتبر عديم الأهمية بالنسبة للمجموعة الثالثة من القراء. وفي أغلب الأحوال فإن هؤلاء القراء يعتبرون أن كل صحفي ما هو إلا شخص متشرد يقول الحقيقة أحياناً. ولكن للأسف فإن قيمة هؤلاء القراء تكمن في عقولهم وليس قدرتهم العددية، فمن المحزن ألا تمثل الحكمة أي شيء له قيمة في فترة تتمسك بالأغلبية في كل شيء. واليوم، فإن أوراق الاقتراح الخاصة بالجمهور هي عامل يحدد كل شيء، فالقرار في يد المجموعة الأكثر عدداً وهذا معناه أن القرار بيد المجموعة الأولى وهم السذج الذين يصدقون بسرعة كل ما يقال لهم.

لذلك فمن أهم اهتمامات الدولة وأهم الواجبات الوطنية أن تمنع هذه الطبقة الناس من الوقوع في براثن الكذابين والجهلة أو الأشرار من المعلمين. لذلك فمن واجب الدولة أن تشرف على تعليم هؤلاء الناس وأن تمنع أي نوع من أنواع إساءة استخدامه. كما يجب أن تولى الصحافة عناية خاصة وذلك لأن تأثيرها على هذه المجموعة من الناس كبير وعميق جداً. وهذا التأثير ليس مؤقتاً بل دائم. ويتضح المعنى الهائل لهذا التأثير في تماسك وثبات تلك التعاليم التي تتلقاها تلك المجموعة. ولا يجب على الدولة أن تنسى أن عليها أن تستخدم كل ما هو ممكن لتحقيق هذه الغاية. ولا يجب أن تتخذ الدولة بما يقال عن "حرية الصحافة" وتهمل واجبها وتمنع عن الأمة ذلك الخير. وعلى الدولة أن تسيطر على التعليم بحزم وأن تجعله في خدمة الدولة والأمة.

❖ | الغذاء المسموم الذي تقدمه الصحافة الألمانية للشعب الألماني!

لكن ما هو الغذاء الذي تقدمه الصحافة الألمانية لقرائها في فترة ما قبل الحرب؟ إنه أسوأ أنواع السموم التي يمكن أن نتصورها؟ ألم تحاول حركة السلام فرض آرائها على شعبنا بينما كان الآخرون يعدون العدة للانقضاض على ألمانيا؟ أليست تلك الصحافة ذاتها

هي التي وضعت الشك في قلوب العامة حول الحقوق السيادية للدولة ذاتها مما أعاق الدولة عن اختيار وسائل الدفاع ؟ أليست الصحافة الألمانية هي المسؤولة عن كل ذلك الحوار الفارغ حول "ديمقراطية الغرب" لتجعلها مستساغة من شعبنا وقد نجحت في ذلك لدرجة أن كثيراً من عامة الناس يعتقدون أن المستقبل سيكون آمناً من خلال عصبة الأمم؟ ألم تكن تلك الصحافة وسيلة لنشر الانحطاط بين أفراد شعبنا ؟ وهل وضعت الأخلاقيات والذوق العام للسخرية منها واعتبارها موضة قديمة حتى يشعر شعبنا بالتقدم ؟ ألم تقلل الصحافة من سلطة الدولة من خلال الهجوم المستمر عليها، لذلك ترنحت بعد أن تلقت ضربة واحدة فقط وسقطت على الأرض ؟ ألم تعترض الصحافة بكل ما أوتيت من قوة على كل حركة تمكن الدولة من حقوقها، كما أنها ومن خلال النقد المتواصل قد شوهت سمعة الجيش وخربت التجنيد الإلزامي وطلبت وقف اعتمادات الجيش... إلخ، إلى أن نجحت حملتها في تحقيق ذلك ؟

✦ | الصحافة الماركسية تحول الأمة إلى عبيد لليهود!

كانت وظيفة ما يسمى بالصحافة الحرة هي حفر قبر الشعب الألماني والدولة. وليس هناك حاجة إلى أن نشير إلى الصحافة الماركسية. فنشر الكذب ضروري جداً بالنسبة لهم ضرورة الفأر للقط. كما أن مهمتهم الوحيدة هي كسر العمود الفقري للشعب وإعداد الأمة لتصبح عبيداً للتمويل الدولي وأسيادهم وهو اليهود.

لكن، ما هي الإجراءات التي اتخذتها الدولة ضد هذا التسميم لعقول الشعب ؟ لا شيء... لا شيء على الإطلاق، وكان ذلك السكوت والمهادنة بهدف كسب ود هؤلاء الحشرات وذلك عن طريق الإطراء أو الحديث عن أهمية الصحافة وقيمتها ورسالتها التعليمية، وقد لمح اليهود ذلك وابتسموا ابتسامة خبيثة وامتنوا لذلك.

إن سبب هذا الفشل المخزي من جانب الدولة لا يتمثل فقط في رفضها الاعتراف بالخطورة بل أيضاً في معالجتها للموقف بطريقة سطحية وجبانة من خلال استخدام إجراءات غير فعالة. ولم يكن هناك من يجرؤ على اتخاذ إجراءات فعالة وشاملة. فقد تريت الكل بطريقة ما أو بأخرى وزادت الحماسة فقط. لكن النتيجة كانت بقاء كل شيء على ما هو عليه وتزايدت قوة سلطة الصحافة عاماً بعد عام.

وهذا الدفاع أدى بحكومة تلك الأيام إلى المواجهة مع صحافة يسيطر عليها اليهود بصفة عامة تخرب البلاد ببطء ولم يتم اتخاذ أي إجراء محدد، فلم يكن هناك إصرار من جانب الحكومة. وقبل كل شيء لم يكن هناك أي نوع من الأهداف الواضحة في هذا المجال. لذلك فقد أخفق الموقف الرسمي تماماً في تقييم أهمية القضية وفي اختيار الطريقة

المناسبة للتعامل معها وإعداد خطة لذلك التعامل. كانوا يحومون حول القضية فقط، وكلما اشتد الأمر يُسجن واحد أو أكثر من الصحفيين لعدة أسابيع أو شهور بينما بقية الكتيبة السامة تعمل في أمان.

❖ | الصحافة الماركسية تسب كل شيء مقدس!

ولابد لنا أن نعترف أن كل ذلك كان بسبب تخطيط اليهود من جهة والغباء الحكومي من جهة أخرى. فقد كان اليهود في منتهى الذكاء، فجاء الهجوم من كل صحافتهم في وقت واحد. ولم يعمل أي قسم للتغطية على القسم الآخر. وبينما كانت الصحافة الماركسية تسب كل شيء مقدس بطريقة حقيرة، كما هاجمت الدولة والحكومة بضراوة كما أثارت طبقات من المجتمع ضد طبقات أخرى. أما الصحف الديمقراطية المنتمية للطبقة البرجوازية -- وهي أيضاً في يد اليهود -- فقد عرفت كيف تخفي نفسها وراء ادعاء الموضوعية. كما أنها اجتهدت في تجنب اللغة الحادة فهي تعرف جيداً أن العقول المتحجرة تحكم من واقع المظهر فقط ولا تتعمق أبداً في أعماق أي شيء أو معناه. كما أنهم يقيسون قيمة أي شيء من مظهره الخارجي وليس بمحتواه. وكانت الصحافة على علم جيد بذلك.

❖ | نظامنا التعليمي المعيب..

وكانت تلك الطبقة من ذوي العقول المتحجرة لا تسمي الأشياء بمسمياتها وتكره اللجوء إلى استخدام القوة الجسدية، كما أنها تصر دائماً على استخدام سلاح الفكر في نزاعها الشريف. لكن هذا النزاع يكون عادة مع الطبقات التي لا تعرف الفكر. وهذا أحد نتائج نظامنا التعليمي المعيب. فهو نظام يصب المعلومات صلباً في عقول الشباب دون أن يكون قادراً إلى أهم ما في المعرفة وهو الناحية العملية. فالنية الطيبة والإخلاص غير كافيين في هذا الأمر إن لم يكن هناك فهم له منذ البداية. والمعارف التي يجب أن يسعى الإنسان للحصول عليها هي ما يمكنه من فهم أسباب الأشياء.

دعوني أشرح الأمر: لا يجب على الإنسان أن يقع في خطأ الظن بأنه خلق ليكون سيد الطبيعة ومتحكماً فيها. فقد ساعد التعليم غير المتوازن على تشجيع هذا الخيال. لكن على الإنسان أن يدرك أن هناك قانوناً يحكم الطبيعة وأن وجوده في هذه الطبيعة يخضع لقانون الجهاد والصراع الدائم. وبعد ذلك يشعر الإنسان أنه لا يوجد قانون خاص بالإنسان في عالم تسير فيه دورة حياة النبات والشمس بانتظام، كما تسير الأقمار والكواكب بطريقة منتظمة. وطبقاً لهذا القانون تكون الغلبة للأقوى فهي تجعله يتسيد على الأضعف. وعلى الضعيف أن يطيع الأقوى أو أن يُقضى عليه. وعلى الإنسان أن يسلم بصحة تلك القاعدة. وعليه أيضاً أن يحاول فهم هذه القوانين وليس التخلص من سيطرتها.

يكتب اليهود صحفاً تخاطب المتعلمات من النساء المشبوهات ويسمونهن صحافة "الفكر"، ومن بين تلك الصحف صحيفتا "فرانكفورتر زيتونج" و"برلينر تاجبلات". وقد كتبت بطريقة مناسبة لهن كما أثرت أيضاً عليهن. وقد بذلت جهود حثيثة لتجنب كل أنواع التعبيرات التي قد تفاجئ القارئ بجهله ولبث السم في قلوب وعروق القراء. فالأسلوب الجذاب والعبارات الرقيقة تجر القارئ إلى الاعتقاد بأن حب المعرفة والقيم الأخلاقية هي الدافع الوحيد وراء تلك الصحف، لكن هذه الصفات - في الحقيقة - تخفي وراءها النية الخبيثة لتجريد أي معارضة لها من الأسلحة التي قد تهاجم بها اليهود وصحافتهم.

❖ | صحف مشبوهة! وصحافة مخزية!

فهم يدعون الاحترام ويستعرضونه في صحفهم حتى أن القارئ الساذج يصدقهم ويعتقد أن ما تثيره بقية الصحف من تجاوزات ما هي إلا أمور بسيطة ذات طبيعة معتدلة ولا تستحق الإجراءات القانونية التي تتخذ ضدهم. وهذا عمل ينتهك حرية الصحافة، فتبسيط الأمور يجعل تلك الصحف ثقلت من عقاب القانون وتغش الشعب وتسمم عقول العامة. وهنا كانت السلطات بطيئة جداً في اتخاذ أي إجراء ضد هؤلاء اللصوص من الصحفيين خشية أن تتعرض لنقد ممن يتعاطفون مع ما يسمى بـ"الصحافة المحترمة". وهو خوف ينشأ بمجرد بدء أي محاولة للعمل ضد أي صحيفة، فالكل يفزع لمساندة هذه الصحيفة وذلك ليس لدعم سياستها ولكن فقط للدفاع عن مبدأ حرية الصحافة وحرية الرأي العام. وهذه الفزعة تخيف الأقوياء فهي صادرة عما يسمى بالصحافة المحترمة.

وبهذا يسمح لذلك السم بالجريان في دماء الأمة والانتشار في الحياة العامة دون أن تتخذ الحكومة أي إجراءات فعالة للسيطرة على ذلك المرض. كما أن أنصاف الإجراءات المضحكة التي تتخذ تدل في حد ذاتها على عدم التكامل الذي يهدد بانهايار الإمبراطورية. فهذه المؤسسة تلقى كل أسلحتها ولا تدافع عن نفسها عندما يكون من الضروري أن تستخدم كل الأسلحة الممكنة. لذلك فقد كان كل إجراء نصفي يتخذ يشير إلى تراجع داخلي يؤدي بالضرورة إلى انهيار خارجي إن عاجلاً أو آجلاً.

وأنا أعتقد أن جيلنا الحالي يمكنه أن يتعامل جيداً مع هذا الخطر تحت قيادة جيدة. وذلك لأن هذا الجيل قد خاض غمار تجارب دعمت أعصاب كل من لم يصب بانهايار عصبي في حينها. وفي الأيام التالية لابد أن تتعالى صيحات اليهود من خلال صحفهم بمجرد انكشاف أمرهم، وبمجرد أن تتخذ خطوة لوضع حد لتلك الصحافة المخزية وبمجرد أن تصبح تلك الأداة التي تشكل الرأي العام تحت سيطرة الدولة وليست في يد الغرباء والأعداء. وأنا متأكد من أن ذلك سيكون أسهل بالنسبة لنا عما كان أيام آبائنا. فصوت شظايا قنبلة واحدة أقوى من حفيف ألف جريدة يهودية، لذلك فليستمرروا في حفيفهم.

❖ الدعاية.. ودورها في تدمير صحة الشعب الألماني!

وهناك مثال آخر على ضعف تناول المشكلات الوطنية في ألمانيا قبل الحرب وهو كما يلي : بالتزامن مع عملية التلوّث السياسي والأخلاقي للأمة استمرت أيضاً عملية خبيثة لتلوّث الصحة العامة للشعب. ففي المدن الكبيرة بالذات انتشر الزهري والسل وحصدا الأرواح في كل جزء من أجزاء الوطن.

وعلى الرغم من أن الأثر كان واضحاً على الأمة في هذين المجالين إلا أنه لم يكن هناك من هو مسئول عن اتخاذ إجراءات حاسمة لمواجهة تلك الكوارث.

وفي موضوع مرض الزهري بالذات كان اتجاه الدولة والهيئات العامة هو الاستسلام المطلق. وكان من الضروري لمقاومة ذلك المرض أن تتخذ إجراءات أشمل مما حدث. وقد كان لاكتشاف علاج ذلك المرض ذي الطبيعة الغريبة ونشره بطريقة ممتازة في الأسواق قليل من التأثير في مواجهة تلك الكارثة. وهنا، ومرة أخرى كان من الأجدى أن نهجم المرض في مسبباته وليس فيما يسببه من أعراض. والسبب هنا هو الدعاية، حتى وإن كانت الدعاية لا تسبب هذا المرض المخيف والخطير فإنها قادرة على القضاء على الأمة ببطء. هذا التهور الذي ساد حياتنا الروحية وحب المال والتنازل سيؤدي إلى تخريب أجيالنا القادمة إن عاجلاً أو آجلاً. فبدلاً من أن يكون أطفالنا أصحاء وأقوياء ومعممين بالمشاعر الوطنية سيكون لدينا عينات من البشر الناتجة عن الحسابات الاقتصادية. فقد أصبحت الحسابات الاقتصادية أساساً وشرطاً وحيداً للزواج. وليبحث الإنسان عن مكان آخر يمارس فيه الحب.

وهنا يمكن للإنسان أن يتحدى الطبيعة لفترة من الزمن، لكنها ستتقم منه بعنف إن عاجلاً أو آجلاً. وعادة ما يدرك الإنسان هذه الحقيقة ولكن بعد فوات الأوان.

وقد تعرض نيل الشعب الألماني إلى العواقب التي نتجت عن تحدي الشروط الرئيسية للزواج الطبيعي. حيث أصبحنا وجهاً لوجه مع عادة التكاثر التي تفرضها الضغوط الاجتماعية من جهة والاعتبارات الاقتصادية من جهة أخرى. فإحدهما يؤدي إلى ضعف متوارث والأخرى تؤدي إلى تداخل الأعراق، حيث ينظر إلى كل بنات اليهود من أصحاب المتاجر على أنهم زوجات مناسبات يمكنهن إنجاب ذرية جيدة. وهذا يؤدي بالتأكيد إلى الانحطاط. واليوم يفعل أبناء الطبقة الوسطى نفس الشيء، ليصلوا إلى نهاية الرحلة.

وقد تم تجاهل هذه الحقائق الكريهة بسرعة وبلا مبالاة كما لو كان ذلك سيؤدي إلى اختفاء تلك الظاهرة. لكن ... لا. لا يمكننا إنكار أن شعبنا في المدن الكبرى لا يزال يميل

للاستفادة من الدعارة لإشباع غريزة الجنس وبالتالي فهو يتعرض أكثر وأكثر إلى مزيد من الأمراض التناسلية المهلكة. كما أن تلك العدوى - من جهة أخرى - منتشرة أيضاً في مستشفيات الأمراض العقلية و... للأسف بين أطفالنا داخل البيوت. هؤلاء هم الشهود المأساويون المحزنون على أن هذا الهلاك يتزايد وينشر سمومه في حياتنا الجنسية. ومعاناة هؤلاء الأطفال دليل واضح على الرذيلة التي مارسها أي من الوالدين.

وهناك عدة طرق تؤدي إلى الاستسلام إلى هذه الحقيقة المفزعة والمحنة. فكثير من الناس يستمرون في حياتهم دون أن يعلموا أي شيء عنها أو على الأصح لا يدون معرفة أي شيء عنها. وهذه هي أبسط الطرق وأرخصها في تناول القضية. وهناك من يتخفى في رداء الحشمة والوقار وهذا كذب مضحك. وهم يعتبرون أن هذا الأمر خطيئة كبرى ويشعرون بسخط شديد عند مواجهة أحد الضحايا. فهم يغمضون عيونهم بكرأهية واضحة ويصلون لله من أجل أن يلقي عقابه بعد الموت. وهم بذلك يقدمون مثلاً آخر لهؤلاء البشر الذين لا يشعرون بالخزي أبداً. وأخيراً نجد هؤلاء الذين يعرفون تلك النتائج الخبيثة لكنهم يهزون أكتافهم فقط وهم مقتنعون بعدم قدرتهم على فعل أي شيء لمواجهة هذا الخطر. لذلك فهم يتركون الأمور تسير في طريقها المعتاد.

وقد كان كل ذلك مناسباً وبسيطاً، إلا أننا تجاهلنا أن الطرق المناسبة يمكن أن تؤثر تأثيراً خطيراً على حياة أمتنا. والعذر القائل بأن بقية الأمم ليست أفضل منا بكثير لا يغير من حقيقة تراجعنا في شيء سوى أن تعاطفنا مع الأمم الأخرى المصابة بنفس الداء يجعل تحملنا للمعاناة أكثر سهولة. لكن السؤال المهم الذي يثار هنا هو: من هي الأمة ذات السبق في هذه الكارثة ومن هي الأمة التي تليها؟ وهذا هو لب الموضوع. فالحاضر الذي نعيشه ما هو إلا اختبار للقيم العرقية. والعرق الذي يخفق في اجتياز الاختبار سينتهي بسهولة وتحل محله أعراق أقوى وأكثر صحة وقدرة على مواجهة الصعاب. وبما أن هذه المشكلة تخص الأجيال القادمة وتنتمي إلى تلك الفئة من الخطايا التي يرتكبها الآباء ويحصد ثمارها الأبناء حتى الجيل العاشر. وهذا ينتهك قوانين الدم والأعراق.

إن الجرائم الموجهة ضد الدم والأعراق هي جرائم متوارثة تجلب الدمار لكل أمة ترتكبها.

وقد كان الاتجاه الذي اتخذته ألمانيا في معالجة تلك المشكلة قبل الحرب مؤسفاً جداً. فما هي الإجراءات التي اتخذت للقبض على ناشري العدوى بين شبابنا في المدن الكبرى؟ ماذا فعلنا لننهي تلويث حياتنا الجنسية والاتجار بها؟ ماذا فعلنا لوقف نشر الزهري في كل أنحاء الأمة؟ والرد على هذا السؤال يتضح باستعراض ما كان يمكن أن يحدث.

كان على السلطات - بدلاً من أن تتعامل مع تلك المشكلة بطريقة عشوائية - أن تدرك أن شقاء أو سعادة الأجيال القادمة مرهون بما يتخذ من حلول. وهذا يستوجب اتخاذ إجراءات فعالة وبلا هوادة. ومن شروط نجاح ذلك هو أن يتم لفت انتباه البلاد كلها إلى هذا الخطر الداهم حتى يدرك كل فرد أهمية محاربة تلك المشكلة. فمن غير المجدي أن نفرض التزامات محددة تكون صعبة التحمل ونتوقع أن تكون فعالة بصفة عامة ما لم يتم توجيه عامة الناس إلى ضرورة التقيد بتلك الالتزامات وقبولها. وهذا يتطلب طريقة منظمة للتتوير على أن تتراجع كل المشكلات الأخرى التي تحوز انتباه عامة الناس - وتعتبر أقل أهمية من تلك المشكلة - إلى منزلة تالية.

وفي كل الحالات التي تبدو مهاماً شاقة ومن المستحيل التعامل معها فلا بد من تركيز الرأي العام على مشكلة واحدة وأن يعرف الجميع أن حل هذه المشكلة مسألة حياة أو موت. بهذه الطريقة فقط يمكن أن نثير الاهتمام العام بهذه المشكلة ونحفز الناس على التعاون مع الجهود المبذولة وتحقيق نتائج هامة.

وهذه الحقيقة الأساسية تنطبق أيضاً على الفرد، فإذا كان راعياً في الوصول إلى غايات عظمى فعليه أن يركز جهوده في مرحلة محددة من مراحل تطوره على الانتهاء من خطوة ما قبل أن يحاول اتخاذ الخطوة التالية. فمن لا يسعى من أجل تحقيق أهدافه خطوة خطوة ولا يركز جهده لتحقيق المراحل التي يهدف إليها لن يصل أبداً إلى أهدافه النهائية. فسوف يتعثر ويسقط مرحلة من المراحل. فاستخدام طريقة منظمة من أجل الوصول إلى هدف محدد فن في حد ذاته. وهذا يستدعي بذل كل الطاقات المتاحة من أجل تحقيق النجاح خطوة خطوة طوال الطريق.

لذلك فإن أول شرط ضروري ولازم في تلك المرحلة الصعبة هو أن تتجح السلطات في إقناع جماهير الناس بأن النتيجة الفورية التي نود الوصول إليها الآن هي ما يجب أن نهتم به وعليها يعتمد كل شيء. فالجماهير العريضة لا تستطيع تحديد أي الطرق التي يمكنها أن تسير فيها دون تعب يؤدي إلى الاعتقاد بأنهم لن يستطيعوا إكمال المهمة. فالهدف سيكون في عقولهم إلى حد ما لكنهم يستطيعون استكشاف جزء بسيط من الطريق فقط مثل المسافر الذي يعرف أين تنتهي رحلته لكنه لا يستطيع تقسيم ذلك الطريق إلى مراحل. فبهذه الطريقة فقط يستطيع المسافر أن يحافظ على عزمه ورغبته في الوصول إلى هدفه النهائي.

❖ | مستقبل صحي أو انهيار الأمة!

لذلك يجب أن توضع مشكلة الأمراض التناسلية أمام الشعب بهذه الطريقة وبمساعدة كل أنواع الدعاية، وذلك ليس باعتبارها مهمة من مهام الأمة ولكن باعتبارها أول مهام

الأمة. ولابد من استخدام كل الطرق الممكنة من أجل وصول حقيقة تلك الكارثة إلى عقول الناس وحتى تقتنع الأمة بأكملها بأن كل شيء يعتمد على حل تلك المشكلة، ويمكننا أن نقول : إما مستقبلاً صحيحاً أو انهيار الأمة.

وبعد عدة إجراءات تمهيدية - قد تستمر عدة سنوات إذا استلزم الأمر - يمكن أن يكون كل التركيز العام وعزم الأمة مستثار تماماً وفي تلك اللحظة فقط يمكن اتخاذ إجراءات حاسمة ومحددة دون المخاطرة بعدم الفهم التام للقضية أو التفاجؤ بتراخي همم عامة الناس. ولابد لأن يكون من الواضح أن الصراع الحاد مع ذلك الخطر يتطلب توضيحات كبيرة وكثير من العمل الشاق.

إن شن الحرب على الزهري تعني محاربة الدعارة والظلم والعادات القديمة والموضة الحديثة والرأي العام وأخيراً وليس آخراً محاربة الحشمة الزائفة عند بعض الناس.

❖ | الزواج المبكر أهم الأسلحة في محاربة الدعارة!

وأولى الشروط التمهيدية التي يجب تحقيقها قبل أن تدعي الدولة بحقها في محاربة كل تلك الأشياء هو تقديم كل التسهيلات للأجيال الشابة لكي يتزوجوا في سن مبكرة. فالزواج المتأخر ضار بالبشر مهما كانت نظرتنا إليه.

والدعارة عار على الإنسانية لا يمكن التغلب عليه بالإحسان أو بالطرق الأكاديمية. فالحاد منها والقضاء النهائي عليها يستلزم إزالة كل الظروف التي تؤدي إليها. وأول علاج هو أن نجعل الزواج مبكراً قدر الإمكان بالنسبة للرجال على الأقل. فالنساء - على أي حال - يلعبن دوراً سلبياً في هذا الأمر.

ويمكن توضيح كيفية تضليل الناس وغوايتهم في هذا المجال الآن من خلال الحقيقة القائلة بأنه من النادر أن نسمع عن أن الأمهات في الطبقات المسماة بالأفضل ممن وجدن أزواجاً لبناتهن ممن لم يمروا بتلك التجربة الجنسية السيئة. فهناك عجز في هؤلاء الرجال، لذلك فإن البنات المسكينات لا يجدن سوى الزواج ممن مر بتلك التجارب الجنسية وينتج عن هذا الزواج أطفال يحملون نفس الصفات.

وعندما ندرك - بغض النظر عن ذلك - أن كل الطرق الممكنة قد استخدمت لإعاقة عملية التناسل الطبيعي يبقى أماننا سؤال واحد: لماذا ظل الزواج قائماً إذن؟ وما هي وظيفته؟ أليس الزواج أفضل من الدعارة؟ أليس علينا أي دور نقوم به تجاه الأجيال القادمة؟ أم أن الناس لا يدركون طبيعة اللعنة التي يوجهونها إلى أنفسهم وإلى نسلهم بتجاهلهم الإجرامي الأحق لأحد أهم قوانين الطبيعة؟ بهذه الطريقة تتراجع الأمم العظيمة وتهلك تدريجياً.

❖ | مشكلة الإسكان تمهد الطريق إلى الدعارة!

فالزواج ليس غاية في حد ذاته بل هو يخدم غاية أسمى، وهي الحفاظ على الأجناس البشرية والأعراق. وهذا هو معناه الوحيد والغاية من ورائه.

فإذا حدث ذلك فمن الواضح أننا نحكم على الزواج من خلال الطريقة التي يتم بها تحقيق الهدف منه. لذلك فمن الواجب أن يكون الزواج المبكر هو القاعدة وذلك لأن الشباب الصغير يملك القوة والصحة اللتين تضمنان له ذرية قوية وصحية البدن. لكن الزواج المبكر لن يصبح قاعدة إلا إذا تم اتخاذ سلسلة من الإجراءات الاجتماعية أولاً والتي لا يمكن التفكير في الزواج المبكر قبلها. أي لابد من حل تلك المشكلة التي تبدو صغيرة في حد ذاتها لكنها لا يمكن أن تحدث قبل اتخاذ إجراءات تعديل الخلفية الاجتماعية. ولابد من دراسة أهمية تلك الإجراءات وتقييمها بطريقة مناسبة وخاصة في الوقت الذي أظهرت فيه ما تسمى بالـ "جمهورية" عدم قدرتها على حل مشكلة الإسكان فجعلت الزواج مستحيلاً لعدد لا يحصى من الأزواج. وهذا النوع من السياسات يمهد الطريق لتقدم الدعارة.

وهناك سبب آخر جعل الزواج المبكر مستحيلاً وهو الطريقة غير المعقولة لنظام المراتب، فهي طريقة تقدم أقل بكثير مما يمكن من إنشاء أسرة. لذلك فمن الممكن تناول موضوع الدعارة من خلال الإصلاح الاجتماعي الشامل، وعندئذ يصبح الزواج المبكر ممكناً. وهذا هو أول ضروريات حل المشكلة.

❖ | العقل السليم في الجسم السليم!

ثانياً: يجب التخلص من كل الشعارات الزائفة التي يحفل بها نظام التربية والتعليم عندنا، وهو أمر لم يهتم به أحد. فلابد من وجود توازن في نظامنا التعليمي، وأولاً وقبل كل شيء لابد من الاهتمام بالتدريبات العقلية واللياقة البدنية.

إن ما هو معروف الآن باسم "المدرسة ما هو إلا إهانة للمدرسة اليونانية القديمة. فنظام التعليم لدينا لا يعرف أبداً أن "العقل السليم في الجسم السليم". وهذه العبارة تنطبق على جماهيرنا العريضة مع قليل من الاستثناءات.

وفي ألمانيا قبل الحرب - في فترة ما - لم يفكر أحد في تلك الحقيقة. فقد كانت التدريبات البدنية مهمة بطريقة إجرامية ولم يكن هناك تدريب سوى للعقل وذلك لأنهم اعتبروه ضماناً كافية لعظمة الأمة. وقد ظهرت آثار هذا الخطأ بأسرع مما كان متوقفاً. فلم يكن من قبيل الصدفة أن تنتشر التعاليم البلشفية في تلك المناطق التي يقترب فيها السكان من المجاعة مثل وسط ألمانيا وساكسوني ووادي رور على سبيل المثال. ففي هذه

المناطق لا توجد أي علامات لمقاومة هذا التأثير اليهودي حتى فيما يسمى بالطبقات المثقفة. وسبب ذلك هو أنه حتى الطبقات المتعلمة كانت متعبة من الناحية البدنية، وذلك ليس بسبب الفقر ولكن بسبب التعليم. فلم يستطع الطلاب الحفاظ على أنفسهم ولا شق طريقهم في الحياة. وفي كل حالة فردية كانت هناك إعاقة جسدية ما تذخر بضعف الشخصية.

إن الإسراف في التركيز على تعليم العقول وما نتج عنه من إهمال للتدريبات البدنية لابد أن يؤدي إلى التفكير في الجنس في سنوات الشباب المبكرة. أما من يتدربون وتقوى أجسادهم بممارسة الرياضة فإنهم يكونون أقل عرضة للانغماس في الشهوات الجنسية ممن ظلوا في بيوتهم واهتموا بحشو عقولهم فقط. والطرق التعليمية المقبولة - على أي حال - لا يمكنها تجاهل ذلك، فلا يجب علينا أن ننسى أن ما نتوقعه المرأة من شاب صحيح يختلف عما نتوقعه من الضعيف الفاسد قبل الأوان.

لذلك فلا بد لليوم الدراسي عندنا أن يستفيد من أي وقت فراغ لتنمية القدرات البدنية للطلاب. فليس للطلاب أن يتسكع في الشوارع ويؤدي الناس عند دور السينما، والأفضل من ذلك أن يعتني بتقوية جسده بعد الانتهاء من أعماله المدرسية اليومية، وذلك حتى يجد جسده قوياً عندما يحتاج إليه. وإعداد ذلك وتنفيذه هو مهمة نظام التعليم فعليه ألا يكتفي بمجرد ضخ المعلومات في عقول الطلاب. كما يجب على نظامنا المدرسي أن يتخلص من فكرة أن تدريب البدن مهمة تترك للفرد ذاته. فليس من الممكن لنا أن نترك الشاب ليختار ما يضر ذريته القادمة ويضر بالعرق.

❖ | دور السينما والمسرح والإعلانات في إغواء الشباب!

إن الحرب ضد تلويث القول يجب أن تنشب في نفس الوقت الذي يبدأ فيه تدريب البدن. واليوم يمكننا أن نشبه حياتنا العامة ببيت بلاستيكي حار يساعد على زيادة الأفكار الجنسية وإثارتها. إن ما تقدمه دور العرض السينمائي والمسارح غير مناسب لشبابنا على وجه الخصوص. كما أن اللوحات الإعلانية وأكشاك الإعلانات تتحد من أجل جذب الناس بطريقة مبتذلة. وكل من تجاوز سن المراهقة على علم بالآثار السلبية الكبيرة لذلك. فهذا الجو المغربي الحسي يضع في عقول شبابنا أفكاراً لا يجب أن يعرفونها في مثل هذا السن. ولسوء الحظ، فإن آثار مثل هذا النوع من التعليم واضحة على شبابنا الذين كبروا قبل الأوان وبالتالي فهم يشيخون قبل الأوان أيضاً. ومن حين لآخر تلقى المحاكم بعض الضوء على مشكلات الأطفال في سن 14-15 عاماً. فليس لنا -إن- أن نتعجب إذا علمنا أن الأمراض التناسلية تنصيد ضحاياها في هذا العمر. وليس من الغريب أيضاً أن

نرى أن كثيراً من الشباب المتعلم ضعيف الجسد قد سقطوا في براثن عاهرات المدن الكبرى من أجل تعلم أسرار الجنس قبل الزواج.

لا ... إن من يريد مقاومة البغاء لابد له أولاً أن يساعد في القضاء على البيئة التي تساعد على ازدهاره. ولابد من تطهير المدن من التلوث الأخلاقي دون خوف ودون أي اعتبار لما ينتج عن ذلك. فإن لم نسحب شبابنا من هذا المستنقع فسوف يغرقون فيه. ومن لا يرغب في ذلك فهو يشجع الشباب على الاستمرار ويأثم بمساعدة الدعارة على الاستمرار في المستقبل، والمستقبل من حق الأجيال الجديدة فقط. ولابد لعملية تنظيف ثقافتنا أن تمتد في عدة مجالات. فلا بد أن يتطهر الفن والمسرح والأدب والسينما والصحافة واللوحات الإعلانية مما يلوثها ولابد أن تكون جميعها في خدمة الأفكار القومية. ولابد أن يتخلص الشعب من الروائح الخائقة لتلك الإثارة الجنسية وكذلك الاحتشام الظاهري المفرط. ولابد أن يكون هدفنا الأول من وراء كل ذلك أن نحافظ على بقاء أمتنا سليمة جسدياً وروحياً. ثم تأتي الحرية الشخصية الفردية في مرتبة ثانية بعد الواجب الهام وهو الحفاظ على العرق.

❖ | ضحايا العاهرات!

وبعد أن يبدأ تنفيذ كل ذلك تبدأ الحملة الطبية لمكافحة المرض وهي آملة في النجاح. لكن، ومرة أخرى أقول: إن أنصاف الحلول لن تجدي. فلا بد من اتخاذ قرارات هامة وبعيدة المدى. وسنكون قد قدمنا نصف الحل إن تركنا المرض ينتشر من فرد لآخر. فأى نوع هذا من الإنسانية الذي يترك المئات يفسدون لكي ينقذ فرد واحد. لكن المناداة بمنع الأفراد الضعاف من الاستمرار في جلب مزيد من الذرية الضعيفة أمر منطقي قائم على أسس معقولة جداً، وتنفيذ ذلك بطريقة مناسبة هو من أكثر المهام التي تحتاج إليها الإنسانية. وهناك الكثير من الأحزان والمعاناة التي ستنتشر بين الملايين من البشر، لكن صحة الأمة ستكون أفضل. والقرار الحاسم بالعمل بهذه الطريقة سيمثل عقبة أمام الأمراض التناسلية في نفس الوقت. وقد يأتي وقت يتطلب عزل كل الميئوس من شفائهم، وقد يعتبر تعساء الحظ الذين سيعزلون أن ذلك أمر بربري إلا أنه رحمة بالجيل الحالي والأجيال القادمة. فما سيعانيه هذا الجيل من آلام خلال هذا القرن سيمنع معاناة آلاف الأجيال القادمة.

إن الحرب ضد الزهري والدعارة التي تسببه هي إحدى المهام العظمى للبشرية، وهي مهمة عظمى لأنها ليست مجرد مشكلة فردية ولكنها تتطلب إزالة سلسلة من الشرور التي تساهم في انتشار هذا الوباء. فمرض الجسد في هذه الحالة ناتج عن مرض أصاب الأخلاق والمجتمع والصفات العرقية.

لكن، ماذا لو لم نتمكن من إنهاء تلك الحرب إما بسبب التكاثر أو الجبن، فهل لنا أن نتخيل الأمر بعد 500 عام من الآن. لن يبقى في الإنسان من الصفات الطيبة إلا القليل.

لكن، ماذا حدث في ألمانيا لمواجهة تلك الكارثة ؟ إذا فكرنا في الإجابة بهدوء فسنجدها مؤلمة. فمن المعروف أن الحكومة علمت بالآثار الفظيعة للمرض، لكن الإجراءات المضادة التي تم اتخاذها كانت غير فعالة وفاشلة. فقد ركزوا على معالجة الأعراض بغض النظر عن سبب المرض. وكانت الفحوص الطبية تجرى للعاهرات ويتم السيطرة عليهن قدر المستطاع، كما أنهن كن يرسلن إلى المستشفيات عندما تظهر عليهن أعراض المرض. إلا أنهن يطلقن ليعشن في الأرض فساداً مرة أخرى إن بدت عليهن أعراض الشفاء ظاهرياً.

وقد استجد تشريع للوقاية من المرض جعل الحرمان من المعاشرة الجنسية جزاء كل من لم يشف تماماً من ذلك المرض التناسلي. وهذا التشريع صحيح من الناحية النظرية لكنه فشل تماماً عند التطبيق. وأول شيء يعوق تطبيق هذا التشريع هو أن النساء يرفضن في أغلب الحالات الحضور إلى المحكمة للشهادة ضد الرجال الذين أصيبوا بالمرض. فالنساء يوصمن بالعار أكثر من الرجال في تلك الحالة بالطبع. كما لنا أن نتصور الوضع الذي تكون فيه المرأة عندما ينتقل إليها المرض من زوجها. فهل للمرأة في تلك الحالة أن ترفع قضية ؟ أم ماذا تفعل ؟

أما بالنسبة للرجل فإنه يتعرض لذلك الخطر أحياناً عندما يكون مخموراً. فحالته لن تسمح له بتقييم الموقف، وهذا معروف جيداً لكل من يعملن بالدعارة من العاهرات مما يجعلهن يفضلن ذلك الحال من الرجال حتى لا يفكرون في العدوى. كما أن الرجل المخمور لن يتذكر من كانت بصحبته من العاهرات وهذا أمر مألوف في مدن مثل برلين وميونخ. وكثير من أصحاب تلك الحالات جاءوا من مناطق أخرى وجذبهم سحر حياة المدينة الفاتنة فأصبحوا فريسة سهلة للعاهرات.

ثم، من ذاك الذي يمكنه أن يحدد ما إذا كان قد أصيب أم لا ؟

ألا توجد حالات مسجلة لا حصر لها ممن يبدون أصحاء بعد العلاج ثم تحدث انتكاسة، وبذلك ينشر صاحبها قدراً هائلاً من البلية دون أن يعلم بها ؟

لذلك، فقد أظهر التطبيق العملي لتلك التشريعات أنها سلبية. كما أن نفس الشيء ينطبق على السيطرة على الدعارة، وحتى العلاج الطبي والشفاء قد أصبحت أموراً مشكوكاً فيها وغير آمنة حالياً. لكن هناك شيئاً وحيداً مؤكداً، فقد انتشرت الكارثة أكثر وأكثر بالرغم من كل الإجراءات، وهذا وحده دليل كاف على عدم كفاءة تلك الإجراءات.

كما أن كل ما تم اتخاذه أيضاً من إجراءات أخرى كان غير كاف وغير مجد. فلم يتم كبح جماح الرغبة في الدعارة عند الناس ولم يتخذ أي إجراء من أي نوع في هذا المجال. أما من لا يعتبرون هذا الموضوع موضوعاً هاماً فعليهم الرجوع إلى بيانات الإحصاء الخاصة بانتشار المرض، وعليهم دراسة انتشار المرض خلال قرن مضى وتوقع احتمالات انتشاره في المستقبل. فالمشاهد العادي سوف يرتعد عندما يدرك حقيقة الأمر، إلا إذا كان على قدر ملحوظ من الغباء.

إن الأسلوب الفاتر والمتردد الذي اتبعته حومة ألمانيا قبل الحرب في ذلك الظرف الحاد يعتبر علامة واضحة على انهيار الأمة. فعندما نجبن عن الدفاع عن صحة الفرد فإننا نفقد حق الحياة في هذا العالم.

❖ الشيوعية تسببت في انتشار أمراض مرعبة أصابت الشعوب المنحلة!

وهناك علامة واضحة في الرايخ القديم⁽¹⁾ عانت منها الحياة الثقافية بصفة عامة وتمثلت في التراجع الشديد في المستوى. وأنا لا أعني بالثقافة ما نقصده اليوم من حضارة والتي قد تعتبر ضارة بتطور الحياة الروحية للأمة.

ومع نهاية القرن الماضي ظهر عنصر جديد في العالم، وهو عنصر ظل مجهولاً تماماً حتى ذلك الوقت، فلم نعرفه. ففي العصور السابقة كانت هناك انتهاكات للذوق العام لكنها كانت تأتي من الفنون الغير تقليدية، كما أن الأجيال التالية قد تجد فيها قيمة تاريخية ما. لكن المنتجات الجديدة تحمل علامات لا تدل فقط على انحراف فني بل أيضاً على فساد ديني. ومن الناحية الثقافية فإن علامات هذا الانهيار أكثر اتضاحاً.

إن شيوعية الفن هي الصيغة الثقافية الوحيدة للحياة، كما أنها الطريقة الروحية الوحيدة التي تستطيع الشيوعية القيام بها.

ومن يعتقد أن هذه العبارة غريبة يحتاج فقط إلى أن يلقي نظرة على الدول المحظوظة التي أصبحت شيوعية وسوف يصاب بالرعب مما يرى من أمراض مرعبة أصابت الشعوب المنحلة. وكل تلك الانحرافات الفنية التي ظهرت مع مطلع هذا القرن تحت أسماء التكعيبية وغيرها ما هي إلا تجسيد للفن الذي تريده الدولة بصفة رسمية، وقد اتضحت تلك الظاهرة خلال الفترة القصيرة لحكم الجمهورية السوفيتية لبافرايا. فقد كان يمكننا أن نلاحظ في تلك الفترة أن كل المصقات الرسمية وصور الدعاية والصحف لا تحمل علامات الانهيار السياسي فقط بل والانهيار الثقافي أيضاً.

(1) الرايخ الأول، ومعناها فترة الحكم الإمبراطوري التي سبقت الثورة.

❖ | الشيوعيون أبداعوا فنوناً غريبة لا تصلح إلا للمجانين!

ومنذ 60 عاماً مضت كان هناك انهيار سياسي مثل الذي نمر به الآن ومن بين أعراضه الإقبال على الفن التكعيبي وغيره من فنون غزت منذ عام 1900م. فمنذ 60 عاماً كانت تلك المذاهب الفنية منافية للطبيعة. وكان من يريد إقامة مثل تلك المعارض يودع في مستشفيات الأمراض العقلية، بينما يتم الآن انتخابهم رؤساء للجمعيات الفنية. في ذلك الوقت لم يكن من الممكن لهذا الوباء أن ينتشر. فالرأي العام لم يتقبله كما أن الحكومة لم تلتزم بالصمت. فمن واجب الحكومة أن تتخذ شعبها من السقوط في هذا الجنون. لكن هذا الجنون ناتج عن قبول هذا النوع من الفن الذي يعتبر من أسوأ علامات التغير في تاريخ الإنسان وذلك لأنه يعني أن عقل الإنسان يتراجع ليصل إلى المراحل النهائية التي تجعله يتوقف عن التفكير.

فإذا درسنا حياتنا الثقافية خلال الخمس والعشرين سنة الماضية فإننا سندعش عندما نلاحظ مدى التراجع الذي حدث. كما أننا سنجد تلك الجرائم التي تسمح للطفليين بالنمو في كل مكان إلى درجة تمكنهم من القضاء على ثقافتنا إن عاجلاً أم آجلاً. وسنلاحظ وجود علامات لا شك فيها تدل على الفساد. فويل للأمة التي لا تستطيع أن توقف ذلك التطور الفاسد حتى الآن.

ويمكن ملاحظة هذا الفساد في كل قطاعات الثقافة والفنون الألمانية. فقد تجاوز كل شيء في هذا المجال المدى الممكن بالنسبة له وبدأ في النزول في منحنى الفناء السريع. فمع بداية القرن تراجعت المسارح وتوقفت عن دورها الثقافي فيما عدا المسرح الملكي الذي رفض هذا النوع من الدعارة الذي يغزو الفن القومي. وباستثناء هذا المسرح و القليل من الهيئات المحترمة الأخرى، فإن كل المسرحيات التي تقدم على المسارح كانت من ذلك النوع الذي يستفيد منه الجمهور فقط إن لم يشاهده على الإطلاق. كما أن مظاهر التراجع المحزن كانت واضحة على المراكز الفنية أيضاً التي وصل بها الأمر إلى تعليق لافتات "للكبار فقط" على أبوابها.

❖ | التكر للماضي وتحقيره تدمير للشباب ومؤامرة على مستقبله!

ولنضع في أذهاننا أنه يجب الحذر أولاً من تلك الهيئات التي كان من المفروض أن واجبها هو دعم تعليم الشباب وليس مجرد تقديم المتعة "للكبار فقط". فماذا يقول كبار كتاب الدراما من العصور الأخرى عن تلك الإجراءات وعن الأحوال التي جعلت تلك الإجراءات ضرورة لا بد منها ؟ هل كان تشيلر سيشعر بالسخط الشديد وهل كان جوتة سيعاني من الغثيان ؟

ولكن من هو جوته وتشيلر وشكسبير مقارنة مع أبطال الأدب الألماني الحديث ؟ فالقن الحديث ليس شيئاً فقط في إنتاجه بل شيئاً أيضاً في كتابه فقد شوهوا كل ما كان جميلاً وعظيماً في الماضي. وهذه ظاهرة منتشرة في هذا العصر. وكلما كانت منتجات عصر ما ورجاله تعساء وتافهين كلما كرهوا الإنجازات المثالية للأجيال السابقة. كما أنهم يحبون كل ما يمحو آثار الماضي بالكامل حتى تختفي تماماً أي مقارنة لأعمالهم الفنية السيئة مع ذلك الماضي. لذلك فكما كانت منتجات العصر الحديث الفنية سيئة وتعيسه كلما حاولت أن تمحو ذكريات لماضي. لكن أي إبداع جديد يكون في صالح البشر يمكنه أن يواجه المقارنة مع ما سبقه وعادة ما تسمح إبداعات الماضي بوجود مثل هذا الإبداع الجديد وتضمن قبوله. حيث لا يوجد خوف من أن تبدو المنتجات الحديثة باهتة وعديمة القيمة بجانب آثار الماضي. لكن من ليس لديهم أي شيء قيم يقدمونه للعالم سيعارضون كل ما هو موجود ويسعون إلى تدميره بأي ثمن.

وهذا لا ينطبق على ظاهرة الثقافة فقط بل وعلى السياسة أيضاً. فكما كانت حركات الثورات الحديثة دينية ، حاولت القضاء على الحركات الماضية. ومرة أخرى نجدهم يمجدون أعمالهم ويعتبرونها منجزات أصيلة وذلك يقودهم نحو كراهية عمياء تجاه أي شيء ينتمي إلى الماضي حينما يكون متميزاً عن أعمالهم. وعلى سبيل المثال : فطالما أن الذكرى التاريخية لـ"فردريك الأكبر" لا تزال باقية، فإن "فريدريك ابرت" سيحقق شهرة ضئيلة. وشهرة هذا بجانب شهرة ذاك تشبه المقارنة بين ضوء الشمس وضوء القمر. فضوء القمر يتضح فقط عندما يغيب ضوء الشمس عن الأرض. لذلك يمكننا أن نعرف لماذا تكره الأقمار الجديدة في عالم البشر النجوم الساطعة منذ زمن بعيد. وفي عالم السياسة، عندما يضع القدر سلطات القيادة في أيدي بعض النكرات فهم لا يحبون تلويث الماضي وسبه فقط لكنهم أيضاً يستخدمون كل الطرق المتاحة لتجنب أي نقد لأعمالهم. ويعتبر قانون حماية الجمهورية الذي أصدرته الدولة الألمانية مثلاً على ذلك.

فهنالك ما يدعو للشك في أي فكرة جديدة أو أي مذهب أو فلسفة أو أي حركة سياسية أو اقتصادية تحاول إنكار أي شيء قائم أو تعتبره رديئاً أو عديم القيمة. إن التجديد المفيد للبشرية هو ما يبدأ من حيث انتهى الآخرون. لكنه ليس بحاجة لأن ينكر أعمال السابقين التي أصبحت ثابتة وباقية. فالثقافات البشرية والإنسان نفسه نتاج لتطور طويل، فكل جيل يساهم بحجر واحد فقط في بناء الحضارة. ومعنى الثورات والغرض منها لا يمكن أن يكون تدمير هذا البناء بالكامل بل استخراج ما هو غير مناسب له أو غير لائق، ثم إعادة بناء ما أصبح خالياً. وبعد ذلك تستمر الثورة في استكمال البناء القائم.

بهذه الطريقة فقط يمكن أن نتحدث عن التطور الإنساني، وإلا فإن العالم لن يخلو من

الفوضى إن رأى كل جيل أن عليه أن يرفض الماضي ويدمر كل ما تم فيه من أعمال كضرورة حتمية لإقامة بناء جديد.

أما أسوأ ما يمكن أن تواجهه الحضارة هو أن تجد نفسها في مواجهة مع الحرب، فهي لا تمنع القدرات الخلاقة من إنتاج أعمالها فقط بل تكره وتلوث الأعمال التي أنتجت في الماضي وتحاول طمسها. ومع نهاية القرن الماضي كان الناس أقل اهتماماً بإنتاج أعمال جديدة ذات معنى من وحي خيالهم - وخاصة في مجال الدراما والأدب - من اهتمامهم بتشويه أفضل أعمال الماضي ووصفها بأنها رديئة وقديمة، كما لو كانت تلك الفترة السابقة لهم لم تنتج أي شيء ذا نوعية جيدة ! كما أن جهود إخفاء الماضي عن عيون الناس في الوقت الحالي تعتبر دليلاً واضحاً على الحقيقة القائلة بأن مصلحي المستقبل يعملون بنية خبيثة. وهذه الأعراض توضح للجميع أن الأمر ليس مسألة أفكار ثقافية جديدة ولكن عملية متكاملة تهدف إلى التقليل من شأن الحضارة ككل. مما أدى بالأحاسيس الفنية التي كانت عقلانية حتى ذلك الوقت إلى أن ترتبك بشدة، وهذا يمهد الطريق إلى السياسة الشيوعية. وإذا كان لكل عصر مذهب فني يميزه فإن فترة الشيوعية تتميز بمذهب الفن التكعيبي.

❖ | سموم.. لا فنون!

وفي هذا المجال، لابد من لفت الانتباه مرة أخرى إلى حاجتنا إلى الشجاعة التي يتحلى بها قطاع من شعبنا وهم أولئك الذين يشعرون - بسبب مواقعهم وما تلقوه من علم - بأن عليهم أن يقفوا وقفة قوية ضد هذا التخريب لثقافتنا. لكنهم امتنعوا عن المقاومة المستمرة واستسلموا لما اعتبروه حتمياً. وهذا التنازل من جانبهم يعتبر جبناً وخوفاً من أن يثير دعاة الفن الشيوعي جدالاً. وذلك لأنهم عادة ما يهاجمون بضراوة كل من لا يعتبرهم حماة الإبداع الفني، كما أنهم حاولوا خلق كل معارضة بقولهم أنها ناتجة عن عقول غير مبدعة وساذجة. وقد ارتعش الناس خشية أن يتهمهم هؤلاء المخادعون شديدي العنف بعدم تقدير الفن، كما لو كان عدم تقدير الانحراف العقلي والتشرد اللفظ نقيصة تستوجب الخجل. ولذلك فإن طلاب هذا الفن تمكنوا من تقديم افرازاتهم على أنها من الأعمال الفنية عالية القيمة. لذلك فقد قدموا لمعاصريهم المندهرين إنتاجاً فنياً مجنوناً لا يفهم منه شيئاً وسموه "تجربة داخلية". وبهذه التسمية يواجهون أي نقد معارض بتكلفة رخيصة جداً. وبالطبع لن يشك أحد أنه من الممكن أن تكون هناك تجارب داخلية مثل تلك التجربة، لكن الشك يدور حول مبرر تقديم تلك الهالوس التي يعاني منها هؤلاء المضطربون عقلياً أو المجرمون إلى قطاع من عقلاء الشعب. وقد كانت أعمال "مورتز فون شويند" و"بيوكلين" تجسد "خبرات داخلية" لكنها كانت خبرات ملائكية لفنانين عظام وليسوا مهرجانين.

وقد قدم هذا الموقف فرصة جيدة لدراسة الجبن البائس لمن يسمون بالعقول التي لم تظهر أي مقاومة تذكر ضد هذا التسميم لأفكار شعبنا. فقد تركوا هذه المهمة للشعب نفسه ليكون رأيه تجاه هذا الهراء الوقح. ولأنهم لا يفهمون في الفن لذلك فقد قبلوا كل ما يشبه أي فن، إلى أن فقدوا في النهاية كل القدرة على تقييم الفن فأصبحوا غير قادرين على التفريق بين ما هو جيد وما هو سيء.

❖ المدن الكبرى تحيا على ثروات الماضي وروعته!

ولا يزال هناك عرضٌ خطير آخر لابد من تناوله، حيث فقدت مدننا الكبرى والصغرى خلال القرن التاسع عشر شخصيتها كمراكز حضارية تدريجياً وأصبحت مراكز للإقامة فقط. وفي مدننا الحديثة لا ترتبط طبقة العمال كثيراً بالمكان الذي تعيش فيه، وهذا الشعور ناتج عن أن مكان الإقامة بالنسبة لهم ما هو إلا مجرد مسكن مؤقت. ويعود هذا الشعور غالباً إلى أنهم يغيرون مكان إقامتهم وهذا أمر تفرضه عليهم ظروفهم الاجتماعية. كما أنه ليس هناك وقت يسمح بوجود ارتباط بالمدينة التي يعيشون فيها. لكن هناك سبباً آخر وهو ضحالة الثقافة وسطحية مدننا الحديثة. فأتناء حرب التحرير الألمانية كانت المدن الألمانية قليلة العدد ومعقولة المساحة. أما المدن القليلة التي يمكن تسميتها بالمدن الكبرى فقد كانت مقرات لإقامة الأمراء ولذلك فقد كانت ذات قيمة ثقافية واتجاه ثقافي محدد. أما المدن القليلة التي يتجاوز عدد سكان كل منها خمسون ألفاً فقد كانت مدناً غنية - بالمقارنة مع المدن الكبرى ذات نفس المساحة - بالكنوز العلمية والفنية. وعندما كان في ميونخ أقل من 60 ألف نسمة كانت في طريقها لتصبح مركزاً يتصدر المراكز الفنية في ألمانيا. واليوم نجد أن كل مدينة من المدن الصناعية يقطن بها عدد أكبر من ذلك على أقل تقدير لكنها لا تملك أي شيء يميزها. إنها مجرد تكتلات من المساكن ومعسكرات مزدحمة بالسكان ليس إلا. فإذا ما ارتبط أي إنسان بمثل تلك الأماكن التي لا معنى لها فإنها حقاً معجزة. فلا يمكن أن يرتبط أحد بمكان لا يقدم أي شيء أكثر مما يقدمه أي مكان آخر، مكان ليس له طابع يميزه، مكان بذلت فيه أقصى الجهود لتجنب كل ما هو جميل المظهر.

لكن هذا ليس كل شيء، فحتى المدن الكبرى ازداد حرمانها من الأعمال الفنية الحقيقية كلما زاد عدد سكانها. وهي تشبه المدن الصناعية البائسة الصغيرة ولكن بمساحات أكبر. وكل ما ساهم به عصرنا الجديد في حضارة مدننا الكبرى لابد أن يكون منقوصاً. فكل المدن الكبرى تحيا على ثروات الماضي وروعته. فإذا أخذنا من مدينة مثل ميونخ كل قديم من الثروات الفنية، فإننا سنفرغ من المظهر الهزيل لما تم من أعمال فنية حديثة. ويمكننا أن نقول نفس الكلام عن برلين وأغلب مدننا الكبرى الأخرى.

لكن أهم ما يجب ملاحظته هو ما يلي: لا توجد في مدنا الكبرى أي آثار توضح الاتجاه العام للمدينة ويمكن الإشارة إليها كرموز لهذه الحضارة. فكل المدن القديمة بها آثار تدل على العظمة، بينما نجد أن المساكن الخاصة لا تعكس السمات الفنية في تلك المدن بل تعكسها الآثار العامة التي صنعت لتبقى طويلاً. وهذا ليس لأنها تمثل ثروة مواطن واحد بل إنها تجسد عظمة وأهمية المجتمع. وهذه الآثار العظيمة هي ما يربط السكان بمدنهم بطريقة لا نعرفها اليوم. فالمواطن لا تنجذب عينه إلى المباني السكنية العادية لكنها تلتفت إلى الصروح الضخمة التي يملكها المجتمع ككل. وهي شديدة الأهمية بدرجة تجعل الأبنية المنزلية العادية تتوارى إلى المرتبة التالية.

✦ | الطراز المعماري يحدد الشخصية المحلية وخطرهما!

وعندما نقارن مساحات تلك المباني العامة القديمة مع مساحات المساكن الخاصة التي بنيت في نفس العصر ندرك أهمية وعظمة وتأثير تلك الأعمال الفنية التي تعكس حياة المجتمع وتؤثر فيها.

فهذه أقواس متهدمة وهذه أماكن فسيحة تغطيها أطلال العالم القديم والثروات الكثيرة التي لا تزال تثير اهتمامنا، وهي ثروات لم تتركها لنا أماكن تجارية كانت في تلك العصور بل تركتها لنا المعابد والأبنية العامة التي كانت ملكاً للدولة. كان المجتمع هو مالك تلك الصروح. وحتى في عصر التدهور الروماني لم تكن فيلات وبيوت المواطنين هي ما يشغل الأماكن الهامة بل كانت هناك المعابد والحمامات والمدرجات ودور السيرك والممرات المائية والأبنية الملكية.

وفي ألمانيا العصور الوسطى استمر نفس الحال بالرغم من أن المظهر الفني الخارجي كان مختلفاً. فقد ارتدت الموضوعات التي كانت تعالج في فنون العصور القديمة الزري الكاثوليكي في العصور الوسطى. فتعالت الأبراج بشدة في مدن العصور الوسطى وارتفعت شامخة وسط أسراب المباني الصغيرة المبنية من الخشب والطوب، لذلك ظلت سمة سائدة تميز تلك المدن حتى يومنا هذا. على الرغم من أن عمارات الشقق السكنية قد بدأت تغطي أجزاء منها. إنه طراز معماري يحدد الشخصية المحلية ومظهرها، واتضح ذلك في قاعات المدينة وأسواق مقايضة الذرة وقلاع الدفاع عن المدينة، فهي أشياء ليس لها نظير سوى في العالم القديم.

✦ | حتى لا تتحول مدنا إلى مدن صحراوية!

ونتناقض أبعاد أبنيتنا العامة الحديثة ونوعيتها اليوم بطريقة يرثى لها مع تلك الصروح التي أعدت لأغراض خاصة. فإذا مر على برلين ما حدث في روما من قبل، فإن أجيالنا

القادمة سوف تشاهد المحلات المتعددة الأقسام التي يملكها اليهود أو الفنادق ويظنون أنها السمة المميزة التي تعبر عن ثقافة عصرنا. وفي برلين نفسها، لنا أن نقارن عدم التناسب الفظيع بين المباني التي بنتها الدولة وأماكن التجارة والتمويل.

لم تكن الأرصدة التي حددت للمباني العامة في أغلب الأحوال كافية بطريقة مضحكة. فلم تقام تلك المباني على أنها منشآت ستدوم طويلاً بل أقيمت للغرض المطلوب منها في ذلك الوقت فقط. كما أن من قاموا ببناء تلك المباني لم يتأثروا بأي أفكار عظيمة. وفي الوقت الذي أقيم مبنى "سكولز" في برلين كان الغرض منه مختلفاً تماماً عما هو عليه الآن كمكتبة للاطلاع. وبينما تتكلف سفينة حربية واحدة مبلغ ستة ملايين مارك نجد أن المبلغ المخصص للإقامة مبنى مثل "الرايخ ستاج" (وهو أهم مبنى في الدولة⁽¹⁾) يقل عن نصف هذا المبلغ بالرغم من أنه مبنى يقام من أجل أن يظل لفترة طويلة جداً. أما فيما يخص الديكور الداخلي فإن المجلس الأعلى صوت ضد استخدام الحجر وأمر بأن يستخدم الجص في تزيين الجدران. وكان هذا هو القرار الصائب الوحيد الذي اتخذته البرلمانيون.

ومثل هذا المجتمع لا تكون له السيادة على مدتنا المعاصرة، لذلك فلا عجب إذن ألا يجد المجتمع ما يعبر عنه معمارياً. وبذلك نجد أنفسنا في مدن صحراوية وينعكس ذلك على عدم اهتمام المواطن التام بوطنه.

وهذه أيضاً علامة على انحطاط ثقافتنا والتفسخ العام. فهذه الفترة التي نعيش فيها تهتم بأشياء صغيرة لا تهدف إلى أي شيء وينصب الاهتمام بالكامل على المال. لذلك فليس من المدهش أن من يعبد هذا الصنم لن يشعر بروح البطولة وستختفي منه هذه الروح نهائياً. والحاضر يحصد ما زرع في الماضي.

❖ بعثات تبشيرية في الخارج.. وخواء ديني في الداخل.. والإسلام هو الرابع!

كل تلك الأعراض التي سبقت سقوط الإمبراطورية الثانية تعود إلى عدم وجود مذهب عام واحد يقبله الجميع⁽²⁾ وما ترتب على ذلك من نتائج وشكوك. وقد اتضحت تلك الشكوك عندما ظهرت أهم مشكلات الفترة واحدة تلو الأخرى وكان لابد من وجود سياسة محددة تجاهها. كما تسبب عدم وجود هذا المذهب العام أيضاً إلى ظهور سياسة أنصاف الحلول بداية من نظام التعليم والتردد والتكاسل في تحمل المسؤوليات ومواجهة الشهور

(1) مقر البرلمان.

(2) "مذهب عام" يقصد به مجموعة معتقدات لا علاقة لها بالدين يكافح الشعب من أجلها.

بجنب حتى وإن كانت شروراً مدمرة. وأصبح الإحسان الوهمي موضحة سائدة. وتمت التضحية بمستقبل ملايين الناس في مقابل الأحاسيس الفردية والضعف والاستسلام.

وقد أوضح اختبار المواقف الدينية قبل الحرب أن التمزق العام قد وصل إلى هذا المجال أيضاً. فقد فشل هذا القطاع الكبير من قطاعات الدولة لوقت طويل في إيجاد نظرة موحدة لطريقة الحياة السليمة. ولا يكمن أهم ما يشير إلى هذا الأمر في أعداد الناس الذين يتبرأون من كنيتهم بل في هؤلاء الذين لا يعينهم أمر الدين على الإطلاق. فبينما ترسل كلتا الطائفتين المسيحتين بعثات تبشيرية في آسيا وأفريقيا بغرض جذب المزيد ممن يعتقدون هذه الديانة، نجد أن تلك الطوائف تفقد ملايين وملايين الأتباع هنا في أوروبا. وهؤلاء الذين يتركون الديانة المسيحية إما أن يتركون الدين تماماً ولا يعتبرونه قوة مؤثرة في حياتهم أو أنهم يفسرونه على هواهم. ونتائج ذلك كله واضحة تماماً ولا يعتبرونه قوة مؤثرة الأخلاقية لبلادنا. ويمكننا أن نلاحظ أن التقدم الذي أحرزته بعثات التبشير في نشر الديانة المسيحية كان محدوداً مقارنة مع انتشار الإسلام⁽¹⁾.

❖ الدين هو الأساس الوحيد للأخلاق!

وكان من الضروري أيضاً أن نلاحظ أن الهجوم على المبادئ العقائدية التي تؤكد على التعاليم المسيحية قد ازدادت عنفاً باستمرار وأن عالمنا الذي نعيش فيه لا يصلح أن يكون مقنعاً دون وجود معتقد ديني. فجموع المواطنين في أي أمة ليست من الفلاسفة. والدين بالنسبة للناس هو الأساس الوحيد للأخلاق. كما أن البدائل العديدة التي قدمت لم تظهر أي نتائج تفيدنا بأنها يمكن أن تحل محل الطوائف الموجودة. لكن عندما نتقبل جموع المواطنين التعاليم الدينية والعقيدة وتجعلها قوى فعالة في حياتها، وتصبح تلك العقائد أساساً لكل جهود الحياة العملية. وقد يكون هناك عدة مئات من الآلاف من الرجال العظماء الذين يمكنهم أن يحيا بحكمة وتعقل دون الاعتماد على المعايير العادية للحياة اليومية⁽²⁾، لكن هناك ملايين من البشر لا يستطيعون ذلك. فتلك العادات التي تملأ حياتنا اليومية العادية تعود إلى قوانين عامة في الدولة وإلى معتقدات دينية. لكن الفكرة الدينية الخالصة قد تتغير لأنها تتعرض لعدد لا نهائي من التفسيرات.

(1) في النسخة التي أترجم عنها استخدمت كلمة "الديانة المحمدية" على غرار مصطلح "المسيحية" وهو خطأ شائع بين من لا يعرفون الإسلام في أوروبا وغيرها، وربما يكون هذا الخطأ قد دسه البعض عمداً ليتمشى مع ما يشيعه أعداء الديانة الإسلامية من أنها من صنع رسولنا الكريم ﷺ (حاشا لله).

(2) في ذلك تلميح إلى أن الدين ضرورة للبشر العاديين وليس لعظام القوم الذين يمكنهم الاعتماد على عبقريتهم في تدبير شئون حياتهم.

❖ المجانين والمجرمون فقط هم الذين يرفضون الدين!

ويجب على القائد السياسي ألا يقدر قيمة الدين وهو يضع في اعتباره أي نواقص، لكنه يجب أن يسأل نفسه : هل هناك بديل عملي أفضل. فإن لم يكن هذا البديل موجوداً فإن المجانين والمجرمين فقط هم من يقبل على رفض الدين.

ولا يمكن أن نلوم - بلا شك - هؤلاء الذين يرون أن المثل الدينية مجرد كماليات مما فتح الباب أمام نزاع عقيم بين الدين والعلم أو أن نعتبرهم مسئولين عن الوضع الحالي للدين. ففي هذا النزاع يكون النصر للعلم دائماً، حتى وإن استمر الصراع القاسي طويلاً، وهنا يرى من لا يتعمقون إلى ما هو أبعد من القشرة السطحية للعلم أن الدين يعاني بشدة من ذلك.

لكن الخسارة الكبرى تأتي ممن يحقرون الدين ويجعلونه وسيلة يستفاد منها في خدمة الأهداف السياسية أو حتى الأهداف التجارية. إن كثيري الكلام من الكذابين المستهزئين يفعلون ذلك من خلال وظائفهم الدينية أمام العالم بوقاحة لا يحسدون عليها. فهم مستعدون لبيع عقيدتهم الدينية من أجل أي عقيدة سياسية، كما أنهم يتحالفون مع الماركسيين الذين يعادون كل الديانات من أجل عدة قرارات برلمانية. وهم مستعدون للتحالف مع الشيطان من أجل منصب وزاري. حتى وإن كان هذا الشيطان مجرداً من أي نوع من اللياقة والأدب.

فإذا كانت الحياة الدينية في ألمانيا قبل الحرب ذات طعم كريه بالنسبة لكثير من الناس فإن ذلك لأن الأحزاب السياسية التي تسمى نفسها مسيحية استخدمت الديانة المسيحية في الوصول إلى أغراض دنيئة، كما أنهم قدموا العقيدة الكاثوليكية - بلا خذي - على أنها حزب سياسي.

وكان على الأمة أن تتحمل نتائج ذلك لأن التفسخ الذي أصاب الحياة الدينية قد وصل إلى منعطف أدى بداية إلى فقدان السيطرة على كل شيء وتأرجح القواعد العامة للعادات والأخلاق مما هدها بالسقوط التام.

❖ السياسة هي فن الممكن!

وقد نلاحظ بعض المفارقات في عالم السياسة، فقد توقعت الدولة حدوث الكارثة إن لم تجرى بعض التصحيحات والتعديلات. لكن القصور في توجيه السياسة الألمانية على الصعيدين الداخلي والخارجي كان واضحاً للجميع إلا من يدعى العمى. وأفضل ما نقوله حول عادة التوصل إلى تسويات أنها تبدو متمشية مع بديهيات بسمارك القائلة بأن "السياسة هي فن الممكن". من مظهرها الخارجي فقط. لكن بسمارك كان شخصاً مختلفاً عمن خلفوه

من مستشارين. وهذا الاختلاف جعل المستشارين الآخرين يطبقون هذه المقولة بنفس المعنى الذي يقصده بسمارك بينما يفسرها الآخرون على أنها ذات معنى آخر مختلف تماماً. وكان بسمارك - عندما قال هذه العبارة - يقصد: إن كنا نريد الوصول إلى غاية سياسية محددة فلا بد من استخدام كل الطرق المتاحة أمامنا أو يجب علينا أن نجرب كل الاحتمالات الممكنة على أقل تقدير. لكن من خلفه يرون أن هذه العبارة تعني أنه ليس علينا أن نلتزم بمبادئ سياسية محددة أو أهداف سياسية محددة على الإطلاق. وقد كان القادة السياسيون في الدولة في ذلك الوقت بلا أي سياسة بعيدة المدى. وهنا مرة أخرى نجد أن الأساس الضروري غير موجود وهو المذهب السياسي المحدد، بالإضافة إلى أن هؤلاء القادة السياسيين كانوا بلا رؤية سياسية واضحة تمكن من وجود قواعد التطور السياسي، وهذه صفات ضرورية في القادة السياسيين.

❖ | ذرة من الحكمة تدير العالم!

وقد اعتبر كثير من الناس الذين ينظرون للأشياء نظرة متشائمة في ذلك الوقت أن النقص الواضح في الأفكار والتوجهات يعود إلى سياسة الدولة. وهذا الاتهام يمس كبدا الحقيقة. لكن الذين لاحظوا تلك الملاحظة كانوا من العاملين بالصف الثاني في مجال السياسة. لكن من كانوا يسيطرون على حكومة الدولة لم يحركوا ساكناً للحفاظ على المبادئ التي وضعها المفكرون مثل "هيوستون ستوارت شامبرلين" مثلما يفعل قادتنا السياسيون الآن. فقد كانوا من الغباء بحيث لا يستطيعون التفكير بأنفسهم. كما أنهم كانوا معجبين بأنفسهم لدرجة لا تجعلهم يقبلون توجيهات - هم في حاجة إليها - من غيرهم. وقد قال "أوكسنترنا"⁽¹⁾ حقيقة خالدة منذ الأزل وهي "ذرة من الحكمة تدير العالم". وبالطبع، من المتوقع أن كل من يتولى منصب المستشار يفترض توفر تلك الذرة لديه. لكن بعد أن أصبحت ألمانيا جمهورية اختفت تلك الذرة. لذلك فقد أعلن عن قانون الدفاع عن الجمهورية، فهو قانون يمنع مثل تلك الآراء والحديث عنها. ومن حسن حظ "أوكسنترنا" أنه عاش في عصره ولم يعيش في جمهوريتنا الحكيمة الحالية.

❖ | البرلمان عاجز!

وقبل الحرب كانت الهيئة التي تمثل قوة الدولة - وهي البرلمان - تعتبر أضعف هيئة. فالجبن والخوف من تحمل المسؤوليات اجتماعاً هناك معاً في تناسق نادر. ومن أكثر التعليقات التي سمعتها اليوم سذاجة هي أن البرلمان الألماني توقف عن

(1) مستشار ميونيخ تولى الحكم بعد موت "جوستاف أولف".

العمل بعد الثورة. لأن هذا التعليق يوحي بأن البرلمان كان يعمل فيما قبل ! لكن الحقيقة هي أن البرلمان لم يعمل أبداً إلا فيما أضر البلاد. وقد قام بذلك عندما كان الشعب لا يرى شيئاً أو لا يرغب في رؤية أي شيء. إن كثيراً من أسباب انهيار الدولة الألمانية تعود بدرجة كبيرة إلى البرلمان. ولكن عدم وقوع الكارثة فجأة لا يعود إلى البرلمان بل إلى من كانوا يعارضون هذا البرلمان الذي كان يحفر قبر الأمة الألمانية والدولة الألمانية في وقت السلام.

وسوف أختار إحدى تلك الشرور الكثيرة جداً التي كان البرلمان سبباً فيها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، كمثال يدل على عدم المسؤولية على مدى العصور. وهذا المثال الذي أتحدث عنه يجسد التردد والضعف عند التعامل مع المشكلات الداخلية والخارجية للدولة. وهو مثال لا ينسب سوى للبرلمان وكان واحد من أهم أسباب الانهيار السياسي. فكل شيء في البرلمان كان يستخدم أنصاف الحلول بغض النظر عن زاوية نظرنا للأمر.

❖ | تخطب الساسة وتناقضاتهم!

فالساسة الخارجية للدولة في مجال التحالفات كانت تتسم بالتردد. فقد كانوا راغبين في الحفاظ على السلام لكنهم من أجل ذلك اندفعوا بسرعة نحو الحرب ! كما أن سياستهم مع بولندا لم تكن حاسمة أيضاً. فلم ينتج عنها نصر ألماني ولا صلح بولندي، كما أنها تسببت في عداوة مع روسيا.

كما حاولوا حل مشكلة "الألزاس واللورين" بطريقة أنصاف الحلول أيضاً. وبدلاً من تحطيم رأس فرنسا مرة واحدة بقبضة قوية ومنح منطقة "الألزاس واللورين" حقوق المقاطعات الألمانية نجد أنهم لم يفعلوا لا هذه ولا تلك. وعلى أي حال، فقد كان ذلك مستحيلاً بالنسبة لهم. وعلى أي حال فإنهم لم يكونوا قادرين على القيام بأي مما قلت، فقد كان من بينهم خونة للوطن مثل السيد "وترل" من حزب الوسط.

وظل الوطن قادراً على تحمل كل ذلك، كما أن تلك الحلول الوسط لم تؤدي إلى القضاء على القوة التي كان وجود الإمبراطورية يعتمد عليها وهي الجيش.

إن الجريمة التي ارتكبتها ما يسمى "الرايخ ستاج⁽¹⁾" في هذا المجال كانت كافية لجلب لعنات كل أبناء الأمة الألمانية في كل العصور عليه. فقد قام رجال الأحزاب البرلمانيون في أدق اللحظات بانتزاع أسلحة الأمة التي كانت ضرورية لها من أجل الحفاظ على الأمة

(1) البرلمان.

والدفاع عن حريتها واستقلالها. فإذا كان من الممكن أن نفتح القبور الموجودة في سهول "فلاندرز" اليوم فسنجد مئات الآلاف من أفضل شباب ألمانيا الذين ساقهم أعضاء البرلمان معدوموا الضمير إلى الحرب والموت دون استعداد جيد لتلك المهمة أو بنصف إعداد. هؤلاء الشباب وملايين غيرهم ممن قتلوا أو بترت أعضاؤهم، ضحوا من أجل الوطن⁽¹⁾ ولأن عدداً قليلاً من المخادعين من الشعب قاموا بمناورات سياسية بما يتمشى مع مذهبهم.

❖ | دور اليهود والشيوعيين في تشويه الجيش الألماني!

وعن طريق الصحافة الماركسية والديمقراطية نشر اليهود كثيراً من البهتان حول "العسكرية الألمانية" عبر العالم أجمع وحاولوا تجريم ما تقوم به ألمانيا بكل الطرق، بينما رفض الحزب الديمقراطي والماركسية في نفس الوقت تأييد الإجراءات الضرورية لتدريب قواتنا من أجل الدفاع عن الأمة. وكان من الضروري أن تكون هذه الجريمة المروعة واضحة أمام كل من يرى أن وقت الحرب يتطلب استدعاء كل أبناء الأمة إلى الجيش وليس كما أراد الأندال أو "نواب الشعب النبلاء" كما يسمون أنفسهم. وكان على ملايين الألمان أن يواجهوا العدو بتدريب غير كاف وعتاد سيء. وبغض النظر عن انعدام الضمير الواضح عند أعضاء البرلمان، كان من الواضح أيضاً جداً أن عدم توافر الجنود المدربين منذ بدء الحرب يحتمل أن يؤدي إلى خسارة الحرب، وقد تأكد هذا الاحتمال أثناء الحرب العالمية.

❖ | إهمال متعمد وسوء استعداد أدّى إلى خسارة الحرب!

لذلك خسر الشعب الألماني الحرب واستقلال البلاد بسبب السياسة الفاترة التي استخدمت في تنظيم وتدريب قوة الأمة الدفاعية خلال فترة السلام.

فقد كان عدد المدربين من أفراد القوات البرية قليل جداً، وكان هناك نفس القدر من الفتور تجاه القوات البحرية مما جعل هذا السلاح غير فعال على أي حال. ولسوء الحظ، فقد كان المسؤولون عن البحرية أنفسهم مصابين بهذا الفتور أيضاً. ولم يظهر الميل إلى بناء سفن أصغر قليلاً من سفن بريطانيا الحديثة قليلاً من البراعة وكثيراً من الحكمة. فلا بد للأسطول الذي لا يمكن أن يصل إلى نفس القوة العددية للعدو المحتمل أن يعوض ذلك العجز بالنفوق في القوة القتالية لكل سفينة. فهذا هو الفارق الوحيد الذي يمكن الاعتماد عليه دون غيره، إنها القوة القتالية للسفينة فقط وليست أي صفات تقليدية لأخرى. وفي

(1) أليس هذا ما حدث بالضبط في حرب 1967م حينما زج بالشباب المصري والعربي في أتون حرب يونيو والتي لم نستعد لها جيداً والنتيجة هزيمة منكرة وآلاف من الشهداء والأسرى!! (الناشر)

الحقيقة، فإن تطورات فنية كثيرة حدثت في الدول الكبرى لكن كان من المستحيل على قوة واحدة (دولة واحدة) أن تبني سفناً ذات قوة قتالية عالية جداً تعادل القوة القتالية لسفينة من نفس الحجم بنيتها بقية الدول. كما أنه من غير المعقول أيضاً أن نبني سفناً أصغر ذات كفاءة أعلى من السفن الأكبر منها حجماً.

وقد جاءت الأحجام الصغيرة للسفن الألمانية الصغيرة على حساب السرعة والتسليح. وكانت العبارة التي تبرر تلك السياسة دليلاً في حد ذاتها على عدم وجود تفكير عقلائي عند المسؤولين عن البحرية الألمانية في وقت السلام. فقد أعلنوا أن المدافع الألمانية أفضل من المدافع البريطانية 30.5 سم من حيث كفاءة قوتها الضاربة.

وهذا هو السبب في ضرورة تعديلهم للخطّة، فقد كانوا لا يفكرون سوى في مدافع 30.5 سم أيضاً، وكان من الواجب عليهم أن يهدفوا إلى التفوق على العدو وليس المساواة معه. وإن لم يكن كلامي هذا صحيحاً، فلماذا إذن نزود القوات البرية الألمانية بمدافع مورتر 42 سم بينما يوجد لدينا مورتر ألماني 21 سم يمكنه أن يتفوق على كل المدافع ذات الزاوية العالية التي كان يملكها الفرنسيون في ذلك الوقت وكان من الممكن احتلال الحصون بمدافع مورتر 30.5 سم. لكن السلطات البحرية العسكرية فشلت في كل ذلك. فإن لم يستطيعوا التفوق في مجال المدفعية والسرعة فهذا راجع في الأساس إلى "مبدأ المخاطرة" الذي اتبعوه. فقد تخلت قيادات القوات البحرية في وقت السلام عن مبدأ الهجوم، لذلك كان عليها أن تتبع أسلوباً دفاعياً منذ بداية الحرب. لكن هذا الأسلوب أزال كل فرص النصر في النهاية، وكان النصر ممكناً من خلال الهجوم فقط.

فالسفينة ذات السرعة البطيئة والعتاد الضعيف يمكن أن يصيبها العدو الأسرع والأقوى ويسحقها بسهولة، فهو قادر على إطلاق النار من مسافات أبعد. وقد مر عدد كبير من الطرادات بهذه التجربة. واتضح مقدار الخطأ في الأفكار البحرية السائدة في وقت السلام عندما بدأت الحرب. وقد اضطروا إلى أن يعدلوا تسليح السفن القديمة ويزودوا السفن الحديثة بأسلحة أفضل عندما تلوح فرصة لذلك. وإذا كانت السفن الألمانية في معركة "ساجراك" من نفس حجم وتسليح وسرعة السفن الإنجليزية، لكان الأسطول البريطاني قد فشل في مواجهة القذائف الألمانية 38 سم، فهي قادرة على إصابة أسلحتهم بدقة أكبر وفاعلية أكثر.

وقد اتبعت اليابان سياسة بحرية مختلفة. فقد اهتموا جداً بتزويد كل سفينة جديدة بقوة مقاتلة تتفوق على أعدائها المتوقعين، وهذه السياسة مكنتها فيما بعد من استخدام الأسطول في الأعمال الهجومية.

وبينما رفضت سلطات الجيش تلك المبادئ المهمة، تبرأ الأسطول - بالرغم من أنه كان يمثل عدد أكبر من النواب في البرلمان - من تلك الروح السائدة في الجيش. ولم يكن الأسطول منظماً على أسس قوية، وفيما بعد تمت إدارته بلا نظام وبطريقة مترددة. أما ما حققه الأسطول من أعمال خالدة - بالرغم من تلك العوائق - فيعود بالكامل إلى كفاءة وبطولة وشجاعة أفراد الطواقم والضباط. وإذا كان القادة البحريون اللاحقون على نفس القدر من العبقرية لما ضاعت كل تلك التضحيات هباء منثوراً.

وربما تكون المهارات البرلمانية لقائد الأسطول في سنوات السلام هي ما تسبب في الانهيار الخطير، وذلك لأن الاعتبارات البرلمانية لعبت دوراً أهم في بناء الأسطول وليس في اعتبارات القدرات القتالية. فقد امتدت الحيرة والضعف والفشل في إعداد سياسة متماسكة - وهذه سمة من سمات النظام البرلماني - إلى قادة الأسطول.

وكما سبق لي أن أكدت، لم تسمح قيادة الجيش بالتضليل والسير وراء الأفكار الخاطئة. فقد تولى "لودندورف"⁽¹⁾ صراعاً يائساً ضد التآرجح الإجرامي الذي تعامل به البرلمان مع أخطر قضايا الأمة وفي غالب الأحوال كان يصوت ضدها. فإن ظلت تلك الحرب التي أشعلها هذا الضابط فاشلة فإن ذلك يدين البرلمان والطريقة الضعيفة البائسة التي يستخدمها المستشار "بيتمان هولويج".

❖ | أصحاب المقاعد البرلمانيون معدومو الضمير!!

ولم يتردد المسؤولون عن انهيار ألمانيا في توجيه اللوم إلى من وقف بشدة في وجه تلك الطريقة التي تتعامل بإهمال شديد مع مصالح الأمة الألمانية. لكن هذه كذبة جديدة تضاف إلى كثير من الكذب والافتراءات ولا يوليها هؤلاء المخادعون بالفطرة أي اهتمام.

فكل من يفكر في تلك التضحيات التي تحملتها هذه الأمة نتيجة لهذا الإهمال المتعمد الذي اقترفه أفراد غير مسئولين، وكل من يفكر في أعداد من ماتوا أو تشوهوا دون داع، وكل من يفكر في الخزي المؤسف والعار الذي لحق بنا والتوتر الشديد الذي يعيش فيه شعبنا الآن، وكل من يعلم أن ذلك قد حدث فقط من أجل تمهيد الطريق لعدة مقاعد برلمانية لعدد من معدومي الضمير من الساعين إلى تلك المقاعد ومحدثي النعمة يدرك أن هؤلاء المأجورين لا يمكن تسميتهم سوى بالمجرمين أو الأوغاد، فهذه الكلمات لا تصف سواهم. وكل غشاش أو مخادع يعتبر رجلاً شريفاً بالمقارنة مع هؤلاء الذين خانوا الأمة.

وكان من الغريب في الأمر أن كل الأخطاء الحقيقية لألمانيا القديمة كانت واضحة

(1) أحد قادة الجيش الألماني في الحرب العالمية الأولى.

للعيان أمام عامة الشعب، لكن كان ذلك عندما تفكك تماسك الأمة. وبعد ذلك انتشرت الحقائق المخجلة بين عامة الناس، بينما كانت هناك أمور أقل منها بكثير تتعرض للتغطية والحجب عن الشعب فيما قبل. وكان ذلك يحدث خاصة عندما تقام مناقشة علنية لتلك المشكلات والتي كان من المحتمل أن تؤدي إلى تحسين الأوضاع. وكان كبار مسئولى الدولة لا يعرفون شيئاً أو يعرفون القليل عن طبيعة الدعاية واستخدامها في تلك الأمور. كان اليهودي فقط هو من يعرف أن الاستخدام القدير المستمر للدعاية الذي يمكنه أن يقلب موازين كل شيء في أعين عامة الناس فيحول الجنة إلى نار والعكس صحيح. كما يمكنه أن يقيم أسوأ أنواع الحياة التعيسة على أنها الجنة بعينها. فاليهودي يعرف ذلك ويتصرف على هذا الأساس. أما الألماني - أو بالأحرى حكومته - فلم يكن لديه أي شك في ذلك. وكان من الضروري أن ننال عقوبات على هذا الجهل أثناء الحرب.

وبالإضافة إلى كل تلك السلبيات التي ذكرتها والتي أثرت على حياة الألمان قبل الحرب كانت هناك العديد من الصفات الطيبة الإيجابية. فإذا أجرينا دراسة غير متحيزة لوجدنا أن كثيراً من الأمم الأخرى كانت تعاني من المعوقات التي عانينا منها وبدرجة كبيرة، وفي كثير من الأحيان كانت المعوقات لديهم أسوأ بكثير منا. وكنا نحن نتميز بالعديد من المميزات التي لا تتوفر لديهم.

لكن ما أدى إلى دخول ألمانيا في مرحلة من التقدم تفوقت بها على كل الأمم الأوروبية هو أن الأمة الألمانية كانت تبذل كل جهدها للحفاظ على شخصية الأمة في بنائها الاقتصادي، ولهذا فقد كانت أقل تعرضاً من بقية الدول لتسلط التمويل الدولي وذلك بالرغم من وجود علامات تنذر باندفاعها في ذلك الاتجاه.

لكن هذا التفوق كان محفوفاً بالخطر وأصبح فيما بعد سبباً أساسياً في قيام الحرب العالمية.

❖ رغم المحن فإن أمتنا خصائص تميزت بها!

فإذا ما غرضنا النظر عن ميزة استقلال الأمة في الأمور الاقتصادية، فإننا نجد عدة سمات إيجابية أخرى في حياتنا الاجتماعية والسياسية وكانت على قدر كبير من التميز. وكانت تلك السمات ممثلة في ثلاث هيئات تعتبر مصدراً دائماً للتجديد. وقد كانت تلك الهيئات أمثلة لكمال منقطع النظير.

وأول تلك الهيئات هو نظام الدولة بالطريقة التي كانت متبعة في ذلك الوقت والتي قامت على أساسه ألمانيا الحديثة. وبالطبع لابد لنا أن نتوقع من الملوك - وهم بشر - أن يقعوا في أخطاء تؤثر على حياتهم وحياة رعاياهم. وإن لم نتحمل تلك الأمور لوصل

الجيل الحالي إلى يأس تام. وإذا ما وضعنا في اعتبارنا تلك القدرات الفردية وقدرات من مثلوا الشعب في ذلك النظام يكون من الصعب علينا أن نتخيل قدراً أعلى من الذكاء والشخصية المتمسكة بالأخلاق. وإذا ما تم قياس قيمة الثورة الألمانية بقيمتها عند الأفراد الذين تمثلهم هذه الثورة منذ نوفمبر عام 1918م فقد نشعر بالخجل عندما نفكر في رأي الأجيال القادمة في هؤلاء الناس، فقانون حماية الجمهورية لا يستخدم إلا لإسكات الرأي العام. وسترى الأجيال القادمة بالتأكيد أن ذكاء وتكامل قادتنا الجدد كان لا يتناسب مع ما هم فيه من تعال وما يتصفون به من رذائل.

ولابد من الاعتراف بأن الأسرة المالكة كانت متحيزة لصالح الكثير من المواطنين وخاصة عامة الشعب. وذلك بسبب أن الملوك لم يكونوا محاطين دائماً بهؤلاء الأذكىاء - إن كان هذا الوصف ممكناً - ولا بأشخاص من أصحاب الشخصيات السوية. فقد فضل الكثير منهم - لسوء الحظ - من يمدحونهم وليس من يقولون لهم الحقيقة، وبالتالي كانوا يحصلون على معلوماتهم من المداحين. وكان ذلك مصدر خطر كبير في وقت كان العالم يمر خلاله بفترة من تغيرات كثيرة وكانت تلك التغيرات تؤثر حتى على عادات القصر.

فلم يشعر الرجل العادي أو المرأة العادية بحماس متقد في الصدور - عند نهاية القرن (1) - عندما تمر بجانبه أميرة بزيها الرسمي على ظهر حصان ومعها حراسها. فأبناء الطبقات العليا ليس لديهم أي فكرة عما يشعر به أفراد الشعب العاديون عندما يمرون بنفس الموقف، لكن هذه المواقف نادراً ما تحدث معهم. فعندما - على سبيل المثال - تتواضع الأميرة "س" وتتذوق إحدى منتجات الحساء وتجدها ممتازة - كالمعتاد - كان ذلك الحدث يترك أثراً فيما مضى، لكن الآن وفي مثل هذه المناسبة فإنه له معنى عكسي، لأن هذا الطعام - حتى إن كانت سمو الأميرة لا تعرف على الإطلاق - لا يشبه الطعام الذي يصنع كل يوم، فقد صنع خصيصاً لها، لكن يكفيننا أن الناس يعلمون ذلك. ولذلك فإن أطيب النوايا تحولت إلى أداة للسخرية أو سبباً للسخط.

إن كل تلك الأمثلة ما هي ألعاب للتسلية. والأسوأ من ذلك هو الشعور الذي انتشر في قطاعات عريضة من الشعب بأن العناية بالفرد تأتي من أعلى وأن على الفرد ألا يفكر فيها طالما أن الحكومة مقبولة، أو أنها تتحرك طبقاً لنوايا طيبة فلا داع لوجود أي اعتراضات جادة.

وكانت الدولة على موعد مع كارثة عندما تم تغيير الحكومة القديمة - والتي كانت تسعى إلى الأفضل على أقل تقدير - وحل محلها نظام ليس من نفس النوع، وبعد ذلك

أدى الولاء السهل والسذاجة الطفولية للذين لم يظهرأ أي مقاومة فيما مضى إلى شرور كثيرة لا يمكن تصورها.

و في مقابل ما ذكر وغيره من العيوب كانت هناك صفات أخرى ذات تأثير إيجابي بلا شك.

❖ مميزات الحكم الملكي!

فقد كانت طريقة الحكم الملكي تضمن استقرار الأحوال العامة للشعب وتحمي المسؤولين الحكوميين من تطلعات السياسيين الطموحين. وقد أضفت الطريقة الموقرة التي حافظت عليها الحكومة على السلطة الملكية مهابة وقدرأً عالياً. بالإضافة إلى أن كل فيالق المسؤولين - والجيش بصفة خاصة - كانوا يترفعون عن مستوى الالتزامات الحزبية. كما أن هناك ميزة أخرى وهي أن القيادة العليا للدولة كانت تتمثل في الملك بصفة فردية، وهو يمكن أن يكون رمزاً للمسؤولية التي يجب أن يتحملها الملك بجدية تفوق كل ما تفعله أي أغلبية برلمانية. وكل ما اتصفت به الحكومة الألمانية من صدق واستقامة يعود إلى تلك الحقيقة. وأخيراً تمكنت الملكية من إنجاز مهمة ثقافية عالية بين أفراد الشعب الألماني، وقد غطى ذلك على كثير من عيوبها. لكن ظلت المدن الألمانية - حتى وقتنا هذا - مركزاً للفنون المهددة الآن بالاختفاء. وقد شجع الأمراء الألمان الفنون والعلوم خاصة خلال القرن التاسع عشر. واليوم لا يوجد ما يشبه ذلك إطلاقاً.

❖ الجيش هو نصير الأمة وحاميها!

وقد كان الجيش هو أهم قوة مؤثرة إيجابية خلال عملية التفكك التي كانت تنتشر في نظامنا الاجتماعي. فقد كان مصدرأً لأقوى نظام تعليمي حصل عليه الألمان. ولهذا فقد ركز أعداؤنا شرورهم على نصير الأمة وحاميها. وأقوى شهادة في حق هذه المؤسسة الفريدة في الدولة هو أنه كان جيشاً مكروهاً ومستهزأً به من الأعداء. وتحارب الجيوش الأخرى كلها ضده إلا أنه كان جيشاً مهيباً، يهابه جميع من يحيط به من جيوش نافهة. وقد وجه من اجتمعوا في فرساي⁽¹⁾ لنهب الأمم والاستفادة منها عداؤهم ضد الجيش الألماني القديم الذي أثبت مرة أخرى أنه يستحق أن ينظر إليه على أنه الهيئة الموكلة بحماية أمتنا من كل قوات البورصة الدولية. فإن لم يكن الجيش قد أطلق الإنذار وظل متيقظاً، لكان

(1) يقصد المجتمعين في فرساي لعقد اتفاق الهدنة وإنهاء الحرب العالمية الأولى، وجدير بالذكر أن شروط المعاهدة كانت مجحفة جداً لألمانيا باعتبارها دولة مهزومة (لمزيد من التفاصيل وقراءة بعض بنود المعاهدة انظر كتابي: تاريخ الحرب العالمية الأولى).

الغرض من فرساي قد تحقق بطريقة أسرع. وهناك كلمة واحدة فقط تعبر عما يدين به الشعب الألماني للجيش وهي: كل شيء.

ولا يزال الجيش يلقي الشعب دروساً في تحمل المسؤولية، وذلك عندما أصبحت هذه الصفة نادرة جداً وأصبح التملص من تحمل المسؤولية منتشراً بشدة. وقد نمت تلك العادة بسبب التأثير السيئ للبرلمان الذي كان في حد ذاته مثالاً لعدم تحمل المسؤولية. وقد علم الجيش الناس الشجاعة في وقت كانت فضيلة الجبن تهدد بوباء وكانت فكرة التضحية بالمصالح الشخصية من أجل الصالح العام تعتبر ضعفاً. وفي الوقت الذي كان فيه الذين يعرفون كيف يحمون مصالحهم الشخصية ويحافظون عليها يعتبرون من العباقرة، كان الجيش هو المدرسة التي تخرج منها أفراد من الألمان الذين تعلموا ألا يبحثوا عن خلاص أمتهم من خلال التآخي الدولي بين الزنوج والألمان والصينيين والفرنسيين والإنجليز⁽¹⁾... الخ ولكن من خلال قوة أفراد الأمة واتحادهم.

كما نمت قدرة الفرد على اتخاذ قرار حاسم وكان ذلك في وقت تسيدت فيه روح الحيرة والتردد سلوك الإنسان، وفي الوقت الذي اتبع فيه هؤلاء المغرورون مبدأ "إن صدور أي أمر أفضل من لا شيء". وأكبر دليل على ذلك هو أن حكومتنا الحالية لا تستطيع اتخاذ قرار. إنهم لا يودون الخروج من سباتهم العقلي والأخلاقي والثبات على نمط واحد من الإجراءات بينما كان عليهم أن يلجأوا إلى الاستفادة من الشعب الألماني. وهنا تبراوا من كل مسؤولية ووقعوا على كل ما وضعه الطرف الآخر أمامهم، وكان التوقيع بتلقائية شديدة. وقد فسر توقيعه على أنهم لم يكونوا في وضع يسمح لهم باتخاذ قرار، فالقرار يُملى عليهم.

❖ الجيش أفضل مدرسة لتخريج الرجال!

وقد تشرب الجنود روح المثالية وأصبحوا مستعدين للتضحية بأنفسهم من أجل الوطن وكرامته، بينما ساد الطمع والمادية في كل أفرع الحياة الأخرى. وقد وحد الجيش شعباً تفرق في طبقات اجتماعية متعددة، وهنا يطهر عيب وحيد وهو أن الخدمة العسكرية تستمر لعام واحد، وهي منحة من حق كل من حصل على شهادة عالية. وهذا عيب، لأن من المفترض أن هناك عدالة مطلقة بين أفراد الشعب وهذا التمييز ينتهك تلك العدالة. فمن يحصل على تعليم أفضل يخرج من الكادر الذي يضم كل نظراءه. وكان الأفضل أن يتم تطبيق العكس تماماً. لأن الطبقات العالية عندنا تجهل ما يحدث في جسد الأمة كما أنهم

(1) هل هذه نظرة عنصرية من هتلر.. وهل يقصد بذلك الحط من قدر الزنوج والصينيين وغيرهم من الشعوب المصنفة؟! (الناشر).

يزدادون بعداً عن الناس يوماً بعد يوم، وكان من الممكن للجيش أن يقدم لهم خدمة جليسة إن لم يكن لمن يسمون بالنوابغ أي استثناءات. وكان هذا الاستثناء خاطئاً، ولكن هل هناك أي هيئة أخرى في عالم اليوم بلا خطأ واحد؟ وعلى أقل تقدير فإن سمات الجيش الطيبة تتفوق على العيوب البسيطة التي تقل كثيراً عن المتوسط ونشأت عن نقاط ضعف بشرية.

وهذه هي قيمة الجيش العظيم للإمبراطورية القديمة في الوقت الذي لا يساوي فيه الفرد أي شيء ورأي الأغلبية البرلمانية هو كل شيء. وقد عارض الجيش بإصراره على ثقته بالأفراد تلك الاتجاهات اليهودية والديموقراطية لسياسة القوة العددية⁽¹⁾. وقد كان الجيش يقدم تدريباً على أهم ما كنا بحاجة إليه في ذلك الوقت وهو الرجل الحقيقي. وفي الوقت الذي كان الرجال فيه ضحايا للأنوثة والانحلال. تدرب 350000 من الشباب تدريباً قوياً كل عام والتحقوا بالجيش واختلطوا بقدامى المحاربين من الرجال. وخلال عامين من التدريب فقدوا كل ما كان لديهم من نعومة في الماضي وقويت أجسادهم وأصبحت مثل الحديد. وتحول الشباب الذين كانوا منذ عامين يتعلمون الطاعة إلى جنود قادرين على إصدار الأوامر، وكان من الممكن أن نتعرف على الجندي المدرب من مشيته.

هذه هي المدرسة الكبرى للأمة الألمانية، لذلك لم يكن غريباً أن يتحمل الجيش كل هذا العداء من الذين يريدون للمملكة أن تكون ضعيفة وغير قادرة على الدفاع عن نفسها، وذلك لأنهم غيورون على عظمتها ومشغولون بالجشع والطمع. وقد لاحظت بقية دول العالم حقيقة أن أغلب الألمان لا يودون رؤيتها إما لأنهم عموا عن الحقائق أو لأنهم لا يريدون رؤيتها. وهذه الحقيقة هي أن جيش ألمانيا هو أقوى سلاح للدفاع عن الأمة وحريتها وأفضل ضمان للحفاظ على مواطنيها.

❖ سيادة الدولة وقوتها لا تقوم على ثروة البرلمان!

وهناك هيئة ثالثة كان لها دور إيجابي يجب أن يذكر بجانب دور الملكية والجيش، وهي الخدمة المدنية.

لقد أعدت الإدارة الألمانية بطريقة منظمة وإدارة جيدة أفضل من بلاد أخرى كثيرة، وربما يكون هناك بعض الاعتراضات على البيروقراطية الحكومية، لكن هناك دولاً أخرى كانت مماثلة لنا أو حتى أسوأ منا في هذا الأمر. لكن تلك الدول كانت لا تملك ذلك التماسك المدهش للتنظيم الألماني ولم يكن العاملون بالخدمة المدنية لديهم على نفس

(1) يقصد الأغلبية البرلمانية.

المستوى الألماني الرائع. وكان من الأفضل بالتأكيد أن يكون لدينا بعض توافه البيروقراطية ولكننا مخلصون وأمناء ولسنا متقدمين ومعقدين.

وأهم ما يميز الخدمة المدنية والإدارة المدنية بصفة عامة هو استقلالهم عن الحكومات المتعاقبة، وقد كانت الحكومات تؤثر في المسؤولين عن الدولة. لكن بعد قيام الثورة تغير ذلك تماماً. فقد حل اختبار قياس مدى الولاء للحزب محل الكفاءة والمقدرة⁽¹⁾. ولم تعد صفات مثل استقلال الشخصية والقدرة على المبادرة تعتبر صفات إيجابية ومطلوبة للوظيفة العامة، بل صفات ليست في صالح صاحبها.

وقد كانت قوة وعزم الإمبراطورية القديمة تقوم على طريقة المملكة في الحكم والجيش والخدمة المدنية. وقد قامت دعائم قوة المملكة على تلك القواعد الثلاثة وهي قواعد تحتاج إليها الأمة الآن بشدة. فسيادة الدولة لا تقوم على ثروة البرلمان وغيرها بل على القوانين التي توضع لحماية الدولة والأحكام التي تصدرها المحاكم طبقاً للقانون، وذلك ليرتدع كل من يجرؤ على تحدي سلطة الدولة. ولا تتم المحافظة على الأنظمة الحكومية على المدى الطويل من خلال الإرهاب ولكن من خلال ثقة الناس في مواهب وإخلاص من يديرون المصالح العامة ويحسنوها.

على الرغم من أن عدداً من الشرور الكبرى أصابت قلب الأمة ولوثته قبل الحرب، لكننا لا بد أن نتذكر أن الأمم الأخرى عانت من ذلك أكثر من ألمانيا، لكن تلك الدول لم تسقط أو تتفكك عندما وقعت الأزمات. فإذا ما تذكرنا أن تلك الأخطاء التي سبقت الحرب في ألمانيا كان يقابلها ما هو أكثر منها من صفات إيجابية، فإننا سندرك أن علينا أن نبحث في مكان آخر عن السبب الرئيسي الفعال الذي أدى إلى ذلك الانهيار. فهو في مكان آخر.

إن السبب الرئيسي والعميق للانهيار في ألمانيا واضح جداً، وهو تجاهل المشكلة العرقية، وهي مشكلة لم يفهم دورها عبر تاريخ الأمم. فالأحداث التي وقعت في تاريخ الأمم لم تكن بمحض الصدفة، لكنها كانت نتيجة طبيعية لجهود الحفاظ على الأعراق والأجناس وذلك بالرغم من أن الناس لا يدركون كنه الدوافع التي تحركهم وتوجه سلوكهم في هذا الاتجاه.



(1) وهذه الآفة لا تزال تعاني منها كثير من مجتمعاتنا العربية والإسلامية قالولاء والنفاق حلاً مكان الكفاءة والموهبة! (الناشر).



توجد الكثير من الحقائق التي تبرز جلية علي جانبي طريق الحياة - إن جاز لنا هذا التعبير - وتبدو كما لو كانت واضحة جداً لكل عابر سبيل، ومع ذلك يستخف أغلب الناس بمثل هذه الحقائق أو على الأقل لا يجعلونها نصب أعينهم نظراً لوضوحها الشديد. ويصبح بعضهم عاجزاً عن رؤية بعض الحقائق البسيطة جداً في الحياة اليومية حيث يندهشون كثيراً عندما يلفت شخصاً ما النظر إلى ما ينبغي على الجميع معرفته. وتوجد حولنا مئات الآلاف من الأمثلة على غرار مشكلة بيضة كولومبوس⁽²⁾، ولكن قلما نجد من الملاحظين من يشبه كولومبوس.

ويشعر معظم الناس بالغرور كثيراً عندما يتجولون في حديقة الطبيعة ويعتقدون أنهم يعرفون كل شيء، ومع هذا فجميعهم تقريباً يجهل أحد أهم المبادئ الأساسية التي توظفها الطبيعة في عملها. ويمكننا أن نطلق على هذا المبدأ مبدأ العزل الداخلي الذي يميز كل فصيلة من الكائنات الحية على هذه الأرض.

وتكفي مجرد نظرة سطحية عاجلة لنتبين أن كل الأنماط التي لا تعد ولا تحصى والتي تظهر عليها علامات الحياة في الطبيعة هي عرضة لقانون أساسي - يمكن أن نطلق عليه قانون الطبيعة الصارم - والذي تلتزم فيه الفصائل المتنوعة بأن تبقى في ظل الحدود الواضحة للأنماط الحياتية الخاصة بها عند التناسل وتكاثر النوع. فيتزاوج كل حيوان مع أحد أفراد فصيلته فقط. فمثلاً يتناسل العصفور مع العصفور، وطائر اللقلق مع طائر اللقلق، وفئران الحقل مع فئران حقل مثلهم، وفئران المنزل مع نظائريهم من فئران المنزل، والذئب مع أنثى ذئب ... الخ.

❖ الصراع بين الأنواع!

وتحدث الحالات التي تشذ عن هذه القاعدة في ظروف استثنائية فقط. ويحدث هذا على وجه الخصوص في حالة الأسر الجبري أو عندما تؤدي عقبة أخرى إلى جعل التناسل

(1) المقصود هنا هو مفرد الأناس، وليس الجنس بمعنى العلاقة بين الرجل والمرأة.

(2) وهي مسائل رياضية معقدة يتم حلها بالمنورة البسيطة.

شيئاً مستحيلاً بين أفراد من نفس النوع. لكن الطبيعة ترفض هذا الاتصال بكل قواها ويظهر احتجاجها واضحاً إلى أبعد الحدود وتمثلاً في حقيقة أن النتائج الهجين إما أن يصبح عقيماً أو تكون قدرته على التكاثر محدودة. وفي معظم الحالات يحرم الأفراد الهجين وذريتهم من القدرة - المعتادة - على مقاومة المرض أو طرق الدفاع الطبيعية ضد الهجوم الخارجي.

ويبدو هذا التدبير الإلهي لشئون الطبيعة منطقياً جداً. حيث يؤدي كل تهجين بين سلالتين غير متساويتين تماماً إلى نتائج يحمل صفات تتوسط مستويات الأبوين. وهذا يعني أن الذرية الناتجة ستكون بالفعل أرقى منزلة من أحد الأبوين والذي يقع بيولوجياً في رتبة أدنى، ولكنه لا يتساوى في الرقي مع الأب الأعلى منه في الرتبة. ولهذا السبب فلا مفر من أن يستسلم ويموت في النهاية إذا ما دخل في أي صراع ضد الفصيلة الأعلى. ويتعارض مثل هذا التزاوج مع إرادة الطبيعة وميلها نحو التحسينات الاختيارية للحياة عموماً. ولن يكون التزاوج بين أفراد أعلى في الرتبة مع أفراد أدنى في الرتبة من الكائن هو الخطوة المبدئية المرغوب فيها لهذه التحسينات، ولكن من الأولى أن نفسح المجال للسيادة التامة للرتبة الأعلى. فلابد أن يسود الأقوى وألا يتزاوج مع الأضعف وهو من يستفيد من تضحية الأعلى بالطبع. وربما ينظر النتائج ضعيف البنية بفطرته لهذا المبدأ على أنه مبدأ صارم، فإذا كان رأيته هكذا، فذلك لمجرد أنه تابع من طبيعة أدنى وأضيق أفقاً، فلا يمكننا أن نتصور إن لم يتحكم مثل هذا القانون في توجيه عملية ارتقاء وتطور الحياة العضوية على الإطلاق.

وهذا الحافز الذي يدفع الأنواع إلى عدم الاختلاط - وهو ظاهرة سائدة في كل أوجه الطبيعة في العالم - لا ينتج فقط عن الفروق الخارجية الواضحة بين نوع وآخر ولكن أيضاً عن تماثل الصفات الداخلية المميزة لكل نوع أو جنس. فالثعلب يظل ثعلباً والإوزة تبقى إوزة والنمر يحتفظ بشخصية النمر. والفرق الوحيد الممكن حدوثه في كل الأنواع هو تعدد درجات القوة والبنية واختلاف الذكاء والكفاءة والقدرة على التحمل ... إلخ، وهي صفات توهب لكل فرد بدرجات مختلفة. وقد يكون من المستحيل أن نجد ثعلباً ذا طبيعة طيبة وأمنة مع الأوز، كما أننا لم نر أي قط يصادق الفأر.

وهذا هو السبب في أن الصراع بين الأنواع لم ينشأ عن شعور بالكرهية المتبادلة ولكن بسبب الجوع والحب. وفي تلك الحاليتين فإن الطبيعة تتابع ذلك بهدوء بل وتسعد بما يحدث. كما أن الصراع من أجل الحياة اليومية يؤدي إلى التخلص من كل من هو ضعيف أو مريض أو متردد، بينما الصراع على الإناث بين الذكور يسمح ببقاء الأقوى، كما أنه يسمح له بالتوالد. وهذا الصراع ما هو إلا وسيلة لتحسين صحة تلك الأنواع وقدرتها على

وباختصار، فإن نتائج تمازج الأجناس هي كالتالي :

أ- انخفاض مستوى الأجناس الأعلى.

ب- بدء تراجع المستوى البدني والعقلي بانتظام إلى أن يصل إلى أسوأ مستوى.

وكل ما يؤدي إلى ذلك يعتبر جريمة تعارض إرادة الله الخالق. وبما أنها جريمة فلا بد لها من عقاب.

كما أن جهود الإنسان لإقامة ما يعارض منطق الطبيعة الصارم تجعله يصارع تلك المبادئ التي يدين لها بوجوده ذاته. وبذلك يكون قد أعد الطريق الذي يؤدي إلى دماره لأنه يعاند قوانين الطبيعة.

وهنا نواجه معارضة وقحة ذات روح يهودية يؤيدها دعاة السلام المحدثون. وهي تقول: "من الممكن أن يسيطر الإنسان على الطبيعة".

وهناك ملايين ممن يرددون كلام اليهود هذا وينتهي بهم الأمر إلى أنهم يعتقدون في وقت ما أنهم قاهروا الطبيعة. وسلاحهم الوحيد في ذلك هو مجرد فكرة، وهي فكرة منافية للعقل، وذلك لأننا لو قبلنا بهذه الفكرة يصبح من المستحيل لنا أن نتخيل وجود هذا العالم.

والحقيقة هي أن الإنسان لم يخف في التغلب على الطبيعة في أي مجال مهما كان بل إنه لم ينجح سوى في الإمساك بطرف الخمار الذي يغطي أسرارها الخالدة. وهو لم يستطع إبداع أي شيء. وكل ما يمكنه عمله هو اكتشاف بعض الأشياء. وهو لم يسيطر على الطبيعة بل يمكنه فقط أن يسيطر على من يعيشون فيها ممن ليس لديهم مثل معرفته ببعض أسرار الطبيعة. وبغض النظر عن كل ذلك فإن أي فكرة لا يمكن أن تخضع لإرادتها كل الشروط اللازمة لبقاء الإنسان وتطوره لأنها فكرة نشأت من الإنسان نفسه. فبدون الإنسان لن تكون هناك أي أفكار بشرية في هذا العالم. وبهذا تعتمد تلك الأفكار على وجود الإنسان ذاته. وبالتالي فهي تعتمد على تلك القوانين التي سمحت بوجوده.

وهذا ليس كل شيء، فهناك بعض الأفكار المقصورة على أفراد محددين. وهذا صحيح فيما يخص تلك الأفكار التي لا تعتمد على الحقائق العلمية المجردة ولكن على الحواس. وبمعنى آخر، يمكننا التعبير عن ذلك بجملة شائعة الاستخدام اليوم فنقول "إن تلك الأفكار تعكس تجارب داخلية". وكل تلك الأفكار التي ليست لها علاقة بالمنطق ولكنها تعبر عن الأحاسيس فقط ترتبط بشدة بوجود الإنسان. ومثل تلك الأفكار مدينة بوجودها إلى القوى الخلاقة لخيال الإنسان.

❖ | الألمان وفتح العالم!

ومن الضروري للحفاظ على مثل تلك الأفكار أن توجد أجناس محددة وأنواع محددة من البشر. وعلى سبيل المثال، على من يرغب بصدق في نشر أفكار السلام في هذا العالم أن يفعل كل ما يقدر عليه لمساعدة الألمان على فتح العالم، وفي حالة حدوث العكس فإن آخر مؤيدي السلام سوف يختفي باختفاء آخر ألماني. وأنا أقول ذلك لأن شعبنا فقط - للأسف - وليس أي شعب آخر من شعوب العالم هو من سقط ضحية لهذه الفكرة. فعليك أن تنسى الحرب وتفكر فقط في السلام سواء كنت تحب ذلك أم من أجل أن تصل إلى المثل السلمية. وتلك هي فكرة الأمريكي مخلص العالم من الشرور "ودرو ولسن"⁽¹⁾.

وقد تصبح فكرة السلام فكرة ممتازة عندما تتجح أرقى أنواع الإنسان في العالم في إخضاع العالم إلى درجة تمكن ذلك النوع من أن يتسيد الكرة الأرضية. وقد يكون لهذه الفكرة آثار ضارة مما يجعل تطبيقها صعباً أو مستحيلاً في النهاية. لذلك فقبل كل شيء لابد من القتال أولاً ثم السلام. وإن كانت الحالة عكس ذلك فإن هذا يعني أن البشرية قد تخطت قمة تطورها، وعندئذ لا تكون النهاية بتسيد مثاليات أخلاقية على غيرها بل بالتراجع إلى البربرية وما ينتج عنه من فوضى. وقد يضحك الناس على كلامي هذا، لكن كوكبنا هذا مرت عليه ملايين السنين، ولم يسكنه خلالها إنسان، وقد يتكرر ذلك بسهولة في وقت ما في المستقبل وذلك إن نسي الناس أنهم كلما وصلوا إلى مستو عال من الوجود، فذلك ليس ناتجاً عن أفكار مجنونة ولكنه ناتج عن التعرف على القوانين الصارمة للطبيعة.

❖ | الإبداع والجنس الأوحدا!

وكل ما نعجب به في عالم اليوم من علوم وفنون وتطور فني واكتشافات ناتج عن أنشطة خلاقة لعدد محدود من الناس، ومن المحتمل أن يرجع أصل كل ذلك إلى جنس واحد. لذلك فالحفاظ على الحضارة بوجه عام يعتمد بالكامل على هؤلاء المبدعين. فإذا هلكوا فإن كل ما يجعل هذه الكرة الأرضية جميلة سيدفن معهم في قبورهم. وقد تدهورت كل الحضارات الكبرى القديمة لأن الجنس المبدع قد اندثر، وذلك بسبب تلوث الدماء⁽²⁾.

(1) الرئيس الأمريكي إبان الحرب العالمية الأولى ومهندس معاهدة فرساي.

(2) أي اختلاط الأجناس.

وأكبر أسباب ذلك التراجع يتمثل في حقيقة أن الناس تجاهلوا المبدأ القائل بأن كل الثقافات تعتمد على الإنسان، وليس العكس. أو بمعنى آخر فإن الحفاظ على ثقافة يتطلب الحفاظ على البشر الذين يخلقون تلك الثقافة. وهذا الحفاظ يتزامن ويترافق مع القانون الحاد القائل ببقاء الأصلح والأفضل، فهم أحق بالبقاء.

ومن يريد أن يعيش فعليه أن يقاتل. ومن لا يريد القتال في هذا العالم فليس له حق في الوجود فالصراع الدائم هو قانون الحياة.

قد يبدو هذا الكلام صعباً لكنه يصف واقع الحال. وهو أمر يصعب على من يعتقد بإمكانية تغلبه على الطبيعة أنه يهينها بذلك، لكن التوتر والبؤس والمرض ينتقمون لها.

❖ | الجنس الآري هو الأفضل!!

ومن يستخف بقوانين الجنس يحرم نفسه من السعادة التي كان يظن أنه قادر عليها. فهو بذلك يضع عقبة في طريق الجنس المنتصر، كما أنه يتدخل في الشروط المبدئية لتقدم الإنسان. لذلك فإنه يسقط ويتراجع إلى مستوى الغير قادرين على تحمل عبء وجودهم لأنه متقل بأعباء العواطف الإنسانية.

وقد يكون من غير المجدي أن نحاول مناقشة قضية من هو الجنس أو الأجناس التي تحمل صفات الحضارة البشرية الأساسية ولذلك فهم مؤسسو كل ما تعنيه كلمة الإنسانية. فمن الأفضل أن نتعامل مع هذه القضية من خلال علاقتها بالوقت الحاضر. وهنا تصبح الإجابة واضحة وبسيطة. فكل تجسيد للحضارة الإنسانية وكل عمل فني والمهارات العلمية والعملية التي نراها في عالم اليوم تقريباً ناتجة بالكامل وحصرها عن الجنس الآري الخلاق. وهذه الحقيقة تفسر أن الجنس الآري فقط هو الجنس الذي استطاع إنشاء نوع من الإنسانية الراقية. لذلك فهو يمثل "الإنسان" حقاً. فهو مبدع الإنسانية.

❖ | اليابان مقلدة.. والجنس الآري هو أصل الحضارة!

فإذا ما قسمنا البشر إلى ثلاث فئات وهم مؤسسو الحضارة والمستفيدون من الحضارة ومدمرو الحضارة، فإن الجنس الآري وحده هو من يمثل الفئة الأولى، فهو من وضع الأساس وأقام الجدران لكل بناء عظيم في الثقافة الإنسانية. وتعود الألوان الخارجية والمظهر الخارجي لتلك الأبنية فقط إلى الصفات الفردية للأمم المختلفة. فالجنس الآري هو مخطط ومنشئ كل صروح التقدم الإنساني الضخمة، وترك تنفيذ تلك الخطط فقط لبقية الأجناس. وخلال عدة عقود كان شرق آسيا قد كون حضارة واعتبرها حضارة من

صنعه، بينما نجد أن الأسس التي تقوم عليها هذه الحضارة أخذت من العقل الإغريقي والأصول الألمانية التي نعرفها. لكن المظهر الخارجي فقط - إلى حد ما على الأقل - يوضح الآثار الآسيوية. وليس من الصحيح - كما يعتقد البعض - أن اليابان قد أضافت التقنيات الأوروبية إلى ثقافة من صنعها هي. فالحقيقة هي أن العلوم والتقنيات الأوروبية غلفت بالصفات اليابانية الغربية. إن أسس الحياة العادية اليوم في اليابان ليست هي نفسها الأسس التي قامت عليها الثقافة اليابانية الأصلية، بالرغم من أنها تصور الصفات الخارجية فقط للدولة، وهي صفات تبهر عيون المراقبين الأوروبيين لأنها تختلف تماماً عن ثقافتنا. لكن الأساس الأصلي للحياة اليابانية المعاصرة يتمثل في المنجزات العلمية والفنية الضخمة التي حدثت في أوروبا وأمريكا، أي التي قامت بها الشعوب الآرية. ومن خلال الاعتماد على تلك المنجزات فقط تستطيع دول عديدة في الشرق أن تقيم أسس منجزاتها وتأخذ موقعاً في عالم اليوم المتقدم. وقد أثبتت المنجزات العلمية والعملية الأوروبية والأمريكية أنها الأساس الذي يقوم عليه الصراع من أجل الحياة اليومية في الشرق. وقد كانت تلك الأسس هي الأسلحة والأدوات الضرورية لهذا الصراع، والمظهر الخارجي فقط لتلك الأدوات هو ما تم تطويره تدريجياً ليناسب الحياة اليابانية.

❖ اليابان والتأثير الآري!!

إذا توقف التأثير الآري - من اليوم فصاعداً - على اليابان، وإذا افترضنا أن أوروبا وأمريكا سوف تسقطان، فإن التقدم الحالي في اليابان في العلوم والتقنية لن يستمر سوى لفترة قصيرة. وخلال عدة عقود يجف الإلهام، وتنتصر فطرة الشخصية اليابانية، كما أن الحضارة الحالية ستتحجر وتراجع إلى فترة السبات التي كانت عليها منذ سبعين عاماً قبل التأثير الآري. ويمكننا عند ذلك أن نستنتج أنه مثلما أن التطور الياباني الحالي يعود للتأثير الآري فإنه ومنذ قديم الأزل كان التأثير الخارجي والحضارة الخارجية هما السبب في حضارة اليابان اليوم. وهذا الرأي تدعمه بشدة حقيقة أن الحضارة اليابانية تحجرت وخمدت الآن. وحالة الشيخوخة هذه يمكن أن تصيب الشعوب إن فقدت الخلايا العرقية التي تتحكم في الإبداع وتسود الثقافات المنتشرة في تلك المنطقة⁽¹⁾.

إذا عرّضنا الشعوب المختلفة لاختبار قاس يخصص هذا الموضوع سنجد أن أياً من هذه الأمم لم تنشئ ثقافة بل تلقنها فقط من ثقافة نشأت في مكان آخر.

(1) خاب ظنك يا هتلر... وسقطت نظريتك الكاذبة بتفوق الجنس الآري.. وها هي اليابان معجزة آسيا تتقدم اقتصاديات العالم وتصبح ثاني أكبر اقتصاد في العالم بعد الولايات المتحدة متقدمة في الترتيب على ألمانيا صاحبة العرق الآري. (الناشر)!!

ويمكن وصف هذا التطور بأنه دائم الحدوث بالطريقة التالية :

عادة ما تُخضع القبائل الآرية - وتكون قليلة العدد في الغالب وهذا شيء مضحك - الشعوب الأجنبية، وعندما تشدهم ظروف الحياة في المجتمع الجديد الذي يعيشون فيه (خصوصية الأرض والجو المعتدل والطبيعة .. الخ) وكذلك الاستفادة من العمالة اليدوية المتوافرة لديهم من الأجناس الأدنى، فإن العقول والصفات الحميدة في تلك القبائل تتطور وتتحسن بعد أن كانت في حالة سبات حتى ذلك الوقت. وقد أنشأوا حضارات خلال عدة آلاف من السنين - أو القرون - وأحبوا ثقافات كانت علامات البدائية هي السائدة فيمن أسسوها. وعلى الرغم من تعديل تلك الحضارات لتناسب الأرض والشعب المستعبد فإن هذا الجنس المنتصر تعرض لما يضره في الفترة الأخيرة، وهذه المضرة أصابت أهم ما يميزه وهو نقاء الجنس وعدم اختلاطه، وذلك لأنه اختلط بالأجناس المستعبدة. وبهذا وضعت النهاية للوجود المنفصل لهذا الجنس، لكن الجريمة الأولى التي حدثت في الجنة لا بد وأن تؤدي إلى طرد المجرم. وبعد ألف عام سنجد آخر الآثار الواضحة لهؤلاء السادة القدامى العظام في لون البشرة الفاتحة للشعوب المستعبدة وفي حفريات الآريين القدامى الأصليين. وذلك لأن دم هذا الجنس المنتصر - وكان متفوقاً جسدياً وروحياً - قد اختلط بدماء الشعوب المستعبدة. لذلك فقد ترك دم الجنس الحاكم سابقاً أثره على دماء من خلفوه. لذلك أضاعت إشعاعات هذا الجنس وبريقه في حياة البربرية التي كانت الشعوب المستعبدة قد عادت إليها وكان من الممكن أن تؤدي بمن يراها إلى أن يظن أنه هذه هي صورة للعصر الحالي بينما هو يقف أمام مرآة تعكس الماضي فقط.

وقد يحدث أن يلتقي هذا الشعب مرة أخرى بمرور الزمن - وقد تتكرر اللقاءات - مع المؤسسين الأصليين للحضارة ولا يتذكرون تلك العلاقة البعيدة. لكن الدماء الباقية من الجنس الحاكم القديم تؤدي إلى تكرار تلك الظاهرة مرة أخرى، وما كان مستحيلاً في الماضي يصبح ممكناً ويحدث برضاء تام ويكتب له النجاح. فقد بدأت موجة ثقافية جديدة واستمرت إلى أن امتزجت دماء الغزاة القدامى تماماً مع دماء تلك الشعوب (1).

وعلى من يضطلعون بمهمة دراسة تاريخ الحضارة العالمية أن يتناولوا التاريخ من خلال تلك الملاحظة بدلاً من أن يسمحوا لأنفسهم بالاكتماء بما هو متاح من معلومات عن تاريخنا العلمي.

(1) يريد هتلر أن يقسم العالم إلى قسمين: سادة وهم الجنس الآري وعبيد وهم بقية الشعوب والذين يجب أن يسفروا في خدمة سادتهم ولذا عمد هتلر فيما بعد إلى اضطهاد الغجر والأقليات العرقية.. واستخف بالأجناس الأخرى كالسلاف فعمل فيهم قتلًا وأسرًا وجندهم في المصانع والمزارع ليكونوا خدماً، وعبيد للجنس الآري! والآن ما هو الفرق بين النازية والصهيونية.. كلاهما بغض وكلاهما يدعي أنه الجنس الأفضل وأنه شعب الله المختار!! (الناشر).

وهذا التصوير المختصر حول التغيرات التي حدثت بين الأجناس المؤتمنة على الثقافة تصور أيضاً ما قام به المؤسسون الحقيقيون لتلك الحضارة من أنشطة في الشرق ثم اختفاؤهم، وهم أبناء الجنس الآري.

❖ | العبقريّة صفة فطريّة وليست مكتسبة!

وكما نقول في حياتنا اليومية: إن من يسمى بالعبقري يحتاج إلى دافع يدفع عبقريته إلى النور، وكذلك الحال في حياة الشعوب، فالجنس العبقري يحتاج إلى فرصة ودافع يظهران تلك العبقريّة. لكن رتبة وروتيّة الحياة اليومية تجعل المتميزين يبدوون مثل الأشخاص العاديين، ولا يتميزون عن نظرائهم من الأشخاص العاديين. لكن وبمجرد أن يجد هؤلاء المتميزون أنفسهم في موقف خاص يقلق الآخرين ويفقدهم توازنهم، فإن ذلك الشخص البسيط الذي يبدو ذا صفات عادية يكشف عن علامات عبقريته، وعادة ما يندهش المحيطين به من ذلك لأنهم يعتبرونه شخصاً عادياً، فهم لم يجربونه سوى في الأمور الحياتية العادية. وهذا هو السبب الذي لا يسمح لأي رسول بكرامة في وطنه. وتقدم الحرب فرصة ممتازة لملاحظة هذه الظاهرة. ففي أوقات التوتر وعندما يفقد الكثيرون الأمل يظهر فتیان عاديون ويتحولون إلى أبطال، فنجدهم ذوي عزم شديد ولا يهابون الموت القريب منهم كما تظهر قدرتهم المدهشة على التفكير الهادئ في مثل تلك الظروف. فإن لم تأتي لحظة مناسبة لهذا الاختبار فلن نعرف أن هناك بطلاً يكمن في جسد هذا الفتى الذي لم تظهر شعيرات ذقنه بعد. ويبدو أن وجود دافع خاص أمر ضروري لإظهار عبقرية الرجل. كما أن مطرقة القدر التي تضرب كثيراً من الأشخاص بسهولة شديدة قد تواجه من يتحمل ضرباتها بعبقرية لا تشبه الآخرين من حوله أبداً. وبعد سقوط القشرة الخارجية للحياة اليومية عن الشخصية العبقريّة يظهر ما بداخل هذا العبقري من صفات ويتضح للعيان من المندehشين حوله. لكن هؤلاء المحيطين يتحولون إلى مرحلة من العناد ولا يصدقون أن ما حدث أمامهم صادر عن نفس الشخص بل هي مجرد صفة مختلفة أعربت عن نفسها فجأة. ويتكرر ذلك كلما ظهر رجل متميز بوضوح.

لذلك فإن المخترع على سبيل المثال لا يحظى بشهرة إلا في اليوم الذي يتوصل فيه إلى اختراعه، فمن الخطأ أن نظن أن العبقريّة الخلاقة لم تظهر بداخله سوى في تلك اللحظة. فشرارة العبقريّة تعيش في داخله منذ مولده. فالعبقريّة الحقيقيّة صفة فطريّة ولا يمكن أن تأتي أبداً بالتدريب والتعليم.

وكما قلت سابقاً، لا تنطبق هذه القاعدة على الأفراد فقط بل على الأجناس أيضاً. فالشعوب ذات القدرات الخلاقة تظهر مواهبها المبدعة خلال فترات محددة من تاريخها.

وهذه المواهب المبدعة تعود إلى طبيعة تلك الأمم على الرغم من أن هذه الحقائق لا تشاهدها عين المراقب السطحي. وإن كان العالم الخارجي يعجز عن إدراك مثل تلك العبقرية، إلا أنه يشاهد إبداعات عبقريتها في اختراعات، واكتشافات ومبان ولوحات فنية. وبالمثل تماماً، فإن الشخص العبقرى أو الموهوب بموهبة عالية لا يستطيع أن يتوصل إلى تلك الموهبة أو العبقرية التي يجد حافزاً يدفعه إلى الاستفادة منها في موقف محدد. لذلك فإن القدرات الخلاقة والقوى المبدعة تنتظر اللحظات المناسبة في تاريخ الأمم التي تدفعها فيها ظروف محددة إلى العمل.

✦ الجنس الآري وموعد مع القدر!

وأوضح مثال على ذلك يقدمه لنا الجنس الذي كان ولا يزال مسئولاً عن وضع معايير تقدم البشرية وهو الجنس الآري. فمجرد أن وضعه القدر وجهاً لوجه مع ظروف محددة تطورت قدراته بسرعة وظهرت بوضوح. وقد ارتبطت إبداعات ذلك الجنس الثقافية المتعددة بالتربة والطقس والشعب المستعمر. على أن ذلك العامل الأخير - وهو الشعب - يعتبر عامل حاسم جداً. فكلما كان ذلك الشعب يستخدم طرقاً بدائية كلما زادت الحاجة إلى أيدي عاملة يمكن تنظيمها وتوظيفها بدلاً من القوة الميكانيكية. فإذا كان من المستحيل توظيف أفراد من الجنس الأدنى الخاضع لهم، فإن هذا الموقف لا يسمح أبداً لأبناء الجنس الآري باتخاذ الخطوات الأولى التي من الممكن أن تنقل هذا الشعب لبداية حضارة جديدة، وبالمثل تماماً، فهم بدون الحيوانات التي تمكنوا من استئناسها واستخدامها في العمل لم يكونوا قادرين على التوصل إلى ابتداء الطاقة الميكانيكية لتعمل بدلاً من تلك الحيوانات فيما بعد، ومن ثم استطاعوا العمل بدون الاستعانة بالحيوان لاحقاً. فالفكرة القائلة "لقد انتهت وظيفته، دعه يغادر المكان." عبارة عميقة المعنى. فقد ظل الحصان خادماً مخلصاً للإنسان لعدة آلاف من السنين وساعده في إرساء قواعد تقدم البشر، لكن طاقة المحركات حلت الآن محل الحصان. وفي السنوات القليلة القادمة سيتوقف استخدام الحصان تماماً، لكن بدون خدمات الحصان لم يكن ليتأتى للإنسان أن يصل لكل هذا التقدم.

أما في تأسيس الحضارات الكبرى، فقد لعب أفراد الأجناس الأقل دوراً رئيسياً. فالأمم الكبرى وحدها لن تستطيع تحقيق التقدم الذي تطلب أيدي عاملة كثيرة قبل ظهور الطاقة الميكانيكية. ومن المؤكد أن المراحل الأولى من الحضارة الإنسانية لم تعتمد كثيراً على الحيوانات المستأنسة بل كان يقوم بها أفراد من أجناس أقل. فبعد أن عمل أهالي المستعمرات ذات الأجناس الدنيا في تلك الأعمال الشاقة حلت محلهم الحيوانات المستأنسة وليس العكس كما يعتقد بعض الناس. ففي البداية كان على أهالي المستعمرات أن يجروا المحراث ثم حل محلهم الثور والحصان بعد ذلك. لكن دعاة السلام يعتبرون ذلك علامة

على تراجع الإنسان، فقد فشلوا في إدراك أن هذا التطور كان ضرورياً حتى يتمكن الإنسان من الوصول إلى درجة من الحضارة يتمتع بها هؤلاء المعترضون الآن.

❖ الجنس الآري يطأ الأجناس الرقيقة ليصل إلى المجد!!

ويمكننا أن نقارن تطور الإنسان بمن يصعد سلماً لا تنتهي درجاته أبداً. فهو لا يستطيع أن يصل إلى الدرجات العليا دون أن تطأ أقدامه الدرجات الدنيا. وكان على الجنس الآري أن يمشي في هذا الطريق - طريق الواقع - الذي هداه إليه شعوره بما حوله من حقائق وليس بما يحلم به دعاة السلام. إن طريق الواقع صعب والسير فيه عسير، لكنه الطريق الوحيد المؤدي إلى الهدف بينما كان الآخرون يحلمون بما ستكون عليه البشرية. وساعد هؤلاء الحالمون على إبعاد الإنسان عن هدفه وليس على اقترابه منه.

ولم يكن من قبيل الصدفة أن الحضارات القديمة نشأت في الأماكن التي اتصل فيها الجنس الآري بالأجناس الأخرى فاستعمرهم وأجبرهم على إطاعة أوامره. فقد كان أفراد الأجناس الدنيا هم الأدوات الميكانيكية التي تخدم قيام تلك الحضارة.

وهكذا كان الطريق واضحاً أمام الآريين - كمنتصرين - فاستعمروا أجناساً أدنى وحولوا طاقاتهم الجسدية إلى قنوات منظمة تحت قيادة الآري، كما أنهم قد أجبروهم على العمل على تحقيق أهدافهم. كما أن إرغامهم على طريقة مفيدة - وإن كانت شاقة - للاستفادة من طاقاتهم لم ينقذ حياتهم فقط بل ربما جعلها أكثر سهولة مما كانوا عليه أثناء فترة "الحرية" السابقة. وبذلك لم يحافظ فقط على مكانته كسيد لهم بل حافظ أيضاً على الحضارة وتقدمها⁽¹⁾. وقد اعتمد في ذلك على ما لديه من قدرات فطرية مع الاحتفاظ بالجنس الآري كما هو. وبمجرد أن يتقدم رعاياه ويقتربون من مستواه فإنهم يبدأون في استخدام لغته فتتكسر الحواجز التي كانت تفرق بين السيد والعبد. لذلك فقد أهمل الآري الحفاظ على جنسه بلا اختلاط ففقد حقه في البقاء في الجنة التي صنعها بنفسه. فقد أصبح منغمساً في ذلك الاختلاط بين الأجناس وفقد إبداعه الثقافي تدريجياً. ثم تطور أخيراً - ليس من الناحية العقلية فقط ولكن الناحية الجسدية أيضاً - ليصبح مثل هؤلاء الذين استعمرهم وليس مثل أجداده. ثم استطاع العيش لفترة على ما ورثه من ثقافة ظلت باقية إلى ذلك الوقت. لكن مرحلة النحجر بدأت سريعاً وذهب طي النسيان.

وهذه هي الكيفية التي تنهار بها الثقافات والإمبراطوريات وتترك أماكنها لتحتلها كيانات جديدة.

(1) نظرية استعمارية جديدة وأفكار مبتكرة يقدمها هتلر للشعوب المستعمرة والمستضعفة!! (الناشر)

❖ | اختلاط الأعراق يؤدي إلى انهيار الحضارات!!

إن اختلاط الدماء وتراجع الأجناس بالطريقة المشروحة سابقاً هما الأسباب الوحيدة التي تؤدي إلى انهيار الحضارات القديمة، فالحروب لا تقضي على الأمم، لكن ما يقضي عليها هو فقدانها لكل قوى المقاومة التي تمكن من الحفاظ على نقاء الجنس. فكل شيء في هذا العالم إن لم يكن من جنس راق فهو مثل القش. وليس في الأحداث التاريخية ما هو أهم من القضايا التي تواجه الحفاظ على الجنس سواء كانت خيراً أم شراً.

ويمكن الإجابة عن السؤال حول سبب أهمية وتميز الجنس الآري بأن الآريين ذوو صفات قوية تمكنهم من الحفاظ على جنسهم، لكن ذلك يظهر بطريقة غريبة عليهم. فإذا تناولنا ذلك من الناحية الشخصية، فقد كانت الرغبة في الحياة قوية بما يكفي لكن كانت طرق التعبير عنها مختلفة. ففي المجتمعات البدائية لا تمتد غريزة حب البقاء إلى ما هو أبعد من عناية كل فرد بذاته وبقائها. وتكون الأنانية - كما نسميها - هي السائدة وتشمل أيضاً عنصر الوقت أي أن اللحظة الحالية هي الأكثر أهمية. فالحیوان يعيش لذاته فقط، وهو يبحث عن طعام فقط عندما يشعر بالجوع كما أنه يقاتل من أجل بقائه هو فقط والحفاظ على حياته. وطالما أن التعبير عن الرغبة في الحفاظ على الذات يعرب عن نفسه بهذه الطريقة لذلك فلا توجد أسس لبناء المجتمع في أبسط صوره البدائية وهي الأسرة. فالمجتمع الذي يتكون من ذكر وأنثى - إن كان يمتد إلى ما هو أكثر من التزاوج - يحافظ على النوع وبقاء الفرد بالدفاع عن الرفيق أيضاً. وأحياناً يقدم الذكر طعاماً للأنثى، لكن وفي أغلب الأحوال يقدم الوالدان الطعام للصغار من الحيوانات. كما أنهما يكونان مستعدين دائماً للدفاع عن بعضهما البعض، وهنا نقابل روح التضحية بالذات لأول مرة - حتى وإن كانت بطريقة بسيطة جداً. وكلما امتدت هذه الروح في حدود الأسرة الصغيرة كلما وجدت القواعد التي تقوم عليها مجتمعات أكبر إلى أن نصل إلى مستوى الدول.

إن أدنى أجناس البشر تمتلك تلك الصفة أيضاً ولكن بدرجة بسيطة، لذلك فهي لا تتعدى مستوى المجتمع الأسري. ومع تزايد الاستعداد للتضحية بالاهتمامات الشخصية تتزايد القدرة على تكوين مجتمعات أكبر.

❖ | عظمة الجنس الآري ومواهبهم!

وقد ظهر استعداد الفرد للتضحية بعمله الشخصي وحياته - إن لزم الأمر - من أجل الآخرين بصورة واضحة في الجنس الآري. فعظمة الآري لا تكمن في قدراته العقلية بل في استعداده لتقديم كل ما يملك من مواهب لخدمة المجتمع. وهنا تصل غريزة حب البقاء إلى أُنبل صورها، فالآري يضحي بنفسه طواعية من أجل الصالح العام، كما أنه يضحي بحياته ذاتها من أجل المجتمع عندما تكون هناك حاجة لذلك.

إن القوى البناءة التي يملكها الآري وقدرته الغريبة على إقامة حضارة لا تقوم على مواهبه العقلية فقط. فإن كان الأمر كذلك لما استطاع سوى أن يدمر فقط ولم يكن لديه القدرة على التنظيم، لأن التنظيم يعتمد في الأساس على استعداد الفرد للتجرد من آرائه ومصالحه الشخصية لتحل محلها آراء ومصالح المجتمع الإنساني. كما أنه يتلقى مكافأة نظير عمله من أجل الصالح العام. فهو - على سبيل المثال - لا يعمل من أجل نفسه فقط بل يجعل عمله الإنتاجي في خدمة المجتمع الذي ينتمي إليه ومن أجل مصلحة الجميع وليس مصلحته فقط. إن الروح الدافعة لذلك تكمن في كلمة "العمل" فهو لا يعني بالنسبة له مجرد وسيلة لكسب القوت اليومي ولكنه نشاط إنتاجي لا يمكنه أن يتعارض مع مصالح المجتمع. وعندما يتوجه نشاط الإنسان إلى غريزة البقاء الفردي فقط يظهر ما يسمى بالسرقة والربا والسلب والسطو.. إلخ.

إن هذا التفكير الذي يدفع بالاهتمام بالذات إلى الخلفية من أجل الصالح العام هو أول شرط لأي نوع من الحضارة الإنسانية. فمن هذه الروح فقط حدثت المنجزات العظمية للبشرية التي لم يتلقى عنها فاعلوها أي مكافأة لكنها أثبتت أنها ذات فائدة كبرى لمن خلفهم من أجيال، هذه الروح فقط تفسر لماذا يتحمل الناس حياة صعبة لا تقدم لهم مقابل ما يبذلونه من جهد شديد سوى حياة فقيرة ورزق يسير. لكن هذا الرزق يساعد على قيام المجتمع. فكل عامل وكل فلاح وكل مخترع وكل موظف يعمل دون أن يحقق ثروة أو حياة رغدة لنفسه، كما أنه قد لا يشعر بذاته وبأنشطته لأن شعوره مركز في تلك الفكرة الراقية وهي بناء المجتمع.

❖ | خدمة الصالح العام!

وهناك كلمة في اللغة الألمانية توضح تلك الروح الطيبة التي تكمن وراء كل تلك الأعمال وهي كلمة *Pflichterfüllung* أي "خدمة الصالح العام قبل النظر إلى الاهتمامات الشخصية". والصفة الرئيسية التي تنشأ عنها هذه الأنشطة هي عكس "الأنانية" تماماً وهي ما نسميه "المثالية". وهي تعني استعداد الفرد لأن يقدم تضحيات من أجل المجتمع والبشر من حوله.

ومن المهم جداً أن نؤكد مراراً وتكراراً أن المثالية ليست مجرد استعراض ظاهري للمشاعر ولكنها شيء كان وسيظل شرطاً ضرورياً للحضارة الإنسانية، فالمثالية هي الفكرة التي خرج منها معنى كلمة "إنسانية". والجنس الآري مدين بموقعه في هذا العالم لهذا النوع من التفكير. كما أن العالم مدين للعقل الآري لتطويره لمفهوم كلمة "إنسانية"، فمن خلال هذه الروح فقط تندمج القوة والعقل معاً فتنتج لنا آثار الحضارة الإنسانية.

وبدون المثالية فإن كل صفات الذكاء والتفوق لا تعني أي شيء بل إن الذكاء نفسه سيكون مجرد ظاهرة لا قيمة لها ولن يكون قوة خلاقة.

وبما أن المثالية الحقبة - على أي حال - ضرورية لتطويع اهتمامات الفرد وحياته لخدمة اهتمامات وحياة المجتمع، وبما أن المجتمع في حد ذاته هو الشرط الأساسي لكل نوع من أنواع الحضارة، فإن هذه المثالية تتماشى من داخلها مع الهدف النهائي للطبيعة. وهذا الشعور فقط يجعل الإنسان يعترف بإرادته أن الطاقة والقوة تحتلان موقع الريادة ولذلك فهو يجعلهما مكوناً رئيسياً في النظام الذي يتكون منه العالم أجمع.

وبدون أن نشعر ارتبطت المثالية الخالصة بالمعرفة التامة. لكن مقدار صدق ذلك وتأثير المثالية على حياة الفرد يتضحان في اللحظة التي نسأل فيها الطفل البريء - وليكن طفلاً ذا صحة جيدة - عن رأيه. إن هذا الطفل الذي يستمع لأحاديث محبي السلام⁽¹⁾ عن المثالية ولا يفهم منها أي شيء بل يرفضها سيضحى بحياته من أجل أهله دون أن يتردد.

فسوف يعرف بفطرته أن الحفاظ على النوع هو ضرورة لا بد منها حتي وإن كان ذلك يكلف الفرد حياته بما لا يتماشى مع آراء محبي السلام الذين يتغنون به دائماً بينما هم في الحقيقة مجرد جبناء وأنانيين ممن يعارضون قانون التطور البشري بالرغم من أنهم يحاولون التعتميم على ذلك. فمن الضروري لتطور الإنسانية أن يتشرب الفرد بروح التضحية من أجل الصالح العام وألا يتأثر بالأفكار المرضية التي يرددوها الأوغاد ممن يدعون أنهم أكثر علماً من الطبيعة ويتمتعون بقدر كاف من الوقاحة يسمح لهم بانتقاد قوانينها.

لن نتذكر الأجيال القادمة أولئك الذين سعوا من أجل مصالحهم الشخصية فقط، لكنهم سوف يمتدحون الأبطال الذين لم يحظوا بسعادة شخصية من أجل تحقيق مصالح المجتمع الذي يعيشون فيه.

❖ الجنس اليهودي والجنس الآري!

والجنس اليهودي هو الجنس المناقض تماماً للجنس الآري. فربما لا يوجد في العالم أي شعب آخر يسمى غريزة حب البقاء بـ "الشعب المختار" مثلهم. وأفضل دليل على كلامي هذا هو أن هذا الجنس لا يزال موجوداً. فهل يمكن لأي شعب آخر أن يستمر في الوجود لمدة ألفي عام دون حدوث تغير كبير في مظهره وشخصيته كالشعب اليهودي؟

(1) كثرت سخريه هتلر الدائمة من السلام واستهزأه به مما يؤكد أنه رجل حرب وليس رجل سلام!

وكيف كانت نظرة الشعوب المشاركة لليهود في الثورات الكبرى؟ وبالرغم من مرور العالم بكوارث كبرى ظل اليهود على ما هم عليه. فما هي حقيقة التثبث بالبقاء وراء ذلك، إنها غريزة حب بقاء الفرد⁽¹⁾.

فقد تربت عقول اليهود على ذلك عبر آلاف الأعوام، واليوم ننظر لليهودي على أنه خبيث. إن قدراته العقلية - على أي حال - ليست ناتجة عن تطور داخلي ولكنها ناتجة عما تلقاه من الدروس من يهود آخرين. والنفس البشرية لا ترقى لأعلى دفعة واحدة بل لابد من خطوات متتالية. وهي تحتاج إلى ما تم بناؤه من حضارة سابقة من قبل عندما تخطو كل خطوة جديدة لأعلى. وكل فكر يعتمد في قليل منه على تجارب شخصية أما الجزء الأكبر منه فيعتمد على خبرات متراكمة من الماضي. وتقدم الحضارة للفرد - الذي لا يعي ذلك - معارف ضخمة تمكنه من اتخاذ خطوات متعددة على طريق التقدم. فالصبي اليوم - على سبيل المثال - ينمو وسط كم هائل من المنجزات التكنولوجية التي تراكمت خلال القرن الأخير، كما أنه يعتبر أموراً أخرى من المسلمات وكانت لا تزال مجهولة حتى عند أكثر الناس ذكاء قبل قرن واحد من الزمان. لكن من يفهم طبيعة التقدم يعتبر كل تلك الأشياء أموراً طبيعية، كما أنه سيساهم في دفع ذلك خطوة إلى الأمام. فإذا ما تخيلنا أن رجلاً من عشرينيات القرن الماضي قد خرج من قبره اليوم سيصعب عليه أن يفهم عصرنا الحالي ويصل إلى مستوى فتى متوسط الذكاء في الخامسة عشر من عمره. أما إن جاءنا عبقرى من عباقرة الماضي فإنه سيسعى ليصل بنفسه إلى مستوى شباب اليوم العادي من حيث غزارة المعلومات، وهي معلومات يعرفها الشباب بطريقة تلقائية.

بينما نجد اليهودي - لأسباب سوف أشرحها فوراً - لا يملك حضارة خاصة به، فقد كان يستفيد دائماً مما يفعله الآخرون ويجعله أساساً لأعماله. كما تطور تفكيره بصفة دائمة بالاعتماد على تلك المنجزات الثقافية التي كانت جاهزة عند أطراف أصابعه. ولم يحدث العكس أبداً.

❖ اليهود وغريزة القطيع!

وبالرغم من أن فطرة حب البقاء لم تكن ضعيفة عند اليهود بل قوية جداً وأكثر مما هي عند الشعوب الأخرى. وبالرغم من أنه من الممكن أن نتصور أن القدرات العقلية لليهود تساوي - على الأقل - القدرات العقلية عند الأجناس الأخرى، إلا أن اليهود

(1) ﴿وَلَنَجْذِبَهُمْ إِلَىٰ آخِرَتِهِمْ إِنَّهُم لَأَشْرَكَوا بِؤَادِهِمْ لَوْ يَشْعُرُونَ أَنَّ سَعْيَهُمْ لَنَفْعُهُمْ بِشَيْءٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ ذَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٩٦). (الناشر)

ينقصهم أهم شرط من شروط الشعب ذو التراث وهو الروح المثالية. فروح التضحية لا تمتد في الشعب اليهودي إلى ما هو أبعد من الحفاظ على الذات عند الفرد. لذلك فإن ما يدعونه من تماسك الجنس اليهودي ما هو إلا فطرة اجتماعية بدائية مثلها في ذلك مثل أي فطرة سائدة في أي كائن آخر في هذا العالم. فمن الواضح جداً أن غريزة القطيع هذه تجمع أفراداً ليحتموا معاً وبصفة جماعية طالما أن هناك خطراً مشتركاً يهددهم ويجعل التعاون المتبادل حتمياً. فمجموعة الذئاب التي تتجمع حول فريستها وتتعاون في الهجوم عليها وتتفرق فيما بعد ويذهب كل ذئب إلى حال سبيله طالما أنهم قد شبعوا. وهذا ينطبق أيضاً على الجياد، فهم يدافعون عن أنفسهم ضد أي معتد ثم يتفرقون في اللحظة التي يزول فيها الخطر.

ونفس الحال ينطبق على اليهود. فروح التضحية عند اليهودي ظاهرية فقط ولا يلجأ إليها الفرد إلا إذا كانت ضرورة حتمية. وبمجرد القضاء على العدو المشترك والتغلب على الخطر الذي يهدد كل يهودي يختفي ذلك التماسك الظاهري بينهم ويعودون إلى وضعهم السابق. فاليهود يعملون معاً فقط عندما يهددهم أي خطر أو يهجم عليهم عدو مشترك. فإذا ما اختفى هذان العاملان تظهر الوحشية الفردية ويتحول من كانوا يعملون معاً في تناسق إلى فئران تقاثل بعضها البعض⁽¹⁾.

فإذا كان اليهود هم الشعب الوحيد في العالم فسوف يتمرغون في القذارة والوحل ويستفيدون من بعضهم البعض وسيحاولون القضاء على بعضهم البعض بشدة، لكنهم غير مستعدين لتقديم أي تضحية، وهذا واضح في شخصيتهم التي تتصف بالجين وهذا هو سبب توقف صراعهم في تلك الحالة.

لذلك فمن الخطأ الشديد أن نعتبر أن تعاون اليهود مع بعضهم البعض عندما يضطرون إلى القتال على أنه نوع من التضحية المثالية.

وهنا نجد أن اليهودي - مرة أخرى - يلبي نداء فرديته وأنانيته. وهذا هو في السبب الذي جعل الدولة اليهودية - وهي ضرورة من ضروريات الحفاظ على الجنس اليهودي - دولة بلا حدود. فحدود الدولة تحتاج إلى روح مثالية تسود أبناء الجنس الذي يكون تلك الدولة وقبول لفكرة العمل. ولا يمكن إقامة دولة ذات حدود واضحة إلا إذا كان الاتجاه العام للعمل إيجابياً. فإن لم يكن هذا الاتجاه موجوداً فلن تتوافر أسس إقامة الحضارة أيضاً.

(1) ﴿عَسَبَهُمْ جِيماً وَقُلُوبُهُمْ شَقَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (الحشر: ١٤). (الناشر).

❖ | اليهودي ليس مبدعاً ولكنه مقلد!

وهذا هو السبب في أن الشعب اليهودي ليس له ثقافة بالرغم مما يتمتع به من قدرات عقلية واضحة، أي ليس له ثقافة خاصة به. أما الثقافة التي يتمتع بها اليهود اليوم فهي من إنتاج الآخرين وهذا الإنتاج يصبح دينياً في أيدي اليهود.

ولكي نكون حكماً صحيحاً حول موقع اليهود من حضارة العالم لابد أن نضع في اعتبارنا أنه لا يوجد أي فن يهودي إلى يومنا هذا. كما أن اليهود لم يقدموا أي إبداع جديد في فن المعمار وفن الموسيقى وهما أرقى الفنون. فعندما ينتج اليهودي شيئاً ما في مجال الفن فهو في الغالب يهذب كتاباً كان موجوداً من قبل أو يسرق إبداع غيره. فهو يفتقر إلى صفات الإبداع التي تتصف بها الأجناس مؤسسة الحضارات القديمة.

أما مدى استيلاء اليهودي على الحضارات التي أقامها الآخرون - أو إفساده لها إن كنا نتوخى الدقة - فهو واضح من خلال استفادته من الفنون التي تتطلب قدراً ضئيلاً من الإبداع الخلاق وهي فنون الدراما. وحتى في ذلك المجال لم يكن اليهودي سوى كبير المحتالين أو - لنصح التعبير - مجرد محاكاة تشبه ما تقوم به القروء من محاكاة. وذلك لأنه يفتقد طاقة الإبداع اللازمة لإنتاج أي أعمال عظيمة في هذا المجال. فهو ليس مبدعاً ولكن مجرد مقلد يقوم بتقليد الظاهر الخارجي للأشياء بالرغم مما يقوم به من لمسات وخدع لا تخفي عدم وجود أي روح فيما يقدم من فنون. وهنا تتدخل الصحافة اليهودية وتقدم دعماً من خلال التهليل لكل يهودي حتى وإن كان عاملاً يدوياً حقيراً إلى أن يصدق العالم أجمع أن ذلك الشيء الذي لقي كل هذا الثناء عمل فني فعلاً، وما هو في الحقيقة سوى محاكاة (لعمل فني آخر) ذات مستوى متدن.

لا ... اليهودي لا يملك أي من القدرات المبدعة التي تقوم عليها الحضارات. حيث لا تتوافر في اليهود روح المثالية وهي عنصر ضروري جداً من عناصر تطور البشر. لذلك فالعقل اليهودي لم يكن بناء أبداً بل هداماً. وقد يشارك اليهودي في التقدم في حالات نادرة ولكن فقط من خلال قول الشاعر: "من يرنو دائماً إلى الشر لكنه يفعل الخير⁽¹⁾". فلم تحقق البشرية أي تقدم بمساعدة من اليهود، ولكن رغماً عنهم.

❖ | اليهودي والآري والبدو الرحل!

ولأن اليهودي لم يكن له أي دولة ذات حدود معروفة، فهو بالتالي لم يكن صاحب حضارة خاصة به، فإذا ظننا أننا نتناول قضية شعب من البدو الرحل، فهذا خطأ كبير. فالبدو الحقيقي له أرض محددة يعيش فيها. لكنه لا يزرعها كما يفعل الفلاحون

(1) أي رغماً عنه.

المقيمون، فهو يعيش على ما تنتجه قطعان الماشية التي يتجول بها في نطاق أراضيهم. والسبب الطبيعي في ذلك هو أن التربة ليست صالحة للزراعة ولا يمكن أن تنتج إنتاجاً ثابتاً كل عام يمكن من إنشاء سكن ثابت. وبغض النظر عن تلك القضية الطبيعية هناك سبب قوي آخر وهو عدم توفر حضارة ميكانيكية حديثة تعوض الفقر في المنطقة موضوع تلك المشكلة. فهناك مستعمرات أقامها الجنس الآري بما لديه من مهارات فنية خلال فترة تقل عن ألف عام بالرغم من أنها كان من الممكن أن تظل مهجورة إن لم يشأ الآريون التجول فيها بطريقة البدو. لكن ما لدى الآري من خبرات طويلة في استخدام الطرق الفنية جعلت حياة الترحال مستحيلة بالنسبة له. ولابد لنا أن نتذكر أنه خلال الفترة الأولى من الاستعمار الأمريكي كسب كثير من الآريين قوت يومهم من العمل بالصيد وغيره، وكانوا يتجولون بأعداد كبيرة معاً ومعهم زوجاتهم وأطفالهم وكانت طريقتهم في الحياة تشبه إلى حد كبير طريقة البدو الرحل. وعندما زاد عددهم وأصبحوا قادرين على جمع موارد أكثر أخلوا الأرض من سكانها الأصليين⁽¹⁾ وبدأوا إقامة مستعمرات انتشرت في جميع أنحاء العالم.

وربما يكون الآري نفسه قد بدأ متجولاً ثم استقر مع مرور السنين. لكنه لم يكن أبداً من النوع اليهودي. فاليهودي ليس بدوياً رحالاً، فالبدوي يحب العمل وهذا ما ساعده على إقامة حضارة فيما بعد عندما أصبحت الشروط الأساسية لذلك ميسرة. وهناك قدر من المثالية عند البدوي حتى وإن كان بدائياً. وقد تبدو شخصيته غريبة على الجنس الآري تماماً لكنها ليست كريهة ولا منفرة. والشخصية اليهودية لا تحمل أي ملمح من ملامح المثالية. فاليهودي لم يكن أبداً بدوياً رحالاً، بل طفيلي يعيش على جهد الآخرين. فإذا ترك المكان الذي يعيش فيه من وقت لآخر، فهو لا يفعل ذلك بإرادته. لكنه يفعل ذلك لأن الشعب يطرده من آن لآخر بعد أن يمل من الضيوف الذين يسيئون الاستفادة من الكرم. وحب اليهودي للتوسع ما هو إلا ظاهرة طفيلية وذلك لأن اليهودي يسعى إلى أماكن خصبة جديدة يعيش فيها عائلة على الآخرين⁽²⁾.

❖ أكبر أساتذة الكذب!

وهذا لا يشبه حياة الترحال، فاليهودي لا يغادر الأرض التي يحتلها. وهو يلتصق في مكانه وهو بنوي ألا يطرد منها بسهولة حتى لو استخدمت القوة الشديدة لطرده. وهو

(1) بالإبادة كما فعلوا مع الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين! (الناشر).

(2) أليس هذا ما فعله الصهاينة في فلسطين المحتلة من استيلاء على الأراضي واحتكار للموارد والمياه؟! (الناشر).

يتوسع وينتشر في أراض جديدة عندما تتاح الفرصة لوجوده فيها، لكن حتى بعد ذلك - على العكس من الرحال - لن يغير محل إقامته السابق. فهو طفيلي وسيظل طفيلياً. طفيلي مثل الطفيليات العسوية الضارة التي تنتشر في مساحة كبيرة كلما جذبتها منطقة مميزة. وظهور اليهودي في أي منطقة يعني ظهور مصاص الدماء، فهو يستنزف دماء الشعب الذي يستضيفه حتى الموت إن أجلاً أم عاجلاً. لذلك فإن اليهودي قد تعود العيش في دول تعيش فيها أجناس أخرى، وفي داخل تلك الدول يكون دولته الخاصة به والتي تتخفى وراء قناع الدين طالما أن الظروف الخارجية تساعد على ذلك ولا تفضحه أمام هذا المجتمع الذي يعيش فيه. وبمجرد أن يصبح اليهودي في وضع يمكنه من الظهور بلا تخف، فإنه يرفع القناع وفجأة تظهر شخصية لا يصدق أحد أنها موجودة أصلاً، ولا يتمنى أحد رؤيتها وهي شخصية اليهودي.

أدت حياة اليهودي كطفيلي يعيش على دماء الأمم والدول الأخرى إلى تطور شخصيته ليصبح مثلاً وصفه "شوبنهاور" فقال: "أكبر أساتذة الكذب". فهذا الأسلوب من الحياة الطفيلية يجبر اليهودي على الكذب المنتظم، تماماً مثلاً اعتاد ساكني المناطق الشمالية الباردة على ارتداء الملابس الثقيلة.

ويستطيع اليهودي أن يعيش بين أفراد أمم ودول أخرى طالما نجح في إقناعهم أن اليهود ليسوا شعباً ولكن مجرد ممثلين لعقيدة دينية وهم بذلك يعتبرون "مجتمع ديني" على الرغم من أن ذلك تفسير غريب.

لكن - وعلى أي حال - فهذه الكذبة هي أول كذبة لليهودي.

فهو مضطر لإخفاء شخصيته الحقيقية وطريقته في الحياة حتى يسمح له بالاستمرار في التواجد كطفيلي داخل الأمم. وكلما زاد ذكاء الفرد اليهودي كلما نجح في خداع الآخرين. ونجاحه في هذا المجال قد يصل إلى حد كبير لدرجة أن الناس المستضيفين له قد يعتقدون أن اليهودي الموجود بينهم ما هو إلا فرنسي أصيل أو إنجليزي أو إيطالي وأنه ينتمي إلى تلك الديانة غير المنتشرة في تلك الدولة من قبيل الصدفة فقط. أما على مستوى المسؤولين الحكوميين، فإن غالب الموجودين في تلك المناصب ليس لديهم أي معرفة بالتاريخ تستحق الذكر، لذلك يستطيع اليهودي أن يفرض خديعته المخزية بسهولة واضحة. ففي هذه الأوساط يعتبر التفكير الفردي جريمة ضد القواعد المقدسة التي يتم من خلالها الترقى في الوظائف الرسمية. لذلك فليس من المدهش أن الحكومة البافارية لا تزال تعتقد حتى اليوم ودون أي شك أن اليهود يكونون أمة في حد ذاتهم وليسوا مجرد ورثة لعقيدة دينية بالرغم من أن نظرة واحدة على الصحافة التي يملكها اليهود تقدم دليلاً كافياً وواضحاً أمام محدود الذكاء على أن عكس ذلك هو الصحيح. فصحيفة "صدي

اليهود" ليست صحيفة رسمية على أي حال، لذلك فهي لا تملك أي سلطة من وجهة نظر السادة المسؤولين الحكوميين.

❖ اليهود والدين!

وقد كان الشعب اليهودي دائماً أمة ذات شخصية محددة لا يمكن تمييزها بالدين الواحد الذي يجمع أفرادها فقط. فقد بدأ اليهود منذ زمن بعيد - في محاولة منهم لشق طريقهم في العالم - في البحث عن طريقة تبعدهم عن انتباه الآخرين. فلم يجدوا أفضل ولا أكثر فاعلية في نفس الوقت من الاستفادة من فكرة المجتمع الديني. وحتى في ذلك الموقف كان كل ما فعلوه منسوخ أو مسروق، فاليهودي لا يستطيع إقامة هيئات دينية من وحي خياله لأنه يفتقد إلى أي قدر من المثالية، كما أنه لا يؤمن بأي نوع من الحياة سوى الحياة الدنيا. لكن الجنس الآري يعتقد أنه لا توجد أي ديانة تقول بانعدام الحياة بعد الموت، فلا بد من وجود حياة من نوع ما بعد الموت. وفي الحقيقة فإن التلمود لا يتحدث عن الحياة الآخرة، إنه مجرد كتاب يضع القواعد العملية المناسبة للحياة الدنيا.

وكل التعاليم الدينية اليهودية ما هي إلا توجيهات للحفاظ على الدم اليهودي وبقاؤه نقياً وتنظيم العلاقة بين اليهود وبقية العالم، أي علاقتهم مع غير اليهود. والتعاليم الدينية اليهودية لا تهتم بالمسائل الأخلاقية، لكنها تهتم بالموضوعات الاقتصادية البسيطة. فإذا ما نظرنا إلى القيمة الخلقية للتعاليم الدينية لليهود في دراساتهم المستفيضة (ليس من وجهة النظر اليهودية لأن اليهودي متحيز إلى اليهود في كل ما يكتبه) نجدها ذات نوع غريب جداً لا يقبله العقل الآري. واليهودي نفسه هو أفضل مثال على نتيجة مثل تلك التعاليم الدينية. فحياته ما هي إلا الحياة الدنيا فقط، كما أن تفكيره يختلف عن روح الديانة المسيحية وشخصيته لا تماثل شخصية المؤسس العظيم لتلك الديانة الذي عاش قبل ألفي عام مضت. كما أن المؤسس العظيم للديانة المسيحية قد أعلن رأيه في الشعب اليهودي. وعندما استلزم الأمر طردهم من المعبد وذلك لأنهم - كما يفعلون دائماً - استخدموا الدين كوسيلة لتحسين اهتماماتهم التجارية. لكن في ذلك الوقت صُلب المسيح⁽¹⁾ بسبب رأيه في اليهود، بينما نجد المسيحيين المحدثين من حولنا يدخلون في انتخابات الحزب ويحرقون أنفسهم لدرجة أنهم يطلبون من اليهود التصويت لهم. كما أنهم يدخلون في مؤامرات سياسية ضد مصالح أمتهم المسيحية بالاشتراك مع الأحزاب اليهودية الملحدة.

(1) بحسب المعتقدات المسيحية بالطبع. قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَنْهَ الْأَعْلَىٰ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۖ﴾ بَلْ رَضِيَ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (النساء: ١٥٧ - ١٥٨). (الناشر).

ومن هذه الكذبة الأولى والأساسية والتي تجعل الناس يعتقدون أن اليهود ليسوا أمة بل ديانة ينشأ كذب آخر. وإحدى تلك الكذبات - على سبيل المثال - لها علاقة باللغة التي يتحدثها اليهود. فاللغة بالنسبة له ليست وسيلة للتعبير عن خواطره وأفكاره ولكنها وسيلة للتعتيم عليها. فأفكاره تكون يهودية عندما يتحدث باللغة الفرنسية وعندما يكتب الألمانية، فهو لا يعبر سوى عن شخصية اليهودي.

وبما أن اليهودي لم يفلح في السيطرة على أمم أخرى، فقد اضطر إلى أن يتحدث بلغتهم سواء كان يحبها أم لا. لكن في اللحظة التي يصبح فيها العالم عبداً عند اليهود فإنه سيتكلم بلغة أخرى (ولكن لغة الاسبرانتو) حتى يتمكن من السيطرة عليه بسهولة.

❖ | بروتوكولات حكماء صهيون والحقائق المخيفة!

كما يمكن إثبات أن قيام وجود هذا الشعب يقوم على كذبة كبرى بطريقة فريدة من خلال كتاب "بروتوكولات حكماء صهيون" الذي يتبرأ منه اليهود بعنف شديد. فطالما قالت جريدة "فرانكفورتر زيتونج" وكررت مراراً وتكراراً أن هذه البروتوكولات مزيفة. وهذا وحده دليل كاف على مصداقيتها. فكل ما يريد اليهود أن يفعلوه ويوجد في اللاوعي بداخلهم قد أعلن أمام الجميع في البروتوكولات. وليس من الضروري أن نعرف مَنْ مِنَ اليهود كتب هذه البروتوكولات، لكن المهم هو ما أعلنته البروتوكولات. فقد كشفت البروتوكولات بدقة مخيفة عقلية الشعب اليهودي وأساليبه التي تؤدي جميعاً وفي النهاية ورغم اختلاف توجهاتها إلى تحقيق الأهداف التي يسعون من أجلها. ودراسة ما حدث في الواقع على أي حال هي أفضل طريقة للحكم على أصالة تلك المستندات. فإذا درسنا الأحداث التاريخية التي وقعت خلال القرون الماضية على ضوء هذا الكتاب⁽¹⁾ فإننا سنفهم لماذا تصر الصحافة اليهودية دائماً على إنكاره وشجبه. وذلك لأن الخطر اليهودي سيصبح واضحاً في اللحظة التي يقرأ فيها عامة الناس ذلك الكتاب ويفهمونه.

ولكي نفهم اليهودي جيداً فلا بد أن نعرف الطريق الذي سلكه ليدخل في شعوب أخرى خلال قرون قليلة. ومثال واحد كاف لتوضيح ذلك. وكما كانت وظيفة اليهودي واحدة دائماً في كل العصور، كانت الشعوب التي عاش على حسابها متشابهة، لذلك فمن الأفضل لهذا التحليل أن يستخدم طريقة المراحل. وسوف نرقم كل مرحلة بحرف من الحروف الأبجدية من أجل التبسيط فقط.

جاء اليهود لأول مرة إلى ما كان يسمى في ذلك الوقت "جرمانيا" أثناء فترة الغزو

(1) كتاب "بروتوكولات حكماء صهيون".

الروماني، وكالمعتاد جاءوا كتجار. ويبدو أن اليهود اختفوا تماماً خلال الاضطراب الذي صاحب الهجرة الكبرى للقبائل الألمانية. ويمكننا أن نعتبر أن الفترة التي كون فيها الألمان أولى مجتمعاتهم السياسية قد شهدت بدء عملية التهويد في شمال أوروبا ووسطها. ثم بدأ التطور الذي تشابه في كل الأماكن التي يوجد بها الجنس الآري واليهود الذين احتكوا بهم.

❖ | اليهود والاحتكار والربا!

أ- بمجرد أن أقيمت أولى المستعمرات جاء إليها اليهودي. جاء كتاجر، لكنه لم يجهد نفسه ليخفي هويته هذه المرة فقد جاء كيهودي علانية وقد يكون ذلك بسبب أنه لم يكن يعرف اللغة جيداً وقد يكون أيضاً بسبب أن أفراد الأجناس الأخرى رفضوا الاختلاط به، لذلك لم يتمكن من التخفي في أي مظهر آخر سوى أنه تاجر أجنبي. وبسبب رفته ودهائه وقلة خبرات الشعب الذي نزل ضيفاً عليه لم يكن من مصلحته أن يخفي شخصيته اليهودية. وربما كان ذلك مفيداً له لأن الأجنبي يلقى كل ترحيب.

ب- وببطء شديد وبالتدريج بدأ اليهودي يشارك في الحياة الاقتصادية التي تحيط به. ولم يكن من المنتجين على أي حال بل مجرد وسيط. إن خبرته التجارية التي اكتسبها خلال آلاف السنين من مباحثات التوسط جعلته يتفوق في هذا المجال على الآريين، فقد كانوا لا يزالون على قدر من البراءة الشديدة وكان إخلاصهم بلا حدود. لذلك فبعد فترة قصيرة احتكر اليهود التجارة. ثم بدأ اليهودي يقرض المال بالربا، وكانت هذه هي تجارته الدائمة. وكان اليهود هم أول من أقرضوا المال بالربا⁽¹⁾. لكن خطورة هذا الأمر لم تظهر في البداية، بل رُحِبَ بهذا الإبداع لأنه يقدم ميزة وقتية.

ج- في هذه المرحلة استقر اليهودي أي أنه أقام في مناطق محددة من المدن وكانت له أماكن محددة بالأسواق. وبهذا بدأ في تكوين دولة داخل الدولة. وبدأ ينظر إلى الصفقات التجارية كحق مكتسب له وحده فاستثمرها بشدة.

❖ | احتكار التجارة والاقتصاد!

د- في هذه المرحلة أصبحت التجارة والاقتصاد حكراً على اليهودي، وأخيراً ظهرت احتياجات على نسبة الربا التي يتقاضاها وعلى الوقاحة المتزايدة التي أظهرها اليهودي في كل تعاملاته فأثارت سخط العامة، كما أن ثراءه الفاحش أثار غيرة عامة الناس. وأصبح كأس ظلمه ممثلناً إلى الحافة عندما دخلت الممتلكات العينية العقارية

(1) ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْبَهُمْ آمُورًا﴾ (النساء: ١٦١). (الناشر).

في اهتماماته التجارية ونزلت قيمة الأرض لتصبح سلعة تباع في السوق. فهو لم يزرع الأرض مطلقاً بل يعتبرها مجرد وسيلة للاستثمار، ويمكن للمزارع أن يظل في أرضه ولكن بشرط أن يتنازل عن ملكيتها للسيد الجديد. فتزايدت كراهية عامة الناس لليهود تدريجياً وتحولت أخيراً إلى عداً واضح. وهنا أصبح طغيانه وابتزازة للمال غير محتمل لدرجة أن الناس تمردوا عليه واستخدموا العنف البدني معه. ثم بدأوا في تفحص هذا الغريب بدقة أكثر فاكشفوا تلك الصفات والميزات المنفرة التي تلازمه. وفي النهاية أصبحت هناك هوة كبيرة بين اليهودي ومضيفيه، وبسبب تلك الهوة لم يكن هناك أي تعامل آخر بينهما.

وفي أوقات التوتر ثارت موجات من غضب عامة الناس ضد اليهودي، وأخذ عامة الناس بزمam القانون بين أيديهم، فسيطروا على الممتلكات اليهودية ودمروا اليهود حتى يحموا أنفسهم مما اعتبروه كارثة ابتلاهم الله بها. وبعد أن عرفوا اليهود جيداً خلال عدة قرون فهم يروون أن وجودهم بينهم في أوقات التوتر يعتبر مصدراً للخطر لا يعادله سوى خطر الطاعون.

هـ- وبدأ اليهودي يفصح عن حقيقة شخصيته. فبدأ في تملق الحكومات والتذلل لها، واستخدم أمواله في التقرب إليهم وبذلك ضمن تأمين وجوده بالتدريج كما ضمن الاستفادة من ضحاياه. وبالرغم من تزايد سخط العامة على هذا المستفيد الأبدي وطرده خارج البلاد إلا أنه عاد إلى الظهور في نفس الأماكن بعد عدة سنوات واستمر فيما كان يفعله من قبل. ولم يدفعه الحذر إلى أن يتوقف عن تجارة الاستفادة من الشعوب الأخرى ولم تتجح أي من أنواع المضايقات في طرده إلى الأبد. فكان يعود كل مرة وبعد فترة قصيرة حاملاً نفس القصة القديمة.

وفي محاولة لمنع حدوث أسوأ الاحتمالات، فقد صدر قانون بمنع تملك اليهود للأرض.

❖ الملوك والأمراء والخطر اليهودي!

و- وكلما تزايدت قوة الملوك والأمراء، اقترب منهم اليهودي. فهو يستجدي صدور أي قرارات أو ميزات يمنحها له أفراد العائلة المالكة الذين كانوا عادة ما يمرون بضائقات مالية ويرحبون بإصدار مثل تلك القرارات إن تلقوا أموالاً تتناسب تلك القرارات. ومهما كان الثمن غالياً، فقد نجح اليهودي في استرداده في سنوات قليلة من خلال الاستفادة من المميزات التي حصل عليها من الربا والربا المضاعف. إنه طفيلي حقيقي يعلق بجسد ضحيته المسكين ولا يمكن إزالته. وعندما يشعر الأمراء بحاجة إلى المال مرة أخرى فإنهم يأخذون من تلك الأموال التي امتصها اليهودي من دماء الناس.

وتكررت هذه اللعبة بلا توقف. أما من يسمون بـ"الأمراء الألمان" فقد لعبوا دوراً خفياً مثل دور اليهودي وكانوا كارثة على الأمة. وهناك من يماثلهم من وزراء ذلك العصر.

وبسبب الأمراء الألمان لم تتجح الأمة الألمانية في تخليص نفسها من الخطر اليهودي. ولم يتغير الحال لفترة تالية لسوء الحظ. ثم تلقى الأمراء فيما بعد جزاء ما فعلوا من جرائم ضد الشعب وإن كانوا يستحقون ألف ضعف. فقد اتحدوا مع الشيطان ثم اكتشفوا بعد فوات الأوان أنهم في أحضان الشيطان.

❖ | يهود القصر!

ز- ما أن سمح الأمراء لأنفسهم بالاشتراك في مؤامرات اليهود، حتى بدأ العد التنازلي لسقوطهم. فتراجعت منزلتهم عند الشعب ببطء وانتظام، فهم لم يخفقوا فقط في حماية مصالح رعاياهم بل شاركوا في الاستفادة منها. وقد توقع اليهودي بدقة الوقت الذي يسقط فيه الأمراء وفعل كل ما في وسعه ليعجل به. فزاد من الصعوبات المالية التي تواجه الأمراء ليعيقهم عن ممارسة واجبهم تجاه الشعب ويستدرجهم إلى المزيد من التملق والاستفادة منهم بحيث يصبح لا غنى لهم عنه. وقد أدت الأموال التي يعطيها للأمراء إلى كسب مزيد من المال من خلالهم، فهو يبتزها منهم ويعمل على أن يسرعوا في إنفاقها في أقل وقت ممكن. فكان في كل قصر بعض اليهود يسمون "يهود القصر" وهم من يتسبب في تعذيب الضحايا حتى يصلون بهم إلى درجة اليأس الكامل، وفي نفس الوقت يشتون تفكير الأمراء فلا يفكرون سوى في المتع فقط. فلا عجب إذن أن يتسرب هؤلاء الطفيليون إلى صفوف النبلاء. ولم يتسبب ذلك في السخرية من تلك الطبقة فقط بل لوثها من الداخل أيضاً.

❖ | اليهود والتخفي تحت عباءة التنصير!

وبالطبع يستطيع اليهودي الآن أن يستفيد من الوضع الذي وصل إليه ويدفع بنفسه إلى الأمام بسرعة أكبر مما قبل. ثم يتم تعميده ويصبح له كل حقوق ومميزات أبناء الأمة التي يفتريها. وكانت ضربة كبرى حققها اليهودي واستفاد منها في كثير من الأحيان. فالكنيسة تسعد بمن ينضم حديثاً إلى الديانة المسيحية، وذلك يسعد إسرائيل أيضاً فهي تعلم أن الخدعة قد نجحت.

ح- ثم بدأت التغيرات في المجتمع اليهودي. فقد كانوا حتى تلك اللحظة من اليهود، أي أنهم لم يفكروا من قبل بالتخفي تحت اسم آخر. كما أن الفروق بينهم وبين الأجناس

الأخرى لا يمكن اكتشافها بسرعة. وحتى عصر "فريدريك الأكبر" لم يكن اليهود سوى أجنبى، وقد أشعل جوته الثورة ضد إخفاق إصدار قانون يحرم الزواج بين المسيحيين واليهود. ولم يكن جوته انتهازياً ولا رجعيًا. فقد كان يتحدث بصوت العقل .. صوت العرق. وبغض النظر عما يحدث في أروقة القصر، فقد لاحظ الناس أن اليهودي ما هو إلا جسم غريب دخل في طيات لحمهم وأن نظرتهم إليه كانت تتبع من تلك الفكرة.

وكان لابد أن يحدث شيء. فقد تعلم اليهودي إجادة اللغة خلال ألف عام قضاها في بيت مضيفه وأجادها لدرجة جعلته يتخلّى عن شخصيته اليهودية ويركز على أنه ألماني لفترة. وعلى الرغم من أن الأمر يبدو سخيلاً وبلا معنى في أول الأمر، لكنه كان من الوقاحة بقدر كاف ليسمى نفسه "تيوتون" وهي كلمة تعني "ألماني". وهنا بدأت إحدى الحيل المخزية بشدة. فاليهودي لا يحمل أقل صفات الشخصية الألمانية. وهو يتمتع فقط بخاصية تطويع اللغة لألمانية لتتناسب استخداماته⁽¹⁾. وذلك يتم بطريقة مثيرة للاشمئزاز فهو لا يستوعب أي خاصية أخرى من خواص الشخصية الألمانية. لذلك فإن إجادته للغة هي مفتاحه إلى الادعاء بأنه ألماني. لكن اللغة ليست هي كل ما يربط أبناء الأمة، لكن ما يربط كل أبناء هذه الأمة هو دم أبناء الجنس الواحد. واليهودي يعرف ذلك أكثر من أي شخص آخر، لكنه في نفس الوقت لا يهتم مطلقاً بالحفاظ على لغته ويسعى بكل ما أوتي من قوه إلى الاختلاط مع أجناس أخرى. ويمكن للإنسان أن يتعلم لغة جديدة دون عناء كبير، لكنه يستخدم هذه اللغة للتعبير عن أفكاره القديمة، فطبيعته الداخلية لم تتغير بتغير اللغة. واليهودي هو أفضل مثال على ذلك، فمن الممكن أن يتكلم بألف لغة لكن طبيعته اليهودية ستظل على حالها دائماً وأبداً. كما أن صفاته لا تتغير، فقد تكلم باللغة اللاتينية منذ ألفي عام في "أوستيا" وكان يتاجر بالغلل، وهو يفعل نفس الشيء اليوم عندما يحاول بيع الطحين المغشوش بمساعدة ثرثار ألماني. فهو اليهودي المعتاد، لكن هذه الحقيقة لم يلاحظها المسؤولون في الحكومات الألمانية أو أي مسئول رسمي بالرغم من وضوحها كحقيقة أمام الأعين، وذلك لأنه من الصعب أن نجد فئة من الناس محدودي الذكاء مثل مسؤولي الحكومة الذين عملوا في الدولة الألمانية الحديثة.

❖ اليهود وقيادة العالم!

والسبب الذي جعل اليهودي في تلك المرحلة يحول نفسه إلى ألماني ليس خفياً. فقد شعر بأن سلطة الأمراء تتضاءل ببطء فنظر حوله ليجد ما ينقذه بأسلوب اجتماعي. بالإضافة إلى أن تميزه المالي في جميع مجالات الحياة الاقتصادية جعله قوياً جداً لدرجة

(1) حرصت الأقليات كاليهود والأرمن على إتقان لغتين أجنبيتين على الأقل وهذا سهّل لهما الهجرة والاستيطان في معظم دول العالم (الناشر).

أنه لم يعد يستطيع إضافة المزيد إلا إذا تمتع "بحقوق المواطنة". لذلك فهو يأمل في البقاء والتوسع، فكلما صعد أكثر كلما اقترب من تحقيق هدفه القديم الذي يحلم به منذ قديم الأزل وهو قيادة العالم، وهو ما يرنو إليه الآن بعيون محمومة، وهو يعتقد أنه اقترب جداً من تحقيقه. لذلك فإنه يوجه كل جهوده لكي يصبح مواطناً كاملاً المواطنة وله كل الحقوق المدنية والسياسية. ولهذا السبب تحرر من حي اليهود.

ط- وبهذه الطريقة تحول يهودي القصر إلى مواطن. لكنه بالطبع احتفظ بعلاقاته مع سكان الأحياء الراقية كما أنه حاول شق طريقه إلى قلب الطبقة الحاكمة. وفي نفس الوقت كان آخرون من أبناء جنسه يحاولون الاستفادة من الشعب. فإذا ما تذكرنا الجرائم التي ارتكبتها اليهودي ضد جموع الشعب خلال عدة قرون وكم من مرة استثمر اليهودي هذا الشعب بلا رحمة، وكيف امتص من دمائه وجسده حتى النخاع، وإذا ما تذكرنا كيف كرهه الشعب في أكثر من موقف ويعتبره كارثة عامة، إذا تذكرنا كل ذلك فإننا نعرف كيف كان ذلك التحول صعباً جداً على اليهودي. نعم كان من الصعب عليهم جداً أن يقدموا أنفسهم لضحاياهم المساكين على أنهم "إخوة في الإنسانية".

﴿ المحسن الكبير! ﴾

لذلك فقد بدأ اليهودي يقدم تعويضات عامة عن الجرائم التي ارتكبتها في الماضي. فبدأت تحولاته بالظهور بمظهر المحسن. وبما أن سياسته الخيرة كانت ذات هدف محدد، فلم يستطع أن يطبق على نفسه تلك النصيحة التوراتية وهي ألا تعلم شماله ما تخرجه يمينه. وقد حاول أن يعرف كثير من الناس قدر الإمكان أنه يحزن جداً لمعاناة الشعب وأنه مستعد للتضحية بنفسه من أجلهم. وبهذا التصوير الجميل للتواضع الفطري - المعروف عن اليهودي - استعرض فضائله أمام العالم أجمع إلى أن بدأ العالم يصدقه فعلاً. ومن يرفض ذلك يعتبر ظالماً. لذلك وبعد وقت قصير تمكن اليهودي من أن يعكس الحقائق ل يبدو دائماً في موضع المجني عليه وليس العكس. وهناك عدد من الحمقى المعروفين الذي صدقوا ذلك وأشفقوا على اليهودي المسكين⁽¹⁾.

ويجب لفت الانتباه إلى أن اليهودي الذي أعلن أنه مستعد للتضحية بذاته، لكنه لم يسعد بذلك الخداع، فهو بحاجة دائمة إلى تحقيق المزيد والمزيد. وأحياناً ما تشبه صداقاته بالسماذ الذي لا ينثر على الحقول للتخلص منه ولكن طمعاً في محصول وافر. وعلى أي حال، فبعد فترة قصيرة نسبياً عرف العالم أن اليهودي قد أصبح من المحسنين وفاعلي الخير. يا له من تغير !

(1) ﴿وَمَرَّتْ عَلَيْهِمُ الْوَلَةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ (البقرة: ٦١). (الناشر).

إن ما يمكن أن نعتبره طبيعياً عندما يفعله شعب آخر يعتبر غريباً في هذه الحالة وأحياناً يلقى إعجاباً، فهو غير معتاد من اليهودي. وهذا هو ما حدث عندما تظاهر اليهود بالإحسان فقد لاقوا استحساناً يتجاوز قدر المناسبة.

❖ | مُصلح العصر!

وهناك أمر آخر وهو أن اليهودي أصبح حراً فجأة فبدأ يتحدث بحماس عن أهمية تشجيع التقدم الإنساني. ثم افترض تدريجياً أنه مُصلح العصر الحديث.

لكنه استمر في نفس الوقت في التقليل من أهمية النظام الاقتصادي الذي يعقد الناس عليه الآمال. كما اشترى اليهود أسهما في كثير من الشركات الوطنية وبذلك دفع بثقله إلى دوائر الإنتاج الوطني فجعل هذا الإنتاج سلعة تباع وتشتري في البورصة ولكن على أسس تسمح بالملكية الفردية فقد. وعند دخول اليهودي فإن شعوراً بالاستياء يجتاح الموظفين وأصحاب الأعمال مما أدى إلى صراع طبقي سياسي فيما بعد.

وأخيراً حصل اليهودي على نفوذ متزايد في الشركات من خلال تسيده للبورصة. فإن لم يكن هو صاحب العمل، فإنه يضمن سيطرته على القوى العاملة في هذه الأمة.

وقد وجه اليهودي جهوده إلى إزالة الحواجز العرقية والمدنية حتى يدعم موقفه السياسي، فقد كانت حتى ذلك الوقت تمنع تقدمه عند كل منحى. وبالثبات المعهود فيه تناول قضية التسامح الديني لنفس هذا الغرض في داخل المنظمة الماسونية التي سقطت بالكامل في قبضته، وفيها وجد السلاح العظيم الذي ساعده على الوصول إلى أهدافه. وقد سقطت الدوائر الحكومية والقطاعات العليا من الطبقة البرجوازية التجارية فريسة لخطه الذي نفذها من خلال الشبكة الماسونية، بالرغم من أن الماسونيين أنفسهم لم يشكوا فيما يحدث من حولهم.

لكن هذا الشعب أدرك أخيراً مدى قوته وبدأ في استخدامها من أجل حقوقه وحياته فاستطاع أن يخرج من قبضة اليهودي. بل إن تأثير اليهودي لم يتغلغل في الطبقات العربية من الشعب على أقل تقدير. لكن هذا لم يرضي اليهودي. فأهم مرحلة من مراحل هي مرحلة تأمين السيطرة على الشعب. وقد أدرك اليهودي أن جهوده للوصول إلى موقع الحاكم لا بد لها من مُصلح. وقد ظن أنه من الممكن له أن يجد مُصلحاً إذا بحث عنه في الطبقة البرجوازية. لكن الماسونية أخفقت في ضم مصنعي القفازات وأصحاب مصانع الكتان إلى شبكتهم. لذلك أصبح من الضروري إيجاد طريقة أكثر فاعلية. وكان لا بد من توفير وسيلة أخرى تعمل جنباً إلى جنب مع الماسونية. وكانت تلك الوسيلة هي الصحافة. وقد استخدم اليهودي كل مهاراته ليسيّط على الصحافة. ومن خلال الصحافة

استطاع السيطرة على الحياة العامة بالكامل. وبدأ يوجهها إلى الطريق المؤدي إلى تحقيق أهدافه. فقد كان في ذلك الوقت في موقع يسمح له بخلق تلك القوة وتوجيهها. وهذه القوى تعرف اليوم باسم "الرأي العام"، لكنها أفضل الآن مما كانت عليه منذ عدة عقود قليلة.

وفي نفس الوقت أشاع اليهودي عن نفسه أنه يحب المعرفة. وامتدح كل مرحلة من تلك مراحل التقدم وخاصة تلك المراحل التي تؤدي إلى تدمير الآخرين، فهو يحكم على كل تقدم وتطور من منطلق ما يعود عليه من فوائد. فإن لم تكن هناك فائدة تعود عليه من نوع ما من أنواع التقدم فهو العدو اللدود للمعرفة وكراره لكل ثقافة تحمل هذا المعنى. فهو يستفيد من كل ما تعلمه من معارف في مدارس الآخرين ليقدم أبناء جنسه فقط.

❖ | رواد «التتوير»!

والآن أصبح من الواضح أكثر من ذي قبل أن اليهودي يحمي قوميته اليهودية. وعلى الرغم من تغنييه بـ"التتوير" والتقدم والحرية والإنسانية ... الخ كان همه الأول هو الحفاظ على قومية شعبه. وهو يدفع من حين لآخر بإحدى اليهوديات إلى شخصية مسيحية مؤثرة ما لكنه يحافظ على عدم اختلاط الذكور ليظل العرق اليهودي بلا اختلاط مع الأعراق الأخرى. فهو يسمم دماء الآخرين ويحافظ على الدم اليهودي بلا اختلاط. فمن النادر جداً أن يتزوج اليهودي من فتاة مسيحية لكن المسيحيين يتزوجون من يهوديات. والهجين الناتج عن ذلك الاختلاط الأخير يميل دائماً لأن يكون يهودياً. وهكذا يتدهور جزء من أبناء الجنس النبيل. واليهودي يدرك هذه الحقيقة جيداً ولذلك فهو يحاول تجريد قادة الثقافة في الجنس المقابل من أسلحتهم. وهو يتحدث عن المساواة بين جميع البشر لكي يغطي على تكتيكاته ويسخر من ضحاياه بغض النظر عن جنسهم أو لونهم. لذلك صدقه كثير من السذج.

❖ | اليهودي الطيب!

ولأن طبيعة اليهودي كانت لا تزال غريبة على جموع المواطنين فلم يسمحوا لأنفسهم بالسقوط في براثنه، وهو يستخدم الصحافة ليصور نفسه أمام الناس بصورة غير حقيقية بالمرّة لكنها صورة معدة جيداً لكي تخدم مصالحه. أما الصحف الهزلية فقد بذلت جهداً خاصاً لإظهار اليهود على أنهم جنس قليل العدد ومسالّم، كما أنه له خصوصياته مثل أي جنس آخر. وعلى الرغم من تلك الطرق التي تبدو غريبة إلى حد ما إلا أن الصحف الهزلية قدمت اليهودي على أنه طيب القلب ومحترم. كما استمرت محاولات لجعلهم يبدوون بلا أهمية، ولا خطر من ورائهم.

وأثناء هذه المرحلة من مراحل تطور اليهودي كان هدفه الأول هو انتصار الديمقراطية، أو بمعنى أصح سيطرة النظام البرلماني الذي يحتضن مفهومه عن الديمقراطية. فهذا المجلس يتمشى مع أهدافه، ففي المجلس يقل تأثير العامل الفردي وتحل محله الأغلبية وعدم الكفاءة وأخيراً وليس آخراً المكر والخداع. لذلك فلا بد أن تكون النتيجة النهائية هي الإطاحة بالمملكة وهو أمر لا بد من حدوثه إن عاجلاً أم آجلاً.

❖ | الحرفيون والفلاحون!

ي- يغير التطور الاقتصادي الضخم البناء الاجتماعي للأمة. فقد اختفت طبقة الحرفيين الصغيرة تدريجياً، كما أن عمال المصانع الذين حلوا محلهم لم يستطيعوا تكوين أي كيان مستقل خاص بهم وراجعوا شيئاً فشيئاً إلى طبقة العمال الكادحين. وأهم ما يميز عامل المصنع هو أنه لا يملك أي مصدر آخر لقوت يومه يمكنه من العيش في أمان فيما بعد. فهو محروم من حقوقه بكل ما في الكلمة من معنى. لذلك فهو يعيش في بؤس إلى نهاية حياته، وهي فترة لا يمكن تسميتها بالحياة على الإطلاق.

وفيما مضى كانت هناك مشكلة مماثلة تبحث عن حل وقد وجدت هذا الحل. فقد نشأت طبقة جديدة تدريجياً وهي في نفس مستوى طبقة الحرفيين والفلاحين، وهي طبقة الموظفين والمسؤولين وهي تتكون من الذين يعملون في خدمات الدولة المختلفة على وجه الخصوص. وكانت طبقة محرومة بكل ما في الكلمة من معنى. لكن الدولة وجدت ذلك الموقف غير الصحي، فتحملت تقديم مصدر رزق للموظف الرسمي عندما يتقدم به العمر. لذلك بدأ العمل بنظام المعاشات ومكافآت التقاعد. وبدأ القطاع الخاص إتباع نفس الأسلوب فيما بعد. وبذلك أصبح كل عامل ثابت لا يعمل في حرفة يدوية يتلقى معاشاً عندما يكبر في العمر، إذا كانت الشركة التي يعمل فيها شركة كبرى تتجاوز المستوى المحدد لذلك. وقد وجد الموظفون الرسميون ما يعينهم على مشكلات كبر السن من خلال التأمين الذي قدمته الحكومة لهم.

وهكذا أنقذ نظام المعاشات البارعة طبقة كاملة ممن لا يملكون أي ممتلكات شخصية من الفقر المدقع فوجدت مكانها في البناء الاجتماعي للدولة.

وظهرت مشكلة أمام الدولة والأمة، لكنها مشكلة كبرى هذه المرة. فعندما ازدهرت الصناعة غادر ملايين البشر الريف والقرى ليعملوا في المصانع الكبيرة. وكانت ظروف المعيشة التي وجد هؤلاء العمال أنفسهم فيها أكثر من بائسة. كما أن الفلاحين لم يستطيعوا التكيف مع عادات طبقة العمال الجديدة. فالطريقة التي كان يعمل بها الفلاحون أو الحرفيون فيما سبق لا علاقة لها بطريقة العمل في تلك المصانع الجديدة. ففي حرفهم

القديمة لم يكن للوقت أي قيمة، لكنه أصبح عاملاً رئيسياً في النظام الصناعي الجديد. لكن كمية العمل المنجز في وقت محدد كانت لا تزال صغيرة نسبياً وذلك لأن طرق الإنتاج الكمي الحديثة لم تكن معروفة بعد. لذلك كان العمل لمدة 14-15 ساعة في اليوم في ذلك الوقت ممكناً، لكنه الآن غير ممكن للإنسان لأن النظام الحديث يستفيد من كل دقيقة إلى أبعد مدى ممكن. لذلك فقد كان هذا التحول من العمل القديم إلى نظام العمل في المصانع خطيراً من ناحيتين. الأولى أنه يدمر صحة العمال والثانية أنه يدمر ثقتهم في عدالة القانون. وأخيراً فقد كانوا يتلقون أجوراً زهيدة من جهة بالرغم من تزايد أرباح صاحب العمل من جهة أخرى. وهنا نجد نوعين من الحياة على طرفي النقيض.

فالحياة في الريف خالية من المشكلات الاجتماعية، وذلك لأن السيد والعامل الزراعي يعملون في نفس العمل ويؤدونه معاً. كما أنهما يتناولان نفس لطعام معاً وأحياناً من نفس الصحن. لكن في المصانع نجد أن هناك نظاماً جديداً قد بدأ بين صاحب العمل ورجاله.

❖ | أكذوبة أن العمل اليدوي والحرفي عمل حقير وتافه!

لكن هذا الفصل بين صاحب العمل والعامل لم يمتد إلى كل نواحي الحياة. حيث تتضح عملية التهويد تلك في نظرة الشعب أيضاً إلى العمل اليدوي، فهو لا يجد أي اهتمام وينظر إليه على أنه عمل حقير. وهذا ليس هو الاتجاه الطبيعي للشعب الألماني. فقد حدث بسبب دخول عنصر أجنبي إلى حياتنا، وهذا العنصر هو اليهود، فقد كانوا السبب في نشر الشعور بأن العمل الحرفي اليدوي عمل حقير وتافه.

❖ | الخداع!

وبذلك نشأت طبقة جديدة معدمة، ولا بد من أن يأتي اليوم الذي يتوجب علينا فيه أن نعرف ما إذا كانت الأمة قادرة على جعل هذه الطبقة جزءاً متكاملًا من مجتمعنا أم أنهم سيظلون على حالهم وتستمر الفجوة بينهم وبين بقية طبقات المجتمع.

لكن هناك شيئاً واحداً أكيداً على الأقل وهو أن هذه الطبقة لا تضم أسوأ عناصر المجتمع. لكن العكس هو الحقيقة، فهي تضم أنشط شباب الأمة. وذلك لأن التعقيد الناتج عما يسمى بالحضارة الحديثة لم يكن قد أثر بعد في تلك الطبقة. كما أن جموع الأفراد المكونين لتلك الطبقة المتدنية الجديدة من العمال لم تكن قد وقعت ضحية لدعاة السلام⁽¹⁾. فهم لا يزالون أقوياء، كما أنهم يمكن أن يتحولوا إلى استخدام القوة عند الحاجة لذلك.

(1) أشار هتلر إلى "دعاة السلام" في أكثر من موضع في هذا الكتاب، ويقصد بهم هؤلاء الذين لا يؤمنون بمبدأ اللجوء إلى العنف أو الحرب مهما حدث.

وبينما لم تهتم الطبقة البرجوازية الوسطى بتلك المشكلة الخطيرة، وتركوا الأمور تسير كالمعتاد، انتهز اليهودي الفرصة وما قدمه له الموقف من احتمالات متعددة يمكن أن تحدث في المستقبل. فقد أعد طرق رأسمالية للاستفادة من كفاءة تلك الطبقة إلى أقصى مدى من جهة، ومن جهة أخرى تسلل إلى ضحايا سياسته وخلال فترة وجيزة كان قائداً لكفاحهم ضده. وكلمة "ضده" هنا ما هي إلا مجرد تعبير يصف الموقف، فهذا الأستاذ الكبير في الكذب يعرف كيف يتخفى في زي البسطاء المقهورين ويلقي بالإثم على الآخرين. وبما أنه وقح لدرجة تجعله يجيد تزعم جموع المواطنين، فليس هناك من شك في أنهم قد وقعوا فريسة لخداع مخز. لكن هذه هي الحقيقة.

وفي اللحظة التي أصبحت تلك الطبقة الاجتماعية ذات تكوين واضح في المجتمع عرف اليهودي من أين تؤكل الكتف. وفي البداية استخدم اليهودي الطبقة البرجوازية ككبش فداء يواجهه نظام الإقطاع. والآن يستخدم العمال ضد الطبقة البرجوازية. ومثلما نجح في الحصول على الحقوق المدنية من خلال التآمر الذي قام به في حماية الطبقة البرجوازية، فهو يأمل أيضاً أن يتمكن السيطرة التامة على العمال من خلال انضمامه إلى كفاحهم من أجل إثبات وجودهم.

❖ اليهود والعمال!

وفي تلك اللحظة سيكافح العمال من أجل مستقبل الشعب اليهودي. وسوف يجعلون أنفسهم في خدمة اليهود دون أن يشعروا بذلك. فالعامل يكافح ضد الرأسمالية ظاهرياً لكنه يعمل من أجل المصالح الرأسمالية في نفس الوقت. وتعالى الصرخات ضد الرأسمالية الدولية لكنها في الحقيقة صرخات ضد البناء الاقتصادي للأمة وهذا واضح من الشعارات. وكانت الفكرة وراء ذلك هي تخريب ذلك الاقتصاد وإقامة بورصة دولية على أنقاضه.

وكانت خطة اليهود لتنفيذ ذلك كالتالي :

يتملق اليهودي العامل ويدعي بأنه حزين من أجله هو وأسرته، كما يسخط على الفقر واليأس الذي يعيش فيه ذلك العامل. وهذه هي الطريقة التي سعى من خلالها اليهودي إلى كسب ثقة طبقة العمال. فهو يدعي بأنه حريص على دراسة ما يواجهونه من مشكلات سواء كانت حقيقية أو خيالية وعلى إشغال رغبة العمال في تغيير الظروف التي يعيشون فيها. وتمكن ببراعة من تأجيج الرغبة في تحقيق العدالة الاجتماعية وهي صفة آرية نموذجية. وبمجرد أن تصبح تلك الرغبة متأججة فإنها تتحول إلى كراهية ضد من هم أفضل حالاً. والمرحلة التالية هي نشر فكرة الكفاح من أجل تقليل الأخطاء الاجتماعية. وهنا نشأ مذهب الماركسية.

وبعد أن أرسى اليهودي مذهبه كجزء لا يتجزأ من حملة الدفاع عن الحقوق الاجتماعية بدأ في الدعاية لذلك المذهب بطريقة فعالة. لكنه وفي نفس الوقت كان يستثير معارضة الطبقات العليا التي رفضت تحقيق تلك المطالب التي تبدو غير عادلة ومستحيلة التنفيذ. فقد تخفت أهداف شيطانية تحت عباءة تلك المطالب التي تبدو مطالب اجتماعية فقط. وهذه الأهداف أعلنت صراحة دون خوف وبوقاحة منقطعة النظير. فهذا المذهب الماركسي ما هو إلا خليط من عقل الإنسان وحماقته، لكن هذا الخليط معد بطريقة تجعل الجزء الأحق منه فقط هو القابل للتنفيذ مع استحالة تنفيذ الجزء المعقول.

❖ زيف الماركسية!

وتلك الغرابة التي تتصف بها النظريات الاقتصادية السياسية الماركسية جعلت من هذا المذهب مذهباً غريباً. وبسبب هذا المنطق الزائف للمذهب الماركسي، فإن الطبقة المثقفة رفضت تأييده، بينما انضم إلى المذهب الماركسي كل من اعتاد تعطيل استخدامه لذكائه وكل من لديه بعض الأفكار البسيطة عن مبادئ الاقتصاد. إن اليهود يقفون بذكاء خلف تلك الحركة - وذلك لأنها حركة تحتاج إلى قدر من الذكاء حتى تستمر، وهذا هو ما أمدهم به اليهود. وقد قدموا ذلك كخدمة مجانية يعتبرونها تضحية من جانبهم.

وقد أدى ذلك إلى ظهور حركة تتكون من العمال الديويين بزعامة اليهود. وهذه الحركة تبدو أمام الجميع بأنها تسعى إلى تحسين الظروف المعيشية للعمال. لكن الهكف الحقيقي هو استعباد الأجناس غير اليهودية وإبادتها.

امتدت الدعاية التي قامت بها الحركة الماسونية بين أهل الفكر - والتي نشروا من خلالها تعاليمهم الخاصة بالسلام وهي تشل فطرة المحافظة على بقاء الأمة - إلى جماهير الشعب من العمال والطبقة المتوسطة من خلال الصحافة التي سيطر عليها اليهود في كل مكان. وقد أضيفت وسيلة ثالثة لهاتين الوسيلتين وهي تدريب القوة البدنية بين الجماهير. وعند حدوث الصراعات البدنية يهاجم الماركسيون أجزاء من النظام الاجتماعي بعد أن يكون العمال وغيرهم من المهمشين قد أدوا ما عليهم.

وتدار هذه الأنشطة المجتمعة لتلك القوى بدقة مدهشة. لذلك لم يكن من المدهش أن تفشل تلك الأجهزة التي كانت تعتبر ممثلة للسلطة التقليدية للدولة أمام الهجمة الماركسية. ووجد اليهودي من يؤيد عمله الهدام من بين كبار، بل وأكبر كبار السادة المسؤولين. فإذا كان علي أن أصور ذلك الصراع الذي يبدأ الآن بطريقة فعلية، فإني أصفه كما يلي :

لم يقتنع اليهودي بانتصاراته الاقتصادية العالمية ولكنه كان يريد أن يسيطر على العالم

سياسياً أيضاً، لذلك فقد قسم جهود الماركسيين إلى قسمين يعملان من أجل تحقيق الأهداف التي يسعى اليهودي إليها. ومن المظهر الخارجي فإن الحركتين تبدوان منفصلتين، بينما هما في الحقيقة حركة واحدة لا يمكن تقسيمها. وهاتين الحركتين هما : الحركة السياسية وحركة اتحاد العمال.

وكان على حركة اتحاد العمال أن تجمع المتطوعين. وهي تقدم الدعم والحماية للعمال خلال الكفاح المضني الذي بدأوه من أجل البقاء. وهو صراع ضد جشع وضيق أفق أصحاب الصناعات. فإن لم يكن العمال مستعدين للتنازل عن كل مطالبهم الحياتية وإن لم يكونوا مستعدين أن يسلموا أقدارهم لأصحاب المصانع الذين لا يشعرون بأي مسؤولية إنسانية تجاههم ولا يشعرون بحاجات الإنسان على الإطلاق، فعلى العمال إذن أن يأخذوا بزمام الأمور وإن أدركوا أن الدولة لا تهتم بمطالبهم على الإطلاق.

❖ | أهداف خبيثة وأغراض دنيئة!

عارضت الطبقة المسماة بالطبقة الوطنية المتوسطة (البرجوازية) المهمة بمطالبها المادية فقط هذا الكفاح المستميت الذي يقوم به العمال ووضعت العوائق في طريقه. ولم تكف تلك الطبقة المتوسطة بمجرد إعاقة كل جهود إصدار قانون لتقليل عدد ساعات العمل الطويلة وغير الآدمية وتحريم عمالة الأطفال وتقديم الحماية والأمن للمرأة وتحسين الظروف الصحية في ورش العمال وبيوتهم. فبينما كانت الطبقة البرجوازية تعوق كل ذلك تلفف اليهودي الأمر ببراعة. وتدرجياً أصبح هو قائد حركة اتحاد العمال وكان هذا عمل بسيط بالنسبة له، فهو لا ينوي البحث عن حلول للمشكلات الاجتماعية بحق، ولكن سيستمر في تحقيق أهدافه وهي جمع الأتباع والعمل على تماسكهم حتى يعملون تحت رئاسته ويستخدمهم كسلاح في الحرب الاقتصادية حتى يدمر استقلال الأمة الاقتصادي. وبينما كان الحوار بين هذين القطبين الكبيرين يدور حول خطة اجتماعية مقبولة من جهة وضمانات استقلال الاقتصاد من جهة أخرى كان اليهودي لا يعياً بهما على الإطلاق. فتدميرهما كان من بين أهدافه. فسوف يدمر استقلال اقتصاد الأمة. لذلك فإن اليهودي بصفته قائد حركة اتحاد العمال لا يتردد في وضع طلبات تتجاوز الأهداف المعلنة للحركة كما لا يمكن أن تنفذ دون تدمير البناء الاقتصادي للأمة. كما أنه غير مهتم بصحة ورفاهية العمال، بل يود لو تدنت أحوالهم ليصبحوا قطيعاً لا يفكر في أي شيء حتى يتمكن من إخضاعه تماماً. وبما أن هذه هي أهدافه النهائية فلا بد له أن يتقدم بمطالب غير ممكنة. وهو يدرك تماماً أن تلك المطالب لا يمكن تحقيقها وأنه لن يتمكن من تغيير أي شيء. كل ما يستطيع فعله هو إثارة التوتر بين الجماهير. وهذا هو الهدف الذي يسعى إليه من خلال الدعاية، كما أنه لا يسعى إلى تحقيق أي تقدم في الظروف الاجتماعية للعمال.

ولن يستغرق الأمر من اليهودي سوى وقت قصير، فتغلب على منافسيه في هذا المجال وطردهم خارج الملعب. ثم تمكن بكل ما أوتي من وحشية وضراوة من تحويل حركة اتحاد العمال إلى منظمة تمارس العنف البدني. كما أن مقاومة من تبعدهم أفكارهم عن ديكتاتورية اليهودي تنهار أمام الإرهاب، فهو وسيلة حققت قدراً هائلاً من النجاح.

وبالتزامن مع كل ذلك تقدمت الحركة السياسية بالتعاون مع اتحاد العمال. فاتحاد العمال يُعد الجماهير للانضمام إلى المنظمة السياسية ويدفعهم إليها دفعاً. كما أنه أيضاً مصدر للمال الذي تحتاج إليه المنظمة السياسية حتى تحافظ على بقائها كجهاز ضخم. واتحاد العمال هو المنظمة التي تسيطر على الأنشطة السياسية لأعضائها وتحشد الجماهير في كل المظاهرات السياسية الكبرى. وفي النهاية توقفت عن الكفاح من أجل المصالح الاقتصادية واستبدلته برفض الاستمرار في العمل - أي الإضراب العام - بترتيب مع الحركة السياسية.

❖ | سلوك وضيع ومخيف!

ومن خلال الصحافة التي تستخدم لغة تناسب أبسط القراء وجد اتحاد العمال والمنظمة السياسية الوسيلة التي يعدون بها الطبقة الدنيا من الشعب من أجل بدء الحملة الشرسة. ولم يكن من واجب الصحافة أن تزود قراءها بالمثل التي تمكنهم من السمو بقولهم فوق أحوال معيشتهم اليومية الدنيئة. لكنها كانت على العكس تماماً، فقد ركزت على أدنى الغرائز، فكثير من الكسالى ومحبي الذات من تلك الطبقات يفضلون هذا النوع من التفكير.

قام هذا النوع من الصحافة بحملة الافتراءات التي تسعى لتدمير كل ما يدعم استقلال الأمة ويدمر القيم الثقافية واستقلال النظام الاقتصادي القومي.

وهي صحافة توجه كل هجماتها ضد كل الشخصيات التي ترفض الرضوخ لمساعي اليهود من أجل السيطرة على الدولة أو من يبدو خطيراً على اليهود لمجرد أنه ذكي جداً. ومن يُعرف عنه أنه معاد لليهود لا يتعرض لأي عداء علني منهم، فمجرد معرفة أن شخص ما يعارض اليهود كافيّة للعمل ضده في الخفاء خاصة وإن كان يسعى إلى تحسين حال الأمة، وهذا ما لا يريده اليهودي.

واليهودي يعرف بسرعة من هو صاحب العقلية المميزة من بين كل من يلتقي بهم يومياً - وهو ماهر في ذلك ولا يفشل فيه أبداً - وكذلك من لا يشعرون بالتعاطف معه فيسجلهم في قائمة أعدائه. ولأن اليهودي هو المعتدي نفسه وليس وسيلة في يد المعتدي، فإنه يعتبر أن أعداءه ليسوا هؤلاء الذين يهاجمونه فقط بل من يصرون على مقاومته

أيضاً. والطرق التي يستخدمها للقضاء على أولئك الناس - وهم من المحترمين والعادلين - ليست هي الطرق العادية والواضحة التي تستخدم في النزاعات الشريفة ولكنه يستخدم معهم الكذب والبهتان.

واليهودي لا يتوقف عند حد ما، فالسلوك الذي يتبعه هو سلوك وضع ومخيف جداً، لذلك فليس لنا أن نندهش إذا تصور شعبنا أن اليهودي هو تجسيد للشيطان ورمز للشر.

❖ كيف تسقط الجماهير في براثن الكذب؟! ❖

إن جهل الجماهير العريضة بما يدور داخل شخصية اليهودي وعدم توافر الحكمة والبداهة التي تتمتع بها الطبقات العليا من الشعب هي بعض الأسباب التي توضح كيف أن كثيراً من الناس يسقطون في براثن حملة الكذب التي يعدها وينفذها اليهودي.

بينما نجد أن الطبقات العليا تتبعد - بما لديها من جبن فطري - عن أي فرد يهاجمه اليهود بالكذب والافتراء. أما الناس العاديون فهم يصدقون كل شيء بسرعة إما بسبب الجهل أو لبساطة تفكيرهم. أما المسؤولون الحكوميون فهم يتشحون بثوب الصمت، لكنهم في الغالب يضطهدون ضحية اليهودي حتى تتوقف الحملة في صف اليهود. فالحمقى من المسؤولين الحكوميين يرون أن هذا التصرف يساعد على إثبات سلطة الدولة ويحافظ على النظام العام. وبالتدريج أصبح السلاح الماركسي في يد اليهودي هو مصدر رعب دائم للأشخاص المحترمين. وأحياناً ما يؤدي الخوف من هذا السلاح إلى بقاءه داخل الذهن وتحوله إلى كابوس. لذلك فقد بدأ الناس يجبنون أمام هذا العدو المخيف ومن ثم يصبحون من ضحاياه.

ل- تأكدت سيطرة اليهود على الأمة الآن لدرجة أن اليهودي لم يعد يسمى نفسه يهودياً كما أنه يعبر عن أفكاره حول الأجناس والقضايا السياسية بوضوح وحرية. وهناك قطاع من اليهود يعترف بأنه من الغرباء لكن حتى هذه كذبة. فعندما يحاول الصهاينة إقناع بقية العالم بأن الضمير اليهودي الجديد سيرضى بإقامة دولة يهودية في فلسطين، فهم بذلك يستخدمون وسيلة أخرى جديدة لخداع بقية الأجناس غير اليهودية. فهم ليس لديهم أدنى نية لبناء دولة يهودية في فلسطين ليعيشون فيها. إن ما يهدفون إليه حقاً هو إقامة مركزاً للخداع والغش الدولي. فالدولة ذات السيادة لن تسيطر على أي من الدول الأخرى. بل ستستخدم كملجأ للغشاشين الذين يتم اكتشافهم، وتعتبر مدرسة عالية لتدريب الغشاشين.

وكعلامة على ترايد جرأتهم وشعورهم بالأمن أعلن قطاع منهم عن هويته اليهودية بينما يدعي قطاع آخر أنهم من الألمان أو الفرنسيين أو الإنجليز طبقاً للدولة التي يعيش

فيها. وكانت الطريقة الصاخبة التي يتعاملون بها مع الناس تعكس شعورهم بقرب انتصارهم في المستقبل القريب.

فالشباب اليهودي ذو الشعر الأسود يرباط في مكمته في انتظار الساعة الحاسمة، وهو يتجسس على البنات التي لا شك فيها والتي يرسلها لتغري الآخرين وتختلط دماؤها مع دماء الأجناس الأخرى وتصبح واحدة منهم. فاليهودي يستخدم كل الوسائل المتاحة لضرب الأسس التي تقوم عليها الأجناس واستعبادها. وهو يسعى من خلال خطته لإفساد الفتيات والنساء إلى أن يسقط الحواجز القائمة بينه وبين الشعوب الأخرى. إن اليهود هم من أحضر الزنوج إلى حوض نهر الراين لنشر الزنا بين البيض الذين يكرهونه حتى تتراجع ثقافتهم ومستواهم السياسي حتى يصبح اليهودي سيداً. فكلما ظلت أجناس الشعوب خالصة، وكلما ظلوا على وعي بقيمة دماهم فلن يتغلب عليهم اليهود. ولن يكون اليهود أسياداً على أي شعب إلا إذا كان شعباً دينياً.

وهذا هو السبب الذي جعل اليهودي يسعى دائماً إلى خفض صفات أجناس الشعوب بتلوين دماء الأفراد الذين ينتمون إلى هذا الجنس باستمرار.

❖ | سياسة مأكرة وفكر مدمر!

أما في مجال السياسة فقد بدأ اليهودي يستبدل فكرة الديمقراطية بفكرة ديكتاتورية طبقة العمال. كما أنه يعتبر جماهير الشعب التي تعمل تحت راية الماركسية سلاحاً يمكنه من التخلي عن الديمقراطية حتى يتمكن من التحكم والاستعباد بطريقة ديكتاتورية وبقوة غاشمة. واليهودي يعمل بانتظام في اتجاهين حتى تقع الثورة. وهذين الاتجاهين هما الاقتصاد والسياسة على التوالي.

وقد كون اليهودي حلقات عدائية حول الدول التي أظهرت قوة وثباتاً عندما هاجمها من الداخل. وهو يحب توريطهم في الحروب⁽¹⁾ ثم - إن كان ذلك ضرورياً لخطته - يرفع أعلام الثورة حتى وإن كان القتال مستمراً على الجبهة.

كما أنه يتسبب في الخراب الاقتصادي للدولة بطريقة منتظمة من خلال تخريب الشركات الوطنية إلى أن تصبح التكلفة فيها عالية جداً فتخضعها الدولة للتمويل اليهودي. وعلى الصعيد السياسي، فإنه يعمل على نهب ما تقفاته به الأمة وإضعاف المقاومة الشعبية وتدمير ثقة الشعب في حكومته ولعن التاريخ والماضي وتمريغ كل ما هو وطني في الوحل.

(1) ﴿كَلَّا أَوْرَثُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَلْفَآءًا ۖ وَتَسْمَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (المائدة: ٦٤). (الناشر).

أما من الناحية الثقافية فينحصر عمله في تهذيب الأعمال الفنية والأدب والمسرح والسخرية مما له علاقة بالعواطف الوطنية من خلال ذلك، كما أنه يقرب كل مفاهيم الجمال والرفعة، حتى يصل بالشعب في النهاية إلى مستواه الفكري المتدني.

كما أنه يسخر من الدين والأخلاق والأدب، فما هي إلا صفات عتيقة بالنسبة له، وبذلك فإن هجومه عليها يتم بطريقة منهجية للتقليل من شأنها فهي آخر الأسس التي تقوم عليها الأمة وأهم ما تعتمد عليه إن اضطرت أن تجاهد من أجل بقائها في هذا العالم.

وهنا تبدأ الثورة الكبرى والأخيرة. فيمجرد أن يتمكن اليهودي من امتلاك قوة سياسية يسقط بقية الأفعنة القليلة المتبقية التي ساعدته على إخفاء ملامحه حتى ذلك الوقت. فيخرج اليهودي الشعبي من عباءة اليهودي الديمقراطي وهو يهودي "دموي" وطاغية. وخلال عدة أعوام قليلة يسعى جاهداً للتخلص من كل ما يمثل ذكاء هذه الأمم. وهو بذلك يحرم الشعوب من قادة الفكر لديهم ويتركهم لأقدارهم كالعبيد الخاضعين للحاكم المستبد.

❖ كل محنة يمكن أن تتحول إلى منحة!

وتعتبر روسيا مثلاً مروعاً لهذه العبودية. فقد قتل اليهودي من أبناء هذه الدولة 30 مليوناً أو تسبب في تعرضهم للمجاعات وذلك في فترات التعصب الوحشية وكذلك باستخدام التعذيب غير الآدمي على الإطلاق. وقد فعل كل ذلك لتتمكن عصابة من المنفعين اليهود ولصوص المال من التسيّد على شعب عظيم.

لكن النتيجة والنهاية لا تكون بفقدان الشعب لحريته تحت سيادة اليهود، ولكن باختفاء هذا الطفيلي تماماً. فموت الضحية لا بد أن يؤدي إن عاجلاً أو آجلاً إلى موت مصاص الدماء.

فإذا راجعنا كل الأسباب التي ساهمت في سقوط الشعب الألماني فسنجد أن أشد الأسباب وأهمها هو عدم الاهتمام بمشكلة الأجناس وما تبعه من عدم الاهتمام بالخطر اليهودي.

وكان من السهل جداً أن نتحمل الهزائم التي وقعت في أرض المعركة عام 1918م فهي لا شيء بالمقارنة مع الانتصارات العسكرية التي حققتها أمتنا. فلم تكن تلك الهزائم سبباً في سقوط دولتنا، لكننا هُزِمنا أمام تلك القوة التي خططت لتلك الهزائم بالعمل المنتظم لعدة عقود من الزمان.

إن إهمال الإمبراطورية القديمة لمشكلة الحفاظ على الأسس التي يقوم عليها الجنس الآري الذي تتكون منه أمتنا يلغي حقها في الحياة على هذا الكوكب. فالألم التي تجعل من

شعبها هجيناً أو التي تسمح لشعبها بأن يتحول إلى هجين ترتكب خطيئة ضد إرادة الله⁽¹⁾. ولذلك فإن سقوطها في يد عدو أقوى لا يعتبر خطأ بل على العكس هو نوع من العدالة. فإذا ما رفض الشعب الحفاظ على الصفات التي خصته بها الطبيعة والتي تحملها دماء جنسه فليس له حق الشكوى إن خسر وجوده على الكرة الأرضية.

وكل شيء فوق سطح هذه الكرة الأرضية يمكن أن يتحول إلى ما هو أفضل. فكل هزيمة يمكن أن تكون أساساً لنطلق منه إلى نصر. وكل حرب خاسرة قد تؤدي إلى ولادة عهد جديد. وكل محنة قد تؤدي إلى قوة دافعة للطاقة البشرية. ويمكن لكل الطاقات الناتجة عن المحن أن تؤدي إلى ولادة الروح القومية من جديد بشرط الحفاظ على نقاء الجنس.

❖ | تلويث الجنس الآري المزعوم!

لكن تلويث الجنس يذهب بالسعادة بلا رجعة. فهو يتراجع بمستوى الإنسان في كل العصور التالية. كما لا يمكننا إنكار النتائج الجسدية والأخلاقية.

فإذا ما درسنا هذه المشكلة الفريدة وقارناها بمشكلات الحياة الأخرى فسنجد أن تلك المشكلات صغيرة جداً من حيث الأهمية بجانب تلك المشكلة. فهي كلها مشكلات محددة الوقت، لكن مشكلة الحفاظ على نقاء الجنس البشري أو تلويثه سوف تستمر باستمرار وجود الإنسان نفسه⁽²⁾.

وتعود كل علامات التراجع التي أعلنت عن نفسها في فترة ما قبل الحرب إلى مشكلة الأجناس.

وسواء كنا نتناول مشكلات قانونية عامة أو تضخم في الاقتصاد أو ظاهرة تراجع الثقافة والانحدار السياسي أو عيوب النظام المدرسي أو التأثير الخطير للصحافة على الناس فإن كل تلك المشكلات تظل في الأساس ناتجة عن عدم الاهتمام بالجنس البشري الذي تنتمي إليه أمتنا أو للفشل في الشعور بالخطر الناتج عن السماح بظهور جنس أجنبي في داخل جسد الأمة.

وهذا هو السبب في أن كل حركات الإصلاح وكل الجهود السياسية وكل التقدم الاقتصادي وكل تزايد ظاهري في المعارف لم تؤدي إلى أي نتائج ملموسة. فلم نتقدم

(1) صدق الله وكذب هتلر: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ (الحجرات: 13) وصدق رسول الله ﷺ: «لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى» مسند الإمام أحمد (411/5). (الناشر).

(2) وهذا ما طبقه البيض العنصريون في جنوب أفريقيا، حيث آثروا أنفسهم بالأحياء الراقية وعزلوا السود أصحاب الأرض في معازل مهينة تشبه معسكرات الاعتقال.. وانفردوا بثروات البلاد والمناصب العليا وحرموا السود وأذلّوهم واستعبدوهم. (الناشر).

الأمة والدولة بطريقة منتظمة ولكن على العكس كانت تفقد حيويتها. ولم يخفي البريق الزائف للإمبراطورية الثانية الضعف الداخلي. وقد أخفقت كل المحاولات التي بذلت لإعادة تنشيط الإمبراطورية من جديد وذلك لأن المشكلة الرئيسية المهمة كانت خارج الاهتمام.

❖ | نجمة داود ترتفع والأمة تنهار!!

وقد يكون من الخطأ أن نعتقد كل مناصري الأحزاب السياسية التي حاولت معالجة موقف الشعب الألماني أو حتى كل قادة تلك الأحزاب كانوا سيئين في حد ذاتهم أو كانوا يقصدون شراً. فكل ما قاموا به من محاولات باءت بالفشل وذلك بسبب أنهم لم يروا سوى الأعراض العامة للمرض، فحاولوا معالجة تلك أعراض وأهملوا السبب الحقيقي لذلك المرض. فإذا ما أجرينا دراسة للمراحل التي مرت بها الإمبراطورية فلا بد أن نصل بعد تحليل سياسي إلى أن عملية التدهور الداخلي كانت قد بدأت عند تكوين الإمبراطورية المتحدة وبدأت الأمة الألمانية في تقدم خارجي سريع. فقد كان الموقف العام في تراجع بالرغم من النجاح السياسي الظاهري وزيادة الثروة الاقتصادية. كما أشار تزايد أعداد الماركسيين في انتخابات البرلمان إلى أن التراجع الداخلي والانحيار السياسي يقتربان بشدة. وكل ما حققته ما تسمى بالطبقة البرجوازية من انتصارات كانت عديمة الفائدة ليس لأنها فشلت في وقف التزايد العددي للأصوات الماركسية فقط ولكن لأن جرثومة التراجع قد أصابتهم أيضاً. فقد أصيب البرجوازيون من الداخل بفيروس الماركسية القاتل دون أن يشعروا بذلك. أما مقاومتهم من حين لآخر فإنها ترجع إلى الطموح التنافسي بين القادة السياسيين. وخلال كل تلك السنوات كان هناك بطل واحد فقط يحارب بثبات ورسوخ. وهو اليهودي. لقد كانت نجمة داود ترتفع كلما انهار تماسك الأمة.

لكن من اندفعوا إلى أرض المعركة في عام 1914م لم يكونوا مجرد كتائب وطنية. بل كانوا تجسداً لآخر خفقات الأمة في صراعها من أجل البقاء والتقدم والتخلص من الشلل الذي هدد الماركسيون والاستسلاميون به الأمة. وحتى في تلك الأيام التي تهددت فيها أقدار الأمة لم يكن العدو الداخلي معلوماً، ولذلك فقد ذهبت كل الجهود المبذولة لمقاومة العدو الخارجي هباء منثوراً. وقد كنا مقتنعين بأننا إن أدركنا تلك الحقائق فقط فإننا نستطيع وقف التراجع الوطني في ألمانيا ووضع قاعدة صلبة تقوم عليها الدولة مرة أخرى، دولة وليست مجرد آلة ميكانيكية غريبة على شعبنا، وهي دولة تقوم على أغراض ومصالح اقتصادية، على أن تعتمد على روح الشعب ذاته.

المرحلة الأولى من مراحل تطور حزب العمل القومي الألماني



هنا ومع نهاية الجزء الأول من هذا الكتاب سوف أصف المرحلة الأولى من مراحل الحركة⁽¹⁾ وسأعطيكم تلخيصاً وافياً لكل المشكلات التي اضطررنا للتعامل معها في تلك المرحلة. وأنا لا أتعمد تقديم المثل التي حددناها كأهداف للحركة؛ وذلك لأن تلك المثل ذات معنى هام جداً وتحتاج إلى جزء كامل لشرحها. لذلك فإنني سأخصص الجزء الثاني من هذا الكتاب للدراسة المفصلة لمبادئ برنامج حركتنا، كما أننا سنشرح ما نقصده بكلمة "تولة" وعندما أقول "إننا" فأنا لا أقصد سوى مئات الآلاف من الناس الذين يشاركوني نفس الآمال ولكنهم لا يملكون من الكلمات ما يعبر عن تلك الرؤية الواضحة أمام أعينهم. فمن صفات كل حركات الإصلاح العظيمة أن يكون لها زعيم يتحدث بالنيابة عن عدة ملايين من البشر. حيث ينبع الهدف النهائي للإصلاح العظيم من رغبة مئات الآلاف من البشر تمتد إلى عدة قرون إلى أن يتقدم واحد منهم كقائد ويعلن أن إرادة الجميع قد أصبحت هي الهدف الأساسي الآن وأنه سيعمل على تحقيق فكرة جديدة.

وقد ثبت أن الملايين من شعبنا مشتاقون إلى حدوث تغيير جذري في كل ما يحيط بنا من ظروف وذلك من خلال الشعور بعدم الرضا السائد فيما بينهم. وهذا الشعور يظهر بآلاف الطرق. فالبعض يظهره في صيغة إحباط وتثبيط. والبعض الآخر يظهره في صورة استياء وسخط وغضب. كما أن هناك من يعبر عن عدم الرضا باللامبالاة، وهناك آخرون ممن يفضلون استعمال العنف للتعبير عن الغضب. وهناك دلائل أخرى على هذا الشعور يمكن ملاحظتها في سلوك من يمتنعون عن التصويت في الانتخابات من جهة، ومن جهة أخرى تتزايد أعداد مؤيدي تيار اليسار من المتطرفين المتشددين.

وأول من تروق لهم حركتنا هم أفراد تلك الفئة الأخيرة. فحركتنا ليست حركة مجموعة من الناس القانعين والراضين بالأمر الواقع بل إنها تهدف إلى جمع كل من يعاني من التوتر ولا يشعر بالأمن، وكل من يشعر بالحزن وعدم الرضا، فليس الهدف من هذه الحركة أن تطفو على سطح الأمة بل أن تثبت جذورها بعمق بين أفراد الشعب.

وبالنظر إلى الموقف في عام 1918م من الناحية السياسية فقط نجد أن: الأمة تمزقت

(1) يقصد "الحركة الاشتراكية القومية" التي أنشأها وتحولت إلى حزب بعد ذلك.

إلى جزئين، وجزء منها - وهو جزء صغير جداً مقارنة بالجزء الآخر - يحتوي على طبقة المفكرين من أبناء الأمة وليس من بينهم أي عامل يدوي. ويبدو هؤلاء المفكرون وطنيين من مظهرهم الخارجي، لكن هذه الكلمة لا تعني لهم أكثر من مجرد مفهوم مبهم وضعيف ويدور حول الدفاع عما يسمونه بمصالح الدولة وبالتالي الدفاع عن النظام الحاكم. وقد حاولت تلك الطبقة أن تدافع عن أفكارها وتصل إلى أهدافها من خلال الاستمرار في الكفاح باستخدام الأسلحة الفكرية التي يمكن أن تستخدم هنا وهناك لكن تأثيرها سطحي فهي تواجه أسلحة قوية يستخدمها أعداؤها ولا بد للأسلحة الفكرية أن تسقط أمامها. فقد سقطت الطبقة الحاكمة بضربة قوية واحدة. كانت ترتعش من الخوف وقد قبلت كل إهانة فرضها عليها المنتصر عديم الرحمة.

وفي مواجهة تلك الطبقة نجد طبقة الجماهير العريضة وكانت مقسمة إلى حركات ذات ميول ماركسية إلى حد ما. وكانت تلك الحركات المنظمة عازمة على التغلب على أي نوع من أنواع المقاومة الفكرية بالقوة المتوحشة. ولم تكن لهم أي ميول وطنية من أي نوع كما أنهم تعمدوا التبرؤ من فكرة تقديم مصالح الأمة بهذه الطريقة. ولكن على العكس من ذلك تماماً، فكانوا يقدمون مصالح الظالم الأجنبي. وقد كان أفراد تلك الطبقة هم الأكثر عدداً والأهم من ذلك أنها كانت تحتوي على كل العناصر التي لا يمكن للأمة أن تنهض من جديد دون تعاونهم في ذلك، فهذا أمر مستحيل ولا يمكن تصوره على الإطلاق.

✦ ليس بالأسلحة فقط تنهض الأمم!

وفي عام 1918م لم يكن من الممكن أن تنهض الأمة الألمانية من جديد إلا بعد أن تستعيد قواها الوطنية التي تمكنها من مواجهة العالم. وهذا الغرض لا يتطلب وجود الأسلحة فقط بالرغم من أن رجال الدولة البرجوازيين يرددون ذلك دائماً. أن ما كنا بحاجة إليه هو قوة الإرادة. ففي وقت ما كان الشعب الألماني يملك أسلحة تزيد عن حاجته، لكنه لم يستطع الدفاع عن حريته لأنه يفتقر إلى الطاقات النابعة من غريزة الحفاظ على الذات والرغبة في ذلك. ولا قيمة لأفضل الأسلحة بدون هذه الروح التي تجعل الإنسان يقرر بكل عزم وتصميم أن يستفيد من تلك الأسلحة. فلم تهزم ألمانيا لعدم توفر الأسلحة لكن لعدم توفر إرادة الحفاظ على الأسلحة من أجل أبناء شعبها.

ويصر السياسيون اليساريون اليوم على أن قلوبهم الجبانة والسياسة الخارجية الذليلة ناتجتان عن نزع السلاح الألماني، بينما نقول لنا الحقيقة: إن ذلك بسبب سياسة الخونة. والرد على كل ذلك هو: لا ... فالعكس هو الصحيح. إن ما قمتم به من تسليم السلاح كان نتيجة لسياساتكم الإجرامية غير القومية التي تتجاهل مصالح الأمة. واليوم أنتم

تحاولون إقناع الشعب بأن هذا العواء البائس يرجع فقط إلى عدم وجود أسلحة لديكم. وهذه كذبة - مثلها في ذلك مثل كل تصرفاتكم - لإخفاء السبب الحقيقي.

أما السياسيون في جبهة اليمين فهم يستحقون نفس القدر من اللوم. فقد أدى ما هم عليه من جبن بائس إلى وصول اليهود المتوحشين إلى السلطة في عام 1918م فاستطاعوا تجريد الأمة من أسلحتها. كما لم يكن للمحافظين من السياسيين أي حق أو سبب يجعلهم يتحججون بأن نزع السلاح هو ما جعلهم يلجأون إلى سياسة التعقل (أي الجبن). ومرة أخرى، العكس هو الصحيح. فقد كان نزع السلاح نتيجة لتخاذلهم.

لذلك فإن مشكلة استعادة قوة ألمانيا لا تعني كيف يمكننا أن نصنع السلاح ولكنها مشكلة إنتاج الروح التي تجعل الشعب يحمل السلاح. فإذا ما انتشرت هذه الروح بين أفراد الشعب فإنهم سيصلون إلى ألف طريقة تؤدي كل منها إلى توفير السلاح اللازم. لكن الجبان لا يطلق طلقة واحدة حتى وإن كان معه عشرة مسدسات. فهي لا قيمة لها بالنسبة له.

❖ قادة الأحزاب هم المسؤولون عن تضليل الأمة!

إن مشكلة إعادة بناء القوة السياسية لأمتنا هي مشكلة استعادة فطرة الحفاظ على الذات قبل كل شيء. أما السؤال عما إذا كان من الممكن للأمة أن تدخل في تحالف، فهذا لا علاقة له بما تملك من أسلحة غير مستخدمة، فالأسلحة تستخدم من أجل الحفاظ على وجود الأمة عند توفر الشجاعة البطولية التي تجعل الجندي يقاتل إلى آخر لحظة من عمره. لكن التحالف لا يقوم بين الأسلحة بل بين الرجال.

وعلى ذلك فإن الدولة البريطانية هي أفضل حليف في العالم وذلك لأنه من الممكن الاعتماد عليها في إظهار قوة الحكومة بالإضافة إلى الروح المتوفرة عند الجماهير العريضة والتي تمكن الدولة من الانتصار في أي صراع تدخل فيه، وذلك بغض النظر عن طول فترة هذا الصراع أو مقدار التضحيات اللازمة أو نوع الوسائل المستخدمة في هذا الصراع، وكل ذلك يحدث حتى لو كانت الأسلحة المتوفرة غير كافية تماماً بالمقارنة مع ما لدى الأمم الأخرى.

وبمجرد أن نعلم أن إصلاح ألمانيا يكمن في إيقاظ الرغبة السياسية في الحفاظ على الذات، فإننا سندرك على الفور أنه ليس من الكافي أن نكسب تلك العناصر القومية ولكن لابد أيضاً من جذب أولئك الذين يحملون أفكاراً معادية للقومية ليعودوا إلى الاعتقاد في المثل القومية.

وعلى أي حركة ناشئة تهدف إلى إعادة بناء ألمانيا كدولة ذات سيادة كاملة أن تسعى

إلى كسب جموع المواطنين وأن يكون ذلك هدف خاص من أهداف حملتها. فما يسمى بـ"البرجوازية الوطنية" ما هو إلا استسلام مؤسف، كما أن روح الوطنية عندهم ضعيفة جداً لدرجة تجعلنا نتأكد من أنهم لن يبدو أي مقاومة جادة ضد أي سياسة خارجية أو داخلية. وعلى الرغم من ذلك فإن ضيقي الأفق من البرجوازيين الألمان يستمررون في المقاومة السلبية عندما يكون من الضروري لهم أن يتصرفوا بحزم، وهذا ما فعلوه في عصر "بسمارك". ولذلك فليس لنا أن نتوقع منهم أي مقاومة إيجابية وذلك بسبب ما هم فيه من جبن ملحوظ.

لكن الأمر مختلف تماماً في جموع شعبنا الذي تشرب بفكرة التدويل. فمن خلال طبيعة الشعب البدائية الخشنة، فهو يقبل النصيح باللجوء إلى العنف، بينما نجد أن قادة اليهود في نفس الوقت أشد قسوة وصرامة. فسوف يسحقون أي محاولة لإحياء ألمانيا مثلما حطموا الجيش الألماني بضربه من المؤخرة. وقبل كل شيء، فإن تلك الجموع المنظمة من الجماهير سوف تستخدم ما لديها من أغلبية في برلمان هذه الدولة ليس فقط لإعاقة السياسة الخارجية للأمة بل لمنع ألمانيا من استعادة قوتها السياسية وهيبتها الدولية أيضاً. وبهذا تخرج ألمانيا من التحالفات. فلنسا وحدنا فقط من يعرف مقدار الإعاقة الناتج عن وجود 15 مليون ماركسي وديمقراطي واستسلامي بالإضافة إلى أفراد حزب الوسط بين أفراد شعبنا. فالدول الأجنبية تلاحظ وجود هذا العبء الذي يجب علينا أن نتحملة وتضعه في حساباتها عند تقدير قيمة التحالف معنا. فلا يوجد من يود التحالف مع دولة يعمل أكبر قدر من السكان فيها على معارضة أي سياسة خارجية جيدة.

ويزداد الأمر سوءاً لأن قادة تلك الأحزاب التي كانت مسئولة عن تضليل الأمة كانوا على استعداد لمعارضة أي وكل محاولة للصحة لمجرد الحفاظ على ما هم فيه من مواقع. وطبقاً للقوانين التي تحكم التاريخ الإنساني ليس من المقنع أن يتمكن الشعب الألماني من العودة إلى المكانة التي كان عليها من قبل دون الثأر ممن تسببوا في حدوث الانهيار الذي تسبب في خراب الدولة. إن الأجيال القادمة لن ترى فيما حدث في عام 1918م مجرد تمرد بسيط ولكنه خيانة عظيمة للبلاد.

لذلك لم يكن من الممكن أن نفكر في إعادة بناء السيادة الألمانية واستقلالها السياسي دون أن نعيد بناء جبهة داخلية للأمة في نفس الوقت وذلك من خلال تغيير سلمي لإرادة الشعب.

❖ استقلال وكرامة الشعب!

فإذا نظرنا إلى كل ذلك من الناحية العملية، فقد يبدو التفكير في تحرير ألمانيا من الاستعباد الأجنبي مجرد عبث طالما أن جماهير الشعب لا ترغب في دعم فكرة الحرية.

لكن بعد تفكير جيد في هذه المشكلة من الناحية العسكرية فقط فإن كل فرد - أو على الأصح كل ضابط - يرى أن الحرب لن تقوم ضد عدو خارجي بجيش يعتمد على الطلاب، ولكن عقول الأمة وقوتها أمران ضروريان أيضاً. ولا بد أن نتذكر أنه يمكن تجريد الأمة من أرصدها إن كان الدفاع عنها يتم على يد المفكرين - كما يسمون أنفسهم - فقط. فالشباب الألماني الذكي الذي تطوع بإرادته في الفرق العسكرية وسقط في أرض المعركة في "فلاندرز" في خريف عام 1914م لم يتواجد مثله فيما بعد. فقد كانوا أغلى ثروات الأمة وكان من غير الممكن تعويضهم أثناء الحرب. وكان كسب الحرب ممكناً إن لم تتحالف قوى داخلية⁽¹⁾ مع الحرب الضارية، فالتجهيزات الفنية الضرورية للحرب لا تصنع بدون إرادة صلبة وجبهة داخلية موحدة داخل الأمة. فلا يمكن لأمتنا التي كان عليها أن تنزع سلاحها أمام ألف عين حضرت التوقيع على معاهدة السلام في فرساي أن تقوم بأي إعداد فني لاستعادة حريتها واستقلالها إلى أن يتم التخلص من جيش الجواسيس المنتشر داخل البلاد فلا يبقى منهم سوى مَنْ ولد حقيقياً بطبيعته ليخون كل شيء وأي شيء في مقابل ثلاثين قطعة من الفضة. ونحن قادرون على التعامل معهم. إن العشرة ملايين الذين يعارضون أي نوع من أنواع أحياء الأمة بسبب آرائهم السياسية يعتبرون عائقاً كبيراً لا يقهر. وسيبقى هذا العائق منيعاً طالما لم يتم التغلب على سبب تلك المعارضة - وهو الماركسية الدولية - ومحو تعاليمها من قلوبهم ورؤوسهم.

فإذا تفحصنا احتمال إعادة أحياء الاستقلال الألماني كدولة وشعب من كل جانب، سواء كان ذلك من ناحية الصراع ذاته أو من ناحية قضية إعادة التسليح فإن أهم الشروط الأساسية يظل كما هو. وهذا الشرط هو ضرورة كسب تأييد الجماهير العريضة من أبناء الشعب وقبولهم بمبدأ استقلال الأمة.

فإن لم نستعد حريتنا الخارجية، فإن كل خطوة للأمام في طريق الإصلاح الداخلي تعني زيادة في قدراتنا الإنتاجية وهذا في صالح الأمم التي تنتظر إلينا كمستعمرة يستفاد منها. إن فائض أي منتج يمكن أن نعتبره نوعاً من التقدم لكنه يذهب إلى اليد الدولية المسيطرة علينا، وأي تحسن اجتماعي سيزيد في أفضل الحالات من إنتاج الطبقة العاملة لصالح تلك الشعوب. لذلك فكل تحسن من أي نوع وعلى أي صعيد له علاقة باستقلال وكرامة الشعب.

لذلك، فإننا سنجد حلاً مرضياً لمشكلة مستقبل ألمانيا من خلال كسب تأييد الجماهير العريضة من أفراد شعبنا لفكرة القومية، ولا بد أن نعتبر أن هذا العمل التعليمي أهم وأكبر

(1) إضراب مصانع الذخيرة.

المهام التي تحققها حركة لا تسعى فقط إلى إشباع رغبات وقتية بل تعتبر نفسها مسئولة عن فحص كل ما تفعله في ضوء نتائجه المستقبلية وذلك في كل ما تفعله وكل ما تمتع عن فعله.

❖ إحياء الروح القديمة!

ومع بداية عام 1919م كنا قد اقتنعنا أن نشر الروح القومية بين جماهير المواطنين هو الهدف الرئيسي الأسمى للحركة الجديدة. ومن الناحية التكتيكية، فقد ألزمتنا هذا القرار بعدد من الالتزامات.

1- ليس هناك ما يمكن اعتباره تضحية اجتماعية كبرى في سبيل إحياء الروح القومية بين صفوف الجماهير.

فعلى الصعيد الاقتصادي، فإن أي امتيازات قائمة اليوم ويحظى بها الموظفون فهي لا قيمة لها بالمقارنة مع المميزات التي تجنيها الأمة كلها إن ساهمت تلك الامتيازات في إعادة جماهير الشعب إلى صدر أمتهم مرة أخرى. فليس هناك شيء يمنع شعبنا من أن يلاحظ أنه لن تتوافر أي أرباح على المدى الطويل سوى باستعادة التماسك الداخلي بين جموع الشعب الذي تتكون منه أمتنا سوى قصر النظر والخسة وهي صفات منتشرة جداً للأسف في أصحاب الأعمال عندنا.

فإذا كانت اتحادات العمال الألمانية تدافع عن حقوق الطبقة العاملة بقوة أثناء الحرب، واستخدمت سلاح الإضراب أثناء الحرب لتجبر المصنعين - المتطلعين لتحقيق أرباح عالية جداً - على تحقيق مطالب العمال الذين تمثلهم هذه الاتحادات، فإن كانوا قد تصرفوا في نفس الوقت كألمانيين مخلصين وبنفس القدر من الشجاعة للدفاع عن البلاد، وإذا كانوا قد أعطوا بلادهم ما تستحقه لما كنا خسرنا الحرب أبداً. فكل الامتيازات الاقتصادية - مهما كانت عظيمة - تبدو تافهة مقارنة بذلك النصر العظيم.

فمن الضروري جداً من أجل لحظة استعادة العامل الألماني إلى حضن الأمة الألمانية أن نفهم أن التضحيات الاقتصادية لا تعني أي شيء في تلك الحالات إن كانت لا تشكل أي خطر على استقلال الأمة الاقتصادي وثباته.

2- يمكن تعليم الجماهير كل المبادئ القومية بطريقة غير مباشرة من خلال تحسين أحوالهم الاجتماعية، فمن خلال تلك الطريقة فقط يمكن خلق ظروف اقتصادية تمكن كل فرد من المشاركة في الحياة الثقافية للأمة.

3- لا يمكن توصيل مبادئ القومية إلى الجماهير العريضة من خلال أنصاف الإجراءات

أي من خلال التركيز الواهن على ما يسمى بالجانب الموضوعي من القضية ولكن من خلال التركيز بإخلاص شديد على تحقيق هدف واحد. وهذا يعني أن الشعب لن يكون وطنياً بكل ما في هذه الكلمة من معنى تقصده الطبقة البرجوازية اليوم - أي الوطنية مع عدة تحفظات - ولكنه وطني بالمعنى القوي والمتشدد. فالسم لا يمكن القضاء عليه إلا بترياق مضاد، والبرجوازيون المنبطحون فقط هم من يظن أن الوصول إلى المجد يأتي من خلال أنصاف الحلول.

❖ | كيف يمكن كسب الجماهير؟! |

فالجماهير العريضة من أبناء الأمة ليسوا من الأساتذة الجامعيين والدبلوماسيين. وهم ليسوا على دراية جيدة بالأفكار المجردة، كما أن ردود أفعالهم تعتمد في الأساس على الأحاسيس حيث تتبع جذور اتجاهاتهم السلبية أو الإيجابية. فهم عرضة فقط لإظهار القوة الناتجة عن أي من هذين الاتجاهين، لكنهم لا يتعاطفون مع أي اتجاه يتأرجح فيما بين أمرين مختلفين. ويعتبر الأساس العاطفي الذي تقوم عليه اتجاهاتهم سبباً في ذلك الثبات غير العادي. فمحاربة المعتقدات أصعب كثيراً من محاربة الأفكار. إن القوة الدافعة التي أدت إلى أضخم الثورات على الكرة الأرضية لم تأت من خلال عدة توضيحات تملأ على الشعب، بل كانت هناك دوافع تشبه الهستريا ولم تكن ناتجة عن قناعات عند الشعوب.

وعلى من يرغب في كسب جموع الشعب أن يعرف مكان مفتاح قلوبهم، ليست الموضوعية هي المفتاح لأنها اتجاه عاجز، لكنه الإرادة القوية مع قوة تدعمها إذا استلزم الأمر ذلك.

4- ويمكن كسب الجماهير إن قرر قادة الحركة أن يقوموا بنضال إيجابي من أجل تحقيق أهدافهم ويصروا على تدمير عدوهم الذي يعارضهم.

فإذا ما واجهوا مقاومة عنيفة من العدو فإن الشعب يعتبر دائماً أن ذلك علامة على أن الحق مع المعتدي، لكن إذا سار المعتدي إلى منتصف الطريق فقط ثم أخفق في القضاء على خصمه وطرده من الساحة، فإن الشعب يعتبر ذلك علامة على أن المعتدي غير متأكد من عدالة قضيته وأن سياسة منتصف الطريق التي يتبعها ما هي إلا علامة على أن قضيته ظالمة.

فالجماهير ما هي إلا جزء من الطبيعة ذاتها. فهم لا يفهمون معنى تصافح الأعداء. فكل ما يأملون إليه هو فوز الأقوى وهزيمة الأضعف أو استسلامه تماماً لإرادة الأقوى.

ويمكن أن ننجح تحويل الجماهير إلى جماهير تؤمن بالقومية بالقضاء على من ينشرون سم الاتجاه الدولي فيما بينهم.

❖ | أهمية الحفاظ على العرق!

5- كل مشكلات أمتنا هي مشكلات وقتية لها أسباب محددة. ومن بين كل تلك المشكلات هناك مشكلة واحدة فقط ذات مغزى عميق. وهي مشكلة الحفاظ على العرق الذي ينتمي إليه الشعب. حيث تعتمد قوة البشر أو ضعفهم على دمائهم. والأمم التي لا تدرك أهمية العرق الذي تنتمي إليه أو تهمل الحفاظ عليه تشبه من يحاول تعليم كلب عادي كيفية القيام بعمل كلاب الصيد وهو لا يعلم أن كلاب الصيد تولد بغريزة فطرية لذلك لا يؤدي إلى مثلها أي نوع من أنواع التدريب. والشعب الذي يخفق في الحفاظ على نقاء جنسه ودمائه يحطم وحدة الأمة بكل معانيها. كما أن الأمة غير متكاملة الشخصية هي نتاج حتمي يترتب على عدم توحيد الدماء. والتغيير الذي يحدث في الصفات الروحية الخلاقة للشعب ما هو إلا نتيجة من نتائج تغيير صفات الجنس.

فإن أردنا تحرير الشعب الألماني من كل تلك الإخفاقات والأعمال التي لا تتبع من الشخصية الألمانية الأصيلة فلا بد لنا في البداية أن نتخلص من كل الجرائم الأجنبية الموجودة في جسد الأمة والتي تتسبب فيما تحقق من فشل وما تستخدمه من وسائل خاطئة.

والأمة الألمانية لن تصحو أبداً إلا إذا وضعنا مشكلة العرق في حساباتها. إن مشكلة العرق هي مفتاح ليس فقط لفهم التاريخ الإنساني بل أيضاً لفهم كل أنواع الثقافة الإنسانية.

❖ | أهمية تحويل العمال إلى أعضاء ومؤثرين..

6- إن جذبنا لهؤلاء الذين يؤيدون معسكر الانتماء الدولي من جماهير الشعب لا يعني التقليل من أهمية مبدأ تأمين مصالح الحرف والصناعات المختلفة. كما أن اختلاف الاهتمامات بين قطاعات العمل المختلفة والحرف والصناعات لا تشبه الاختلافات بين طبقات الشعب ولكنها متوارثة من الموقف الاقتصادي. كما أن الجماعات الحرفية لا تختلف على الأقل حول فكرة الوحدة الوطنية، لأن ذلك يعني الاتحاد أمام كل المشكلات التي تواجه الأمة.

والوصول إلى ذلك الهدف لا ينتج عن التراجع بالطبقة العليا من الشعب إلى طبقة أدنى بل برفع الطبقات الدنيا من الشعب إلى طبقات أعلى. فالطبقة الدنيا هي من يحارب من أجل المساواة وليست الطبقات العليا. والطبقة البرجوازية الحالية لم تظن في دولتنا من خلال إجراءات قامت بها طبقة النبلاء ولكن من خلال ما قامت به من جهد ومن خلال وجود قيادات نشأت بين صفوفها.

ولا يمكن للعامل الألماني أن يرقى عن مكانته الحالية ويندمج في المجتمع الألماني من خلال اجتماعات السادة الأفاضل التي يتحدث فيها الناس عن أخوة أبناء الشعب ولكن

يمكنه ذلك من خلال تحسن منتظم في حياته الاجتماعية والثقافية إلى أن نسد تماماً تلك الفجوة الكبيرة بينه وبين بقية طبقات المجتمع. ولابد للحركة التي تضع ذلك كهدف لها أن تحاول أن تجذب كثيراً من المؤيدين من الطبقة العاملة. كما يجب عليها أن تضم عدداً من أصحاب الفكر إن كانوا على علم صحيح بالمثل التي تسعى الحركة إلى تحقيقها. وهذا التحول والاتحاد لا يكتملان خلال عشرة أو عشرين عاماً بل سوف يستغرق عدة أجيال وهذا واضح من تاريخ مثل تلك الحركات.

وأصعب العقبات التي تواجه اندماج عمالنا مع المجتمع الوطني لا تكمن في أن العامل يدافع عن حقوق زملائه العمال قدر ما تكمن في الأفكار الدولية التي يتشربها والتي تختلف في طبيعتها عن الأفكار القومية والوطنية. وقد لقنهم قادة الطبقة العاملة هذا الاتجاه المعادي للأفكار الوطنية والقومية. وكان من الأفضل لاتحادات العمال أن تلقنهم مبدأ الإخلاص للأمة وكل ما يؤدي إلى رفايتها في النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية وتساهم بذلك في تحويل ملايين العمال إلى أعضاء مؤثرين في مجتمع هذه الأمة دون أن يؤثر ذلك في جهادهم من أجل طلباتهم المادية.

ولابد للحركة التي تسعى بإخلاص إلى جذب العامل الألماني إلى مجتمعه مرة أخرى وإلى إنقاذه من حماقة التدويل أن تشن حملة شعواء ضد أفكار محددة تنتشر بين أصحاب المصانع. وإحدى هذه الأفكار تدعو إلى أن يتنازل العامل تماماً عن كل حقوقه المادية لصاحب المصنع كما أنه يتشاجر مع كل من يحاول من أفراد مجتمعه أن يدافع عن مصالحه العادلة والضرورية. ومن يحاولون نشر هذه الفكرة هم الكذابون الأفاقون. ففكرة المجتمع الواحد التي يحتجون بها لا تفرض أي التزام على طرف دون الآخر.

فيمكن للعامل أن يفعل أي شيء لا يتمشى مع ما يرضي بقية أفراد نفس المجتمع الواحد إن كان يتصرف بمبادرة من نفسه وليس طبقاً لما يمليه عليه هذا الانتماء، كما أن متطلباته لا تخضع لاعتبارات الصالح العام للمجتمع وبنائه الاقتصادي. كما أن صاحب المصنع يعمل أيضاً ضد روح المجتمع الواحد إن استخدم طرقاً غير آدمية للاستفادة من القوى العاملة في هذه الأمة أو يسيء استخدامها. ولا يحق له أن يسمى نفسه "قومياً" ولا يحق له أن يتحدث عن المجتمع الواحد لأنه أناني وعديم الضمير ينثر بذور التوتر ويثير روح النزاع التي تلحق الأذى بمصالح الدولة إن عاجلاً أم آجلاً.

أما المعين الذي لا ينضب وعلى الحركة أن تستمد منه أعضاءها فهو طبقة العمال بلا شك. وعلينا أن نخلصهم من مخالب الهوس الدولي. كما يجب القضاء على مشكلاتهم الاجتماعية. ولابد من رفع مستواهم الثقافي الحالي فهو مستو يبعث على الأسى، كما يجب تحويلهم إلى عنصر قيم ذي تأثير في المجتمع يستلهم الأفكار والروح الوطنية.

فإذا كان من بين أولئك المفكرين من يحب الشعب فعلاً ويتطلع بشغف إلى مستقبل ألمانيا، كما أنه وفي نفس الوقت يدرك أهمية الصراع الذي يهدف إلى الفوز بتأييد الجماهير، فإننا نرحب بهم بين أفراد حركتنا، وذلك لأنهم قوة فكرية دافعة للعمل الذي يجب أن نقوم به. لكن هذه الحركة لا تهدف أبداً إلى ضم أي من البرجوازيين الغافلين. وهي إن فعلت ذلك ستقتل كاهلها بعدد كبير من الأفراد الذين لا يفكرون سوى في إعاقة جهودنا لكسب المؤيدين. فمن الناحية النظرية، يبدو الأمر جميلاً أن نقول أننا لدينا قيادة مشتركة من الطبقات الدنيا والعليا تعمل داخل الحركة، لكن - وبغض النظر عن أي شيء - تظل هناك إمكانية للتأثير النفسي على الطبقة البرجوازية لاستثارة أحاسيسهم من خلال مظاهراتنا الحاشدة، وذلك لأن صفاتهم الثابتة لن تتغير. أي أننا لن نستطيع أن نغير صفات الكسل وعدم الكفاءة في الطبقة البرجوازية، فهي عادات تكونت عبر قرون من الزمان. إن الاختلافات الثقافية بين المجموعتين وبين موقفيهما من القضايا الاقتصادية لا تزال كبيرة جداً وقد تتحول إلى معوق يقف أمام الحركة في اللحظة التي نهدأ فيها حماسة المظاهرات.

وأخيراً، فليس من برنامجنا أن نغير في المعسكر الوطني ذاته، بل نهدف إلى كسب من هم ضد الأفكار الوطنية من الخارج. ومن هذه النقطة تقرر استراتيجية الحركة كلها.

❖ أهمية الدعاية الفعالة!

7- لا بد لهذا الاتجاه الواضح والمحدد - بالرغم من أن أنه صادر عن طرف واحد - أن ينعكس على دعاية الحركة، ومن جهة أخرى فمن الضروري أن تكون الدعاية نفسها فعالة.

فإذا كانت الدعاية في خدمة الحركة فعلاً، فلا بد من توجيهها في اتجاه واحد فقط. وذلك لأنها لو تشعبت في عدة اتجاهات فلن تكون مفهومة من إحدى الجماعات أو أنها ستكون مرفوضة من جماعة أخرى.

فالطريقة التي يقدم بها أي شيء والطريقة التي تقدم بها التفاصيل الدقيقة ويتم التركيز عليها لا يمكن أن تؤثر نفس التأثير على طبقتين مختلفتين تنتميان إلى طرفين متعارضين من أطراف البناء الاجتماعي. فإذا امتنعت الدعاية عن استخدام الطرق البسيطة في التعبير فلن يقبلها جماهير الشعب. ومن جهة أخرى، فهي إن استخدمت اللغة الجافة التي تتعامل بها جماهير الشعب في الكلام والإيماءات، فإن المثقفين سيكرهونها لأنها جافة وفضة. فمن بين مائة خطيب مفوه يمكننا أن نجد عشرة فقط ممن يمكنهم التأثير على جمهور الشارع من العمال والعاطلين وغيرهم اليوم ثم يقدم نفس الموضوع بنفس

الكفاءة غداً أمام أساتذة الجامعة والطلاب. فمن بين ألف خطيب يوجد خطيب واحد يمكنه أن يؤثر في جمهور مختلط يضم أساتذة الجامعة والعمال في قاعة واحدة على أن تكون عباراته مفهومة لكلا الفريقين، كما أنه وفي نفس الوقت يؤثر في الفريقين ويحسمهم بنفس المقدار، فيصفق له الجميع بشدة. لكن لابد أن نتذكر أن أفضل الأفكار التي تعبر عن نظريات راقية يمكن أن تنقل إلى الجمهور من خلال العقول البسيطة. فالأمر هنا لا يحتاج إلى رجل عبقرى يقدم الأفكار العظيمة ولكن إلى ما يحققه رسله من نجاح في عرض تلك الفكرة وتقريبها إلى عقول الجماهير.

فالحركة الاشتراكية الديمقراطية والحركة الماركسية مؤهلتان لجذب أعداد كبيرة من جماهير الأمة، وذلك بسبب وحدة الجمهور الذي يخاطبونه. فكلما كانت أفكارهم وأطروحاتهم محدودة، كان فهمها واستيعابها سهلاً بالنسبة للجماهير، فهذه الأفكار والأطروحات معدة لتتناسب مستوى الذكاء المنخفض.

وقد أدت تلك الاعتبارات بالحركة الجديدة إلى أن تتبع سياسة واضحة وبسيطة، وهي كالتالي :

الابد للدعاية أن تلتزم في رسالتها وفي طريقة التعبير بمستوى تفكير الجماهير، ولذلك فإن قيمتها تعتمد على ما تحققه من نجاح.

في الاجتماعات العامة وعندما تكون الجماهير محتشدة، ليس من يتناول الموضوع الأقرب إلى المثقفين الذين قد تواجدوا بالصدفة هو أفضل المتحدثين، بل هو من يعرف كيف يكسب قلوب عامة الجماهير.

ومن يوجد من المتعلمين في مثل ذلك الاجتماع ويلاحظ أن هناك أخطاء في الحديث أو أن مستوى الخطاب متدن، وذلك على الرغم من أنه يلاحظ تأثير ذلك الخطاب على الجماهير الكادحة، فهو ظالم فعلاً وهذا يثبت أنه غير مفيد لهذه الحركة. فالمثقفون المفيدون للحركة هم من يفهمون مهمتها وأهدافها جيداً وهم من يحكم على دعايتها من خلال ما تحققه من نجاح وليس من خلال ما تتركه هذه الحركة من أثر فيهم. فدعايتنا لا تهدف إلى تسليّة من لديهم إحساس وطني بالفعل، لكن الغرض منها هو كسب تأييد من كان يعادي الأفكار الوطنية على الرغم من أنهم من أبناء عرقنا ودمائنا الواحدة.

وبصفة عامة، فإن تلك الاعتبارات التي ذكرتها بإيجاز في الفصل الخاص بالدعاية الحربية تعتبر قواعد إرشادية ومبادئ تحدد نوع الدعاية التي يجب أن نستخدمها في حملتنا والطريقة التي يمكننا تنفيذها بها. والنجاح الذي حدث يثبت أن قرارنا كان صائباً.

8- ولا يمكن الوصول إلى الغايات التي تهدف إليها أي حركة إصلاح من خلال تلقين العامة أو التأثير على المسؤولين في السلطة ولكن من خلال السيطرة على القوة السياسية. فكل فكرة تهدف إلى تحريك العالم لا تملك الحق في السيطرة على الوسائل التي تمكنها من هذا التغيير فقط بل إن ذلك واجب عليها. فالنجاح في هذا العالم هو القاعدة الوحيدة التي تحدد ما إذا كانت تلك المهمة صحيحة أم خاطئة. وأنا لا أقصد بكلمة "نجاح" ذلك النجاح الذي يتحقق باغتصاب السلطة كما حدث عام 1918م ولكنني أقصد النجاح الذي يخدم مصالح الأمة. فالثورة لا يمكن أن تكون ناجحة - كما يعتقد كثير من المحامين فارغي العقول الألمان الآن - إن تمكنت من اقتناص مقاليد الحكم في البلاد ولكن إذا تمكنت من رفع مستوى الأمة - مقارنة مع ما كان عليه الحال قبل الثورة - والتي تحركت الثورة من أجلها. وهذا لا ينطبق بالتأكيد على الثورة الألمانية - كما تسمى - فقد جاءت بعصاة من قطاع الطرق إلى مواقع السلطة وذلك في خريف عام 1918م.

ولكن إن كانت السيطرة على القوى السياسية مطلب رئيسي لتحقيق أهداف حركة الإصلاح، فإن قادة كل حركة تهدف إلى الإصلاح يعتبرونها حركة جماهيرية وليست نادياً ثقافياً أو جمعية ساذجة تعقد لممارسة ألعاب التسلية.

9- إن طبيعة الحركة الجيدة وتنظيمها الداخلي تجعلها معادية للبرلمان. أي أنها ترفض كل المبادئ المتبعة في اتخاذ القرارات بطريقة أغلبية التصويت، والتي تجعل القائد ما هو إلا أداة تنفيذية خاضعة لإرادة ورأي الآخرين. وقد أرست الحركة مبدأ أن يتولى شخص واحد السلطة المطلقة ويتحمل كل المسؤولية، وذلك في كل المشكلات صغيرها وكبيرها.

والنتائج العملية لذلك في حركتنا هي كالتالي :

يختار رئيس لكل مجموعة، ويختاره من هو أعلى منه مباشرة في السلطة. ويصبح بذلك مسئولاً عن قيادة مجموعته. وتخضع كل اللجان لسلطته ولا يخضع هو لهم. ولا يوجد أي تصويت في اللجان، ولكنها لجان عمل. وهذا العمل يحدده القائد المسئول عن المجموعة، وهو رئيس المجموعة. وينطبق نفس المبدأ على النظام الأعلى في الأحياء والدوائر الريفية والمناطق. وفي كل الحالات يختار الرئيس من هو أعلى منه ويمنح صلاحية وسلطة تنفيذية. ويتم انتخاب رئيس الحزب فقط في اجتماع عام لجميع الأعضاء. يكون وهو القائد الأوحده للحركة. وتكون كل اللجان مسئولة أمامه ولا يكون مسئولاً

أمامها. فقراره نهائي لكنه يتحمل كامل المسؤولية عنه. ومن حق أعضاء الحزب أن يطلبوه للمساءلة من خلال انتخاب جديد، أو أن ينحوه عن منصبه إن انتهك مبادئ الحركة أو لم يكن في خدمه مصالحها بالقدر الكافي ويحل محله من هو أكثر كفاءة منه. وتكون له نفس السلطات والصلاحيات وعليه أن يتحمل نفس المسؤولية.

وجعل هذا المبدأ إلزامياً هو أهم واجبات الحركة ليس فقط في داخل صفوفها بل في جميع أنحاء الدولة أيضاً.

ومن يصبح قائداً يُمنح سلطات كبيرة وغير محدودة، لكنه مسئول في نفس الوقت عن كل كبيرة وصغيرة.

ومن يفتقد شجاعة تحمل مسؤولية أفعاله لا يصلح أن يكون قائداً. فالبطل فقط هو من يملك الصفات المؤهلة لهذه المهمة.

فحضارة الإنسان وثقافته لم تقم على أعمال جماعية. ولكن كانت أعمال فردية لعباقرة أكفاء.

ولهذا فإن على حركتنا أن تكون ضد البرلمان، وإن شاركت في أعمال البرلمان فإن ذلك يكون بهدف واحد فقط وهو تدميره من الداخل، أي أننا نود أن تختفي تلك الهيئة التي ننظر إليها على أنها إحدى أعراض انهيار الإنسانية.

❖ | إعادة التنظيم السياسي لشعبنا..

10- ترفض الحركة بشدة أي مشاركة لها في المشكلات التي تخرج عن نطاق اهتماماتها أو مجال عملها السياسي أو حتى تلك المشكلات التي تراها غير مهمة. كما أن الحركة لا تهدف إلى تحقيق أي إصلاح ديني ولكن إلى إعادة تنظيم سياسي لشعبنا. وترى الحركة أن الطائفتين⁽¹⁾ متساويتان ودعامتان قيمتان للشعب، وبالتالي فإن الحركة تحارب كل الأحزاب التي تقلل من قيمتهما، وتحولهما من قواعد يقوم ثبات الشعب دينياً وأخلاقياً عليها إلى أداة لخدمة مصالح الحزب.

وأخيراً، فإن الحركة لا تهدف إلى إقامة أي نوع من أنواع الدولة وتدمير الآخر، ولكنها تهدف إلى إرساء تلك المبادئ الأساسية التي لا تستغني عنها أي جمهورية أو ملكية أبداً. والحركة لا تعتبر أن مهمتها هي إقامة ملكية أو الحفاظ على الجمهورية، ولكن مهمتها هي خلق دولة ألمانية.

(1) الكاثوليك والبروتستانت.

إن مشكلة الشكل الخارجي لهذه الدولة أي الشكل النهائي لها ليست ذات أهمية كبرى. وهي مشكلة لابد من حلها بطريقة عملية ومناسبة لهذه المرحلة. وبمجرد أن تفهم الأمة ما يواجهها من مشكلات كبرى تؤثر على وجودها الداخلي، فإن مسألة الشكليات الخارجية لن تؤدي أبداً إلى أي نزاع داخلي.

❖ | أفضل أنواع التنظيم..

11- أما التنظيم الداخلي للحركة فهو ليس مسألة مبدأ ولكن مسألة موازنة.

وأفضل أنواع التنظيم لا يضع جهازاً وسيطاً كبيراً بين أفراد قيادة التنظيم والأعضاء، ولكن يجب أن نستخدم أصغر جهاز وسيط ممكن. وذلك لأن مهمة هذا الجهاز هي تنظيم ونقل أفكار محددة نشأت في عقول الأفراد ومتابعة كيفية الاستفادة العملية مما يصلح منها للتطبيق.

لذلك فمهما كانت وجهة نظرنا، فإن التنظيم شر لابد منه. أو على الأقل، فهو وسيلة إلى الوصول إلى غايات محددة. لكن أسوأ شيء هو أن نعتبر التنظيم غاية في حد ذاته. وبما أن العالم ينتج الكثير من الآليات، فإنه من السهل علينا أن نكون الشكل الذي تكون عليه هيئة ما وليس المضمون.

ومن الممكن تصوير أي فكرة تسعى إلى التطبيق العملي، وخاصة تلك الأفكار ذات الصبغة الإصلاحية كما يلي :

تتكون الفكرة الخلاقة في عقل شخص ما وهو يشعر أن عليه أن ينقلها إلى العالم أجمع، فيعلن عنها أمام الآخرين ويزداد مؤيدوه كل يوم. وهذه الطريقة الشخصية المباشرة لنشر الأفكار الشخصية بين الناس هي طريقة طبيعية ومثالية. ولكن كلما تطورت الحركة وزاد عدد مناصريها، استحال على المؤسس الحقيقي للفكرة التي تقوم عليها الحركة أن يستمر في دعايته الفردية وسط الأعداد الكبيرة من المناصرين وهو يقوم بتوجيه الحركة في نفس الوقت.

وكلما زاد عدد المؤيدين ، أصبح الاتصال المباشر بين الرئيس وأنصار الحركة مستحيلاً. وهذا التعامل لابد له من جهاز وسيط اقترحه إطار عمل الحركة. فهنا تنقطع الظروف المناسبة للاتصال الداخلي ولابد من استخدام التنظيم كشر لابد منه. وبالتالي فلا بد من وجود جماعات فرعية، حيث أن المجموعات المحلية تكون الخلايا الرئيسية للحركة وهي تنمو وتتطور فيما بعد.

ملحق الصور



والد هتلر «ألويس»



والدة هتلر «كلارا»



هتلر في سن 12 سنة

كفاحي



منظر بديع لمدينة فيينا القديمة
التي عاش بها هتلر لفترة من حياته



هتلر في إحدى زياراته للنمسا بعد أن أصبح زعيمًا لألمانيا

كفاحي



استقبال الجنود الألمان بالورود عند إعلان وقف الحرب



لافتات للتعبير عن رفض وجود اليهود في ألمانيا

كفاحي

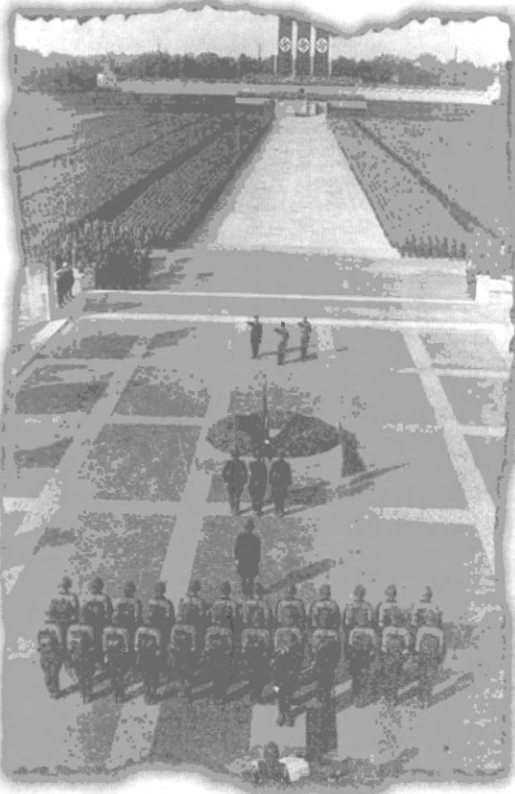


الإمبراطور ويلهيلم الثاني يلحق أوجست فون ماكنسن
بالجيش الألماني في الحرب العالمية الأولى



استخدام البندقية الآلية في الحرب العالمية الأولى جعلها
أكثر إبادة من الحروب السابقة

الجنرال فون كلوك أخفق في تنفيذ خطة
شليفن وقاد الألمان إلى كارثة في المارن



التجمعات النازية التي استخدمها هتلر لإقناع الأمة
بالموافقة على خطته في استقلال البلاد

كفاحي



أدولف هتلر مع الديكتاتور الإيطالي
«موسوليني» وحلم السيطرة على العالم



هتلر في أحد تحركاته وسط جموع المواطنين، حيث تبدو
علامات السعادة على الجميع



14 أكتوبر 1933: تترك ألمانيا عصبة الأمم



هتلر مع الرئيس الألماني باول فون هيندنبرج

كفاحي

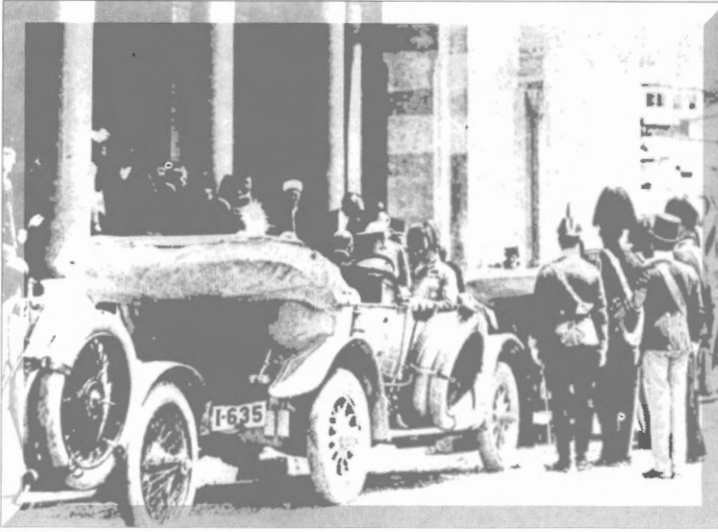


هتلر مع المعجبات والمحبات له

 <i>Adolf Hitler</i> Le wird hiermit bescheinigt, daß der Inhaber die durch das obige Bild bezeichnete Person ist und das dazugehörige Bild in der angegebenen Größe tragen hat. Wien 30. 10. 1934 <i>Max</i>	PERSONENBESCHREIBUNG Heimat <i>Male</i> Geburtsort <i>Prattendorf am Inn</i> Geburtsdatum <i>20. 11. 1889</i> Wohnort <i>Berlin</i> Gestalt <i>mittel</i> Lebensweise <i>civil</i> Farbe der Augen <i>blau</i> Farbe des Haares <i>schwarz</i> Bewegung <i>Kommt aus München, Plais</i> <i>Schneubast</i> KINDE <table border="1"> <tr> <td>Name</td> <td>Alter</td> <td>Sex</td> </tr> <tr> <td></td> <td></td> <td></td> </tr> </table>	Name	Alter	Sex			
Name	Alter	Sex					

جواز سفر هتلر

كفاحيا

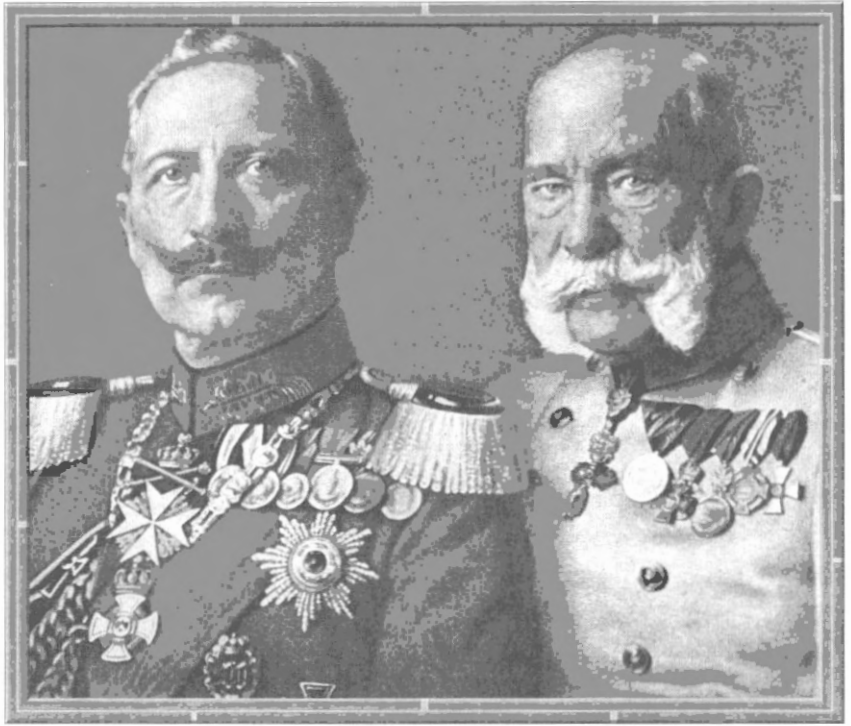


لحظة دخول ولي العهد إلى مبنى مجلس المدينة



المستشار الحديدي: بسمارك زعيم الرايخ الثاني

كفاحي



القيصر ويليام الثاني والإمبراطور فرانز جوزيف قائد
قوات قوى الوسط (المحور) لم يكن كل منهما يدرك أن
العمل العسكري ضد صربيا سوف يقود إلى حرب عالمية.



الرئيس بوينكاري وقيصر روسيا نيكولاس
يستعرضان القوات البحرية الروسية

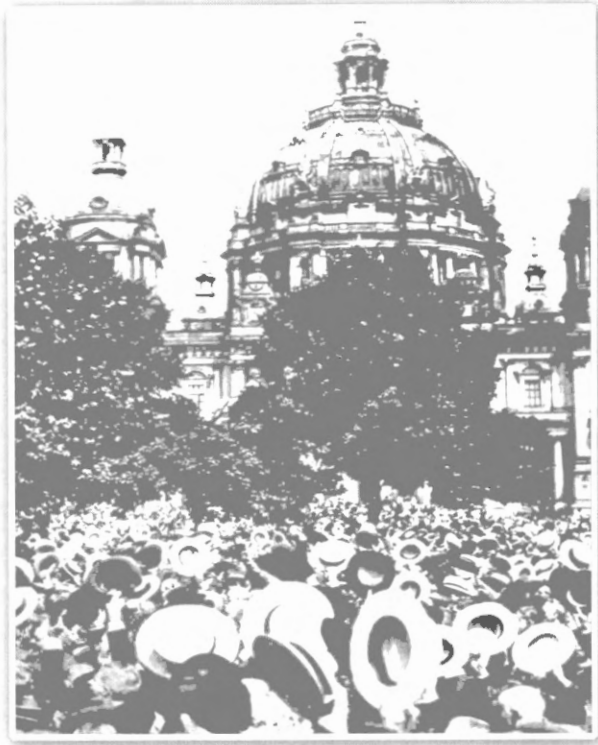


القيصر ويلهلم الثاني إمبراطور ألمانيا وملك بروسيا (1859-1941)
وبصحبه فون مولتك أثناء تعبئة الجيش وتجهيزه للحرب



فون فالكهين وزير الحربية
البروسي كان من أنصار التريث
والانتظار بعكس القيصر الذي
كان يستعجل الحرب

كفاحي



اندلاع الحرب قوبل بالترحيب وبالفرحة في جميع عواصم الدول المتحاربة!
وقد بادر الشعب النمساوي بالترحيب بالحرب قبل اندلاعها وذلك حينما
قطعت إمبراطورية النمسا والمجر العلاقات الدبلوماسية مع صربيا



القوات الألمانية تسير في زهو عبر شوارع بلجيكا



الجنرال الفرنسي جوفير قائد الجيوش
الفرنسية في أفريقيا والهند الصينية وعين
قائداً عاماً للجيش الفرنسي في 1911م



الجنود الروس يتحدثون أمام القيصر في طريقهم إلى جبهة القتال

كفاحي



عشرات الآلاف من القتلى فقدتهم الروس في تاننبرج



جنود ألمان يتحصنون في خنادقهم
ويجهزون أنفسهم لغزو بلجيكا

كفاحي

أحد الجنود الألمان الذين نجوا من الحرب
العالمية الأولى والتي أوقعت خسائر بشرية في
صفوف الألمان تقدر بـ 1.8 مليون رجل



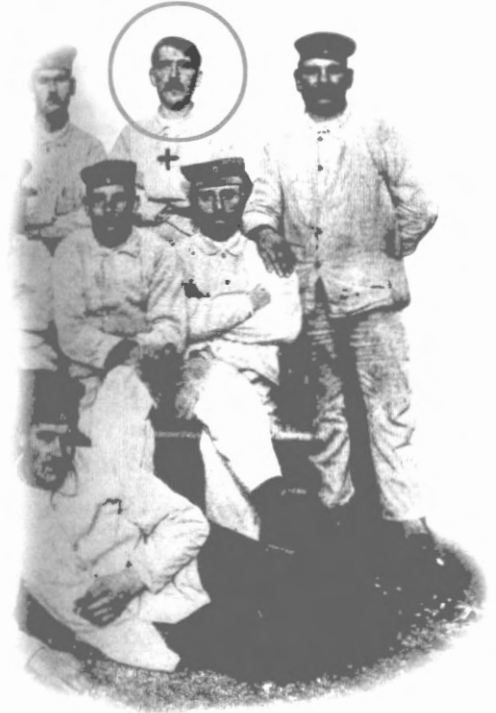
مواطنون بريطانيون يحتفلون بنهاية
الحرب العالمية الأولى في شوارع لندن



كفاحي



الجنود الألمان يعودون من الجبهة
ويسرون في زهو وافتخار
في شوارع برلين



صورة «أدولف هتلر» في الصف الخلفي
الثاني من اليمين في عام 1916م أثناء
الحرب العالمية الأولى



فوضى واضطرابات في مدينة «بتروجراد» الروسية في منتصف يوليو سنة 1917م حينما كان البلشوفيك يستولون على السلطة

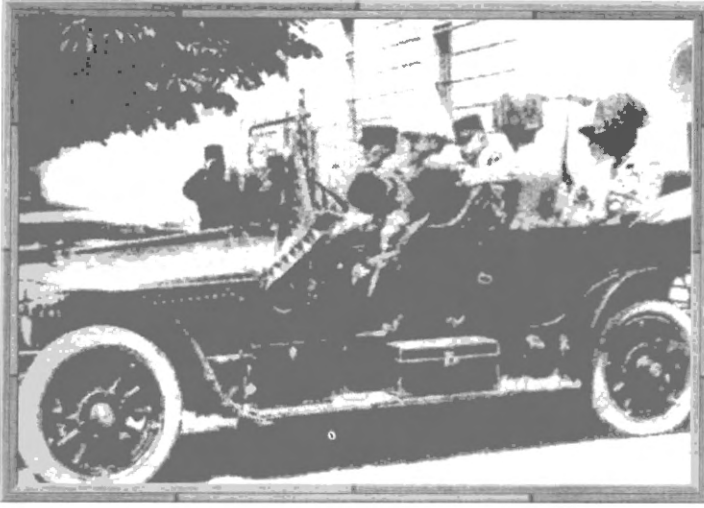


على موسيقى الجيتار الجنود الألمان والروس يتبادلون الترحيب والتهاني بعد خروج روسيا من الحرب العالمية الأولى في 15 ديسمبر سنة 1917م

كفاحي



دفن الشيوعية الألمانية «روزا لوكسمبرج» اليهودية والتي كانت تثير الفتن
على يد النازيين سنة 1919 م



الأرشيدوق فرانسوا فردينان (أقصى اليمين) الذي لقي حتفه في يوم
28 يونيو 1914 بعد التقاط هذه الصور بوقت قصير



الإرهابي الصربي جافريلو برينسيب الذي
اغتال ولي عهد النمسا وزوجته وكان
سبباً في إشعال الحرب العالمية الأولى

كفاحي



اثنان من المناهضين للنازية والمعارضين يحملون لافتة كتب عليها إدانة لهما
«أنا خنزير كبير لأنني أطالب بالاختلاط والتزاوج بين الألمان واليهود».



متهم بحرق مبنى البرلمان الألماني يواجه العدالة



المارشال والعريف «هيندنبرج» القائد الأعلى للقوات المسلحة الألمانية وهتلر
الجندي المتطوع الشجاع!

كفاحي



هتلر يستعرض إحدى السيارات الألمانية الحديثة في برلين 1933 م



هتلر يصافح أحد الفلاحين
في رحلة غير رسمية إلى «بافاريا»



كان هتلر يعتبر أن الكلب هو صديقه الوفي الوحيد

كفاحي



هتلر أبو كل الألمان يداعب طفلاً ألمانيا صغيراً

هتلر يجيي أحد أفراد
«شبيبة هتلر» والتي
أنشئت في نهايات
عشرينيات القرن
العشرين لتكون نواة
للجيل النازي النقي!





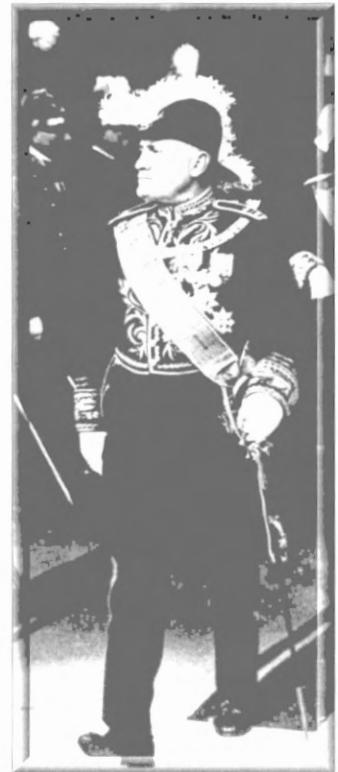
هتلر ومن حوله قوات العاصفة يتحلقون حوله في
مدينة بافاريا التابعة لميونخ

كفاحي



طلّاع القواا الالمانية
اأرق الاااقية الاولة
ومعاااة فرساى الااصة
بالراين واأأه ناأو
الاااا الفرناية اناأاأا
لاوامر األر فى ماراا
1936م

موسوليناى الزعيم الايطالى الفاشى وصاأىق األر الأاميم





مقتل المستشار النمساوي «انجلبرت دولفوي» في مكتبه في
فيينا على يد أحد النازيين في 25 يوليو 1934 م



محل يملكه أحد اليهود الألمان يتعرض للتدمير انتقامًا لمقتل
سياسي ألماني على يد اليهود

كفاحي



ألمان إقليم «السوديت» الذي ضمته معاهدة فرساي إلى
تشيكوسلوفاكيا يصطفون لتحية القيادات الألمانية ويرفعون شعار
«شعب واحد.. راينخ واحد.. زعيم واحد»



النساء الألمان في السوديت يحيون القوات الألمانية المحررة



المركبات الألمانية تخرق شوارع براج عاصمة تشيكوسلوفاكيا



تنفيذًا لأوامر الجنود
الألمان شرطي تشيكي
يغير اسم شارع
الحرية في براج إلى
شارع أدولف هتلر

كفاحيا



ضابط ألماني مع بعض أفراد الحراسة السلوفاك الذين كانوا
يعتبرون هتلر محرراً



هتلر وهو في قمة انتصاراته



أول جريدة تعلن
خبر وفاة هتلر

كفاحي

❖ | المقر الرئيس وأهميته للحركة..

لكن تلك الفرعيات لا يجب أن تستخدم في الحركة إلا بعد قبول تولي المؤسس للسلطة في الحزب وقبول ما أرساه من تعاليم دون تحفظ. وإلا فإن الحركة تخاطر باحتمال انقسامها إلى مذاهب متعددة. ومن هذا المنطلق، يجب التركيز على وجود مقر واحد كبير فقط للحركة، فوجود مثل هذا المقر يضفي عليه نوعاً من السحر مثل مكة⁽¹⁾ أو روما، وهذا يمنح الحركة قوة دافعة ودائمة تستمد مصادرها من التماسك الداخلي للحركة واعتبار هذا المقر رمزاً لوحدتها.

وعندما يصبح عدد المناصرين كبيراً جداً، ويصبح التعامل المباشر مع رئيس الحركة غير ممكن، يضطر عندئذ إلى تكوين جماعات محلية. وكلما زادت تلك المجموعات ووصلت أعداد المنتسبين إليها إلى أرقام عالية جداً يصبح من الضروري إنشاء كوادرات عالية توزع على المجموعات المحلية. ومن أمثلة ذلك تلك الكوادرات التي تتواجد في الأقاليم والمناطق.

وعلى الرغم من أنه من السهل جداً أن يسيطر المقر الرئيسي على المجموعات الصغيرة، لكن يصعب عليه تماماً السيطرة على المجموعات التي تزايدت وأصبحت كبيرة الأعداد. لذلك لا بد لنا أن ننجح في ذلك لأنه شرط أساسي من شروط تأمين وحدة الحركة واستمرار فاعلية أفكارها.

وأخيراً وبعد تكوين الهيئات الوسيطة في وحدات جديدة، تزايد صعوبة فرض سيادة المقر الرئيسي وتعاليمه وتوجيهاته عليها.

لذلك فإن آليات تكوين المنظمة تستخدم فقط بعد التأكد من ثبات المثل والمبادئ بين أعضاء المقر الرئيسي. ومن الناحية السياسية، فقد يحدث غالباً أن يتم الحفاظ على تلك السيادة عندما تسيطر الحركة سياسياً على الأمة.

وعندما توضع كل تلك الاعتبارات في الحسبان، فلا بد من وضع المبادئ التالية للبناء الداخلي للحركة:

❖ | المبادئ الأساسية للبناء الداخلي للحركة:

* في البداية لا بد من تركيز كل النشاط في مدينة واحدة، أي ميونخ بالتحديد. ولا بد من تدريب مجموعة من الأنصار الموثوق فيهم على مبادئ الحركة وهذا يساعدهم على

(1) يدرك هتلر أن مكة هي قبلة المسلمين وهي أم القرى وهي مركز الإشعاع للعالم الإسلامي.. ومكة وليست باريس هي عاصمة النور كما يزعم المتغريون!! (الناشر).

الدعاية لأفكار الحركة. ولابد من إرساء هيبة الحركة أولاً حتى تتمكن من التوسع فيما بعد، وهذا يتحقق من خلال إحراز نجاحات متتالية ونتائج ملموسة في مكان واحد. ولضمان اسم وشهرة الحركة وقادتها يجب أن تكون مثلاً يحطم المذهب الماركسي وتثبت في نفس الوقت إمكانية وجود مذهب معارض.

* لا يجب تكوين جماعات محلية قبل تأكيد تفوق القيادة المركزية في ميونخ وتأكيد ثباتها والاعتراف بها.

* يجب تكوين مجموعات المناطق والأقاليم عند ظهور الحاجة إليها فقط وبعد التأكد من ثبات القيادة المركزية.

كما أن تكوين لجان فرعية يعتمد على وجود أفراد مؤهلين لتولي مسئولية قيادة تلك الجماعات.

وفيما يلي اثنان من الحلول لذلك فقط :

أ- يجب وجود تمويل كاف للحركة يمكن من جذب وتدريب أفراد من الأذكفاء الذين يودون أن يصبحوا قادة. وبالتالي فإن من يتم تدريبهم من الأفراد يمكن أن يوظفوا طبقاً للموقف التكتيكي والحاجة إلى أكفاء.

وهذا الحل أسهل وأسرع، لكنه يتطلب تمويلاً كبيراً، لأن أولئك القادة يمكن أن يعملوا للحركة فقط في حالة تلقيهم لرواتب.

ب- وبما أن الحركة ليست في وضع يمكنها من توظيف مسئولين، فيمكنها أن تبدأ بالاستعانة بمساعدين فخريين. ومن الطبيعي أن يكون هذا الحل أكثر بطناً وصعوبة.

وهذا يعني أن قادة الحركة لن يمدوا نشاطهم إلى العديد من المناطق والأقاليم إلا عندما يتقدم أحد الأعضاء ويضع نفسه في خدمة المركز الرئيسي ليكلفه بتنظيم وتوجيه الحركة في منطقة ما.

وقد يصادف عدم وجود مثل أولئك القادة في بعض المناطق الكبرى، كما قد يظهر في مناطق أخرى ثلاثة أو أكثر ممن لديهم نفس القدر من القدرات التي تؤهلهم للقيادة. وصعوبة هذا الموقف واضحة وكبيرة، لكن يمكن التغلب عليها بمرور السنين.

❖ الصفات المميزة للقادة..

أما إنشاء أي فرع للمنظمة فإن أهم ما يحدد ذلك هو وجود من يصلح للقيام بمهام القيادة في هذا الفرع.

ومثلما أن الجيش بكل ما فيه من وحدات يصبح بلا فائدة في حالة عدم وجود الضباط، كذلك فإن أي منظمة سياسية تصبح عديمة النفع إن لم يتوفر لها القائد المناسب.

فإن لم يوجد شخص موهوب يمكنه أن ينظم ويقود مجموعة محلية، فمن الأفضل للحركة أن تمتنع عن تكوين تلك المجموعة وألا تخاطر بمواجهة الفشل بعد تكوين مجموعة ضعيفة.

فرغبة الفرد في أن يكون قائداً ليست مؤهلاً كافياً للقيادة. فلا بد من توافر صفات أخرى ضرورية. وقوة الإرادة والنشاط من أهم الصفات المطلوبة والتي يستفاد منها أكثر من الذكاء والعبقرية. وأهم مجموعة من الصفات يمكن تواجدها مجتمعة هي: الموهبة والإرادة والمثابرة.

❖ أهمية الروح الدينية والتسامح في قوة الحركة:

12- إن مستقبل الحركة مرهون بالإخلاص والتسامح، وهما أمرين يعتمد عليهما أفراد الحركة في نضالهم. فلا بد أن يشعر أفراد الحركة بالافتتاح بأن قضيتهم قضية عادلة، ولا بد لهم من أن يصلوا بها إلى النجاح، مثلما تفعل أي منظمة أخرى مشابهة تعمل في نفس المجال.

ومن الخطأ أن نعتقد أن قوة الحركة تتزايد إن اتحدت مع حركات مشابهة. وذلك لأن أي توسع ناتج عن هذا الاندماج يعني بالطبع زيادة عددية يحسبها من يلاحظها أنها زيادة في القوة، لكن الحركة في هذه الحالة تسمح بتواجد عناصر خارجية تضعف القوة البنوية للحركة.

وقد يقال إن الحركة قد تتطابق شخصيتها مع حركة أخرى، لكن ذلك لا يوجد في الحقيقة. فإن كان الأمر كذلك، فلن تظهر حركتان بل حركة واحدة. أما إذا كان هناك أي اختلاف حتى وإن تمثل في أن طريقة قياس القدرات تختلف من حركة لأخرى، فإننا نصل إلى الحقيقة: فهما حركتان. فمن غير المتوافق مع الطبيعة أن ينمو كائنان مختلفان معاً. فقانون الطبيعة يقول: إن الأقوى سيتغلب على الأضعف، ولا بد من الصراع بينهما للوصول إلى منتصر، ليزداد قوة بعد هذا الانتصار.

إن اندماج المنظمات السياسية شبه المتماثلة يؤدي إلى اكتساب مميزات محددة، لكن تلك المميزات تؤدي على المدى الطويل إلى ظهور نقاط الضعف فيما بعد.

ويمكن للحركة أن تكون عظيمة في حالة تأمين تطورها الداخلي ودعمه وتوسيعه وتثبيته إلى أن تضمن التفوق على كل منافسيها.

ويمكننا أن نقول بثقة: إن قوة أي حركة وحققها في الوجود يمكن أن تتطور طالما أنها متمسكة بمبدأ أن الكفاح شرط ضروري لتطورها وأنها ستصل إلى أقصى قوتها بمجرد أن تحقق نصراً تاماً.

لذلك فليس على الحركة أن تسعى من أجل تحقيق نجاح سريع ومؤقت، ولكن عليها أن تظهر روح المثابرة أثناء الصراع الطويل الذي سيضمن لها فترة طويلة من التطور.

وكل تلك الحركات التي تدين في توسعها لما يسمى الاتحاد بين العناصر المتشابهة - والتي تعتمد قوتها الخارجية على سياسة التوصل إلى تسوية - تشبه النباتات التي تنمو تحت البيوت البلاستيكية. فهي نباتات تنمو بسرعة شديدة لكنها تفتقر إلى القوة الداخلية التي تجعل النبات ينمو ويصبح شجرة قوية تواجه العواصف لعدة قرون.

إن عظمة كل منظمة قوية تضم أفكاراً خلاقة تكمن في الروح الدينية المخلصة وفي التسامح الذي تواجه به كل الحركات الأخرى، وذلك لأنها تؤمن بشدة لحقوقها.

ولا تتبع عظمة الديانة المسيحية من محاولات التوصل إلى حلول وسط مع فلاسفة العصر القديم والذين تشابه الديانة مع معتقداتهم ولكنها تكمن في تمسكها الشديد برسالتها والدفاع عن تعاليمها.

فالتقدم الظاهري الذي تحرزه أي حركة من خلال اتحادها مع حركات أخرى لن يكون سهلاً، وهو لا يقارن مع النمو المتند الذي تحرزه إن ظلت مستقلة ودافعت عن قضيتها بمفردها.

❖ | صحافة البهتان والكذب!

13- على الحركة أن تعلم أتباعها أن الكفاح ليس شراً لا بد منه ولكنه شيء مرغوب في حد ذاته. لذلك فليس لهم أن يخافوا من عداء خصومهم الواضح، بل عليهم أن يعتبروه شرطاً ضرورياً يقوم عليه وجودهم. وليس لهم أن يحاولوا تجنب مواجهة أعداء الشعب، بل عليهم أن يرحبوا بذلك العداء. فالكذب والافتراء هما الأدوات التي يستخدمها العدو ليفرغ بها حقه.

فمن لا يعترض على الصحافة اليهودية ويحط من قدرها ويسبها لا يعتبر ألمانياً قوياً ولا ألمانياً اشتراكياً. وأفضل قاعدة لقياس قوه شخصيته وإخلاصه لما يقتنع به هي مقدار الكراهية الذي يثيرها اسمه بين أعداء الأمة الحاقدين.

يجب أن نذكر أتباع الحركة - بل كل الأمة - مراراً وتكراراً أن اليهودي ينشر البهتان في الصحافة التي يملكها، وإن قال الحقيقة في بعض الأحيان فإن ذلك يكون

بغرض الخديعة الكبرى التي يمكنها أن تحول الحقيقة الواضحة إلى بهتان متعمد. فاليهودي هو أستاذ الكذب. إن البهتان والكذب هما أسلحته التي يحارب بها.

فكل الكذب والافتراء الذي ينشره اليهود ما هو إلا علامة على شرف ونبل زملائنا. ومن ينالون منه أكثر هو الأقرب إلى قلوبنا، ومن يكرهونه بشده هو أفضل أصدقائنا.

فإذا فتح أي من الرفاق صحيفة يهودية في الصباح ولم يجد نفسه مستهدفاً بالذم فقد ضاع عليه اليوم هباء. وذلك لأنه لو كان قد أنجز شيئاً يذكر لاضطهدوه وسبوه وشوهوا سمعته من أجله.

ولابد لكل من يصارعون عدو بلادنا القاتل وهو عدو الجنس الآري كله وكل الثقافات في نفس الوقت أن يتوقعوا هجوم هؤلاء الجبناء عليهم.

وعندما تكون كل تلك الحقائق التي ذكرتها جزءاً من لحمنا ودمائنا - وهذا حق - فإن حركتنا ستصبح منيعة ولا يمكن إخضاعها.

❖ | احترام الفرد.. فالشخص الموهوب فتحة إلهية!

14- على الحركة أن تستخدم كل الوسائل المتاحة للاستفادة من احترام شخصية الفرد. ولا يجب علينا أن ننسى أن كل القيم الإنسانية تقوم على قيم فردية، وأن كل فكرة وكل إنجاز ما هي إلا نتيجة لفكر وإبداع رجل واحد.

فلا شيء يحل محل الفرد خاصة وإن كنا لا نتكلم عن الجانب الآلي للفرد ولكن عن الجانب الثقافي الخلاق. فلا يمكن لتلميذ أن يحل محل أستاذه ويكمل لوحته التي لم يكملها الأستاذ، ونفس الحال ينطبق على كبار الشعراء والمفكرين أو كبار رجال الدولة والعسكريين. وذلك لأن مصدر قوتهم جميعاً هو إبداعهم الفني. وهذا شيء لا يمكن الحصول عليه آلياً لأنه منحة إلهية.

كما أن الثورات الكبرى والمنجزات العظيمة التي تحققت في هذا العالم، وكل الأعمال الأدبية الكبرى والإبداعات الخالدة لكبار رجال الدولة ترتبط باسم واحد فقط هو اسم من أبدع كل منها على حدة. والإخفاق الناتج عن عدم الاهتمام بأي من تلك العمال العظيمة يعني إهمال مصدر كبير من مصادر القوة الكامنة في ذكرى عظام الرجال والنساء.

واليهودي نفسه يعلم ذلك جيداً. فهو من نجح رجاله في أن يكونوا عظماء في تدمير البشرية بما فيها من حضارة حتى يكونوا أصناماً تعبد. لذلك فاليهودي يحاول أن يحط من قدر الرجال والنساء الذين تقدرهم وتحترمهم الأمم ويعتبر أن ذلك الاحترام مكروهاً.

وبمجرد أن تفقد الأمة شجاعتها وتستسلم أمام هذا الافتراء الوقح الذي يقوم به

اليهودي، فإنها تستغني لذلك عن أهم مصادر قوتها. وهذه القوة الداخلية لا يمكن أن تتأتى من خلال القوادين ولكن من خلال تكريم عظماء الرجال الذين ساهموا في رفعة الأمة وسموها.

وخلال المرحلة الأولى كانت أكبر عقبة تواجه حركتنا هي أننا جميعاً لم نكن من المعروفين وكانت أسماؤنا مجهولة ولا تعني أي شيء. وكانت هذه الحقيقة تجعل بعضنا يشعر بصعوبة تحقيق أي نجاح. وكانت مهمتنا الأصعب هي أن نجعل أعضاء حركتنا يعتقدون بقوة في أن هناك مستقبلاً كبيراً ينتظر حركتنا والحفاظ على بقاء ذلك الاعتقاد حياً في الأذهان. وكان يأتي في ذلك الوقت سنة أو سبعة أشخاص لسماع أي من متحدثينا.

◆ | البرلمان الصغير!

تخيل أن ستة أو سبعة شياطين لا يعرفون بعضهم البعض على الإطلاق يتقابلون عند متحدث يمثل حركة سوف تنجح في تحقيق ما فشلت فيه الأحزاب الكبرى وهو إعادة بناء الأمة الألمانية وجعلها أمة أقوى وأسمى مما كانت عليه من قبل. وكنا نسعد عندما نقابل بالهجوم أو السخرية. لكن ما آلمنا هو أن أحداً لم يهتم بنا على الإطلاق. هذا الإهمال التام لنا تسبب لي في كثير من التوتر في ذلك الوقت.

فعندما انضممت إلى تلك المجموعة لم تكن قد وصلت إلى أن تكون حزباً أو حتى حركة. ولقد سبق لي أو وصفت شعوري عندما اتصلت بهذه المجموعة لأول مرة. وقد أتيت لي الفرصة لأدرس شكل ما كان يسمى بالحزب الذي كان يبدو سيئاً جداً لأول وهلة. كانت الصورة محبطة وغير مشجعة. فلم يكن هناك أي شيء بالمرّة ... أي شيء. كان مجرد اسم للحزب فقط. ولجنة الحزب تتكون من جميع أعضاء الحزب. ومن حين لآخر هناك ما يمكن أن نتجادل حوله، كان برلماناً مصغراً. وكان المجلس يستخدم نظام التصويت. في البرلمان الكبير كانوا يتصايحون حول مشكلات مهمة على أقل تقدير. لكن هنا في هذا المجلس ندخل في مناقشات لا نهاية لها حول طريقة الرد على ما يتلقاه الحزب من رسائل كانت تسعد الجميع.

ولست في حاجة إلى أن أقول: إن عامة الناس لم يعرفوا أي شيء عن ذلك الحزب في ذلك الوقت. ففي ميونخ لم يكن أحد يعرف بوجود الحزب أو يعرف اسمه على أقل تقدير. لم يكن يعرفه سوى ذلك العدد القليل جداً من أعضاء الحزب وقليلون من معارفهم.

وكان يُعقد اجتماع يسمى باجتماع اللجنة كل خميس وذلك في إحدى المقاهي كما كانت تعقد الحوارات في ليلة واحدة كل أسبوع. وفي البداية كان كل أعضاء الحزب هم أعضاء اللجنة، لذلك فقد كان الحضور هم أنفسهم كل مرة. وكانت أولى الخطوات الضرورية هي

توسيع نطاق الحزب الضيق ليتجاوز تلك الدائرة الضيقة. لكن أهم ما في الأمر كان ضرورة جعل الحركة معروفة على نطاق أوسع بالاستعانة بكل الوسائل الممكنة.

❖ | حزب الأشخاص السبعة!

وقد اخترنا الطرق التالية: عقد اجتماعات شهرية يدعى إليها عامة الناس. وكنا نطبع بعض الدعوات على الآلة الكاتبة وبعضها الآخر يكتب باليد. وكنا نوزع دعوات الاجتماعات الثلاثة الأولى يدوياً في الشوارع، كما كنا نوصلها إلى بيوت محددة. وكان كل منا مضطراً بأخبار معارفه وحث بعضهم على حضور الاجتماعات. وكانت النتيجة مؤسفة.

ولازلت أتذكر أنني وزعت بنفسى 80 دعوة من بين العديد من الدعوات، ثم انتظرنا في ليلة الاجتماع لمدة ساعة كاملة على أمل أن تصل حشود الناس دون أن يأتي أحد مما اضطر رئيس اللجنة إلى بدء الاجتماع بحضور سبعة أشخاص فقط، وهم نفس السبعة المكونين للحزب.

غيرنا طريقتنا فيما بعد، فقمنا بطباعة الدعوة في مكتبة في ميونخ ثم نسخنا منها نسخاً عديدة.

وكانت النتيجة حضور عدد قليل من الناس في الاجتماع التالي. وتزايد العدد بالتدريج من أحد عشر إلى ثلاثة عشر إلى سبعة عشر إلى ثلاثة وعشرين، وأخيراً كنا أربعة وثلاثين. ثم جمعنا تبرعات منا جميعاً فكان كل مسكين يدفع مساهمة بسيطة. وبهذه الطريقة توافر لدينا تمويل كاف للإعلان عن أحد اجتماعاتنا في صحيفة "ميونخ أوبزرفر" وكانت لا تزال صحيفة مستقلة.

وهذه المرة حققنا نجاحاً باهراً. في هذه المرة اخترنا مكاناً أفضل للقاء، كانت قاعة صغيرة تتسع بالكاد إلى 130 فرد. وكنت أرى أن القاعة كبيرة جداً. وكنا جميعاً نرتعد من فكرة ظهور تلك القاعة الكبيرة جداً بالنسبة لنا وهي شبه خاوية عند انعقاد الاجتماع في الليلة المحددة له.

❖ | أول ظهور عام لهتلر كخطيب مفوه!

في الساعة السابعة مساء حضر 111 شخصاً إلى القاعة وبدأ الاجتماع. وقد ألقى خطاب الافتتاح أستاذ من ميونخ وتحدثت أنا بعده. وكان ذلك أول ظهور لي كخطيب أمام عدد كبير من الناس. وكان الأمر كله يبدو كمخاطرة قام بها السيد/ هيرر رئيس الحزب في ذلك الوقت. وقد كان رجلاً محترماً جداً. لكنه كان مقتنعاً بأنني لا أملك موهبة

الخطابة أمام الناس بالرغم من أنه يرى أنني لدي صفات جيدة أخرى. ولم يغير رأيه هذا حتى بعد ذلك. لكنه كان مخطئاً. فقد حدد لي 20 دقيقة لأتحدث فيها في تلك المناسبة والتي نظرنا إليها على أنها أول اجتماع عام لنا.

تحدثت لمدة ثلاثين دقيقة وقلت كل ما أود أن أقوله من قلبي بلا تردد. وهنا تأكدت من أنني قادر على الخطابة الجيدة. فبعد مضي ثلاثين دقيقة كان من الواضح جداً أن كل الموجودين في تلك القاعة الصغيرة متأثرون جداً. وقد أدى الحماس الذي تصاعد في القاعة إلى أنهم جمعوا لنا تبرعات وصلت إلى ثلاثمائة مارك. وقد أسعدنا ذلك كثيراً. فقد كانت مواردنا المالية في ذلك الوقت هزيلة جداً لدرجة أننا لم نستطع طباعة نشرة الحزب أو حتى بعض المطويات. والآن أصبح معنا نواة تمويلية يمكننا من خلالها أن ندفع التكاليف العاجلة والضرورية.

❖ لا يوجد مستحيل!

لكن نجاح أول اجتماع كبير كان مهماً من جهة أخرى. فقد بدأت في إدخال الشباب النشط إلى لجنة الحزب. فخلال فترة عملي الطويلة بالجيش كنت قد التقيت مع رفاق ممتازين وبدأت أحثهم في ذلك الوقت على الانضمام للحزب. وكانوا جميعاً من الشباب المتحمس المنظم، فقد تشربوا أثناء فترة التجنيد العسكري بمبادئ تقول: "لا يوجد مستحيل، وإذا كانت هناك إرادة فلا بد من وجود الطريق".

كانت الحاجة إلى ذلك الدم الجديد واضحة لي بعد عدة أسابيع فقط من انضمامي لذلك الحزب. وكان السيد/ هيرر رئيس الحزب صحفياً، لذلك فهو رجل مطلع. أما كرئيس حزب فقد كانت تواجهه عقبة واحدة، فهو لا يستطيع التحدث أمام حشود الناس. وعلى الرغم من أنه كان يؤدي عمله بإخلاص إلا أنه كان ينقصه الدافع الضروري وربما يكون ذلك بسبب أنه لم يكن يملك أي مواهب خطابية على الإطلاق. أما السيد/ دركسلر وكان في ذلك الوقت رئيساً لمجموعة ميونخ المحلية فقد كان عاملاً بسيطاً. وكان أيضاً بلا أي مواهب خطابية. كما أنه لم يكن جندياً. فهو لم يؤدي الخدمة العسكرية أبداً حتى أثناء الحرب. لذلك فإن هذا الرجل الضعيف والخجول بطبيعته لم يذهب إلى تلك المدرسة (أي لم يلتحق بالجيش) التي تحول الخجول الضعيف إلى رجل حقيقي. لذلك فقد كان الرجلان غير قادرين على إثارة روح الحماسة في الحركة وأتباعها ولا على التغلب بقوة على ما يواجهها من عقبات. فهذه المهمة يقدر عليها الرجال المدربون جسدياً ونفسياً، وهذه السمات العسكرية هي التي تصنع الرجال القادرين على الحديث بكفاءة كلاب الصيد ويتصرفون بمتانة الجلود وصلابة الحديد.

وفي ذلك الوقت كنت لا أزال جندياً. وكنت أتمتع بصفات جسدية وعقلية منحتني إياها ستة أعوام من الخدمة العسكرية. لذلك فقد كنت أبدو غريباً وسط هؤلاء في البداية. وكنت قد تعودت أنا وزملائي في الخدمة العسكرية على نسيان بعض التعبيرات مثل: "هذا غير ممكن." و"هذا مستحيل." و"ليس لنا أن نخاطر، فالأمر خطير جداً."

❖ إرهاب الشيوعيين وبطشهم!

وكانت المهمة خطيرة بطبيعتها. فقد كانت هناك أماكن في ألمانيا يستحيل فيها الحديث علناً ودعوة الناس إلى اجتماع وطني عام يخاطب الناس جميعاً. وكان من يحضرون تلك الاجتماعات يواجهون مضايقات تفرقهم وتجعلهم يعودون بإصابات. وقد كان من السهل حدوث ذلك. وكانت اجتماعات البرجوازيين تتبخر، وكان حاضرو الاجتماع يفرون كالأرانب عندما تخاف من الكلب، وذلك بمجرد ظهور اثني عشر شيوعياً في المكان. لكن الشيوعيين اعتادوا على ألا يولوا اجتماعات البرجوازيين أهمية لأنهم يثرثرون فقط. وقد لاحظوا أنهم تافهين من الداخل لهذا لم يخشوهم أبداً بعد ذلك. لكنهم على العكس كانوا يستخدمون كل الوسائل المتاحة لإبادة أي حركة يعتقدون أنها تمثل خطراً على مصالحهم. وكانت الطرق الفعالة التي يستخدمونها في ذلك هي الإرهاب والقوة الباطشة.

أما قادة الماركسية الذين كانوا يعملون على خداع وتضليل الشعب فقد كانوا يكرهون بطبيعتهم كل الحركات التي تهدف إلى كسب جماهير الشعب الذين كانوا حتى ذلك الوقت في خدمة الماركسية الدولية المنتشرة في الأحزاب اليهودية وأحزاب البورصة. وقد أثارهم اسم الحزب فقط "حزب العمل الألماني". وكان من السهل أن نتوقع أن علينا أن نواجه معارضة طغاة الحزب الماركسي في أول فرصة مناسبة، وكانوا لا يزالون منتشرين بما حققوه من نصر عام 1918م.

وقد أعرب الناس في محيط حركتنا الصغيرة في ذلك الوقت عن قلقهم من توقع مثل هذا الصدام. وكانوا يودون الابتعاد عن العلنية قدر الإمكان فقد كانوا يخشون وقوع أي هجوم يُضربون فيه ضرباً مبرحاً. وقد تخيلوا أن اجتماعنا الأول سيتم اقتحامه ويتم تدمير الحركة للأبد. وقد وجدت صعوبة في الدفاع عن موقفي، وكنت أرى أننا لا يجب أن نتجنب الصراع بل لابد لنا أن نواجهه وأنها يجب أن نسلح بالأسلحة المناسبة لمواجهة القوة الغاشمة. فلا يمكن التغلب على الإرهاب بسلاح العقل بل بإرهاب مماثل. وقد أيد اجتماعنا الأول فكرتي هذه. وقد شجع ذلك الأعضاء على الإعداد لاجتماع كبير ثان.

وفي أحد أيام شهر أكتوبر عام 1919م عقد ثاني اجتماع كبير في نفس القاعة وهي قاعة "أبرل برو كيلر". وكان موضوع الاجتماع هو معاهدتي "برست ليتوفسك وفرساي".

وكان المتحدثون أربعة وقد تحدثت لمدة ساعة تقريباً. وكان النجاح ساحقاً وفاق ما حققناه من نجاح في الاجتماع الأول. وكان عدد الحاضرين 130. وقد تمكن رفاقي من إحباط محاولة لإفساد الاجتماع بسرعة. وألقي بمن حاولوا ذلك على درجات السلم ووجوههم تحمل علامات ما تلقوه من ضربات قوية.

ثم عقد اجتماع آخر بعد أسبوعين في نفس القاعة. وهذه المرة زاد عدد الحاضرين عن 170 وهذا يعني أن القاعة كانت ممتلئة تماماً. وتحدثت مرة أخرى، وقد فاق نجاح الاجتماع ما تحقق في الاجتماعين السابقين.

ثم اقترحت ضرورة البحث عن قاعة كبيرة. وبعد بحث وجدنا قاعة في الطرف البعيد من المدينة. وعقد أول اجتماع في المكان الجديد لكن كان الحاضرون أقل من الاجتماع السابق فقد حضر عدد يقل عن 140 شخصاً. وبدأ أعضاء لجنة الحزب في التراجع، وبدأ المتشككون يقولون إن هذا التراجع في عدد الحاضرين يعود إلى أننا بدأنا نعقد الاجتماعات بعد فترات فاصلة قصيرة. وكانت هناك نقاشات حية عرضت فيها رأيي وهو أن المدينة التي تحتوي على 700000 نسمة لا بد أن تكون قادرة ليس فقط على تحمل اجتماع كل أسبوعين ولكن على عقد عشرة اجتماعات كل أسبوع. وكنت أرى أننا يجب ألا نحبط بسبب عقبة واحدة، وأرى أن تخطبطينا كان صحيحاً وأنها سنحقق النجاح إن عاجلاً أم آجلاً إذا استمرت عزيمنتنا ومثابرتنا وصرنا على نفس الطريق. واستمر كفاحنا للوصول بالحركة إلى النجاح وزيادة الثقة فيها طوال فصل الشتاء عام 1919-1920م إلى أن أصبحت الحركة حقيقة راسخة مثل الجبال.

وقد اثبت الاجتماع التالي في القاعة الصغيرة صدق توقعاتي. فقد زاد الجمهور عن 200 شخص وكان النجاح على مستوى عامة الناس والتمويل ساحقاً. لذلك شجعت على إقامة اجتماع آخر بسرعة بعد فترة فاصلة تقل عن أسبوعين وكان الحضور أكثر من 270 فرداً. ثم دعونا أتباعنا وأصدقائنا إلى حضور الاجتماع السابع بعد أسبوعين. وكانت القاعة الصغيرة غير قادرة على استيعاب كل من جاءوا، فقد تجاوز عددهم 400 شخص.

❖ حركة.. أم حزب؟!

وقد كانت الحركة الشابة أثناء تلك الفترة قد تطورت داخلياً. وأحياناً كنا ندخل في نقاشات حادة تشبه ما يحدث اليوم من عدة جوانب. فقد كانت هناك اعتراضات على تسمية الحركة الوليدة بـ"الحزب". وقد اعتبرت أن هذا النقد يعكس ضيق أفق وقلة قدرات من وجهه. وقد كانت تلك الاعتراضات تقدم ممن لا يستطيعون التفريق بين المظهر الخارجي والقدرات الداخلية، وقد حاولوا الحكم على الحركة من خلال الاسم الذي

اشتهرت به فقط. ومن هذا المنطلق فقد بحثوا في المتوارث من العبارات فلم يجدوا بديلاً مناسباً.

وكان من الصعب جداً في ذلك الوقت أن يفهم الناس أن كل حركة ما هي إلا حزب طالما أنها تحقق مبادئها وتتمكن من تحقيق النصر، فهي حزب حتى وإن أطلقت على نفسها ألف اسم مختلف.

❖ | طلاب المجد المتجولون!

وفي تلك الفترة وما تلاها كنت أحذر أتباع الحركة من طلاب المجد الألماني المتجولين الذين لا ينجزون أي شيء إيجابي أو عملي سوى ما يرضي غرورهم فقط. فعلى الحركة الجديدة أن تحمي نفسها من ذلك الفيضان من الناس الذين يقولون أنهم يحاربون من أجل نفس المبادئ منذ ثلاثين أو أربعين عاماً.

إن من يحارب لمدة أربعين عاماً من أجل ما يسميه بفكرة، لكن تلك الحرب التي يدعيها لم تحقق أي فائدة تذكر ولم تتجح في إعاقه الحركات المضادة، فإن تلك القصة الممتدة إلى أربعين عاماً من الجهد المبذول بلا جدوى دليل كاف على عدم كفاءة بطل الرواية. والناس من هذا النوع خطيرون لأنهم لا يودون المشاركة في الحركة كمجرد أعضاء عاديين. إنهم يتحدثون عن مواقع القيادة فهي المواقع الوحيدة التي تناسبهم نظراً لما قاموا به في السابق من أعمال وحتى يتمكنوا من الاستمرار في العمل. إن رجل الأعمال الذي يصبح مسئولاً عن شركة لمدة أربعين عاماً، والذي يخرب الشركة تماماً نتيجة لسوء الإدارة لا يصلح أن يكون مؤسساً لشركة جديدة. ونفس الحال ينطبق على حركة جديدة. فالعقل يقول: إنه لا يجب أن نختار شخصاً فشل في إرساء فكرة يؤمن بها وظل كذلك لمدة أربعين عاماً إلى أن أصابته الشيوخة هو وفكرته.

بالإضافة إلى أن من ينضمون إلى الحركة الجديدة بغرض خدمة أهدافها والعمل على نشر مبادئها قليلون جداً. ففي غالب الأحيان ينضم الأعضاء إلى الحركة الجديدة على أمل أن يستطيعوا نشر أفكارهم القديمة بين من يستمع إليهم، لكن أياً منهم لا يعرف ما هي تلك الأفكار بالضبط.

ومن الطبيعي أن يتحدث هؤلاء عن أبطال العصور السحيقة الذين استخدموا الفئوس والسهام والدروع، بينما هم في الحقيقة مجرد جبناء لا نظير لهم.

❖ | كوميدي.. وحشرة!

وقد قابلت كثيراً من الناس من هذا النوع فلم أشعر بالارتياح لما يقومون به من تمثيل. فهم يسخرون بذلك من جموع الشعب. لكن اليهودي وجد في ممثلي الكوميديا الشعبيين

هؤلاء ما يرضيه، وهو يحترمهم أكثر من الرجال الحقيقيين الذين يحاربون من أجل دعم وجود الدولة الألمانية. كما أن هؤلاء الكوميديين فخورين بأنفسهم جداً. وبالرغم من عجزهم الشديد الواضح، فهم يدعون أنهم يعرفون كل شيء أفضل من بقية الناس. يؤمنون بذلك لدرجة تجعلهم يعتبرون أنهم ضرورة لازمة لكل وطني مخلص ممن لا ينظرون فقط إلى بطولات الماضي ولكن يشعرون أن عليهم أن يكونوا أمثلة تستلهمها الأجيال القادمة.

ومن بين أولئك من يمكن إرجاع سلوكهم إلى الغباء وعدم الكفاءة، لكن هناك من يهدفون إلى تحقيق أغراض من وراء ذلك. وعادة يكون من الصعب التمييز بين الفئتين. والانطباع الذي يستحوذ عليّ عندما أرى أولئك الذين يسمون بالإصلاحيين الدينيين والذين تقوم عقيدتهم على عادات ألمانية قديمة هو الاعتقاد بأنهم دعاة تلك القوى التي لا تريد أن ترى صحة ألمانيا وهي تحدث أمامها. فكل ما يرمون إليه هو تشتيت أنظار الجمهور بعيداً عن قضيتهم الواحدة التي يجب أن يحاربونها جميعاً جنباً إلى جنب ضد عدوهم المشترك وهو اليهودي. كما أن هذا النوع من التعاليم تدعو الناس إلى استخدام طاقاتهم، ليس من أجل القضية المشتركة ولكن في قضايا دينية قديمة وبالية.

وهناك من القواعد ما يجعل من الضروري أن تسيطر على الحركة قوة مركزية تتمثل في سلطة القيادة. وبهذه الطريقة فقط يمكن مواجهة أنشطة تلك العناصر الهدامة. ولهذا السبب فإن هؤلاء الممثلين الكوميديين الفلكلوريين يكرهون أي حركة يتماسك أعضاؤها تحت قائد واحد ونظام واحد. إنهم يكرهون هذه الحركة لأنها قادرة على وقف شرورهم.

وبالإضافة إلى كل ما ذكرت لا بد أن نلاحظ أن التكبر والغرور والاستخفاف الذي يحاول هؤلاء الجهلة من خلاله أن يمزقوا أعمال الآخرين، عن طريق نقده من عل يخدم أعداء الشعب.

إن أكثر أتباع الحركة بساطة لديه الشجاعة ليقف في حانة تقدم الجعة ومن حوله يتجمع أعداؤه، ونجده يدافع عن آرائه أمامهم برجولة ووضوح. فيحقق آلاف الأضعاف مما يحققه المنافقون الساقطون. وهو قادر أن يجعل واحداً أو اثنين على أقل تقدير يغيرون آراءهم وينضمون للحركة. ويمكن للفرد أن يتفحص عمله ويختبر فاعليته من خلال ما حققه من نتائج فعلية. لكن هؤلاء الخادعين الماكريين الذين يمتدحون "أعمالهم الصامتة" ويختبئون خلف عباءة الأسماء المستعارة ما هم إلا حشرات لا قيمة لها - بكل ما في الكلمة من معنى - وليس لهم أي دور يذكر في إعادة بناء الأمة.

وفي بداية عام 1920م عرضت فكرة إقامة أول اجتماع جماهيري كبير جداً. واختلفت الآراء حول هذه الفكرة. وكان بعض قادة الحزب يرون أن الوقت لا يزال غير مناسب لعقد مثل هذا الاجتماع وأنه لن يكون مفيداً. وكانت صحافة اليسار قد تنبّهت لوجودنا،

وكان من حسن حظنا أننا أثّرنا سخطهم الشديد. فقد بدأنا نظهر في اجتماعات الآخرين ونوجه أسئلة إلى المتحدثين ونعارضهم، وتكون النتيجة هتافات معادية لنا على الفور. لكن بعد أن نكون قد حققنا بعضاً من أهدافنا. لقد بدأ الناس يشعرون بوجودنا، وكلما فهمونا، زاد عداؤهم لنا. لذلك كان علينا أن نتوقع أن يحضر عدد كبير من أعضاء المعسكر الأحمر في أول اجتماع كبير لنا.

وبدأت أدرك أن اجتماعنا قد يُخترق. لكن كان علينا أن نواجه المعركة، إن لم يكن الآن فبعد عدة أشهر. وقد كنا عازمين منذ أول يوم أسسنا فيه الحركة على تأمين مستقبلها وذلك بالمضي في القتال بروح عالية وثقة وعزيمة لا تكل. وكنت على دراية جيدة بطريقة تفكير كل من ينتمون إلى المعسكر الأحمر، وكنا نعلم أننا إن عارضناهم بشدة فلن نؤثر فيهم فقط بل قد نكسب مزيداً من المؤيدين. لذلك شعرت أن علينا أن نحدد سياسة فعالة في المعارضة.

❖ | أول اجتماع جماهيري..

وكان السيد/ هيرر هو رئيس الحزب في ذلك الوقت. وهو لم يكن يتعاطف معي إلى أن جاءت الفرصة المناسبة وهي الاجتماع الجماهيري الكبير الأول. وبعد ذلك وجد أن عليه أن يستقيل من رئاسة الحزب لأنه رجل عادل ومخلص. وحل محله السيد/ أنطون دريكسلر. واحتفظت أنا بمهمة تنظيم الدعاية ولم أستمع إلى أي من تلك الحلول الوسط أثناء تنفيذي لها.

حددنا يوم 24 فبراير عام 1920م كموعداً لأول اجتماع جماهيري لحركتنا التي كانت لا تزال مجهولة في تلك الفترة.

وقمت بنفسى بعمل كل الإعدادات. ولم يستغرق ذلك وقتاً طويلاً. وكانت كل أجهزة الحركة تعمل من أجل الوصول إلى قرارات سريعة. وخلال أربع وعشرين ساعة كان علينا أن نحدد إجابات الأسئلة المتوقعة على موضوعات الساعة والتي قد تطرحها الجماهير في الاجتماع. وكانت الدعوة إلى هذا الاجتماع تطرح تلك الموضوعات على الشعب. وكنا نعتمد في هذا المجال على الملصقات والمطويات، وكانت محتوياتها والطريقة التي تُعرض بها قد تحددت طبقاً للمبادئ التي وضعتها للتعامل مع الدعاية بصفة عامة. وقد كانت الدعاية بطريقة تروق لعامة الناس. وكانت تركز على نقاط قليلة تتكرر مرات ومرات. وكان النص مختصراً ومحددًا ويستخدم تعبيرات جازمة. وقد وزعنا تلك المطويات والملصقات بحماس شديد، ثم انتظرنا نتيجة ذلك الجهد في صبر.

❖ | فن الدعاية..

أما بالنسبة للون الأساسي في وسائل الدعاية فقد اخترنا اللون الأحمر، وذلك لأنه يلتفت

النظر، كما أنه سيلفت نظر أعدائنا ويثيرهم. وبهذه الطريقة ينتبهون إلى وجودنا - سواء كانوا يحبون ذلك أم لا - ولن ينسوننا أبداً.

وقد كانت إحدى نتائج تلك الخطة واضحة جداً في التأخي السياسي الذي حدث في بافاريا أيضاً بين الماركسيين وحزب الوسط. فقد بذل الحزب السياسي الذي يسيطر على بافاريا وهو الحزب الشعبي هناك كل جهده ليقاوم ما فعلته إعلاناتنا في الجماهير العريضة. لذلك اتخذوا خطوات محددة لإعاقة خطواتنا. فإن لم تجد الشرطة سبباً توقف به إعلاناتنا فإنهم سيدعون أننا نعطل المرور في الشوارع. وهكذا طمأن ما يسمى بحزب الشعب القومي الألماني حلفاءه الحمر وذلك بمنع إعلاناتنا التي تمكنت من إعادة مئات الآلاف من العمال إلى شعبهم بعد أن كانوا مضطربين بدعاية المندادين بالاتجاه الدولي. وهذه الإعلانات دليل على مرارة الصراع الذي دخلت فيه الحركة الشابة حين ذاك. وسوف تجد الأجيال القادمة أن تلك الإعلانات ما هي إلا وثائق تدل على تصميمنا وعدالة قضيتنا. كما أن تلك الإعلانات تثبت أيضاً أن من يسمون بالمسؤولين القوميين يشاركون عمداً في حصار حركة لا يحبونها، وذلك لأنها تسعى إلى بث روح الوطنية في الجماهير العريضة للشعب وإعادتهم على حظيرة جنسهم العظيم.

وكانت تلك الإعلانات تساعد أيضاً على دحض نظرية وجود حكومة وطنية في بافاريا، كما حملت وثنائق تؤكد أن بافاريا لا تزال وطنية خلال الفترة 1919-1923م وهذا لا يرجع إلى الحكومة القومية فيها بل إلى تزايد روح الوطنية تدريجياً في أفراد الشعب وكانت الحكومة مضطرة لإتباع مشاعر الشعب. وقد قامت سلطات الحكومة نفسها بعمل كل ما في استطاعتها لوقف تلك الصيحة وجعلها مستحيلة. وفي هذا المجال لابد من ذكر اثنين من المسؤولين اللذين كانا يمثلان استثناءات لافتة.

❖ | وطنيون مخلصون..

كان أرنست بومر مدير الشرطة في ذلك الوقت. وكان مستشاره المخلص هو الدكتور فريك وهو أكبر مسئولي التنفيذيين. وكان لهذين الشخصين فقط من بين كل المسؤولين الرسميين من الشجاعة ما جعلهم يقدمون على جعل مصالح الدولة قبل مصالحهم المتمثلة في الحفاظ على وظائفهم. وكان أرنست بومر هو المسئول الوحيد الذي رأى أن واجبه تجاه الأمة يستحق التضحية بكل شيء حتى وإن كانت حياته نفسها من أجل إعادة بناء الأمة الألمانية التي يحبها جداً. وقد كان شوكة في حلق المرشحين من المسؤولين في الحكومة الذين لم تكن مصالح الأمة أو ضرورة إحياء الوطن تحركهم أو توجه سلوكهم. كانوا ببساطة يسعون إلى توفير قوت يومهم من خلال تلبية رغبات الحكومة لكنهم لا يفكرون أبداً في رفاة الأمة التي هي أمانة في أعناقهم.

وقبل كل شيء كان بومر أحد أولئك الذين يختلفون مع الأغلبية التي تدافع عن حكومة الدولة ولم يتعرضوا لخونة الوطن والأمة بل امتدحوا كرمهم وأمانتهم. وكان هؤلاء الناس يعتمدون على ما يبثه اليهود والماركسيون من أكاذيب وضلالات وينشرونها. وكان ذلك مصدر السعادة الوحيد لهم. وكان بومر رجلاً ذا إخلاص وولاء قويان. وكان يبدو كناسك من نساك العصر الكلاسيكي، كما أنه كان ألمانياً مستقيماً، وكان ينطبق عليه القول "إنه يفضل الموت على أن يكون عبداً".

وفي رأيي، فهو ومساعدته الدكتور فريك صاحب الحق فقط - من بين كل من يتولون المناصب في بافاريا - في أن يقال عنهم: إنهم يشاركون بفاعلية من أجل خلق بارفريا الوطنية.

وقبل أن نعقد أول اجتماع جماهيري كبير لنا، كان لابد من إعداد المواد الإعلانية مسبقاً وكذلك طباعة برنامج اللقاء.

وفي الجزء الثاني من هذا الكتاب سأشرح بالتفصيل كل المبادئ الإرشادية التي اتبعناها في ذلك الوقت في رسم برنامجنا. ولكنني أشير إلى أن البرنامج قد أعد ليس فقط من أجل تحديد شكل ومحتوى الحركة الشابة بل أيضاً حرصنا على أن يكون الإعداد بسيطاً ليفهمه جماهير الشعب. وقد سخرت منه طبقة المثقفين وحاولت نقده فيما بعد. لكن أثبت برنامجنا هذا أن أفكارنا كانت صحيحة.

وخلال تلك السنوات كنت أرى حركات تظهر ثم تختفي دون أن تترك أي أثر خلفها. وهناك حركة واحدة فقط استمرت. إنها حزب العمل الاشتراكي القومي الألماني. واليوم أنا أكثر اقتناعاً عما كنت، على الرغم من أنهم قد يحاولون شل حركتنا ومقاومتنا وعلى الرغم من أن الوزراء المشغولين بالتوافه قد يمنعونا من حرية التحدث، إلا أنهم لن يتمكنوا من التغلب على أفكارنا المنتصرة. وعندما يصبح نظام الدولة الحالي طي النسيان وكذلك كل الأحزاب التي تمثلها، فإن أسس الحركة القومية اشتراكية ستكون الأساس الذي تقوم عليه الدولة الجديدة.

وقد مكنتنا الاجتماع الذي عقدناه قبل يناير عام 1920م من جمع تبرعات مالية اللازمة لطباعة أول مطوية نصدرها وكذلك الملصقات والبرنامج.

✦ | اجتماع جماهيري نصفه من الشيوعيين!

ويسوف أنهي الجزء الأول من هذا الكتاب بالإشارة إلى أول اجتماع جماهيري كبير عقدناه وذلك لأن هذا الاجتماع هو المناسبة التي وُضع فيها إطار عمل الحزب الصغير، وبعد ذلك أصبح من أكثر الأحزاب تأثيراً في تلك الفترة لما لنا من تأثير على الرأي العام.

وفي تلك الفترة كان أكثر ما يؤرقني هو أن القاعة قد لا تمتلئ أو أننا قد نفاجأ بمقاعد خالية. وقد كنت مقتنعاً بأن حضور أفراد من الشعب يعني نجاحاً عظيماً للحركة الناشئة. وقد كان ذلك هو شعوري وأنا أنتظر بفارغ الصبر ساعة عقد اللقاء.

وقد أعلننا أن الاجتماع سيكون في السابعة والنصف، وقبل ربع ساعة من الوقت المحدد كنت أدخل إلى القاعة الرئيسية في ميونخ وكان قلبي ينبض في سعادة. وكانت القاعة التي تبدو كبيرة جداً بالنسبة لي في ذلك الوقت قد امتلأت وزيادة. كان هناك حوالي 200 شخص. وبالإضافة إلى أن من كنا نريد الوصول إليهم قد جاءوا. وكان من الواضح أن نصف الجمهور من الشيوعيين أو المستقلين. وكانوا يرون أن أكبر لقاء لنا يقترب من نهايته المفاجئة.

لكن الأمور سارت عكس ذلك. فبعد أن انتهى المتحدث الأول من حديثه حان دوري في التحدث. وبعد عدة دقائق قليلة قوبلت بعاصفة من المقاطعة والصدامات العنيفة التي اجتاحت كل أنحاء القاعة. لكن عدداً قليلاً من رفاقي في الحرب ومن أعضاء الحركة سيطروا على مثيري الشغب وعاد النظام خلال وقت قصير جداً. واستطعت استكمال حديثي. وبعد نصف ساعة بدأ التصفيق يغطي على المقاطعات وصيحات الاستهزاء. ثم توقفت المقاطعات تدريجياً وحل محلها التصفيق. ثم وصلت إلى مرحلة شرح الخمس وعشرين نقطة وطرحها واحدة تلو الأخرى أمام الناس المحتشدين ثم أطلب منهم أن يقولوا رأيهم فيها. وقد وافقوا على نقطة تلو الأخرى بحماس متزايد. وعندما وصلت إلى النقطة الأخيرة أدركت أن جميع من كانوا في القاعة قد توحّدوا تحت مذهب جديد ومعتقدات جديدة وإرادة جديدة.

مضت أربع ساعات تقريباً قبل أن تُلخى القاعة. وكان الناس يتدافعون نحو أبواب الخروج وأكتافهم ملتصقة. فعرفت أن الحركة تمشي الآن على أقدام هذا الشعب الألماني وأنها لن تكون في طي النسيان أبداً.

لقد اشتعلت النيران التي ستعيدنا إلى قوتنا وتعيد إلينا حريتنا وتعيد الأمة الألمانية إلى الحياة من جديد.

وبالإضافة إلى تلك الصحوّة التي توقعتها في ذلك الوقت، شعرت أيضاً بالرغبة في الثأر والانتقام لما حدث في يوم التاسع من نوفمبر عام 1918م. وأُخليت القاعة. وبدأت الحركة طريقها.



الحركة الاشتراكية القومية



الفصل الأول

المذهب الجديد والحزب



فى الرابع والعشرين من شهر فبراير عام 1920م، عُقد أول اجتماع جماهيرى تحت رعاية الحركة الجديدة فى قاعة كبرى فى ميونخ وتم شرح خمس وعشرين أطروحة تشكل برنامج الحزب الجديد للجمهور الذى كان يقترب من ألفى شخص وقد استقبلوا كل أطروحة بحماس شديد.

وهكذا استطعنا أن نلفت نظر العامة إلى مبادئ الحركة وخطوط العمل الأولى التى ستسير عليها وكذلك الأفكار والآراء ذات الميول الغامضة والخبیثة التى أبطلتها الحركة الجديدة. وقد قدر لتلك القوى الجديدة التى ظهرت بين البرجوازيات الضعيفة الخائفة أن تعرقل التقدم الناجح للماركسيين وسدت الطريق أمامهم تماماً قبل أن يصلوا إلى غايتهم.

وكان من الواضح أن هذه الحركة الجديدة استطاعت أن تكسب اهتمام عامة الشعب المهمين جداً بالنسبة لهذا النضال الكبير وذلك فقط بسبب نجاحها منذ البداية فى إيقاظ العقيدة الراسخة فى قلوب أتباع هذه الحركة، ومن هنا نجد أنها ليست مجرد قضية لطرح شعار انتخابى جديد فى المجال السياسى بل هى فكرة شاملة جديدة ذات مغزى ضرورى يجب أن يروج له.

يجب على المرء أن يحاول استرجاع ذلك الخليط البائس من الآراء التى اعتادت أن تدرج عند تكوين برنامج الحزب المعتاد، كما كان يطلق عليه فى الماضى. وكذلك يجب على المرء أن يتذكر كيف كان يتم تجديد هذه الآراء وتعداد صياغتها فى شكل جديد من حين لآخر، فلو أردنا أن نفهم هذه المسوخ البرامجية بشكل صحيح، فلا بد لنا من دراسة الدوافع التى تحرك "لجنة البرامج" البرجوازية فى كثير من الحالات.

فقد تأثر هؤلاء الناس بنفس الأفكار عند تقديم أى شيء جديد فى برنامجهم أو تعديل شيء موجود بالفعل. والجدير بالذكر أن هذه الأفكار كانت تهتم بشدة بنتائج الانتخابات التالية. فى الوقت الذى يشعر فيه هؤلاء المحتالون فى برلمان الحكومة بالشك من أن جمهورهم ربما يكون مستعداً لأن يثور ضد الحزب، يبدأون فى تغيير أفكارهم. وفى مثل تلك المناسبات يبدأ كل من دجالى الحزب أو قارئى الطالع أو من يسمون برجال الخبرة أو الخبراء فى الظهور، فهم أصحاب أقدم المدارس السياسية التى زودتهم بالخبرة الكافية. تلك الخبرة مكنتهم أيضاً من إدراك أن صبر الجمهور قد بدأ ينفد، وابتاع وصفتهم القديمة يقومون بتكوين لجنة، ويتجولون بين عامة الناس ويستمعون لما يقال، ويدسون أنوفهم فى الصحف، وبالتدريج يدركون ما يرفضه الشعب - المحبب إليهم - وما يسعى إليه. ويقومون بعمل دراسة حول ما تريده جماعات رجال الأعمال والتجار وحتى موظفين، كما يقومون بالبحث عن أعمق رغباتهم. ثم يحدث التحول المفاجئ وتتحول الشعارات الدنيئة للمعارضة إلى شيء يستحق إعادة التفكير فيه، وغالباً ما تعتبر هذه الشعارات غير مؤذية حيث سبق أن وجهت إلى الأفكار والمعتقدات القديمة. لذلك تتعد اللجان لمراجعة البرنامج القديم والتخطيط لبرنامج جديد.

﴿ طموحات البرنامج الجديد.. ﴾

يغير هؤلاء الناس معتقداتهم كما يغير الجندي قميصه فى الحرب بعد أن أكل البق قميصه القديم. ويحصل كل شخص فى البرنامج الجديد على كل ما يريده، فعلى سبيل المثال، يتأكد للفلاح أن متطلبات الزراعة سوف تكون متوافرة، وفى مجال الصناعة يشعر كل عامل أن منتجاته بأمان وحتى المستهلك ستكون كل حقوقه محمية. وبالنسبة لأسعار السوق، سيتم تقديم مرتبات أعلى للمدرسين، وسيحصل الموظفون المدنيون على معاشات تقاعد أفضل، أما بالنسبة للأطفال والأرامل فسيحصلون على مساعدات سخية من الدولة، وسيتم الترويج للتجارة، ويتم خفض الضرائب، فعلى الرغم من أنه لن يتم إلغاؤها كلياً ولكنها ستكون شبه ملغية. وفى بعض الأحيان ينسون شريحة من الشعب أو يجدون أن أحد متطلباته لم تصل للمسؤولين فى الحزب. وبسرعة يتم التعامل مع الموقف وإيجاد حل مناسب حتى يشعر الجميع أخيراً أن هناك أملاً لكل الطماعين وزوجاتهم، كما أن مخاوفهم ستنتهى وسيشعرون بالأمان مرة أخرى، ومع التسليح بالإيمان الداخلى بفضل الله، والعباء الكامل للناخبين، يبدأ الصراع من أجل ما يسمى بإعادة بناء الدولة.

﴿ الاحتيال المتكرر! ﴾

وعندما تنتهى الانتخابات وينتهى أعضاء البرلمان من اجتماعهم العام الأخير الذى يمهّد لخمس سنوات قادمة داخل البرلمان. وبعد أن يتمكنوا من جعل العامة مقتنعين بما

قالوه لهم من أفكار، فإنهم سوف يكرسون أنفسهم لمهام مريحة أكثر من ذلك، حيث ستتلاشى لجنة البرنامج وسيصبح النضال من أجل الحصول على نظام متقدم فى البلاد يرعى مصالح الشعب ويحقق حياة أفضل هو مجرد وسيلة لكسب قوت اليوم، وذلك يعنى بالنسبة لأعضاء البرلمان مجرد الحضور المطلوب للحصول على المكافآت اليومية للجلسات. حيث يمضى النائب الشريف فى طريقه لمجلس النواب يوماً بعد يوم على الرغم من أنه ربما لا يدخل قاعة المجلس، فهو يصل فقط إلى القاعة الأمامية حيث سيجد السجل الذى يدون به أسماء النواب الحضور، ويقوم بكتابة اسمه كجزء من مهامه الثقيلة تجاه ناخبيه، وفى المقابل يحصل على مكافأة مستحقة كتعويض عن أعماله المنهكة المتواصلة.

وبمرور أربع سنوات، أو إذا وقعت أحداث ومرت أسابيع خطيرة، حيث يتحتم على مجالس البرلمان أن تواجه خطر التفكك، يتحتم أيضاً على النواب أن يتصرفوا فجأة. ويصبح هؤلاء الأعضاء تماماً مثل اليرقة التى لا تستطيع أن تنمو داخل الشرنقة، فيتركون بيت الدمى ويرتجفون خوفاً ويعودون مرة أخرى إلى الظهور بين عامة الناس المحبين لهم. ومرة أخرى يعود أعضاء البرلمان إلى توجيه حديثهم للناخبين حول الأعمال الضخمة التى أنجزوها مؤكدين العناد الخبيث من معارضيتهم. ونادراً ما يستقبلون بالتصفيق، ومن حين لآخر يطلق الجمهور الذى لا يتمتع بالذكاء عبارات مهينة ووقحة ضدهم. وعندما تصل هذه الروح الناكرة للجميل إلى درجة معينة فهناك طريقة واحدة لإنقاذ الموقف، فمكانة الحزب يجب أن تنتعش مرة أخرى، وكذلك يجب أن يتم تعديل البرنامج أيضاً، ويجب أن يكون للجنة وجود مرة أخرى، وبمجرد أن نعرف أن عامة الشعب يتصف بالغباء، فلن نفاجاً بنجاح تلك الخطط. فما تقدمه الصحافة من دعاية، بالإضافة إلى المظهر الخادع للفاتن للبرنامج الجديد يجعل كلا من ناخب الطبقة المتوسطة وناخب طبقة العمال لإعادة انتخاب المخادعين القدماء مرة أخرى. ويتغير حال رجل الشعب ومرشح حزب العمال الآن ويصبح محباً للبرلمان، ويصبح كل منهم بديناً مكور الجسد، ويصبحون جامدين وغير مؤثرين فى الحياة العامة، وبعد مرور 4 سنوات أخرى يصبحون كالفراشة المتألقة.

❖ | دجالو البرلمان!

ولن نجد أى شيء آخر يتسبب فى الشعور بالإحباط سوى أن تراقب هذه العملية فى الواقع وأن تكون شاهد العيان لهذا الاحتيال المتكرر، وبالنظر إلى هذا الموضوع نظرة متعمقة، نجد أن القوى البرجوازية لا يمكنها أن تطور من قوتها اللازمة لمواصلة الصراع ضد القوى الماركسية. وفى الواقع، هم لم يحاولوا ذلك بطريقة جادة مطلقاً.

وعلى الرغم من أن دجالى البرلمان الذين يمثلون العرق الأبيض يعتبرون ممن يتمتعون بقدرة عقلية أقل، إلا أنهم على درجة كافية من الفطنة ليعرفوا أنه ليس بإمكانهم استخدام الديمقراطية الغربية بكل توابعها كسلاح لمحاربة مذهب التقدم كوسيلة للوصول إلى غاية. فالماركسيون يستخدمون الديمقراطية بغرض تعطيل معارضيتهم وضمان عرض أفكارهم من خلالها. وعندما تقوم مجموعة معينة من الماركسيين باستخدام كل أنواع المهارات المتاحة لهم لجعل الناس يصدقون أنهم جزء لا يتجزأ من مبادئ الديمقراطية، فربما يكون من الأفضل أن نتذكر أنه عندما يواجه هؤلاء الرجال موقفاً حرجاً، فإنهم يتمسكون بمبدأ أغلبية التصويت بمعناه عند الغرب. وهكذا كانت الحالة عندما اعتقد أعضاء البرلمان البرجوازيون - بقصر نظرهم المعهود - أن أمان الدولة مضمون لأنها مدعومة من قبل الأغلبية، ولم يتردد الماركسيون لحظة في إدراك القوة الهائلة التى يمتلكونها، وذلك بمساعدة غوغاء المتسكعين والهابسين من الجنديّة وصيادى المراكز السياسية واليهود. وكانت تلك الضربة فى وجه الديمقراطية التى يؤمن بها كثير من أعضاء البرلمان. أما السذج الذين يمثلون الديمقراطية البرجوازية فى البرلمان، فهم يصدقون أن عزيمة أولئك الذين يهتمون بنشر آفة الماركسية فى العالم والتى يحملونها إلينا، من الممكن أن يخضعوا فى لحظة ما، سواء الآن أو فى المستقبل إلى الالتزام بالوصفات السحرية المتبعة فى برلمان الغرب.

وسوف تسير الماركسية مع الديمقراطية جنباً إلى جنب إلى أن تنجح بطريقة غير مباشرة فى الحفاظ على أغراضها الشريرة وتأمينها بدعم من أصحاب العقول الموجهة بطبيعتها نحو الوطنية، والذين يريد الماركسيون إبادتهم. ولكن إذا تحتم على الماركسيين فى يوم ما أن يؤمنوا بأن هناك خطراً يدبره دجالو البرلمان الديمقراطى بأغلبية الأصوات، والذين تمكنهم أغليبيتهم من سن القوانين، وبالتالي يمكنها أن تستخدم قوة هائلة لمحاربة الماركسية وبذلك ينتهى كل هذا الهراء المتعلق بالبرلمان.

وبدلاً من اللجوء إلى الضمير الديمقراطى، فإن حاملى اللواء الأحمر الدولى يناشدون جماهير العمال فهم يعلمون أنه لن يحدث الصراع فى الجو الهادئ فى البرلمان بل فى المصانع والشوارع، وبعد ذلك تباد الديمقراطية على الفور ويصبح ما فشل المتفقون الذين يتمتعون بذكاء ومهارة عالية والذين يمثلون الناس فى البرلمان فى تحقيقه، ممكناً الآن وبنجاح من خلال مطرقة التجمع العمالى كما حدث فى خريف 1918م. فهم يستطيعون إيقاف الطبقة المتوسطة فى العالم لتشاهد جنون تفكير اليهود الذين اتجهوا لغزو العالم وهذا ما تعارضه الديمقراطية الغربية.

وكما قلت من قبل، فإن الشخص الساذج جداً فقط هو من يستطيع أن يقيد نفسه من

أجل التعرف على قواعد اللعبة، ثم يتحتم عليه مواجهة اللاعب الذى لا تمثل هذه القواعد له أى شيء ولكنه استفاد منها كمجرد خدعة أو وسيلة تخدم مصالحه وأهدافه الشخصية، ذلك يعنى انه سيتخلص منها عندما يتحقق من أنها غير مفيدة لمصالحه.

وتتظر كل الأحزاب التى أعلنت عما يسمى بمبادئ البرجوازية للحياة السياسية على أنها فى الحقيقة نضال من أجل الحصول على مقاعد البرلمان. وذلك فى الوقت الذى لم تعد فيه مبادئهم ومعتقداتهم تستخدم فى هذا النضال، حيث يتم التخلص منها تماماً. فقد تم وضع البرنامج بطريقة تمكنهم معاملته على هذا النحو، ولكن مثل هذه الممارسات يكون لها تأثير ضعيف على قوة تلك الأحزاب، فهم ينقصهم القوة المغناطيسية الجبارة والتى جذبت وحدها عدداً هائلاً من الناس ممن يستجيبون دائماً للقوى الناتجة عن الإيمان الشديد بالأفكار الممزوجة بالحماس الذى لا يقهر من أجل الدفاع عنها.

وفى الوقت الذى يتسلح فيه جانب واحد بكل قوى ومتطلبات الصراع النابع من مفهوم منهجى للحياة قائم على مهاجمة كل ما هو متعارف عليه من نظم، سيكون الجانب الآخر قادراً على المقاومة عندما يستمد عقيدته من إيمان جديد وهو فى هذه الحالة يعتبر عقيدة سياسية، وبناءً على هذه العقيدة لابد أن يتحى الضعيف والجبان من موقع القيادة. كما يتحتم علينا بدلاً من ذلك أن نشير حماس الهجوم الرادع الساق. والجدير بالذكر أن وزراء ما تسمى بالبرجوازية القومية وممثلى بافاريا فى حزب الوسط يتهمون حركتنا الحالية بالتحريض على الثورة، ونحن لا نملك سوى إجابة واحدة للرد على أقزام السياسة هؤلاء. نحن نقول لهم : إننا نحاول أن نصل إلى ما فشلتم فى تحقيقه بسبب غبائكم الإجرامى وأعمالكم البرلمانية التى ساعدت على انهيار وسقوط الأمة، ولكننا بسياستنا الهجومية استطعنا أن نبني مذهباً جديداً سدافع عنه بكل قوة. وبهذه الطريقة نقطع الخطوات التى تتال بها أمتنا الحرة مرة أخرى.

وأثناء المرحلة الأولى التى نبني فيها أولى خطواتنا نحو تأسيس الحركة الجديدة، لابد أن نضع فى عين الاعتبار ألا ينزل فريقنا الذى يحارب من أجل ترسيخ معتقد سياسى رفيع وجديد إلى مستوى مجتمع يروج لأهداف برلمانية.

❖ إلغاء التعاليم الدينية يهدد وجود الإنسان على الأرض..

لذلك كان أول إجراء وقائى هو وضع برنامج يميل نحو تطوير جانب أخلاقى يفرع منه أصحاب الأرواح الضعيفة النافهة التى تضم سياسى الأحزاب الحالية.

وقد قدّمت كل هذه العيوب القائلة التى أدت فى النهاية لسقوط ألمانيا أكبر دليل على صحة كلامنا عندما وجدنا أنه من الضرورى جداً أن نضع أهدافاً حزبية واضحة وبسيطة.

ونتيجة لمعرفةنا بالعيوب السابق ذكرها، أدركنا أنه يجب تكوين مفهوم جديد للأمة والتي أصبحت جزءاً من مفهومنا عن الحياة بصفة عامة.

تساهم أى عقيدة فى محاولة رفع مستوى البشرية فوق مستوى الوجود الحيواني، وذلك يعزز وجودها ويدعمه. وإذا تناولنا البشرية كما هى موجودة اليوم، مع الوضع فى الاعتبار حقيقة أن المعتقدات الدينية التى تم تدعيمها خلال مراحل التعليم تمثل مقاييس أخلاقية فى الحياة العملية، فلو توجب علينا الآن أن نلغى تدريس التعاليم الدينية وعدم استبدالها بأى شيء مساو لها، ربما تكون النتيجة هى تهديد وجود الإنسان على الأرض. فربما لا يعيش الإنسان لمجرد أن يخدم المثل العليا فقط، لكن هذه المثل العليا بدورها وضعت الشروط اللازمة لوجوده كإنسان. وهكذا تغلق الدائرة بدون شك.

إن كلمة دينى تشير إلى بعض الأفكار والمعتقدات الأساسية لكل فرد. ومن بين تلك المعتقدات ما نؤمن به نحن من اعتقاد بخلود الروح، ومستقبل وجودها الأبدى، والإيمان بوجود الخالق الأعلى، إلى غير ذلك من أفكار. لكن كل هذه الأفكار ربما تتعرض لنقد يقوم به أى شخص وإما أن يقبلها أو يرفضها، وهنا يتحول الجانب العاطفى إلى شيء فعال ومحدد من خلال إيمان مذهبى محدد وواضح. ومثل هذا الإيمان يمهّد الطريق للشعور الإيمانى ليعبر عن نفسه، وبذلك يفتح الطريق الذى من خلاله تمارس طقوس تلك الديانة.

وبدون عقيدة واضحة ومحددة، لن يصبح الشعور الدينى لا قيمة له فيما يخص الهدف من وجود الإنسان فقط بل من الممكن أن يسبب حالة من التشويش العام بسبب وجود ميول متعددة مبهمه وغامضة.

وما قلناه على لفظ "دينى" ممكن أن يطبق على لفظ "عادات وتقاليد". فهذه الكلمة تتضمن أفكاراً رئيسية محددة، وعلى الرغم من أهمية هذه الأفكار فهى تقتصر أن هذه المتوارثات المبهمة الغامضة لا يمكن أن تكون لها قيمة كبيرة غير أنها مجرد أفكار، لتصبح عناصر منظمة لتكوين الحزب السياسى، ولمنح قوى فعلية للـ"مثالية" الناتجة عن ظروف المجتمع ككل. كما أنها تلبى كل الحاجات التى تعتبر نتيجة منطقية لهذه المثالية، ومجرد الشعور بالحنين الداخلى، وهى حاجات لا يمكن أن تتحقق بمجرد الاحتياج الكبير لها. كلاً... فعندما يصبح الشعور بالاستقلال مهماً عند الإنسان إلى درجة تجعلنا نحارب من أجله بالقوة الحربية، تتحول الأمنية الحالية للشعب إلى حقيقة ملموسة.

وعلى الرغم من أن أى من تلك الظروف مفيدة جداً للبشرية، فإن يكون لها أى فائدة فعلية لخدمة مصالح الشعب طالما أن مبادئها لن تصبح نقطة التجمع لحركة الجيش وسوف تظل هذه الحركة مجرد حزب عادى حتى تتجه أهدافها نحو النجاح وتتحول أنشطة الحزب إلى بناء الدولة الجديدة التى تعطى مجتمع الوطنى هيئته النهائية.

وإذا أردنا أن نخترق المعنى الداخلى للفظ "الأعراف" فسوف نصل للنتائج التالية :

المفهوم السياسى الحالى فى العالم هو أن الدولة - على الرغم من امتلاكها قوى مبدعة- لا تستطيع أن تبنى الحضارة وليس لديها شيء مشترك مع المفهوم العرقى أو الطبقي كأساس للدولة. وتعتبر الدولة شيئاً ناتجاً من ضرورة اقتصادية أو بالأحرى النتيجة الطبيعية للقوى السياسية والثورية. ومثل ذلك المفهوم عن تأسيس الدولة مع كل نتائجه المنطقية، لا يتجاهل القوى العرقية التى شكّلت الدولة فقط، بل يؤدى إلى سياسة تقلل من أهميه الفرد. فلو أنكرنا اختلاف طبقات الشعب عن بعضها فى قوة إبداعها الثقافى، فسيجب على هذا الشعب المخطئ أن يؤثر فى تقديرنا لقيمة الفرد. أما إذا فرضنا أن كل الطبقات متشابهة، فبناءً عليه تكون كل الأمم وأفرادها مساوين لبعضهم.

❖ | الماركسية واليهود!!

لم تقدم الماركسية الدولية أى شيء سوى تطبيق أفكار اليهودى كارل ماركس حول المفهوم العام للحياة طبقاً لاعتقاد سياسى محدد، ولكن فى الواقع فإن هذا المفهوم العام كان موجوداً قبل ظهور كارل ماركس، فلو لم يكن هذا المفهوم موجوداً بالفعل بطريقة واسعة الانتشار، لما استطاع التقدم السياسى الهائل للتعالم الماركسية أن يمضى فى طريقه أبداً. أما ما يميز كارل ماركس عن الملايين ممن تأثروا بنفس الطريقة هو أنه عاش فى دولة تتحلل تدريجياً، فاستطاع أن يستخدم قواه المتحمسة للبرجوازية لاكتشاف السموم الرئيسية، ومن ثم استخلصها وتركيزها بطريقة ساحرة وتقديمها بطريقة ربما تؤدى إلى الدمار السريع للأمم المستقلة فى العالم. ولكن حدث كل هذا لخدمة الدولة التى ينتمى إليها.

وبذلك فإن مذهب الماركسية هو الخلاصة المفيدة للعقلية التى شكّلت المفهوم العام للحياة اليوم. لهذا السبب فقط يكون التفكير فى أن ما يسمى بالعالم البرجوازي يستطيع أن يشن معركة فعالة ضد الماركسية- أمراً مستبعداً وسخيفاً. فقد تم اختراق العالم البرجوازي بنفس السموم والمفاهيم عن الحياة، وهى تختلف عن الماركسية فى صفة ودرجة الشخص الذى يضعها فقط. فعالم البرجوازية هو نفسه عالم الماركسية مع اختلاف أنه يعتقد فى إمكانية استطاعة مجموعة معينة من الناس أن تسيطر على العالم، ولكن الماركسية تهدف إلى تسليم العالم لليهود بشكل منظم.

❖ | لا للأعراق الزنجية والمهجنة.. ونعم للجنس الآري!

ومع كل هذا فإن المفهوم العالمى "للأعراف" يكشف أن العناصر العرقية البدائية لها مغزى عظيم للبشرية، حيث ينظر إلى الدولة على أنها وسيلة للوصول إلى غاية، وهذه

الغاية هي حماية السمات العرقية للبشر. ومن ثم، فإننا تبعاً للأعراف لا نعتقد أن الأجناس متساوية. فإذا ما أدركنا أنها مختلفة، فإنها بالتالي تنقسم إلى أجناس عليا وأجناس دنيا. فإذا ما أدركنا ذلك فلا بد من الرضا بالإرادة الإلهية التي تسيطر على الكون. وأن نسلم ببقاء الأصلح والأقوى وخضوع الأدنى والأضعف. لذلك يبدو أن المبادئ التي تعمل الطبيعة من خلالها هي مبادئ أرسطراطية، وهي نعتقد أن تلك القوانين التي ذكرتها صالحة حتى آخر كائن بشرى على وجه الأرض. وتتفق الطبيعة أفرداً من بين جماهير الناس لتنظيم تلك المبادئ، بينما تعتبر الماركسية عاملاً من عوامل التحلل. كما أن الأعراف المتوارثة تؤمن بضرورة وجود المثل، وذلك لأنها شرط ضروري لوجود الإنسان نفسه، لكنها تنكر من جهة أخرى حق التسيد إن كان يهدد وجود جنس يعتبر معياراً للمثل العرقية العليا. فالعالم المكون من الأعراق الزنجية والمهجنة يفقد كل معايير الجمال البشرى والنبيل وكل أمل في مستقبل مثالي للإنسانية وإلى الأبد.

في كوكبنا هذا ترتبط الثقافة البشرية والحضارة بوجود الجنس الآري. فإذا أريد أو استبعد، فإن فترة جديدة من البربرية الهمجية سوف تجتاح العالم.

إن من يعتقدون بأن الأعراف مرتبطة بوجود الثقافة سوف يعتبرون أن إضعاف وجود الثقافة الإنسانية عن طريق إبادة مؤسسيها ورعاتها جريمة نكراء. فمن يقدم على التجزؤ على الله وهو بين عباده يكون قد ارتكب خطيئة في حق خالق الكون وسيحرم من دخول الجنة.

وكلنا يشعر أن كثيراً من الناس سيضطرون في المستقبل إلى مواجهة المشكلات التي يمكن أن تتغلب عليها الأجناس البشرية الراقية فقط، وهو الجنس الذي يقدر له أن يكون سيداً على جميع الشعوب الأخرى والذي يملك كل الوسائل والموارد في هذا العالم.

ومن الواضح أن تلك الصورة الفلكلورية للعالم يمكن أن تفسر بألف طريقة مختلفة. وفي الحقيقة، يصعب أن نجد حركة واحدة من حركاتنا السياسية الحديثة لم تشر إلى هذا المفهوم في موضع ما. لكن لأن هذا المفهوم لا يزال محافظاً على استقلاله في هذا العالم في مواجهة من يرون أن الحياة تختلف عن ذلك تماماً.

❖ المفاهيم المزيفة للماركسية!

لذلك فإن مفهوم الماركسية الذي توجهه منظمة مركزية لها سلطة مطلقة يواجه معارضة من أغلب الآراء غير المؤثرة في الجماهير. ولا يمكن تحقيق النجاح باستخدام مثل هذا السلاح الضعيف. ولكن فقط عندما تواجه الفكرة الدولية - التي أعدها

الماركسية- أفكاراً متوارثة منظمة بطريقة جيدة، تستطيع القوة القتالية لأحد المعسكرين أن تواجه القوة الأخرى على قدم المساواة، وسوف تحرز الحقيقة الأبدية نصراً مؤزراً.

لكن لا يمكن تجسيد المعنى الحقيقي للحياة إلا بعد أن تتكون بدقة ووضوح. ويتساوى ما تحققه العقيدة على مستوى الدين مع ما تحققه مبادئ الحزب للحزب السياسى أثناء تكوينه. لذلك فمن الضرورى لمفهوم الحياة القائمة على المتوارث من الأعراف أن تواجه المفاهيم المزيفة - مثل الماركسية - والتي تحاول أن تمهد الطريق لمبدأ العالمية بقوة. وهذا هو ما يسعى حزب العمل القومى الألمانى إلى تحقيقه.

لذلك فلا بد من تكوين مفهوم شعبى محدد يمكنه أن يندمج عضواً مع الحزب. وهذا مطلب أساسى لتحقيق النجاح لهذه الفكرة.

لذلك فقد رأيت أن من واجبى بصفة خاصة أن أستخرج من هذه الأفكار المكثفة المبهمه مفهوماً عاماً يحتوى على الأفكار الضرورية على أن تخرج بطريقة ما فى هيئة معتقدات. ولأن هذه الأفكار دقيقة وواضحة المعانى فإنها تناسب تكوين جبهة موحدة تجمع كل من يقبل بها كمبادئ، أو بمعنى آخر، فإن حزب العمل الاشتراكى الألمانى القومى يلخص أهم المبادئ التى يقوم عليها المفهوم العام للعالم طبقاً لما ورد فى المتوارث من الأفكار. وبناء على تلك الأفكار تم إنشاء مذهب سياسى يضع فى اعتباره كل الحقائق العملية للعصر الحالى وطبيعة العصر والطاقة البشرية المتاحة وكل أوجه النقص فيها. ومن خلال هذا المذهب السياسى يمكن أن تتضم جماهير الشعب إلى مؤسسة تقوم على أساس صلب قدر الإمكان. وهذه المنظمة ما هى إلا تمهيد ضرورى لتحقيق الانتصار النهائى لتلك المثل.





اتهمت جهات محددة تنتمي إلى البرجوازية العاجزة في عامي 1920-1921م حركتنا مرة أخرى بأنها اتخذت موقفاً سلبياً تجاه الدولة الجديدة. لهذا السبب افترضت جماعة تتبع ذلك المعسكر وتنتمي لأحزاب سياسية مختلفة - ويمثلون آراء سياسية مختلفة بالطبع - حق استعمال كل الوسائل المتاحة لقمع أنصار هذه الحركة الضعيفة التي تنشر أفكار سياسية جديدة. لقد تعمد معارضونا تجاهل حقيقة أن الطبقة البرجوازية نفسها ليس لها رأي موحد حول المعنى الفعلي للدولة، ولم تستطع البرجوازية ولن تستطيع أن تقدم تعريفاً قوياً لهذا النظام. إن من تكمن مهمتهم في شرح ما نقصده عندما نتحدث عن الدولة يسيطرون على مراكز مرموقة داخل جامعات الدولة، وغالباً ما يتواجدون في قسم القانون الدستوري، ويعتبرون أسمى مهمة لهم هي إيجاد مبررات وتفسيرات للحظ الجيد أو السيئ المسبب لوجود هذا الشكل المحدد للدولة التي تمدهم بقوت يومهم، وكلما كان هيكل الدولة نافعاً، كانت التعريفات التي وضعت لشرح غرض وجودها غامضة ومفتعلة. فعلى سبيل المثال، ما الذي يستطيع أن يكتبه أستاذ جامعي يدين بالولاء للعائلة المالكة عن معنى وهدف الدولة في بلد يمثل هيكلها أعظم مسخ في القرن العشرين؟ هذه مهمة صعبة بالتأكيد، حيث إن الأستاذ الجامعي الحالي للقانون الدستوري لم يطلب منه جدياً أن يقول الحقيقة، لكنه يعمل من أجل خدمة غرض معين محدد وواضح. وهذا الغرض هو الدفاع عن وجود الآلة البشرية البشعة التي نطلق عليها الآن "الدولة" مهما كانت التكاليف. لن يتعجب أحد إذا تجنب هذا الأستاذ الحقائق الواضحة قدر الإمكان عند مناقشة مشكلة الدولة، وإذا استخدم أساتذة الجامعة وسائل لإخفاء أنفسهم في مستتق من القيم الغامضة والواجبات والأغراض التي يسمونها الأخلاق والمثل العليا.

وبشكل عام يمكن تقسيم مختلف العلماء النظريين إلى ثلاث مجموعات :

1- المجموعة الأولى تتكون من هؤلاء الذين يعتبرون أن الدولة هي تجمع تطوعي من الرجال المؤيدين لطاعة السلطة الحاكمة واستمرارها.

وهذه المجموعة هي الأكبر عدداً، ويوجد من بين أفرادها أولئك الذين يقدسون المبدأ الحالي للسلطة الشرعية. وهم يرون أن إرادة الشعب ليس لها أي دخل في جميع الشئون، فوجود الدولة بالنسبة لهم هو سبب كاف لاعتبارها مقدسة ومنيعة. ولقبول هذا التشويه

للعقل البشري، يتحتم على المرء أن يكون لديه نوع من الإعجاب أو التقديس لما يسمى بسلطة الدولة. وطبقاً لتفكير هؤلاء الناس فإن القيم تم استبدالها بنوع من خفة اليد. فلم تعد الدولة موجودة من أجل خدمة الشعب، ولكن الشعب موجود من أجل تقديس سلطة الدولة، وتلك المهمة متاحة حتى لأصغر مسئول رسمي. فسلطة الدولة تم تحديدها ببساطة لمهمة حفظ النظام. ومع ذلك فهي ليست وسيلة أو حتى غاية. ويجب على الدولة أن تتأكد من الحفاظ على سلامة وانتظام عامة الشعب الذي يتحتم عليه بالتالي أن يعضد وجود الدولة، فالحياة كلها يجب أن تمضي بين هذين القطبين. وفي بافاريا يلقى هذا الرأي تأييداً من قبل السياسيين الماكريين في حزب الوسط البافاري الذي يسمى حزب الشعب البافاري. وفي النمسا يتبنى رجال القانون فكرة مشابهة لسوء الحظ. وفي داخل ألمانيا - لسوء الحظ - تتبع العناصر المسماة بالمحافظين نفس هذا التفكير.

2- المجموعة الثانية أقل عدداً إلى حد ما وتضم هؤلاء الذين من الممكن أن يجعلوا وجود الدولة - الذي يعتمد على بعض الشروط - ممكناً. وهم يصرون على أنه لا يجب أن يكون هناك نظام موحد فقط، بل يجب أن تستعمل لغة واحدة إن أمكن. وبناء على هذا الرأي، لم تعد سلطة الدولة هي الغاية الوحيدة من وجود الدولة. بل يجب أن تعمل الدولة أيضاً على تحقيق مصالح رعاياها. وتتدخل أفكار الحرية - بمعنى خاطئ في الغالب - في عقول أبناء هذه الطبقة مع مفهوم الدولة كما تتخيلها عقولهم. كما أن طريقة الحكم لم تعد محكمة وذلك لمجرد أنها موجودة. لكن، لا بد من إجراء اختبار كفاءة لها. وبينما يمنعها عمرها الموقر من التعرض للنقد. كما أن أول واجب يلقى على عاتقها هو رفاهية أفراد الشعب. لذلك فإن الحكم على الحكومة يتم من الناحية العملية وطبقاً لمبادئ عامة تقوم عليها فكرة العائدات الاقتصادية. وأهم من يمثل تلك النظرية هم الطبقة البرجوازية الألمانية وخاصة الديمقراطيين الأحرار.

❖ تعلم اللغة الألمانية ليس كافياً لتكون ألمانيا خالصاً..

3- أما المجموعة الثالثة فهي الأقل عدداً، وهم يرون أن الدولة وسيلة لتحقيق الميول الناتجة عن سياسة القوة بين مجموعة من الناس المتجانسين عرقياً، ممن يتحدثون نفس اللغة، ولكن هؤلاء الذين يؤمنون بهذا الرأي لم يوضحوا معنى "الميول الناتجة عن سياسة القوة". كما أنهم اشتراطوا وجود لغة واحدة ليس لأنهم يريدون بذلك أن تكون الدولة مجهزة بقاعدة صلبة لمد قوتها خارج الحدود فقط، ولكن أيضاً لأنهم يعتقدون أن اللغة المشتركة سوف تمكنهم من توجيه العملية الوطنية في اتجاه محدد - وهم مخطئون في ذلك.

وخلال القرن الماضي، كان من المحزن لمن عاشوا فيه ولاحظوا كيف ذكرت كلمة "ألمنة" في الدوائر التي ذكرت من قبل، وكيف تم التلاعب بها، على الرغم من الإعدادات الجيدة، سوف أتذكر كيف كانت هذه العبارة في أيام شبابي تشجع على الآراء الخاطئة جداً حتى في داخل ألمانيا كان هناك من يرى أنه من المحتمل أن ينجح الألمان النمساويون بجدارة في ألمنة العبيد النمساويين، وذلك فقط إن أبدت الحكومة تعاونها معهم. وهؤلاء الناس لم يفهموا أن سياسة الألمنة يمكن أن تنفذ فقط فيما يتعلق بالبشر العاديين. فقد ظنوا أن كلمة ألمنة تعني إجبار الآخرين على التحدث باللغة الألمانية، كما أنهم لم يدركوا حجم الخطأ الناتج عن الاعتقاد أنه يمكن لشخص صيني أو زنجي أن يصبح ألمانيا لأنه تعلم اللغة الألمانية ويرغب في التحدث بها في المستقبل، وهذا يمكنه من الإدلاء بصوته في الانتخابات لصالح حزب سياسي ألماني. فالوطنيون العاديون لا يدركون أبداً أن مثل تلك الألمنة في الحقيقة هي عملية "لإلغاء الألمنة" وحتى لو تم التغلب على كل الفروق الواضحة والبارزة بين مختلف الشعوب باستخدام اللغة الواحدة، فمن المحتمل أن تكون النتيجة هو عملية من الغش، وفي هذه الحالة لن تدل على الألمنة، ولكن ستشير إلى إبادة العنصر الألماني. وكثيراً ما نجح جنس راق - عبر التاريخ - باستخدام القوة في إجبار الشعوب المقهورة على التحدث بلغته، وبعد آلاف السنين تنتقل لغته إلى كثير من الشعوب الأخرى، وبذلك يتحول المستعمرون إلى المقهورين.

✦ | النسب هو المعيار الصحيح وليس اللغة!

إن ما يصنع الشعب، أو بمعنى أدق جنس من الأجناس هو النسب وليس اللغة، لذلك يمكننا أن نتحدث عن الألمنة، وذلك فقط لو تمكنت هذه العملية من تغيير أصل الشعوب التي ستخضع لها، وهذا مستحيل أن يحدث. فمن الممكن أن يحدث التغيير فقط عن طريق اختلاط الأجناس، ولكن في هذه الحالة فإن صفات الأجناس العليا سوف تتخفف. وربما تكون النتيجة الأخيرة لمثل ذلك الخليط هي تدمير هذه الصفات تماماً، وهي نفس الصفات التي مكنت الجنس المحتل من تحقيق النصر على شعوب ضعاف، ويحدث ذلك بوجه خاص في الإبداع الثقافي الذي يخفى عندما تختلط طبقات الأجناس العليا والسفلى معاً، ومع ذلك فإن محصلة هذا الجنس المهجن لا بد أن تبرع في التحدث بلغة الجنس الذي كان هو الأعلى في السابق. حيث سيكون هناك صراع بين العقلية المختلفة لفترة معينة، وربما تجمع أمة ما - في دولة يتزايد فيها الفساد - قوة إبداعها الثقافي في آخر لحظة، ثم تخرج لنا أمثلة مدهشة لهذه القوة مرة أخرى. وهذا ينتج عن نشاط العناصر التي بقيت من الجنس الأعلى، أو الهجين الأول الذي يسعى إلى الدفاع عن نفسه، والذي تسيطر عليه

صفات الجنس الأعلى. ولكن ذلك لن يحدث أبداً حتى مع الأجيال اللاحقة من هذا الهجين، حيث سيعيشون في دولة متخلفة ثقافياً.

ومن حسن الحظ أن خطة جوزيف الثاني للألمنة النمسا لم تنجح، فلربما كانت النتيجة أن تتمكن دولة النمسا من الاستمرار، لكن استخدام اللغة المشتركة في تلك الحالة كان سيؤثر على صفات الجنس الألماني. فقد يتطور جنس ما عبر مرور القرون، لكن صفاته تتدهور في نفس الوقت. وربما تنشأ دولة قومية، لكن يخفى منها المثقفون.

وكان من الأفضل للأمة الألمانية ألا تتعرض لعملية اختلاط الأجناس هذه، فعلى الرغم من أن الأمة الألمانية مليئة بالعقول الجيدة والقدرات العالية، إلا أن بها أمثلة قليلة على قصر النظر ومنها مثال أسرة "هابسبرج". ولو كان هذا الاختلاط قد حدث، لم يكن من الممكن اعتبار الألمان الآن كعنصر ثقافي متحضر.

كان ما يسمى بالدوائر الوطنية في النمسا وألمانيا ولا تزال تحت تأثير أفكار خاطئة منشابهة.

❖ فشل سياسة الألمنة مع البولنديين واليهود!

ولسوء الحظ فقد طالب كثيرون بالسياسة التي اتبعت مع بولندا من أجل ألمنة الشرق، وكانت هذه السياسة تعتمد على نفس المبررات الخاطئة. وهنا مرة أخرى، كان من المعتقد أن البولنديين من الممكن أن يتألمنوا عن طريق إجبارهم على التحدث باللغة الألمانية، وكانت النتيجة قاتلة. حيث يستخدم شعب من جنس أجنبي اللغة الألمانية ليعبر بها عن طريقة تفكيره التي تعتبر غريبة عن الألمان، وكانت النتيجة هي التوصل إلى وضع وسط بين الرداءة وكرامة ونبيل أمتنا.

من المؤسف أن نفكر في حجم الخسارة التي تعرضت لها المكانة الألمانية بطريقة غير مباشرة اليوم عندما دخل اليهود الولايات المتحدة على أنهم ألمان وذلك راجع إلى أن كثيراً من الأمريكيين يجهلون أحوال ألمانيا. ولم يحاول أحد منا التفكير في اعتبار هؤلاء النازحين غير الشرعيين من الشرق كأفراد في الأمة الألمانية والجنس الألماني لمجرد أنهم يتحدثون اللغة الألمانية.

لكن الأرض التي استول عليها أسلافنا واستعمروها بقوة السلاح قد تطبعت بالطابع الألماني. ولقد قام مواطنونا بالاختلاط مع أجناس أجنبية في تلك المستعمرات، ولقد ساعد ذلك على تفكك صفاتنا العرقية، كما أدى إلى تغلغل تلك الصفات في الشخصية الألمانية، فجعلتها تتصف بالأنانية الفردية، وهذه هي الصفة التي تمتدح علناً الآن.

وفى هذه المجموعة الثالثة أيضا يوجد أشخاص يعتقدون - إلى حد ما - أن الدولة هي غاية فى حد ذاتها. لذلك يرون أن الحفاظ عليها هو أحد الأهداف السامية لوجود الإنسان، ومن ممكن أن نلخص تحليلنا لذلك كالتالى :

كل هذه الآراء تشترك فى صفة واحدة وهى الفشل، وذلك لأنهم غير قادرين على إدراك حقيقة ثابتة وهى أن القدرة على إبداع قيم حضارية تعتمد فى الأساس على عامل الجنس. وطبقاً لهذه الحقيقة، فإن الهدف الأسمى للدولة هو الحفاظ على هذا الجنس وتطويره، إنها مهمة لا غنى عنها من أجل تقدم حضارة الإنسان.

لذلك كان اليهودى كارل ماركس قادراً على وضع الاستنتاجات النهائية من هذه المفاهيم و الأفكار الخاطئة عن طبيعة وهدف الدولة. وقد استبعد من مفهوم الدولة أى التزام للدولة تجاه الجنس، لكنه لم يضع أى وصفة أخرى يمكن أن يتم الاتفاق عليها دولياً، كما أن التعاليم البرجوازية قد مهدت الطريق أمام هذا المذهب الذى يرفض مفهوم الدولة بهذه الطريقة.

وقد قُدر للنضال البرجوازي ضد التدويل الماركسى الفشل فى هذا المجال. حيث ضحت الطبقات البرجوازية بالفعل بالمبادئ الأساسية التى كانت فى حد ذاتها أساساً متيناً. ولقد لاحظ خصمهم الماكر ذلك الخلل فى بنائهم، ومهد للهجوم عليهم بتلك الأسلحة التى سلموها له بأنفسهم، دون قصد بالطبع.

لذلك فإن أى حركة جديدة تعتمد على المفهوم العنصرى للعالم سيكون عليها أولاً أن تضع مذهباً منطقياً واضحاً لطبيعة الدولة والهدف منها.

❖ | الإنسان الآرى هو حارس الحضارة!

والمبدأ الرئيسى فى ذلك هو أن الدولة ليست غاية فى حد ذاتها ولكنها وسيلة للوصول إلى غاية. وهى شرط ضرورى أولى يمكن من قيام حضارة إنسانية وتطورها، ولكنها ليست مصدر هذا التطور. وهذا ما تسعى الأجناس الموهوبة والخلقة إلى تحقيقه. فربما يكون هناك المئات من الدول الرائعة على هذه الأرض، لكن إذا كان على الإنسان الآرى المبدع وحارس الحضارة أن يختفى، فكل الحضارات المماثلة من حضارات الأمم العليا ستختفى أيضاً اليوم. ومن الممكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك ونقول: إن الدول التى تنشأ بفعل الإنسان لا تنفى احتمال انقراض الجنس البشرى، لأن المقدره الذهنية القوية والقدرة على التأقلم تختفيان باختفاء حاملى هذه الصفات.

وعلى سبيل المثال لو تحتم على سطح الأرض أن يهتز اليوم بفعل هزات زلزالية، ولو ظهرت جبال هملايا جديدة من بين أمواج البحر، فهذه الكارثة من الممكن أن تبيد حضارة

الإنسان. ولن تستطيع أى دولة البقاء، وستتحطم كل الأنظمة وتختفى كل آثار الإنتاج الثقافي التى نمت خلال آلاف السنين، ولن يتبقى شيء إلا الموت والدمار فى فيضانات من الماء والوحل. ومع كل ذلك لو قدر لقليل من الناس أن ينجوا من هذا الهلاك الفظيع - ولو كان هؤلاء الناس ينتمون لجنس معين يملك قوة فطرية تمكنه من بناء الحضارة عندما ينتهى اضطراب الأرض - فستشهد الأرض قوى إبداعية للروح الإنسانية تمتد إلى آلاف السنين مره أخرى. أما لو أبيد آخر جنس يملك مقدرة الإبداع الثقافي واختفى جميع أفراد هذا الجنس، سيتحول كوكب الأرض بالتأكيد لصحراء. ومن جهة أخرى فإن التاريخ المعاصر يقدم أمثلة توضح أن الكيانات القديمة التى تدين بوجودها لأفراد جنس يفتر إلى عبقرية الإبداع، لا تنوم فترة طويلة. وهناك كذلك كثير من الحيوانات المختلفة التى عاشت قبل الميلاد وتحتم عليها أن تستسلم للآخرين، ولم تترك أى أثر خلفها. لذلك فإن الإنسان يستسلم أيضاً إذا فقد المقدرة التى تمكنه من إيجاد الأسلحة الضرورية التى يحافظ بها على وجوده.

✦ الجنس الأرى تميز بقدرات إبداعية رائعة!

والدولة التى وُصفت لا تحقق تقدماً ثقافياً واضحاً ومحدداً. حيث تستطيع هذه الدولة أن تحمى الجنس المسبب لهذا التقدم فقط. كما تستطيع أن تتأسس دون أن تعانى من أى تغيير لمئات السنين، على الرغم من أن القدرات الثقافية والحياة العامة للناس - التى شكلتها تلك القدرات - ربما تكون قد عانت من تغييرات عميقة لأن الدولة لم تمنع اختلاط الأجناس. فمن الممكن أن تظل الدولة الحالية - على سبيل المثال - موجودة بطريقة آلية، لكن سم اختلاط الأجناس الذى يتخلل جسد الوطن قد تسبب فى انحطاط ثقافى أعرب عن نفسه بالفعل بظهور أعراض متعددة وشخصيات ضارة⁽¹⁾.

وهكذا فإن الدولة ليست الشرط الضرورى اللازم لوجود الصفات العليا للإنسان، ولكن الجنس وحده قادر على إنتاج تلك الصفات البشرية الراقية.

وهذه المقدرة موجودة دائماً، على الرغم من أنها ستظل ساكنة حتى تثيرها عوامل خارجية وتحثها على التصرف. إن الأمم أو بالأحرى الأجناس التى تتمتع بالقدرة على الإبداع الثقافي، تمتلك تلك المقدرة التى تكمن خلال الفترات التى تكون الظروف المحيطة بها سلبية ولا تسمح لتلك القدرة أن تعبر عن نفسها بشكل فعال. لذلك فإن التحدث عن الألمان ووصفهم بالبرابرة الذين لا يتمتعون بأى حضارة قبل وجود المسيحية يعتبر

(1) وبسبب هذه النزعة العنصرية البغيضة خسر هنتر الحرب فيبعد أن كانت الشعوب المقهورة والتى تزرع تحت الحكم السوفيتى تستقبل الجنود الألمان بالورود. ودعّوهم بالرصاصة واللغات! (الناشر).

تصرفاً غير عادل وهجومى، فهم لم يكونوا كذلك أبداً، ولكن شدة المناخ الذى ساد فى المناطق الشمالية الأهلة بالسكان وظروف حياة قيدت التطور الحر لقدراتهم الإبداعية. ولو كانوا قد تمتعوا بمناخ الجنوب المعتدل بدون وجود أى حضارة مسبقة، وكان لديهم عدد كاف من البشر اللازم للعمل، فربما استطاعت القدرة الحضارية الكامنة داخلهم أن تتفجر وتبرز بشكل رائع، كما حدث فى اليونان على سبيل المثال. ولكن هذه المقدرة الحضارية ليست مرتبطة بالمناخ الشمالي، فلو انتقل الإسكيمو إلى الجنوب، فربما لن يكونوا مبدعين ثقافياً. كلا، هذه القدرة الإبداعية الرائعة هى هدية مميزة ممنوحة للآرى سواء كانت كامنة داخله، أو أصبحت نشطة، وسواء منعت الظروف المعادية للطبيعة من التعبير الفعال عن تلك المقدرة أو سمحت بها.

نستنتج من هذه الحقائق ما يلى :

❖ | الدولة والحفاظ على الجنس!

الدولة هى مجرد وسيلة للوصول إلى غاية، وهدفها وغايتها هى الحفاظ على مجتمع من البشر الأقرباء من الناحية الجسدية والروحية وتحسين أحواله. وفوق كل ذلك، لابد أن تحافظ الدولة على وجود الجنس، وبذلك تتيح كل ما هو ضرورى للتطور الحر لكل القدرات الساكنة داخل هذا الجنس. فجزء كبير جداً من هذه القدرات يستخدم فى البداية للحفاظ على الوجود الجسماني لهذا الجنس، وجزء صغير فقط سيكون حراً للعمل فى مجال التقدم الفكرى. لكن فى الحقيقة، كلاهما لا يستغنى عن الآخر.

أما تلك الدول التى لا تهدف إلى تحقيق ذلك فليس لديها أى مبرر لوجودها. وهى مجرد كيانات ممسوخة، حقيقة وجودها ليست أكثر من مجرد تبرير، مثلها فى ذلك مثل الغارات الناجحة لفرقة من القراصنة، التى تعتبر تبريراً للقراصنة.

أما نحن الاشتراكيين الوطنيين الذين نحارب من أجل إيجاد مذهب جديد، فيجب ألا نعتد أبداً على الحقائق البديهية، وخاصة تلك الحقائق الخاطئة، ولو فعلنا ذلك، فإننا لن نكون رواد الفكرة الجديدة العظيمة، ومن الممكن أن نصبح عبيداً فى خدمة الخداع السائد اليوم. فلا بد أن نفرق بوضوح بين السفينة، وما تحتويه. فالدولة فقط هى السفينة، والجنس الآرى هو ما تحتويه هذه السفينة. وهى سفينة ذات قيمة إذا حافظت على محتوياتها وقامت بحمايتها فقط، وإلا ستصبح عديمة القيمة.

من هنا نجد أن الهدف الأسمى للدولة هو حماية وحفظ عناصر الجنس التى - من خلال أعمالها - خلقت ذلك الجمال بما قدمته من أعمال ثقافية فحافظت على الكرامة وهى الصفات البشرية العالية للإنسان. ويمكننا كآريين أن نعتبر الدولة كائناً حياً بين ناس، كائناً

لا يحافظ فقط على وجود الناس ولكنه كائن يعمل بطريقة ما تؤدي بالشعب إلى قدر كبير من الحرية، من خلال التطوير المستمر للقدرات الثقافية والعقلية.

❖ الوحدة العنصرية والزواج!!

إن ما يريدون أن يفرضوه علينا كدولة هو في أغلب الحالات لا شيء سوى مسخ ضخم الجثة، وهو ناتج انحراف إنساني شديد يؤدي إلى معاناة هائلة.

أما نحن الاشتراكيين الوطنيين فنعلم أن آراءنا هذه تعتبر آراء ثورية في عالم اليوم وبذلك نعتبر كثوريين. ولكن آراءنا وتصرفاتنا لن يحددها استحسان أو عدم استحسان نظرائنا، ولكن واجبنا في أن نتبع الحقيقة الواضحة. وبهذا يكون لدينا سبب كاف يجعل الأجيال القادمة تصدقنا وتفهم جيداً كل ما نفعله اليوم، ولن يفهموا العمل الذي نقوم به اليوم فقط، بل سيعترفون جميعاً به كعمل صحيح.

وبناء على هذه المبادئ، فإننا نحن الاشتراكيين الوطنيين نعتمد في مستوى قيمنا على تقييم الدولة. هذه القيمة تكون نسبية عندما نعتمد على وجهة نظر معينة لأمة واحدة، ولكنها ستكون مؤكدة عندما نعتمد على وجهة نظر بشرية بشكل عام. أي أنه وبمعنى آخر:

لا يمكن أن نحكم على عظمة الدولة من خلال مستوى حضارتها أو درجة الأهمية التي يوليها العالم الخارجى لقوتها، ولكن يجب أن نحكم على عظمة الدولة من خلال مدى خدمة قوانينها للسلالة العنصرية التي تنتمي إليها.

ومن الممكن أن نعتبر الدولة نموذجية إن هي لم تقدم الاحتياجات الحيوية للجنس الذي تمثله فقط، ولكن إذا استطاعت أيضاً - من خلال وجودها - أن تحافظ على نفس الجنس، وذلك بغض النظر عن الفكرة الثقافية التي تتكون عنها في بقية أنحاء العالم. فليس من مهام الدولة أن تخلق قدرات بشرية ولكنها تقدم الإمكانيات الحرة لتدريب تلك القدرات الموجودة فعلاً. وعلى الجانب الآخر، من الممكن أن نصف الدولة بأنها سيئة لو انتهت بها مصيرها لدمار حاملي تلك الثقافة من خلال تمزيق وحدتهم العنصرية - على الرغم من وجود مستوى حضارى عالمي محيط بها. ومرة أخرى دعونيؤكد حقيقة أن الدولة نفسها ليست الجوهر ولكنها مجرد هيكل. لذلك فلا يمكن اعتبار المستوى الحضارى مقياساً نحكم به على قيمة الدولة التي يعيش فيها الشعب. فمن الواضح أن الشعب الذى يتمتع بقوى إبداعية عالية فى المجال الحضارى يستحق أكثر مما تستحقه قبيلة من الزواج. وذلك على الرغم من أننا لو حكمنا على حكومة هذا الشعب المبدع فقد نجدها - من ناحية الكفاءة - أسوأ من حكومة الزواج. فأفضل الدول والمؤسسات لا تستطيع أن

تخرج قدرات وإبداعات من أشخاص لا يملكونها ولن يملكوها أبداً. ولكن الدولة السيئة يمكنها أن تدمر القدرات التي كانت موجودة يوماً ما بالتدريج. ومن الممكن أن يحدث هذا من خلال السماح بكبت حاملي ثقافة جنس ما والترحيب بذلك.

وهكذا، فإن قيمة الدولة يجب أن تحدد من خلال مدى نجاحها في تحسين جنس محدد وليس بالدور الذي تلعبه في العالم ككل. ومن الممكن تقدير القيمة النسبية للدولة بسهولة ودقه، ولكن من الصعب أن نحكم على قيمتها المطلقة لأن ذلك لا يشمل الدولة فقط، ولكن المستوى الحضارى للشعب الذى ينتمى إلى الدولة موضوع البحث.

لذلك، فعندما نتحدث عن المهمة العليا للدولة، يجب ألا ننسى أن تلك المهمة ذات علاقة بالشعب، وكل ما تقوم به الدولة هو استخدام قدراتها التنظيمية بغرض توفير الشروط الأساسية التى تسمح للشعب بالتعبير عن قدراته الإبداعية بحرية. ولو تساءلنا عن نوع مؤسسة الدولة التى نحتاجها نحن الألمان، فيجب علينا أولاً أن نكون لدينا فكرة واضحة عن الشعب الذى سترعاه هذه الدولة وكذلك الهدف الذى ستقوم بخدمته.

❖ ألمانيا سيدة العالم!!

ولسوء الحظ، لا يعتمد الوجود الألماني على جنس واحد. كما أن عملية التحام العناصر الأصلية معاً لم تحقق نجاحاً يمكننا من القول بأن هناك جنساً جديداً قد ظهر. ولكن على العكس تماماً، فالسلم الذى غزا جسم الوطن - وخاصة منذ حرب الثلاثين عاماً - قد دمر النظام الموحد ليس فقط لجنسنا البشرى ولكن أيضاً لروحنا الوطنية. إن الحدود المفتوحة لدولتنا والاتحاد مع العناصر الأجنبية غير المحلية فى الأراضى التى تمتد على طول تلك الحدود والتدفق القوى للأجناس الأجنبية داخل ألمانيا نفسها قد منعت أى تماسك متكامل لتلك العناصر المختلفة، فقد استمر هذا التدفق بشدة. واستمرت العناصر المتباينة فى البقاء جنباً إلى جنب. وكانت النتيجة - وخاصة فى أوقات الأزمات التى تجمع الكل - هى تفرق الألمان فى جميع الاتجاهات. كما أن الأجناس الأساسية ليست مختلفة فى الأقاليم أو المقاطعات فقط، ولكن هناك أيضاً أجناساً مختلفة فى المناطق المنعزلة. فهذا من الشمال وهذا من شرق أوروبا، وقد اختلط بهم الجنس الغربى وتزاوجوا. وهذا عيب خطير، حيث يفتقر الألمان من خلاله إلى الغريزة القوية الناتجة عن وحدة الجنس، والتى تحافظ على الأمم من الدمار فى الأوقات الصعبة والخطيرة، ففى مثل تلك الظروف تختفى الفروق البسيطة فيواجه العدو شعباً واحداً. إن ما نفهمه من كلمة الفردية الشديدة ناشئ من أن أجناسنا البدائية كانت موجودة جنباً إلى جنب دون أى اندماج فيما بينها. وهذه الحالة تعتبر ميزة جيدة فى وقت السلم، لكنها قد تمنعنا - بصفة عامة -

من تسيد العالم. فلو كان الشعب الألماني قد حقق وحدته أثناء تطوره التاريخي، لكان من الممكن أن تصبح ألمانيا سيدة العالم في يومنا هذا. وكان من الممكن لتاريخ العالم أن يأخذ طريقاً آخر، وفي هذه الحالة لا يمكن أن نتوقع إن كان كثير من المؤمنين بحل النزاعات بالطرق السلمية والذين يأملون في تحقيق ذلك من خلال البكاء والنحيب والتوسل، يمكنهم أن يتوصلوا بهذه الطريقة إلى السلام الذي ربما لن يعتمد على تلويح بأغصان الزيتون والبكاء البائس للعجائز من النساء المؤمنين بحل النزاعات بطرق سلمية، لكن السلام المضمون يأتي بسيف من يتمتعون بقوة السيطرة على العالم، وإدارته من أجل خدمة حضارة عظيمة.

❖ | النقاء العرقي !!

وقد كانت الحقيقة القائلة بأن شعبنا لم يكن له في يوم ما هوية قومية تعتمد على وحدة الجنس مصدر شقاء لا يعد ولا يحصى لنا. فقد قدمت مدن وعواصم أهلة بالسكان لعدد قليل من الملوك، بينما كان الألمان بشكل عام محرومين من حقوقهم في الحكم. وحتى اليوم ما زالت أمتنا تعاني من هذا النقص في الوحدة الداخلية، لكن ما تسبب في تعاستنا في الماضي والحاضر قد يتحول إلى مصدر لسعادتنا في المستقبل. وعلى الرغم أننا يمكننا أن نعتبر أن عناصر جنسنا لم تكن ملتزمة مع بعضها وهذا شيء يعيبها، حيث لم تستطع أي جماعة وطنية متجانسة أن تطور نفسها، إلا أن أفضل أعرافنا قد تمكن من الحفاظ على نقائه فلم تتخفف صفاته العرقية.

❖ | ألمان الشمال ثروة قيمة وقومية!

إن الاستيعاب التام لكل عناصرنا العرقية كان سيؤدي إلى أمة متجانسة، لكنها - وكما ثبت من خلال كل ما سبق من اختلاط الأجناس - كان يمكن أن تكون أقل قدرة على خلق الحضارة عما إذا تمسكت بالحفاظ على أفضل عناصرها الأصلية. وإحدى الفوائد الناتجة عن حقيقة أنه لا يوجد الاختلاط التام للأجناس واضحة، حيث توجد جماعات في شمال ألمانيا لم تختلط دماؤها مع دماء الأجناس الأخرى. ويجب علينا أن نعتبرها ثروة قيمة نعتد عليها في المستقبل. ففي أثناء الفترات المظلمة التي ساد فيها الجهل بكل القوانين العنصرية، وحينما كان كل فرد يتساوى مع كل من حوله من أفراد، لم يكن هناك من يقدر الفروق الواضحة بين الأجناس المختلفة. واليوم، فإننا جميعاً نعلم أن الامتزاج التام لكل عناصر الأمة كان من الممكن أن يتيح لنا نصيباً أكبر من القوة الظاهرية، لكنه - من جهة أخرى - لم يكن ليحقق لنا الأهداف الإنسانية العالية. فالشعب الذي قدر له أن يصل إلى ذلك الكمال كان من الممكن أن يضيع وسط اختلاط الأجناس.

لكن لابد لنا أن ندرس ما منعه القدر بدون أى تدخل من جانبنا، وأن نستفيد من ذلك فى ضوء ما لدينا من معلومات جديدة.

ولابد أن يعرف كل من يتحدث عن المهمة الواجب على الشعب الألماني تنفيذها أن هذه المهمة لن تتحقق إلا من خلال إقامة دولة تعتبر أن الحفاظ على عناصر جنسنا النبيل وتحسينها، وكذلك تحسين كل ما تبقى بلا تشويه من البشر هو الهدف الأسمى الذى تسعى إليه.

وبهذا تفوض الدولة - ولأول مرة - لغرض سام. وفى مواجهة الجملة الساخرة التى تقول: إن الدولة لا تقوم بشيء سوى العمل كحارس للنظام العام والتزام الهدوء، فهذا يمكن كل فرد من أن يخدع الآخرين بهدوء، لكن للدولة مهمة سامية جداً وهى الحفاظ على أفضل أنواع البشر الذين خلقهم الله على هذه الأرض ورعايته. وهكذا يخرج كائن حتى من ذلك الكائن الميكانيكى الميت الذى ادعى أنه غاية فى حد ذاته، ويكون لهذا الكائن هدف واحد وهو هدف ينتمى إلى مجموعة أفكار سامية.

والدولة الألمانية سوف تشمل كل الألمان، ومهمتها لا تقتصر فقط على جمع وتحسين تلك القطاعات القيمة من شعبنا بل عليها أن تقودها ببطء وروية إلى موقع الريادة فى العالم.

❖ | الراحة صدأ!!

وهكذا تتتابع فترات الركود وفترات العمل. وهنا وكما هو الحال فى أى شيء آخر، يصدق المثل القائل "الراحة صدأ". وكذلك المثل القائل: "إن النصر من حق من يهاجم."⁽¹⁾ وكلما كان الهدف الذى نسعى من أجله سامياً وكلما كانت الجماهير العريضة تفهم ذلك، كان النجاح واضحاً. وهذا الدرس نتعلمه من التاريخ. كما أن الإنجاز يكون واضحاً جداً عندما تكون الغاية واضحة ويستمر القتال بمثابرة وبدون توقف. لكن كثيراً من المسؤولين الذين يديرون شئون الدولة اليوم يرون أن الحفاظ على النظام القائم أسهل من القتال من أجل نظام جديد. فمن المريح لهم أن يعتبروا الدولة مجرد آلية تعمل من أجل الحفاظ على استمرارها فقط ويقولون: إن حياتهم مرتبطة ببقاء الدولة، لذلك فكل ما ينمو داخل حياة الأمة يمكن أن يكون فى صالح أى شيء آخر سوى كيان الأمة، كما لو كان الإنسان يستطيع خدمة أى شيء سوى أخيه الإنسان. ومن السهل - كما قلت - أن نعتبر أن سلطة الدولة ما هى إلا سوى الآليات الرسمية، وليست تجسيداً لسيادة شعب يعمل من أجل

(1) خير وسيلة للدفاع الهجوم.. ومن أقوال أبى بكر ؓ: «ما ترك قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ذلوا». (الناشر).

الحفاظ على نفسه فوق هذه الكرة الأرضية. فهذه العقول الضعيفة تعتبر أن الدولة وسلطتها ما هما إلا غاية في حد ذاتها، بينما نراها نحن سلاحاً فعالاً في خدمة الدفاع العظيم المستمر من أجل البقاء، سلاحاً لا بد أن نستخدمه جميعاً، وذلك ليس لأنها آلية رسمية فقط ولكن لأنها الطريقة الرئيسية لبقاء واستمرار إرادتنا المشتركة.

لذلك فالقتال من أجل فكرتنا الجديدة يتطابق تماماً مع المعنى البدائي للحياة، ولن يشاركنا في تلك الفكرة سوى عدد قليل من الرفاق من هذا المجتمع المتداعي للسقوط جسدياً وفكرياً. ومن بين كل طبقات المجتمع سينضم إلينا القليل من ذوى القلوب الشابة والحماس المتقد، ولن ينضم إلينا الذين يعتبرون أن عليهم أن يحافظوا على أحوال الدولة كما هي.

وفي مواجهتنا يوجد جيش لا حصر له من الكسالى غير المهتمين بشيء والذين توجههم مصالحهم الشخصية إلى الحفاظ على الوضع الحالي. وهذه الصعوبة الشديدة التي تواجه كفاحنا العظيم وتؤكد عظمة مهمتنا واحتمالات نجاحها. وسوف تصبح صيحة الحرب التي تفرع كل النفوس الضعيفة في البداية أو تقال من شجاعتهم على أقل تقدير إشارة البدء لكل من يشارك في هذا الكفاح. ولا بد لنا أن نلاحظ أن ظهور عدد من الأقوياء من رجال الأمة المتحدين من أجل تحقيق هدف واحد يجعلهم قادرين على قيادة من ينضم إليهم من جماهير الشعب، فهذه النسبة القليلة تصبح سادة الجميع. فقد كتبت الأقليات - التي تمثل إرادة وقوة مبادرة الشعب ككل - تاريخ العالم.

٥٠ | الجنس الأرقى!!

لكن ما يبدو أمام كثير من الناس على أنه عقبة، ليس في الحقيقة سوى شرط مبدئي من شروط نجاحنا. ولأن مهمتنا عظيمة وعالينا أن نتغلب على الكثير من الصعاب، فهناك احتمال كبير أن ينضم إلى صفوفنا أفضل الأبطال. وهذا القطاع من المؤيدين هو ما يضمن نجاحنا. وعادة ما تقوم الطبيعة بأشياء محددة لإصلاح الآثار التي تنتج عن اختلاط الأجناس. فالطبيعة لا تؤيد التهجين. لذلك فإن الناتج المتأخر من ذلك الاختلاط يعانى بشدة وخاصة في الجيل الثالث والرابع. فهي أجيال لا تحرم فقط من الصفات العليا التي يتمتع بها آباؤهم الذين شاركوا في الاختلاط الأول، لكنهم يفقدون أيضاً قوة الإرادة والحماس بسبب عدم توازن هذه الصفات في دمائهم. وفي كل اللحظات الحرجة التي يتخذ فيها شخص ذو دماء نقية قراراً حاسماً - وهو قرار متماسك ومتسق - يكون الشخص ذو الدم المختلط مرتبكاً ويتخذ قرارات غير متماسكة. وهنا نرى أن الشخص ذا الدماء المختلطة لا يأتي في منزلة أقل من الشخص ذو الدم النقي فقط ولكنه عرضة للانقراض بسرعة

فى نفس الوقت. وفى عدد لا نهائى من الحالات نجد أن الأجناس النقية تحافظ على بقائها بينما تختفى الأجناس المختلطة. كما أننا نشاهد طريقة التصحيح التى تستخدمها الطبيعة. فهى تحد من احتمالات التناسل وتعوق خصوبة الأجناس المختلطة وتؤدى بها إلى الفناء.

وعلى سبيل المثال، إن اختلط فرد من جنس ما مع فرد من جنس راق فستكون النتيجة الأولى هى تدنى مستوى الجنس الأعلى، وستكون الأجيال الناتجة عن هذا التزاوج المختلط أضعف ممن حولهم ممن حافظوا على نقاء دمائهم. أما إذا لم يختلط أى دم جديد من دماء الجنس الراقى مع أجناس أخرى، واستمرت تلك الأجناس الأخرى فى التزاوج فيما بينها فى نفس الوقت، فإنها قد تموت فى النهاية لعدم قدراتها على المقاومة - وهذا ما فعلته بهم الطبيعة - أو أن يكون منهم جنس مختلط جديد تختلط فيه صفاتهم بشدة بعد عدة آلاف من السنين، حيث تختفى الصفات الأصلية لكل جنس منهم بعد مرور آلاف السنين. وهكذا ينشأ شعب جديد يمتلك قدرة متوارثة على المقاومة، لكن قيمه العقلية والثقافية تكون أقل مما كانت عليه عند أول الأجناس المختلطة. ولكن حتى فى هذه الحالة الأخيرة يستسلم الناتج المختلط إذا ما دخل فى أى صراع مع جنس أقوى لم تختلط دماؤه وحافظ على صفاته القوية، فالصلابة التى تكونها الأجناس المختلطة خلال عدة آلاف من السنين لن تكون قادرة على التنافس. فهى تفتقد المرونة والقدرة على التسيد على جنس ذي دم متجانس يتفوق عليها عقلياً وثقافياً.

لذلك يمكننا اعتبار المبدأ التالى صحيحاً: يؤدى كل اختلاط بين الأجناس - إن عاجلاً أو آجلاً وبالضرورة - إلى انهيار الناتج المختلط إن لم يحافظ الجنس الأرقى على صفاته المتسقة. وتتوقف خطورة الأجناس المختلطة فقط عندما يحافظ الجنس الأعلى على معايير محددة ويتوقف عن الاختلاط مع الأجناس الأخرى ويخلص لجنسه.

وهذا المبدأ هو ما يقوم عليه التطور البطيء المستمر الذى ينقل السم إلى جسد العرق الذى يذبل تدريجياً طالما بقى فيه شيء من صفات الجنس التى ترفض الاختلاط.

ومثل هذه العملية قد تحدث آلياً فى الشعوب ذات الصفات العرقية القوية. ففى مثل تلك الشعوب يمكننا أن نحصى العناصر التى تضطر أجناس إلى التخلّى عنها من خلال التزاوج بطريقة طبيعية طبقاً لقواعد عرقية صارمة. وبمجرد أن يتوقف هذا الاضطراب يميل هذا الجزء من العرق الذى ظل متماسكاً إلى الزواج من نفس العرق وهذا يمنع اختلاط الأجناس. ثم يتراجع الاختلاط بطريقة طبيعية وينسحب إلى الخلفية إلا إذا تزايد العدد الناتج عنه بطريقة تمكنه من تحمل كل مقاومة جادة تقوم بها العناصر التى حافظت على نقاء جنسها.

وعندما يفقد الرجال صفاتهم الطبيعية ويتجاهلون الالتزامات التى تفرضها عليهم الطبيعة، فلا أمل فى أن تصلح الطبيعة ما تم إفساده، ويستمر ذلك إلى أن يتنبه هؤلاء القوم إلى ما افتقدوه من صفات. وهنا عليهم إنجاز مهمة استعادة ما فقد. لكن هناك خطراً شديداً وهو استمرار التغاضى عن فقدان تلك الصفات مما يودى إلى مزيد من هدم للحواجز بين الأجناس، وفى النهاية نفقد البقايا الأخيرة من أفضل الصفات. وما يتبقى بعد ذلك ما هو إلا خليط موحد يحلم به دعاة المدينة الفاضلة. لكن سرعان ما يتخلص هذا الخليط من كل المثل فى هذا العالم. وهنا تتكون فصيلة عظيمة جديدة. ومن الممكن أن نرى فصائل جديدة من الحيوانات، لكن هذا لا يمكن أن ينطبق على الإنسان، فالحضارات تقوم بتلك الطريقة. ولابد أن نعتبر أن مهمة الإنسانية تصل إلى نهايتها فى ذلك الوقت.

❖ | أفضل أنواع البشر!!

ولابد أن يدرك من لا يرغبون فى وصول الكرة الأرضية إلى تلك الحالة أن مهمة الدولة الألمانية بالذات هى أن تتأكد من توقف عملية الاختلاط.

وسوف يشجب جيلنا الحالى الضعيف هذه السياسة وينتخب ويشكو منها على اعتبار أنها اعتداء على حقوق الإنسان. لكن هناك حقاً واحداً فقط مقدس وهو فى نفس الوقت واجب مقدس جداً. هذا الحق والواجب هو: لابد من حماية نقاء الجنس، حتى يتم الحفاظ على أفضل أنواع البشر وبهذا نضمن رقياً أفضل للبشرية.

وعلى الدولة المتجانسة عرقياً أن تبعد نسبة الزواج عن مستوى الخطورة على الجنس الراقي. وعلى الدولة أن تعتبر نفسها هيئة مسئولة عن إيجاد أجيال قوية وليس مجرد مسوخ ما بين الإنسان والقرود⁽¹⁾. كما أن الاعتراض باسم الإنسانية لا يناسب الجيل الذى سمح لأشد المنحطين بالدعاية لأنفسهم، مما أدى إلى معاناة لا حصر لها لحقت بمعاصريهم وبأجيالهم القادمة. ومن جهة أخرى، فإن موانع الحمل متوافرة ومسموح بها فى كل المحلات كما أنها متوافرة أيضاً مع الباعة الجائلين، وهذا يمنع ولادة الأطفال حتى بين أفضل عناصر الشعب صحياً. فمن المسئول فى وضعنا الحالى عن الحفاظ على السلام وحفظ النظام. فالطبقة الوطنية البرجوازية ترى أن منع المصابين بالزهرى والسل والمصابين بالعرج والعتة من التناسل جريمة. لكن منع الملايين من أفضل أفراد الأمة من التناسل لا يعتبر شراً ولا يؤثر فى أخلاقيات هذه الطبقة الاجتماعية بل يشجعهم على التماذى فى قصر النظر واللامبالاة. وإلا فلا بد لهم من التفكير فى إجابة عن السؤال: كيف

(1) نزلت عنصرية هتلر بالأجناس غير الألمانية إلى مرتبة القرد ويا له من كبر وجبروت واستعلاء ستدفع الأمة الألمانية ثمن هذه العنصرية وهذا التعالى غالباً...! (الناشر).

نوجد الظروف المناسبة لإطعام هذه الأجيال القادمة التى ستمثل أمتنا ونحافظ عليها ؟ وكذلك إيجاد الظروف المناسبة للأجيال القادمة كى تطعم وتعيش.

❖ | أجناس متعددة الألوان!!

يا لوضاعة النظام الحالى الخالى من أى مثل ! وما فعلته الكنائس من الاشتراك فى هذه الجريمة ضد عباد الله على الرغم من استمرارها فى القيام بأنشطتها غريب جداً. فهم يتحدثون عن الروح لكنهم يتركون الإنسان - وهو تجسيد لتلك الروح - يتراجع إلى أدنى الدرجات. ثم يتعجبون بعد ذلك عندما يدركون مدى صغر تأثير العقيدة المسيحية فى بلادهم ومدى انحطاط الرعاع المنحلين جسدياً وأخلاقياً. ولكى يتوازن ذلك الوضع، حاولوا دعوة الزولو والكيفر وغيرهم إلى المسيحية بمباركة من الكنيسة. بينما تركوا الشعب الأوروبي ضحية فساد الأخلاق، تخرج البعثات التبشيرية إلى وسط أفريقيا وتؤسس قواعد للتبشير بين الزوج. وأخيراً يتحول الناس إلى المسيحية وهم بصحة جيدة - لكنهم متخلفون وبدائيون - وذلك باسم فرض "الحضارة الراقية" على أجناس كسولة ومتعددة الألوان.

وقد يكون من الأفضل لطموحات الإنسان النبيل أن تتوقف الطائفتان المسيحيتان عن مضايقة الزوج بتعاليمها، فالزوج ليسوا بحاجة إليها ولا يفهمونها. وكان من الأفضل أن يتوقفوا عن هذا العمل ويقوموا بتعليم الشعب الأوروبى بدلاً من ذلك. فإله تعالى يرضى عن الزوجين المنحدرين من عرق ضعيف إن أظهرتا تعاطفهما مع يتيم فقير وأصبحت والديه بدلاً من أن ينجبا طفلاً مريضاً يصبح مصدر تعاسة ومعاناة للجميع.

❖ | الطفل هو أغلى ما تملكه الشعوب..

وفى هذا المجال فإن على دولة الشعب أن تصلح الخلل الناتج عن إهمال كل الأحزاب الحالية لهذه المشكلة فى الوقت الحالى. وستكون من مهام حكومة الشعب الجديدة أن تجعل مشكلة العرق أهم ما يشغل المجتمع. ولا بد أن تتأكد من نقاء هذا العرق والحفاظ عليه. كما عليها أن تنشر الاعتقاد بأن الطفل هو أغلى ما يملكه أى شعب. ولا بد أن تعرف الحكومة أنه يجب على الأصحاء فقط الإقبال على إنجاب الأطفال، وعلى المرضى من الآباء أو من لديهم عيوب خلقية متوارثة أن ينالوا شرفاً كبيراً بالتوقف عن الإنجاب. ولكن ومن جهة أخرى لا بد لنا أن نلوم من يمتنع عن إنجاب أطفال لأمتنا وهو يتمتع بصحة جيدة. ففى هذه الحالة لا بد أن تتأكد الدولة أنها مسئولة عن مستقبل ألف عام، وهذا أمر يتضاءل بجانبه أى رغبات فردية أنانية ولا بد لها أن تتراجع أمام سلطة الدولة. ومن

أجل تحقيق هذا الواجب بطريقة عملية فإن على الدولة أن تستفيد من الاكتشافات الطبية الحديثة. وعليها أن تعلن أن كل من هو مصاب بأمراض وراثية لا يصلح للإنجاب، كما لابد من اتخاذ إجراءات عملية لجعل هؤلاء المرضى غير قادرين على الإنجاب. أما المرأة القادرة على الإنجاب - من جهة أخرى - فلا بد أن تتوفر لها مقومات الحياة لتستطيع حمل أطفال أصحاء وألا يعتبر النظام القائم أن إنجاب الأطفال ما هو إلا لعنة حلت بالوالدين. وعلى الدولة أن تلغى تلك اللامبالاة والجبن التي تتعامل بها مع المشكلات الاجتماعية والعداء بين العائلات، وعليها أن تكون الحامى الأول للعلاقة الاجتماعية بين أفراد الشعب. كما يجب أن تولى الطفل اهتماماً أكثر مما توليه للكبار.

❖ | العقم هو الحل!!

فليس من حق من هم مرضى أو غير أصحاء تخليد معاناتهم بانتقالها إلى أجساد أطفالهم. وهناك واجب كبير على دولة الشعب أن تتجوزه في هذا المجال. وفي المستقبل، ستصبح تلك المهمة أكبر وأكثر أهمية من الحروب التي تنتصر فيها حالياً الطبقة البرجوازية. فمن خلال التعليم يمكن للدولة أن تعلم الأفراد أن المرض ليس عاراً بل مجرد صدفة تثير الشفقة، لكن من الجرم أن نساهم في نقل هذا المرض إلى مخلوقات بريئة بلا سبب سوى الأنانية.

وعلى الدولة أن تعلم الشعب أن الطبيعة النبيلة تحث على أن من يصاب بمرض وراثي ويمتنع عن إنجاب أطفال يستحق الإعجاب على ما قام به من عمل إنساني، وله أن يمنح حبه واهتمامه لطفل لقيط ذي صحة جيدة ويساعده على أن يصبح فرداً صالحاً فى المجتمع. وعلى الدولة أن تستفيد من أنشطتها فى المجال الأخلاقى أثناء إنجاز تلك المهمة التعليمية. وعليها أن تعمل فى هذا المجال دون أن تولى أى اهتمام بفهم الشعب لهذا المبدأ أو عدم فهمه له، وسواء قوبلت بالثناء أو اللوم.

فإذا ما تم العمل على عقم⁽¹⁾ الأفراد المتهورين جسدياً أو المصابين بأمراض عقلية خلال 600 عام فإن البشرية لن تتفادى مخاطر كثيرة فقط بل ستعود إلى حالة صحية لا يمكننا تخيلها اليوم. فإذا ما تناولنا موضوع خصوبة القطاع السليم صحياً من أمتنا بطريقة عملية وبإخلاص، سيتخلص عرقنا من كل ما نعانى منه من أمراض تسبب تدهورنا أخلاقياً وجسدياً الآن. فإذا ما اتبع الشعب والدولة هذه الطريقة لتحسين نسل الأمة وهو هام جداً من الناحية العرقية، فإن الخصوبة ستزاد وبالتالي فإن الشعب كله يستمتع بكل مميزات الصفات القيمة لجنسنا النبيل.

(1) أى منعه من الإنجاب.

❖ | التخریب العرقي!!

ويجب على الأمة - لى تحقق ذلك - ألا تخضع المستعمرات الجديدة لسياسة عشوائية لكن يجب أن تشرف عليها طبقاً لمبادئ محددة. وعلى اللجان الخاصة ذات الكفاءة أن تصدر شهادات تسمح للأفراد بالانضمام إلى أعمال المستعمرات، ولا بد أن تضمن تلك الشهادات نقاء عرق هؤلاء الأفراد. وبناء على ذلك فمن الممكن إقامة مستعمرات حدودية تدريجياً يعيش فيها أفراد من أفضل الأعراق ممن يملكون أفضل الصفات العرقية. وهذه المستعمرات ستمثل رصيذاً قيماً للأمة. وستكون تميئها مصدر سعادة وثقة وافتخار كل مواطن فى هذه الأمة، وذلك لأنها ستحتوى على العرق الراقى الذى سيساعد فى تحقيق تطور الأمة والإنسانية جمعاء⁽¹⁾.

ولا بد لهذا المفهوم الذى يؤسس الدولة على فكرة العرق أن ينجح فى الوصول إلى عصر النبل، وهو عصر لن يهتم فيه الرجال بتربية الكلاب والقطط والحياد، بل سيبدلون فيه أقصى جهدهم لتحسين سلالة البشر. وستكون تلك الفترة فترة صمت ونكران للذات عند طبقة من طبقات الشعب، بينما تقدم الطبقات الأخرى تضحياتها بسعادة وتستثمر مواهبها.

ومن الممكن أن تسود هذه الفكرة فى مجتمع يحتوى على مئات بل آلاف ممن يفضلون الحياة بلا زواج بمحض إرادتهم، ودون أن يضطروهم شيء لذلك سوى قرار كنسى. فلماذا لا نحفز البعض على تقديم نفس هذه التضحية إن قلنا لهم - بدلاً من القرار الكنسى - إن عليهم أن يضعوا نهاية هذا التخریب العرقى الذى تم توارثه بانتظام جيلاً بعد جيل. كما يجب أن يدركوا أن من واجبهم أن يكون نسل أمتنا كما يحبه الله الخالق.

❖ | مصدر كبير من مصادر الفسق!!

لكن هذا الجيش من الماديين البؤساء لن يفهموا هذه التضحية. سيسخرون منها أو سيهزون أكتافهم المستديرة ويقولون الأعذار التى لن تنتهى وهى: "هذا أمر جيد فى الحقيقة، لكنه صعب التحقيق للأسف". ونرد عليهم: "لن يتم ذلك معكم، فأنتم فى عالم يحرص على هذه الفكرة. فأنتم تهتمون بوجودكم فقط. كما أنكم تعبدون إلهاً واحداً وهو المال. ونحن لا نطلب العون منكم على أى حال، ولكن نطلب العون من ذلك العدد الكبير من الفقراء الذى يسعون لمجرد البقاء على وجه الأرض، فهم لا يعبدون المال ولكن

(1) أليس ذلك بالضبط ما فعله الصهاينة فى فلسطين المحتلة، حيث أقاموا المستوطنات على أراضي الفلسطينيين المغتصبة وقصروها على المستعمرين اليهود فقط واستبعدوا العرب منها؟!.. حقاً لقد استفاد الصهاينة كثيراً من أفكار ونظريات هتلر رائد العنصرية البغيضة!.. (الناشر).

يعبدون الله الذى خلقهم. وقبل كل شيء فإننا نعتمد على شباب ألمانيا. فقد وصل الشباب إلى مرحلة النضوج، كما أنهم يواجهون الشرور الناتجة عن تكاسل آبائهم وعدم مبالاتهم بشيء". فإما أن ينشئ الشباب الألمانى فى يوم ما دولة جديدة تقوم على فكرة العرق أو يكون شاهداً على تخلف وفناء العالم البرجوازي.

فإذا عانى الجيل من عيوب يدركها ولا تعجبه - مثلاً يفعل البرجوازيون الآن - فإنه يلجأ إلى الأعذار الرخيصة وهى تقول بأنه لا يوجد علاج للموقف الحالى وبالتالي يتكون جيل مقبل على كارثة. ومن أهم صفات الطبقة البرجوازية أنها لا تنكر الأحوال السيئة الحالية. فهم يعترفون بوجود الكثير من الأخطاء لكنهم غير قادرين على استخدام عقولهم فى مواجهة هذه الشرور، فهذا يعنى استخدام طاقات أمة تتألف من 60-70 مليون لمواجهة هذا التهديد. ولكنهم يفعلون العكس تماماً. وعندما يبذل مجهود فى هذا المجال من جهات أخرى، فإنها تكتفى بالتعليقات التافهة وتحاول أن توضح - عن بُعد - أن هذا المشروع خطير ومستحيل من الناحية النظرية ومصيره الفشل. وليس هناك من حوار يمكن أن يقوم فى مواجهة آرائهم التافهة واتجاهاتهم الأخلاقية الماكرة. فإذا حاربت قارة بأكملها إدمان الكحول - على سبيل المثال - حتى تحرر شعباً كاملاً من تلك الرذيلة المدمرة، فإن الطبقة البرجوازية الأوروبية لن تفعل شيئاً سوى التفتت يميناً ويساراً وتهز رأسها كعلامة على التشكك والسخرية. لكن إذا ما قدر للحركة أن تنجح وأن تفشل المعارضة الغبية فى تحقيق أهدافها، فهى تسعى إلى التقليل من أهمية هذا النجاح. وسوف تستخدم حتى المبادئ الأخلاقية فى حملة تشويه سمعة الحركة التى تهدف إلى القضاء على مصدر كبير من مصادر الفساد.

❖ | الجسم السليم ينتج فرداً عظيماً!!

كلا ... يجب ألا نسمح لأنفسنا أن ننخدع بأى أوهام تخص هذا الموضوع. فقد أصبحت الطبقة البرجوازية غير جديرة بهذه المهمة الإنسانية النبيلة لأنها فقدت كل الصفات الراقية ليس لأنها طبقة شريرة بل لأنها تتكاسل عن محاولة النهوض مرة أخرى. ولهذا السبب فإن الجمعيات السياسية التى تسمى نفسها بالأحزاب البرجوازية ليست سوى جمعيات للسعى وراء مصالح جماعات حرفية وطبقات من المجتمع. وأهم أهدافهم هو الدفاع عن أنانيتهم بأقصى استطاعتهم. ومن الواضح أن طائفة السياسيين البرجوازيين يمكن أن يكونوا لائقين لأى شيء آخر سوى النضال، وخاصة وأن الخصوم فى هذا النضال ليسوا مجرد عمال فى المحلات ولكنهم من الطبقة العاملة الذين وصلت بهم الأحوال إلى أسوأ ما يمكن فقرروا عدم التردد أمام أعمال العنف.

فإذا اعتبرنا أن خدمة الشعب بصفة عامة ورفاهيته هي أولى مهام الدولة، وذلك من خلال المحافظة على تنمية وتحسين أفضل عناصره، فإن النتيجة الحتمية هي أن تلك المهمة لا نكتفى بمجرد إجراءات تخص ولادة أطفال جدد في هذه الأمة ولكن على الأمة أيضاً أن تتبع طرقاً لجعل كل مواطن مثلاً ذا قيمة يستفاد منه في نشر الجنس.

وكما أن الصفات العرقية - بصفة عامة - شرط أولى من شروط الكفاءة العقلية لأي إنسان، لذلك فلا بد أولاً من توجيه تدريب الفرد إلى تحسين صحته الجسدية. وذلك لأن القاعدة العامة تقول: إن العقل القوى والسليم في الجسم القوى السليم. فإذا كان هناك في بعض الأحيان عباقرة من ضعيفي البدن أو المرضى فهذا ليس دليلاً يناقض ما قلناه. فهي - مثلما يحدث في كثير من الأمور - حالات استثنائية تثبت القاعدة. ولكن عندما يكون غالبية أفراد الأمة من أصحاب الأجساد الضعيفة، فمن النادر أن ينشأ من بينهم فرد عظيم. فإما أن يتعذر على هؤلاء الغوغاء فهم هذا الفرد العظيم إطلاقاً أو أن تكون قواهم قد انهارت تماماً فلا يستطيعون التحليق مع هذا النسر.

❖ أهمية التربية البدنية في بناء المواطن..

وعلى الدولة التي تقوم على مبادئ عرقية وتدرّك معنى هذه الحقيقة، وأن تبدأ وقبل أي شيء بجعل وظيفتها التعليمية لا تتوقف عند مجرد نقل المعارف إلى الطلاب بل الاهتمام أيضاً بالتربية البدنية وتنمية أجساد صحيحة. أما الاستفادة من الصفات العقلية فتأتي في المرتبة التالية. ومرة أخرى أؤكد أن تنمية الشخصية تتم أولاً بتنمية قوة الإرادة والعزم. لذلك فعلى نظام التعليم أن يدعم روح الاستعداد لتحمل المسؤولية برحابة صدر. أما تدريس العلوم فيأتي في المرتبة الأخيرة. لذلك يجب على الدولة التي تقوم على المبادئ العرقية أن تبدأ بإيجاد الأفراد الذين يحصلون على معارف علمية قليلة لكنهم أصحاب بدنياً وأقوياء وذوو شخصيات أمينة وثابتة، كما أنهم مستعدون لاتخاذ القرار وقادرون على ذلك وذوو عزيمة قوية، وهم بذلك أكثر فائدة للأمة من المثقف الضعيف. فالأمة التي تتكون من رجال متعلمين ومحبين للسلام لكنهم ضعاف ومترددون عند اتخاذ قرار يتطلب إرادة قوية لا تضمن مجرد وجودها على هذا الكوكب. فمن النادر أن يحدث أثناء صراع الإنسان المرير من أجل البقاء أن يستسلم الفرد لأنه قليل العلم. فمن يخفون، هم أنفسهم من يحاولون تجاهل هذه النتائج ومن تجبن قلوبهم عن وضعها موضع التنفيذ. فلا بد من وجود توازن بين العقل والجسد. فالجسد العليل لا يمكن أن يكون جميلاً إن كانت روحه مشعة. ولن نكون عادلين إن استخدمنا أفضل تدريب عقلي مع المصابين بإعاقة جسدية أو عرج، فالجنباء ضعاف الإرادة هم الذين يفتقدون القدرة على اتخاذ القرارات. إن هذا الاتحاد المدهش بين جمال الجسد ونبيل الروح والعقل هو ما خلد مثاليات الجمال الإغريقية.

وما قاله "مولتك" من أن "الحظ الجيد الذى يستمر طويلاً لا يحظى به إلا الأكفاء" يصلح تماماً لوصف العلاقة بين الروح والجسد. فالعقل الراجح لا بد له من أن يحافظ على بقائه من خلال وجوده فى جسد سليم.

❖ الرياضة البدنية تسبق العملية التعليمية..

لذلك فى دولة الشعب لا يعتبر موضوع التدريب البدنى أمراً يخص الفرد وحده. كما أنه ليس من واجب الوالدين أولاً ثم واجب الدولة من الدرجة الثانية أو الثالثة، بل هو ضرورى للحفاظ على الشعب الذى تمثله الدولة وتحافظ عليه. وبما أن نظام التعليم الحالى يفرض قدراً محدداً من التعليم الإلزامى على كل طفل بغض النظر عن موافقة والديه على ذلك أم لا. فبنفس الطريقة سوف تفرض دولة الشعب الجديدة إرادتها على جهل الأفراد وعدم فهمهم لما يخص أمن الأمة. ولابد لها أن تنظم عملها التعليمى بطريقة تجعل أجساد الصغار قوية ومدربة بما فيه الكفاية منذ نعومة أظفارهم وذلك حتى يصبحوا أقوياء وعلى قدر من الصلابة يمكنهم من تحمل المسئوليات التى ستلقى عليهم فيما بعد ذلك من سنوات. وقبل كل شيء، على الدولة أن تعلم أن الجيل القابع فى المنازل لن يتطور.

إن العمل الصحى والتعليمى يبدأ من الأم الشابة. وقد نجحت الجهود المضنية المستمرة لعدة عقود فى القضاء على العدوى المتفحكة عند الأطفال وتقليل الإصابة بحمى النفاس إلى أبعد مدى. وبنفس الطريقة يمكن أن نتعلم الأخوات والأمهات - فى الوقت المناسب - طريقة إعداد الطفل منذ نعومة أظفاره وطوال حياته، فيكنّ بذلك قد ساهمن فى تطوير المستقبل.

وعلى دولة الشعب أن تخصص وقتاً أكثر للتدريبات البدنية فى المدارس. فمن العبث أن ننقل العقول الصغيرة بمقدار كبير من العلم يحتفظون بقدر ضئيل منه فقط - كما علمتنا التجربة - وعادة لا يحتفظون بالقدر الأهم ولكن بالقدر الثانوى الأقل أهمية. فالعقول الصغيرة غير قادرة على انتقاء النوع الصحيح من العلم من بين كل تلك المعلومات الكثيرة التى تصخ فى عقولهم.

❖ الملائكة.. والروح العسكرية!

واليوم، وحتى فى مناهج المدارس العالية تخصص أوقات قليلة جداً للرياضة البدنية، والأسوأ من ذلك أن أمر المشاركة فيها يترك لاختيار التلاميذ. وهذا يوضح الفارق الكبير بين هذا الفرع من التعليم وبين تدريس المواد النظرية. وفى الحقيقة، يجب ألا يمر يوم

واحد على التلاميذ دون ممارسة الرياضة البدنية لمدة ساعة في الصباح وساعة في المساء. ويجب أن يشمل ذلك كل أنواع الرياضات. وهناك نوع من أنواع الرياضة يجب أن يحظى بالتشجيع بالرغم من أن كثيراً من الناس يعتبرون أنه رياضة عنيفة وقاسية، وهذه الرياضة هي الملاكمة. ومن العجيب أن ينتشر هذا الاعتقاد بين الطبقات المثقفة. فتعلم الرجل لفن الدفاع عن النفس وقضاء الوقت في المبارزات ما هو إلا أمر طبيعي جدير بالاحترام. لكن عندما يتحول الحديث إلى الملاكمة، فإنها توصف بالعنف ! لماذا ؟ فلا توجد رياضة أخرى تنمي الروح العسكرية أكثر منها. فهي تساعد على اتخاذ القرار بسرعة وتساعد على مرونة الجسم وجعله قوياً كالحديد. أليس من الأفضل أن يتبارى لاعبان بقبضات أيديهما وليس بقطع حديدية مدببة الأطراف. كما أن من يجد نفسه موضع هجوم فيدافع عن نفسه بقبضات يديه أفضل بالتأكيد ممن يصرخ ويجري طالباً مساعدة الشرطة. لكن وقبل كل شيء، فإن على الشباب ذى البنية السليمة أن يتعلم كيف يتحمل الضربات القوية. وقد يبدو هذا المبدأ غريباً على بعض معاصرينا الذين يحاربون بسلاح العقل فقط. فليس الغرض من دولة الشعب أن تنقل العلم إلى محبى السلام من الشباب الضعيف جسدياً. فهذه الدولة لا تعتبر أن المثل تتوافر فيمن هو ساذج أو فيمن يبدو كالعدارى، لكنها تتوافر في كل من هو جريء وقوى البنية من الرجال وكذلك كل النساء القادرات على إنجاب هؤلاء الرجال.

❖ | التعليم لا يصنع من الجبان شجاعاً!!

وبصفة عامة فإن وظيفة الرياضة لا تقتصر فقط على جعل الفرد قوياً وذكياً وجسوراً ولكنها أيضاً تشد الجسد وتدرجه على تحمل الظروف الصعبة.

وإذا لم تكن الطبقة الراقية تتلقى مثل هذا التعليم المتميز، وإذا تعلموا الملاكمة لما تمكن أبداً بعض الغوغاء والهاربين من التجنيد من القيام بثورة ألمانية. وذلك لأن نجاح هذه الثورة لم يكن بسبب الشجاعة والقوة والمغامرة ولكن بسبب جبن مخز وتردد الذين حكموا ألمانيا في ذلك الوقت، فهم المسئولون عن ذلك. لأن هؤلاء القادة المتعلمين قد تلقوا تعليماً "نظرياً" ولذلك فقد وجدوا أنفسهم وهم عزل أمام من يهاجمونهم بالقضبان الحديدية وليس بالأفكار. وقد حدث ذلك فقط لأن نظام التعليم عندنا لا يدرّب الرجال حتى يصبحوا رجالاً حقيقيين بل ليصبحوا مجرد مواطنين مدنيين من الموظفين والمهندسين والفنيين والكيميائيين ورجال الأدب والقانونيين والمعلمين، وذلك حتى نحافظ على العقول إلى الأبد.

وكان قادتنا على المستوى العقلي دائماً من المتألقين، لكنهم وفي الوقت نفسه لم يكونوا فوق مستوى النقد من ناحية قوة الإرادة فيما يخص الأمور العملية.

والتعليم لا يستطيع أن يصنع من الجبان شجاعاً بالتأكيد. لكن من يملك قدراً طبيعياً من الشجاعة لا يمكنه أن ينمي هذه الصفة إذا كان التعليم القاصر يجعله أقل من الآخرين من ناحية الشجاعة وسلامة البدن منذ البداية. والجيش أفضل مثال على أن العلم بالقدرات البدنية للفرد يزيد من شجاعة الرجل ومن روحه العسكرية. فالأبطال المميزون ليسوا هم القاعدة العامة في الجيش، لكن أغلب الرجال من ذوى الشجاعة العالية. وقد لقن التعليم الممتاز الذى تلقاه الألمان قبل الحرب العديد من الناس قدراً من الثقة فى تفوقهم وهو قدر لم يكن -حتى- أعداؤنا يفكرون فيه. كما أن كل الأمثلة الخالدة للشجاعة والجرأة التى أظهرها الجيش الألماني خلال الفترة الأخيرة من صيف وخريف عام 1914م وهو يتقدم من نصر إلى نصر كانت نتيجة لذلك التعليم المستمر بطريقة منتظمة. وخلال كل تلك السنوات الطويلة من السلام قبل الحرب الأخيرة استطاع حتى ضعاف الرجال أن يقوموا بأعمال لا تصدق، وبهذا تنامت الثقة بالنفس وهى ثقة لم نفقدها أبداً حتى خلال أشد المعارك ضراوة.

لكن الشعب الألماني الذى تعوزه الثقة بالنفس والقوة أصبح ضحية مفككة قدمت لبقية بلاد العالم لتركلها بالأقدام. لكن علينا أن نصب هذه الثقة فى نفوس أطفالنا منذ نعومة أظفارهم من جديد. ولابد من توجيه نظام التعليم والتدريب بالكامل إلى غرس الصفات اللازمة للجميع بلا استثناء. فلا بد للفرد أن يستعيد قوته البدنية حتى يستعيد ثقته فى الأمة التى ينتمى إليها. وذلك لأن ما قاد الجيوش الألمانية إلى النصر فيما قبل هو تلك الثقة بالنفس التى كان يتمتع بها كل فرد، والتى تمتع بها جميع من تولوا القيادة. والقناعة بقدرتنا على استعادة حريتنا هى ما سيعيد إلينا القوة القومية للشعب الألماني. لكن هذه القناعة ما هى إلا نتاج لشعور متوازن ينتشر بين ملايين الأفراد، وهو أمر لا يجب علينا أن نعانى فيه من أى أوهام مرة أخرى.

❖ | الملابس تصنع الرجال!

لقد كان انهيار شعبنا كاسحاً وكانت كل محاولات وضع حد لهذا الاكتساح فاشلة بنفس القدر. وقد كان من الخطأ الشديد والمؤسف أن نعتقد بأن شعبنا يمكن أن يعود قوياً مرة أخرى من خلال ما تقوم به الطبقة البرجوازية من تدريب على النظام والطاعة. وهذا غير كاف إن كنا نريد تغيير النظام الحالى الذى يعترف بهزيمتنا ويكبلنا بأغلال العبودية فى مواجهة أعدائنا. إن قوة الأمة وتعطشها للحرية هما ما سيمكنا من استعادة ما فقد.

كما أن طريقة ارتداء الملابس عند الشباب لابد أن تتناسب مع هذا الغرض. فمن المؤسف أن نرى الشباب وقد وقع ضحية لجنون الموضة وهو أمر لا يتناسب مع الحكم الماثورة القديمة التى تقول بأن الملابس تصنع الرجال.

وموضوع ملابس الشباب له علاقة بالتعليم، فالفتى الذى يسير فى فصل الصيف ببطن طويل ذي جيوب كبيرة وملابسه تكاد تصل إلى أذنيه لا يشعر بأى ميل إلى ممارسة الرياضة البدنية. فلابد من أن تساعد الملابس على الطموح والفخر. وأنا لا أقصد ذلك الفخر الذى يجعل الناس يحبون الملابس الجميلة التى لا يستطيع الجميع شراءها بالطبع، ولكننى أقصد الفخر الناتج عن اعتزاز الإنسان بقوته البدنية. وهو أمر ممكن للجميع.

❖ | حتى نحمل شبابنا من الفواية والفساد..

وهذا يصلح أيضاً للفتيان فيما يلى من أعوام. فلابد لكل فتاة أن تقابل من تحب. فإن لم يكن جمال الجسد قد تراجع إلى الظل اليوم بسبب طريقتنا الغبية فى ارتداء ملابسنا لما استطاع اليهود غواية الآلاف من بناتنا إلى طريق الرذيلة. فمن واجب الأمة أيضاً أن تظهر أصحاب الأجسام الجميلة حتى يتشجع الشعب عامة على الحفاظ على أجسام جميلة مماثلة.

والتدريب العسكرى ممنوع اليوم، وبهذا تنعدم الطريقة الوحيدة التى تعوض نقص نظام التعليم المتمثل فى إهمال التدريبات البدنية. لذلك فإن ما اقترحته هو أمر ضرورى فى وقتنا الحالى. فلم تظهر تربيائنا العسكرية فى السابق نجاحاً فى تعليم الفرد فقط ولكنها أثرت أيضاً على العلاقة بين الجنسين. فالفتاة تفضل الجندى على من لم يلتحق بالجيش. ولا يجب أن تقصر حكومة الشعب سيطرتها على التدريب البدنى فى مرحلة التعليم المدرسى الرسمى فقط ولكنها يجب أن تجعله مستمراً بعد المدرسة وطوال فترة نمو الجسد فى مرحلة البلوغ. فمن الغباء أن نعتقد أن حق الدولة فى متابعة تدريب أبنائها يتوقف فجأة فى اللحظة التى ينتهى فيها الطالب من الدراسة ثم يعود من جديد إلى التحاقه بالخدمة العسكرية. فهذا حق واجب لابد أن يستمر بلا انقطاع. وتعتبر الدولة الحالية التى لا تشغل بالها بتنمية صحة رجالها مجرمة بسبب إهمالها لهذا الواجب. فقد تركت الشباب يفسد فى الشوارع والمواخير، وذلك بدلاً من كبح جماح تلك الشهوات بالتدريبات البدنية إلى أن يصلوا إلى سن مناسب فيصبحوا رجالاً ونساء ذوى صحة جيدة وأجسام سليمة.

❖ | التعليم العسكرى المدرسى..

وفى الوقت الحالى فإن الدولة لا تهتم بطريقة تقديم هذا التدريب. فأهم ما فى الأمر هو ضرورة تقديم هذا التدريب بطريقة مناسبة. وعلى دولة الشعب أن تعتبر أن التدريب البدنى للشباب بعد المرحلة المدرسية واجب عام يماثل واجب التعليم النظرى ومن الضرورى أن يتم هذا التدريب من خلال هيئات عامة. كما يجب أن يكون هذا التدريب

تمهيداً للالتحاق بالخدمة العسكرية. وبذلك لن تكون من مهمات الجيش أن يدرب الشباب المجند تدريبات بدنية، بل سيحولونهم إلى جنود.

كما أن الجيش في دولة الشعب لن يضطر إلى تعليم الفتيان والشباب السير والوقوف باعتدال، ولكنه سيكون المدرسة العليا لتعليم الوطنية. وفي الجيش يتعلم الشباب كيف يحملون السلاح كما يُعد أيضاً لواجباته التي سيقوم بها في الحياة فيما بعد. كما سيكون الهدف الأسمى للتعليم العسكري هو إعادة روح الجيش القديم إلى الجنود وهذا يحدث بصفة خاصة من خلال التعليم العسكري المدرسي. فتحويل الفتيان إلى رجال لا يتطلب تعليمهم الطاعة فقط بل يجب أن يمددهم بالأسس التي تمكنهم من إصدار الأوامر أيضاً في يوم ما. كما يجب أن يتعلم الطالب الصمت عندما يوبخ سواء بسبب حقيقى أو عن طريق الخطأ.

وذلك بالإضافة إلى وجوب اقتناع الجندى بأنه ينتمى لشعب لا يقهر وأن ينشر هذه القناعة بين رفاقه من الجنود.

وبعد انتهائه من التدريب العسكري يتسلم الجندى شهادتين: دبلومة المواطنة، وهى وثيقة تمكنه من المشاركة فى الحياة العامة، والشهادة الثانية تعتبر برهاناً على سلامته الجسدية وهى تعنى صلاحيته للزواج.

وعلى دولة الشعب أن توجه تعليم البنات والبنين بناء على نفس المبادئ الثابتة. ولا بد أيضاً من الاهتمام الشديد بالتربية البدنية، ثم يأتى الاهتمام بالجانب العقلى بعد ذلك. ويجب التركيز فى تعليم البنات على هدف واحد وهو أنها ستصبح أمّاً فى يوم من الأيام.

كما أن على دولة الشعب أن تضع الاهتمام بتدريب الشخصية فى منزلة تالية، وأن تستخدم كل الطرق الممكنة فى ذلك.

والصفات الأساسية لشخصية الفرد تكون متوافرة قبل تلقيه أى نوع من التعليم، ومن يتصف بالأنانية على سبيل المثال سيظل أنانياً طوال عمره ومن يتصف بالمثالية سيحافظ أيضاً على ذلك طوال حياته. لكن بالإضافة إلى أولئك الذين تتسم شخصياتهم بصفة واضحة هناك الملايين من أصحاب الشخصيات غير الواضحة والغامضة. كما أن من يولد جانحاً سيظل طوال عمره كذلك، إلا أن من يميل إلى ارتكاب الجرائم قد يصبح مفيداً للمجتمع إذا تلقى تدريباً صحيحاً، وصاحب الشخصية الضعيفة غير المستقرة - من جهة أخرى - قد يصبح عنصراً شريراً فى المجتمع إن كان نظام التعليم سيئاً.

❖ فضيلة الصمت!

وأثناء الحرب كان هناك نقد يوجه لشعبنا لأنه كان لا يتحفظ فى كلامه. وقد تسبب ذلك فى صعوبة الاحتفاظ بالأسرار العليا ومنعها من الوصول إلى العدو. لكن دعونا نسأل هذا

السؤال: ما الذى فعله نظام التعليم الألمانى قبل الحرب حتى يتعلم الألمانى أن يكون كتوماً؟ ألم يكن التلميذ الثرثار كثير الكلام فى الفصل أفضل من زملائه الصامتين فى مدارسنا؟ أليس من الصحيح فى ذلك الوقت - وحتى الآن - أننا اعتبرنا الشكوى من الآخرين شيئاً يستحق الثناء، بينما يعتبر التصرف بعقل نوعاً من العناد؟ هل حاول أحد أن يعلمنا أن حرية التصرف هى صفة من صفات الرجال؟ لا ... فقد تبدو هذه أمور نافهة فى أعين التربويين. لكن هذه الأمور النافهة كلفت أمتنا عدة ملايين فى المصروفات القضائية، وذلك لأن 90% من قضايا القذف وتشويه السمعة كانت بسبب عدم القدرة على التعقل. فالتعليقات التى تصدر دون أى إحساس بالمسئولية تكرر ها الألفاظ بلا تفكير، وقد تسبب ذلك فى خسارة مستمرة لاقتصادنا، وذلك بسبب كشف طرق الإنتاج المهمة وذويعها. كما أن الإعدادات السرية للدفاع عن أمتنا قد أصبحت معروفة للجميع وذلك لأن شعبنا لم يتعلم واجب الصمت. والشعب يكرر كل ما يسمعه. وفى أوقات الحرب تكون عادة كثرة الكلام هذه سبباً فى خسارة الحروب وهى بالتالى تساهم بشدة فى فشل الحملة. وهنا لابد لنا أن نتأكد من حقيقة أن الكبار لا يمكنهم فعل أى شيء لم يتدربوا عليه فى شبابهم. فعلى المدرس ألا يحاول اكتشاف المقلب الخبيثة التى يعدها ضده الطلاب من خلال التشجيع على الوشاية ونقل الكلام. فللصغار دولتهم الخاصة بهم التى تمكنهم من مواجهة الكبار بتماسك. وهذا أمر طبيعى جداً. فما يربط بين مجموعة أطفال فى سن العاشرة أقوى مما يربطهم بالكبار بطبيعة الحال. والولد الذى يفضح ما يقوم به رفاقه يتهم بالخيانة ويمكن أن ينصف بصفات تشابه مرتكب جريمة الخيانة العظمى. ولا يجب أن يصنف هذا الولد على أنه محل ثقة وطيب ... إلخ، بل يجب أن يوصف بأنه ذو صفات مخزية. فقد يكون من الملائم للمدرس أن يستفيد من تلك الميول الخبيثة فى عمله لكنه ينثر بذلك بذور الكراهية فى قلوب الصغار وقد يؤدى ذلك إلى نتائج خطيرة فى يوم ما. فكثيراً ما تحول الواشى الصغير إلى وغد كبير.

❖ الصفات التى تتمتع بها الأمم العظمى..

وما ذلك إلا مثال واحد من أمثلة متعددة. فالتدريب المقصود على الصفات النبيلة الراقية يكاد يكون منعدماً فى مدارسنا. وفى المستقبل سيكون هناك تركيز أكبر على هذا الجانب التعليمى عندنا. فالولاء والتضحية بالنفس والتعقل ما هى إلا صفات تتمتع بها الأمم العظمى. ويعتبر تدريس ذلك وتنميته داخل المدرسة من أهم الأمور التى يجب أن تحتويها مناهج مدارسنا. كما أن ذلك يشمل أيضاً تعليم الأطفال الامتناع عن الشكوى والنحيب والصراخ إن أصابهم أذى ... إلخ. فإن فشل نظام التعليم فى تدريب الأطفال على تحمل الألم والإصابة دون شكوى فى سن مبكرة، فليس لنا أن نتعجب أن نراهم وهم كبار - فى خنادق الحرب على سبيل المثال - لا يستفيدون من الخدمة البريدية سوى فى

الشكوى والنحيب. فإذا كان هؤلاء الشباب قد تلقوا تعليماً أقل وهم صغار وتعلموا كيف يتحكمون في أنفسهم في نفس الوقت لكان ذلك مفيداً جداً لنا جميعاً خلال الفترة 1914-1918م.

وعلى حكومة الشعب أن تولى أهمية كبيرة لتطوير الشخصية في نظامها التعليمي، وأن يتمشى ذلك جنباً إلى جنب مع التدريبات البدنية. ويمكن تقليل كثير من العيوب الواضحة في مواطنينا اليوم - إن لم يكن القضاء عليها تماماً - من خلال نظام للتعليم من نوع صحيح.

كما يجب أن تولى أهمية شديدة للتدريب على قوة الإرادة والتعود على اتخاذ قرارات ثابتة والتعود على الاستعداد الدائم لتحمل المسؤولية.

كان التدريب في جيشنا القديم يقوم على مبدأ أن أي نوع من النظام أفضل من الفوضى. فإذا طبقنا هذا المبدأ على شبابنا فإننا نقول: إن أي إجابة أفضل من الصمت. أما الخوف من الإجابة - خشية الخطأ - فهي مهينة أكثر من الإجابة الخاطئة. ويجب تدريب شبابنا على هذه المبادئ الأساسية البسيطة حتى تكون لديهم الشجاعة الكافية.

❖ | قوة الإرادة واتخاذ القرارات المهمة!

وقد كان هناك نقد لما حدث في نوفمبر عام 1918م. حيث فقدت كل السلطات رؤساءها ولم يكن لدى أي فرد - بداية من القصر الملكي وحتى أصغر القادة - أي قدر من الشجاعة يمكنه من اتخاذ القرار وتحمل المسؤولية. وهذه الحقيقة المفزعة تلقى مزيداً من اللوم على نظامنا التعليمي، فما تم اكتشافه في ذلك الوقت وعلى نطاق واسع وأثناء وقوع الكارثة هو نفسه ما يحدث على نطاق ضيق في كل مكان من حولنا. لذلك فإن عدم توافر قوة الإرادة - وليس السلاح - هو ما يجعلنا غير قادرين على إبداء أية مقاومة اليوم. وهذا العيب متوافر في شعبنا الآن في كل مكان، وهو يتسبب في منع اتخاذ القرارات الهامة عندما يكون هناك أي نوع من المخاطرة. وقد توصل جنرال ألماني إلى علاج لذلك القصور في القدرة على اتخاذ القرار فقال: "أنا أتحرك عندما يكون احتمال النجاح 51% فقط." وفي احتمال النجاح بنسبة 51% نجد سبب انهيار ألمانيا. فمن يطلب من القدر أن يضمن له النجاح لا يعرف معنى البطولة.

وبصفة عامة فإن عدم توافر قوة الإرادة وعدم القدرة على اتخاذ القرار ما هي إلا نتائج رئيسية للتعليم الخاطئ الذي تلقاه شبابنا. وأهم الأمثلة على ذلك تتضح في الجبن الواضح المتمثل في رجال الدولة.

والجبن الذي يؤدي اليوم إلى تضائل لكل أنواع المسؤولية ناتج عن نفس المشكلة. فهذا

أيضاً ناتج عن التعليم الذى تلقاه شبابنا. فهذا العائق متغلغل فى كل قطاعات حياتنا الاجتماعية ويجد من يقبل عليه إلى الأبد من العاملين بالدولة والبرلمان.

فالمدراس تهتم - للأسف - بالاعتراف والتوبة النصوح والندم على صغار الذنوب أكثر من اهتمامها بالاعتراف العلنى بالأخطاء. ويرى كثير من التربويين أن ذلك من الفساد. وكثيراً ما قيل للصغار أنهم قد ارتكبوا إثماً كبيراً عندما يظهر أى منهم عبقرية لا مثل لها فى الأمة كلها.

وبما أن دولة الشعب ستعطى جل اهتمامها فى يوم ما لتدريب الشباب على قوة الإرادة والقدرة على اتخاذ القرار، يجب عليها أيضاً أن تعلم الشباب ومنذ طفولتهم أن يكونوا مستعدين لتحمل المسؤولية وأن يكون لديهم الشجاعة لاتخاذ قرار علنى. فإن أدركت هذه الحكومة مغزى هذه الضرورة - بعد قرن من العمل التعليمى - فسوف تنجح فى بناء الأمة التى لن تكون عرضة بعد ذلك للهزائم التى ساهمت بطريقة مأساوية فيما نحن فيه الآن من انكسار.

❖ | الطلاب.. وتخدمة المعلومات..

كما أن وظيفة نظام التعليم الحالية وهى مجرد نقل العلم للطلاب ستكون من بين مهام دولة الشعب مع تعديلات بسيطة. ويجب أن تتم هذه التعديلات فى ثلاثة أفرع.

وأهم شيء هو ضرورة عدم اتخام عقول الطلاب بالمعلومات التى لا قيمة لنسبة 95 % منها وغالباً ما ينساها الطلاب. كما أن مناهج المرحلة الابتدائية والثانوية تعتبر خليطاً غريباً فى الوقت الحاضر. وقد أصبح مقدار المادة فى كثير من الأفرع هائلاً جداً لدرجة أن الطالب لا يتذكر سوى نسبة ضئيلة جداً منه فيما بعد. كما أن قدرنا ضئيلاً فقط من كل ما يتعلمه يمكن أن يستفيد منه عملياً. ومن جهة أخرى، نجد أن ما يدرس غير كاف بالمرّة لمن يريد التخصص فى أى فرع من فروع العلم تخصصاً يمكنه من كسب قوت يومه. ولنأخذ مثلاً بالموظف المدنى الذى واصل الدراسة إلى أن انتهى من المدرسة العليا حين نسأله وهو فى الثلاثين أو الأربعين من عمره عما يحتفظ به من المعلومات التى صُبت فى رأسه أثناء الدراسة.

❖ | درس مفيد فى اللغة الفرنسية!

كم بقى من المعلومات التى حشرت فى رأسه وهو فى المدرسة ؟ وستكون الإجابة بالتأكيد: "إن ما تلقيناه من معلومات هائلة فى تلك الفترة لم تكن من أجل إمداد الطالب بمعارف كثيرة يعتمد عليها فيما بعد، ولكنها معلومات تساعده على الفهم والتذكر، كما أنها

تساعده على استخدام العقل والتفكير". وهذا صحيح إلى حد ما. لكن من الخطورة أن نغرق العقول الصغيرة في فيضان من الانطباعات التي قد تكون غير مناسبة لهم في مقابل التضحية بأهم ما في الموضوع.

ولكى نعطي مثلاً على هذا الموضوع فإننا نقول: إذا درس 100000 طالب مادة اللغة الفرنسية فربما نجد أن 2000 فقط منهم من يجد نفسه في موقع الاستفادة من هذه اللغة فيما بعد. بينما نجد أن 98000 منهم لن يحتاجوا للاستخدام العملي لتلك اللغة بالرغم من أنهم تعلموها في سن مبكرة. وهكذا يقضون آلاف الساعات في دراسة المواد التي لن تفيدهم بشيء فيما بعد ولن يكون لها أى قيمة بالنسبة إليهم. لذلك فالقول بأن هذه المواد تمثل جزءاً من عملية تعليمية شاملة لا معنى له. وكان من الأفضل لو أن كل من يتعلم مادة يستفيد منها في مستقبل حياته. لكن الموقف الحالي هو أن 98000 يتعذبون بحشر المعلومات في رؤوسهم من أجل 2000 فرد سيستفيدون من دراسة هذه اللغة بأى طريقة.

وفى مثال اللغة الذى قدمته لا يمكننا أن نقول: إن تعلم اللغة يمكن الطالب من تعلم التفكير المنطقي ويرفع درجة ذكائه تماماً مثل تعلم اللغة اللاتينية - على سبيل المثال. لأنه من الأفضل فى تلك الحالة أن يتعلم الطالب الخطوط العامة، أو لنقول بأن تتاح الفرصة أمام الطلاب ليتعرفوا على أهم الصفات المميزة للغة أو التعرف على مبادئ قواعدها ونطقها واستخداماتها ... إلخ. وهذا كاف لغالب الطلاب، وذلك لأنه سيعطى الطالب صورة عامة، كما أن تذكره سيكون أسهل بكثير. كما أن هذه الطريقة عملية أكثر مما يحدث اليوم من حشو للعقول بمعارف ولغات لن يتقنوها أبداً وسرعان ما ينسونها. فإذا ما اتبعنا هذه الطريقة الجديدة يمكننا أن نتجنب خطر بقاء أشياء قليلة فقط فى ذاكرة الطالب من كل الكم الهائل الضخم الذى يتعلمه وضرورة تعلم الشاب أن يختار ما يفيد ليحتفظ به ويتخلى عما لا فائدة فيه، وذلك لأن هذا الاختيار يحدث منذ البداية.

ومعرفة أساسيات اللغة سيكون كافياً لغالبية الطلاب طوال حياتهم. لكن من يحتاج لتلك اللغة فيما بعد يعتبر ذلك أساساً لدراساتها بالتفصيل إن قرر أن يدرسها بعمق لغرض محدد.

إن استخدام هذه الطريقة سيوفر الوقت الكافى لممارسة التدريبات البدنية وكذلك للتدريب المكثف لكثير من أفرع التعليم التى ذكرتها.

❖ | درس فى التاريخ!

وهناك نوع من الإصلاح ذو أهمية خاصة يجب أن يحدث فى طريقة تدريس التاريخ. فنادرًا ما نجد شعبًا يدرس قدرًا من التاريخ أكثر مما يدرسه الألمان، ونادرًا ما نجد من يسيء الاستفادة من هذا التاريخ مثلاً. فإذا كانت السياسة هى دراسة التاريخ الذى يحدث

أماننا الآن، فإن التاريخ مرتبط بالطريقة التي توجه السياسة. لذلك فلا مجال للندم على سلوكنا السياسى إن لم تكن ننوى تزويد شعبنا بالتعليم السياسى الجيد. وفى 99 حالة من كل 100 يكون ما نتعلمه فى المجال السياسى سيئاً للغاية. فهو مجرد عدة تواريخ للميلاد وأسماء تحفظها الذاكرة، لكن العلم بالتطور التاريخى وأعمال القادة غير موجود بالمرّة. كما أنهم لا يدرسون الصفات العامة الرئيسية ذات المغزى الحقيقى على الإطلاق. فهذا أمر يترك لذكاء الطالب الذى يبحث عن الدوافع الداخلية وراء الأحداث التاريخية ويحاول الوصول إليها من خلال سيل من التواريخ والأحداث المتتابعة.

ويمكنكم الاعتراض بقوة على ذلك كيفما تشاءون، لكن لكم أن تقرأوا خطب أعضاء البرلمان الألمانى خلال جلسة واحدة فقط حول القضايا السياسية وخاصة السياسة الخارجية. وتذكروا أن هؤلاء السادة هم - كما يدعون - صفوة الأمة الألمانية، كما أن غالبيتهم قد مروا بمرحلة التعليم الثانوى ودخل كثير منهم الجامعة، وستدركون مدى القصور فيما تلقاه هؤلاء من معلومات تاريخية أثناء دراستهم. وإن كان هؤلاء السادة لم يدرسوا التاريخ على الإطلاق بل توافر لديهم مهارات جيدة فى العلاقات العامة فقط، لكان الوضع أفضل بكثير، كما أن الأمة كانت ستستفيد من ذلك بقدر أكبر.

﴿ دعوا التاريخ لعلماء التاريخ المحترفين! ﴾

ولابد من إلغاء كل الموضوعات التاريخية التى يتم تدريسها فى مدارسنا. فالقيمة الحقيقية لهذه المادة تكمن فى جعل الخطوط الرئيسية للتطور التاريخى مفهومة وواضحة. وكلما التزم تدريس التاريخ فى مدارسنا بهذه المهمة كان مفيداً للفرد وللمجتمع ككل من خلال ذلك الفرد. فلا يجب أن ندرس التاريخ من منطلق معرفة ما حدث فى الماضى فقط ولكن يجب أن نعتبره دليلاً لمستقبلنا، نتعلم منه أفضل السياسات التى يمكننا اتباعها للحفاظ على أمتنا. وهذه هى الغاية الحقيقية من دراسة التاريخ. وما دراسة التاريخ سوى وسيلة من أجل الوصول إلى تلك الغاية. لكن هنا - ومرة أخرى - تغلبت الوسيلة على الغاية فى تعليمنا المعاصر. فقد نسينا الهدف تماماً. ولا تجيبونى بالقول بأن الدراسة المتعمقة للتاريخ تتطلب معرفة تفصيلية بكل تلك التواريخ وإلا لما استطعنا معرفة التطور التاريخى، فهذه مهمة علماء التاريخ المحترفين. والشخص العادى ليس بعالم فى التاريخ. وذلك لأن للتاريخ مهمة واحدة فقط مع الشخص العادى وهى تمكينه من تكوين رأى مستقل فى الأحداث السياسية فى بلاده. لكن من يريد أن يصبح أستاذاً فى التاريخ يمكن أن يخصص كل وقته لدراسة التفاصيل فيما بعد. ومن الطبيعى فى ذلك الوقت أن يشغل باله بكل التفاصيل الدقيقة. ومن الواضح أن تدريس التاريخ حالياً لا يناسب كل ذلك. فمجاله واسع

جداً بالنسبة للطالب العادي، لكنه ضيق جداً بالنسبة للطالب الذى يريد أن يتخصص فى التاريخ.

وأخيراً فإن من واجبات دولة الشعب أن تعد لكتابة تاريخ العالم بحيث تظهر فيه مشكلة الأجناس بصورة مفصلة.

❖ | التخصص فى التعليم مطلوب..

وباختصار : فعلى دولة الشعب أن تعيد بناء أنظمة التعليم بطريقة تبقى فيها على كل ما هو ضرورى فقط. كما أن عليها أن تعد برامج تخصصية فى كل فروع العلم لمن يريد أن يتخصص فيها. ويكفى بالنسبة للطالب العادى أن يتعلم أساسيات العديد من المواد لتكون ما يمكن تسميته بالتعليم العام. وعليه أن يدرس المادة التى يتخصص فيها فقط بالتفصيل والتعمق، وهى تخص مجال عمله فيمابقى من حياته. كما يجب أن يكون التعليم العام إجبارياً، ولكن يترك موضوع التخصص لاختيار الطالب.

وبهذه الطريقة تختصر البرامج المدرسية، وتتوافر عدة ساعات دراسية تخصص للتدريبات البدنية وتدريبات الشخصية على قوة الإرادة والقدرة على إصدار أحكام عملية واتخاذ القرار، وغيرها.

يتضح اهتمام مدارسنا الضعيف بموضوع التدريب وخاصة فى المدارس الثانوية - وخاصة التدريب على المهن التى سيعمل فيها الطلاب فيما بعد - فى أن من يعملون فى المهنة الواحدة يتخرجون فى ثلاثة أنواع مختلفة من المدارس. فالتعليم العام هو المهم فقط وليس التعليم المتخصص. لذلك فالتعليم المتخصص لا يمكن أن يتم تقديمه من خلال نظام التعليم الثانوى الحالى.

لذلك فلا بد أن تتخلص حكومة الشعب فى يوم ما من أنصاف الحلول السائدة فى نظام التعليم.

أما التعديل الثانى فى المناهج والذى يجب على دولة الشعب أن تقوم به هو كالتالى :

❖ | أهمية غرس المثل العليا فى نفوس التلاميذ:

من الواضح أن تدريس المواد العلمية يجب أن يركز على الناحية العملية، فلا بد من دراسة - على سبيل المثال - الرياضيات التطبيقية والفيزياء والكيمياء وغيرها. وهى بالطبع مواد ضرورية فى عصر تسيطر عليه تكنولوجيا الصناعة والكيمياء، وهى أشياء تمس واقع حياتنا من جوانب كثيرة. لكن من الخطر أن تكتفى المعارف العامة بتلك المواد. حيث يجب أن توجه المعارف العامة - على العكس تماماً من ذلك - إلى المثل

العليا أيضاً. ويجب أن يعاد تأسيس تلك المثل في قلوب الشباب، كما يجب أن تهدف إلى إعداد الطريق للتعليم المتخصص في مختلف فروع العلم. وإلا فعلينا أن نضحى بتلك القوى الأكثر أهمية لبقاء الأمة من مجرد المعرفة الفنية.

❖ | التاريخ الرومانى والتاريخ الإغريقى:

كما يجب ألا يحذف التاريخ القديم من مناهج التاريخ المتخصصة فى قسم التاريخ. فالتاريخ الرومانى كان وسيظل أفضل أستاذ ليس لزماننا هذا فقط بل وللمستقبل أيضاً. ويجب الحفاظ على مثاليات الثقافة الإغريقية لما لها من جمال آخاذ. كما يجب ألا تمنعنا الاختلافات بين الشعوب من أن نلاحظ أنها جميعاً تنتمى إلى نفس العرق الذى يوحدنا تحت راية أكبر. فقد كان للصراعات الحالية مميزات عظيمة. فالحضارة تدافع عن وجودها. إن حضارة ناتجة عن آلاف السنين من التطور التاريخى فى شطريها الإغريقى والألمانى.

كما يجب أن يكون الفرق بين الدراسة العامة والدراسة المتخصصة واضحاً. فالدراسة المتخصصة مهددة الآن بأن تصبح فى خدمة المال. ولاستعادة التوازن لابد من نشر الثقافة العامة أو على الأقل ذلك الجزء الخاص بالمثاليات من هذه الثقافة.

❖ | أهمية تعريف التلاميذ بعظماء الدولة والمشاهير..

يرى نظام التعليم السائد اليوم أن أهم أهدافه هو ضخ المعارف فى عقول التلاميذ الصغار وحشوها بالمعلومات المفيدة لهم فى حياتهم المقبلة. وهذا المبدأ واضح فى العبارات التالية: "لا بد أن يصبح الشاب فى يوم ما رجلاً مفيداً لمجتمعه." وهم يقصدون بذلك أن تكون له القدرة على كسب قوت يومه بأمانة. لكن واجبات التدريب السطحي للمواطن الذى يحصل عليه بمحض الصدفة يقوم على أسس شديدة الضعف. فالدولة فى حد ذاتها ما هى إلا مجرد شكل، لذلك فمن الصعب تدريب الناس على أن هذه الدولة هيئة تخدمهم وتعلمهم تحمل المسؤولية. فهذا الشكل للدولة ضعيف ويمكن الإطاحة به بسهولة. لكن - وكما سبق أن رأينا - فإن فكرة الشعب عن الدولة اليوم غير واضحة بالمرة. لذلك فلا يوجد سوى التدريب الوطنى التقليدى المعتاد. لكن فى ألمانيا القديمة كان التركيز فى ذلك التدريب يعتنى بحقوق الملك كبيرها وصغيرها. كما كانت الطريقة التى تقدم بها هذه الحقوق طريقة غبية وخالية من أى مهارة. وكان من المستحيل بسبب هذا العدد الكبير من الحقوق الصغيرة للملك أن يكون هناك مجال كاف لذكر قصة حياة أى من العظماء الذين طغت شهرتهم على تاريخ الشعب الألمانى. وكانت النتيجة أن قطاعات عريضة من

الشعب الألماني لم تتلق سوى قدر غير كاف من تاريخ ألمانيا، كما أنه لا يتناول أهم مراحل التطور.

❖ | إيقاظ الروح الوطنية..

من الواضح أن استثارة المشاعر القومية صعب في هذه الحالة. وقد أثبتت نظامنا التعليمي عدم قدرته على اختيار أسماء قليلة من تاريخنا يفخر بها الشعب الألماني، ويفخر بانتمائه لهم. وكان من الممكن أن نتوحد الأمة عن طريق التوعية بهذا التراث المشترك. لكن الأشخاص المهمين في تاريخ ألمانيا لم تقدم للأجيال الحالية. كما أن انتباه الأمة كلها لم يوجه إلى هؤلاء العظام بغرض إيقاظ الروح الوطنية في نفوس المواطنين. كما أن المسؤولين عن التدريب التعليمي للطلاب لم يكونوا على دراية بكيفية إعلاء القيم الوطنية العليا التي تثير النفوس وتسمو بها فوق مستوى الأهداف العادية وذلك من أجل إشعال روح الوطنية في النفوس اقتداء بما يقدم من أمثلة مثألفة. وذلك لأن هذا البرنامج المدرسي كان يعتبر داعياً إلى التعصب السياسي بشدة وهذا لم يكن محبباً في ذلك الوقت. لكن وطنية الانشغال بالتوافه التي تخص الأسرة الحاكمة كانت مقبولة ومحتملة أكثر بكثير من إثارة المشاعر الوطنية المتأججة. فقد كانت تلك المعلومات التافهة تخدم المصالح الحالية، أما إثارة المشاعر فقد تؤدي في يوم ما إلى وجود قوة مهيمنة. فالوطنية في العهد الملكي تنحصر في عدة جمعيات، بينما تؤدي الوطنية الحقيقية إلى طريق مجهول. وقد كانت الروح الوطنية الأصلية في ذلك الوقت مثل الجواد الأصيل المدرب الذي يستطيع التعرف على قدر راحته. لذلك فلا عجب أن يحجم الناس عن هذا الخطر. ولم يكن هناك من يتوقع حدوث حرب تقيس مقدار هذه الوطنية، وذلك باستخدام المدفعية والهجوم بالغاز. لكن عندما حدث ذلك انتقمنا لذلك الشعور بشدة. ولم يكن أي منا يعبأ بالموت من أجل سيادة الدولة الملكية، وفي نفس الوقت لم يكن أغلب الجنود يعرفون معنى كلمة "الأمة".

❖ | الروح المعنوية أقوى من الحصون والقلاع!

ومنذ اندلاع الثورة في ألمانيا وانتهاء عهد الوطنية الملكية، لم يكن الهدف من تدريس التاريخ في المدارس سوى إضافة المزيد من المعلومات لعقول الطلاب. فالدولة الحالية لا تستخدمه لبث روح الحماس في الشباب، لذلك فلن تحقق أهدافها أبداً. فإذا كانت الوطنية الملكية قد فشلت في بث روح المقاومة في وقت انتشرت فيه روح القومية، فإنه من الصعب الآن إثارة روح الوطنية الجمهورية. ولا شك أن الشعب الألماني لن يقف في ساحة القتال لمدة أربعة أعوام ونصف تحت شعار "من أجل الجمهورية".

وفي الحقيقة، فقد سمح لهذه الجمهورية بالوجود بفضل استعدادها لتعويض الأجانب

وإذعانها التام وتوقيعها على تنازل عن الأرض. وقد تعاطف معها العالم كله مثلما نتعاطف مع الضعيف من أجل إرغامه على الموافقة على طلبات الأقوياء ولا نتعامل معه على اعتبار أنه رجل قوى الشكيمة. وأسوأ ما فى الأمر أن العدو يحب هذا النوع من الحكم. فهم يحبون ألمانيا الجمهورية ويتحملون وجودها، فهم لن يجدوا أداة خيراً منها تساعدكم على بقاء شعبنا مستعبداً. ولذلك فإن هذه الحكومة مدينة بوجودها لذلك الدعم من العدو. وهذا هو سبب تبرؤها من أى نظام حقيقى للتعليم الوطنى، وهى سعيدة لأن أبطالها يصبحون مدعين القوة والشجاعة بينما هم فى الحقيقة يفرون كالفئران إن طُلب منهم الدفاع بدمائهم عن راية الوطن.

ودولة الشعب ستناضل من أجل وجودها، ولن تحصل على هذا الوجود من خلال التوقيع على وثائق تشبه "خطة داوس". وستكون بحاجة إلى كل ما يتبرأ منه النظام الحالى لتحافظ على بقائها. وكلما زادت قوتها الداخلية وتدعم وجودها، زاد حقد ومعارضة الأعداء. لذلك فلن يعتمد أفضل دفاع عنها على ما تملك من أسلحة بل سيتمثل ذلك فى المواطنين. فالحصون والقلاع لن تحميها، لكن تحميها أرواح الرجال والنساء من أبناء الوطن الممثلة بالحب المخلص والعاطفة الوطنية الجياشة.

❖ | الافتخار بالانتماء إلى الأمة:

لذلك فإن الموضوع الثالث الذى سنتناوله بخصوص نظامنا التعليمى هو كالتالى :

لابد أن تترك دولة الشعب أن المواد الدراسية يمكن أن تستخدم كوسيلة لتطوير الشعور بالفخر بالأمة. ولابد من تدريس تاريخ الحضارة البشرية كلها وليس فقط تاريخ العالم من هذا المنطلق. ولابد أن يبدو المخترع فى هذا التاريخ عظيماً، وذلك ليس لأنه مخترع فقط ولكن لأنه عضو فى الأمة أيضاً، كما يجب التركيز على ذلك. ويجب أن يتحول الإعجاب الشديد بالمنجزات العظيمة إلى شعور بالفخر والرضا عن رجل من نفس العرق الذى ننتمى إليه وهو من قام بهذا الإنجاز. ونظراً لكثرة الأسماء الكبيرة فى تاريخ ألمانيا، فيجب اختيار أعظمهم لنقدمهم إلى الشباب على اعتبار أنهم الأعمدة القوية التى قامت عليها الأمة.

كما يجب ترتيب موضوعات المنهج بناء على هذه الفكرة. كما يجب أن يتم توجيه التعليم بطريقة تمكن الطالب أو الطالبة بعد التخرج من ألا يكون شبه استسلامى أو ديمقراطياً أو شيئاً من هذا القبيل، بل نريده ألمانيا من كل قلبه. لذلك فلا بد أن يكون هذا الشعور الوطنى مخلصاً وحقيقياً منذ البداية وليس مجرد ادعاء، ولابد من أن تدخل المبادئ التالية بوضوح فى عقول الصغار وهى لا تزال مرنة: يمكن لمن يحب أمته أن

يثبت صدق ذلك فقط من خلال الاستعداد للتضحية من أجل رفاهية الأمة. فلا يوجد هناك أى شعور وطنى صادق يوجه لتحقيق مصالح شخصية. كما لا توجد وطنية خاصة بطبقات محددة من الشعب فقط. والصياح لا يعنى أى شيء ولا يعنى أن صاحبه يتمتع بالوطنية إن لم يكن من يصيح مخلصاً لأمتة. ولكل منا أن يفخر بشعبه عندما لا تكون هناك أى طبقة من طبقات الشعب نخجل منها. فعندما يعيش نصف أفراد الأمة فى بؤس وشقاء أو فسق وانحلال، فإن صورة هذه الأمة لا تجعل أى فرد من أفرادها يفخر بانتمائه إليها. لكن عندما يكون كل أفراد الأمة بحالة طيبة جسدياً وأخلاقياً فإن السعادة بالانتماء إليه تزداد لتصل إلى ما نسميه بالفخر بالأمة. لكن من يعرفون عظمة أمتهم فقط هم من يشعرون بهذا الفخر فى أعلى صورته.

❖ الصراع بين الآرى واليهودى..

ولابد من بث روح الوطنية والشعور بالعدالة الاجتماعية فى قلوب الشباب. وسوف يأتى يوم تتحد فيه الأمة وتتكون من مواطنين يجبون بعضهم ويشعرون بفخر عام لا يهان ويستمر إلى الأبد.

ويدل الخوف من التعصب العنصرى وهو عرض سائد فى عصرنا هذا على عقم هذه الفترة. فهذا العصر الذى نعيش فيه لا يفتقد للطاقة الحيوية فقط، بل لا يحب وجودها أيضاً، لذلك فهو عصر لا يصلح لإنجاز المهمات الكبرى. وذلك لأن أهم الأحداث التى وقعت على هذه الكرة الأرضية لم تحدث بسبب الاستسلام المذعن للطبقة البرجوازية وحرصها على حفظ النظام بل من خلال التمس المتقد والعاطفة الوطنية القوية.

وهناك شيء مؤكد وهو: إن عالمنا يواجه ثورة كبرى. والسؤال الوحيد هنا هو: هل سيسعد الجنس الآرى بذلك أم أن المستقبل الوحيد منه هو اليهودى ؟

ويمكن لدولة الشعب من خلال استخدام الطريقة الصحيحة فى تعليم الأجيال الصغيرة أن تعد هذا الجيل لمواجهة هذا الصراع المقبل والذى سيحدد مصير شعوب العالم. والأمة المنتصرة هى الأمة التى ستسارع إلى تنفيذ ذلك.

ويجب أن يكون فهم الصفات العرقية والأفكار الخاصة بذلك أهم واجبات نظام التعليم والتدريب فى دولة الشعب. فلا يجب أن يترك طفل أو طفلة المدرسة دون أن يكون على علم بمعنى نقاء العرق وأهمية الحفاظ على ذلك النقاء. وبذلك يكون الشرط الأول الذى لا مفر منه من أجل الحفاظ على عرقنا قد توافر، وبذلك نضمن التطور الثقافى لشعبنا.

وكل هذا الجهد الذى ذكرناه بالإضافة إلى التدريب البدنى والعقلى يضيع هباء إذا لم يكن من تلقاه مستعداً للحفاظ على ذاته وعلى صفاتها المتميزة.

فإذا ما حدث عكس ذلك، فسيشعر الألمان بالندم، لكنهم ربما لن يشعروا حتى ذلك الوقت بمدى مأساوية تلك الفاجعة. ومعنى ذلك أننا قد كتب علينا أن نكون سماعاً لحضارة المستقبل، وهذا ليس بالمعنى الذى يراه أفراد طبقتنا البرجوازية ولكن بمعنى آخر يجب علينا أن نلاحظه وهو : إن عرقنا النقى سوف يختفي، وذلك بسبب استمرار الاختلاط مع الأجناس الأخرى التى نساهم فى ارتفاع درجتها ولكننا نترجع إلى منزلة أقل بكثير من موقعنا على القمة.

وأخيراً فإن هذا التدريب العرقى المدرسى يُستكمل أثناء الخدمة العسكرية. حيث ستكون فترة الخدمة العسكرية هى الفترة النهائية للتدريب الذى يتلقاه أى ألماني عادي.

❖ | كلب البودل!

وبينما تولى دولة الشعب اهتماماً كبيراً للتدريبات البدنية والعقلية، فلا بد لها أيضاً أن تفكر - بنفس القدر - فى مهمة اختيار رجال يخدمون الدولة. وهذه مهمة ذات أولوية كبرى فى الوقت الحالى. فأطفال الأبوين ذوى المنزلة العالية من الطبيعي أن يحصلوا على تعليم عال. وتلعب الموهبة هنا دوراً ثانوياً. لكن الاعتماد على الموهبة هنا أمر نسبي. فقد يكون طفل القرية أقل ثقافة عامة من طفل المدينة، لكنه قد يكون أكثر موهبة من طفل نشأ فى عائلة تتحدر من سلالة راقية لعدة أجيال. فالثقافة الفائقة لطفل المدينة ليس لها علاقة من قريب أو بعيد بدرجة الموهبة، وذلك لأن الثقافة تتكون من التعليم بطرق مختلفة ومن البيئة المحيطة بحياة الطفل. فإذا ما نشأ طفل لأبوين ريفيين وتعلم فى صغره فى بيئة مشابهة لطفل المدينة لكانت إنجازاته العقلية مختلفة تماماً. وفى يومنا هذا يوجد مجال واحد فقط يعتبر مجالاً فنياً متوارثاً بالفطرة. وهو مجال الفن. حيث لا يمكن للفرد أن يتعلم ويتدرب على فن ما فقط، حيث لابد من وجود الموهبة الفطرية. وهى موهبة قد تجلب له قدراً من السعادة والمال والممتلكات التى لا مثيل لها، وهذا أكبر دليل على أن العبقرية لا ترتبط بالغنى أو الطبقة الاجتماعية العالية. فكثير من الفنانين الكبار نشأوا فى أسر فقيرة. وكثيراً ما تحول طفل قروى صغير إلى معلم كبير.

لكن ليس هناك قانون ثابت فى عالم القدرات العقلية. وبالرغم من انطباق المثال السابق ذكره على عالم الفن لكنه لا يصلح للتطبيق فى مجال العلوم التطبيقية. لكن من الممكن أن يتدرب الرجل على قدر معين من مهارات الميكانيكا، وذلك مثلما يتعلم كلب "البودل"⁽¹⁾ حركات يؤديها بمهارة بعد أن يتدرب على يد أستاذ بارع. لكن هذا التدريب لا يجعل

(1) كلب «البودل» هو إحدى سلالات الكلاب التى تربي فى أوروبا وتستخدم فى الصيد... وله شعر كثيف ذو ألوان مختلفة. (الناشر).

الكلب يستخدم ذكائه في القيام بهذه الحركات. ويمكن تطبيق نفس الشيء على الإنسان. فمن الممكن أن يتعلم الإنسان مهارات - بغض النظر عن وجود الموهبة من عدمه - من خلال التدريب العلمي، لكن في هذه الحالة تقتقد النتائج الروح وتصبح آلية تماماً كما في حالة الحيوان. لذلك يصبح من الممكن أيضاً أن ندفع شخصاً متوسط الذكاء - من خلال التدريب العقلي - لتحصيل قدر غير عادي من المعارف لكنها ستظل معارف غير مستخدمة. وتكون النتيجة أن يتحول هذا الرجل إلى قاموس للمعرفة يمشى على قدمين لكنه يفشل في مواجهة كل موقف حرج يصادفه في حياته وعند كل مرحلة تتطلب اتخاذ قرارات. ومثل ذلك الرجل يحتاج للتدريب على كل مهمة جديدة حتى وإن كانت بسيطة، كما أنه لن يكون قادراً أبداً على أقل مساهمة في تطور البشرية. فالمعارف التي يتعلمها الناس الآن تؤهلهم في أفضل الأحوال إلى العمل في الوظائف الحكومية للنظام الحالي.

❖ المعرفة والموهبة!

ومن المعروف أن هناك عدداً محدوداً من الموهوبين في كل مجال من بين العدد الكبير من الأفراد الذين تتكون منهم الأمة ككل. كما أنه من الطبيعي أيضاً أن قيمة المعرفة تتزايد بتزايد الاستفادة من مواهب الفرد الذي يمتلك تلك المعرفة. فالعمل الخلاق في هذا المجال يتولد من تلاقي المعرفة والموهبة.

ومثال واحد يكفي لإيضاح كيف يخطئ عالمنا الحالي في هذا الأمر. حيث ينشر من وقت لآخر أن أحد الزوجين في مكان ما من العالم قد أصبح محامياً أو معلماً أو قسيساً أو حتى مغني أوبرا كبيراً أو أي شيء من هذا القبيل. وبينما يهز أصحاب العقول المتحجرة من الطبقة البرجوازية رؤوسهم إعجاباً، يرى اليهودي الخبيث أن هذه الحقيقة ما هي إلا دليل جديد يمكنه استخدامه في النظرية التي يريد نشرها بين عامة الناس وهي أن الناس سواسية. ولم يخطر في عقل أي فرد من أفراد الطبقة البرجوازية أن ما نشر هو جريمة ضد العقل ذاته، فهذا عمل إجرامي يؤدي بكائن شبيه بالإنسان منذ مولده إلى ما يمكنه من الادعاء بأنه أصبح محامياً⁽¹⁾، بينما يعيش ملايين من الناس ممن ينتمون لأرقى الأجناس في ظروف لا تناسب مستوى ثقافتهم. لم تدرك الطبقة المتوسطة أن ذلك جريمة في حق إرادة الله الخالق، حيث يعيش مئات الآلاف من الموهوبين من الناس في بؤس طبقة العمال بينما يتدرب أفراد الزولو على شغل الوظائف النظرية. وفي هذه الحالة يكون ما توصلوا إليه هو نتيجة تدريب فقط يشبه تدريب الكلاب على القيام بأي عمل. فإذا ما بذلنا

(1) مرة أخرى يسخر هتلر من الزوج ويقل من شأنهم ويصنفهم خارج البشر مع أن الناس سواسية كأسنان المشط... أما أوهام العرق النقي والمتفوق فهو الجنون بعينه ولا حول ولا قوة إلا بالله. (الناشر).

نفس القدر من العناية والجهد مع أجناس ذكية فإن كل فرد يتدرب سيصبح ذا قدرة فائقة
تزيد عن ألف ضعف من قدرات الحالة الأولى⁽¹⁾.

❖ الاهتمام بالموهوبين وتحويلهم إلى قادة موهوبين!

وهذه الحالة تصبح غير محتملة عندما يأتي اليوم الذى لا تعتبر فيه حالة استثنائية. كما
أن الموقف لا يحتمل فعلاً لأن المواهب الطبيعية لم تعد عوامل فارقة تؤهل للحصول على
تعليم عال. كما أنه من غير المحتمل أن نجد مئات الآلاف من الشباب الذى لا يملك ذرة
موهبة ينال تعليمًا عاليًا عاماً بعد عام، بينما يبقى مئات الآلاف من الموهوبين بلا أى تعليم
عال على الإطلاق. فالخسارة التى تمنى بها الأمة نتيجة لذلك لا تحصى. وأحد أسباب
تزايد الاكتشافات الهامة فى أمريكا فى السنوات الأخيرة هو أن عدد الموهوبين ممن
ينتمون إلى أدنى طبقات المجتمع قد منحوا فرصة التعليم العالى فى تلك الدولة التى تزيد
مساحتها عن مساحة أوروبا.

فتخزين قدر كبير من المعلومات فى العقل لا يكفى لتحقيق الاكتشافات. فما نريده فى
هذه الحالة هو العلم المدعم بالموهبة. لكن عصرنا الحالى لا يهتم أبداً بقيمة أى موهبة،
وكل ما نهتم به هو الشهادات الدراسية الجيدة.

وهذه هى مهمة أخرى من مهام التعليم التى يجب على دولة الشعب أن تقوم بها.
فليس من مهامها أن تضمن سيادة طبقة اجتماعية قائمة فعلاً، لكن من واجبها أن تجذب
أكفاً عقول الأمة وتدفعهم إلى أماكن مشرفة ومناسبة لهم. فليس من واجب الدولة فقط أن
تقدم قدراً محدداً من التعليم الابتدائى للطفل العادى، لكن من واجبها أيضاً أن تفسح
الطريق أمام المواهب وتوجههم إلى الاتجاه الصحيح. وقبل كل شيء، عليها أن تفتح
أبواب التعليم العالى فى الدولة أمام المواهب مختلفة الأنواع مهما كانت الطبقة الاجتماعية
التي تنتمى إليها. وهذه ضرورة حتمية، فبهذه الطريقة فقط نتمكن من تنمية الموهوبين
وتحويلهم إلى قادة شعبيين يمثلون الطبقة المتعلمة.

❖ عزلة الطبقة المثقفة!

وهناك سبب آخر يجعل الدولة مسئولة عن هذا الأمر، وهو أن طبقة المثقفين عندنا فى

(1) وددت فقط أن أسجل ملاحظتى على تجرؤ هتلر فى وصفه لكثير مما لا يرضى عنه بأنه "ضد إرادة الله". حاشا لله. كما
أننى لاحظت أنه تخلى فى هذه الفقرة لأول مرة عن تحفظه وأعلن رأيه أن "الناس ليسوا سواسية" وقد كان فيما قبل
يتحدث عن "الفروق" فى الصفات والقدرات بين الأجناس.

ألمانيا منغلقة على نفسها وتفقد الاتصال الحى مع الطبقات الأخرى الأقل منها. وهذا يؤدى إلى نتيجتين ضاريتين : الأولى هى أن الطبقة المثقفة لا تتعاطف مع جماهير الشعب العريضة ولا تفهمها. فقد قطعت كل ارتباطاتها بتلك الطبقات منذ أمد طويل لدرجة جعلتها لا تملك أى روابط نفسية تمكنها من فهم تلك الطبقات. فقد أصبحت غريبة عن ذلك الشعب. وثانيها أن الطبقة المثقفة تفقد قوة الإرادة وتعيش منعزلة عن بقية طبقات الشعب. ويعلم الله أننا نحن الألمان لا ينقصنا الثقافة العلمية لكن نفقد قوة الإرادة والقدرة على اتخاذ القرار. وعلى سبيل المثال، كلما زادت ثقافة رجال الدولة عندنا ، زاد عجزهم عن تحقيق المنجزات. وقد كان إعدادنا السياسى واستعدادنا الفنى للحرب العالمية ناقصاً، وهذا بالتأكيد لا يعود إلى نقص فى تعليم المسؤولين عن الدولة بل لأن من يوجهون العلاقات العامة كانوا ممن تلقوا كثيراً من العلم والمعرفة والثقافة، لكن كل ذلك لم يمنع تجردهم من القدرة على المبادرة والشجاعة. فقد كان مقدراً لأمتنا أن تحارب تحت قيادة مستشار كان فيلسوفاً مثلكنا. فلو كان لدينا قائد خشن من الشعب بدلاً من "بيتمان فون هوج" لما ضاعت دماء أبطال بلادنا هباء. وكانت المبالغة فى إغراق قادتنا بالثقافة هى الحليف الأول للأوغاد الذين قاموا بثورة نوفمبر. فقد قام المثقفون بحماية ثروات الأمة بطريقة بائسة بدلاً من دفعها إلى الأمام، وبذلك أرسوا قواعد استخدامها العدو ليحقق النصر علينا.

وهنا تقدم لنا الكنيسة الكاثوليكية مثلاً يحتذى، فقد دفع الرهبان الكنيسة لتختار قسوسها من بين جماهير الشعب. ومن هنا تتبع القوة التى لا تقهر والتى تتصف بها الكنيسة القديمة. فهى لم تتوقف عن تعيين قسس من أدنى طبقات الشعب مما مكنها من الاتصال بجماهير الشعب وفهم متطلباتهم. وذلك لم يمكن الكنيسة فقط من الحفاظ على بقاء تلك العلاقة مع الشعب فقط، ولكن أيضاً من التأكد الدائم من قدرتها على الاعتماد على طاقات جماهير الشعب. وهنا اتضح قيمة الكنيسة الحقيقية ومرونتها وإرادتها الصلبة القوية.

❖ | الموهوبون أولاً!

كما أن من مهام دولة الشعب أن تدير نظامها التعليمى وتعهده على أساس الزيادة المستمرة لطبقة المثقفين الحاليين. كما أن على الدولة أن تتلقى الموهوبين من أبناء الأمة وتوظفهم فى خدمة المجتمع. فلا الدولة ولا الهيئات التابعة لها يمكنها أن تقدم دخلاً كافياً لأبناء الطبقة الراقية، لكنها يمكنها أن تحدد مهمتهم. وهذا يصبح ممكناً على أى حال إن تربت الدولة أفرادها خاصة على أعمال هذه الوظائف. ولا بد أن يحصل هؤلاء الأفراد على القدرات الأساسية وأن يتدربوا على قوة الإرادة. وهذا المبدأ لا ينطبق فقط على الوظائف المدنية بل ينطبق أيضاً على جميع من يشارك فى الحياة الثقافية وفى قيادة

الشعب، بغض النظر عن المجال الذى يعمل به. فعظمة الشعب ترتبط بمدى نجاحه فى تدريب أفضل العقول على أعمال الخدمة العامة التى يميلون إليها بطبيعتهم وفى المراكز التى تمكنهم من تقديم أقصى ما فى وسعهم لصالح المجتمع. فإذا ما دخلت أمتان من نفس النوعية فى صراع فسوف تخرج تلك الأمة التى وضعت أفضل الموهوبين فى قياداتها الفكرية والأخلاقية منتصرة. أما الأمة التى تضع تلك المسئوليات على عاتق موظفين يعملون من أجل لقمة العيش فستسحق لأنها لم تستفد من الأفراد الموهوبين لديها.

❖ | احترام العمل اليدوي..

لكن هذا الإصلاح مستحيل فى عالم اليوم. فلابد أن نجد من يعترض على أننا يمكن أن نتوقع من ابن أحد الموظفين الكبار أن يعمل عملاً يدوياً لأن هناك من ينتمى للطبقة العاملة ويصلح للوظيفة المدنية أكثر منه. وهذا الاعتراض سيظل مقبولاً طالما أننا لا نزال ننظر إلى الأعمال اليدوية على أنها أعمال دونية حتى اليوم. وهنا نجد أن على دولة الشعب أن تتخذ موقفاً تجاه تقدير طبقة العمال، ولا بد أن يختلف هذا الاتجاه جذرياً عن الاتجاه السائد حالياً. ولها أن تضع نظاماً تعليمياً يقوم على إلغاء النظرة الحالية التى تحتقر العمل اليدوي وتعتبره عملاً مخزياً إن احتاجت لذلك.

كما يمكن تقييم قوة إرادة الفرد ليس فقط من خلال ما يقدمه من عمل ولكن من خلال طريقته فى تقديم هذا العمل وبمقدار الفائدة العائدة منه على المجتمع. وقد يبدو هذا الكلام غريباً فى مجتمع يعتبر أن أى صحفى غبى صاحب عمود يومى فى جريدة أفضل من أكثر العاملين فى مجال الميكانيكا مهارة وذلك لمجرد أنه يستخدم القلم. لكن - وكما قلت من قبل - هذا التقييم الزائف لا يتفق مع طبيعة الأشياء. فالوضع القائم غير طبيعي، وكنا فى وقت ما لا نتبع تلك الاتجاهات مطلقاً. أما الوضع الحالى غير الطبيعي فهو واحد من تلك الظواهر المرضية التى ظهرت فى هذا العصر. ومن المعروف أن أى نوع من العمل له وجهان، وجه مادي والآخر مثالي. وتعتمد القيمة المادية على الأهمية العملية لهذا العمل فى حياة المجتمع. فكلما زاد عدد أفراد الشعب المستفيدين من هذا العمل بطريقة مباشرة أو غير مباشرة زادت قيمته المادية. وهذا التقييم يعبر عنه بطريقة مادية أيضاً من خلال مقدار المرتب الذى يتقاضاه الفرد مقابل عمله. وفى مقابل ذلك العمل المادي الخالص توجد القيمة المثالية. وهنا لا يتم تقييم العمل من خلال قيمته المادية بل من خلال مدى تلبيةه لمطلب ملح. ومن المؤكد أن القيمة المادية لاختراع أكبر مما يقدمه العامل العادي. لكن من المؤكد أيضاً أن المجتمع فى حاجة إلى كل تلك الخدمات اليومية البسيطة بنفس قدر حاجته إلى الاختراعات العظيمة. ويمكن التفريق - من الناحية العملية - بين

الأنواع المختلفة من الأعمال بمقدار ما تقدمه من فائدة للمجتمع. أما فيما يخص خطط العمل بصفة عامة فإن كل العمال متساوون فى اللحظة التى يحاول فيها كل منهم تقديم أقصى جهده فى العمل، بغض النظر عن مجال العمل. وبناء على ذلك تقدر قيمة الرجال الذين لا يصلح الراتب الذى يقاضونه لتقييمهم.

❖ كفاءة الفرد هى المعيار الوحيد!

كما لابد أن تحرص الدولة على توجيه كل فرد إلى العمل الذى يتوافق مع قدراته. أى أن يتم تدريب الأفراد على ما ينمى المواهب التى تناسب طبيعتهم. لكن هذه المواهب - أو الصفات - فطرية ولا يمكن اكتسابها بالتدريب، فهى منحة من الطبيعة وليست من صنع الناس. لذلك فليس للناس أن تحكم على بعضها من خلال العمل الذى يقوم به كل منهم، وذلك لأنه عمل منوط بهذا الفرد لا أكثر ولا أقل.

فالعمل الذى يقوم به الفرد ليس هو الغرض من وجوده، ولكن مجرد وسيلة. أما هدفه الأسمى فى الحياة فهو الارتفاع بمستواه الشخصى والوصول بنفسه إلى مستوى أعلى كادى، لكنه لا يتمكن من ذلك إلا من خلال المجتمع الذى يعيش فيه والذى يؤثر فيه بثقافته ويشترك معه فيها. ولابد أن يقوم هذا المجتمع دائماً على الأسس التى قامت عليها الدولة، وعليه أن يساهم فى الحفاظ على تلك الأسس. وتحدد الطبيعة شكل هذا الإسهام. فمن واجب الفرد أن يعيد للمجتمع ما قدمه له بأمانة وتحمس. ومن يفعل ذلك يستحق كل الاحترام والتقدير. ومن الممكن تقديم مكافآت مادية لمن تساهم أعماله فى خدمة المجتمع. لكن المكافأة المثالية تكمن فى التقدير الذى يستحقه كل فرد يخدم شعبه أيضاً كانت مهمما كانت قدراته الطبيعية التى يتمكن من تطويرها بالتدريب. وبهذا لن يشعر أى حرقى أنه يعمل عملاً مخزياً، لكن من يعمل فى وظيفة حكومية غير كفاء لها لابد أن يشعر بالخزي. وذلك لأنه يضيع يومه فيما لا يفيد ويسرق قوت يومه من الشعب الأمين. كما سيصبح من الطبيعى أيضاً ألا تمنح المراكز لأفراد لا تؤهلهم طبيعتهم للقيام بواجباتها.

بالإضافة إلى أن كفاءة الفرد ستصبح المعيار الوحيد للحصول على حق المشاركة فى القضايا المدنية العامة.

والعهد الحالى فى طريقه إلى الزوال. فالحديث يدور عن المعاناة العالمية والحقوق العادلة المتساوية لكن لا يوجد أساس تقوم عليه هذه المساواة. وفى هذا العصر تحدد الحرب المادية قيمة الإنسان وهى بذلك تحطم القواعد التى يقوم عليها أنبل أنواع المساواة فى العالم. وذلك لأن المساواة لا تعتمد - ولا يمكن أن تعتمد - على العمل الذى يقوم به الإنسان، ولكن فقط على الطريقة التى يستخدمها كل منهم فى إنجاز ما هو منوط به من أعمال.

وفى الوقت الحالي، وعندما يقيم كل أفراد الشعب بعضهم البعض بمقدار ما يتلقونه من رواتب، فإن ذلك يعنى أن كل ما قلته لا قيمة له. لكن ذلك ليس كافياً لجعلنا نتوقف عن نشر تلك الأفكار. لا ... على العكس تماماً. ففي هذه الفترة المتدهورة المصابة بالأمراض لابد لكل من يملك علاجاً أن يكون شجاعاً ويشارك فى كشف الأسباب الحقيقية للمرض على أقل تقدير. وعلى الحركة القومية الاشتراكية أن تأخذ ذلك على عاتقها. وعليها أن ترفع صوتها ليعلو على أصوات البرجوازيين، وعليها أيضاً أن توحد جهود كل من يرغب فى المساهمة فى ترسيخ هذا المذهب الجديد وجمع كل المؤيدين والمناصرين.

❖ القيم العليا.. أهم من المال..

ولابد من وجود اعتراض يقول: إنه من الصعب أن نفرق بين القيم المادية والقيم المثالية للعمل وأن القيمة المتدنية للعمل اليدوى ناتجة عن أن الحرفيين يتقاضون أجوراً زهيدة. لكننا نرد بأن الأجور الزهيدة هى فى حد ذاتها سبب يحرم العمال من المشاركة فى حياة الأمة الثقافية، وبذلك يكون الجانب المثالى من الثقافة غير متاح له بصورة تامة لأنه لا علاقة له بأنشطته اليومية. كما يمكننا أن نضيف أن رفض العمل اليدوى يمكن تبريره بأن الأجر الزهيد يجعل الحياة الثقافية للعمال متدنية، وهذا يبرر أيضاً تلك المنزلة المتدنية لجميع الأعمال اليدوية بصفة عامة.

وهناك قدر كبير من الحقيقة فى كل ما ذكرت. لكن هذا هو السبب الحقيقى الذى يجعلنا نأمل أن تختفى الفروق الكبيرة فى الأجور فى المستقبل. ولا يجب أن نعترض على ذلك بالقول بأن نوعية العمل فى تلك الحالة ستكون أسوأ. فمن أسوأ مظاهر التدهور أن نحصل على أفضل الأعمال الفكرية فى مقابل أجور عالية. فلو كان هذا رأى قد تسيد العالم حتى الآن، لما كانت البشرية قادرة على تحقيق هذا القدر الكبير من التراث العلمى والثقافى. فكل الاختراعات والاكتشافات العظيمة وأعظم الأعمال العلمية وأجمل آثار الحضارة الإنسانية لم تقدم للبشرية تحت ضغط المال. ولكن على العكس تماماً، فكل الأعمال ترتبط فقط بمتع حسية لا يمكن شراؤها بالمال.

ويبدو أن المال قد أصبح قوة توجه حياتنا اليوم. لكن سيأتى الوقت الذى ينحنى فيه الرجل أمام قيم أعلى. فأكثر ما يتوافر لنا اليوم من أشياء مدين بوجوده إلى الرغبة فى الحصول على المال والممتلكات. لكن من يغادر الدنيا وهو لا يملك شيئاً من تلك الأشياء لا يعتبر فقيراً.

ونحن لسنا من الساذجة حتى نعتقد أن هناك عصرًا بلا مساوىء، لكن هذا لا يعفينا من مسئولية القتال من أجل إزالة العقبات التى نلاحظها والتغلب على العيوب التى تبعدنا عن

المثالية. وعلى أى حال يجب علينا أن نواجه أى حقيقة صعبة ونجاهد حتى نحقق طموحاتنا. لكن هذا يعنى أن على الإنسان أن يجاهد ويجاهد فى خدمة الهدف الأسمى الذى نسعى إليه وألا يعوقه أى فشل ويجعله يتبرأ من أهدافه. وذلك يشبه تماماً أننا لا يمكننا أن نرفض العدالة بسبب بعض الأخطاء التى تحدث عند تطبيق القانون ولا يمكننا أن نتبرأ من الطب لأنه لم يقض على جميع الأمراض نهائياً.

كما يجب أن يحرص الفرد على عدم التقليل من قيمة المثل. فإذا كان هناك من يتألمون من الأحوال الحالية وكان منهم من عمل بالجيش، فإنى أذكرهم بالوقت الذى كانت فيه بطولتهم وشجاعتهم أفضل مثال للقوة الملازمة للدوافع المثالية. فلم يكن أحد منهم مشغول البال بكيفية كسب قوت اليوم، وأقبلوا على التضحية بأرواحهم بلا تردد. فقد شغلوا فقط بحبهم لوطنهم وإيمانهم بعظمة هذا الوطن، والشعور بالفخر بهذه الأمة. وعندما أبعد الألمان عن هذه المثالية - لكى يحققوا الوعود المادية التى وعدتهم بها الثورة - ألغوا السلاح وحملوا حقائبهم. وبذلك لم يدخلوا جنة الأرض ولكن غاصوا فى الآثام وعانوا من الفقر العام.

لذلك فلا بد لنا أن نواجه من يعدون للجمهورية المادية بالنقطة الشديدة فى الدولة المثالية.





مواطنو الدولة ورعاياها

يصنف النظام الذى يسمى خطأ بـ "الدولة" الشعب بشكل عام إلى مجموعتين : مواطنين وأجانب. المواطنون هم الذين يمتلكون الحقوق المدنية كاملة إما بسبب ميلادهم على أرض الدولة أو بسبب منحهم الجنسية، أما الأجانب فهم الذين يتمتعون بنفس هذه الحقوق ولكن فى دولة أخرى. وفيما بين هاتين المجموعتين يوجد أشخاص معينون يشبهون الظواهر النيزكية. وهم أشخاص بلا أى جنسية ولا ينتمون لأى دولة وبالتالي لا يتمتعون بأى حقوق مدنية فى أى مكان.

وفى معظم الحالات هذه الأيام، يكتسب شخص ما حقوقاً مدنية بسبب مولده داخل حدود الدولة، أما الجنسية أو الجنس الذى ينتمى إليه فهما لا يلعبان أى دور. إن الطفل الزنجى الذى عاش يوماً ما تحت حماية ألمانيا، ويعيش الآن فيها، يصبح مواطناً ألمانياً بطريقة آلية، وذلك من وجهة نظر العالم. وب نفس الطريقة، فإن أى طفل يهودى أو بولندى أو أفريقى أو أسوى قد يصبح ألمانياً بطريقة آلية.

وبالإضافة إلى منح الجنسية بسبب ميلاد شخص ما داخل الدولة، يوجد نوع آخر من الجنسية المكتسبة، وتتعلق هذه العملية بالعديد من المتطلبات المبدئية. فعلى سبيل المثال يشترط ألا يكون طالب الجنسية لصاً أو قاطع طريق، كما يجب ألا تتسبب اتجاهاته السياسية فى أى نوع من التوتر أو الاضطرابات، بمعنى آخر يجب أن يكون شخصاً بسيطاً ساذجاً بلا أى أفكار سياسية. كما يجب أيضاً ألا يكون عبئاً على الدولة التى يأمل أن يصبح مواطناً فيها. وفى عصرنا الواقعى هذا، فإن آخر شرط هو أنه يجب ألا يمثل أى أعباء مالية للدولة. لو كانت ظروف المرشح للجنسية مناسبة بحيث يمكنه أن يدفع الضرائب بصورة مستمرة، فسوف يتم أخذ ذلك فى الاعتبار جيداً، وسيساعده فى الحصول على الحقوق المدنية بأقصى سرعة ممكنة. ولا يلعب موضوع العرق أى دور هنا.

﴿ سادة وعبيد! ﴾

إن عملية اكتساب الحقوق المدنية لا تختلف كلية عن الاشتراك فى نأدى السيارات، على سبيل المثال، كما أنها تشبه من يملأ استثماراً، ثم يتم فحصها والموافقة عليها، وفى يوم ما سوف يتسلم الشخص المرشح كارتاً يخبره أنه قد أصبح مواطناً، ويتم تقديم هذه المعلومات بطريقة ممتعة حقاً. حيث يتم إخبار المرشح الذى كان - ولا يزال - يستخدم لغة الزولو وغيرها من اللغات الأفريقية بإخطار يقول : "قد أصبحت الآن مواطناً ألمانياً."

يستطيع رئيس الدولة أن يقوم بهذا العمل الساحر. أى أن موظفاً مدنياً يحقق ذلك بجرة قلم. نعم ... لا شيء سوى علامة بالقلم وبصير العبد المنغولي⁽¹⁾ مواطناً ألمانياً على الفور. يحدث ذلك ليس فقط دون السؤال عن الجنس الذى ينتمى إليه الفرد، ولكن دون سؤال عن صحته البدنية أيضاً، فربما يكون مصاباً بمرض الزهري، لكن الدولة ترحب به رغم ذلك ما لم يمثل أى خطر سياسى عليها.

بهذه الطريقة، وبمرور السنوات، تتجرع تلك الكائنات التى نطلق عليها اسم الدول سموماً لا تستطيع التغلب عليها.

وهناك فرق آخر بين المواطن والأجنبي، وهو أن المواطن يحق له أن يشغل مناصب أو وظائف عامة، وربما يجب عليه أن يؤدي الخدمة العسكرية، وفي المقابل يكون له الحق فى المشاركة فى الانتخابات العامة بالسلب أو بالإيجاب. هذه هى امتيازاته الأساسية. أما بخصوص الحقوق الشخصية أو الحرية الشخصية، فسيتمتع الأجنبي بنفس قدر الحماية التى يتمتع بها المواطن، وأحياناً يزيد عنه. وعلى أى حال، فإن هذا ما يحدث فى جمهوريتنا الألمانية الحالية.

أنا أعلم تماماً أن أحداً لا يجب أن يستمع لهذا الكلام، ولكن من الصعب على أن أتصور وجود أى شيء أكثر جنوناً وانعداماً للمنطقية من قوانيننا الحالية الخاصة بالجنسية.

وفى الوقت الحالي، توجد دولة واحدة فقط تقوم على الأقل ببعض المحاولات المتواضعة التى تعكس دراية أكبر بكيفية وضع القوانين المتعلقة بهذا الأمر. وهذا النموذج لا يحدث فى جمهوريتنا الألمانية ولكن فى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث تبذل الجهود لإرضاء الرأى العام. وذلك عن طريق رفض دخول المهاجرين للدولة لو كانوا مرضى، وعن طريق استبعاد أجناس محددة من الحصول على الجنسية كمواطنين بالدولة، وقد بدأوا فى تطبيق مبادئ مشابهة لتلك التى نأمل أن تؤسس عليها دولة الشعب.

إن دولة الشعب سوف تصنف سكانها إلى ثلاث مجموعات: المواطنون والراعياء والأجانب.

حيث يعطى الميلاد داخل الدولة مرتبة الراعياء فقط. وهذا الحق لا يشمل العمل بأى منصب داخل الدولة أو حتى المشاركة فى الحياة السياسية، مثل المشاركة فى الانتخابات سواء بطريقة إيجابية أو سلبية. وهناك مبدأ آخر وهو ضرورة إثبات عرق وجنسية كل الراعياء. ولكل منهم مطلق الحرية فى أى وقت فى أن يترك هذا الحق ويصبح مواطناً فى

(1) ويل للأجناس غير الألمانية كالزنجى والمغول والبولنديين وغيرهم من الشعوب غير الآرية.. ويا سوء عاقبتهم.. وأى مصير أسود ينتظرهم، فهم من وجهة نظر السيد هتلر أناس لا ينتمون للبشر بل هم عبيد يجب أن يسخروا فى خدمة الرجل الآري! (الناشر).

الدولة التى ينتمى إليها حسب جنسيته. ويكون الفرق الوحيد بين الأجانب والرعايا هو أن الرعايا مواطنون يعيشون فى دولة أخرى غير بلادهم الأصلية.

من حق الولد أو البنت الصغيرين اللذين يتمتعان بالجنسية الألمانية وهم أيضاً من أفراد أسرة من المواطنين الألمان أن يكملوا فترة تعليمهم الأساسية الواجبة على كل ألماني، كما يخضع الولد لنظام التدريب الذى سيمكنه من أن يكون على دراية بالعرق الذى ينتمى إليه، والشعب والمجتمع الذى ينتمى إليهما. وبعد ذلك يجب عليه أن يقوم بكل المتطلبات التى تفرضها عليه الدولة بخصوص التدريبات البدنية بعد إنهاء فترة التعليم المدرسية، وأخيراً يدخل الجيش. وتدرّبات الجيش ذات نوعية عامة، ويجب أن يمر بها كل فرد فى ألمانيا، فسوف تجعل منه إنساناً كفئاً قادراً على الوفاء بالمتطلبات الجسمانية والذهنية فى الخدمة العسكرية. ويمنح حق المواطنة لكل شاب أثبت أن صحته وشخصيته سليمتان، وذلك بعد انتهائه من مدة الخدمة العسكرية. ويحدث هذا المنح لحق المواطنة فى احتفال مهيب. كما يحتفظ الشاب بشهادة حق المواطنة كأعلى شهادة فى حياته، فسوف تؤهله لممارسة كل حقوقه كمواطن ومن الاستمتاع بكل الامتيازات. ويجب على الدولة أن تفرق بوضوح بين أبناء الأمة الذين يعتبرون أساساً ودعامة لوجود وعظمة الأمة، وبين المقيمين داخل الدولة لمجرد كسب لقمة العيش⁽¹⁾.

وفى أثناء الاحتفال بمنح شهادة حق المواطنة، يقسم المواطن الجديد بالولاء والإخلاص للمجتمع والدولة. هذه الشهادة يجب أن تكون الرابطة الذى يجمع ويوحد كل طبقات المجتمع المتنوعة، ويجمع أيضاً كل أجزاء الدولة مع بعضها. إنه لشرف عظيم أن يكون الفرد مواطناً فى الدولة الألمانية، حتى لو كان جامع القمامة فى الشارع، على أن يكون ملكاً فى دولة أجنبية.

يملك المواطن امتيازات لا تمنح للأجنبي. فهو سيد الدولة الألمانية. ولكن لهذا الشرف العظيم التزاماته أيضاً. فمن الممكن أن يحرم الذين لا يملكون أى شرف، من المجرمين، أو الخائنين لموطنهم الأصلي من حقوق المواطنة فى أى وقت. وبذلك يصبحون مجرد رعايا داخل الدولة.

وتعتبر البنت الألمانية من رعايا ألمانيا، لكنها تصبح مواطنة ألمانية عندما تتزوج، وفى نفس الوقت يحق للنساء اللاتى يكسبن قوت يومهن بشكل مستقل الحصول على شهادة المواطنة لو كن من الرعايا الألمان.

(1) فهم مرتزقة!... وجنس لا يرقى إلى الجنس الألمانى الآري وكيف يتساوى بهم!! (الناشر).



إذا كان أهم واجبات دولة الشعب القومية الاشتراكية هو أن تعلم أفراد الشعب وتطورهم، فلن يكفى تطوير المنتمين إلى الأعراق فقط وتدريبهم على الحياة العملية، لكن على الدولة أيضاً أن تعدل نظامها ليوافى باحتياجات هذه المهمة.

فمن العبث أن نقيم الإنسان طبقاً للعرق الذى ينتمى إليه وفى نفس الوقت نحارب مبدأ الماركسية الذى يقول بأن كل البشر سواسية، وذلك دون أن نحاول تطبيق هدفنا إلى أن يحقق أفضل نتائج. فإذا اعتبرنا أن العرق هو أهم عنصر تقوم عليه الحياة، فعلينا أن نطبق النتائج المنطقية لذلك على الأفراد. وبصفة عامة يجب على أن أحدد قيمة الأمم بطريقة مختلفة، وذلك على أساس الأعراق المختلفة التى تتحد منها هذه الأمم، ولا بد أيضاً أن أميز بين الأفراد الذين أقيمهم طبقاً للعرق الذى ينتمى إليه الفرد. فقاعدة أن الشعوب تختلف عن بعضها البعض تنطبق أيضاً على أفراد الأمة الواحدة. فلا يوجد عقل واحد يتساوى تماماً مع عقل آخر، وذلك لأن العناصر المكونة للجنس الواحد تختلف فى آلاف التفاصيل الدقيقة، بالرغم من أنها تنتمى إلى نفس النوعية.

وأولى نتائج هذه الحقيقة بسيطة نسبياً، وهى ترى ضرورة تشجيع أفضل عناصر المجتمع الواحد عن بقية العناصر، فلا بد من تشجيعها وحثها على التكاثر.

وهذه مهمة سهلة نسبياً لأن من الممكن ملاحظتها وتنفيذها بطريقة آلية. لكن من الأصعب أن نختار من بين أفراد الشعب من لديه ذكاء عال وصفات روحية كافية لنضعه فى المراكز المؤثرة التى لا تتوافق مع ما لديه من مواهب فقط بل أيضاً مع أنشطته التى تفيد الأمة قبل كل شيء. ولا يمكن أن يحدث هذا الانتقاء الذى يتم طبقاً للقدرات والكفاءة تأثيراً إن تم بطريقة آلية. فهو عمل يتم إنجازه فقط من خلال كفاح مستمر أثناء الحياة اليومية ذاتها.

❖ | أفضل شعب فى العالم!

ويهدف المذهب الذى يتبرأ من الطريقة الديمقراطية فى حكم الجماهير إلى خلق أفضل شعب فى هذا العالم، أى أنه شعب من أفضل نوعيات البشر. كما يجب أن يعتنى هذا المذهب أيضاً بمنح الوظائف القيادية ذات التأثير الكبير لأفضل الرجال. ولا بد ألا يقوم ذلك على فكرة الأغلبية ولكنه يعتمد على الشخصية.

وكل من يعتقد بأن دولة الشعب القومية الاشتراكية ستميز على بقية الدول بطريقة آلية- كما حدث من قبل - من خلال بناء حياة اقتصادية جيدة بفضل التوازن بين الغنى والفقير أو منح الجماهير العريضة قوة كافية تمكنهم من توجيه العملية الاقتصادية أو صرف أجور عادلة أو تقليل الفروق الكبيرة بين المرتبات، وكل من يعتقد فى ذلك يفكر بطريقة سطحية وليس لديه أى فكرة عن معنى مذهبنا الجديد. فكل ما ذكرته لا يضمن لنا- على أقل تقدير - وجودًا مستمرًا ولا يضمن أى نوع من العظمة بالتأكيد. فمن الممكن أن تُسعد الأمة نفسها بإصلاحات خارجية لكنها لن تكون قادرة على الاستمرار فى الكفاح من أجل البقاء بين دول العالم. ولن تستطيع الحركة التى قد تختصر مهمتها فى تلك المهام- العادلة والصحيحة- القيام بإصلاح مؤثر فى نظامها القائم. حيث يقتصر تأثير كل تلك التعديلات على المظاهر الخارجية فقط. كما أنها لن تمد الأمة بالأسلحة الأخلاقية التى تمكنها من التغلب بكفاءة على الضعف الذى نعانى منه اليوم.

ولتوضيح هذه الفكرة قد يكون من المفيد أن نلقى نظرة مرة أخرى على الأسباب الحقيقية لتطور الثقافة البشرية وجذورها.

فأول خطوة ابتعدت بالبشر عن عالم الحيوانات كانت فى أول اختراع. والاختراع مدين فى حد ذاته إلى ما استخدم من خيل وخدع أثناء صراع الإنسان مع غيره من المخلوقات من أجل البقاء. وقد كانت تلك الخدع والحيل وسائل تجعله يحقق النجاح فى ذلك الصراع. وهذه الاكتشافات البدائية لا تنسب للفرد، حيث يمكننا أن نلاحظ أنها مجرد ظواهر جماعية. فبعض الخدع والخطط كانت سائدة وتستخدم فى العديد من الأماكن.

وهذا أمر خاص بالإنسان يسهل فهمه وتصديقه. فقد نشأت الطرق البدائية التى استخدمها فى صراعه مع الحيوانات بمهارة من خلال تعامله مع الصفات المميزة لتلك الحيوانات.

وليس هناك أى شك أن الشخصية فى ذلك الوقت كانت هى العامل الوحيد فى اتخاذ القرارات وتحقيق المنجزات، والتى طبقها جميع البشر فيما بعد بطريقة طبيعية. والمثال الدقيق الذى ينطبق على ذلك هو تلك المبادئ العسكرية الثابتة التى تقوم عليها كل استراتيجيات الحرب. فقد نشأت تلك المبادئ فى البداية فى عقل فرد واحد وبمرور سنوات عديدة وربما تكون آلاف السنوات أصبحت تلك المبادئ مقبولة وصالحة للتطبيق فى جميع أنحاء العالم.

❖ | الاختراعات.. والسيطرة على الكون..

وكان الإنسان يستكمل اختراعه بالتوصل إلى اختراع آخر، وقد تعلم - من بين أشياء

أخرى - كيف يسيطر على كائنات حية أخرى ويجعلها فى خدمته أثناء صراعه من أجل البقاء. وهنا بدأ نشاط الاختراعات الحقيقية للإنسان، إلى أن وصلت إلى ما هى عليه الآن. فهذه الاختراعات المادية والتي بدأت باستخدام الحجارة كأسلحة، وأدت إلى استئناس الحيوانات وإشعال النار بطرق صناعية وهكذا إلى أن نصل إلى الاختراعات المدهشة فى عالم اليوم تثبت بوضوح أن الفرد هو أساس كل تلك الاختراعات. وكلما اقتربنا من عصرنا الحالى ، كانت الاختراعات مدهشة ومهمة، واتضح صحة ما أقول. فكل ما حولنا من اختراعات مدهشة اعتمدت فى الأساس على قدرات الأفراد. وقد ساعدت كل هذه المخترعات الإنسان ليرقى ويرتفع عن مستوى الحيوانات ويفصل نفسه عن هذا العالم بصورة ملحوظة جداً. كما ساهمت فى الرقى بالبشر وتحسّن تقدمهم. وما سبق أن قدمته الاختراعات للإنسان من دعم وعون وهو خارج للصيد فى الغابات القديمة تقدمه الآن مرة أخرى له من خلال اختراعات علمية مدهشة تساعده اليوم فى كفاحه من أجل الحياة وفى صناعة أسلحة تقيده فى صراع المستقبل. وقد ساهمت أفكار الإنسان واختراعاته فى صراعه من أجل البقاء على هذا الكوكب. وذلك بالرغم من أن ما يسمى بالاستخدام العلمى للاختراع أو الاكتشاف لم يكن موجوداً للوهلة الأولى. فقد ساهم كل شيء فى الرقى بالإنسان بعيداً عن مستوى بقية الكائنات المحيطة به، وهذا يدعم موقفه ويجعله متماسكاً. لذلك فقد تقدم أكثر وأكثر وفى كل الاتجاهات وأصبح الكائن المسيطر على الكرة الأرضية.

❖ إبداع الفرد.. هو الأساس..

وعلى ذلك فإن كل الاختراعات ما هى إلا نتيجة لإبداع الأفراد، وكل هؤلاء الأفراد - سواء شاعوا ذلك أم لا - كانوا مفيدى للبشرية جمعاء بكبيرها وصغيرها. فقد قدموا للملايين بل للبلايين من البشر أدوات سهلت صراعاتهم من أجل البقاء.

لذلك فإن أصل تلك الحضارة الإنسانية المزدهرة التى نعيشها اليوم يقوم على أعمال فردية من قديم الأزل. وقد أكملت تلك الأعمال بعضها البعض، كما قام كثير منها على أكتاف الآخر. ونفس القاعدة تنطبق على الاستخدامات العملية لتلك الاختراعات والاكتشافات، حيث إن كل طرق الإنتاج المختلفة ما هى إلا اختراعات فى حد ذاتها تعتمد على القدرات الإبداعية للفرد. وحتى العمل النظرى الخالص غير الخاضع إلى أى قواعد ثابتة الضرورى لكل الاختراعات الفنية ما هو إلا نتاج لعقل الفرد. فالجماهير العريضة لا تخرع ولا يمكن للأغلبية أن تفكر أو تنظم، لكن من يقوم بذلك هو الفرد، أى شخص واحد.

وعلى ذلك فإن المجتمع الإنسانى يكون منظماً فقط من خلال تسهيل إبداع الأفراد إلى أقصى مدى والاستفادة من أعمالهم لصالح المجتمع. فأهم العوامل القيمة التى تميز أى اختراع - سواء كان مادياً أو نظرياً - هى شخصية المخترع نفسه، وأول واجب من واجبات المجتمع هو أن يوضع المخترع فى موضع يمكنه من أن يكون ذا فائدة كبرى للجميع. وفى الحقيقة فإن الهدف الأساسى من التنظيم هو وضع هذا المبدأ موضع التنفيذ.

لذلك فليس من واجب الدولة أن تمنع أصحاب العقول من التميز على بقية الناس فقط، بل عليها أيضاً أن تستخدم ما لديها من وسائل التنظيم لتساعدهم على هذا الرقى بكل ما تستطيع. وعليها أن تثق فى القاعدة القائلة بأن منجزات الإنسان ليست نابعة من الجماهير ولكن من عقول الأفراد الخلاقة، فهم المبدعون الحقيقيون فى هذا العالم. ومن واجب الجميع أن يتأكد من إتاحة الفرصة أمام أصحاب العقول المبدعة وتهيئة الجو المناسب لهم. وهذا لا يحدث بالتأكيد إن سمحنا للجميع بالتدخل فى الحكم، وذلك لأن جموع الشعب غير قادرة على التفكير السليم وليس لديها الكفاءة، ولا يمكن أن نقول: إنها موهوبة بأى طريقة. فمن يحق لهم الحكم هم أصحاب المواهب القيادية الطبيعية فقط.

❖ | مخربو الحضارة الإنسانية!

ويتم اختيار أصحاب العقول - كما سبق أن قلت - أثناء الصراع الصعب من أجل البقاء، فهناك الكثير ممن يسقطون وينهارون أثناء ذلك الصراع. وهذا يوضح أن قدرهم لا يؤهلهم للقيادة وبذلك يكون الأشخاص الذين يمكن الاختيار من بينهم قليلين جداً. ويحدث هذا الانتقاء فى عالم الفكر والإبداع الفنى وفى عالم الاقتصاد بالرغم من محاولة إعاقة تنفيذه بشدة وخاصة فى عالم الاقتصاد. ونفس هذا المبدأ القائم على قواعد الانتقاء يتبع فى إدارة الدولة وفى تقسيم سلطات الجيش الذى يدافع عن الأمة. ففكرة الشخصية تسود كل المجالات، فالفرد له سلطة على رؤوسه كما أنه ملزم بمسئوليات محددة أمام من هم أعلى منه. وفى مجال السياسة فقط تم الاستغناء عن هذا المبدأ الطبيعى. فعلى الرغم من أن كل الحضارات الإنسانية نتجت حصرياً عن إبداعات أنشطة فردية إلا أن مبدأ سيادة رأى الأغلبية قد ظهر لأول مرة فى المؤسسات العظيمة التى تحكم الدول، ثم انتشر هذا السهم فى المؤسسات الأدنى وانتشر فى حياة الأمة مما أدى إلى تحلل واضح. كما يمكننا أن نعزو أعمال التخريب اليهودى فى الأجزاء المتفرقة من جسد الأمة إلى السعى الدائم لليهود للتقليل من قيمة الفرد فى الدول التى تستضيفهم، وقد وضعوا إرادة الجماهير مكان إرادة الفرد. وهنا حلت المبادئ اليهودية الهدامة محل المبدأ الأرى البناء. وبذلك أصبح اليهود هم مصدر الفساد والتحلل فى الأمم والأعراق أو - بمعنى أشمل - مخربى الحضارة الإنسانية.

وتمثل الماركسية مرحلة ملفقة من مراحل سعى اليهود إلى تقليل السيطرة الفردية فى كل مجالات حياة الإنسان واستبدالها بالسيطرة العددية للجماهير. وفى مجال السياسة فإن طريقة الحكم البرلمانى ناتجة عن هذا السعى. ويمكننا أن نلاحظ آثاره الخطيرة فى كل مكان، من أصغر مجلس كنسى إلى أعلى دوائر الحكم. أما فى مجال الاقتصاد فإننا نرى حركات العمال التى لا تخدم المصالح الحقيقية للعاملين بل تخدم الأهداف اليهودية الدولية الهدامة. وبنفس الدرجة التى تم استبعاد مبدأ الفردية بها فى مجال الاقتصاد وإحلال إرادة الجماهير بدلاً منه، تأثر الاقتصاد القومى وتراجعت طاقاته الإبداعية تدريجياً⁽¹⁾. وقد سعت لجنة التجارة - التى من المفروض أنها ترعى مصالح الموظفين - إلى التأثير على عملية الإنتاج لخدمة نفس المبدأ الهدام. وقد خربوا نظام الإنتاج العام مما أثر على الأفراد العاملين بالصناعة. فأصبح من المستحيل على المدى الطويل أن توفى العبارات الرنانة بمتطلبات الأفراد. فهم لن يقنعوا سوى بما يوفى باحتياجاتهم اليومية ويقنعهم بأنهم يشاركون فى الوفاء بمتطلبات المجتمع من المنتجات الضرورية.

❖ الماركسية العاجزة والفاشلة!

وحتى إن أثبتت الماركسية قدرتها - من خلال نظرية الجماعة - على تنمية نظام الاقتصاد الحالى فذلك لا يعنى أى شيء. فإثبات صحة أو خطأ المذهب الماركسى لا يمكن أن يتم من خلال أى اختبار ولكن من خلال السؤال عن ما لديها من طاقات خلاقة تمكنها من إقامة حضارة مماثلة للحضارة الحالية تماماً. وحتى إن كانت الماركسية لديها ألف ضعف لقدراتنا الاقتصادية الحالية وتستطيع إدارة هذا الاقتصاد بمهارة فإن هذا الإنجاز لا يعنى أى شيء، وذلك لأن الماركسية لا تستطيع مطلقاً بناء أى شيء يحل محل النظام القائم اليوم بالاعتماد على ما تقوم عليه من مبادئ.

والماركسية نفسها تقدم الدليل على عدم قدرتها على ذلك. فهى لم تستطع خلق أى نظام ثقافى أو اقتصادى خاص بها فى أى مكان، ولم تستطع تطوير الحضارة القائمة والاقتصاد بناء على مبادئها، فقد وجدتهما قائمين فعلاً.

ويتميز مذهب الأعراق عن المذهب الماركسى بصورة أساسية فى أنه يدرك معنى العرق وقيمة الفرد، لذلك فقد جعلهما أساساً يقوم عليها. وهما أهم عناصر ذلك المذهب.

فإذا أخفقت الحركة الوطنية الاشتراكية فى فهم الأسس المهمة لهذا المبدأ الأساسى

(1) لقد سبق هتلر عصره حينما جزم بفشل النظم الاقتصادية الشمولية كالشيوعية التى تهمل الفرد ولا تحترم الملكية الخاصة ولم تستمر هذه النظم القاسية والظالمة سوى 70 عاماً فقط وسقطت بفعل الجماهير بسبب بساط وهو أنها ضد الفطرة الإنسانية وضد طبائع البشر ودخلت مزبلة التاريخ. (الناشر).

وتلاشى المظهر الخارجى للدولة الحالية واتبعت مبدأ الأغلبية، فلن تقدم أى شيء جديد سوى الصراع مع الماركسية على ملعبها. وبذلك لن يصبح من حقها أن تطلق على نفسها اسم المذهب الجديد. وإذا ما قام البرنامج الاجتماعى للحركة على تقليل دور الفرد وإحلال رأى الجماعة بدلاً منه، فهذا يعنى أن الاشتراكية الوطنية قد أصيبت بسموم الماركسية كما أصيبت بها أحزابنا البرجوازية.

وعلى دولة الشعب أن تضمن رفاهية مواطنيها بإدراك أهمية القيم الفردية فى كل الظروف وبتمهيد الطريق لتحقيق أعلى كفاءة إنتاجية فى كل فروع الحياة الاقتصادية، وهذا يضمن أكبر نصيب ممكن للفرد من الناتج العام.

كما يجب أن تتخلص دولة الشعب بلا رحمة من كل ما انتقل إلى الدوائر الحكومية من مبادئ برلمانية تعطى للأغلبية كل الصلاحيات. وأن تحل المسؤولية الفردية محل تلك الطريقة. وسوف يؤدى ذلك إلى النتائج التالية :

❖ أفضل أنواع الحكم..

أفضل المؤسسات وأفضل أنواع الحكم هو ذلك الحكم الذى سمح لأفضل العقول بأن تصل إلى مواقع هامة ومسيطرة وتؤثر فى المجتمع.

وكما يحدث فى مجال الاقتصاد فإن من يملكون قدرات لافتة لا يمكن أن يأتوا من عل بل يندفعون للمقدمة بمجهودهم الشخصى، وكما أن هناك عملية تعليمية لا تتوقف فى كل مكان من أصغر المحلات إلى أكبر المشروعات وكما أن الحياة نفسها مدرسة نتلقى فيها هذه الدروس، فليس من الممكن أن نكتشف المواهب فى المجال السياسى فى لحظة واحدة. لكن العبقريات الفذة لا تقاس باستخدام المعايير العادية التى نحكم بها على بقية الرجال.

ويجب أن تؤسس الدولة على مبدأ الفرد، وأن نبدأ العمل من أصغر الخلايا ثم يتصاعد إلى أن يصل إلى أعلى سلطة فى الدولة.

كما يجب ألا تتخذ القرارات بطريقة تصويت الأغلبية، ولكن يكون القرار فردياً. ولا بد أن يعود المصطلح "مجلس" إلى معناه الأصلي. حيث سيكون بجانب كل رجل فى موقع المسؤولية عدة مستشارين، لكن القرار يتخذه فرد واحد فقط.

إن ما قام عليه جيش بروسيا القديم من مبادئ جعلته محل إعجاب لا بد أن يكون أسوة تهتدى بها الأمة الألمانية وتصبح أساساً لمؤسسات دولتنا، أى أن من حق كل قائد أن يتمتع بسلطة كاملة على من يعملون تحت رئاسته وأن يكونوا مسئولين أمام من هم أعلى منهم.

لكن وعلى الرغم من ذلك لن يستقيم الأمر دون وجود ما نسميه الآن "البرلمان". لكنه سيكون مجلساً حقيقياً، أى أنهم يقدمون المشورة. لكن المسؤولية تقع على فرد محدد وهو المسئول الوحيد ومن حقه إصدار الأوامر.

ولهذا فالبرلمانات مهمة لأنها تتيح الفرصة أمام القادة للصعود التدريجي، وهؤلاء القادة هم من سيصبحون فى موقع المسؤولية فيما بعد.

وفيما يلى مخطط تمهيدى للصورة التى سيكون عليها النظام :

لن يكون هناك أى نظام يتبع أسلوب اتخاذ القرارات بأغلبية الأصوات، وذلك بدءاً من الإدارة البلدية وحتى نصل إلى رئاسة الجمهورية فى هذا النظام. فسوف توجد هيئات استشارية فقط ومهمتها مساعدة القائد وتوزع عليها مهام مختلفة تقوم بها. وفى بعض المجالات - إذا كان هناك ضرورة - لابد أن يكونوا مسئولين أمام القائد عن مهام محددة.

❖ | الرئيس فقط!

كما أن على دولة الشعب أن تمنع عادة استشارة عديمى الكفاءة فى أمور سياسية واقتصادية محددة وذلك لأنهم لم يتلقوا تدريباً كافياً فى هذا المجال وليس لديهم أى خبرة فيه. وبالتالي فعلى الدولة أن تقسم أجهزتها إلى جهاز سياسى وجهاز تعاونى يمثل الصناعات والحرف المختلفة.

ولضمان وجود تعاون بناء بين هذين الجهازين لابد من أن يشرف عليهم جهاز مختار وهو مجلس الشيوخ.

ولن تأخذ تلك الأجهزة ومجلس الشيوخ بنظام التصويت. فهم سيقومون بالعمل والتنفيذ ولن يكونوا مجرد آلات للتصويت. وسيكون للأفراد آراء استشارية ولن يكون لهم حق اتخاذ القرار. فحق اتخاذ القرار مقصور على الرئيس فقط. وهو مسئول بالكامل عن موضوع الحوار.

وهذه الطريقة من الجمع بين السلطة والمسئولية سوف تودى بالتدرج إلى ظهور مجموعة منتقاة من القادة وهذا أمر غير وارد فى عالم اليوم الذى يعتمد على البرلمانيين عديمى المسئولية.

لذلك فإن البناء السياسى للدولة سوف يتناسق مع القوانين القائمة فعلاً فى الدولة والتى ساهمت فى رقيها الاقتصادى والثقافى.

أما فيما يخص تطبيق تلك المبادئ، فأنا أحب أن ألفت الانتباه إلى الديمقراطية

البرلمانية حيث تصدر القرارات من خلال التصويت بالأغلبية لم تكن دائماً سائدة في العالم⁽¹⁾. ولكن على العكس تماماً فقد سادت تلك الديمقراطية في فترات قصيرة فقط من التاريخ، وعادة ما صاحبت تلك الفترات تراجع الأمم والدول.

ولا يمكننا أن نعتقد بالطبع أن مثل هذا التغيير الكامل يمكن أن يحدث من خلال اتخاذ بعض الإجراءات ذات الطبيعة النظرية فقط، وأن تطبيق تلك القرارات من أعلى إلى أسفل، وذلك لأن التغيير الذي وصفته لا يقتصر فقط على تغيير أجهزة الدولة لكنه سيشمل أيضاً مجالات التشريع المختلفة والحياة المدنية بالكامل. وهذه الثورة تتحقق من خلال حركة منظمة تتحمل مسؤولية إقامة دولة المستقبل.

لذلك فمن المفيد للحركة الاشتراكية القومية أن تعناد على هذه المبادئ من اليوم وأن تضعها موضع التنفيذ داخل أجهزتها، ولذلك فهي لن تكون في موقف يمكنها من أن تكون دليلاً للمستقبل فقط، بل ستكون أيضاً في خدمة هذه الدولة.



(1) ربما لم يطلع «هتلر» على نظام الشورى في الإسلام.. فلعله قد وجد فيه ضالته بدلاً من حيرته بين الماركسية المتسلطة والديمقراطية السائدة! (الناشر).

الفصل الخامس المذهب الجديد والنظمية



اليهود وحكم العالم!

لن تصبح دولة الشعب - التي حاولت أن أصورها في إطار عام - حقيقة واقعة إلا إذا عرفنا الشروط الأساسية لوجودها، فليس من الكافي أن نعرف الشكل الذي ستكون عليه هذه الدولة. كما أن مشكلة تأسيس هذه الدولة ذات أهمية بالغة. فالأحزاب التي توجد في الوقت الحاضر والتي تحصل على دعم من الدولة الآن لا يمكن أن تحدث تغييراً جذرياً في النظام أو تغير من اتجاهاته، وهذا يزيد من الصعاب، حيث إن القوى التي بيدها زمام الأمور هم اليهود هنا وهناك، وفي كل مكان. فإذا ما تركنا ذلك الميل للتطور الذي يحدث الآن ليستمر بدون أي اعتراض فسوف يتحقق ما يسمى بنبوّة التهويد وهي جمع شمل اليهود، بمعنى التهام اليهود للبلدان الأخرى ليصبحوا حكام العالم.

ويمضي اليهودي قدماً - بما يتناقض مع ملايين الألمان من الطبقة البرجوازية وطبقة العمال الذين تعثروا فيما حدث لهم من دمار بسبب الجبن والتراخي والغباء - في طريقه بإصرار وهدف واضح أمام عينيه. وأي حزب يسيطر اليهودي عليه لا يحارب إلا لتحقيق مصلحته فقط، ومصلحته ليس لها علاقة بتلك الدول الأرية التي ينتمي لها الألمان.

فإذا أردنا تحويل الصورة المثالية لدولة الشعب إلى حقيقة فيجب علينا أن نظل مستقلين عن القوى التي تتحكم الآن في الحياة العامة ونبحث عن قوى جديدة تكون مستعدة وقادرة على الجهاد لتحقيق تلك المثالية، حيث إن الحرب ستكون واردة، فلم يكن الهدف هو بناء دولة الشعب، ولكنه إزالة الدولة اليهودية القائمة. فكما هو معروف تاريخياً، فالصعوبة ليست في تأسيس نظام جديد، ولكن في تهديد الأرض لبنائه. حيث تتوحد المصالح الأنانية والمتعصبة لمختلف الجماعات وتكون جبهة موحدة ضد الفكرة الجديدة، وتحاول بشتى السبل منع انتصارها لأن دولة الشعب تهدد وجودهم.

لذلك فإن من يأتي بفكرة جديدة يعتبر سيئ الحظ - بالرغم من حبه للعمل البناء - لأن عليه أن يبدأ معركة شديدة أولاً من أجل القضاء على النظام القائم.

ولابد للمذهب الجديد تماماً والهام جداً أن يستخدم النقد اللاذع كسلاح بالرغم من أن هذا السلاح قد لا يروق لبعض أتباع هذا المذهب.

وأي نظرة سطحية للتطور التاريخي توضح أن عامة الناس يؤكدون مرات ومرات على عدم استخدامهم للنقد الهدام ومشاركتهم فقط في العمل البناء. لكن ذلك مجرد كلام صبياني متوقع من العامة. وهو دليل آخر على أن تاريخنا لم يؤثر إطلاقاً في عقولهم. فللماركسية أيضاً أهداف تسعى إليها، كما أنها تدرك أيضاً قيمة العمل البناء، على الرغم من أنها تعلم أن ذلك يعني قيام حكم استبدادي يسيطر عليه التمويل اليهودي الدولي. ولكن وبعد مرور سبعين عاماً فإن عملها الأساسي هو النقد. وهو نقد هدام يتكرر مرات ومرات إلى أن يتم القضاء على الدولة القديمة تماماً ويفتتها. وعند ذلك فقط يبدأ ما يسمى بالنقد الماركسي البناء. وهذا أمر طبيعي وصحيح ومنطقي. فالنظام القائم فعلاً لا ينتهي بمجرد المطالبة بنظام جديد والإصرار عليه. كما أن من غير الممكن أن يتحول مؤيدو النظام القديم ببساطة وسهولة إلى تأييد الحركة الجديدة لمجرد أن هذا الشيء الجديد ضروري. بل على العكس، فكل ما يمكن أن يحدث هو وجود موقفين مختلفين تماماً، وذلك بظهور مذهب جديد يتحول إلى حزب. ولأن تلك المذاهب متعصبة ولا يمكنها أن تسمح لمذهب آخر بالوجود بجانبها، لذلك فإنها تطالب بالاعتراف بها كمذهب وحيد ومكتمل لا يوجد غيره وأن تطبق كل مبادئها في جميع أفرع الحياة العامة. ولن تسمح باستمرار الحالة السابقة وهي وجود مذهبين قائمين جنباً إلى جنب. ونفس هذه القاعدة تنطبق على الديانات.

فلم تقتنع المسيحية بإقامة مذبحها الخاص، وكان عليها أن تحطم أولاً المذابح الوثنية. فقد كان ذلك شرطاً ضرورياً لنمو تلك العقيدة.

وقد يثار اعتراض يقول: إن هذه الظواهر التي نستشهد بها من تاريخ العالم تحفل بطريقة اليهود في التفكير، وأن هذا التعصب والتشدد هما صفات يهودية بحتة. وهذا صحيح تماماً. وهو حقيقة لا يمكن إنكارها. فقد نكون نادمين على ظهور التعصب والتشدد في تاريخ البشرية وقد يبدو ذلك غريباً عن طبيعة البشر. لكن ذلك لا يغير في الأمر القائم حتى اليوم شيئاً. فلم يفكر الذين يريدون تحرير أمتنا الألمانية من الوضع الحالي في احتمالات عدم حدوث هذا الأمر أو ذاك. فهم يفكرون فقط في الطرق والوسائل التي تمكنهم من إلغاء الوضع القائم. حيث يمكن لفلسفة الحياة التي تعدها روح شيطانية متعصبة أن تتحول إلى مذهب متقدم يحارب الناس من أجله بإرادة قوية، ويعتبرونه فكرة جديدة صحيحة ونقية بالتأكيد.

وقد يشعر كل منا بالندم لأن تطور المسيحية كان سبباً في وقوع أول حوادث الإرهاب في العالم القديم، لكننا لا يمكن أن ننكر أيضاً أنه ومنذ ذلك الوقت ساد هذا النوع من

الإكراه في العالم وكان العنف يقابل بالعنف والإرهاب يقابل بالإرهاب. فعندئذ فقط يمكن إقامة نظام جديد من خلال العمل البناء. وبينما تميل الأحزاب السياسية إلى السدخول في تسويات، نجد أن المذهب لا يفعل ذلك أبداً. حيث إنه يجب على الحزب السياسي أن يعدل تعاليمه من أجل مواجهة خصومه بينما نجد أن المذهب يرى أنه ناجح بلا تعديل.

وفي البداية كانت الأحزاب السياسية تميل إلى الحصول على مكانة استبدادية لا يماثلها مكانة. وكانت تميل إلى أن تبدو كمذاهب. لكن الطبيعة المحدودة لبرامجها كافية لحرمانها من روح البطولة التي يتمتع بها أصحاب المذهب.

والمذهب لا يتبادل موقعه مع أي شيء آخر. ولذلك فهو يرفض التعاون مع أي نظام يرفضه. وعلى العكس تماماً، فهو يرى أن عليه أن يستخدم كل الوسائل المتاحة في محاربة النظام القديم وأفكاره بالكامل وأن يعد العدة للقضاء عليه وتدميره تماماً.

لكن الخطة القائمة على التدمير تلفت نظر العدو بما فيها من مخاطر، لذلك فإن هذا العدو يكون جبهة متماسكة ضدها يدافع بها عن نفسه، كما أن فترة التخطيط للعمل البناء يجب أن تكون سريعة حتى يتم تطبيق الأفكار الجديدة بنجاح، وهاتان المرحلتان من مراحل الكفاح تتطلبان عدداً من المقاتلين أولي العزم. فكل فلسفة جديدة في الحياة تحقق النصر لأفكارها عندما ينضم جميع المؤمنين بها من أبناء الشعب ويقفون صفاً واحداً في الدفاع عن هذه الأفكار. ولتحقيق هذا الغرض لابد أن ننقي عدداً من أفكار هذا المذهب يروق لهؤلاء الأفراد، وبمجرد أن يتم شرح هذه الأفكار لهم بطريقة واضحة ستتحول إلى مذهب جديد يتبعه هؤلاء الأفراد ويؤمنون به. بينما نجد أن برنامج الحزب السياسي العادي ما هو إلا وصفة لطبخ الانتخابات العامة القادمة والحصول على أفضل النتائج من ورائها، لكن برنامج المذهب يعلن الحرب على النظام القائم والظروف الحالية، وباختصار، فهو يعلن الحرب على كل ما هو قائم فعلاً⁽¹⁾.

❖ الفرد والأهداف الكبرى للحركة..

وليس من الضروري - على أي حال - أن يكون كل فرد مدافع عن مثل هذا المذهب الجديد على دراية كاملة بكل أفكار وخطط قادة الحركة. لكن من الضروري أن يكون لكل فرد منهم علم بأهم مبادئ المذهب حتى يقتنع بضرورة إنجاح هذه الحركة وهذا المذهب. وليس لهذا الجندي الفرد أن يطلع على الخطط الاستراتيجية. لكنه يتدرب على اتباع نظام صارم، وأن يكون مقتنعاً تماماً بعدالة قضيته وأهميتها وأن عليه أن يخلص لها بلا أي

(1) يرى هنتر أن الأفكار والمبادئ التي يقوم عليها حزبه ترقى إلى ما هو أكبر من مجرد حزب، وهذا هو ما جعله يسميه "مذهب" ويشرح الفرق بين "المذهب" و"الحزب" من وجهة نظره في الفقرات السابقة.

تحفظات. لذلك فلا بد للفرد المؤيد لحركة ما أن يتعرف على أهدافها الكبرى وعلى مدى استلهاهما للإرادة القوية وعلى المستقبل العظيم الذي ينتظرها.

فإذا افترضنا أن كل جندي في جيش ما قد أصبح لواء «جنرالاً» ولديه التدريب الكافي والقدرة على القيادة، فهذا الجيش لن يكون لديه الأداة الحربية الكافية. وكذلك لن تنهض الحركة السياسية ذات كفاءة في حربها من أجل المذهب الجديد إذا كانت مكونة فقط من المتقنين. لا ... إننا في حاجة إلى الجندي البسيط أيضاً، فبدونه لا يمكن تأسيس أي نظام.

إن أي منظمة يمكن أن توجد إذا كان قادتها أصحاب القدرة الثقافية العالية متبوعين بأعداد هائلة من الرجال المخلصين لقضيتهم. وذلك لأن الحفاظ على النظام في شركة بها 200 رجل ذوو ذكاء متساو قد يصبح أكثر صعوبة على المدى الطويل، وهذا لا يقارن بإدارة شركة بها 190 موظفاً ذوي ذكاء عادي و10 موظفين من ذوي التعليم العالي.

❖ | القادة الأفضل والنظام الأفضل..

ولقد استفاد الديمقراطيون الاشتراكيون من تطبيق تلك الحقيقة، فلقد أخذوا أعداداً هائلة من الرجال الذين أنهوا خدمتهم العسكرية حديثاً والملتزمين بالنظام وعلومهم أحكام الحركة الديمقراطية الاشتراكية، وهي لم تكن أقل صلابة من النظام الذي تخطوه خلال الخدمة العسكرية، فالحركة الديمقراطية الاشتراكية تتألف من جيش مقسم إلى ضباط ورجال، فالعامل الألماني الذي أنهى خدمته العسكرية أصبح جندياً بالجيش واليهودي المتقن أصبح ضابطاً. والموظفون في اتحادات العمال الألمانية يمكن مقارنتهم بالضباط غير المكلفين. وقد كونت الطبقات غير المتعلمة التي انضمت إلى الماركسية أساساً فعلياً قام عليه الحزب ومكنه من تحقيق النجاح، بينما كانت الأحزاب البرجوازية - المكونة أساساً من المتقنين - مجرد مجموعة عاجزة من الأفراد غير المنظمين. وكون القادة الماركسيون جيشاً من مقاتلي الحزب الذين يطيعون أسيادهم اليهود طاعة عمياء مثلما أطاعوا ضباطهم الألمان سابقاً. ولم تعتقد الطبقات المتوسطة من الألمان - التي لا تهتم بالمشكلات النفسية لأنها تشعر بأن مكانتها أعلى من ذلك - أنه من الضروري أن يفكروا في مغزى تلك الحقيقة والخطر الخفي المتضمن فيها. وهم في الواقع يعتقدون أن الحركة السياسية التي جذبت تابعيها من دوائر مثقفة ستكون لها أهمية عظمى - بسبب المتقنين فقط - ولها ثوابت تدعم فرص نجاحها، ويتوقعون لها أن تتولى حكم البلاد حيث فرصها في ذلك أكبر من حزب يتكون من الجهلاء. لقد فشلوا تماماً في إدراك أن قوى الحزب السياسي لا تتكون بسبب ذكاء أعضائه واستقلالهم بل من روح الطاعة الإرادية التي تجعلهم يتبعون قيادتهم المثقفة. فإذا وقعت معركة بين جيشين فإن النصر سيكون حليف الجيش ذي القادة الأفضل

والنظام الأفضل بالإضافة إلى الجيوش المدربة جيداً والمطيعه لقيادتها طاعة عمياء ولن يكون النصر بالتأكيد حليفاً للجيش الذي يعلم كل جندي فيه قواعد الخطة الاستراتيجية جيداً.

تلك هي المعرفة الأساسية التي يجب أن نحتفظ بها في الأذهان عندما نراجع إمكانية تحويل المذهب الجديد إلى حقيقة عملية.

وإذا اتفقنا على تطبيق المذهب الجديد عملياً فيجب أن يندمج في الحركة الفعالة، وبالتالي فالنتيجة المنطقية هي أن يأخذ برنامج مثل هذه الحركة في حسبانها الأهمية الشديدة للعنصر البشري المتاح لها. وكما أنه لا بد من توضيح الأهداف النهائية والمبادئ الأساسية بلا لبس، فلا بد أيضاً من وضع خطة جيدة لبرنامج دعائية يقوم على العوامل النفسية التي تجعله مقبولاً عند عامة الناس، فبدونهم تظل أنبل الأفكار مجرد أفكار خالدة لا قيمة لها بلا تطبيق.

❖ | دولة الشعب..

وإذا كان لفكرة دولة الشعب نجاح منقطع بعيداً عن الأفكار الهائلة الغامضة فسوف يكون لها مبادئ محددة ويكون لها خاصية جذب المؤيدين المستعدين للقتال من أجلها وتلك الجماعة هي طبقة العمال الألمان.

وإذا كان لفكرة دولة الشعب التي لا تزال أمنية غامضة أن تحقق نجاحاً ملحوظاً في يوم ما، فإن ذلك مرجعه أنها ذات مبادئ محددة وقادرة على جذب المؤيدين المستعدين للقتال من أجلها، وهم العمال الألمان.

وهذا هو السبب في جعل برنامج الحركة يحصر مبادئها الأساسية في عدة مطالب أساسية مجموعها خمسة وعشرون فقط. والمقصود من هذه النقاط أن تعطي الرجل العادي فكرة عامة عن أهداف الحركة. ويمكننا أن نقول: إنها مبادئ لجذب من يؤمن بهذه الحركة من الناس من جهة، كما أنها من جهة أخرى تساعد على توحيد مؤيدي الحركة تحت ميثاق يوافق عليه الجميع.

وفي خضم كل ذلك، يجب أن نضع ما يلي نصب أعيننا: أن ما نسميه ببرنامج الحركة هو حق مطلق طالما أنه يلتزم بتحقيق الأهداف المنشودة، ولكن يجب وضع اعتبارات نفسية معينة في الحسبان عند محاولة تطبيق هذا الحق. ومع مرور الوقت قد يتبين أن هناك بعض المبادئ التي يجب أن يعبر عنها بشكل مختلف أو يجب أن تتشكل بأسلوب أفضل. ولكن أي محاولة لتغيير الثوابت لها آثارها المصيرية في معظم الأحوال. حيث تتحول كل الثوابت إلى مجرد موضوعات قابلة للمناقشة. وبمجرد أن نحو إحدى

النقاط من تلك القواعد الثابتة للحركة فلن تجدي المناقشة بشيء ولن تؤدي إلى صيغ جديدة أفضل، لها قوام أعظم ولكنها ستؤدي إلى مناقشات طويلة لا تنتهي وارثباك عام. وفي مثل هذه الأحوال يجب أن يكون السؤال المطروح هو: هل الصيغة الجديدة أفضل حتى وإن كانت ستحدث بلبلة داخل الحركة أم أنه من الأفضل استعادة الصيغ القديمة التي تمثل تنظيمًا محكمًا وصلبًا ومتجانسًا في حد ذاته. وتجمع كل التجارب السابقة على أن الاختيار الثاني هو المفضل لأن هذه التغيرات تتعامل مع الأشكال الخارجية فقط. لكن آخر الدراسات التحليلية تشير إلى أن الناس يفكرون بطريقة سطحية، لذلك فإن أكبر الخطر يكمن في التعديلات الخارجية فقط في برنامج يرى الناس أنه هدف رئيسي للحركة. وهنا تضعف الإرادة والرغبة في الدفاع عن الحركة وأفكارها، وتتشتت الجهود التي كان من الواجب توجيهها نحو العالم الخارجي وتضيع في مناقشة البرنامج داخل كوادر الحركة.

❖ | درس من الكنيسة الكاثوليكية!

وذلك لأنه بالنسبة لأي مذهب فإن التمسك بالمعتقدات الثابتة التي لم تعد مناسبة يعتبر أقل خطراً من محاولة تطويرها والسماح بأن تكون المبادئ الأساسية للحركة - والتي كانت صلبة وثابتة حتى هذه اللحظة - موضوعاً للمناقشة العامة التي قد تؤدي إلى نتائج غير مرغوبة. ولابد من تجنب حدوث ذلك طالما أن الحركة لا تزال تسعى لتحقيق نصر. وذلك لأنه لن يكون من المجدي أن نشجع الناس على الثقة العمياء في مذهب ما وهو لا يزال محل نقاش وتعديل حتى وإن كان ذلك من حيث الشكل الخارجي فقط.

ولا يجب أن ننظر إلى التعاليم الأساسية من ناحية التكوين الخارجي فقط، ولكن لابد من النظر إلى ما تحتويه من معانٍ داخلية. فهذه المعاني غير قابلة للتغيير.

وهنا نتعلم درساً من الكنيسة الكاثوليكية مرة أخرى. فبالرغم من أن عقائدها تتعارض أحياناً - وبلا داع - مع العلوم الحديثة والاكتشافات العلمية، إلا أنها لا تضحي بأي مبدأ من مبادئها. فقد أدركت بسرعة أن قدرتها على المقاومة تضعف إن عدلت مذهبها ليتوافق مع نتائج ما توصل إليه العلم الحديث، وهي في الحقيقة نتائج غير ثابتة. لذلك تمسكت الكنيسة بشدة بكل عقائدها الثابتة والراسخة التي ينبع منها أسس العقيدة كلها. وهذا هو السبب الذي جعلها اليوم أقوى من أي وقت مضى. ويمكننا أن نتنبأ بأنها ستستمر في جذب أعداد متزايدة من الأتباع المخلصين كلما زادت سرعة التغير من حولها وظلت هي على ثباتها.

❖ | حتى تتجج فكرة دولة الشعب..

لذلك فعلى كل من يرغب بصدق في أن تتجج فكرة دولة الشعب ويتم تطبيقها أن يدرك أن هذا النجاح يتأكد فقط من خلال حركة عسكرية، وأن هذه الحركة تستمد قوتها من برنامجها الصلب المنيع المتناسك. وعلى الحركة ألا تستسلم لمحاولات تغيير المبادئ المسلّم بها وأن تحافظ على الشكل الذي تم الاتفاق عليه مرة واحدة وذلك حتى تتوج جهودها بالنجاح. وأي محاولة لفتح نقاش حول مدى مناسبة هذه النقطة أو تلك من نقاط البرنامج قبل تحقيق هذا الهدف⁽¹⁾ قد تؤدي إلى تفسخ الحركة وتقليل قوتها، وذلك لأن مؤيديها قد يشاركون في النزاعات الداخلية. وقد تخضع بعض تطورات اليوم إلى فحص دقيق غداً حتى يتم استبدالها بما هو أفضل منها فيما بعد. وبمجرد أن يكسر هذا الحاجز يفتح الباب على مصراعيه في هذا المجال، وإن كنا نعرف بداية ذلك الخطأ لكننا لا نعرف في أي بحر سيلقينا.

ولابد أن يدرك أعضاء الحركة الاشتراكية القومية هذا المبدأ الهام منذ البداية. فقد قدم حزب العمل الاشتراكي القومي في نقاط برنامجه الخامس والعشرين أساساً يجب أن يظل ثابتاً ولا يتغير. كما يجب على أعضاء الحركة الحاليين والمستقبليين أن يفهموا هذه المبادئ ويلتزموا بتطبيقها كما هي. وإلا فإن الجيل القادم سيمارس ما يراه حقاً له هو أيضاً ويتدخل في أعمال الحزب بدلاً من جذب مؤيدين جدد حتى نزيد من قوة الحزب. وبذلك لا يتمثل معنى الحركة عند أغلبية المؤيدين لها فيما تحويه الأوراق من كلمات بل فيما ننقله نحن لهم من معان.

والحركة الجديدة مدينة باسمها لتلك الاعتبارات، وقد تم إعداد برنامجها على أساس نفس الاعتبارات. كما أنها تمثل أساساً لدعايتنا. وحتى نحقق فكرة دولة الشعب، فلا بد من تكوين حزب شعبي، وهو حزب لا يتكون من القادة المفكرين فقط بل ومن العمال أيضاً. وكل محاولة لتطبيق هذه النظريات دون مساعدة النظام العسكري سوف تفشل اليوم كما سبق أن فشلت في الماضي وكما ستفشل في المستقبل. وهذا هو سبب قناعة الحركة بهذه الأفكار والتزامها بها. وكما أن المبادئ الرئيسية للحركة القومية الاشتراكية تقوم على أفكار عامة، فإن تلك الأفكار أفكار اشتراكية قومية أيضاً. فإذا ما نجحت القومية الاشتراكية فلا بد لها أن تتمسك بهذه الحقيقة بقوة، ولذلك فليس من حقها فقط أن تؤكد عليها بشدة بل هذا واجب عليها أيضاً، كما يجب أن تؤكد أن أي محاولة لتمثيل هذه الفكرة خارج الحزب الاشتراكي القومي الألماني ما هي إلا محاولة عقيمة وخادعة.

(1) أي تنويع جهود الحركة بالنجاح.

فإذا ما وجه نقد إلى حركتنا واتهمت بأنها تحتكر فكرة عامة هناك رد واحد على ذلك: نحن لم نحتكر هذه الفكرة فقط، بل إننا من أوجدها أصلاً بكل ما تحمله من معان تطبيقية وأهداف.

❖ أصحاب الأفكار العقيمة والضالة وعقول العامة..

فكل ما صدر حتى الآن تحت هذا الاسم لم يستطع التأثير على مقدرات شعبنا، وذلك لأنها افتقرت جميعاً للتماسك والصبغة السياسية. وكانت هذه الأفكار في أغلب الأحوال مجرد أفكار عامة منفصلة وغير متماسكة لكنها صحيحة إلى حد ما. وعادة ما كانت تتناقض مع بعضها البعض، كما أنها لم تكن متماسكة داخلياً مع بعضها البعض. وحتى إن تواجد هذا التماسك الداخلي فإنه يظل ضعيفاً جداً بحيث لا يصلح أن يكون أساساً لأي حركة.

وقد أثبتت الحركة الاشتراكية القومية فقط أنها قادرة على إنجاز هذه المهمة. وكل الجمعيات والجماعات بكبيرها وصغيرها تدعى الآن أن هذه الفكرة فكرة عامة. وهذا ناتج عما فعلته القومية الاشتراكية. فبدون ما قامت به، لم يكن لأي حزب أن يفكر في استخدام كلمة "عام"⁽¹⁾ على الإطلاق. فقد كان هذا التعبير لا يعني لهم أي شيء مطلقاً، كما أن قادتهم بالذات لم يفعلوا أي شيء يخص هذه الفكرة. إلى أن جاء حزب العمل الاشتراكي القومي الألماني وجعل لهذه الفكرة معنى فترددت على ألسنة جميع الناس. كما أن نجاح دعاية حزبنا قد أظهر هذه الفكرة بشدة لدرجة أن كل من ينضم إلينا حديثاً يستخدم نفس هذه الكلمات والأفكار لتأثره بها.

وقد استفادوا حتى الآن من كل شيء لتحقيق أغراضهم الانتخابية، وهم اليوم يستخدمون كلمة "عام" - كمجرد عبارة رنانة لكنها خاوية - في مقاومة التأثير الشديد الذي يتركه الحزب الاشتراكي القومي في أعضاء الأحزاب الأخرى. فمجرد الرغبة في الحفاظ على بقائهم والخوف من انتشار حركتنا - التي تقوم على مذهب شديد الأهمية - جعلتهم يستخدمون كلمات تبرأوا منها منذ ثمانية أعوام، واستهزأوا بها منذ سبعة أعوام، واعتبروها أفكاراً غبية منذ ستة أعوام، وقاوموها منذ خمسة أعوام وكرهوها منذ أربعة أعوام، وأخيراً ومنذ عامين فقط بدأوا في استخدامها كمفردات سياسية واستخدموها كشعارات.

(1) عام: بمعنى له علاقة بعامة الشعب.

لذلك فمن الضروري الآن ألا نتوقف عن لفت الانتباه إلى أن أي حزب من هذه الأحزاب لا يعرف ما الذي تريده الأمة الألمانية. والدليل على ذلك واضح في الطريقة السطحية التي يستخدمون بها كلمة "عام".

كما أن أولئك الذين يدورون حول أفكار "شبه عامة" ليسوا أقل خطراً. فهم يضعون أساساً لا تقوم على أي شيء سوى أفكار ثابتة قد تكون صحيحة في حد ذاتها لكنها لا تصلح كأساس متجانس ولا يمكن أن تكون وسيلة تقوم عليها الأحزاب. إن من يضعون برنامجاً يحتوي على بعض أفكار أخذوها من الآخرين أو قرأوا عنها هنا أو هناك أخطر بكثير ممن يعلنون عداؤهم لأفكارنا. فهم واضعو الأفكار العقيمة ومثيرو الأفكار الضالة في عقول العامة. وهم يعتقدون أنهم يمكنهم أن يخفوا فراغهم الفكري وعقم الجهود التي يقومون بها وعدم ثباتهم وراء أقنعة اللحي الطويلة واستخدام الإيماءات الألمانية القديمة. لذلك فمن المفيد أن نتذكر الفترة التي بدأت فيها الحركة القومية الاشتراكية جهادها، لنقارنها مع كل تلك المحاولات العقيمة.





لم يكن صدى أول اجتماع كبير في قاعة المؤتمرات في ميونخ في الرابع والعشرين من فبراير عام 1920م قد هداً بعد عندما بدأنا الإعداد لاجتماعنا التالي. وفي تلك الفترة كان يجب علينا أن نراعي بحرص مخاطرة عقد اجتماع صغير كل شهر أو على الأكثر كل أسبوعين في مدينة مثل "ميونخ"، ولكن الآن نقرر عقد اجتماع جماهيري كل أسبوع. ولقد تساءل بعضنا البعض مرة تلو الأخرى هل سيأتي الناس؟ هل سيستمعون لنا؟ وكنت مقتنعاً بأنهم إذا جاءوا فسوف يثبتون وينصتون.

وأثناء تلك الفترة اعتبرنا نحن الاشتراكيين القوميون قاعة المؤتمرات مصدراً لسعادتنا، لذلك فقد كان هناك اجتماع كل أسبوع في تلك القاعة، وفي كل مرة كانت القاعة تمتلئ بشكل أفضل مما سبق، وكان الحاضرون أكثر انتباهاً.

فبدأنا بموضوع "المسؤولين عن الحرب" وهو موضوع لم يتناوله أحد في ذلك الوقت. وانتقلنا إلى مناقشة معاهدات السلام وتناولنا معظم الأشياء التي تستميل الحاضرين وتجعلهم مهتمين بأفكارنا. ولفتنا الانتباه إلى معاهدات السلام، وقد تحقق ما تنبأت به الحركة الجديدة مراراً وتكراراً أمام تلك الحشود بكل تفاصيله، واليوم من السهل أن نتحدث ونكتب عن تلك الأشياء. ولكن في تلك الأيام لم يعن الاجتماع الجماهيري الحاشد-الذي لم يحضره طبقة البرجوازية فقط، ولكن حضره أيضاً طبقة العمال الذين أثارهم المحرضون لانتقاد معاهدة فرساي - مجرد هجوم على الجمهورية ودليل على تفاعل الجماهير بل ربما الميل أيضاً للملكية. وبمجرد أن نطق أحدهم بأول نقد لمعاهدة "فرساي" فكان الرد الفوري المتوقع متكرراً: "برست ليتوفسك ... برست ليتوفسك⁽¹⁾". ثم يبدأ الجمهور في التمتمة ثم تتحول التمتمة إلى زئير تدريجياً إلى أن يتوقف المتحدث عن محاولة إقناعهم، لأن هذا الموقف يشبه من يضرب رأسه في الحائط. فقد كان الناس يائسين تماماً لدرجة أنهم لا يستمعون إلى من يقول: إن "معاهدة فرساي" كانت فضيحة وعاراً، وأنها تعتبر جريمة ضد شعبنا قام بها قطاع طرق. وقد تسببت أعمال التخريب التي قامت بها الماركسية والدعاية السامة لعدونا الداخلي في سلب عقول أفراد شعبنا.

(1) أي معاهدة «برست ليتوفسك».

وليس لنا حق الشكوى. لأن هذا الإثم كبير. فماذا فعلت البرجوازية الألمانية لوقف حملة التفسخ الرهيبة هذه ومواجهتها وفتح الطريق أمام الحقيقة وشرح الموقف بطريقة أفضل من الماركسيين ؟ لا شيء ... لا شيء. وفي ذلك الوقت لم أر هؤلاء الذين أصبحوا الآن رواد الشعب. وربما يكونون قد تحدثون عن اختيار المجموعات في حفلات شاي مع أصدقائهم المقربين، لكن كان يجب عليهم أن يكونوا هناك حيث يعمل الذئاب بجدة، لكنهم لم يغامروا بالظهور إلا بعد أن لاحت لهم فرصة العمل مع الذئاب.

وبالنسبة لي، فقد رأيت أن على المجموعة الصغيرة التي كانت حركتنا تتكون منها في ذلك الوقت أن تتناول قضية المسؤولية عن الحرب وتوضحها من خلال الحقائق التاريخية. فالشرط الأساسي لنجاح حركتنا في المستقبل هو أن عليها أن توصل معنى اتفاقيات السلام إلى عقول عامة الشعب. فعادة الناس يرون أن معاهدات السلام تشير إلى نجاح الديمقراطية. لذلك فقد كان علينا أن نتخذ الرأي المعاكس ونتعمق في داخل عقول الشعب لنجعلهم أعداء لمعاهدات السلام. وبعد ذلك وبعد أن تتضح الحقيقة العارية بكل بشاعتها أمام أعين الشعب، فإنه سيتذكر ما كنا ندعوه إليه ويمنحنا ثقته.

وكنت قد حددت موقفي في تلك الفترة من كل القضايا الأساسية التي يميل الرأي العام فيها إلى آراء خاطئة بصفة عامة. وقد عارضت تلك الأفكار الخاطئة دون وضع أي اعتبار لحب الشعب لي أو كراهيته، وكنت مستعداً لمواجهة النقد. فحزب العمل الاشتراكي القومي الألماني ليس له أن يكون تابعاً للرأي العام بل موجهاً له. وهو لا يخدم العامة بل يوجههم.

وكما هو الحال في كل حركة - وخاصة في مراحل الصراع - كان من الطبيعي أن تقدم الإغراءات للالتزام بخطط أحد المنافسين واستخدام نفس شعاراته عندما كانوا يحاولون النجاح في التأثير على الشعب وإقناعه بأفكار مجنونة وتوجيهه إلى اتجاهات خاطئة فيما يخص القضايا العامة. وقد كانت محاولات الإغراء قوية خاصة عندما تكون هناك دوافع - بالرغم من أنها مجرد أوهام - تؤدي إلى نفس أهداف حركتنا الشابة. وهنا يؤدي الجبن البشري ببعض الأفراد إلى الالتحاق بذلك الركب الذي يقدم لهم مبررات كافية - من وجهة نظرهم - تجعلهم يشاركون في السياسة الإجرامية التي يتبعها عدونا.

❖ اليهودية الماسونية.. أو السم العالمي..

وقد واجهت مثل تلك الحالات في العديد من المناسبات، وكانوا يستخدمون كل طاقاتهم لمنع حركتنا من المشاركة في التيار العام للدولة ومن العمل تماماً، وكانت آخر مرة عندما نجحت الصحافة الألمانية في جعل موضوع "ساوث تيرول" ذي أهمية تتعارض مع

مصالح الشعب الألماني. وقد انضم العديد من الحركات التي تسمى بـ "الوطنية" ورجال الدولة والأحزاب والجماعات إلى التيار العام لمجرد الخوف من الرأي العام الذي يثيره اليهود، فشاركوا بحمق في مقاومة النظام الذي كان يجب علينا نحن الألمان أن نعتبره - وخاصة في تلك الأيام - بريق أمل في عالم محير. وبينما كانت اليهودية العالمية تخنقنا ببطء وثبات، كان من يسمون بالوطنيين يصبحون ضد رجل لديه الشجاعة هو ونظامه تمكنه من تحرير ربع العالم على الأقل من أصفاد اليهودية الماسونية وإيجاد مقاومة وطنية ضد هذا السم العالمي. لكن الشخصيات الضعيفة استمرت السباحة مع التيار والاستسلام لنداءات الرأي العام.

لذلك كان من الضروري أن نسيطر على من يوجه كل ذلك بقبضة من حديد والنهوض بسفينة حركتنا لإنقاذها من خط السير الذي يؤدي بها إلى الاصطدام بالصخور. ومن المؤكد أن محاولة التغيير تلك لم تكن مناورة شعبية في ذلك الوقت، وذلك لأن كل القوى الكبرى للرأي العام كانت مشتتة وكانت أغلب مشاعر الرأي العام تتجه صوب اتجاه واحد. ومن يتخذ مثل هذا القرار بالتغيير فقد يجلب لنفسه ما لا يحب. وبخبرنا التاريخ أن هناك كثيراً من الناس ممن أُلقيت عليهم الحجارة بسبب ما فعلوه ثم شكرتهم الأجيال التالية عليه.

لكن على الحركة أن تضع الأجيال القادمة نصب أعينها ولا تعبأ بالتصفيق والهتاف. وقد تحتاج في تلك الفترة إلى تحمل ساعات عصيبة، وعليهم ألا ينسوا أن لحظة التحرر آتية وأن الحركة التي تهدف إلى إعادة تشكيل العالم يجب أن تهتم بالمستقبل وليس باللحظة الحالية.

❖ حملة ضد حماقات الشعبية:

وهنا يمكننا أن نؤكد أن أعظم النجاحات التاريخية وأكثرها بقاء عبر التاريخ هي تلك النجاحات التي لم تجد من يفهمها في البداية، وذلك لأنها كانت تتعارض بشدة مع الرأي العام وآمال وتطلعات جيلها.

وقد مررنا بتلك التجربة عندما ظهرنا علناً لأول مرة. ويمكننا أن نقول بصراحة تامة: إننا لم نغازل الرأي العام ولكن أطلقنا حملة عنيفة ضد حماقات شعبنا.

وفي تلك الأيام كان من المعتاد أن يحدث ما يلي: كنت أقدم نفسي أمام مجموعة من الناس ممن يعتقدون في عكس كل ما أقوله ويريدون حدوث عكس كل ما أعتقد. ثم أفضي معهم ساعتين لأجعل ألفين أو ثلاثة آلاف منهم يتخلون عن آرائهم السابقة بتوجيه الضربات لهذه الأفكار ضربة تلو الأخرى، وفي النهاية أنجح في مساعدتهم في اتخاذ موقف جديد يعتمد على أفكارنا ومذهبنا الجديد.

وقد تعلمت شيئاً مهماً خلال تلك الفترة وهو أن أنتزع السلاح الذي يستخدم في الرد عليّ من يد العدو. فقد لاحظت بسرعة أن خصومنا - وخاصة هؤلاء الذين يديرون المناقشات ضدنا - مزودون بذخيرة من الجدل الذي يستخرجون منه نقاطاً محددة يكررونها دائماً ضدنا. وقد كان ذلك يشير إلى تدريب منهج وموحد. لذلك فقد استطعت ملاحظة الطريقة غير المعقولة التي وضعها مسئولو الدعاية المعادية، وأنا فخور اليوم لأنني اكتشفت طريقة تجعل هذه الدعاية غير فعالة وتضرب من وضعوها في مقتل، وبعد عامين أصبحت سيد هذا الفن.

وكان من المهم في كل الأحاديث التي ألقيتها أن أحصل على فكرة مسبقة واضحة عن الطريقة المحتملة للحوار والموضوعات المتوقعة للنقاش، لذلك فإنني أبدأ بعرضها في حديثي ودحض كل ما هو ضدها. ولتحقيق ذلك لابد من ذكر كل الاعتراضات المحتملة وتوضيح تضاربها. وكان من السهل أن نكسب المستمع المخلص بعد أن نخرج من تفكيره كل الآراء الظالمة والافتراءات الموجهة ضدنا، لذلك فقد كنا نتوقع الردود. وعندما يدرك المستمع أن كل ما تعلمه قد تم تنفيذه أمامه، يبدأ في الإنصات إلى ما يقال له.

❖ | معاهدة فرساي..

وهذا هو السبب في أنني - وبعد محاضرتي الأولى عن معاهدة "فرساي" أمام الجنود، حيث كنت لا أزال موجهاً سياسياً في فرقتي العسكرية - عدلت العنوان لأتحدث عن معاهدات "برست ليتوفسك" و"فرساي". وذلك لأن المناقشة التي تلت محاضرتي الأولى أكدت لي أن الناس كانوا لا يعرفون شيئاً عن معاهدة "برست ليتوفسك" وأن دعايات الأحزاب القديرة قد نجحت في تقديم المعاهدة على أنها عمل عدواني مخز في التاريخ العالمي.

وكنتييجة لاستمرار الدعاية الكاذبة وتكرارها مرات ومرات أمام الشعب اعتبر ملايين الألمان أن معاهدة فرساي مجرد تعنيف على جريمة ارتكبتها في "برست ليتوفسك". لذلك فقد اعتبروا أن أي اعتراض على "فرساي" اعتراض ظالم. وقد كان ذلك أيضاً سبباً في دخول كلمة "التعويضات" المخزية إلى الاستخدام العامي للغة الألمانية. وبذلك فقد قدم الظلم الشديد والبهتان إلى جماهير الشعب على أنه عدالة مطلقة. إنها فكرة مخيفة لكنها حقيقة واقعة. وأفضل دليل على ذلك هو الدعاية التي بدأتها ضد "فرساي" بشرح معاهدة "برست ليتوفسك". فقد قارنت المعاهدين نقطة نقطة وأوضحت أن هناك اتفاقية شديدة الإنسانية وأخرى عديمة الإنسانية ووحشية. وكان أثر هذه المقارنة جيداً جداً. ثم تحدثت عن نفس الموضوع أمام جمهور مكون من ألفي شخص، وقد لاحظت أن هناك ثلاثة

آلاف وستمائة عين عدائية⁽¹⁾ تنظر إليّ. وبعد ثلاث ساعات كان أمامي مجموعة ممن عرفوا الحق وسخطوا على ما كانوا يعتقدون في صدقه قبل قليل. فقد استأصنت كذبة كبرى تعمقت في قلوب وعقول ألفي شخص وزرعت الحقيقة مكانها.

وبعد ذلك اعتبرت أن المحاضرتين حول "أسباب الحرب العالمية" و"اتفاقيات السلام في فرساي وبرست ليتوفسك" أهم ما فعلت. لذلك فقد كررتهم مرات عديدة وفي كل مرة كنت أضيف الجديد، إلى أن أصبح هذا الموضوع مفهوماً تماماً عند كل من يتبع حركتنا وكل أعضائها الجدد.

بالإضافة إلى أن كل تلك اللقاءات جعلت مني متحدثاً ثابتاً في كل اللقاءات الجماهيرية ودربتني على الإيماءات والإشارات اللازمة عند التحدث في القاعات الكبرى التي تتسع لآلاف الأفراد.

❖ مقارنة بين معاهديتين..

لم أجد أي حزب في ذلك الوقت يشارك في شرح تلك الموضوعات للشعب بهذه الطريقة. كما لم يشارك في ذلك أي حزب من الأحزاب التي تدعي الآن بأنها السبب في تغيير الرأي العام. فإذا ما أدلى أي سياسي - ممن يسمون أنفسهم بالوطنيين - بحديث صحفي هنا أو هناك حول نفس الموضوع فلا بد أن يكون ذلك أمام من يؤيدونه فقط لأنه يريد منهم الاقتناع تماماً برأيه. لكننا لم نسع إلى نفس الشيء. بل سعينا أن نجذب إلينا - من خلال الدعاية والشرح - هؤلاء الذين يعارضوننا وتقودهم آراؤهم وطريقة تفكيرهم إلى الوقوف في صف أعدائنا.

كما استخدمنا أيضاً الدورية ذات الورقة الواحدة لتساعد في هذه الدعاية. وقد كتبت دورية وأنا لا أزال جديداً قارنت فيها بين اتفاقيتي "برست ليتوفسك" و"فرساي". وقد طبعت هذه الدورية ووزعت بأعداد كبيرة. ثم استخدمتها في الحزب بعد ذلك، وحققت نجاحاً كبيراً. وقد تميزت لقاءاتنا بأعداد كبيرة من الأوراق والأبحاث والنشرات من كل التي ملأت الطاولات. لكننا كنا ننق في الكلمة المنطوقة. وفي الحقيقة كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي تستطيع إحداث ثورات كبرى يمكن توضيحها بالاعتماد على أسس نفسية عامة.

(1) أي 1800 شخص من الحاضرين.

✦ الكلمة المنطوقة.. والكلمة المكتوبة..

وقد ذكرت في الجزء الأول من هذا الكتاب أن كل الأحداث الهائلة التي غيرت العالم كانت بسبب الكلمة المنطوقة وليست الكلمة المكتوبة. وقد جرى حوار طويل حول هذه النقطة في الصحافة عارض فيه البرجوازيون بشدة نظريتي هذه. لكن هذا الاتجاه أذهل المتشككين. فالبرجوازيون يحتجون على رأيي لأنهم ليس لديهم القدرة أو القوة التي تمكنهم من التأثير في عامة الناس من خلال الكلمة المنطوقة، وذلك لأنهم كانوا يعتمدون بشدة على كتابهم ولم يدخلوا الحلبة كخطباء بغرض استثارة حماس الناس. وقد أدى تطور الأحداث إلى ذلك الوضع الذي يتميز به البرجوازيون اليوم وهو فقدان القدرة على التعامل مع الناحية النفسية والتأثير في الجماهير.

فالمحدث يتلقى إرشاداً مستمراً ممن يستمعون إليه. وهذا يساعده على تصحيح مسار حديثه. وذلك لأنه يمكنه دائماً أن يتطلع إلى وجه مستمعيه ويقيس مدى استيعابهم ومتابعتهم له، ويعرف ما إذا كانت كلماته تحدث الأثر المطلوب أم لا. لكن الكاتب لا يعرف قارئه أبداً. لذلك فهو منذ البداية لا يقدم نفسه إلى مجموعة محددة من الناس والأشخاص الموجودين أمام عينيه، لذلك فهو يكتب بطريقة عامة. كما أنه لن يتمتع بالاستفادة من الناحية النفسية للمتلقى. لذلك وبصفة عامة يمكننا أن نقول: إن المتحدث اللامع يمكنه أن يكتب أفضل مما لو تحدث كاتب لامع، وذلك إن لم يتدرب الكاتب على التحدث أمام الناس جيداً. ولابد أن نتذكر أيضاً أن عامة الناس كسالى من الداخل وأنهم يتمسكون بعاداتهم القديمة في عدم قراءة ما لا يتماشى مع معتقداتهم وما لا يجدون فيه ما يأملون.

لذلك، فإن المادة المكتوبة التي تميل إلى اتجاه محدد لا يقرؤها في الغالب سوى من يتعاطف مع هذا الاتجاه. والإعلان فقط أو المطوية - بسبب ما فيهما من إيجاز - يمكن أن يؤديا إلى اهتمام وقتي عند من يختلفون في الرأي مع ما جاء فيها. أما الصورة - بكل أنواعها ومن بينها الفيلم - فلها تأثير أفضل. ومن المفيد أن نحرص على كتابة النصوص القصيرة مع الصور وذلك لأن أغلب الناس يفضلون العرض المصور على قراءة الموضوعات الطويلة. فهم يفضلون معرفة موضوع ما من خلال لمحة سريعة لصورة وقراءة تعليق قصير عن أن يجهدوا أنفسهم بقراءة نصوص طويلة واستيعابها.

وأهم ما في هذا الموضوع أننا لا نعرف الشخص كاتب المادة ولا نعرف شيئاً عن طريقة إعدادها. فعادة ما ترتبط طريقة تناول الموضوع مع المستوى العقلي للقارئ وتناسب طبيعته. لذلك فلا بد أن يحاول الكاتب الموجه لجماهير الشعب التأثير في تفكيرهم منذ البداية من خلال الأسلوب ومستوى الأفكار، وذلك يختلف تماماً بالطبع عن كتاب تقرأه الطبقات عالية الثقافة.

ويمكن للكلمة المكتوبة أن تصل إلى مستوى تأثير الكلمة المنطوقة من خلال قدرتها على التكيف فقط. فالخطيب يمكنه أن يتناول نفس الموضوع المذكور في الكتاب، لكنه إن كان خطيباً عبقرياً وذا شعبية فلن يكرر نفس الكلام بنفس الطريقة في مناسبتين متعاقبتين. فهو دائماً يسترشد بالجمهور بطريقة تجعل الموقف بينه وبين المستمعين حياً وهذا سيأهمه استخدام الكلمات المناسبة فتدخل مباشرة إلى قلوب مستمعيه. فإذا ما وقع في خطأ بسيط لقنه من حوله بالصواب. وكما سبق أن قلت، يمكنه أن يقرأ أثر تعبيراته على وجوه المستمعين وذلك يساعده أولاً على معرفة ما إذا كانوا يفهمون ما يقول أم لا، وثانياً إذا ما كانوا قد استوعبوا كل ما قال، وثالثاً مدى اقتناعهم بالحقائق التي وضعها أمامهم. فإذا لاحظ أولاً أنهم لا يفهمونه فعليه أن يحاول توضيح ما يشرح قدر الإمكان حتى يفهموه جميعاً وبلا استثناء، وثانياً: إن شعر أنهم غير قادرين على متابعته ليفهموا الموضوع بالكامل، فعليه أن يقسم حديثه إلى أفكار يقدمها فكرة بعد أخرى بعناية وبطء يناسب أצלهم فهماً. وثالثاً: بمجرد أن يشعر أنهم مقتنعون بأنه على صواب فيما عرضه عليهم من أمور، فعليه أن يكرر ما قال مرات ومرات وفي كل مرة يقدم نفس المعلومة بطريقة جديدة مع الإيضاح. وعليه أن يذكر ما يتوقعه منهم من اعتراضات. ويكرر هذه الاعتراضات ويحللها ويدحضها، إلى أن يتضح له من سلوك آخر مجموعة منهم أنهم اقتنعوا بما قدمه إليهم من شرح.

❖ الصحافة البرجوازية..

وغالباً ما يواجه المتحدث حالات من التعصب الشديد تساندها العاطفة وليس العقل. والتغلب على هذا الحاجز أصعب ألف مرة من مجرد تصحيح الآراء الناتجة عن معارف خاطئة أو ناقصة. حيث يمكن التغلب على الجهل والأفكار الزائفة، لكن من المستحيل أن نتغلب على العواطف. ولن يجدي أي شيء في هذه الحالة سوى الاحتكام إلى تلك العواطف. وهذا ما لا يستطيع الكاتب عمله إلا نادراً. فالخطيب فقط هو القادر على ذلك.

والدليل الواضح على ذلك هو أننا بالرغم من وجود الصحافة البرجوازية جيدة الصياغة في كثير من الأحيان والتي تبيع ملايين النسخ للشعب، إلا أن ذلك لم يمنع الشعب من أن يصبح عدواً للطبقة البرجوازية ولا يمكن استرضاءه. فقد مر طوفان الصحف والكتب التي نشرتها الدوائر المثقفة عاماً بعد عام، مرت على أفراد الطبقات الدنيا مرور الماء على الجلد المصقول. وهذا يثبت صحة أحد الأمرين: إما أن تكون المادة التي تقدمها الصحافة البرجوازية عديمة الفائدة أو أنه من المستحيل الوصول إلى قلوب عامة الشعب من خلال الكلمة المكتوبة فقط. والاحتمال الأخير صحيح بالطبع، حيث إن المواد المكتوبة لها تأثير نفسي قليل كما أوضحنا في المثال السابق.

ومن غير المجدي أن نعترض هنا - مثلاً حاولت إحدى الصحف الكبرى ذات الميول الوطنية في برلين - بأن هذه الفكرة ينفذها نجاح الماركسيين من خلال الكتابة وخاصة كتابهم الرئيسي بقلم "كارل ماركس". لكن، هذا الاعتراض قائم على افتراض خاطئ. فلم تكن المادة الرسمية المكتوبة والتي تستعرض نظام الأفكار اليهودية هي ما منح الماركسية تأثيرها المدهش في الجماهير العريضة ولكن الدعاية الشفهية الهائلة التي استمرت بين أفراد الشعب لعدة سنوات. فمن بين كل مائة ألف عامل ألماني تجد مائة عامل فقط يعرفون كتاب ماركس. فالطبقات المتعلمة تدرسه أكثر وخاصة اليهود، لكنه لا يُقرأ في الطبقات الدنيا. وهذا العمل لم يكتب لجماهير الشعب، ولكنه كتب خصيصاً للمتقنين من قادة اليهود ومن أجل غزو العالم. وكان هناك طريقة مختلفة تماماً لدعّمه وهي الصحافة. والفرق بين الصحف البرجوازية والصحف الماركسية هو أن الأخيرة يكتبها المحرضون، بينما يقوم بالكتابة التحريضية في الصحف البرجوازية كتاب محترفون.

فلم يكن أسلوب الكتاب الماركسيين هو ما دعا الملايين من عمالنا لتأييد القضية الماركسية ولكن كان ذلك بسبب العمل الدعائي الهائل الذي قام به عشرات الآلاف من المحرضين الذين لا يشعرون بالتعب، بداية من أكبر مسئول فيهم إلى أقلهم شأنًا في اتحادات العمال. بالإضافة إلى أن هناك مئات الآلاف من الاجتماعات التي تحدث فيها الخطباء في الحانات المليئة بالدخان والتي ثبتوا فيها أفكارهم في رؤوس الجماهير، وتمكنوا من الحصول على معرفة نفسية جيدة بنوعية البشر الذين يتعاملون معهم. وبهذه الطريقة تمكنوا من اختيار أفضل الأسلحة التي تمكنهم من الهجوم على قلعة الرأي العام. وبالإضافة إلى كل ذلك هناك أيضاً المظاهرات الجماعية التي شارك فيها مئات الآلاف من الأفراد. وقد كان ذلك محسوباً جيداً حتى يؤثر في أصحاب أكبر عدد من الجماهير.

وقد أثر هذا النوع من الدعاية في الناس بطريقة تجعلهم يميلون إلى قراءة الصحافة الاشتراكية الديمقراطية لتعد عقولهم لتقبل أفكارها. وقد كانت هذه الصحافة بدورها وسيلة تستخدمها الكلمة المنطوقة وليست الكلمة المكتوبة. فبينما نجد أن الأساتذة والكتاب المتعلمين في المعسكر البرجوازي وواضعي النظريات والكتاب من كل نوع قد حاولوا التحدث كما حاول الكثير من المتحدثين الماركسيين الكتابة. وفي هذا المجال كان اليهودي لامعاً. وبسبب مهارته في الحوار وبراعته في لي الحقائق حتى تناسب أغراضه، كان اليهودي كاتباً مؤثراً، لكنه كان خطيباً ثورياً أكثر منه كاتباً.

ولهذا السبب لم تهتم الصحافة البرجوازية بمخاطبة الجماهير العريضة، كما أنها لم تكن قادرة على ممارسة أقل تأثير في رأي جماهير شعبنا.

❖ | الحديث صباحاً.. والحديث مساءً!!

ومن الصعب أن نمحو التعصب والتحيز النفسي والمشاعر ... إلخ، ونضع غيرها. فالنجاح في هذا المجال يعتمد على شروط ومؤثرات لا يمكن قياسها. والمتحدث الموهوب فقط يمكنه تقدير كل ذلك. كما أن الوقت الذي يلقي فيه الخطاب له تأثير مهم على ما يحققه من نتائج. فقد يؤدي نفس الحديث الذي يلقيه نفس المتحدث حول نفس الموضوع إلى نتائج مختلفة جداً عندما يلقيه في العاشرة صباحاً أو في الثالثة ظهراً أو في المساء. فعند بداية خبرتي بالتحدث أمام العامة كنت أعد لإلقاء الخطب قبل الظهر، وأنا أتذكر أنني تحدثت عن "الظلم الذي تتعرض له الأقاليم الألمانية". وكنت في أكبر قاعة في ميونخ في ذلك الوقت، كان الموضوع جريئاً وقد أردت أن يتم اللقاء في العاشرة من صباح الأحد حتى أجدب أعضاء الحزب والجمهور للحضور. وكانت النتيجة مخيبة للآمال، وتعلمت من ذلك الكثير. فقد امتلأت القاعة وكان التأثير كبيراً، لكن رد الفعل كان بارداً كالثلج. فلم يتحمس أحد منهم، وقد شعرت - وأنا المتحدث - بالتعاسة بشدة وذلك لأنني اعتقدت أنني لم أتمكن التواصل مع جمهوري. فلم أكن أتحدث بطريقة سيئة على الإطلاق، لكن النتيجة كانت سلبية. وغادرت القاعة وأنا غير راض تماماً، لكنني شعرت بأنني قد خضت تجربة جديدة. وفيما بعد حاولت إجراء نفس التجربة، لكنني كنت أصل إلى نفس النتيجة.

وهذا ليس غريباً. فإذا ما ذهب أي فرد إلى المسرح لمشاهدة عرض صباحي، ثم فيما بعد يحضر عرض مسائي لنفس المسرحية فإنه سيدهش للانطباعات المختلفة في الحالتين. والشخص دقيق الملاحظة سيعرف أن هذا الفرق بسبب كون العرض صباحياً أو مسائياً فقط. ونفس الحال ينطبق على العروض السينمائية. وهذه النقطة الأخيرة مهمة جداً. لأن البعض قد يعتقد أن الممثل لا يبذل جهداً في العرض المسرحي الصباحي يماثل جهده في العرض المسائي. لكن ذلك لا ينطبق على السينما بالتأكيد. لا ... فالتوقيت هنا يلعب دوراً هاماً، كما أن للغرفة دوراً تلعبه في حياة الإنسان وتؤثر عليه. فهناك غرف تجعلك تشعر بالبرد دون سبب واضح. وهناك غرف لا تسمح بأي جو ودي على الإطلاق. كما أن بعض الذكريات والعادات الموجودة في عقل الإنسان تؤثر على انطباعه. لذلك فإن عرض أوبرا "بارسيفال" في قاعة "بايروث" لها تأثير مختلف جداً عما إذا قدمنا نفس الأوبرا في أي مكان آخر من العالم. فآل سحر الغريب لدار الأوبرا الموجودة على مرتفعات "فستفال" في مدينة "مارجراف" القديمة لا يمكن مقارنته بأي موقع آخر.

❖ | الكنيسة والفموض المصطنع!

وفي كل تلك الحالات، فإننا نتناول مشكلة التأثير على إرادة الإنسان. وهذه حقيقة تنطبق أيضاً على الاجتماعات. وذلك إذا كان هناك من هم من أصحاب الإرادة ممن

يختلفون في الرأي مع المتحدث ويجب التأثير عليهم وإقناعهم. ويبدو أن إرادة الإنسان تتمرد في الصباح وأثناء النهار بقوة شديدة وتقاوم أي محاولة تفرض عليها إرادة أو رأي شخص آخر. ومن جهة أخرى نجد أنه من السهل أن نسيطر على إرادة شخص قوي في المساء. وذلك لأن تلك الاجتماعات تحتوي على صراع بين قوتين متضادتين. قوة الشخص المتحدث وقدراته الخطابية وهو صاحب شخصية ريادية تمكنه من النجاح في جذب من يعانون من ضعف قدراتهم على المقاومة أكثر من نجاحه في تغيير اتجاه أصحاب التحكم القوي في طاقاتهم الفكرية.

لذلك فالغموض المصطنع الذي يحيط بالكنيسة الكاثوليكية مثل الشموع المشتعلة والبخور والمباخر وغيرها يخدم هذا الغرض.

وتؤثر الناحية النفسية في هذا الصراع بين الخطيب ومن يواجهه - الذي يريد الخطيب أن يجعله مناصراً لأفكاره - وهذا لا يحدث مع الكاتب. وبصفة عامة، فإن تأثير كل ما يكتبه أي كاتب يساعد على توطيد ودعم وتعميق ما هو موجود من أفكار بالفعل. وكل الثورات العالمية العظيمة لم تحدث بسبب الكلمة المكتوبة، ولكنها كانت مصاحبة لها على أكثر تقدير.

❖ | الخطباء.. والثورات الكبرى..

فليس من المقبول أن ندعي أن الثورة الفرنسية كان من الممكن أن تحدث بسبب نظريات فلسفية إن لم يكن هناك من يشحن مشاعر العامة من القادة السياسيين والمحرضين الكبار. وهكذا تفجر البركان الذي هز أوروبا كلها. وقد حدث نفس الشيء في الثورة البلشفية الكبرى التي وقعت أخيراً في روسيا. فهي لم تنجح بسبب الكتاب المؤيدين لـ "لينين" ولكن بسبب ما قام به الخطباء الذين بشروا بالمذهب البغيض بالإضافة إلى عدد غير محدود من المتحدثين الصغار والكبار الذين شاركوا في إثارة مشاعر الناس.

فلم تهب جماهير الشعب الروسي من الأميين لمساندة الثورة الشيوعية بسبب ما قرؤوه في كتاب كارل ماركس، ولكنها هبت بسبب وعود بالجنة جعلت الآلاف من الناس تعتقد الفكرة. هذا ما حدث، وسيظل يحدث دائماً.

ومن الطبيعي أن يشعر كبار مفكرينا الذين يعيشون بعيداً عن العالم الواقعي أن الكاتب أكثر ذكاء من الخطيب. وقد كانت هذه الفكرة واضحة فيما كتبه ناقد ونشرت في جريدة قومية ذكرها من قبل، حيث قال: إن من يقرأ خطاباً ألفاه متحدث قد يسيء فهم معناه. وهذا يذكرني بموضوع آخر صادفته أثناء الحرب. وهو يتناول خطب "لويد جورج" وكان هو الوزير المسؤول عن الذخائر في ذلك الوقت. وقد قال الكاتب إن تلك الخطب تظهر

ذكاء وتعليماً محدوداً بالإضافة إلى أنها مبتذلة وعادية. وقد هاجمت أنا أيضاً بعض هذه الخطب ونشر الهجوم في مطويات، وكنت أضحك ساخراً وأقول إن السائق الألماني العادي لا يفهم هذه القطع الممتازة التي تؤثر في الجماهير. وقد تناول هذا الكاتب تلك الأحاديث طبقاً للتأثير الذي أحدثته في الجماهير. فوجد أن هذا السياسي الإنجليزي الكبير قد أثر في جمهوره تأثيراً كبيراً وفي كل الشعب البريطاني. فإذا نظرنا إليها من هذا الجانب، فإن أحاديث هذا السياسي تعتبر إنجازاً مدهشاً، وذلك لأنها أوضحت معرفة واسعة بجماهير الشعب. ولهذا السبب كانت آثارها ممتازة. ولكن فلنقارنها بأحاديث "بيتمان هولويج" العقيمة غير المفهومة. فأحاديثه تبدو أكثر تعمقاً من الخارج، لكنها تثبت بلا شك عدم قدرة هذا الرجل على التحدث إلى الناس، فهو لا يستطيع ذلك فعلاً. بالإضافة إلى أن الكاتب الألماني العادي والذي بلا شك يستمع إلى أحاديث الوزير الإنجليزي - التي أعدت للتأثير في الجماهير - ويحكم عليها بما تتركه في عقله من أثر. وكان من الطبيعي أكثر بالنسبة له أن يقارنه مع الأحاديث الجذابة (والعقيمة في نفس الوقت) التي ألقاها المسؤول الألماني، وهي بلا شك تروق للكاتب أكثر. إن عبقرية "لويد جورج لا تساوي عبقرية" "بيتمان هولويج" فقط بل تزيد عليها بألف ضعف، وهذا واضح لأنه وجد لأحاديثه الصيغة وطريقة التعبير التي تفتح قلوب شعبه له وتجعلهم يحققون له ما يريد. وما النوعية البدائية لأحاديثه وتعبيراته الجديدة واختياره للأمثلة الواضحة البسيطة إلا دلائل على قدراته السياسية العالية. وذلك لأننا لا يمكننا أن نحكم على خطاب رجل دولة من خلال الانطباع الذي تتركه في عقل أستاذ جامعي ولكن من خلال التأثير الذي تتركه على الشعب. فهذا هو المعيار الوحيد لقياس عبقرية الخطيب.

يعود التطور المذهل لحركتنا الذي تحرك من لا شيء إلى ما هو عليه الآن مما يثير سخط وحنق أعدائنا في الداخل والخارج إلى الاعتراف المستمر بهذه المبادئ وتطبيقها. كما لعبت المادة المكتوبة دوراً مهماً أيضاً في حركتنا، ففي المرحلة التي كنت أكتب فيها، وكان ما أكتبه يعتبر إرشاداً وتوجيهاً جيداً لمن يتولون إدارة الحركة من المستويين العالي والمتوسط وليس في اجتذاب جماهير جديدة لتأييد الحركة. وفي حالات نادرة جداً كان الديمقراطي الاشتراكي أو الشيوعي يقرأ عن مذهبنا ويؤمن به أو يقرأ ما كتبناه من نقد عن مذهب في إحدى مطوياتنا أو كتبنا. كما أن الصحف لا تقرأ إن لم تكن ممهورة بخاتم أحد الأحزاب. بالإضافة إلى أن قراءة الصحيفة لا تقدم الكثير وذلك لأن الصورة العامة التي تقدمها الصحف مشوشة وتنتج انطباعاً جزئياً لا يؤثر في القارئ غير المعتاد على القراءة. كما أن من يعد ما معه من قروش قليلة لا يشتري أو يشترك في صحيفة تعارض آراءه. فمن ينضم إلى حركة فقط هو من يقرأ ما تكتبه وخاصة بغرض تحديث معلوماته حول ما يحدث في هذه الحركة.

والأمر مختلف تماماً مع المطوية "المنطوقة" خاصة إذا كانت توزع مجاناً، وبأخذها

كل من يريد، وهم يأخذونها بإقبال إن كان عنوانها يشير إلى قضية يتحدث عنها الجميع في ذلك الوقت. وربما يغير القارئ رأيه بعد أن يقرأ هذه المطوية بدقة أو يقرأها قراءة عادية وربما يعتنق فكراً جديداً. ولكن بالرغم من ذلك، فإن أفضل الحالات لا تصل إلى مستوى الإجابة التامة وقد لا تفعل أي شيء سوى لفت الانتباه إلى شيء جديد، وأن على القارئ أن يحصل على معلومات عن هذا الشيء. أما الحصول على تلك المعلومات الضرورية فلا يتم إلا من خلال الاجتماعات الجماهيرية.

❖ اللقاءات الجماهيرية..

والاجتماعات الجماهيرية مهمة أيضاً لأن حضورها يساعد من يشعر بأنه وحيد ولا انتماء له بأنه يقترب الآن من الانضمام إلى جماعة لأول مرة، وهذا يشجعه ويدفعه للتأثير في الناس. فهو يجد نفسه محاطاً بمجموعات وفرق، لكنه أقوى قلباً عما لو كان يمشي بمفرده. فهو يشعر بأنه أكثر أمناً وهو في وسط الزحام بالرغم من أن هذا الشعور غير حقيقي.

واللقاءات الجماهيرية بصفة عامة لا تؤثر في إرادة الفرد فقط بل تدفعه ليقتررب من الحركة والانضمام إلى فيالقها. فمن يبدو في البداية على أنه رسول مذهب جديد في التجارة أو الصناعة يجب أن يشعر بالاحتواء وأنه فرد في مجتمع كبير. والتجمع الكبير فقط هو ما يطبع في ذهنه عظمة هذا المجتمع. وعندما يترك المحل أو المصنع الذي يشعر بأنه صغير جداً بداخله، فإنه يتوجه إلى اجتماع كبير يحضره آلاف وآلاف ممن لهم نفس الرأي. فإذا اقتنع برأي الجماهير وهو لا يزال في مرحلة البحث عن الطريق فسوف يجد نفسه. وكل من دخل إلى تلك الاجتماعات وهو متشكك ومتردد يغادرها وهو متأكد ومقتنع بأنه قد أصبح عضواً في مجتمع جديد.

ولا يجب على الحركة القومية الاشتراكية أن تنسى ذلك أبداً. ولا يجب أن تسمح لنفسها بالتأثر بحركات الطبقة المتوسطة التي تعتقد أنها تعلم كل شيء ولكنها غامرت بدولة عظمى وبوجود طبقتهم وسيادتها. فلديهم طاقات كبيرة وقدرات تمكنك من فعل كل شيء ومعرفة كل شيء، لكن هناك شيئاً واحداً لم يستطيعوا فعله وهو إنقاذ الشعب الألماني من السقوط في قبضة الماركسية. وهذا فضح عجزهم وبؤسهم. لذلك فإن رأيهم الحالي في أنفسهم ما هو إلا انعكاس لغرورهم. كما أن غباءهم وغرورهم كانا من ثمار نفس الشجرة.

فإذا أراد هؤلاء أن يحطوا من قدر الكلمة المنطوقة اليوم، فهم يفعلون ذلك فقط لأنهم يدركون - والحمد لله على ذلك - مدى عمق خطبهم وفشلها.



الصراع مع القوات الحمراء

حضرت في الأعوام 1919-1920م وفي عام 1921م أيضاً اجتماعات البرجوازيين. وقد كان شعوري تجاه تلك الاجتماعات هو نفس شعوري تجاه زيت الخروج في أيام صباي، فلا بد من تعاطيه لأنه نافع للفرد ولكنه كان ذا طعم بغيض. ولو كان هناك حبل يربط فيه الألمان ويجرون إلى الاجتماعات البرجوازية ويحبسهم خلف الأبواب ولا يسمح لأي فرد بالهروب حتى نهاية تلك الاجتماعات، لكان لتلك الخطوات أن تتجح بعد بضع مئات من السنين. أما بالنسبة لي فيمكن القول بأنني في تلك الظروف - وبكل صراحة - أكره الحياة وفي الواقع تمنيت ألا أن أكون ألمانياً، ولكن الحمد لله فذلك كله من المستحيل، وبالتالي فليس بالمدح أن ترفض الجماهير الواعية تلك الاجتماعات البرجوازية مثلما يرفض الشيطان الماء المقدس.

ولقد تعلمت مزايا المذهب البرجوازي ولم أدهش لما تعلمته لأنني كنت أعرف أنهم يولون أهمية قليلة للكلمة المنطوقة. في تلك الأثناء حضرت اجتماعات للحزب الديمقراطي والحزب القومي وحزب الشعب الألماني وحزب الشعب البافاري (الحزب المركزي البافاري) وما لفت انتباهي في الحال هو الانسجام بين الحضور فكلهم من أعضاء الحزب، فلقد كان الموضوع برمته كما لو أنهم مجموعة من لاعبي الورق المتشائمين وليسوا مجموعة من أفراد شعب نجحت ثورته العظيمة منذ وقت قليل. فقد أدى الخطباء كل ما في وسعهم للحفاظ على هدوء الأجواء، كما قرؤوا خطبهم مثلما يقرأ المثقف الصحيفة أو البحث العلمي مع تجنب كل التعبيرات المثيرة. وكان على المتكلم أن يمزج مزاحاً خفيفاً من آن لآخر وعلى المستمعين له أن يضحوا بتحفظ وبدون صوت مسموع.

وكان لابد من وجود أمثال هؤلاء على طاولة المتحدث. فقد حضرت ذات مرة اجتماع في قاعة "فاجنر" بميونخ، وكان ذلك للاحتفال بذكرى معركة ليزج. وقد قال الخطبة أو بالأحرى قرأها أستاذ جامعي محترم وكبير في السن، وجلست اللجنة على المنصة، وكان على اليمين رجل بنظارة أحادية وآخر بنظارة أحادية على اليسار، في المنتصف يجلس شخص بدون نظارة، وكان الثلاثة يرتدون معاطف الصباح. وكان لديّ انطباع أنني أجلس أمام القضاة أو أنني في طقوس دينية ولقد كان للخطاب المكتوب تأثير مدمر. وبعد ثلاثة أرباع الساعة شعر الحاضرون بالميل إلى النوم، فلم يقاطع هدوئهم وسباتهم سوى مغادرة

رجل أو امرأة هذا المكان أو أصوات التي تحدثها المضيفات أو التثائب المتزايد من الأفراد. ولقد جلست خلف ثلاثة من العمال الذين حضروا أما لما لديهم من فضول أو لأن أحزابهم أرسلتهم. ومن حين لآخر كانوا ينظرون لبعض البعوض بابتسامة ذات معنى، ثم ينبهون بعضهم بخيطات على الكتف وبعد ذلك يغادرون القاعة في صمت. فكان واضحاً أنهم لا يريدون مقاطعة ما يحدث، فليس من الضروري إطلاقاً أن يقطعوهم. وقرب نهاية الاجتماع وعندما أنهى الأستاذ - الذي أصبح صوته غير مسموع تدريجياً - خطابه قام الرجل الجالس في المنتصف متحدثاً فقال: "أيها السيدات والسادة ... الإخوة والأخوات" وعبر عن امتنانه هو وجميع الحضور للأستاذ "فلان" عن المحاضرة الرائعة التي سمعناها للتو، مؤكداً أن كلمات هذا الأستاذ كانت لها عميق الأثر عليهم. وأنه يرى أنه لا حاجة للمناقشة فالحديث واضح للجميع. وكان يعتقد أنه يتحدث معبراً عن جميع الحاضرين الذين لا يرون أي حاجة للنقاش حول هذا الموضوع القيم. وبالتالي فقد طلب من الجميع الوقوف للمشاركة في غناء أغنية وطنية. ثم انتهت تلك الطقوس بالنشيد الوطني.

وقد غنى الجميع. وقد بدا لي بعد الوصول إلى ثاني مقطع من الأغنية أن الأصوات قد أصبحت قليلة. أما عند الوصول المقطع الثالث فقد تأكدت أن عدداً كبيراً من الحضور لم يكن على علم بالنص نفسه.

لكن ما علاقة كل ما حدث بالغناء الوطني مع الحماس والإخلاص؟ لقد غنى المجتمعون من الوطنيين الألمان أغنية وطنية!

وبعد أن انفض هذا الاجتماع أسرع كل فرد إلى الخارج، البعض لتناول البيرة والبعض الآخر اتجه إلى المقهى، وآخرون استمتعوا بالهواء النقي.

الهواء الطلق، هذا ما كنت أحبه أنا أيضاً. وهل هذا هو الأسلوب المناسب لتكريم كفاح بطولي حارب فيه مئات الآلاف من الألمان والبروسيون؟ يا له من اجتماع بائس.

❖ | الأعلام الحمراء!

وقد كانت الحكومة تستحسن هذا النوع من الاجتماعات، فلقد كانت مجرد اجتماعات سلمية، والوزير المسئول عن القانون والنظام ليس في حاجة إلى الخوف من أن يؤدي الحماس بالناس إلى الخروج بتدفق من القاعة، وبدلاً من اللجوء إلى المقاهي وحانات البيرة، يخرجون في مسيرات في شوارع المدينة متغنين بالأغاني الوطنية مما يسبب بعض الارتباك لرجال الشرطة.

لا ... فهذا النوع من المواطنين غير مفيد بالمرّة.

لذلك فلقد كان ضرورياً ومنذ البداية أن نتبع نظاماً صارماً في اجتماعاتنا، وأن نحدد سلطة الرئيس بدقة. فلم يكن هدفنا أن نقولَ خليطاً مما يقوله البرجوازيون. لكن ما كنا نقوله كان يثير أعداءنا في كل اجتماع لنا ! فكم من مرة جاءوا بأعداد كبيرة ومعهم عدة محرضين، وكان النظر إلى وجوههم وما عليها من تعبيرات ينبئ بأنهم يستعدون للخلاص منا بأسرع ما يمكن.

نعم، لقد جاءنا مؤيدو الأعلام الحمراء⁽¹⁾ أكثر من مرة وبأعداد كبيرة، وقد سبق توجيههم بتحطيم كل شيء مرة واحدة وذلك للقضاء على اجتماعاتنا تماماً.

ولم يفسد تلك الخطط لأعدائنا سوى عزيمة رئيس الحزب والطريقة الخسنة التي تعامل بها الحراس مع نوايا الأعداء. وقد كان من حقهم فعلاً أن يشعروا بثورة شديدة ضدنا.

فقد جذبهم اختيارنا للون الأحمر في ملصقاتنا وكان سبباً كافياً ليحضروا اجتماعاتنا. وقد صدم البرجوازيون العاديون عند رؤية ذلك اللون. فقد اخترنا اللون الأحمر كرمز نقلاً عن البلاشفة، ورأى البرجوازيون أن ذلك ذو مغزى غامض. وقد أثير هذا الشك بين الدوائر الوطنية الألمانية، واعتبروا أننا نوع آخر من أنواع الماركسية، ولا يزال الاختلاف بين الاشتراكيين والماركسيين غامضاً عند أولئك الناس حتى الآن. وقد كشفوا سبب اتهامنا بالماركسية فيما بعد، وهو أننا نستخدم نفس المصطلحات التي يستخدمونها في الاجتماعات مثل : "إخواني أبناء وبنات بلادي" بدلاً من "السيدات والسادة"، وكذلك استخدام مصطلح "رفيق". وقد ضحكنا من قلوبنا على هؤلاء البرجوازيين وما يقومون به من جهد لاكتشاف أصولنا ونوايانا وأهدافنا.

لقد اخترنا اللون الأحمر لملصقاتنا بعد ترو وكان هدفنا إثارة اليسار ودفعهم إلى الاهتمام وإغراءهم لحضور اجتماعاتنا. وبالتالي يكون لدينا فرصة لتشتيتهم والتحدث مع الشعب.

ففي تلك السنين كانت متابعة تغيرات الخطط المستمرة لخصومنا اليائسين المتحيرين العاجزين تجربة رائعة. وقبل كل شيء فقد طلبوا من مؤيديهم تجاهلنا، ولقي هذا الاتجاه اهتماماً. ولكن مع مرور الوقت انتقل كثير من مناصريهم تدريجياً إلى صفوفنا وقبلوا تعاليمنا. لذلك فقد شعر قادتهم بالغضب والتوتر، فتمسكوا بمعتقداتهم، لذلك فقد رأوا أن هذا الخطر لا يجب أن يستمر إلى الأبد، لذلك فلا بد من استخدام الإرهاب في القضاء عليه.

(1) بقصد الشيوعيين.

ولذلك كانت هناك محاولات لاستمالة طبقة العمال الواعية لحضور اجتماعاتنا بأعداد كبيرة والضرب بيد طبقة العمال الثابتة على ممثلي "الرجعية والملكية".

وقد اكتظت قاعات اجتماعاتنا بالعديد من العمال وقبل ثلاثة أرباع الساعة من الوقت المحدد لأي اجتماع. وتلك التجمعات كانت مثل البارود الجاهز للانفجار في أي وقت وكان الفئيل في المتناول، لكن الأحوال كانت تسير على ما يرام. فقد جاء الناس وهم أعداء لنا وغادروا وهم - على الأقل - على استعداد للانضمام إلينا، فهم يفكرون في المذهب الذي ينتمون إليه ويفكرون في مدى صحته. ومع مرور الوقت كانت محاضراتي التي تستمر لثلاث ساعات تنتهي غالباً إلى اتحاد بين المعارضين والمؤيدين في جماعة واحدة متحمسة. وقد فشلت كل إشارات البدء في إنهاء الاجتماع وإفساده. وكانت النتيجة أن أصبح قادة المعارضين في رعب وبحوثا عن المساعدة من الآخرين، فتعاونوا مع من تخلوا عنهم من قبل، وتوصلوا إلى رأي قائل بتجريم حضور العمال لتلك الاجتماعات.

ولم يأتوا بعد ذلك أو جاءت أعداد قليلة منهم، ولكن سرعان ما انقلب الأمر، فقد تجاهلوا التعليمات الصادرة لهم بالابتعاد عنا، وازداد عدد الرفقاء. وبعد اجتماعين أو ثلاثة أو حتى ثمانية اجتماعات، أدركوا أن الأمر بتفكيك تلك الاجتماعات كان سهلاً كقول، لكنه صعب التنفيذ، وأن كل اجتماع يمر يؤدي إلى إضعاف القوى الحمراء. وفجأة استخدموا كلمة السر: "أيها العمال ... الرفقاء والرفيقات تجنبوا اجتماعات الاشتراكيين القوميون المرحضين".

❖ الصحافة الحمراء..

وقد لوحظت نفس الخطط - التي تعرضت إلى تعديلات أبدية - في الصحافة الحمراء وحاولوا إسكاننا في وقت مبكر لكنهم اكتشفوا أن محاولاتهم عقيمة. وبعد ذلك لجأوا إلى الخطط المعاكسة، فكانت هناك محاولات يومية تجري لتسخر منا أمام أعين الطبقات العاملة. لكنهم وجدوا أنهم لم يلحقوا بنا أي أذى، بل على النقيض فقد حصدنا المزايا وهي أن الناس تساءلوا عن سبب التركيز في موضوع من المفترض أن يكون ساخراً. وأصبح الناس أكثر فضولاً وفجأة حدث تغير في الخطط، فعاملونا كمجرمين في حق الإنسانية لفترة من الوقت. وكتبوا المقالات مقالة تلو الأخرى تشرح ما ينسب إلينا من أهداف إجرامية. لكن ظهرت أدلة جديدة لتأييد ما قلناه. ولقد نشرت صحافتهم العديد من القصص الكاذبة المؤلفة من البداية إلى النهاية، وذلك بهدف تسميم الفكر العام. ولكن تلك الهجمات أثبتت عدم جدواها في فترة وجيزة. بل على العكس، فقد ساعدت في لفت انتباه الرأي العام إلينا.

وفي تلك الأيام كنت أعتقد أنه ليس من المهم أن يضحكوا علينا أو يسبونا، سواء قالوا عنا أننا حمقى أو مجرمون، ولكن كانت النقطة المهمة أنهم أدركوا أهميتنا عند الطبقة العاملة وأنا قد أصبحنا القوة الوحيدة القادرة على القتال. فقلت لنفسى: لابد لمؤيدي الصحافة اليهودية أن يعرفونا ويعرفوا أهدافنا الحقيقية.

وأحد أسباب أنهم لم يفلحوا في إفساد أي اجتماع من اجتماعاتنا هو بلا شك جبن قادة المعارضة. فهم يتركون الأعمال القذرة في كل مناسبة لصغارهم بينما ينتظرونهم في خارج القاعات أملاً في سماع خبر إفساد الاجتماع.

وقد كنا على دراية تامة بنوايا معارضينا، وذلك ليس فقط لأننا سمحنا لبعض أعضائنا بالبقاء كأعضاء في المنظمة الحمراء للانتفاع مما يجلبوه من معلومات، ولكن أيضاً لأن قادتهم أيضاً كانوا مبتلين بداء حب الثرثرة، وهذا سائد بين الألمان حتى الآن للأسف. فلم يستطيعوا الاحتفاظ بأسرارهم، وكانت ثرثرتهم تسب أعمالهم دائماً. لذلك فقد كنا حذرين دائماً من المحرضين الحمر، كما أنهم كانوا لا يعرفون متى سيتردون من اجتماعاتنا.

❖ | تخاذل الشرطة..

وقد اضطرنا ذلك الحال إلى حماية اجتماعاتنا بأيدينا. فلا يمكن الاعتماد على الحماية الرسمية. ولكن على العكس، فقد أوضحت التجربة أن ذلك في صالح المحرضين على إفساد نظام الاجتماعات. وذلك لأن النتيجة الوحيدة لتدخل الشرطة هي انتهاء الاجتماع. وهذا هو ما يريده خصومنا.

وبصراحة شديدة، فقد أدى ذلك بالشرطة إلى اتباع أسوأ الطرق الرسمية المخزية. فبمجرد أن تصلهم معلومات عن محاولة اختراق اجتماع ما، فهم يخبرون أصحاب الاجتماع الأبرياء بأن هذا الاجتماع ممنوع بدلاً من القبض على المشاعبين المحتمل وجودهم. وكانت الشرطة تعتبر أن ذلك إجراء وقائي في صالح تطبيق القانون والحفاظ على النظام.

وهكذا دائماً تتمكن مجموعة من الوحوش اليائسة من إعاقة كل الأنشطة السياسية لشعب محترم، وكانت الوسيلة سهلة. فباسم الأمن والنظام تتخني سلطة الدولة أمام هؤلاء الوحوش وتطلب من الآخرين ألا يزججونهم. فعندما كان الاشتراكيون القوميون يعلنون عن عقد اجتماع لهم في مكان محدد، ثم تعلن اتحادات العمال أن أعضاءها سيقاومون ذلك الاجتماع، لا يتم القبض على هؤلاء المبتزين الذين أصدروا التهديد ولا يلقون في السجون. لا ... بل تمنع الشرطة إقامة اجتماعنا. نعم ... لقد كان لهذا الجهاز الرسمي قدر من الوقاحة التي جعلته يخاطبنا كتابياً بذلك المعنى في العديد من المناسبات. ولتجنب

ذلك كان من الضروري أن نجهض أي محاولة لإفساد اجتماعاتنا وهي في مهدها. وهناك لمحة أخرى لا بد من أخذها في الاعتبار عند تناول هذا الموضوع وهو أن كل الاجتماعات التي تعتمد على حماية الشرطة تسيء إلى منظمها عند عامة الشعب. فالاجتماعات التي تتم تحت حماية مركزة من رجال الشرطة لا تجذب أحداً. كما كان لا بد لنا أن نستعرض قوتنا لكي نجذب الطبقة الدنيا من الشعب إلينا، وذلك بنفس الطريقة التي يجذب بها الرجل المرأة وينال حبها بشجاعته وليس بجبنه. لذلك فالحركة القوية تكون أكثر نجاحاً في كسب قلوب الشعب من الحركة الضعيفة التي تعتمد على قوة الشرطة في وجودها.

❖ | كيف نحمي اجتماعاتنا؟

وهذا السبب الأخير بشكل خاص جعل حركتنا الشابة تتحمل مسؤولية تأكيد وجودها والدفاع عن نفسها والقيام بعملها الخاص والتغلب على المعارضة الحمراء.

وقد قامت عملية تنظيم إجراءات حماية لاجتماعاتنا على التالي:

1- طريقة حكيمة في إدارة الاجتماعات تكون فعالة من الناحية النفسية.

2- إيجاد فرقة للحفاظ على النظام.

وفي تلك الأيام، كنا نحن فقط - وليس أي أحد غيرنا - المتحكمين في الموقف عند عقد اجتماعاتنا، ولم نفشل في ذلك أبداً. وأدرك خصومنا من أن أي إثارة معناها إلقاءهم خارج القاعة في الحال مهما واجهنا من مشكلات. وفي الاجتماعات وبخاصة خارج "ميونخ" كان لدينا من خمسمائة إلى ثمانمائة معارض ضد خمسة عشر وستة عشر من الاشتراكيين القوميين، ولكننا لم نسمح بأي تداخل، حيث كنا على استعداد أن نقتل ولا نستسلم. وقد أظهرت مجموعة من الزملاء في الحزب مقاومة بطولية لجماعات العنف من مؤيدي التنظيمات الحمراء أكثر من مرة. وكان لا بد لهؤلاء الخمسة عشر أو العشرين أن يهزموا لولا أن الخصوم يعلمون أن جماجمهم قد تتحطم وإن كانوا أكثر عدداً بكثير. ولذلك فلم يقبلوا على المخاطرة. ولقد فعلنا ما في وسعنا لدراسة الطرق الماركسية والبرجوازية لإدارة الاجتماعات وتعلمنا منها.

مارس الماركسيون أكثر النظم صرامة، ولذلك فلم يفكر البرجوازيون في مسألة تفكيك أو إفشال اجتماعاتهم، وقد زاد ذلك من قناعة مؤيدي الجماعات الحمراء واستمروا في اتباع نفس الطريقة. ولم يكتفوا بأنهم تسيدوا هذا الأسلوب على مستوى الدولة الألمانية، بل أعلنوا أن الاجتماعات غير الماركسية ما هي إلا مجرد سبب للإثارة ضد طبقة العمال، وهكذا كان الحال عندما ترتاب قياداتهم (محركو العرائس) أن الاجتماع قد بلغت الانتباه

إلى آثامهم ويظهر ما هم فيه من خيانة ومغالطة. ولذلك فمجرد الإعلان عن أن اجتماع ما سيعقد يؤدي إلى موجة من الغضب في الصحافة الحمراء. فمن يجتمعون دائماً تحت حماية القانون يلجأون إلى السلطات ويبلغونهم بلغة مهددة وأمرة أن ذلك يعتبر "إثارة لطبقة العمال"، ويجب منعه لصالح القانون والنظام، وهم يختارون لغتهم طبقاً لأهمية المسئول الذي يتعاملون معه. فإذا صادف وكان المسئول ألمانياً أصيلاً - وليس مجرد فرد يتولى منصب - ورفض الطلب، فهم يلجأون إلى إصدار منشور يدعو إلى منع "إثارة طبقة العمال" ويصدرون توجيهاتهم في نفس الوقت بحضور الاجتماع في موعده بكل قوة وبغرض "وضع نهاية لمكائد الطبقة المتوسطة التي تتم من خلال قبضة طبقة العمال".

❖ | الأسلوب المرعب!

ولابد من فهم الأسلوب المرعب الحقيق الذي تدار به اجتماعات البرجوازيين حتى نصدق. فقد كانت هذه التهديدات كافية لإلغاء هذا الاجتماع في الحال. كما أن الإحساس بالخوف كان ملحوظاً في تلك الاجتماعات، فلا يبدأ الاجتماع في الثامنة كما كان مقرراً له بل كان يبدأ في التاسعة إلا الربع أو التاسعة. وكان رئيس الحزب يفعل كل ما في وسعه، حيث يغدق في مدح "السادة المعارضين" ليثبت لهم كم هو مسرور بزيارتهم وكذلك جميع الحاضرين (وهذا كذب واضح)، وأن هناك تفاهماً متبادلاً فضلاً عن أنه يؤكد لهم أن هذا الاجتماع لن يتدخل في معتقدات أي فرد. لكن الحقيقة عكس ذلك، فكل فرد الحق في أن تكون له آراؤه السياسية الخاصة به، لكن من حق الآخرين ألا يتبعوه وتكون لهم آراؤهم الخاصة. ثم بعد ذلك يطلب منهم عدم مقاطعة المتحدث أثناء خطابه، وأن الحديث لن يكون طويلاً على أي حال. ويستمر في كلامه قائلاً إن من في الخارج لن يعتبروا هذا الاجتماع مجرد مثال غير مشرف للتنازع بين الإخوة وهو أمر مستشر في ألمانيا، ويستمر كلامه على هذا المنوال.

ولا يظهر الإخوة اليساريون أي تقدير لما سمعوه من كلام، فلا يكاد المتحدث يبدأ خطابه حتى يطالبوه بالنزول من على المنصة. وقد كان انطباعي عن أولئك المتحدثين أنهم شهداء الخطب القصيرة جداً. وكان مصارعو الثيران البرجوازيون يغادرون الحلبة وسط اضطراب شديد، وذلك بالإضافة إلى إلقائهم على سلم المبنى وهم مصابون في رؤوسهم في أغلب الأحوال.

لذلك فإن أساليبنا التنظيمية في الاجتماعات الاشتراكية القومية كانت غريبة تماماً على الماركسيين. فقد جاءوا إلى اجتماعاتنا وهم يعتقدون أنهم سيكررون لعبتهم معنا، وكانوا عادة يقولون لبعضهم البعض وهم يدخلون إلى قاعة الاجتماع: "اليوم سنقضي عليهم". لكننا نلقي بهم في الخارج بسرعة البرق قبل أن يتمكنوا من تكرار هذه الجملة مرة أخرى.

الهجوم خير وسيلة للدفاع..

فقد كان أسلوبنا في إدارة الاجتماعات مختلفاً تماماً، إننا لا نتوسل ولا نرجو الحضور أن يسمحوا لنا بالتحدث، كما أننا لم نعط كل فرد الحق في أن يجري مناقشات لا نهاية لها. لذلك فقد فهم الجميع أننا أسiad هذا الاجتماع وأننا سوف نديره كما نشاء، وأي فرد يجرؤ على المقاطعة سوف يلقى خارج القاعة. وقد أعلننا بوضوح رفضنا لتحمل المسؤولية عن التعامل بهذه الطريقة. فإذا سمح الوقت وإذا كان ذلك مناسباً لنا، فسوف نسمح بالمناقشة. ثم نعلن عن سيتولى الحديث من زملائنا في الحزب. وقد كان هذا الأسلوب كافياً في حد ذاته فاندھش له الماركسيون.

و كان لدينا فرقة مدربة وجاهزة من الرجال القادرين على الحفاظ على أمن اجتماعاتنا. لكن كانت أحزاب البرجوازيين - من جهة أخرى - يستخدمون الحُجَاب المرشدين، وكانوا يعتمدون أن كبر سنهم سيعطيهم مهابة واحتراماً، إلا أن الماركسيين لا يحترمون ذلك أبداً، لذلك فلم تكن هناك أي حماية عملية لاجتماعات أولئك البرجوازيين.

عندما بدأت اجتماعاتنا السياسية زودتها بمجموعة تنظيمية مدافعة، وتألفت تلك الفرقة من الشباب، وكان بعضهم من رفقاء السلاح الذين شهدوا الحرب معي. وكان الآخرون أعضاء في الحزب تدربوا واقتنعوا منذ البداية بأن الإرهاب لا بد أن يواجه بالإرهاب. وأن الرجال الأقوياء الإرادة ذوي الشجاعة هم من يحقق النجاح في هذا العالم، وأننا كنا نحارب من أجل فكرة سامية تستحق التضحية بأخر قطرة من دماننا، وأن أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم وأن سمعة فرقة حراسة القاعات سوف تثبت أننا قوة سياسية ولنا مجرد جمعية للمناقشات.

وكانت استجابة شباب الحرب لهذه التعليمات مدهشة، فقد كان لديهم من الأسباب ما يكفي لجعلهم يشعرون بمرارة وسخط على الطريقة المخذلة البائسة التي يستخدمها البرجوازيون.

العمل السلمي يحتاج إلى الحماية والقوة..

وهكذا أصبح من الواضح أن الثورة لم تكن لتقع سوى بفضل أساليب الحكومة البرجوازية البغيضة. ففي ذلك الوقت لم يكن هناك نقص في القوى البشرية لكبح الثورة ولكن لسوء الحظ كان هناك نقص في القوى العقلية الموجهة. وكم من مرة امتلأت أعين الشباب بالحماس عندما شرحت لهم الوظائف الضرورية المرتبطة بمهمتهم، وأكدت لهم مرات ومرات أن حكمة الكرة الأرضية لا فائدة منها إن لم تدعمها القوة، وأن كل عمل سلمي لا بد من حمايته ومساندته بالقوة، وبذلك اتضحت لهم فكرة الخدمة العسكرية بشكل

أكثر واقعية. وبذلك تجردوا من المعاني القديمة البالية التي نقلها لهم ضباط النظام البائد في الدولة الميتة، وحل محله معتقد راسخ بأن من واجب كل منهم أن يضحي بحياته في كل وقت حتى تعيش بلاده. ولكن كيف قام هؤلاء الشباب بواجبهم.

كانوا مثل سرب النحل في التعامل مع مثيري الشغب في اجتماعاتنا، ولم يعبأوا بالتفوق العددي للخصوم ولا بما نزفوا من دماء وما أصابهم من جروح، وكانوا يستلهمون كل تلك القوة من مهمتهم المقدسة تجاه حركتنا.

وأصبح لفرقة الحرس شكل محدد في أوائل صيف 1920م، وفي ربيع عام 1921م تم تصنيف تلك القوات إلى فرق يتكون كل منها من مائة فرد، تقسم بدورها إلى مجموعات أقل عدداً.

وكانت الحاجة الملحة لتلك الفرقة واضحة بسبب تزايد عدد اجتماعاتنا باستمرار. وكنا لا نزال معتادين على الاجتماع في قاعة الاجتماعات في "ميونخ" كما أننا كنا نستخدم قاعات أكبر في أماكن أخرى من نفس المدينة أيضاً. وفي خريف وشتاء عام 1920-1921م كانت الاجتماعات كثيرة العدد، وكانت الصورة كما هو الحال دائماً في اجتماعات حزب العمل الاشتراكي القومي الألماني، حيث كانت دائمة الزحام لدرجة اضطرار الشرطة إلى إحكام غلق الأبواب قبل بدء الاجتماعات بوقت طويل.

❖ الحاجة إلى شارة أو علم حزبي..

وقد أدى إيجاد حراس للدفاع عن اجتماعاتنا وتنظيمها إلى كشف مشكلة صعبة. فلم يكن لدى الحركة أي شارة حزبية أو حتى علم للحزب. ولم يكن عدم وجود تلك الشارات مجرد عائق في ذلك الوقت، بل كان يهدد مستقبل الحركة. فعدم تميز المظهر الخارجي لأعضاء الحركة لا يمددهم بما يمكنهم من التجمع ليكونوا يداً واحدة، وكان من غير المعقول ألا نفكر في شارة تكون رمزاً للحركة وتواجه في نفس الوقت شارة الماركسيين الدولية.

وقد اتضحت لي الأهمية النفسية لهذه الشارة أكثر من مرة وأنا شاب صغير، وكان ذلك مهماً أيضاً من الناحية العاطفية. وفي برلين بعد الحرب، شاهدت المظاهرات الماركسية الضخمة أمام القصر الملكي وفي "لوسجارتن"، ورأيت بحراً من الأعلام الحمراء والورود الحمراء التي كانت مظهراً خارجياً كافياً لإظهار مدى ضخامة العدد الذي يقدر بـ 120000 شخص وهو مظهر يوحي بالقوة. وعندئذ أدركت كيف ينجذب الشخص العادي المار في الشارع إلى تلك المظاهرات التي تشبه العروض المسرحية الضخمة.

لكن حزب البرجوازيين لم يكن يملك شارة ولا علماً، ولا أي معتقد واضح. فقد كان مكوناً من الوطنيين الذين يتمشون مع لون الدولة أو اللون الذي يمثل المعتقد الذي تتبعه الدولة في ذلك الوقت. فقد كانوا يرون أن علم الدولة يعبر عن عقيدتهم. لكن الواقع كان مختلفاً عن ذلك.

فقد كانت الدولة قائمة بلا أدنى مساعدة من البرجوازيين، وكان العلم الذي ترفعه من نتاج الحرب، وهو لا يمثل أي معنى لأي مهمة أيديولوجية.

ولكن كان هناك علم للبرجوازيين في المملكة الألمانية النمساوية. فقد اختار البرجوازيون القوميون ألواناً عام 1848م (الأسود والأحمر والذهبي) كعلم لحزبهم، وكان لهذا العلم أهمية حيث تميزت شخصيته على المستوى القومي إلا أنه لم يكن معبراً عن أيديولوجية محددة. وكان الديمقراطيون الاشتراكيون والمسيحيون الاشتراكيون (أو الكتابيون) هم أكثر الناس عداوة لهذا العلم في ذلك الوقت ولا يجب أن ننسى ذلك حتى يومنا هذا. وقد حط المسيحيون الاشتراكيون بالذات من قدر تلك الألوان فعلقوا الألوان السوداء والبيضاء والحمراء في الشرفات. وقد كانت الألوان الحمراء والبيضاء والذهبية للأحزاب الألمانية في النمسا القديمة تشير إلى عام 1848م : وهي فترة عاش فيها ألمان حقيقيون، وذلك بالرغم من تحرك اليهود من وراء الستار وتحكمهم في توجيه البلاد. وقد أدت الخيانة والاستعباد المشين إلى استخدام الحزب الماركسي المركزي لتلك الألوان التي يعتبرونها اليوم ملكية خاصة لهم ويستخدمونها كإشارات لحماية العلم الذي دنسوه من قبل.

لذلك فحتى عام 1920م لم يكن هناك أي علم يرفع أمام العلم الماركسي ويقاومه بعناد. وذلك لأن حتى العناصر الجيدة من البرجوازية الألمانية لم تقبل أن تكون الألوان الأسود والحمرة والذهبي ممثلة لها بعد عام 1918م، ولم يستطيعوا إعداد أي برنامج للمستقبل ولم يفكروا في البديل، فقد كانوا يفكرون في إعادة بناء الدولة.

وبهذه الطريقة أصبحت الألوان: الأسود والأبيض والأحمر وهي ألوان علم الدولة الألمانية القديمة مدينة لما يسمى بالأحزاب البرجوازية القومية، فقد أحبتها مرة أخرى.

وكان من الواضح أن رمز النظام الذي أطاح به الماركسيون في ظروف مشينة لا يصلح الآن لكي يكون علماً ترفعه الماركسية. كما لن نجد أي ألماني يحترم تلك الألوان القديمة عندما توضع جنباً إلى جنب، فهي ألوان حارب من أجلها وضحي بالعديد من الأنفس، لكنه علم ضئيل القيمة في الكفاح في المستقبل.

وفي حركتنا كنت دائماً أرى أنه من حسن حظ الأمة الألمانية أنها فقدت علمها

القديم⁽¹⁾. وكان رأيي هذا يتعارض بشدة مع السياسيين البرجوازيين. فقد يكون من غير العملي بالنسبة لنا أن ننظر إلى ما تفعله الدولة الألمانية تحت هذا العلم. لكننا نشكر القدر لأننا تخلصنا من علم الحرب هذا فقد كان سيتحول إلى مصدر خزي دائم. وكان من الواجب ألا نسمح للدولة الألمانية اليوم التي باعت نفسها وباعت شعبها أن تعمل تحت نفس العلم المحترم بألوانه الأسود والأبيض والأحمر.

وطالما أن ثورة نوفمبر لا تزال قائمة فلا بد لها أن تظهر بمظهر تجاري خاص بها وألا تتخفى وراء الماضي المجيد. ولابد للسياسيين من الطبقة الوسطى أن يوقظوا ضمائرهم ويدركوا أن من يريد علماً لهذه الأمة بألوان الأسود والأبيض والأحمر يسرق ماضيها. فالعلم القديم كان مناسباً فقط للدولة الألمانية القديمة، ونحمد الله لأن الجمهورية اختارت الألوان التي تناسبها.

وهذا هو السبب في أننا نحن الاشتراكيين القوميين قد أدركنا أن رفع الألوان القديمة لن يكون رمزاً لأهدافنا الخاصة. فنحن لا نرغب في إعادة الدولة الألمانية السابقة إلى الحياة، فقد دمرتها أخطاؤها، ولكننا نريد إقامة دولة جديدة.

والحركة التي تحارب الماركسية اليوم من خلال هذه القواعد لابد أن يكون لها علم يرمز إلى الدولة الجديدة.

❖ كيف نختار العلم الجديد؟

وقد شغلنا جداً في تلك الأيام بشكل العلم الجديد وتكوينه. وقد انهالت الاقتراحات من جميع أنحاء البلاد، لكنها كانت مستحيلة التنفيذ لسبب ما أو لآخر. فالعلم الجديد لن يكون رمزاً للتعبير عن كفاحنا فقط، بل لابد أن يكون صالحاً للنشر بأحجام كبيرة. وقد توصل كل من شغل نفسه بذوق عامة الناس إلى أهمية تلك الأمور البسيطة. فقد يكون الرمز اللافت هو السبب الأول في صحوه مئات الآلاف من الحالات وانتباههم للحركة.

ولهذه الأسباب رفضنا كل الاقتراحات القادمة إلينا من مختلف الأنحاء وذلك لأنها كانت تستخدم اللون الأبيض أو تشبه العلم القديم وألوانه أو أعلام الأحزاب المتداعية التي تهدف فقط إلى عودة أوضاع الماضي. كما أن اللون الأبيض لا يلتفت انتباه العامة. فهو

(1) علم الإمبراطورية الألمانية القديمة وقد بدأ العمل به في عام 1871م وهو مكون من الألوان : الأسود والأبيض والأحمر. وقد تخلى عنه الألمان في عام 1918م، وفي عام 1919م اختير علم مكون من الألوان : الأسود والأحمر والذهبي، كعلم للجمهورية الألمانية التي أعلنت في "ويمر" في نفس العام، أما العلم الذي صممه هتلر فهو أحمر ذو قرص أبيض في المنتصف وبداخله صليب أسود معقوف.

لون يناسب الجمعيات النسائية فقط ولا يناسب حركة تسعى إلى الإصلاح في عصر حرج.

وقد اقترح اللون الأسود أيضاً، وقد كان مناسباً لهذه الأيام بالطبع، لكنه ليس له أي دلالة ذات علاقة بما تريده حركتنا. كما أن اللون الأسود لا يلفت العامة أيضاً.

وقد استثنينا الأبيض والأزرق أيضاً بالرغم مما فيهما من جمال رائع، وذلك لأنها ألوان تخص ولاية ألمانية فيدرالية، وهي ولاية لا تستمتع للأسف بسمعة جيدة بسبب ضيق أفق السياسيين فيها واتجاههم إلى الفردية. كما أنه من الصعب على هذين اللونين أن يلفتا الأنظار إلى حركتنا. ونفس الشيء ينطبق على الأبيض مع الأسود.

لكننا بالطبع لم نتناول موضوع استخدام الأسود والاحمر والذهبي مطلقاً.

وهذا ينطبق أيضاً على استخدام الأبيض والأسود والاحمر معاً، وذلك للأسباب التي سبق شرحها. وكان ذلك على الأقل بالطريقة التي سبق استخدامها بها. وذلك لأن تأثير هذه الألوان الثلاثة معاً كان قوياً جداً عن بقية الألوان، وكانت بلا شك ألواناً لافتة ومتناسقة بشكل كبير.

وقد كنت أنا شخصياً أود الاحتفاظ بالألوان القديمة، وذلك ليس فقط لأنني كجندي اعتبرها أعز ما أملك، ولكن لتأثيرها الجمالي أيضاً، فهي تروق لتذوقي الشخصي أكثر من أي شيء آخر. لذلك كان على أن أتغاضى عن كل المقترحات التي لا تخصي والتصميمات التي عُرضت على الحركة الجديدة. وكان من بينها مقترحات تستخدم الألوان القديمة والصليب المعقوف. لكني - كقائد - كنت لا أود أن أعرض التصميم الذي أعددتَه بنفسِي، فقد يأتي غيري بتصميم جيد مثله أو ربما أفضل منه. وفي الحقيقة تقدم طبيب أسنان من "سترانبرج" بتصميم جيد مشابه للتصميم الذي أعددتَه أنا. وكان به خطأ واحد وهو أن الصليب المعقوف ذا الأركان المقوسة كان على خلفية سوداء.

❖ العلم الأحمر ذو الصليب المعقوف ودلالاته..

وبعد عدد كبير من التجارب استقر رأيي على شكل نهائي، وهو علم أحمر اللون ذو دائرة بيضاء تحمل في منتصفها صليباً معقوفاً أسود اللون. وبعد عدة تجارب أخرى ضبطت النسب بين أبعاد العلم والدائرة البيضاء في المنتصف وكذلك الصليب. وهكذا ظل علمنا إلى الآن.

وفي نفس الوقت طلبنا صنع واقيات للذراع ترتديها فرق الدفاع عن الاجتماعات وكانت تلك الواقيات تحمل نفس الرمز فهي حمراء وبها قرص أبيض في الوسط وصليب

معقوف أسود. وقد صنع لنا السيد/ فوس وهو صائغ من ميونخ أول تصميم عملي دائم لهذه الواقيات.

وقد ظهر العلم الجديد علناً في صيف عام 1920م. وكان مناسباً جداً لحركتنا، وذلك لأنه جديد ومبتكر. فلم يشاهده أحد من قبل. وكان تأثيره في ذلك الوقت مثل الشعلة المنقذة. وقد استمتعنا بهذا العلم كالأطفال عندما قدمته لنا إحدى سيدات الحزب في صورته النهائية بعد أن عهدنا إليها بإعداده. وبعد عدة أشهر قلائل كان لدينا ستة أعلام في ميونخ. وقد كانت القوة المتزايدة لحراسنا عاملاً رئيسياً في انتشار هذا الرمز شعبياً. وقد أثبت أنه رمز فعلاً.

وذلك ليس فقط لأنه يحتوي على الألوان القيمة التي تعكس عظمة ماضينا وقدرنا والتي كانت سبباً في كثير من الإجلال للأمة الألمانية، ولكن لأن هذا الرمز أيضاً كان تعبيراً فصيحاً عن إرادة الحركة. وقد اعتبرنا نحن القوميين الاشتراكيين أن علمنا يجسد برنامجنا الحزبي. فالأحمر يعبر عن التفكير الاشتراكي للحركة، والأبيض يعبر عن فكر الأمة، والصليب المعقوف يرمز إلى المهمة المنوطة بنا، وهي الكفاح من أجل إعلاء شأن الجنس الآري وفي نفس الوقت يرمز إلى انتصار مثاليات العمل الخلاق، وهو في حد ذاته ضد السامية وسيظل كذلك.

وبعد ذلك بعامين وبعد أن أدى حراسنا الكثير من المهام كان من الضروري أن نمنحهم رمزاً يعبر عن المذهب الجديد على أن يكون رمزاً للانتصار. وقد وضعت تصميمه أيضاً وعهدت إلى صائغ من أعضاء الحزب بتنفيذه وهو السيد/ جار. وقد استخدم هذا الشعار منذ ذلك الوقت كرمز لكفاح الاشتراكيين القوميين.

وقد اضطرنا الإقبال الشديد على اجتماعاتنا إلى عقد اجتماعين في الأسبوع في عام 1920م. وكانت الحشود تتجمع حول ملصقاتنا، وكانت القاعات الكبرى في المدينة تغص بعشرات الآلاف ممن ضللتهم الماركسية من قبل ووجدوا فينا ما كانوا يبحثون عنه وشاركوا فيما نقوم به لتحرير الدولة الألمانية. وعرفنا عامة الناس في ميونخ. وبدأ الناس في الحديث عنا. كما أن التعبير "القومية الاشتراكية" قد شاع بين الناس وأصبح يعني برنامج الحزب المحدد. وكانت دائرة أعضاء حزبنا ومؤيدينا تتسع، وفي شتاء عام 1920-1921م كنا قد أصبحنا حزباً قوياً في ميونخ.

وفي ذلك الوقت لم يكن هناك أي حزب في ميونخ -فيما عدا الأحزاب الماركسية- قادراً على عقد لقاءات جماهيرية مثلنا. فقد ازدحمت قاعة "كندل" التي تتسع لخمسة آلاف شخص وغصت بمن فيها أكثر من مرة، لذلك فلم يكن أمامنا إلا قاعة واحدة وهي قاعة سيرك "كرون" التي لم نغامر باستخدامها من قبل.

وفي نهاية يناير من عام 1921م حدث ما تسبب في اضطراب كبير في ألمانيا. فقد

تمت المصادقة في لندن على اتفاق باريس وبمقتضاه فإن على ألمانيا أن تدفع مليارات الماركات الذهبية.

✦ اجتماع قاعة السيرك..

لذلك فقد بدأت لجنة قديمة مقامة في "ميونخ" مكونة من ممثلي ما يسمى بـ"الجماعات الشعبية" ودعت الجميع إلى اجتماع عام للاحتجاج. وقد شعرت بالغضب وعدم الارتياح لأن الوقت يمر دون اتخاذ أي إجراء. فقد اقترح اجتماع في "تج بلير" في البداية لكنه ألغي بعد تفكير، فقد خاف أحدهم من مهاجمة العناصر الحمراء للاجتماع. وكان هناك اقتراح آخر بالتظاهر أمام قاعة "فلادرن" لكن ذلك أيضاً أفضى إلى لا شيء. وأخيراً تم اقتراح اجتماع في قاعة "كندل" في ميونخ. لكن الأيام مرت يوماً بعد يوم دون حدوث شيء والأحزاب الكبرى تتجاهل هذا الحدث العسير تماماً، ولم تستطع اللجنة تحديد موعد محدد لعقد الاجتماع.

وفي يوم الثلاثاء الأول من فبراير تقدمت بطلب عاجل لاتخاذ قرار نهائي. فسامهلوني إلى يوم الأربعاء. وفي ذلك اليوم طلبت أن يخبروني بموعد واضح للاجتماع ومكانه إن كان سيعقد. ومرة أخرى كان الرد غير مؤكد ومراوفاً. فقد قالوا: إن هناك نية لعقد التظاهرة في نفس اليوم من الأسبوع التالي.

عندئذ فقدت صبري وقررت إدارة تظاهرة للاحتجاج بمفردي، وخلال عشر دقائق من يوم الأربعاء كنت قد أملت النص الذي سيكتب على الملصق وفي نفس الوقت استأجرت قاعة سيرك "كرون" في اليوم التالي وهو 3 فبراير 1921م.

وقد كان ذلك مجازفة كبرى في تلك الأيام. ليس فقط لمجرد عدم التأكد من إمكانية امتلاء القاعة الضخمة ولكن أيضاً لأن الاجتماع قد يفشل.

وقد كان حراسنا غير كافين من حيث العدد لتأمين قاعة كبرى كهذه القاعة. كما أنني لم أكن أعرف ماذا أفعل في حالة إفساد الاجتماع، فمبنى السيرك الكبير يختلف عن مجرد اللقاء في قاعة عادية. لكن الأحداث أظهرت أن مخاوفي لم تكن في محلها، فقد حدث العكس تماماً. ففي هذا المبنى الكبير كانت مواجهة المخربين أسهل وأسرع مما يحدث في قاعة ضيقة.

وكان هناك شيء مؤكد: فشل هذا الاجتماع يدفعنا إلى الوراء لفترة طويلة قادمة. فإذا ما تم فض اجتماع واحد فسوف نتراجع هيبتنا ويتشجع خصومنا على تكرار ما حققوا من نجاح. وهذا يؤدي إلى القضاء على عملنا وعلى اجتماعاتنا المقبلة، ثم يتبع ذلك شهور من الكفاح المرير حتى نتغلب على تلك الصعاب من جديد.

لذلك فلم يكن أمامنا سوى يوم واحد لنثبت ذاتنا وهو يوم الخميس، ولسوء الحظ أمطرت الدنيا في الصباح فأصبح هناك سبب للخوف من عدم مجيء كثير من الناس ممن سيفضلون البقاء في البيت على الهرولة تحت المطر والثلج من أجل حضور الاجتماع وخاصة مع احتمالات حدوث عصف وإراقة دماء.

وفي صباح يوم الخميس نفسه انتابني هاجس احتمال عدم امتلاء القاعة بكامل سعتها أبداً وهذا سيسيء إليّ أمام اللجنة. فأملت نص مطوية طبعت ووزعت بعد الظهر، وكانت تحتوي على دعوة لحضور الاجتماع بالطبع.

كما استأجرت شاحنتين تم تزيينهما باللون الأحمر قدر الإمكان. ورفعت كل منهما علم حركتنا الجديد وركب في كل منهما خمسة عشر إلى عشرين من أعضاء الحزب. وقد صدرت التعليمات للأعضاء للطواف جيداً في شوارع المدينة وتوزيع المطويات ونقل خبر عقد الاجتماع الكبير هذا المساء إلى الجماهير. وكانت هذه هي المرة الأولى التي تطوف فيها الشاحنات في شوارع المدينة وهي تحمل أعلاماً غير الأعلام الماركسية. وقد نظر عامة الناس إلى تلك الشاحنات المزينة باللون الأحمر، ففتحوا أفواههم من الدهشة ورفعوا قبضاتهم تأييداً لما ظنوه الحزب الماركسي. أليس الحزب الماركسي هو الوحيد القادر على إقامة اجتماعات كبرى والتتويه عنها باستخدام الشاحنات التي تطوف أنحاء المدينة؟

وفي الساعة مساء لم يصل سوى قليل من الناس إلى قاعة السيرك، وقد حرصت على متابعة الأمر بالهاتف كل عشر دقائق، فشعرت بعدم الارتياح. فقد اعتدنا أن تكون أماكن اجتماعاتنا نصف ممتلئة في الساعة والربع وأحياناً تكون مكتظة. لكن سرعان ما تذكرت ما يقلل من الشعور بعدم الارتياح، فألف فرد في قاعة "هوفبروز" بأبعادها المحدودة يبدو رقماً كبيراً جداً، لكن ألف فرد داخل مبنى السيرك الضخم لن يشغلوا سوى حيز قليل ولن يكونوا ملحوظين بداخله. وبعد ذلك بقليل جاءتني تقارير مبشرة، وفي الثامنة إلا ربع أبلغوني أن ربع القاعة فقط لا يزال خالياً. وأن هناك طوابير طويلة عند أكشاك دفع ثمن التذاكر. فغادرت المكان متجهاً إلى الاجتماع.

وصلت إلى مبنى السيرك في الثامنة ودقيقتين. وكان هناك حشد من الناس لا يزال بالخارج، بعضهم بسبب حب الاستطلاع ومعرفة ماذا يحدث والبعض الآخر من معارضينا الذين فضلوا الانتظار بالخارج لمتابعة التطورات.

وعندما دخلت القاعة الكبرى شعرت بنفس القدر من السعادة التي شعرت بها قبل عام مضى عند عقد أول اجتماع لنا في القاعة الكبرى بميونخ. وبعد أن شغقت طريقي بين

الناس ووصلت إلى المنصة توقعت النجاح التام. فقد كانت القاعة أمامي مثل القوقعة الكبيرة، فهي تحفل بالآلاف وآلاف من الناس. وحتى الحلبة كانت ممتلئة بالناس. وقد بيعت 5600 تذكرة، كما سمح للعاطلين والطلاب والفقراء بالحضور بالإضافة إلى كتيبة حفظ النظام من رجالنا أي أن إجمالي عدد الحضور كان يقترب من 6500 فرد.

❖ | المستقبل أو السقوط!

وكان الموضوع الذي تحدثت عنه هو "المستقبل أو السقوط" وقد كنت سعيداً جداً لأنني رأيت المستقبل في ذلك التجمع المحتشد أمامي.

بدأت الحديث وتحدثت لمدة ساعتين ونصف، وبعد مرور نصف ساعة فقط شعرت بأن هذا الاجتماع سيحقق نجاحاً ساحقاً. فقد حدث التواصل بيني وبين كل تلك الألوف بسرعة. وبعد مرور الساعة الأولى كان حديثي يقطعه عواصف من التصفيق، لكن تراجع ذلك الاستحسان خلال الساعة الثانية إلى نوع من الإنصات التام الذي تعودت عليه في نفس القاعة فيما بعد، وهو صمت يذكركه جميع الحضور إلى الأبد. ولا شيء يقطع هذا الصمت سوى غناء النشيد الوطني بعد أن أنطق بالكلمة الأخيرة من الخطاب.

وقد تابعت مشهد خلو القاعة الكبيرة من الناس ببطء، وبعد ذلك غادرت المنصة وعدت إلى البيت وأنا سعيد.

التقطت الصور التذكارية لأول اجتماع في قاعة سيرك "كرون" في ميونخ. وقد كانت الصور أكثر فصاحة من الكلمات، فقد نقلت نجاح هذا الاجتماع. وقد نسخت الصحف البرجوازية الصور وعلقت على الاجتماع بأنه كان اجتماعاً وطنياً. وكالعادة لم يذكروا أي شيء عمن نظم هذا الاجتماع.

وبهذا أصبحنا أكثر بكثير من مجرد حزب عادي. فلم يعد من الممكن تجاهلنا. ولكيؤكد أن هذا النجاح ليس مجرد نجاح بالصدفة لمرة واحدة فقط رتبنا على الفور لعقد اجتماع آخر في قاعة السيرك في الأسبوع التالي، وحققنا نفس النجاح. فقد امتلأت القاعة الضخمة مرة أخرى بالجمهور لدرجة جعلتني أقرر إقامة اجتماع ثالث في الأسبوع التالي وحقق نفس النجاح.

بعد توالي النجاحات في عام 1920م زاد نشاطنا في ميونخ. فلم نكتف بعقد اجتماعات كل أسبوع فقط، بل كنت أعقد اجتماعين كل أسبوع في بعض الأحيان، وفي أثناء الصيف والخريف كان عدد الاجتماعات الأسبوعية يرتفع إلى ثلاثة. فقد كنا نجتمع بانتظام في قاعة السيرك وكنا نشعر بالرضا عندما يحقق كل اجتماع نفس القدر من النجاح. وقد انعكست نتيجة ذلك في تزايد أعداد المؤيدين للحزب وأعضائه.

وكان من الطبيعي أن ينزعج خصومنا من هذا النجاح الذي لم يسمح لهم بالنوم الهانئ. وفي البداية جربوا الإرهاب أو الصمت. لكنهم لاحظوا أن كلا الأمرين لم يعق تقدم حركتنا، لذلك رأوا أن عليهم أن يلجئوا إلى عمل إرهابي كبير يضع حداً لنشاطاتنا ويوقف الاجتماعات.

وقد احتجوا بهجوم شديد الغرابة على أحد النواب ويدعى "إيرهارد أور" واعتبروه ذريعة يبدؤون بها أعمالهم الإرهابية. وأعلن أن هناك من أطلق عدة طلقات على هذا الرجل ليلاً. وهذا يعني أنه لم يقتل ولكن كانت هناك محاولة لقتله. وقيل إن شجاعة قادة الحزب الاشتراكي الديمقراطي ويقظتهم لم تتمكن من إحباط المحاولة الدنيئة فقط بل أدت أيضاً إلى فرار مرتكبي الحادث مذعورين. لقد كانوا بلا أثر واختفوا تماماً وبسرعة لدرجة أن الشرطة لم تستدل عليهم أبداً. لقد استخدم أعضاء الحزب الاشتراكي الديمقراطي هذه القصة المختلفة لتهييج المشاعر ضد الحركة، وقد تخلوا عن خططهم القديمة وتحذثوا عن الخطط الجديدة التي ستتع في المرة القادمة. وكانوا يهدفون إلى وقف نمو حركتنا والقضاء عليها تماماً وذلك بالاستعانة بطبقة العمال.

❖ | مؤامرة الخصوم لإفساد الاجتماعات..

وبعد عدة أيام وقع الهجوم الحقيقي. فقد قرروا فجأة اقتحام أحد اجتماعاتنا وكان من المقرر له أن يقام في القاعة الكبرى في ميونخ، وكنت سأحدث فيه.

ففي الرابع من نوفمبر عام 1921م، وفيما بين الساعة السادسة والسابعة مساء تلقيت أخباراً مؤكدة عن اختراق الاجتماع وأن خصومنا قرروا إرسال أعداد كبيرة إلى الاجتماع من العمال الذين يعملون في مصانع يملكها الماركسيون.

ولسوء الحظ لم تصلنا تلك الأخبار في وقت مبكر. وفي ذلك اليوم كنا قد تركنا مقرنا في ميونخ وتحركنا إلى مكان آخر، أو ربما كنا قد تركنا المقر القديم ولم نحدد مكان المقر الجديد. أو كانت الاتصالات الهاتفية مقطوعة عن المقر القديم ولم تصل بعد إلى المقر الجديد. لذلك فقد جرت عدة محاولات في ذلك اليوم لإخبارنا هاتفياً عن هذا الاختراق المنتظر في المساء لكنها لم تصلنا.

وعلى ذلك فلم تكن قواتنا الدفاعية مستعدة بالعدد الكافي في ذلك الاجتماع. فقد توافرت فرقة واحدة فقط، ولم تكن مكونة من مائة رجل كالمعتاد، ولكن من ستة وأربعين فقط. ولم تكن الاتصالات الهاتفية كافية بطريقة تمكننا من تنبيه رجالنا والاستعداد خلال ساعة أو أكثر، وذلك حتى يتوافر عدد كاف من المدافعين ليتمكنوا من التعامل مع ذلك الموقف. كما يجب أن نضيف أيضاً أننا كنا نتلقى تحذيرات في عدة مناسبات مماثلة سابقة لكن لم يحدث أي شيء. وقد ثبت أن المثل القائل "من النادر أن تقوم ثورة" ينطبق علينا.

وقد يكون ذلك سبباً أيضاً في عدم اتخاذ احتياطات كافية في ذلك اليوم للتعامل مع تلك الأعمال الوحشية التي ينوي خصومنا القيام بها لاختراق الاجتماع.

وفي النهاية اقتنعنا أن القاعة الكبرى في "ميونخ" لا تناسب خطط اختراق خصومنا للاجتماع. وكنا نخشى ذلك أكثر في القاعات الأكبر، وخاصة قاعة سيرك "كرون". وفي ذلك المساء تعلمنا درساً دفاعياً مفيداً. فقد درسنا الموقف وتناولنا خطة التوضيحات وتوصلنا إلى نتائج - ممتعة وغير معقولة - وقد كانت تلك النتائج مفيدة للخطط التي وضعناها لقواتنا "العاصفة".

عندما وصلت إلى مدخل القاعة في الثامنة إلا الربع مساءً وتأكدت من نوايا "الحمر". فقد كانت القاعة ممتلئة ولذلك فقد أغلقت الشرطة المداخل. فقد وصل خصومنا مبكراً وكانوا داخل القاعة، وكان عدد كبير من مؤيدينا خارجها. وقد انتظرتني حاشية قليلة العدد بالخارج. أمرت بإغلاق الأبواب المؤدية إلى القاعة الرئيسية ثم طلبت من 45 أو 46 حارساً أن يتقدموا. وشرحت لهم أنهم ربما يضطرون إلى إظهار قوة إرادتهم وولائهم الشديد للحركة في هذه الليلة، وأنا جميعاً لن نغادر هذه القاعة إلا موتى. وقلت لهم: إنني سأظل في القاعة ولا أعتقد أنهم سيتركوني. وإنني إن لاحظت غدر أحدهم فسأمزق شارته وواقيته بنفسه. وطلبت منهم أن يتقدموا إلى الأمام عند حدوث أي محاولة لتخريب الاجتماع وأن عليهم دائماً أن يتذكروا أن خير وسيلة للدفاع هي الهجوم.

حياني الحرس بالصيحة المعتادة ثلاث مرات وقد كان صوتهم أكثر حدة وعنفاً من المعتاد.

❖ معركة أكواب البيرة الفارغة!

تقدمت بعد ذلك إلى القاعة وأخذت فكرة عن الموقف بعيني. فقد احتشد خصومنا في أماكن قريبة وجلسوا متقاربين وحاولوا مطاردتي بنظراتهم. وكانت هناك أعداد لا حصر لها من الوجوه التي تتضح بالكراهية والغضب وهي تركز أنظارها عليّ. بينما صاح البعض الآخر بترديد تعبيرات ساخرة مني. قالوا: "فلنته من هذا الأمر .. لدينا ما يشغلنا ... سنقضي عليهم اليوم بلا رجعة." كما قالوا تعبيرات أخرى مماثلة. وكانوا يعلمون أنهم متفوقون من ناحية العدد فتصرفوا على هذا الأساس.

وبالرغم من ذلك تمكنا من افتتاح الاجتماع، وبدأت الحديث. وكنت عادة أقف على الجانب في قاعة "هوفبروز" بالقرب من المدخل وأمامي طاولة. وبذلك أكون محاطاً بالجمهور من كل جانب. وربما يكون ذلك سبباً في إيجاد شعور بالتوافق مع الجمهور وهو شعور لم أجده في أي مكان آخر.

وقد كان خصومنا أمامي وخاصة من الناحية اليسرى من الجالسين على المقاعد أو الواقفين، وكان أغلبهم من الشباب المتحمس أو الرجال العاملين في مصنع "مافي" أو "كستورمان" أو غيرها من المصانع. أما من الجهة اليمني فقد احتشدوا بشدة بالقرب من طاولتي. وبدأوا يطلبون أكواباً كبيرة من البيرة تحتوي على لتر كامل، كوباً تلو الآخر، ثم يلقون الأكواب الفارغة تحت الطاولات. وبذلك يكونوا قد أعدوا العدة. لم أظن أن هذا الاجتماع يمكن أن ينتهي سلمياً.

وبالرغم من كل المقاطعات تمكنت من الحديث لمدة ساعة ونصف، وشعرت كما لو كنت سيد الموقف. فقد بدا على قادة المجموعات المعادية أنهم مقتنعون، وكانوا يغادرون القاعة ويعودون للتحدث بعصبية واضحة مع رجالهم.

وقد أدى خطأ نفسي واحد ارتكبته في الرد على المقاطعة - وقد أدركت ذلك الخطأ ولكن بعد أن نطقت بالكلمة فعلاً - إلى بداية التذمر.

لقد تفجرت الثورات، وقفز أحد الرجال فوق مقعده وقال: "الحرية". وهنا بدأ أبطال "الحرية" عملهم.

وفي لحظات قليلة امتلأ المكان بصيحات الجماهير. وطارت أعداد كبيرة من أكواب البيرة فوق الرؤوس. كما سمعنا أصوات تكسير أرجل الكراسي والأكواب والأنين والصيحات والصرخات.

كنت لا أصدق ما أرى. وقفت في مكاني ورأيت أبنائي يؤدون واجبهم، فقد قام كل واحد منهم بما عليه.

وهكذا رأيت ما يمكن أن يحدث في اجتماعات البرجوازيين.

وقد تغير الحال عندما بدأت قوات "العاصفة" عملها، وبدأوا الهجوم. كانوا مثل الذئاب، يهجمون على الخصوم في مجموعات مكونة من ثمانية إلى عشر رجال مرات ومرات ويلقون بهم خارج القاعة. وبعد خمس دقائق كانوا جميعاً ينزفون دماً. وعندئذ أدركت من هم رجالي وقبل كل شيء من هو موريس هوس وهو سكرتيري الخاص الآن، فكثير من هؤلاء الرجال استمروا في القتال. ورغم الإصابات الخطيرة فقد استمروا في الهجوم على خصومنا مرات ومرات طالما أنهم يستطيعون الوقوف على أقدامهم. استمر هذا الجحيم لمدة عشرين دقيقة. وبعد ذلك تم إخراج الخصوم الذين قدر عددهم بسبعمئة أو ثمانمائة فرد من القاعة أو دفعهم إلى خارجها على أيدي رجالي الذين لم يصلوا إلى خمسين فرداً. ولم يعد هناك سوى تجمع كبير في الركن الأيسر وقد أظهر هذا التجمع مقاومة قوية. ثم

أطلقت طلقتان من مسدس عند المدخل باتجاه المنصة في داخل القاعة، تلى ذلك أصوات إطلاق الرصاص من كل جانب. وسعدت بالمشهد الذي أعادني إلى ذكريات المعركة.

لم يكن من الممكن في تلك اللحظة أن أتعرف على من أطلق الرصاص. لكنني رأيت أن رجالي عاودوا الهجوم بقوة إلى أن تمكنوا من التغلب على آخر مثيري الشغب وقذفوهم خارج القاعة.

مضت خمس وعشرون دقيقة فقط منذ بدء الأحداث. بدت القاعة كما لو كانت قبلة قد انفجرت فيها. وتلقى العديد من رفاقي بعض الإسعافات الأولية ونقل بعضهم إلى المستشفى. لكننا بقينا أسياد الموقف. وقد قال "هيرمان إيسن" رئيس الجلسة: "الاجتماع سيستمر، والمتحدث سيواصل حديثه." واستكملت الحديث.

وعندما أعلننا نحن نهاية الاجتماع، دخل إلى القاعة ضابط شرطة وأشار بيده وقال: إن الاجتماع قد انتهى.

ضحكت على تأخر سيادة القانون رغماً عني، إنه استعلاء متعمد من قوة الشرطة، فكلما كانوا صغاراً، ظهرُوا كباراً.

تعلمنا درساً حقيقياً في ذلك المساء. كما أن خصومنا لن ينسوا الدرس الذي تعلموه على أياديها.

وحتى خريف عام 1923م لم تتحدث صحيفة "مونشير بوست" عن "قبضة الطبقة العاملة القوية".





لقد ذكرت في الفصل السابق وجود اتحاد تعاوني بين الجمعيات الوطنية الألمانية وسوف أتناول هنا تلك المسألة باختصار:

عندما نتحدث عن الاتحاد التعاوني فإننا نعني - عموماً - مجموعة من الجمعيات التي أسست علاقات متبادلة للتعاون فيما بينها من أجل تسهيل أعمالها. حيث يسعد المواطن العادي ويشعر بالثقة عندما يسمع بأن تلك الجمعيات قد أسست اتحاداً تعاونياً فيما بينها ليكون لديها - بعد فترة طويلة - مكانة يمكنهم الاعتماد عليها بعد أن يتحدوا فيما بينهم ويزيلوا أية اختلافات ويمحوها. وبالتالي ظهرت فئاعة عامة أن مثل ذلك الاتحاد ما هو إلا كسب كبير وقوة هائلة. وأن المجموعات الصغيرة التي كانت ضعيفة لكونها بمفردها أصبحت الآن قوية، لكن ذلك الرأي وتلك الفئاعة كانا خاطئين.

فمن المفيد والمهم - بحسب رأيي - أن نحاول الحصول على فكرة واضحة في كيفية ظهور تلك الجمعيات والاتحادات ... الخ. وكيف تأسست عندما أعلنوا جميعاً أن لهم نفس الأهداف. فمن المنطقي أن تتاضل جمعية واحدة من أجل تحقيق أهدافها، ولكن ليس من المنطقي أن تتاضل عدة جمعيات معاً من أجل تحقيق نفس الهدف. في البداية كانت هناك بلا شك جمعية واحدة وكان لها هدف واحد أمامها. لذلك أعلن أحدهم عن هذا الهدف في مكان ما ونادى بحل لمشكلة معينة وثبت هدفه وكون الحركة. وهكذا يتم تأسيس الجمعية أو الحزب ويكون تركيز برنامجها إما على محور موجود بالفعل أو تأسيس لنظام محدد في المستقبل.

وبمجرد ظهور تلك الحركة إلى الوجود، فإنها تطالب بأولوية الدفاع عن حقوق محددة. ثم تكون الدورة الطبيعية للأشياء فينتهي كل من يؤمن بالدفاع عما قالته تلك الحركة إليها، مما يزيد من قوتها، وبذلك تتمكن من خدمة أهدافها. والعبارة بالذات يدركون أن انتماءهم إلى الحركة يؤكد على الشروط الضرورية لتحقيق النجاح. لذلك فمن الضروري والمنطقي - كما أنه من ضروريات الإخلاص في العمل كما سأوضح فيما بعد - أن تمثل حركة واحدة فقط هذا الغرض المطلوب تحقيقه.

لكن ذلك لا يحدث لسببين اثنين: والسبب الأول مأساوي، أما الثاني فهو مسألة محزنة وتعود إلى ضعف الطبيعة البشرية. ولكن إذا ما تعمقنا في الأمر، فإنني أقول: إن السببين ما هما إلا مجرد حقائق تفسح المجال أمامنا وتجعل حل المشكلة موضوع الحوار ممكناً.

والسبب المأساوي الذي يمنع وجود جمعية واحدة فقط تدافع عن هدف محدد وتسعى لتحقيق مهمة واحدة هو كالتالي: وبصرامة تامة، فإن كل حدث كبير يقع في هذا العالم ما هو إلا تعبير عن رغبة عاشت لفترة طويلة في قلوب الناس، وكانوا يشناقون إلى تحقيقها في صمت. نعم ... فقد يصادف أن يشاق الناس لعدة قرون إلى حل لمشكلة محددة، وذلك لأنهم عانوا من أوضاع لا تحتمل دون أن يلوح في الأفق أي أمل يريحهم. والأمم غير القادرة على التغلب على ما يمر بها من محن والخروج منها تعتبر أمماً عاجزة. لكن، ومن جهة أخرى، لا يوجد دليل على القوى التي يملكها الشعب وحقه في الوجود أفضل من أن يخرج من هذا الشعب رجل يستطيع تحرير شعبه من ظلم كبير وقع عليه أو يستطيع محو آثار ظالم حدث من قبل أو تهدئة الروح الوطنية التي تعذبت لشعورها بعدم الأمان، وبهذا يتحقق كل ما تطلع إليه الشعب لفترة طويلة.

أما ما يميز القضايا الكبرى، فهو أن حلها يتطلب جهد آلاف الأفراد وأن الكثيرين يجدون في أنفسهم القدرة على القيام بتلك المهمة: نعم ... إن القدر نفسه يساعدهم على ذلك والنصر يكون دائماً من نصيب الأقوى والأصلح وهو أيضاً من يتولى حل المشكلات.

لذلك فقد يحدث أن يكون كثير من الناس غير راضين عن الطريقة التي يعبرون بها عن حياتهم الدينية ويتطلعون للثورة عليها، وقد يحدث أن عدداً محدوداً فقط من الرجال هم من يدرك - بما لهم من فهم ومعرفة - أن عليهم أن يواجهوا الصعوبات الدينية في عصرهم ويرون أنهم مبشرون بتعاليم جديدة أو أنهم على الأقل يعادون التعاليم القائمة بالفعل.

وهنا أيضاً تتخذ الأمور مجرياتها الطبيعية، فالقوي سيحقق مهمته العظيمة. لكن من حوله لا يدركون بسهولة أن صاحب الدعوة رجل واحد. وعلى العكس، فهم جميعاً يعتقدون أنهم أصحاب حقوق متعادلة في هذا الإنجاز الذي خلصهم من مشكلاتهم الدينية وأنهم جميعاً مشاركون في هذه المهمة. كما أن معاصريهم لن يستطيعوا تحديد من منهم هو صاحب الفضل الأكبر ولذلك فهو أحق بتأييد الجميع.

وبعد عدة قرون أو في نفس الفترة يمكن لرجال مختلفين أن ينشئوا حركات متعددة تهدف إلى نفس الغاية. وتعلن النهاية على أيدي مؤسسي الحركات المتشابهة أو التي تبدو كذلك أمام الشعب. فغامة الناس يشعرون برغبات غريبة ويعبرون عن آرائهم العامة، وذلك دون أن يلاحظوا استحالة تحقيق تلك المثل والرغبات الكامنة.

وتكمن المأساة في أن العديد من الرجال يكافحون للوصول إلى نفس الهدف عبر طرق مختلفة، فكل واحد منهم يؤمن بمهمته ويظل مشغولاً بها وعلى استعداد للالتزام بطريقة دون اعتبار للآخرين.

وتلك الحركات والأحزاب والجماعات الدينية وغيرها تقوم مستقلة تماماً عن بعضها البعض وتنشأ من خلال احتياجات العالم في تلك الفترة من الزمن والكل ينظر إلى الأمام باتجاه نفس الهدف. وقد يبدو ذلك مأساوياً، من النظرة الأولى على الأقل، لأن الناس يعتقدون دائماً أن القوى المترامية في اتجاهات مختلفة يمكنها تحقيق أهدافها بسرعة أكثر وبطريقة أكثر ضماناً مما لو اتحدت في جهد واحد مشترك. ولكن هذا لن يحدث، حيث إن الطبيعة نفسها تتحدد طبقاً للقوانين نظراً لمنطقها العتيد الصلب، فهي تترك تلك المجموعات المختلفة لتنافس بعضها البعض وتتنازع من أجل الانتصار، وهكذا تختار الطبيعة أوضح وأقصر وأضمن الطرق التي يمكنها أن توجه من خلاله الحركة إلى هدفها النهائي.

وهكذا فبالرغم من أن المجموعات المختلفة تسير في طرق متعددة نحو هدف واحد، إلا أنهم وبمجرد أن يعلموا أن هناك جهوداً أخرى تجرى من حولهم فإنهم يضطرون إلى دراسة الأمر بعناية ليعرفوا ما إذا كانوا قد اختاروا الطريق الأفضل أم أن هناك طريقاً أقصر وكذلك كيفية توظيف جهودهم بأفضل طريقة من أجل الوصول إلى الهدف بأسرع ما يمكن.

❖ البحث عن حل للمشكلة الألمانية:

وبدراسة دروس التاريخ من أجل البحث عن حل للمشكلة الألمانية، كان الرأي السائد في وقت من الأوقات أن هناك طريقتين يمكن حل المشكلة من خلالهما، وأن هاتين الطريقتين يجب أن تتحدا منذ البداية. وأهم ممثلي وأبطال هاتين الطريقتين هما النمسا وبروسيا أي عائلي "هابسبرج" و"هوهن زولرن"⁽¹⁾. وعلى بقية المجموعات أن تنضم إلى طريقة إحدى هاتين الأسرتين وذلك بناء على الرأي السائد السابق ذكره. ولكن في ذلك الوقت كان الطريق السائد وهو طريق "هابسبرج" بالرغم من أن سياسة النمسا لم تؤد من قبل إلى قيام دولة ألمانية.

وأخيراً، ظهرت دولة ألمانية قوية ومتمحدة ونتاجت عما كان ملايين الألمان ينكرونه من كل قلوبهم، كما أنهم يعتبرونه تجسيداً فظيلاً لصراعنا الفظيع. ولكن الحقيقة هي أن العرش الاستعماري الألماني تم استرداده في معركة "كونجراتز" وليس بسبب المعارك حول باريس كما كان يشاع فيما بعد.

(1) هوهن زولرن: العائلة الملكية الألمانية التي حكمت دوقية «براندين بيرج» شمال وسط ألمانيا- وهي منطقة مقسمة الآن بين بولندا وألمانيا- منذ 1415م، وامتد حكمهم في الفترة الأخيرة إلى بروسيا 1525م برئاسة فريدريك الأول والذي حكم في الفترة من (1701- 1713م)، ثم اتحدت ممالك العائلة تحت اسم مملكة بروسيا اعتباراً من 1871م إلى 1918م تحت حكم الإمبراطور: «هوهن زولرن» والذي حكم الإمبراطورية الألمانية. (الناشر).

لذلك، لم تقم الدولة الألمانية ببناء على إرادة العمل المشترك، ولكنها كانت نتيجة كفاح جاد من أجل السيطرة، وذلك بالرغم من عدم شعور أبطال القصة بذلك. وقد خرجت بروسيا من هذا الصراع منتصرة أخيراً. وكل من لم تعميه السياسات السائدة يعرف أن ما يسمى بحكمة الرجال لم تتوصل أبداً إلى قرارات حكيمة تشبه قرارات الحياة نفسها. فمن من الألمان قبل مائتي عام كان يظن أن عائلة "هوهن زولرن" في بروسيا - وليست عائلة "هابسبرج" - ستكون نواة مؤسسة للدولة الألمانية الجديدة وواضحة لتعاليمها ؟ ومن جهة أخرى، هل من أحد ينكر اليوم أن أقدارنا ساقطنا إلى ما هو أفضل من حكمة الإنسان؟! ومن يمكنه أن يتخيل اليوم أن الدولة الألمانية تقوم الآن على أطلال سلالة حاكمة عاجزة ومتفككة.

لا ... إن التطور العام للأشياء - رغم أنه استغرق قرناً كاملاً - يأتي دائماً بأفضل وضع نستحقه.

وسيكون الحال كذلك دائماً. لذلك فلا داعي للندم إن حاول عدة رجال تحقيق نفس الهدف أو الوصول إليه بطرق مختلفة. فبهذه الطريقة يبرع الأسرع والأقوى منهم ويحقق النصر.

❖ | الذين يدعون الكفاح والوطنية ويسرقون أفكار الآخرين:

وهناك سبب آخر في أن هناك لحظات في حياة الأمم تشهد جهوداً عديدة وسعياً من أطراف مختلفة من أجل الوصول إلى ما يبدو أنه هدف واحد. وهذا السبب الثاني ليس مأساوياً على أي حال، لكنه يستدعي الشفقة على أي حال. وهو ناتج عن خليط من الحسد والغيرة والطموح والرغبة في امتلاك ما عند الآخرين. ولسوء الحظ فإن كل تلك الإخفاقات توجد متحدة مع بعضها البعض ومرتبطة في أي عينة من البشر.

وبمجرد أن تنشأ حركة ما وتحدد برنامجها يأتي أمثال هؤلاء ويدعون أنهم يكافحون من أجل نفس القضية. وهذا لا يعني أنهم مستعدون للالتحاق بصفوف الحركة بإخلاص اعترافاً منهم بأولويتها في السابق، ولكنه يعني أنهم يودون سرقة البرنامج وإقامة حزب جديد على أساسه. وهم من الوقاحة لدرجة أنهم يؤكدون لعامة الناس من الجهلاء أنهم كانوا ينوون منذ وقت طويل أن يتبعوا نفس الأسلوب الذي يتبعه الآخرون الآن، وبذلك يضعون أنفسهم تحت الأضواء بدلاً من أن يلقوا الاستنكار الشديد الذي يستحقونه. فمن الوقاحة الشديدة أن نأخذ ما نسب إلى آخرين من قبل وندعي ملكيته، أو نسرق علمهم أو برنامجهم، ثم نكون جماعة جديدة كما لو كان الأمر كله من إبداع مؤسس الجماعة الجديدة. وتوضح وقاحة هذا السلوك عندما يصر من تسبب في هذه الفرقة والتشتيت بسبب ما أقاموه من جماعة جديدة - كما حدث من قبل - هم أنفسهم من ينادي بضرورة الاتحاد والوحدة في اللحظة التي يرون فيها أنهم لن يحققوا أي تقدم.

وهذا التصرف هو السبب في وجود ما يسمى بـ"تفسخ العمل الوطني".

وقد كان ظهور العديد من الجماعات والأحزاب التي تسمى نفسها بـ"الوطنية" في الفترة 1918-1919م ظاهرة طبيعية، ولم يكن المؤسسون مسئولين عنها. وبحلول عام 1920م تبلور حزب العمل الاشتراكي القومي الألماني وأصبح مميزاً عن كل تلك الأحزاب. ولم يكن هناك دليل على نجاح هذا الحزب أفضل مما قرره مؤسسو أحد الأحزاب - بطريقة تستحق الإعجاب - بالتضحية بحزبهم الأقل نجاحاً من أجل الانضمام إلى حزبنا بدون شروط واختفاء حزبهم.

❖ | التفسخ الوطني..

وهذا ينطبق فعلاً على "جوليوس سترشر" وكان زعيماً للحزب الاشتراكي الألماني في "نورنبرج". وقد نشأ حزب العمل الاشتراكي القومي الألماني على أهداف مماثلة لكنه نشأ منفصلاً ومعتمداً على نفسه. وقد قلت: إن "سترشر" - وكان معلماً يعمل في "نورنبرج" في تلك الفترة - هو البطل الأول في الحزب الاشتراكي الألماني. وكان مقتنعاً قناعة شديدة بمهمة ومستقبل حركته. ولكن بمجرد أن حقق حزب العمل الاشتراكي القومي الألماني نجاحاً ساحقاً وتفوق على الحزب الاشتراكي الألماني، أدرك على الفور قيمة ذلك، فتخلى عن العمل في الحزب الاشتراكي الألماني ودعا أنصاره إلى الانخراط في صفوف حزب العمل الاشتراكي القومي الألماني، فقد خرج الحزب منتصراً وكان عليه أن يواصل الكفاح في صفوف هذا الحزب، وهذا يوضح مدى إخلاصه.

وعندما انتهت الفترة الأولى من حياة الحركة لم تعد هناك أي قوى مشتتة، فقد قادتهم نواياهم الطيبة إلى الانضمام جميعاً إلى نهاية محترمة واحدة. وما نسميه الآن بـ"التفسخ الوطني" يرجع بالتحديد إلى السبب الثاني الذي ذكرته. فهؤلاء الطموحون الذين لا يملكون أي أفكار خاصة ولا أي مفاهيم أو أهداف يسعون إليها يدعون فجأة وبدون أي مقدمات إلى نفس الأفكار التي يدعو إليها حزب العمل الاشتراكي القومي الألماني في نفس لحظات نجاحه.

وفجأة ظهرت البرامج التي لا تمثل أي شيء سوى نسخ من برنامجنا، كما ادعوا أنهم أصحاب أفكار نقلوها عنا. ووضعت الأهداف التي نناضل من أجلها منذ عدة سنوات، كما وضعت نفس الخطط التي يتبعها الحزب الوطني الاشتراكي منذ فترة. كما أنهم لجأوا إلى كل الطرق التي قد تمكنهم من إقناع عامة الناس بأنه على الرغم من أن حزب العمل الاشتراكي القومي الألماني موجود منذ فترة إلا أنهم وجدوا هناك ضرورة لإقامة أحزاب جديدة. ولكن ذلك لم يكن سوى مجرد كلمات تخفي خلفها الدوافع الوضيعة.

وفي الحقيقة، كان كل ما فعلوه يعتمد على دافع واحد سائد. وهذا الدافع هو طموح شخصي عند مؤسسي تلك الأحزاب، فهم يرغبون في المشاركة بأي دور يظهر مواهبهم الفذة في النقل عن الآخرين، لكنه لا يشارك بأي جديد سوى زيادة الوقاحة التي يمارسونها عند سرقة أفكار الآخرين.

❖ | اللصوص والمعوقون..

وفي ذلك الوقت، لم تظهر أي فكرة أو مفهوم سياسي عن أي جهة أخرى إلا وسرقها هؤلاء اللصوص ونسبوا إلى أنفسهم بغرض تحقيق نواياهم الدنيئة. ومن يفعلون ذلك هم أنفسهم من يتحسرون على "النسخ الوطني" وعيونهم مليئة بالدموع، كما أنهم يتحدثون بلا انقطاع عن "ضرورة الوحدة". وقد يؤدي ذلك إلى أن يفقد أصحاب الأفكار الحقيقيون صبرهم ويهجرون العمل السياسي وأفكارهم ليستفيد منها آخرون ويدعون أنها أفكارهم، ولا يتركون لهم مهمة تنفيذ تلك الأفكار فقط، لكنهم يتركون لهم مهمة إدارة شئون الحركة التي أسسوها أيضاً.

وعندما لا يتحقق ذلك بفضل العقليات الحكيمة لهؤلاء اللصوص، ولا تظهر أي نتائج طيبة، تهدأ أنشطتهم ويعلنون عن سعادتهم إن تمكنوا من الاندماج مع حركات أخرى فيما يسمى بـ "اتحاد تعاوني".

وفي ذلك الوقت كان كل كيان غير قادر على الوقوف على قدميه ينضم إلى واحد من تلك "الاتحادات التعاونية" على اعتبار أن ثمانية من المعوقين يمكنهم الاتكاء على بعضهم البعض من أجل إجبار السيف على الاستسلام أمامهم.

لكن إن كان هناك واحد صحيح البدن بين مجموعة من المصابين بالعرج، فإنه يستخدم كل قوته ليسانداهم جميعاً وبالتالي يصاب هو بالشلل التام.

وكان يجب علينا أن ننظر إلى مسألة الانضمام إلى تلك الائتلافات كمشكلة تكتيكية، ولكن يجب علينا ألا ننسى المبادئ الأساسية التالية قبل الوصول إلى قرار :

إن ائتلاف عدد من الكيانات الضعيفة لن يكون قوياً أبداً، بينما اتحاد القوى - كما اتضح لنا في كثير من الحالات - مع عدد من الكتل الضعيفة يفقده قوته. ومن الخطأ أن نعتقد أن القوة يمكن أن تنتج عن اتحاد مجموعات ضعيفة. كما أن التجارب قد أوضحت أن غالب هؤلاء الساعين للاتحاد هم من الجبناء والمتجولين. وهنا نجد أنفسنا أمام اتحاد خاضع لدكتاتورية تلك الرؤوس التي كونت المجموعات الضعيفة في البداية، وهم يتخلون في النهاية عن أماكنهم للجبناء والضعاف. ومن خلال هذه الائتلافات نتوقف لعبة القوى

وينتهي الصراع من أجل انتقاء الأفضل، ولا يكون البقاء والانتصار من حق الأفضل ذي الصحة الجيدة. وهذه الاتحادات تضر عملية التطور الطبيعي، وذلك لأنها غالباً ما تعوق القضية التي وجدت من أجلها.

وقد حدث أن دخلت حركات - لأسباب تكتيكية فقط - ذات أهداف مستقبلية في تحالف مع تلك الكيانات الصغيرة من أجل معالجة قضايا محددة، كما أن تقف أيضاً بجوارها وتساندها لكن ذلك يستمر لفترة قصيرة ومحدودة. فمثل هذا الاتحاد لا يجب أن يوجد دائماً إن رغبت الحركة في الاستمرار في مهمتها. وذلك لأنها إن استمرت مرتبطة بمثل هذا الاتحاد، فإنها ستفقد القدرة على العمل الحر والتطور الطبيعي، كما ستفقد حقها في ذلك، وهذا يمكنها من التغلب على المنافسين وتحقيق أهدافها بنجاح.

وعلينا ألا ننسى أبداً أن الائتلافات لم تحقق أي شيء عظيم في عالمنا، فكل انتصار عظيم كان فردياً. والنجاحات التي تحقّقها الائتلافات تحمل في طياتها جرائم التفكك والفشل منذ البداية وبدرجة واضحة تلغي ما تم إنجازه. وكان من الممكن أن تكون الثورات الكبرى التي حدثت في الفكر الإنساني والتي حولت مجرى العالم مستحيلة وغير معقولة إن لم تمر بصراعات شديدة بين طبائع فردية مختلفة، لكنها لا تحدث أبداً نتيجة لجهد مشترك.

ودولة الشعب - قبل كل شيء - لا يمكن أن تقوم بناء على رغبة في إيجاد ائتلاف وطني، لكنها تتحقق فقط من خلال إرادة حديدية لحركة واحدة تتمكن من الظهور والتفوق على كل الحركات الأخرى.



أفكار رئيسية خاصة بطبيعة ونظمية قوات المصفاة



❖ ثلاثة عناصر لقوة الدولة تم محوها..

استقرت قوى الدولة القديمة على ثلاثة أعمدة: الشكل الملكي للحكم والخدمة المدنية والجيش، ومحت ثورة عام 1918م شكل الحكومة وحلت الجيش وتركت الخدمة المدنية لفساد السياسات الحزبية، فنبعثت الدعامات الأساسية لما يسمى بسلطة الدولة. وكانت السلطة تعتمد دائماً على تلك العناصر الثلاثة، فهي تعد الأسس الضرورية لكل سلطة.

ودعم عامة الناس هو أول عنصر ضروري لخلق السلطة، ولكن السلطة التي تعتمد فقط على ذلك الأساس تظل متقلبة ومتذبذبة ومشكوكاً فيها. ولذلك فعلى كل من يجد نفسه مسؤولاً عن سلطة تقوم على دعم عامة الناس فقط أن يتخذ الإجراءات لتحسين وتقوية أسس تلك السلطة بإيجاد ما يقويها. كما يجب أن نعلم أن القوة هي الأساس الثاني الذي تقوم عليه كل السلطة. وهذا الأساس أكثر استقراراً وأمناً ولكنه ليس أقوى من الأول دائماً، فإذا ما اتحد دعم عامة الناس والقوة معاً وظلا لفترة محددة، حينئذ تظهر السلطة القائمة على أساس قوى ثابت وتلقب بالسلطة التقليدية. وفي النهاية، فإذا اتحد كل من العرف والقوة والدعم العام في سلطة ما فإنها تكون سلطة لا تقهر.

وقد محت الثورة في ألمانيا آخر تلك الأسس، فلم يبق أي أثر للسلطة العرفية. وبانهيار الدولة الألمانية القديمة وإلغاء الشكل الملكي للحكومة وتدمير كل علامات العظمة القديمة والرموز الإمبراطورية تحطمت التقاليد، وكانت النتيجة انهيار سلطة الدولة فوق ما وضعته من أسس.

أما العمود الثاني لسلطة الدولة، وهو الجيش فقد محي من الوجود. فمن أجل حدوث الثورة كان من الضروري حل هذا التكوين الذي وحد قوى الدولة وسلطتها فيما يسمى بالجيش. وفي الواقع كان لابد من توظيف بعض فرق الجيش كعناصر محاربة في الثورة. ولم تتم معاملة القوات الموجودة على الجبهة نفس المعاملة المفرقة، ولكن بمجرد أن تركت تلك القوات أرض الأمجاد التي حاربوا فوقها ببطولة لمدة أربعة أعوام ونصف

هاجمهم فيرس التفكك الذي هاجم البلاد أيضاً، وعندما وصلوا إلى مراكز التسريح أصيبوا بارتباك، وكان عليهم أن يطيعوا المجالس العسكرية.

فمن غير المنطقي بالطبع أن نفكر في تأسيس أي نوع من السلطة في ظل وجود ذلك الحشد من الجنود المتمردة التي اعتبرت الخدمة العسكرية عملاً يقومون به لمدة ثماني ساعات يومياً. لذلك فإن العنصر الثاني الذي يضمن الثبات للسلطة قد تم محوه أيضاً، فلم يتبق للثورة سوى العنصر الثالث، وهو دعم العامة الذي تقوم عليه السلطة، ولكنه كان أساساً غير آمن، فقد حطمت الثورة - بقليل من العنف - صرح الدولة القديم وقضت على أسسه، وحطمت الحرب التوازن الطبيعي الموجود بين طبقات مجتمع الأمة.

❖ أفضل الناس.. وأسوأ البشر..

يتشكل كل تكوين قومي من ثلاث طبقات رئيسية، في أحد الأطراف لدينا أفضل الناس وكلمة "أفضل" تشير إلى أصحاب الصفات الطيبة المعروفون بشجاعتههم ولاستعدادهم للتضحية باهتماماتهم الخاصة، وفي الطرف الآخر يوجد أسوأ البشر الذين تسود فيهم الرذيلة والأنانية، وتقف الطبقة الثالثة بين هاتين الطبقتين وتتكون من أبناء الطبقة المتوسطة العريضة الذين لا يمثلون البطولة المتوهجة ولا الرذيلة البذيئة.

وتتكاثر مراحل ظهور الدولة حصرياً تحت قيادة الطبقة الطرفية الأفضل.

وتدين أوقات التطور العادي المتناسق والأوقات ذات الأحوال المستقرة بوجودها وسماتها الخارجية الواضحة إلى التأثير السائد للطبقة الوسطى. وفي تلك المرحلة، تتوازن الطبقتان الطرفيتان مع بعضهما البعض أي أنهما تتلاشيان. وتتساق أوقات الانهيار القومي عندما يتفوق تأثير العناصر الأسوأ.

ويجب الإشارة هنا إلى أن الجماهير العريضة التي يتكون منها ما أسماه القسم الأوسط⁽¹⁾ تتقدم ويظهر تأثيرها عندما يبدأ الطرفان المتنافران في صراع متبادل، وفي حالة انتصار أحد الطرفين سترسخ الطبقة المتوسطة إلى هيمنتها، فإذا كان الطرف الأسوأ هو المنتصر فلن تعارض الطبقة المتوسطة، حيث إن جماهير الطبقة المتوسطة لا تحارب في معاركها.

فقد قضت إراقة الدماء لمدة أربعة أعوام ونصف أثناء الحرب على التماثل الداخلي بين ثلاث طبقات من أفضل الأجناس البشرية تماماً، فكادت أن تختفي لما فقدته من دماء في

(1) الطبقة المتوسطة.

الحرب. وكان من غير المعقول أن نعوض الكميات الهائلة من دماء البطولة الألمانية التي أريقَت على مدار أربعة أعوام ونصف. فقد عملنا جميعاً كمتطوعين في الجبهة، ومتطوعين في الدوريات والخدمات الليلية، ومتطوعين لحمل الرسائل ومتطوعين لإقامة الاتصالات التليفونية وبناء الجسور، وتطوعنا في البحرية والقوات الجوية وفي قوات العاصفة وغيرها. فخلال أربعة أعوام ونصف وفي آلاف المناسبات استمرت نداءات التطوع مرات ومرات. وكانت النتيجة دائماً واحدة، فتية دون سن الرشد ورجال ناضجين ممثلين بحب الوطن والشجاعة يلبون نداء الواجب، وكان هؤلاء دائماً هم من يلبون هذا النداء. عشرات الآلاف، بل مئات الآلاف من هؤلاء يتقدمون لذلك. ثم أصبح هذا النوع الأصيل من البشر نادراً أكثر وأكثر بمرور الوقت. فمن لم يسقط منهم قتيلًا في الحرب أصيب بعاهة أو لحق بطائفة المعوقين بسبب الإصابات التي كانت تلحق بهم دائماً. وكان عليهم أن يستمروا في تلك الحياة إلى ما لا نهاية لعدم وجود أمثالهم. وفي عام 1914م تكون جيش كامل من المتطوعين الذين لم يتلقوا أي تدريب كاف في وقت السلم بسبب انعدام ضمائر نواب البرلمان. فواجهوا العدو وهم على تلك الحال، لذلك لم يتمكن من أن نعوض الأربعمئة ألف الذين سقطوا في جبهة "فلاندرز" أو أصيبوا بعاهات مستتمة. ف خسارتهم أكثر بكثير من مجرد ذكر العدد. وهكذا مالت كفة ميزان طبقات الشعب لصالح العناصر الأسوأ من الجبناء والأشرار. وباختصار أصبح هناك زيادة في عدد العناصر التي تمثل أسوأ أنواع السكان.

وهناك شيء آخر، فقد تضاعلت أفضل خاماتنا البشرية لمدة أربع سنوات ونصف في المعارك بدرجة كبيرة، بينما نجح أسوأ الأفراد في إنقاذ أنفسهم. وفي مقابل كل بطل قدم تضحية كبرى وارتفع إلى منزلة الشهداء هناك شخص جبان يتفادى الموت بخبث وبجحة أنه مشغول بأعماله المفيدة للجبهة الداخلية بطريقة ما أو بأخرى.

❖ أبطال.. وحثالة:

وهكذا، فقد كانت الصورة في نهاية الحرب كالتالي:

أكملت الطبقة الوسطى في دولتنا العظيمة واجبها ودفعت من دمائها. أما الطبقة الطرفية التي تتكون من أفضل العناصر قد أعطت مثلاً نموذجياً للبطولة وضحت إلى آخر رجل تقريباً. واحتفظت الطبقة الطرفية الأخرى التي تتكون من أسوأ العناصر بنفسها من خلال الاستفادة من القوانين الغريبة، وأيضاً لأن السلطات فشلت في تطبيق بعض بنود النظام العسكري.

وبعد ذلك قامت حثالة المجتمع التي حافظت على حياتها إلى أقصى ما يمكن بالثورة.

وسبب تمكنها من ذلك هو أن تلك الطبقة الطرفية من طبقات المجتمع والتي تحتوي على أفضل عناصره لم تعد موجودة لتواجه الثورة وتعارضها، فقد اختفت تماماً.

ولذلك فقد اعتمدت الثورة الألمانية منذ البداية على طبقة واحدة من الشعب، لذلك فإن ما حدث في "كين" هو حدث لم يرتكبه الشعب الألماني، ولكن ارتكبه الغوغاء والمتهربون من الجندية.

وقد رحب رجال الجبهة بنهاية النضال الذي بذلوا فيه الكثير من الدماء، كما كانوا سعداء بالعودة إلى الوطن ورؤية زوجاتهم وأطفالهم مرة أخرى. لكنهم ليس لهم أي ارتباط أخلاقي مع الثورة، فهم لا يحبونها، ولم يحبوا أولئك الذين قاموا بها ونظموها. كما كانوا قد نسوا خلال أربع سنوات ونصف - قضوها في صراع مرير على الجبهة - كل شيء عن بيوتهم ومشكلاتهم الشخصية.

فقد أيد الثورة عدد قليل من الشعب الألماني، وهم الطبقة التي اختارت حقيبة الظهر كرمز لكل المواطنين الشرفاء في تلك الدولة الجديدة. إنهم لم يحبوا الثورة لذاتها - وذلك على الرغم من أن كثيراً من الناس لا زالوا يعتقدون في هذا القول الخاطئ - ولكن أحبوا لتوابعها.

❖ لماذا نجحت الثورة الشيوعية في روسيا؟

وكان من الصعب تأسيس أي سلطة دائمة بناء على دعم قدمه العامة لقطاع الطرق من الماركسيين. وهكذا فإن الجمهورية الشابة بحاجة إلى السلطة بأي ثمن، وإلا فعليها أن تستعد للإطاحة بها بعد فترة قصيرة من الفوضى التي تسببت فيها قوات أعظم تجمعها العناصر المتبقية من أفضل طبقات الشعب.

وكان الخطر الذي يخشاه المسؤولون عن الثورة في ذلك الوقت هو ذلك الارتباك الذي خلقوه بأنفسهم، فالأرض ستسحب من تحت أقدامهم أي أنهم سيقتلون وينقلون إلى أي أرض أخرى إن لم يسيطروا على الجمهورية بقبضة حديدية. كما يجب أن تقوى هذه الجمهورية بأي ثمن.

ولقد دُفعت الثورة بعد تأسيسها مباشرة إلى إقامة أساس آخر بجوار أساس الشعبية المتمايل. لذلك فقد رأوا ضرورة تنظيم السلطة مرة أخرى من أجل إقامة أساس أقوى تنشأ عليه سلطتهم.

وعندما شعر مصارعو ثورة ديسمبر 1918م ويناير وفبراير عام 1919م بالأرض تهتز تحت أقدامهم، نظروا حولهم بحثاً عن رجال مستعدين لتقديم الدعم العسكري الكافي

لهم، وذلك لأن موقفهم الضعيف كان يعتمد فقط على الشعبية التي ساندتهم. وهكذا كانت الجمهورية غير العسكرية بحاجة إلى جنود. لكن الأساس الأول الذي قامت عليه الدولة وهو الشعبية كان مؤلفاً من الأثقياء واللصوص والهاربين من التجنيد وغيرهم. لذلك فالبحث عن رجال مستعدين للتضحية بحياتهم في سبيل المثل الجديدة في هذا القطاع من الشعب - والذي أسمىناه بالطرف الشرير - لن يثمر. وكان من قاموا بالثورة غير قادرين على طلب جنود لدعمهم ولا مستعدين لذلك. فهم لا ينوون إقامة دولة جمهورية، ولكن كل ما أرادوه هو هدم النظام القائم فهذا يرضي مشاعرهم. لذلك فلم تكن كلمة السر هي "تنظيم ألمانيا وإعادة بنائها" بل كانت "سرقتها".

لذلك لم تجد صيحة الاستغاثة التي أطلقها ممثلو الشعب - المنقلون بآلاف المشكلات- أي استجابة في هذه الطبقة ولكنها أثارت فيهم شعوراً بالمرارة والاستنكار. فقد رأوا أن هذه الخطوة هي بداية لخرق القانون وسحب الثقة من السلطة التي قامت منذ وقت قليل وحظيت بدعم شعبي. فقد خشوا أن تتخذ إجراءات تحد من سيطرة قطاع الطرق واللصوص الذين خرجوا من السجون وتحرروا من الأغلال.

ويمكن لممثلي الشعب أن يصيحوا قدر استطاعتهم، لكن الناس لن يساعدهم. فقد قوبلت صيحات الاستغاثة بصيحات تقول "خونة" أطلقها أولئك الذين يساندون النظام الجديد.

ثم بعد ذلك ظن لأول مرة جيل من الشباب الألمان من المستعدين لارتداء الزي العسكري مرة أخرى وذلك من أجل "حفظ الأمن والنظام" بحسب اعتقادهم، لذلك سيحملون السلاح ويرتدون الخوذات ويقاومون مخربي الوطن. وتجمعت الفياق التي تدافع عن الثورة برغم كراهيتهم لها. وكان الغرض العملي مما يقومون به هو الحفاظ على قوة وثبات الثورة. وقد فعلوا ذلك بنية طيبة.

كان يهود العالم هم المنظمون الحقيقيون للثورة ومحركها، وقد سيطروا على الموقف بشكل صحيح، ولم يكن الشعب الألماني قد تأهل بعد للدخول في الفكر الشيوعي بقوة مثلما فعل الروس، وكان سبب ذلك هو الاتحاد العرقي بين الطبقات المثقفة في ألمانيا والعمال، وأيضاً بسبب تداخل الطبقة الاجتماعية العريضة للعمال مع المثقفين. وكانت تلك الحالة سائدة أيضاً في بعض دول أوروبا الغربية. لكن روسيا كان ينقصها ذلك، فالتبقيات المثقفة في تلك الدولة كانوا من قوميات غير روسية أو على الأقل لم يكن لديهم الصفات العرقية السلافية. وكان لابد من محو تلك الطبقة الرقيقة العليا من المثقفين التي وجدت بعد ذلك في روسيا في أي وقت، حيث لم تكن هناك طبقة وسيطة لربطها عضويًا بحشود الشعب، حيث كان المستوى الأخلاقي والعقلي لحشود الشعب منخفضاً بشكل مخيف.

وفي روسيا نجح الدعاة في حث حشود الجماهير - الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة - ضد طبقة المثقفين العليا التي لم تكن على اتصال مع الجماهير أو التي لم تكن مرتبطة معهم بارتباط دائم بأي شكل. في تلك اللحظة تقرر مصير روسيا وتؤكد نجاح الثورة. وبعد ذلك أصبح الأمي الروسي عبداً للدكتاتور اليهودي الذي كان من الدهاء بحيث سمى دكتاتوريته بـ "دكتاتورية الشعب".

❖ | خطة الخداع..

وفي حالة ألمانيا يجب أن نضع في الاعتبار عاملاً إضافياً، فيمكن تفعيل الثورة بشرط تفكيك الجيش تدريجياً. فلم يكن الجندي هو المهيمن الحقيقي على الثورة وعلى عملية حل الجيش فهو الذي حارب في الجبهة، لكن سيطر عليها الغوغاء الذين حجبوا الحقيقة ممن أقاموا في الثكنات العسكرية أو عملوا أثناء الحرب في أعمال مدنية "لا يمكن الاستغناء عنها". وعزز هذا الجيش بعشرات الآلاف من المسرحيين من الجيش الذين كانوا يديرون ظهورهم وهم في الجبهة. فالجبان الحقيقي لا يخاف من شيء أكثر من الموت في أي موقف. أما على الجبهة، فإنه يرى الموت أمام عينيه بآلاف الأشكال كل يوم. وكان هناك طريق فقط واحد يمكن أن يجعل الرجال الضعاف المترددين وحتى الجبناء أن يواجهوا مهمتهم بثبات، وهذا يعني أنه على الراغب في الهروب أن يفهم أن هروبه يقوده إلى ما يهرب منه. فقد يموت الرجال على الجبهة أما الهارب من المواجهة فلا بد من أن يموت. ويمكن أن يكون ذلك التهديد القاسي الموجه لكل محاولة للهروب من خدمة العلم ذا أثر مخيف ليس فقط على الفرد ولكن أيضاً على الجماعات، وهنا يكمن معنى وهدف القواعد الجزائية العسكرية.

إن تحقيق إنجازات تطوعية فردية هو ما يحدد الدوافع التي تحرك أفضل الناس، وليس عامة الناس. وهنا يجب وضع قوانين خاصة مثل قانون تحريم السرقة على سبيل المثال، فهو لم يوضع من أجل الأمناء أو الفضلاء ولكن من أجل العناصر الضعيفة المترددة. ومثل تلك القوانين توضع لإعاقة مرتكبي الشرور ومنع وصول المجتمع إلى الحالة التي يصبح فيها الأمناء هم الأغبياء وأنه من الأفضل أن تشارك في السرقة بدلاً من الوقوف خالي الوفاض أو الاستسلام للصنوف.

فمن الخطأ أن نعتقد أننا يمكننا أثناء الكفاح الذي - طبقاً لكل الحكمة البشرية - قد يستمر إلى عدة سنوات أن نحكي خبرات مئات الآلاف من السنين للضعاف من الرجال المترددين لنجعلهم يؤدون واجبهم في الأوقات الصعبة تحت ضغط عصبي هائل.

فالبطل المتطوع في الحرب لا يخشى الموت أثناء المعارك العسكرية، ولكن الجبان

المحب لنفسه يجد أن حياته أهم وأعلى من أن يضحي بها من أجل أمته. ومثل هؤلاء الضعاف معدومي الشخصية يمكن أن يرتدوا عن جنبهم وضعفهم بتطبيق أقصى العقوبات فقط. فمن يضطر إلى مصارعة الموت كل يوم والعيش في خنادق موحلة مع سوء وصول إمدادات الطعام وهو في نفس الوقت غير واثق من نفسه ومتردد لا يمكن أن يتمسك بواجبه بسبب التهديد بالسجن أو حتى الأشغال الشاقة. فهو لا يتأثر سوى بتطبيق عقوبة الإعدام. وذلك لأن التجربة أوضحت أن هذا الجبان يعتبر السجن أفضل بكثير في تلك الأوقات من ساحة القتال. فهو في السجن سيحافظ على حياته الغالية. وهذا يعني أن القانون العسكري لم يعد صالحاً الآن. فالعديد من الجنود كانوا يتراجعون إلى صفوف المؤخرة أو يعودون إلى البيت، وخاصة في عام 1918م وهكذا تكونت منظمة إرهابية جديدة كان علينا أن نواجهها بعد السابع من نوفمبر عام 1918م، ثم قامت هذه المنظمة بالثورة.

وكانت الجبهة لا علاقة لها بكل ما يحدث. وكان من الطبيعي أن يحلم الجنود على الجبهة بالسلام. لكن ذلك كان يمثل خطراً على الثورة. فعندما يقترب الجنود الألمان من بيوتهم - بعد الهدنة - يرتعش الثوار رعباً ويكررون نفس السؤال مرات ومرات : ماذا ستفعل قوات الجبهة ؟

وأثناء تلك الأسابيع كان لزاماً على الثورة أن تعطي نفسها مظهراً خارجياً معتدلاً وإلا فإنها ستواجه خطر القضاء عليها بسرعة على يد عدة فرق عسكرية فقط. فإن قرر - في ذلك الوقت - قائد فرقة عسكرية واحدة فقط أن يحشد قواته المخلصة دائماً له في حملة للقضاء على العلم الأحمر، فإن هذه الفرقة ستصبح ستة فرق خلال أقل من أربعة أسابيع. لذلك فقد فزع موجهو السياسة من اليهود من هذا الاحتمال أكثر من أي احتمال آخر. لذلك فقد وجدوا أنه من الضروري أن تبدو الثورة معتدلة من أجل إحباط هذا الخطر. ولم تكن لديهم الجرأة ليعلموا أنها ثورة بلشفية، لذلك كان عليهم مواجهة الظروف القائمة من خلال إعداد صورة مخادعة تطالب بـ "الهدوء والنظام". وبذلك حصلوا على العديد من الامتيازات، ومنها رضى المسؤولين السابقين عن الخدمة المدنية وقادة الجيش القديم. فهناك حاجة إذن لهؤلاء جميعاً ولو لفترة محددة، وبعد ذلك يتم التخلص منهم إن أبدوا تعنتاً، وتعود الجمهورية من جديد إلى مخالب الثوار.

وقد اعتقدوا أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تنجح في خداع قدامى الجنرالات والعاملين في الخدمة المدنية ونزع سلاح أي محاولة للمعارضة مقدماً، وذلك من خلال ظهورهم كنظام مسالم ومعتدل.

وقد أوضحت التجربة العملية مدى نجاح هذه الخطة.

✦ | معسكر النظام.. ومعسكر الإرهاب..

وعلى أي حال لم يقم بالثورة عناصر سلمية ونظامية من أبناء الأمة بل قام بها المتمردون واللصوص وقطاع الطرق. والطريقة التي قامت بها الثورة لا تتماشى مع النوايا الطيبة، فقد كان من المستحيل أن تعمل مجريات الأمور وأن تقدمها على أنها أمور طبيعية.

وكما زادت سيطرة الاشتراكية الديمقراطية، فقدت شخصيتها كحزب ثوري غير ناضج. وليس هناك من شك أن الاشتراكيين الديمقراطيين كانوا يريدون الثورة من داخلهم وأن قادتهم لم يكن لهم أي أهداف أخرى. لكن ما تم الحصول عليه في النهاية هو برنامج ثوري، بينما لا توجد هيئة من الرجال القادرين على تنفيذه. فالثورة لا يمكن أن تقوم بالاعتماد على حزب ذي عشرة ملايين عضو. وذلك لأنهم إن حاولوا ذلك فسيترك القادة أنهم اعتمدوا على عنصر واحد من عناصر السكان وليس على جماهير الشعب من الطبقة الوسطى، وهي الطبقة الكسولة.

وبعد إدراك كل ذلك أثناء الحرب، تسبب اليهود في الانقسام الشهير الذي وقع في الحزب الاشتراكي الديمقراطي. فبينما كان الحزب يؤكد على تعطله وقصور جماهيره ضارباً بقوة في عنق الدفاع القومي، تخلصت منه العناصر الراديكالية بفاعلية وتشكلت في أنماط عدوانية، وفرضت نوع الهجوم والهدف المحدد له، وقد خلق ذلك أمراً واقعاً واعتبره أساساً يقوم عليه الحزب الاشتراكي الديمقراطي، وكانوا قد استعدوا لذلك الحدث لفترة طويلة. ولقد قدر الماركسيون هؤلاء البرجوازيين العاجزين بنفس الطريقة وعاملوهم كالغوغاء. ولم يكتثر أحد بذلك حيث كان من المعروف جيداً أن ممثلي الجيل القديم الممزق - بسبب استسلامهم الذليل - لن يستطيعوا بذل أي مقاومة جادة.

وعندما نجحت الثورة واعتقد صانعوها أن الأعمدة الرئيسية للدولة القديمة قد انهارت. وبدأ الجيش العائد من الجبهة في الظهور كنذير شؤم، كان من الضروري الإبطاء في الحركة القومية للثورة، واحتل التكوين الرئيسي للحشد الاشتراكي الديمقراطي الأماكن المهمة، أما الاشتراكي المستقل وكتائب العاصفة فكانوا في مرتبة ثانوية. ولكن ذلك لم يحدث دون كفاح.

لم تكن تكوينات الهجوم النشط التي بدأت الثورة راضية تماماً، وقد شعرت أنها مخدوعة. وهي تريد أن تستمر في القتال الآن ولكن لحسابها الخاص. لكن الابتزاز المستمر أصبح بغياً حتى للمتحمكين في الثورة من وراء ستار. فبمجرد أن ظهرت الثورة ظهر معسكران. معسكر يحتوي على عناصر النظام والأمن، ومعسكر آخر للدماء والإرهاب. ولم يكن من الغريب أن يبادر برجوازيونا إلى التمشي مع الموجة الراجحة

بالانضمام إلى معسكر الأمن والنظام. ولأول مرة في حياتهم يتحركون وذلك لأن الطريق كان ممهداً ومستعداً لقبولهم، وهكذا وجدوا أنفسهم في تحالف مع القوة التي يكرهونها ويخافون منها. وهكذا حقق البرجوازيون شرفاً كبيراً باتحادهم مع قادة الماركسية الملعونة وذلك بغرض مقاومة البلشفية !

وبذلك كان الوضع التالي قائماً في بداية ديسمبر من عام 1918م وفي يناير من عام 1919م :

قامت الثورة على يد أقلية مكونة من أسوأ العناصر. وسرعان ما وقفت الأحزاب الماركسية خلف هذه الأقلية. وكانت الثورة ذات مظهر خارجي معتدل وقد أثار ذلك عدااء المتعصبين المتطرفين ضدها. فبدأوا في استخدام القنابل اليدوية والمدافع الآلية واحتلوا المباني العامة، وقد هدد ذلك المظهر المعتدل الذي تبدو به الثورة. وقد أبرمت هدنة بين ممثلي النظام الجديد ومؤيدي النظام القديم وذلك لمنع هذا الإرهاب من الاستمرار، وذلك حتى تتمكن الثورة من مواجهة المتطرفين. وقد أدى ذلك إلى توقف أعداء الثورة عن معارضة الجمهورية بهذه الطريقة وساعد على إخضاع أعداء الجمهورية برغم اختلاف الأسباب. وهناك نتيجة أخرى وهي انتهاء خطورة مؤيدي النظام القديم وتوقف محاولاتهم للقضاء على النظام الجديد تماماً.

❖ لماذا نجحت الثورة رغم أن غالبية الشعب لم تؤيدها؟

ولابد من تذكر هذه الحقيقة جيداً. فإذا تذكرناها يمكننا أن نعرف لماذا تمكنت الثورة - التي لم يشترك فيها تسعة أعشار الشعب وتبرأ منها سبعة أعشار الشعب وشعر ستة أعشار الشعب بكرهية شديدة لها - من أن تنجح وذلك بتأييد عشر الشعب فقط.

وقد ثلاثت عقبة أبطال معسكر العاصفة تدريجياً وكذلك الوطنيين القوميين وأصحاب المثل في الجانب الآخر، وبينما خفت هاتان المجموعتان انتصر أفراد الطبقة المتوسطة كما يحدث دائماً، وتقابل الماركسيون والبرجوازيون على أسس من الحقائق المتكاملة. وبدأ الجمهوريون في التماسك، وفي بادئ الأمر لم يمنع ذلك الأحزاب البرجوازية من تقديم أفكارهم الملكية لفترة من الوقت، وبخاصة في وقت الانتخابات. وكانوا في نفس الوقت يستحضرون روح الماضي البائد ليشجعوا أتباعهم من ذوي القلوب الضعيفة. ولم تكن تلك عملية أمينة في الواقع، فقد نسوا الملكية منذ فترة طويلة ولكن قذارة النظام الجديد بدأت في التوسع في أعمالها الفاسدة وفي التأثير على الأحزاب البرجوازية. لذلك فقد شعر رجل السياسة البرجوازي الآن أن وحل الفساد الجمهوري أفضل له من وجوده في الدولة البائدة التي لا زالت تعيش في ذاكرته.

وكما أشرت من قبل، فبعد تدمير الجيش القديم اضطر قادة الثورة إلى دعم سلطة الدولة بخلق عامل جديد للقوى. فقد استطاعوا من خلال الظروف القائمة أن يحققوا ذلك من خلال اجتذاب من يعتقدون في مذهب مخالف تماماً لما يعتقدونه هم. ومن خلال تلك العناصر فقط كان من الممكن إيجاد جيش جديد محدود العدد طبقاً لاتفاقيات السلام ببطء وكان لابد من تغيير روح الجيش الجديد ليصبح أداة للنظام الجديد.

فإذا سألنا - بغض النظر عن عيوب الدولة القديمة والتي أصبحت سبباً للثورة - كيف كان من الممكن للثورة كعمل سياسي أن تصل إلى مقدار من النجاح، فنصل إلى الخلاصات التالية:

- 1- أن هذا النجاح كان بسبب تعفن مفاهيمنا تجاه الواجب والطاعة.
- 2- أن هذا النجاح كان بسبب سلبية الأحزاب التي كان من المفروض أن تمسك بزمام الدولة.

كما يمكننا أن نضيف ما يلي :

❖ البرجوازية والدولة القديمة..

نشأ التعفن الذي هاجم مفاهيمنا حول الواجب والطاعة بسبب ما تلقيناه من التعليم الرسمي غير القومي، ومن هنا جاءت عادة الوسائل والغايات المشوشة. إن الوعي بالواجب وإنجازه والطاعة لم يكونوا من غاياتنا، كما أن الدولة لم تكن غاية في حد ذاتها. وكان من الواجب أن تستخدم كل ذلك كوسائل لتسهيل وتأكيد وجود شعب متجانس في كل مقوماته الجسدية والروحية. ففي لحظة انهيار دولة ما وعندما تظهر كل العلامات الخارجية التي توضح أنها على وشك أن تكون ضحية للظلم الذي لا يرحم - وذلك بفضل قلة من الأوغاد - تكون طاعة هؤلاء شكلية فقط، وفي نفس الوقت يعتبر التمرد وعدم إطاعة الأوامر نوعاً من المحاولة لإنقاذ الأمة من الانهيار. وطبقاً للفكرة البرجوازية عن الدولة، فإذا تلقى الجنرال قائد الفرقة العسكرية أوامر عليا بالتوقف على إطلاق النار، فعليه أن يفعل ذلك، وهذا لأن الفكر البرجوازي يرى أن الطاعة العمياء واجب مهم يسبق الحرص على حياة الأمة. لكن مفاهيم الاشتراكية القومية لا ترى أن طاعة القادة الضعاف هي الواجبة في مثل ذلك الوقت بل من الواجب أن نقوم بمسئوليتنا الشخصية تجاه الأمة بكاملها.

وقد نجحت الثورة لأن هذا المفهوم لم يعد يشكل قوة هامة لشعبنا أو حكوماتنا وانتهى به الأمر إلى مجرد شيء رسمي ونظري.

وبالنظر إلى النقطة الثانية فقد يقال: إن السبب الرئيسي في عجز الأحزاب البرجوازية

قد يعود إلى أن القسم المعتدل والنشيط من شعبنا قد فقد حياته في الحرب. فضلاً عن الأحزاب البرجوازية التي يمكن اعتبارها التكوينات السياسية الوحيدة التي تساند الدولة القديمة كانت مقتنعة أن من واجبها أن تدافع عن مبادئها بالوسائل والطرق المتعلقة فقط. وذلك لأن استخدام القوة البدنية من حق الدولة فقط. وقد كانت تلك النظرة علامة على الضعف والتفكك الذي كان ينمو تدريجياً. وكان هذا غير مقبول في تلك الفترة، فقد نبذ خصمهم السياسي هذه الفكرة منذ وقت طويل، وأعلن بوضوح أنه سيحاول تحقيق أهدافه السياسية بالقوة كلما كان ذلك ممكناً. وعندما ظهرت الماركسية في عالم الديمقراطية البرجوازية - كنتيجة لتلك الديمقراطية نفسها - كان من الحق أن تحارب الديمقراطية البرجوازية الماركسية بأسلحتها الفكرية وستضطر أن تكفر عن ذلك فيما بعد. فالماركسية تعتقد أن استخدام الأسلحة موضوع يجب أن يحكم عليه من حيث مدى ملائمتها وأن النجاح يبرر استخدام السلاح.

وقد أثبتت هذه الفكرة صحتها خلال الفترة 7-10 نوفمبر عام 1918م، فلم يشغل الماركسيون أنفسهم بأمور البرلمان والديمقراطية على الإطلاق، لكنهم وجهوا ضربة قاتلة لكليهما وذلك بإطلاق العنان لمجرميهم فأطلقوا النيران وحولوا البلاد إلى جحيم.

وبعد انتهاء الثورة، غير البرجوازيون اسم شركتهم وعادوا إلى الظهور مرة أخرى، وظهروا في الأضواء بعد أن اختبأوا في الأماكن المظلمة التي لجأوا إليها. لكنهم - وكما يحدث لجميع من يمثلون الهيئات القديمة - لم يقلعوا عن أخطائهم القديمة ولم يتعلموا أي جديد. فقام برنامجهم السياسي على الماضي وذلك بالرغم من أنهم قد تصالحوا مع النظام الجديد. وكانوا يهدفون إلى ضمان المشاركة في النظام الجديد، لذلك فقد استمروا في استخدام الكلمات كسلاح وحيد.

ولذلك أذعن الأحزاب البرجوازية بعد الثورة للرأي العام بطريقة مخجلة.

وعند إعلان قانون حماية الدولة لم يحظ بدعم الأغلبية، ولكن تظاهر ضده في الشوارع مائتا ألف ماركسي، لكن رجال الدولة البرجوازيين كانوا مذعورين بشدة لدرجة أنهم صوتوا لصالح القانون رغماً عنهم، وإلا فسوف تهشم رؤوسهم على أيدي الجماهير حال مغادرتهم لمبنى البرلمان.

وهكذا سارت الدولة الجديدة في طريقها، كما لو لم يكن هناك أي معارضة قومية على الإطلاق.

وقد كانت الفيالق التطوعية⁽¹⁾ هي الجهة الوحيدة التي لديها الشجاعة والقوة لتواجه

(1) بعد الانهيار الذي حدث في عام 1918م كون الضباط العائدون من الجبهة عدة هيئات شبه عسكرية، وكانت شبه سرية أيضاً وعرفت باسم "الفيالق التطوعية". وكان الهدف الأساسي منها هو العمل كمراكز لتجميع قدامى الوطنيين.

الماركسية وجماهيرها الغاضبة في ذلك الوقت، لذلك فإن الجنود الذين تم تسريحهم من الجيش القديم قد أعدو عدتهم لمواجهة ذلك الموقف.

لكن وجود هذه الهيئات لم يغير تاريخ ألمانيا، وذلك للأسباب التالية :

كان ما يسمى بـ"الأحزاب الوطنية" بلا أي تأثير وذلك لأنها لا تملك أي قوة تمكنها من التظاهر في الشوارع، كما أن اتحادات الدفاع لم تكن قادرة على ممارسة أي نوع من التأثير لأنها ليس لديها أي فكر سياسي وليس لديها أي أهداف سياسية واضحة.

❖ لماذا نجحت الماركسية.. وفشلت أحزاب الطبقة المتوسطة؟

ويعود النجاح الذي حققته الماركسية في وقت ما إلى التعاون التام بين الأغراض السياسية والقوة القاهرة. كما أن عدم توافر التعاون القوي بين القوة الواضحة والأهداف السياسية المختارة بعناية قد حرم الوطنيين في ألمانيا من أي آمال عملية لتطوير ألمانيا.

فهما كانت آمال الأحزاب الوطنية، فإنها لا تملك القوة التي تمكنها من القتال من أجل تلك الآمال، حتى وإن كان ذلك بالخروج إلى الشارع فقط.

أما اتحادات الدفاع فقد كان لديها كثير من القوة المستعدة، فهم سادة الظاهر وسادة الدولة، إلا أنهم يفتقرون إلى الأفكار السياسية والأهداف التي يمكنها أن تستخدم قواتها من أجلها ولخدمة المصالح الألمانية. وقد كان اليهودي الماكر قديراً في كلا الحالتين، حيث لديه قدرة على الإقناع وفرض استمرار تلك الحالة البائسة على البلاد، كما أنه يعمق جذوره في نفس الوقت.

وقد نجح اليهودي بطريقة ملفتة في الاستفادة من صحافته في نشر فكرة أن هيئات الدفاع ليست سياسية في خارج الدولة. كما أنه كان ذكياً بدرجة كافية أيضاً من الناحية السياسية، فقد امتدح الصفة الثقافية للصراع وطالب باستمرارها في الظهور على الساحة.

وقد ردد الملايين من الألمان السذج هذا السخف دون أي شك في أن ذلك يجردهم تماماً من كل أسلحتهم ويحولهم إلى أداة مسلوبة الإرادة في أيدي اليهود.

لكن هناك تفسيراً طبيعياً لذلك أيضاً، فعدم وجود الأفكار العظيمة التي يمكنها أن تعيد تكوين الأشياء من جديد كان يعني دائماً عدم وجود القوة الكافية. كما أن الاقتناع بحق استخدام أكثر أنواع الأسلحة وحشية يرتبط دائماً باعتقاد راسخ بضرورة تغيير العالم بطريقة ثورية.

والحركة التي لا تسعى للقتال من أجل تلك الأهداف والمثل السامية لن تلجأ أبداً إلى استخدام الوسائل البشعة.

إن ظهور فكرة سامية جديدة هو سر نجاح الثورة الفرنسية. كما أن الثورة الفرنسية

مدينة بنجاحها لفكرة. كما أن الفكرة أيضاً هي التي مكنت الفاشية من إخضاع الأمة كاملة لعملية تجديد شاملة.

ولم تستطع أحزاب الطبقة المتوسطة تحقيق هذا الإنجاز. ولم تكن الأحزاب البرجوازية فقط هي التي تسعى إلى استعادة الماضي. فقد فعلت ذلك أيضاً هيئات الدفاع، وذلك بما يتناسب مع اهتماماتها السياسية. فقد عاشت في داخلهم روح فيالق الحرب وساعدتهم ميولهم على شحذ أقوى الأسلحة التي كان الشعب الألماني يمتلكها وساعدتهم على التعاون مع الفلاحين في عهد الجمهورية. لكن حقيقة أن تلك الجماعات العسكرية كانت تستلهم أفضل النوايا وهي تفعل ذلك بنية طيبة لا تغير بأي حال من حمق الطريقة التي اتبعوها.

وبدأت الماركسية تنال دعماً كانت في حاجة إليه داخل مجلس الشورى. ونتيجة لذلك فقد سعت إلى إلغاء جماعات الدفاع التي تعتبرها خطيرة وأعلنت أنها لا ضرورة لها الآن. وتم استدعاء بعض القادة المندفعين الذين تحدوا الأوامر الماركسية إلى المحاكم وسجنوا. لكنهم نالوا ما يستحقون.

وجاء تأسيس حزب العمل الألماني الاشتراكي القومي كحركة تضع أهدافاً جديدة، وهي لا تهدف إلى استعادة الماضي بطريقة آلية - مثل الأحزاب البرجوازية - ولكن كانت تود أن تحل محله دولة الشعب محل الدولة الحالية.

وقد حددت الحركة الجديدة موقفها من أول يوم لإنشائها على أساس نشر أفكارها بسلام العقل، لكنها قد تلجأ إلى القوة العضلية إن كان هناك ضرورة لذلك لخدمة دعايتها. كما أن قادة الحركة يعتقدون بطبيعة الحال بأهمية المذهب الجديد وبعدم التراجع عن تقديم أي تضحية كبرى في سبيل تحقيق أغراض الحركة.

وقد أكدت أكثر من مرة أن الحركة التي تريد أن تفوز بقلوب الجماهير لابد أن تكون مستعدة للدفاع عن نفسها وتواجه محاولات الإرهاب التي يقوم بها خصومها بكل ما لديها من قوى. وقد تكرر كثيراً في تاريخ العالم أن تخفق سلطات الحكومة الرسمية في مواجهة الإرهاب القائم على مذهب جديد، حيث لا يمكن القضاء عليه إلا من خلال مذهب جديد مختلف يكون مناصروه من أصحاب الإرادة القوية والجرأة. وكانت هذه الحقيقة غير محببة للبرورقراطيين حماة الدولة لكنها تظل حقيقة بالرغم من ذلك. حيث يمكن للدولة أن تضمن الهدوء والنظام في حالة كون الدولة بالكامل تتبع مذهباً واحداً، وفي تلك الحالة تتعامل مع عناصر التوتر كحالات فردية إجرامية وليس كأبطال فكر جديد يعارض الآراء الرسمية. فإذا كانت الحالة كذلك فللدولة أن تستخدم أكثر الإجراءات قسوة مع ما يهددها من إرهاب ولعدة قرون، وفي النهاية يثبت عقم كل تلك الإجراءات وتستسلم الدولة.

والماركسية تجتاح الدولة الألمانية بشدة، ولم تستطع الدولة بعد كفاح استمر سبعين عاماً أن تمنع انتشار الفكر الماركسي. وبالرغم من أحكام الأشغال الشاقة والسجن التي صدرت لمدد تتجاوز آلاف السنوات واستخدام كل وسائل القمع الدموي مرات لا تحصى ضد الفكر الماركسي اضطرت الدولة في النهاية إلى أن تستسلم تماماً، وأصبحت اعتراضاتها عقيمة.

❖ | استسلام الدولة للماركسية..

وبعد أن استسلمت الدولة للماركسية بلا شروط في التاسع من نوفمبر عام 1918م، فإنها لن تستطيع أن تنهض مرة أخرى وتنتصر على الماركسية. ولكن على العكس، حيث يثرثر البرجوازيون السذج الجالسون على المقاعد الرسمية في الوزارات المختلفة حول ضرورة الحكم بما يتمشى مع إرادة "العمال"، والعمال المقصودون هنا هم "الماركسيون". فعندما يصمون العمال الألمان بوصمة الماركسية فإنهم لا يزورون الحقيقة فقط بل إنهم يحاولون إخفاء انهيارهم أمام الفكر الماركسي والمنظمة الماركسية.

وفي ظل الخضوع التام للدولة الجديدة للماركسية، تشعر الحركة القومية الاشتراكية بأن عليها ألا تعد الطريق لنشر أفكارها من خلال الانتشار في عقول العامة فقط بل عليها أيضاً أن تأخذ على عاتقها تنظيم دفاع يحميها من الإرهاب الدولي الذي يتأذى مما تحققه من نجاح.

وقد أوضحت كيف أن التجارب العملية قد أدت بحركتنا إلى وضع نظام للدفاع عن اجتماعاتنا. وقد أدى ذلك بالتدريج إلى وجود هيئة عسكرية مدربة على حفظ النظام تميل إلى أن تكون منظمة طبقاً لرتب كوادرها.

وهذا التكوين الجديد يشابه قوات الدفاع لكن ليس هناك أي مجال للمقارنة بينهما في الواقع.

❖ | قوات حفظ النظام..

فكما سبق أن قلت، لم تكن لهيئات الدفاع الألمانية أي أفكار سياسية محددة خاصة بها. فقد كانت مجرد هيئات للحماية المتبادلة. وقد تم تدريبها وتنظيمها بناء على ذلك، لذلك فهي تعتبر تكملة غير شرعية أو إضافية بجانب القوات الشرعية للدولة. كما أن كونها فيالق حرة نابع فقط من الطريقة التي تكونت بها ومن الموقف الذي وجدت الدولة نفسها فيه في ذلك الوقت. لكنها بالطبع لا تستطيع أن تدعي أنها فيالق حرة لأنها تكونت بكامل إرادتها لتحارب من أجل معتقداتها السياسية الحرة. لأنهم ليسوا كذلك. وذلك بالرغم من

أن بعض قاداتهم وهيئاتهم تعارض الجمهورية. وذلك لأننا قبل أن نتحدث عن المعتقدات السياسية بمعناها الأسمى يجب علينا أولاً أن يكون لدينا فكر أكثر من مجرد الاعتقاد بقصور النظام الحالي. حيث تعني تلك المعتقدات السياسية السامية أن الفرد لديه رؤية واضحة في ذهنه لنظام جديد ويشعر أن إنشاء هذا النظام ضرورة ملحة وأنه ينذر نفسه لتحقيق هذا الغرض الذي يعتبره مهمة سامية يمكن أن يكرس لها حياته.

وكانت قوات حفظ النظام التي كونتها الحركة القومية الاشتراكية في ذلك الوقت تختلف تماماً عن كل هيئات الدفاع الأخرى، وذلك لأنها لم تكن بغرض الدفاع عما حققته الثورة بل كانت لغرض الدفاع عن كفاحنا من أجل خلق ألمانيا جديدة.

وفي البداية لم تكن تلك القوة سوى حراس لحماية اجتماعاتنا. وكانت مهمتها الأولى تتحصر في تمكيننا من عقد الاجتماعات وبدونهم فقد يتمكن خصومنا من منع تلك الاجتماعات تماماً. وقد تدرب هؤلاء الرجال في ذلك الوقت على الهجوم فقط، ولم يتدربوا على استخدام العصي الغليظة أبداً مثلما ادعت بعض الدوائر السياسية الألمانية الغبية في ذلك الوقت. لكنهم استخدموها فقط لأنهم يعلمون أن من يعرض دعاية هذه الحركة قد يتلقى هجوماً بعصي مثلها. وفي الحقيقة يحدثنا التاريخ عن كثير من أصحاب العقول الكبيرة الذين هلكوا بضربات وجهها إليهم أفراد من عامة الشعب. ولم يكن حراسنا يعتبرون أن العنف غاية في حد ذاته بل كانوا يرون أنهم يحمون من يشرح مبادئ الحركة ومفاهيمها من العدو العنيف. كما فهموا أيضاً أنهم ليسوا في حاجة للدفاع عن الدولة التي لا تقدم أي حماية للأمة. ولكن على العكس تماماً، فعليهم أن يقاوموا من يهددون بتدمير الأمة والدولة.

وبعد القتال الذي حدث في اجتماع ميونخ والذي تمكن فيه عدد بسيط من حراسنا أن يحققوا شهرة كبيرة لما حققوه من بطولة في مفاجأة الخصوم بسرعة العاصفة، لذلك فقد سماوا بـ "كتيبة العاصفة"، وكما هو واضح من الاسم فهم مجرد كتيبة من كتائب الحركة، أي مجرد عنصر واحد من عناصرها الأخرى مثل الصحافة والدعابة والهيئات التعليمية وغير ذلك من قطاعات الحزب.

✦ | المتخاذلون..

وقد أدركنا ضرورة تكوين هذه الهيئة ليس فقط من خلال خبرتنا في عقد الاجتماعات الشهيرة، ولكن أيضاً عندما سعينا للخروج بالحركة من ميونخ والتوسع بها في أجزاء أخرى من ألمانيا. فبمجرد أن أصبحنا خطراً على الماركسية، لم تترك الماركسية أي فرصة لتحاول سحق كل استعدادات لعقد الاجتماعات الاشتراكية القومية. وعندما لم

يفلحوا حاولوا تخريب الاجتماع نفسه. ومما لا شك فيه أن المنظمات الماركسية على اختلاف أهميتها واتجاهاتها قد دعمت تلقائياً سياسة وأنشطة ممثليها في كل الأحوال. ولكن ماذا يمكن أن يقال عن الأحزاب البرجوازية التي تضطر إلى الصمت أمام الماركسية في العديد من الأماكن ولا تجرؤ على إرسال متحدثيها للظهور أمام الجمهور؟! لكنهم أظهروا سعادتهم الشديدة في كل مرة يحدث فيها ما يعوق تقدمنا أو نجاحنا في القضاء على الماركسية. لقد كانت الأحزاب البرجوازية سعيدة برؤية من لا يستطيعون مواجهتهم ويخضعون أمامهم تماماً وهم يستعصون علينا. ماذا يمكن أن يقال عن موظفي الدولة وقادة الشرطة وحتى الوزراء الذين أظهروا نقصاً مهيناً في وهم يقدمون أنفسهم أمام الشعب كـ"وطنيين" ثم يعملون كأتباع أمعاء للماركسيين في صراعهم معنا دون أي شعور بالخزي. ماذا يمكن أن يقال عن حقروا أنفسهم لهذه الدرجة في مقابل مدح شائن تكتبه عنهم الصحافة اليهودية، فهم يضطهدون الأبطال الذين لا يهابون أي مخاطرة وهم أنفسهم مدينون لهم لأنهم حموهم منذ عدة سنوات من الاجتياح الأحمر وكان بإمكانه أن يمزقهم تماماً ؟

فقد فصلت تلك الحركة الغربية "بونر" من عمله، وهو رجل مستقيم يكره كل الملتوين وهو يكرههم لأنه رجل مخلص، حيث قال : "أحب أن أكون ألمانياً أولاً ثم مسئولاً، كما أنني لا أحب أن أختلط أبداً بالكائنات التي تتاجر بنفسها لكل من يصيح سيد الموقف."

فقد كان من المحزن أن يتحول آلاف الأمعاء والمخلصين للدولة إلى أتباع لهؤلاء بل إنهم ثلوثوا أيضاً بمبادئ لا أخلاقية. بالإضافة إلى أنهم قد طاردوا المسؤولين الشرفاء بعباء واضح وخطوا من قدرهم وطردهم من مناصبهم، وبالرغم من ذلك يدعون أنهم "وطنيون" وذلك بمساعدة من ينافقونهم.

ونحن لا نتوقع أي دعم يقدمه مسئولون من هذا النوع، وهم لا يقدمونه إلا في حالات نادرة جداً. فحركتنا لا تستطيع تأمين نفسها إلا من خلال لفت انتباه عامة الناس والحصول على احترامهم كجماعة قادرة على الدفاع عن نفسها ضد أي هجوم.

❖ تطوير كتيبة العاصفة..

أما فيما يخص مبادئ التطوير الداخلي لكتيبة العاصفة، فقد قررنا ألا يكتفي تدريبهم بالكفاءة البدنية فقط لكن لابد عليهم أن يفهموا المبادئ والأفكار الاشتراكية القومية أيضاً كما عليهم أن يتعلموا طاعة أشد النظم. فهذه الكتيبة لا علاقة لها بما تقوم به الكتائب البرجوازية وليس لها أي علاقة بالمنظمات السرية.

وقد كانت الأسباب التي جعلتني حريصاً على ألا تبدو كتيبة العاصفة مجرد هيئة للدفاع عن حزب العمل الاشتراكي القومي الألماني كالتالي:

كان من المستحيل أن نقيم هيئة دفاع قومي من خلال الجهود الخاصة دون مساهمة الدولة فيها بقدر كبير. ومن يعتقد عكس ذلك يغالي في تقدير قدراته. فلم يعد من المقبول اليوم أن نكون أي هيئات عسكرية ذات قيمة ولغرض محدد طبقاً للمبدأ المسمى "نظام التطوع". فهذا يفتقر إلى مبادئ فرض الأوامر أو إنزال العقاب على الجنود. وفي خريف عام 1919م أو الربيع من نفس العام كان لا يزال من الممكن تكوين "كتائب تطوعية" وذلك ليس فقط بسبب أن أغلب البارزين من الرجال في ذلك الوقت كانوا من رجال الجيش القديم، ولكن أيضاً لأن هذا النوع من التجنيد كان يجبرهم على الطاعة المطلقة لفترة محددة من الوقت على أقل تقدير.

لكن كانت قوات التطوع تفتقد إلى الروح. وكلما زادت قوات الدفاع، أصبح نظامها ضعيفاً وتوقعنا القليل جداً من كل فرد منهم. كما بدأت تلك المنظمات بصورة عامة تخرج من مظهرها السياسي القديم وتعود إلى طبيعتها العسكرية التي اعتادتها أثناء الحرب.

وكان من المستحيل أن يتواصل التدريب العسكري لأعداد كبيرة إلا تحت يد قائد يملك كامل السيطرة عليهم. كما أن القليل من الرجال فقط هم من يتطوعون ويذعنون لهذا النوع من الطاعة التي تعتبر طبيعية وضرورية في الجيش.

وبالإضافة إلى أن نظام التدريب العسكري كان غير ممكن في ظل وجود إمكانيات ضعيفة تحت يد هذه الهيئات، كانت المهمة الرئيسية لتلك الهيئات هي أن تقدم للقوات أفضل أنواع التعليم وأكثرها ثباتاً. وقد مرت ثمان سنوات بعد انتهاء الحرب لم يؤد فيها أي من الشباب الألماني الخدمة العسكرية ولم يتلق أي تدريب على الإطلاق. كما أن الجندي الذي كان لا يزال شاباً عام 1918م لن يظل لائقاً للخدمة على الجبهة لمدة عشرين عاماً وكان كل ذلك يسبب التوتر. لذلك كان على هيئات الدفاع أن تفترض تزايد من سيأتيها من قدامى المحاربين.

وعلى ضوء كل ذلك فقد كانت كل محاولة إيجاد قوات قتالية تحقق فشلاً إن اعتمدت على ما سموه بالتدريب لمدة ساعة أو ساعتين مرتين في الأسبوع، وذلك دون أي قوة أمرة واضحة وبلا أي وسائل متاحة. فهذه الطريقة قد تساعد قدامى الجنود على استعادة لياقتهم السابقة لكنها لا تحول المتطوعين الجدد إلى جنود محنكين.

فكيف يمكن في ظل مثل تلك الظروف أن يتم تدريب عدة مئات من آلاف الرجال المخلصين على الدفاع وذلك في ظل الأوضاع القائمة من الطريقة العقيمة المستخدمة والصعوبات الكثيرة التي تواجه ذلك العمل. فالدولة تعلم شبابنا الأفكار الديمقراطية

والاستسلامية وتحرم الملايين والملايين من غريزتهم الوطنية وتسمم شعورهم الوطني وتحولهم تدريجياً إلى قطيع من الأغنام الذي يتبع في إذعان شديد كل ما يؤمر به من أوامر ملزمة. وهم بذلك يحقرون كل محاولات هيئات الدفاع لنشر الأفكار الوطنية في عقول الشباب.

والاعتبار التالي أشد أهمية، وقد جعلني أعارض كل محاولات ما يسمى بالتدريب العسكري القائم في هيئات التطوع.

فإذا افترضنا نجاح هيئات الدفاع - بالرغم من كل الصعوبات التي ذكرناها - في تدريب عدد معين من الألمان كل عام وجعلهم جنوداً أكفاء ليس فقط فيما يخص قدراتهم العقلية بل وقدراتهم البدنية وتعاملهم مع الأسلحة أيضاً، فالنتيجة الحتمية لن تكون سوى الفشل لأن ميول الدولة تجعلها لا تعتبر أي تكوين دفاعي غير مطلوب فقط لكنها تكرهه أيضاً، وذلك لأن مثل تلك الهيئات تتناقض تماماً مع الأهداف التي يسعى القادة السياسيون إلى تحقيقها، فهم من أفسد هذه الدولة.

ولكن على أي حال فإن هذه النتيجة لن تكون ذات فائدة في وجود حكومة أوضحت كل أفعالها أنها لا تهتم إطلاقاً بالقوة العسكرية للأمة ولا ترغب في السماح باللجوء إلى هذه القوة إلا في حالة كونها ضرورية لحماية وجودها الضار.

❖ الحق يأتي بالقوة..

وهذا هو حالنا اليوم. أليس من المخجل أن نفكر في تدريب عشرات الآلاف على استخدام السلاح وأن يستمر هذا التدريب سرياً، وذلك بالرغم من أن الأمة قد ضحت بثمانية ملايين ونصف المليون من الجنود ذوي التدريب العالي. وذلك لا يعني فقط أننا لم نعد بحاجة إلى خدماتهم ولكنه أيضاً علامة على الاعتراف بما قدموه من تضحيات فاستحقوا عنها خفضهم إلى تلك المنزلة المهينة لهم. فهل ندرب الجنود ليعملوا في نظام لوث أعظم جنودنا وبصق عليهم ومزق الميداليات والنياشين من فوق صدورهم وداس على أعلامهم وسخر مما حققوه من منجزات ؟ وهل أخذ النظام الحالي خطوة واحدة في اتجاه استعادة كرامة الجيش القديم وتقديم من حطموه واعتدوا عليه للمحاكمة ؟ لا... على العكس، فمن أشرت إليهم موجودون في أعلى مناصب الدولة اليوم، وكما قيل في لبزج : "الحق يأتي بالقوة." وفي دولتنا الحالية فإن القوة في أيدي من خططوا للثورة. وبما أن الثورة تعتبر أحقر أعمال الخيانة العظمى في حق الأمة - نعم إنها أسوأ حدث في تاريخ ألمانيا- فلا يمكننا أن نقول: إن قوة بهذه الصفة يمكن أن تتطور من خلال تكوين جيش فتي. فهذا ضد كل تفكير سليم.

إن الأهمية التي توليها هذه الدولة - بعد ثورة 1918م - لدعم موقفها من الناحية العسكرية واضحة جداً من خلال كل منظمات الدفاع في تلك الفترة. فقد كانت مقبولة طالما أنها ذات نفع في الحماية الشخصية للشخصيات البائسة التي تخدم الثورة.

لكن الخطر على تلك الشخصيات يزول كلما حطوا من قدر شعبنا. وبما أن تكوين هيئات الدفاع لم يعد مهماً في السياسة القومية فقد اعتبرت تلك الهيئات غير ضرورية. لذلك فقد بذلت كل الجهود الممكنة لنزع سلاحها ومحوها تماماً كلما كان ذلك ممكناً.

فإذا كانت الدولة الحالية يمكنها أن تستدعي القوات المدرية في يوم ما، فلن يكون ذلك بغرض الدفاع عن مصالح الأمة في مواجهة مصالح الدول الأجنبية ولكن لحماية طغاة الأمة داخل الوطن من أخطار اندلاع الغضب العام عليهم، فقد خدعت الأمة وضللت وانتهكت كل مصالحها.

ولهذا السبب فقد تقرر ألا تكون "كتيبة العاصفة" الخاصة بحزب العمل الاشتراكي القومي الألماني ذات طبيعة عسكرية. ومهمتها هي حماية الحركة القومية الاشتراكية وتعليم أفرادها. كما كان لابد أن تختلف واجباتها تماماً عن واجبات هيئات الدفاع.

وبالطبع كان لا يجب أن تبدو "كتيبة العاصفة" كهيئة سرية. فاليهيات السرية يتم تكوينها فقط لأغراض مخالفة للقانون. بينما الهدف من إنشاء هذه الهيئة محدود بطبيعتها. فإذا ما نظرنا إلى الطبيعة الثائرة للشعب الألماني فسند أن من المستحيل أن نقيم هيئة كبرى ونجعلها سرية ونعتم على الهدف منها أيضاً. فكل محاولة من هذا النوع تبوء بالفشل بلا شك. وذلك ليس لمجرد أن الشرطة لديها الآن موظفون مهمتهم التصنت بالإضافة إلى المستعدين للخيانة دائماً في مقابل ثلاثين قطعة من الفضة، فهم يفشون أي سر يكتشفونه ويخترعون أيضاً ما يحبون اكتشافه. ولكي نتدارك كل تلك الاحتمالات لم نطلب من أتباعنا التزام الصمت. فالمجموعات الصغيرة فقط تستطيع أن تكون سرية وذلك بعد سنوات طوال من الانتقاء. لكن صغر تلك المجموعات يحرمها من كل ما تتمتع به الحركة القومية الاشتراكية، وما كنا نحتاجه في ذلك الوقت ونحتاجه إلى الآن لا يتمثل في مائة أو مائتين من المتأمرين بل مائة ألف من المؤيدين المخلصين لمذهبنا الجديد. لذلك فإن العمل لا يتم من خلال اجتماعات سرية، ولكن من خلال تظاهرات جماعية عامة وضخمة. فالخنجر والمسدس وقنبلة السم لا يفسحون الطريق أمام تطور الحركة. فهذا التطور يحدث فقط من خلال رجل الشارع. ولابد من هزيمة الماركسية، وذلك حتى تصبح الاشتراكية القومية سيدة الشارع في المستقبل، كما ستصبح في يوم ما سيدة الدولة.

❖ | خطر الجمعيات السرية..

وهناك خطر آخر يرتبط بالجمعيات السرية، وهو يكمن في أن أعضاءها يخطئون في فهم عظمة المهمة الملقاة على عاتقهم باعتقادهم أن عملية اغتيال واحدة قد تنقذ الأمة. وقد يجد هذا الاعتقاد مبرراته التاريخية عندما عانت الأمم من طغيان فرد واحد يتصف بالعبقرية، والذي تضمن له شخصيته الفذة ثبات مركزه مما يمكنه مواصلة الظلم. ففي مثل تلك الحالات قد يخرج من بين صفوف الشعب رجل مستعد للتضحية بنفسه ويقتل ذلك الفرد الظالم المكروه.

وخلال عامي 1919 و1920م كان يخشى أن يقوم رجال الجمعيات السرية بعد تأثرهم بالأمثلة التاريخية العظيمة، فتسيطر عليهم فداحة مأساة الأمة ويحاولون الانتقال ممن حطموا بلادهم وهم يعتقدون أن ذلك سينهي مأساة الشعب. وكل هذه المحاولات ليست سوى حماقة كبرى، وذلك لأن ما حققته الماركسية من نصر لم يكن بسبب عبقرية رجل واحد بارز ولكنه بسبب تخاذل وجبن الطبقة البرجوازية وضعفها. وأقصى ما يمكن قوله من نقد للطبقة البرجوازية هو أنها استسلمت للثورة، وذلك بالرغم من أن الثورة لم تفرز رجلاً بارزاً واحد يستحق الشهرة. وقد يكون من المبرر أن تستسلم الطبقة البرجوازية أمام قوة قاهرة، لكن ليس من المعقول أن تقف على قدميها ويديها أمام قوة ذابلة مثل السيد/ اريزبرجر فريدريك ابرت السمين وغيره من دمي سياسة الثورة. فلم يكن هناك شخص لافت يمكن اعتباره رمزاً للثورة وعبقريتها. ولسوء حظ الأمة لم يكن هناك سوى حشرات وشخصيات منفرة بالجملة والقطاعي. والنتيجة الوحيدة لمحاولة الاغتيال هذه أن يأتي اثنان من مصاصي الدماء في مثل سمنته وتعطشه ليحلوا محله.

وخلال تلك السنوات كان علينا أن نتخذ موقفاً ثابتاً ضد فكرة مستمدة من التاريخ بما فيه من أحداث عظيمة، لكنها لا تشبه وضعنا الحالي من أي جهة.

❖ | الخونة الصغار.. والخونة الكبار!

ونفس الإجابة تواجهنا عند التحدث في موضوع التخلص ممن خان الوطن. فمن الحق والسخف أن نطلق النار على شخص حقير⁽¹⁾ نقل معلومات عن مواقع الذخيرة إلى العدو بينما انشغل كبار رجال الحكومة في المفاضلة على مستقبل الإمبراطورية، دون أن يتأثروا بموت مليونين من الرجال الذين ضحوا بحياتهم من أجل الوطن والمسؤولين عن تشويه ملايين آخرين في الحرب ممن يتكسبون من النظام الجمهوري دون أن تشعر

(1) يشير هنا إلى العملاء الذين قدموا معلومات لقوات الحلفاء عن مواقع المخازن السرية للأسلحة في ألمانيا.

نفوسهم بأي نوع من الألم. فمن العبث أن ننتقم من كل الخونة الصغار في دولة برأت كل كبار الخونة وحمتهم من أي عقاب.

فأنا شخصياً لا أجد أي ضرورة لإعدام صغار اللصوص بينما ينعم كبارهم بالحرية والحركة. ولا بد أن يأتي يوم يحاكم فيه عدة آلاف من المسؤولين عن خيانة نوفمبر وما تبعها من آثار أمام محكمة وطنية. وسيكون ذلك درساً ضرورياً لكل من خان وأعلن للعدو عن أماكن إخفاء الأسلحة.

وبناء على تلك الاعتبارات فقد منعت تماماً الاشتراك في أي جماعات سرية، وحرصت على ألا تتصف "كتيبة العاصفة" بهذه الصفة. وقد حرصت على بقاء الحركة الاشتراكية القومية خلال تلك الأعوام بعيدة عن تلك التجارب التي يقوم بها شباب ألماني يحلم بالمثالية لكنه يصبح ضحية لما جنت يداه، وذلك لأنهم لم يستطيعوا العمل لصالح الوطن. وبما أن كتيبة العاصفة ليست عسكرية ولا منظمة سرية، فلا بد إذن من النتائج التالية :

1- ليس لها أن تتدرب بطريقة عسكرية ولكن بطريقة عملية تتناسب مع أهداف الحزب. فلا بد للأعضاء من تدريب بدني جيد، وألا تعطى أي أهمية للتدريبات العسكرية بل يتم التركيز على التدريبات الرياضية.

❖ | اللياقة البدنية أفضل من التدريب العسكري السيئ!

وكنتم دائماً اعتبر أن الملاكمة وفن الدفاع عن النفس أهم بكثير من التدريب السيئ - المعتاد - على استخدام البندقية. فإذا ما مثل الأمة الألمانية مجموعة من الشباب المدرب رياضياً ممن تشربوا بحب الوطن والاستعداد للقتال من أجله، فإن الدولة يمكنها أن تصنع منهم جيشاً في خلال عامين إن احتاجت لذلك بالإضافة إلى أن هناك كوادرات موجودة بالفعل. ومن الممكن لمجلس الشورى أن يقدم الكوادرات على أي حال، لكنها لا تأتي من خلال منظمات الدفاع بأي طريقة. والكفاءة البدنية تجعل الفرد مقتنعاً بتفوقه وتزوده بقوة تقوم على الوعي بما لديه من قوى. كما أن ذكاءهم يزداد بالطبع ويمكن الاستفادة به كسلاح دفاعي يخدم الحركة.

❖ | الزري الموحد لكتائب العاصمة..

2- ومن أجل حماية "كتيبة العاصفة" من أي ميول للتكتم، لم يكن الزري الموحد لها فقط هو ما يعلن عن شخصيتها أمام الجميع ولكن كان لتأثيرها المتعدد أثر على توضيح اتجاه الحركة وكان ذلك معروفاً عند العامة.

وكان على أعضاء "كتيبة العاصفة" ألا يعقدوا اجتماعات سرية، بل يسرون علانية، وبذلك يضعون بأفعالهم حداً لكل أساطير المنظمات السرية. وحتى يمكنهم من الابتعاد عن الاشتراك في مؤامرات صغيرة منذ البداية كان علينا أن نضع في رؤوسهم الأفكار العظيمة للحركة ونلقنها لهم بقوة حتى يدافعوا عن هذه الأفكار التي توسع أفقهم، وبهذه الطريقة يصبح الكفاح ضد الدولة الحالية موضع خطة كبرى أكبر من مجرد الانتقام والمؤامرات الصغيرة. وهكذا نرقي إلى مستوى الكفاح الروحي دفاعاً عن مذهبنا ومن أجل القضاء على الماركسية بكل صورها وأشكالها.

3- كان على الخطة المتبعة في تكوين "كتائب العاصفة" وزيتها وأعدادها أن تستخدم طرقاتاً مختلفة عما كان يحدث في الجيش القديم. وكان عليها أن تناسب كل مطالب المهمة المنوطة بـ "كتائب العاصفة".

وقد نفذت تلك الأفكار في عامي 1920-1921م. وقد سعت جاهدة لأدخلها تدريجياً في رؤوس الأعضاء الجدد في الحزب من الشباب. وبحلول منتصف صيف عام 1922م كان لدينا عدد كاف من التشكيلات التي تتألف كل منها من مائة رجل. وفي نهاية الربيع من نفس العام تسلمت تلك التشكيلات زيتها الموحد.

وكان هناك ثلاثة أحداث مهمة أثرت على ما تلى ذلك من تطورات لقوات العاصفة:

❖ | ثلاثة أحداث مهمة:

1- المظاهرة الكبرى ضد قانون حماية الجمهورية.

وقد قامت هذه المظاهرة في أواخر صيف عام 1922م في ميونخ، وقامت بها كل الجماعات الوطنية. وقد شاركت فيها الحركة القومية الاشتراكية أيضاً. فقد مرت المسيرة من أمام الحزب واحتوت على مائة رجل من كل فرقة وذلك من ست فرق موجودة في ميونخ ثم تتبعهم الكوادر السياسية للحزب. وسارت معنا مجموعتان لرفع خمسة عشر علماً. وعندما وصلت الحركة الاشتراكية القومية عند الميدان الكبير كان ممثلاً لكن لم تكن هناك أي أعلام. وقد أثار دخولنا حماس شديد. وقد تشرفت بأن أكون أحد الذين تحدثوا أمام حوالي ستين ألف شخص.

وقد حققت المسيرة نجاحاً هائلاً، وذلك لأنها أثبتت أن الوطنيين في ميونخ يمكنهم عمل مسيرات في الشوارع بالرغم من كل تهديدات الحمر. وقد حاول أعضاء قوات الدفاع الجمهوري بكل طاقاتهم أن يمنعوا المسيرة لكن فرق قوات العاصفة فرقتهم خلال دقائق قليلة، فهربوا من المكان ورؤوسهم تتزف. وقد أثبت ذلك حقنا في مسيرات الشوارع في المستقبل، ولم يعد الحمر الخونة أعداء الوطن وحدهم هم من يحتكر هذا الأمر.

وكان ذلك اليوم دليلاً قاطعاً على أن فكرة تكوين قوات العاصفة كانت صائبة من الناحية النفسية وناحية الإعداد والتنظيم.

وبناء على هذا النجاح ، تزايد عدد المدرجين في الفرق في ميونخ فتضاعف العدد في كل فرقة كانت مكونة من قبل من مائة فرد.

2- حملة "كوبرج" في أكتوبر عام 1922م.

فقد قررت جمعيات شعبية ألمانية محددة أن تقيم يوماً ألمانياً في "كوبرج". ودعيت للمشاركة، وطلبوا مني أن أحضر معي بعض المؤيدين. وقد وصلتني الدعوة في الوقت المناسب وهو الحادية عشر صباحاً. وخلال ساعة واحدة كانت مباحثاتنا حول الاشتراك في ذلك التجمع قد انتهت. اخترت ثمانمائة رجل من "كتائب العاصفة" ليرافقوني. وقد قسموا إلى حوالي أربعة عشر مجموعة، وكان لابد من نقلهم في قطار خاص من ميونخ إلى "كوبرج" التي كانت قد انتهت لتوها من التصويت على التحاقها بـ "بافاريا". كما صدرت الأوامر بالتحرك لعدد من فرق العاصفة في مناطق أخرى.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يسير فيها قطار خاص في ألمانيا. وكان القطار يحدث ضجة في كل الأماكن التي مر بها لأن أفراد الكتائب كانوا يلحقون بنا في تلك المحطات. وكان هناك أفراد من الشعب ممن لم يروا علمنا من قبل. وقد أحدث ذلك الحدث تأثيراً كبيراً.

وعندما وصلنا إلى محطة "كوبرج" استقبلنا مندوبي اللجنة المنظمة لليوم الألماني. ثم أعلنوا أن هذا اليوم تم تنظيمه بناء على أوامر من اتحادات العمال المحلية - أي الأحزاب الشيوعية المستقلة - وأنه ليس لنا أن ندخل المدينة وأعلامنا مرفوعة وفرقتنا تعزف الموسيقى (كان معنا فرقة موسيقية مكونة من اثنين وأربعين عازفاً)، كما ليس من حقنا أن نسير في صفوف قريبة من بعضها البعض.

رفضت تلك الشروط على الفور وأعلنت تعجبي ممن نظموا هذا اليوم لأنهم بحثوا الأمر مع تلك الاتحادات ووصلوا إلى اتفاق معهم، ثم أعلنت أن كتائب العاصفة ستسير في الشوارع في مجموعات وراياتنا مرفوعة وموسيقانا تعزف. وهذا ما حدث.

وعندما اقتربنا من المحطة قابلنا عدة آلاف من الغوغاء وهم يصيحون: "قتلة ... لصووص ... قطاع طرق ... مجرمون". وكان ذلك هو السباب الذي يطلقه علينا مؤسسو الجمهورية الألمانية. وقد أظهر رجال كتائب العاصفة أنهم مثال للنظام. فقد كونا مجموعات في الميدان في مواجهة المحطة ولم ينتبهوا في البداية إلى السباب الذي انهمال عليهم من الغوغاء. وكان رجال الشرطة متحفزين، فلم يوجهونا إلى الأماكن المقرر لنا أن نسير إليها في ضواحي "كوبرج"، وهي مدينة لا نعرف شوارعها على الإطلاق. وتزايد

الغوغاء على يمين ويسار مسيرتنا باستمرار. وقد تمكنت آخر مجموعة من رجالنا من دخول قاعة الاحتفال عندما اندفع خلفهم حشد من الغوغاء وهم يهتفون بجنون. وحتى يُمنع ذلك الحشد، فقد أغلقت الشرطة البوابات. ولما رأيت أن الموقف صعب طلبت من كتائب العاصفة أن تنتبه وطلبت من رجال الشرطة فتح البوابات فوراً. وقبلوا ذلك بعد أن ترددوا لفترة قصيرة.

نحن الآن نسير في عكس الاتجاه الذي قدمنا منه في طريق العودة، وكان علينا أن نقف أمام الحشد. ولم تفلح صيحاتهم ولا صرخاتهم في إثارة الفرق. ثم بدأ أبطال الحرية والاشتراكية والعدالة والأخوة في إلقاء الحجارة. ففضى ذلك على صبرنا. فتلقينا الضربات يمينا ويساراً لمدة عشر دقائق فكانت مثل العاصفة. وبعد خمس عشرة دقيقة لم يكن هناك أي حُر في الشارع.

وكانت الصدمات التي حدثت مع قدوم الليل أكثر شدة. فقد اكتشفت دوريات قوات العاصفة وجود أفراد من "الاشتراكيين القوميين" فتمت مهاجمتهم فردياً وأصيبوا بجراح. وفي الصباح كانت "كوبرج" قد تخلصت تماماً من كل الإرهاب الذي عانت منه لسنوات.

❖ | سحق الإرهاب الأحمر..

وطبقاً للطريقة الماركسية واليهودية، وزعت النشرات والمطويات في الشوارع، وكانت تحمل عنوان "الرفقاء والرفيقات من طبقة العمال". وكانت تلك المنشورات والمطويات تهدف إلى إثارة سخط وحنق العامة. وبعد تزييف الحقائق تماماً، أعلنوا أن عصابات الاغتيال الخاصة بنا قد بدأت حرباً ضد عمال "كوبرج" المسالمين. وكان من المقرر أن تكون هناك مظاهرة شعبية كبرى في الواحدة والنصف من ظهر ذلك اليوم. وكنا نأمل أن يغير كل العمال في المنطقة رأيهم خلال تلك المظاهرة. فقد قررت أخيراً أن أسحق هذا الإرهاب الأحمر، لذلك فقد طلبت الاجتماع بكتائب العاصفة عند الظهر. وكان عددهم قد زاد أصبحوا ألف وخمسمائة. فقررت أن أسير بينهم إلى موقع احتفال "كوبرج" وأن نعبر الميدان الكبير حيث تحتشد مظاهرة الحُر. فقد كنت أود أن أعرف هل سيهاجمونا من جديد أم لا. وعندما وصلنا إلى الميدان لم نجد سوى عدة مئات فقط بدلاً من عشرة آلاف تم الإعلان عنهم. وكانوا صامتين ونحن نتقدم وكان بعضهم يهرب. وعندما وصلنا إلى نقطة محددة بدأ بعضهم - وكانوا قد وصلوا للتو من خارج المدينة - في السباب. لكن عدة لكمات جعلتهم يهربون. وهكذا لاحظت أن هذا الجمع البائس قد استعاد شجاعته بعد أن كان يائساً لفترة طويلة. فرحبوا بنا علانية. وفي المساء وفي مسيرة العودة صدرت عنهم صيحات ابتهاج عفوية في عدة أماكن مررنا بها.

وفي المحطة أخبرنا موظف السكك الحديدية فجأة أن قطارنا لن يتحرك. لذلك أرسلت

إلى زعماء الفتنة وأبلغتهم أنه إن حدث ذلك ولم يتحرك القطار سنقبض على كل من يقع في يدينا من أبطال الحزب الأحمر وأنا سنقود القطار بأنفسنا، لكننا سنصطحب معنا في عرباته عشرات من الأخوة أعضاء الحزب الدولي. كما أخبرتهم أننا إن سرنا بالقطار فقد تكون الرحلة خطيرة ونلقى حتفنا جميعاً. لكننا لن نذهب إلى الأخيرة بمفردنا، لكن سيكون معنا إخوة من الحزب الأحمر.

لذلك فقد تحرك القطار في موعده، ووصلنا إلى ميونخ في صباح اليوم التالي سالمين غانمين.

وهكذا - وفي كوبرج - ومنذ عام 1914م أعيد التأكيد على تساوي الجميع أمام القانون. فإذا ما أكد أحقق من كبار المسؤولين أن الدولة تحمي حياة مواطنيها، فإن الأمر لم يكن كذلك في تلك الأيام على الأقل. وذلك لأن المواطنين في تلك الفترة كانوا يضطرون للدفاع عن أنفسهم بمواجهة من يمثلون الدولة.

وفي البداية لم يكن من الممكن تحديد نتائج ذلك اليوم. فقد أكدت قوات العاصفة ثقتها في نفسها بدرجة كافية، كما تأكدوا من حكمة قاداتهم. وبدأ من حولنا يهتمون بنا بشدة ولأول مرة اعتبر الكثيرون أن الحركة الاشتراكية القومية هي المنظمة التي يمكنها القضاء على الحماقة الماركسية تماماً.

لكن الديمقراطيين انتقدونا لأننا لم نتحل بالصبر وننتظر حتى تنتهش رؤوسنا، وأننا جرونا أن نستخدم قبضاتنا والعصي في هجمات وحشية في جمهورية ديمقراطية بدلاً من اللجوء إلى الأناشيد السلمية !!

وكانت الصحافة البرجوازية حزينة كالعادة. لكن عددًا قليلاً من الصحف المحترمة أعلنت عن رضاها عن حسن التعامل مع الإرهاب الماركسي في الشارع في إقليم واحد على الأقل.

وفي "كوبرج" نفسها أدرك جزء من العمال الماركسيين أنهم مضللون وأن الكلمات التي وجهها إليهم أنصار القومية الاشتراكية توضح أنهم يدافعون عن المثل، وذلك لأن التجربة تقول أن الإنسان لا يقاتل إلا من أجل ما يؤمن به ويحبه.

❖ وبدأت القلاع الحمر في السقوط..

وقد استفادت كتائب العاصفة من أحداث كوبرج. فقد تزايدت أعدادهم بسرعة، وفي اجتماع الحزب في يناير عام 1923م شارك ستة آلاف رجل في احتفال ظهور العلم، وارتدت أولى الفرق الزي الموحد الجديد.

وقد أثبتت تجربتنا في كوبرج ضرورة وجود زي موحد لكتائب العاصفة، وذلك ليس فقط بغرض رفع الروح عند تلك القوات، ولكن لتجنب الارتباك وصعوبة التفريق بين الخصم والزميل عند حدوث تشاجر. فحتى ذلك الوقت كانوا لا يرتدون سوى الواقيات فقط، لكنهم يرتدون الآن السترة والكاب المميز أيضاً.

لكن تجربة كوبرج نتج عنها أيضاً نتائج مهمة. فقد قررنا أن نقضي على الإرهاب الأحمر في كل الأقاليم التي منعوا فيها كل أصحاب الرأي المخالف من عقد الاجتماعات لعدة سنوات. كما قررنا استعادة حق حرية الاجتماعات. ومنذ ذلك الوقت بدأنا في جمع كتائبنا معاً في تلك الأماكن وبدأت القلاع الحمر في السقوط تدريجياً في بافاريا أمام الدعاية الاشتراكية القومية واحدة تلو الأخرى. كما أصبحت قوات العاصفة أكثر مهارة في أداء مهمتها. وتزايدت قدرتها على الدفاع القوي وأصبحت مثلاً للمنظمة العسكرية الفعالة التي تحارب من أجل إيجاد دولة ألمانية جديدة.

❖ | حدث جلل: الفرنسيون يحتلون «رور»:

واستمر هذا التطور حتى مارس من عام 1923م. ثم وقع حدث جعلني أغير اتجاه الحركة وأجري بعض التغييرات في تكوينها الخارجي.

ففي الشهور الأولى من عام 1923م احتل الفرنسيين إقليم "رور". وقد كان لذلك آثار كبيرة على تطوير كتائب العاصفة.

ولا يزال من المستحيل أن نكتب أو نتكلم علانية في هذا الموضوع. لذلك فإنني سأحدث عنه بصراحة وعلانية قدر الإمكان حتى يعرفه الجميع.

سمح احتلال إقليم "رور" - الذي لم يكن مفاجأة لنا - بإمكانية تخلي ألمانيا عن سياسة الجبن والاستسلام وذلك بتحديد مهمة تقوم بها هيئات الدفاع. كما يجب ألا تستثنى كتائب العاصفة أيضاً من تلك المهمة القومية. وخاصة بعد أن زادت أعدادها وأصبحوا عدة آلاف من الشباب القوي النشط. وخلال صيف وربيع عام 1923م تم تحويل قوات العاصفة إلى هيئة عسكرية. وبناء على ذلك يمكننا أن نتناول ما وقع من أحداث أثرت على حركتنا خلال عام 1923م.

وسوف أتناول في موضع آخر ما حدث في عام 1923م بالتفصيل. لكنني أود أن أقول هنا: إن قرار تحويل قوات العاصفة إلى هيئة عسكرية كان لابد أن يتمشى مع اهتمامات الحركة. وفي حالة ما إذا تعذر التنفيذ، فلا بد من إعلان المقاومة الفعالة ضد فرنسا.

كانت الأحداث التي وقعت في نهاية عام 1923م⁽¹⁾ - وهي مفزعة بالطبع - ضرورة إذا نظرنا إليها من بعيد. فإذا نظرنا إلى الموضوع من وجهة نظر الحكومة الألمانية فإن تحويل قوات العاصفة إلى قوات عسكرية لا معنى له وبالتالي فإنه ضار بالحركة لذا فلا بد من القضاء على الحركة بضربة واحدة. وفي نفس الوقت يُسمح لنا بإعادة تكوين الحركة مرة أخرى بمجرد تحقيق الهدف المنشود وهو خروج الحركة عن مسارها الصحيح.

وفي عام 1925م أعيد تكوين حزب العمل الاشتراكي القومي، وكان عليه أن ينظم قوات العاصفة من جديد ويديرها وذلك طبقاً للمبدأ الذي وضعته بنفسه. أي أن على تلك القوات أن تعود إلى الفكرة الأساسية وتعتبر نفسها مسئولة عن الدفاع عن الحركة ودعمها من أجل إرساء مثلها وقيمها.

كما كان من الواجب ألا نسمح بتراجع كتائب العاصفة إلى مستوى هيئات الدفاع أو الجمعيات السرية. وكان لابد من اتخاذ كل الخطوات التي تجعلها طليعة لجيش يتكون من مائة ألف رجل يدافع عن الأهداف الاشتراكية القومية القائمة على مبادئ دولة الشعب.



(1) أصيب هتلر في فقرات العنق أثناء تظاهرة ضد الاحتلال الفرنسي وكان بصحبة "لودندورف"، وألقي القبض على هتلر وحكم عليه بالسجن وأوقفت الحركة ومنعت أنشطتها في جميع أنحاء ألمانيا.



قناع الفيدرالية^[1]

في شتاء عام 1919م وربيع وصيف عام 1920م شعر الحزب الشباب أن عليه أن يتخذ موقفاً قاطعاً في مسألة أصبحت خطيرة جداً أثناء الحرب. وفي الجزء الأول من هذا الكتاب، سجلت باختصار بعض الحقائق التي شاهدها شخصياً والتي أذرت بتفكك ألمانيا. وقد أشرت في شرح تلك الحقائق إلى الطبيعة الخاصة للدعاية التي وجهتها كل من بريطانيا وفرنسا تجاه أحداث التوتر التي كانت موجودة بين شمال وجنوب ألمانيا. وفي ربيع عام 1915م ظهرت أول سلسلة منشورات لإثارة المشاعر ضد بروسيا على أنها مسئولة عن الحرب، وحتى عام 1916م تطور هذا الأسلوب الخبيث واكتمل تماماً بطريقة خبيثة ووقحة. ومن خلال اللجوء إلى الغرائز البشرية سعت تلك الدعاية إلى إثارة الغضب في جنوب ألمانيا ضد شمالها. وبعد فترة قصيرة أثمرت تلك الطريقة. فقد استحق أفراد في الحكومة والجيش التوبيخ - وخاصة من المسؤولين عن مقاطعة بافاريا - لأنهم أهملوا واجباتهم وفشلوا في اتخاذ الخطوات الضرورية لمواجهة تلك الدعاية. لكنهم لم يفعلوا أي شيء. وعلى العكس، ففي بعض الأماكن رحبوا بتلك الدعايات وكانوا قصار النظر لدرجة أنهم فكروا أن تلك الدعاية يمكن أن تساعد على توحيد ألمانيا وأنها ستؤدي إلى تماسك القوى الفيدرالية. ولم يحدث في التاريخ مثل هذا الإهمال. فقد أثر إضعاف بروسيا - الذي توقعوا له أن ينتج عن الدعاية - على كل أنحاء ألمانيا. كما نتج عنه الإسراع في الانهيار الذي لن يجتاح بروسيا فقط ولكن كل الولايات الفيدرالية أيضاً.

❖ | الوباء الدولي.. وسلب الغنائم..

وكان من الخطأ أن نقول: إن الدعاية التي قام بها العدو هي المسئولة وحدها عن إيجاد شعور معاد لبروسيا وأنه لا توجد أي أسباب تجعل الشعب ينصت إلى تلك الدعاية. فقد أدت هذه الطريقة الغريبة التي أدير بها أمور الاقتصاد في الدولة أثناء الحرب ونظام المركزية المفرطة إلى تنامي الشعور العدائي ضد بروسيا. وقد كان المواطن العادي يرى أن كل الشركات التي توقع عقود الحرب تقع مكاتبها الرئيسية في برلين. ولم يكن

(1) الفيدرالية: نظام للحكم تتمتع فيه كل ولاية بحكومة محلية تتولى شئونها الداخلية لكن جميع الولايات تخضع لحكومة مركزية تتولى تحديد السياسة العامة للدولة.

المواطن العادي يعرف أن شركات اللصوصية والتي سميت شركات الحرب لم تكن ملكاً لبرلين أو بروسيا ولم تكن ملكاً لألمانيا على الإطلاق. كان الناس يوجهون أنظارهم فقط إلى تزايد المخالفات والتجاوزات لتلك الهيئات المكروهة في العاصمة، فوجهوا كل غضبهم إلى برلين وبروسيا، وفي أقاليم محددة (الحكومة البافارية) لم يحدث أي شيء لتصحيح ذلك الاتجاه، بل كانوا يرحبون به ويفركون أيديهم تحفراً.

لم يفهم اليهودي أن الحملة المشينة التي أعدها - تحت عباءة شركات الحرب - نسلب الغنائم من الأمة الألمانية لابد أن تواجه معارضة. لكنه لم يخف لأن المعارضة لم تواجهه على الفور. لذلك فقد قرر أن أفضل طريقة لإشعال غضب الجماهير هي استفزازهم وإيجاد مخرج آخر لهذا الغضب في نفس الوقت.

لنجعل بافاريا في نزاع مع بروسيا قدر الإمكان، وبروسيا في نزاع مع بافاريا. وكلما زاد النزاع كلما كان ذلك أفضل. فهذا النزاع المرير بين الولاياتين يضمن أمن اليهودي. وبهذا يتم تحويل انتباه العامة تماماً عن الوباء الدولي الذي يستشري في جسد الأمة، وقد كان من الواضح أننا نسيناه تماماً.

وقد كانت مناورة ذكية وعالية الكفاءة من اليهودي، فقد تمكن من أن يجعل الأفرع المختلفة للشعب الألماني في نزاع مع بعضها البعض وبذلك ضمن أن يبعد انتباههم عنه فاستطاع أن يسلب منهم بذلك الكثير من الغنائم. ثم قامت الثورة.

حتى عام 1918م أو حتى نوفمبر من ذلك العام، كان المواطن الألماني العادي وبخاصة مواطن الطبقة المتوسطة الأقل تعليماً، وكذلك العمال لا يفهمون جيداً ماذا يحدث. ولم يدركوا ما يجب أن تكون عليه التوابع الحتمية لهذا الصراع البغيض بين فئات الشعب الألماني وبخاصة في بافاريا. ولكن على الأقل كان يجب على تلك القطاعات التي أدعت أنها قومية أن تفهم تلك التوابع في اليوم الذي قامت فيه الثورة.

❖ «كيرت إيزنر» اليهودي الغامض في بافاريا:

ففي لحظة نجاح الانقلاب نصَّب القائد والمنظم للثورة في بافاريا نفسه كمدافع عن مصالح بافاريا. وبدأ اليهودي "كيرت إيزنر" في لعب المباراة الفاصلة لبافاريا ضد بروسيا. إن هذا الشرقي هو آخر من يمكن أن يشار إليه في العالم على أنه المدافع عن مصالح بافاريا. فقد تجول من مكان إلى مكان بسبب مهنته كمراسل صحفي في جميع أنحاء ألمانيا. لذلك فهو لا يهتم ببافاريا أو أي منطقة أخرى من العالم.

وبإعطاء الثورة في بافاريا صفة العدوانية ضد بروسيا فإن "كيرت ايزنر" لم يكن يعمل من أجل مصالح بافاريا، ولكنه كان مجرد ممثل مفوض لليهودية استغل الغرائز الفطرية الموجودة والكراهية في بافاريا كوسيلة تساعد في تمزيق أوصال ألمانيا بطريقة أسهل. وبمجرد أن تتمزق الأوصال تقع الدولة الألمانية فريسة سهلة للبشافية.

وقد استمرت الخطط التي وضعها لفترة بعد وفاته، وقد لجأ الماركسيون - الذين يهزأون دائما بولايات الدولة الألمانية وأمرائها ويستغلون الغرائز والعواطف ذات العلاقة القوية بالأسر الحاكمة وذلك على اعتبار أنهم "حزب مستقل".

وقد قدمت الحرب التي شنتها الجمهورية السوفيتية البافارية ضد الفرق العسكرية التي أرسلت لتحرير بافاريا من قبضتها والتي يمثلها دعاة الماركسية على أنها كفاح للعمال البافاريين ضد "بروسيا العسكرية". وهذا يفسر أن القضاء على الجمهورية السوفيتية في ميونخ⁽¹⁾ لم يكن له نفس الأثر مثلما حدث في بعض الولايات الألمانية الأخرى. فبدلاً من أن يؤدي ذلك بالجماهير إلى التعقل والهدوء، فقد أدى إلى زيادة الأسى والغضب ضد بروسيا.

أتى ما فعلته البشافية من عرض موضوع القضاء على الجمهورية السوفيتية البافارية على أنه نصر للعسكرية البروسية على حساب الشعب البافاري بثماره. ففي انتخابات المجلس التشريعي البافاري لم يكن لـ"كيرت ايزنر" عشرة آلاف مؤيد في ميونخ وكان مناصرو الحزب الشيوعي أقل من ثلاثة آلاف، وبعد سقوط الجمهورية البافارية زادت الأصوات التي حصل عليها الحزبان معاً إلى ما يقرب من مائة ألف صوت.

وفي ذلك الوقت بدأت أقاوم الصراع المجنون القائم بين قطاعات الشعب الألماني ضد بعضها البعض.

❖ المهمة الصعبة..

وأنا أعتقد أنني لم أقم في حياتي بأي مهمة أصعب - من ناحية تقبل الشعب لها - من مهمة موقفي لمواجهة العداء ضد بروسيا. وقد عقدت اجتماعات عامة كثيرة أثناء فترة النظام السوفيتي في ميونخ وفي أثناء تلك الاجتماعات ظهر العداء ضد بقية أجزاء ألمانيا وبخاصة بروسيا، وقد تزايدت الحدة في تلك الاجتماعات لدرجة أن الألماني الشمالي كان يخاطر بحياته إن حضر مثل تلك الاجتماعات. وكانت تلك الاجتماعات عادة ما تنتهي

(1) ميونخ: عاصمة ولاية بافاريا. (الناشر).

بصيحات عدائية مثل: "ابتعدوا عن بروسيا." "تسقط بروسيا." "حاربوا بروسيا" وغير ذلك. وقد كان هذا الشعور واضحاً في البرلمان من أحد المدافعين عن سيادة بافاريا، حيث قال: "أفضل الموت كبافاري على أن أتعفن بكوني بروسى."

وكان يجب على أن أحضر بعض اجتماعات تلك الفترة لكي أفهم معناها، وفي أحد الاجتماعات رفعت صوتي ضد هذا السخف وكان معي رفاق الحرب. وكان من السهل أن نتخيل كيف وصل هذا الحشد الجبان النائر إلى قمة الغضب وزأر في وجوهنا وهدد بقتلنا. وفي الوقت الذي كنا نحارب فيه من أجل الوطن، كان هذا الحشد يخبئ في مكان آمن هنا أو هناك أو يتجول في البلاد بعد هروبه من الجندية. لكن هذا الشعور تحول ليصبح ميزة عندي، حيث شعر رفاقي القليلون لأول مرة أنهم متحدون معي تماماً وأقسموا على البقاء بجانبني في الحياة والموت.

وقد بدت تلك النزاعات المتكررة في عام 1919م أكثر عنفاً مع بداية عام 1920م. وكانت هناك اجتماعات - وخاصة اجتماع أتذكره وكان في قاعة "قاجنر" في ميونخ - وكان رفاقي قد زادوا في ذلك الوقت وكان عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم ضد هجمات يقوم بها أشرس الناس.

وقد استمرت الحركة الشبابية في مواصلة الصراع الذي بدأته - في البداية بمفردي ثم مع بعض الرفاق بعد ذلك - وكانوا يعتبرونها مهمة مقدسة.

وأنا فخور اليوم لأنني أستطيع أن أقول: إننا وبالاعتماد حصرياً على أنصارنا في بافاريا كنا مسؤولين عن وضع حد - ببطء وتأن - لتحالف الحماققة مع الخيانة. وأنا أقول "حماققة وخيانة" وذلك لأنني مقتنع بأن الجماهير التي أيدت تلك الخيانة لم تكن سوى مجرد مجموعة أغبياء، لكني لا يمكنني استخدام هذا الأسلوب المخفف مع من قاموا بالتنظيم والتحرير. لذلك فقد كنت في ذلك الوقت - ولا زلت - أعتبرهم خونة مرتششين من فرنسا. وقد أصدر التاريخ حكمه في حالات مماثلة مثل حالة "دورتن".

وقد أصبح الموقف خطيراً بصفة خاصة عندما أصبحوا خبراء في إخفاء نواياهم الحقيقية، وذلك بالتأكيد على نواياهم الفيدرالية والادعاء بأن ذلك هو السبب الوحيد لإثارة الناس. وكان من الواضح جداً بالطبع أن التحرير ضد بروسيا ليس له علاقة بالفيدرالية. ولم تكن عبارة "الأنشطة الفيدرالية" هي العبارة المناسبة لوصف الجهود المبذولة لفصل ولاية أخرى. فالفيدرالي المخلص الذي يؤمن بأفكار "بسمارك" حول الدولة والفيدرالية لا يمكنه أن يعبر عن رغبته في استقطاع ولاية أخرى أوجدها "بسمارك" أو على الأقل أتمها. كما أنه لا يمكنه أن يؤيد مثل هذه الفكرة الانفصالية علناً.

وكان لابد من حدوث ضجة كبرى في ميونخ إذا أعلن الحزب المحافظ في بروسيا عن تأييده لفصل فرانكونيا عن بافاريا أو اتخذ إجراء عاماً نحو طلب أو تنفيذ هذه السياسة الانفصالية. لكنني على أي حال كنت أتعاطف مع الفيدراليين الحقيقيين الذين لم يتمكنوا من حسن تقدير الأمور بسبب ذلك الخداع المشين لأنهم كانوا أول الضحايا. إن هذا يعتبر تشويهاً لفكرة الفيدرالية بطريقة تعد لها قبرها من الآن. فلا يمكننا الدعاية للدولة الفيدرالية من خلال تحقير وتلويث وسوء استخدام العناصر الأساسية لهذا البناء السياسي وهو بروسيا، وهذا يجعل الاتحاد مستحيلاً.

❖ | الألمانى ضد الألمانى..

وقد نجح اليهود قبل الثورة في تشتيت الانتباه عنهم وعن شركات الحرب الخاصة بهم وذلك عن طريق إثارة الجماهير، وخاصة عندما يثيرون البافاريين ضد البروسيين. لكنهم شعروا بالاضطرار - بعد الثورة - إلى إيجاد طريقة للتنويه على حملة السلب وكانت تحمل عشرة أضعاف تلك الخطورة. ومرة أخرى نجح اليهود في هذه المهمة عن طريق إثارة ما يسمى بالعناصر "الوطنية" ضد بعضها البعض، فأثاروا المحافظين البافاريين ضد البروسيين المحافظين أيضاً. ثم استخدم اليهودي خبثه مرة أخرى وتحكم في مقدرات بروسيا مما أدى إلى تفجر استقرازمات فجأة أثارت السذج بصفة مستمرة. وهكذا نجد الألماني لا يقف في مواجهة اليهودي أبداً لكنه يواجه أخاه الألماني. فنجد أن البافاري لا يرى أربعة ملايين من عمال برلين المهرة وهم يعملون بكفاءة لكنه يرى مجتمع برلين المنحط الكسول الموجود في أسوأ أحياء برلين عند الطرف الغربي. كما أنه لا يوجه كراهيته لهذا الطرف الغربي من برلين ولكنه يوجهها لكل هذه المدينة "البروسية".

وقد دعاني ذلك إلى اليأس في كثير من الحالات.

إن قدرة اليهودي على تشتيت أنظار عامة الناس عنه وتوجيهها إلى اتجاهات أخرى يمكن ملاحظتها أيضاً فيما يحدث اليوم.

❖ | عدو الجنس الآري!

وفي عام 1918م لم يكن هناك ما يشبه العداء المنظم للسامية. وأنا لازلت أتذكر الصعاب التي واجهناها كلما ذكرنا كلمة "اليهودي" كانت الوجوه أمامنا تصاب إما بالدهشة الشديدة أو بالعداء الواضح. وقد باءت الجهود التي بذلت ليعرف الشعب عدوه الحقيقي في ذلك الوقت بالفشل. وبعد ذلك تغيرت الأحوال إلى الأفضل ولكن ببطء. وقد تم إنشاء اتحاد "الدفاع والهجوم" منقوصاً، لكنه استطاع على الأقل أن يفتح موضوع اليهود مرة أخرى.

وفي شتاء عام 1918-1919م بدأ الاتجاه ضد السامية. وفيما بعد قدمت الحركة الاشتراكية القومية بطريقة جديدة. وقد أخذت القضية من دائرة الطبقة العليا وبعض أفراد الطبقة البرجوازية ونجحت في تحويلها إلى حافز يدفع حركة شعبية كبرى. ولكن، في اللحظة التي تمكنا فيها من عرض هذه القضية على الشعب الألماني بطريقة تمكن من توحيدهم، بدأ رد الفعل اليهودي. فقد عاد إلى خططه القديمة. وبسرعة ورشاقة استدار اليهودي إلى القضية الوطنية وأحدث شرخاً بين صفوف الوطنيين. فقد أعاد إلى الأذهان قضية لا فائدة منها واستفاد من النزاعات المعقدة بين الكاثوليك والبروتستانت، فكان ذلك هو سبيله الوحيد، وبذلك يستطيع أن يسيطر على الرأي العام بافتعال مشكلات أخرى كما يقضي على الحملة التي بدأت ضده. إن من سحبوا شعبنا إلى تلك المشكلة لا يمكنهم بأي حال تعويض الوطن عما اقترفوه من جرم ضد الأمة. وعلى أي حال، فقد حقق اليهودي مراده. فقد تقائل الكاثوليك والبروتستانت بشدة، بينما كان عدو الجنس الآري وكل المسيحيين يضحك خفية.

وكان من الممكن شغل اهتمام العامة لمدة أعوام بالصراع بين الفيدرالية والاتحادية، مبددين كل طاقاتهم في ذلك الموضوع البسيط. بينما يتاجر اليهودي بحرية الأمة ويبيع بلادنا لأسياذ المال الدوليين. ولذا فقد نجح في تلك الفترة مرة أخرى، وكان النجاح هذه المرة بإثارة الشجار بين طائفتين دينيتين، بينما هو يمخر في الأسس التي تقوم عليها الطائفتان ويدمرها من خلال ما تحقته اليهودية العالمية فيها من سموم.

❖ | تلوث سام!

فلننظر إلى الخراب الذي يعاني منه شعبنا يومياً نتيجة لتلوثه بالدم اليهودي ونضع في الاعتبار حقيقة أن هذا التلوث السام يمكن محوه من جسد الأمة خلال قرون من الزمان أو ربما لا يمكننا ذلك أبداً ويدوم هذا التلوث إلى الأبد. أو لنفكر فيما هو أبعد من ذلك، حيث سنجد أن التفكك العرقي يفسد الجنس الآري وينزل بمرتبته إلى مستوى أدنى وبالتالي بشعبنا الألماني إلى أن تصبح صفاتنا الحضارية عاجزة وننتعرض لخطر النزول إلى المستوى الذي نزلت إليه مدن جنوب إيطاليا اليوم في مدنا الكبرى على الأقل. وهذا العش المهلك لدم الأمة الذي لم ينتبه إليه مئات الآلاف من أبناء الوطن ويمارسه اليهودي بطريقة منتظمة اليوم. إن هذه الفطريات الزنجية الموجودة في جسد أمتنا تفسد أخلاق بناتنا ذوات الشعر الأشقر، وبذلك يتمكنون من إفساد شيء لا يمكن تعويضه.

وقد نظرت كلتا الطائفتين المسيحيتين إلى تدنيس أنبل الأعراق بلا أي اهتمام، هذا العرق الذي قدمه الله هدية لهذا العالم. فمستقبل العالم لا يرتبط بالمنتصر من هاتين الطائفتين، الكاثوليك أو البروتستانت. لكن الأهم هو قضية إما بقاء الجنس الآري أو هلاكه

تماماً. كما أن الطائفتين المسيحيتين لا تريدان هلاك الجنس الآري، لكنهما تحاولان تدمير بعضهما البعض. فكل من لديه إحساس صادق بوطنه يجب عليه أن يعرف أنه ليس عليه أن يتكلم عن إرادة الله من شفاؤه فقط ولكن عليه أن ينفذ هذه الإرادة وألا يسمح بتحقيق ما صنعه الله تعالى. فإرادة الله هي التي جعلت الإنسان يخلق في شكل محدد ويظهر بطبيعته وصفاته. وكل من يحاول تدمير هذا الخلق يحارب صنع الله. لذلك فعلياً أن نسعى جميعاً - كل منا حسب طائفته - إلى تنفيذ أولى واجباتنا ومهامنا سواء بالكلمة أو بالفعل والتوقف عن مهاجمة الطوائف الأخرى.

❖ | حتى تظل النيران مشتعلة!

وعلى أي حال فإن الحقائق تتحدث عن نفسها. فالذين اكتشفوا فجأة في عام 1924م أن المهمة العليا للحركة الوطنية هي محاربة التدخل الدولي لم ينجحوا في مواجهة هذا التدخل ولكنهم نجحوا في إحداث شرخ في الحركة الوطنية. وكان على أن أحترس من إمكانية وجود بعض العقول غير الناضجة في الحركة الوطنية، حيث تعتقد أن بإمكانها أن تحقق ما فشل فيه "بسمارك" نفسه. وستظل المعارضة التامة لكل محاولات وضع الحركة الاشتراكية القومية في خدمة هذا الصراع⁽¹⁾ أهم واجب من واجبات موجهي الحركة الاشتراكية القومية، وكل من يوجه دعايته لهذا الغرض يطرد من صفوف الحركة.

وقد نجحنا - في الحقيقة - حتى عام 1923م في الاحتفاظ بحركتنا بعيدة عن تلك المجادلات. وكان البروتستانت المخلصون يقفون بجانب المخلصين الكاثوليك في صفوف حركتنا دون أدنى تفكير في أن هناك أي اختلاف ديني بينهما. فقد تعلمنا من الصراع المرير الذي خاضه معاً ضد إفساد العرق الآري احترام الآخرين. ففي تلك السنوات اشتركت حركتنا في كفاح مرير مع حزب الوسط لم يكن له أي أغراض دينية ولكن كانت أغراضه قومية وعرقية وسياسية واقتصادية. وقد أظهر النجاح الذي حققناه بعد ذلك أننا كنا على حق لكن ذلك لا يعجب من يظنون اليوم أنهم يعرفون أفضل منا.

وفي السنوات الأخيرة سارت الأمور في طريق أدى ببعض الدوائر السياسية إلى الظن بأنهم يعملون في خدمة الله، ولم يدركوا حماقة تصرفاتهم عندما دافعت الصحافة الماركسية الملحدة عن طائفة مسيحية ما أو أخرى طالما كان ذلك الدفاع في صالحها. فهي دائماً تحاول إرباك تلك الطائفة أو غيرها وهذا الحزب أو ذاك وبهذا تحتفظ بالنيران مشتعلة واللهيب عالياً.

(1) يقصد محاولات التفريق بين البروتستانت والكاثوليك والوقية بينهما.

✦ | يارب احفظني من أصدقائي!

لكن في حالة الشعب الألماني - صاحب التاريخ الذي يوضح أنه قادر على القتال حتى آخر رمق - فإن كل صيحة للحرب ما هي إلا خطر محقق. وهذه الشعارات ابتعدت بشعبنا عن مشاكل وجوده الحقيقية. فبينما نجهد أنفسنا في حروب دينية نال الآخرون نصيبهم من العالم. وبينما كانت الحركة الوطنية تتناقش مع نفسها حول ما إذا كان الخطر الجاثم بعيداً أفدح أم اليهود، كان اليهود يدمرون القاعدة العرقية التي تقوم عليها أمتنا ويبيدون شعبنا. وفيما يخص هذا النوع من القتال الوطني ونيابة عن الحركة القومية الاشتراكية، فإني أدعو من كل قلبي قائلاً: "يا الله، احفظنا من مثل هؤلاء الأصدقاء حتى نتمكن من التعامل مع عدونا بسهولة."

أجبر الحوار حول الفيدرالية والاتحاد الذي روجه اليهود بدهاء في الفترة 1919-1920م وما بعدها الاشتراكية القومية التي تبرأت من هذا الجدل أن تتخذ موقفاً محدداً فيما يخص مشكلة مهمة وهي: هل على ألمانيا أن تكون دولة فيدرالية أم عسكرية؟ وما معنى هذه المصطلحات؟ وبالنسبة لي، فإن السؤال الثاني أهم من السؤال الأول. وذلك لأنه ضروري لفهم المشكلة بالكامل وذلك لأن الإجابة عليه قد تساعد توضيح ما هو غامض.

ما هي الكونفدرالية⁽¹⁾؟

الكونفدرالية تعني اتحاد ولايات ذات سيادة، هذه الولايات كونت فيما بينها اتحاداً بكامل حريتها وبما يضمن سيادتها فأصبحت وحدة واحدة، وهي تنتازل لهذا الاتحاد عن كثير من حقوقها السيادية بما يضمن بقاء الاتحاد واستمراره.

لكن هذه الوصفة السياسية لم تطبق حتى الآن في أي كونفدرالية قائمة اليوم. وذلك ينطبق حتى على الولايات المتحدة، فلا يمكننا أن نتحدث عن سيادة الولاية في كثير من الولايات. كما أن كثيراً من تلك الولايات لم تنضم إلى الاتحاد إلا بعد إنشائها بفترة طويلة. إن الولايات التي يتكون منها الاتحاد الأمريكي تشبه المستعمرات من حيث طبيعتها وقد تكونت لأغراض تقنية إدارية فقط. كما أن حدودها قد وضعت في كثير من الأحيان في المكاتب فقط. وهذه الولايات ليس لها سيادة ولن يكون لها سيادة خاصة بها. وذلك لأن الاتحاد هو الذي أوجد ما يسمى بالولايات. وعلى ذلك فإن حقوق السيادة التي منحت لتلك الولايات تعود إلى الكونفدرالية التي تقترب مساحتها من مساحة قارة بأكملها. وعلى ذلك فإننا عندما نتحدث عن الولايات المتحدة فإننا لا يمكننا اعتبارها ولايات ذات سيادة

(1) قبل عام 1918م كانت ألمانيا إمبراطورية تتكون من خمس وعشرين ولاية فيدرالية.

مستقلة، لكننا يمكننا اعتبارها متمتعة بحقوق - أو صلاحيات سيادية - منحها لها الدستور.

❖ | بسمارك والولايات الألمانية..

كما أن هذا التعريف لا ينطبق أيضاً على الوضع في ألمانيا. فمن المعروف أن الولايات الألمانية كانت موجودة قبل قيام الدولة الألمانية وأن الدولة تكونت من هذه الولايات. لكن الدولة - على أي حال - لم تقم على أساس تعاون اختياري متساو تشارك فيه كل الولايات، ولكنها قامت لأن ولاية بروسيا استطاعت السيطرة تدريجياً على بقية الولايات. إن الفرق في المساحة بين الولايات الألمانية فقط كاف لانعدام المقارنة مع الاتحاد الأمريكي. إن الفرق الشاسع في المساحة بين الولايات الألمانية الصغيرة جداً والولايات الأمريكية يوضح الفرق بين ما حققه كل منهما من منجزات. كما أن هذه الولايات لا تستمتع بما يسمى بـ"سيادة الولاية".

ولا يمكنني هنا أن أتناول السؤال التاريخي عن كيفية نشوء تلك الولايات لكن يجب على أن ألفت الانتباه إلى أن حدودها لم تتوافق في كثير من الأحيان مع تكويناتها السكانية، فقد كانت حدود سياسية ظهرت - في كثير من الأحيان - في فترات ضعف الإمبراطورية الألمانية وتقسيمها. وكانت تعتبر سبباً في استنزاف الدولة ونتيجة لذلك في الوقت نفسه.

وقد وضع تكوين الدولة القديمة كل ذلك في اعتباراته إلى حد ما، طالما أن الولايات المختلفة لا تحظى بتمثيل متعادل في مجلس الدولة، ولكنه تمثيل يتناسب مع مساحة كل منها وأهميتها والور الذي لعبته عند تكوين الدولة.

كما أن الحقوق السيادية التي تنازلت عنها الولايات من أجل تكوين الدولة كانت محدودة للغاية. وفي غالب الأحيان لم يكن لذلك أي تأثير عملي أو أن بروسيا كانت تتولى هذه الحقوق لما لها من قوة. وكان بسمارك⁽¹⁾ يتبع مبدأ وهو ألا يمنح الدولة حقاً يمكن أن تقوم به الولاية، كما أنه يطلب من الولايات ما هو ضروري فقط للدولة. وهي سياسة معتدلة وحكيمة. فقد أظهر بسمارك بذلك تقديره للعادات والتقاليد من جهة، ومن جهة أخرى ضمنت سياسته هذه كل الحب والتعاون مع الدولة منذ بداية تكوينها. لكن من الخطأ أن نعتقد أن قرار بسمارك هذا كان من أجل جمع كل حقوق السيادة للدولة دائماً. فهذا بعيدٌ

(1) بسمارك: أو الأمير «أوتو إدوارد ليوبولد فون بسمارك والملقب بالمستشار الحديدي (1815م - 1898م) وهو أول من أنشأ الإمبراطورية الألمانية وأول مستشار لها (1871م - 1890م). (الناسخ).

عن فكر بسمارك. فقد كان يريد أن يترك أي صعوبات لا يستطيع التعامل معها ولم تتفق بشأنها كل الولايات للمستقبل. وكان يثق أن عامل الوقت والضغط التي تسببها عملية تكون الكونفدرالية ستتغلب على الاعتراضات الوقتية للولايات. وقد أوضحت هذه السياسة قدراته كرجل دولة. وفي الحقيقة، تزايدت سيادة الدولة باستمرار على حساب السيادة الفردية للولايات. وبذلك حقق مضي الوقت ما كان بسمارك يتمناه.

❖ | انتقام التاريخ!

وقد أدى انهيار ألمانيا وإلغاء نظام الحكم الإمبراطوري إلى تسارع تلك التطورات. وكان على الولايات الفيدرالية الألمانية - التي لم تقم على أسس عرقية ولكنها قامت بسبب ظروف سياسية أن تفقد أهميتها في لحظة إلغاء نظام الحكم الملكي والعائلة الحاكمة المرتبطة به.

وبالرغم من أن إلغاء لنظام الملكي واختفاء ممثليه كان يعتبر ضربة قوية للشخصية الفيدرالية للدولة، كما أن قبول اتفاقية "السلام" كان مخرباً لهذه الفيدرالية أيضاً.

وكان من الطبيعي والمنطقي أن تفقد الولايات الفدرالية سيادتها المالية في اللحظة التي ارتبطت فيها الدولة بالتزامات مالية نتيجة للهزيمة في الحرب، وكان من المستحيل أن يبرم مثل هذا الاتفاق مع ولايات منفصلة. كما أن ما قامت به الدولة من خطوات تالية مكنتها من السيطرة على الرضائف والسكك الحديدية وساعدت على استعباد الشعب وذلك بدعم من معاهدات السلام. وكان على الدولة أن تضمن السيطرة على مصادر الثروة التي تتزايد باستمرار لتلبية طلبات المزيد من عمليات الابتزاز.

وكانت الطريقة التي مدت الدولة بها سلطاتها من أجل السيطرة على الولايات غريبة وسخيفة، لكن الإجراءات كانت منطقية وطبيعية في حد ذاتها. لكن اللوم يقع على الأحزاب والسياسيين الذين فشلوا في تركيز كل طاقاتهم في وقت الضرورة من أجل انتهاء الحرب بنصر مؤزر. ويقع الإثم كله على الأحزاب - وخاصة في بافاريا - التي قامت من أجل أغراض أنانية أثناء الحرب ورفضت أن تقدم للدولة أثناء الحرب عُشر ما اضطرت الدولة لدفعه بعد الهزيمة في الحرب. إنه عقاب التاريخ، ونادراً ما جاء انتقام السماء بعد الجريمة تماماً مثلما حدث في تلك الحالة. فهذه الأحزاب التي اعتبرت أن مصالحها الفردية ومقاعد نوابها - وخاصة في بافاريا - أهم من مصالح الدولة الألمانية تنظر إلى الأمر الآن بلا أدنى اهتمام، بينما ته رس الضغوط على ألمانيا الآن لكي تلغي وجود تلك الولايات، فأصبحوا هم ضحايا لما حنت أيديهم. وهنا نشاهد مثالا صارخا للرياء حين تنطلق صيحات اللوم حول الخسائر التي تعاني منها الولايات الفيدرالية

المحرومة من حقوقها السيادية وقد تعالت تلك الصيحات أمام النازيين، وذلك لأن النازيين فقط هم من تهتم بهم الأحزاب. وهذه الأحزاب - بلا استثناء - تتسابق في قبول تطبيق السياسة التي لا تحقق أي تعديل في التكوين الداخلي للدولة. بينما كانت دولة بسمارك حرة وغير مقيدة بأي التزامات مع العالم الخارجي.

ولم تضطر الدولة الألمانية في عهد بسمارك إلى تحمل الالتزامات الثقيلة والعقيدة مثل تلك التي تعرضت لها ألمانيا بسبب خطة داوس. ومن ناحية الشؤون الداخلية أيضاً كانت الدولة الألمانية في عهد بسمارك قادرة على تحديد سلطاتها في عدة موضوعات ضرورية لوجودها. ولذلك استطاعت أن تستغني عن ضرورة السيطرة المادية على تلك الولايات واستطاعت أن تعيش على إسهاماتهم. ومن جانب آخر فإن المشاركة المالية الصغيرة نسبياً التي اضطرت الولايات إلى دفعها للدولة كانت تعني الترحيب بانضمامها. ومن الظلم والكذب أن نقول الآن - مثلما قال أحد العاملين بالدعاية - إن الدول الاتحادية غير سعيدة بوجودها في الدولة الألمانية بسبب خضوعها مالياً لهذه الدولة. لا ... ليس الأمر كذلك على أي حال. إن قلة التعاطف مع الفكرة السياسية التي تجسدها الدولة الألمانية لم تكن بسبب فقدان تلك الولايات لحقوق السيادة، ولكنه بسبب الطريقة البائسة التي يتعامل بها النظام الحالي مع مصالح الشعب الألماني. وعلى الرغم من كل الاحتفالات بالعالم القومي والدستور، إلا أن كل قطاعات الشعب الألماني تشعر أن الدولة الألمانية الحالية لا توافق ما يطمحون إليه. كما أن قانون حماية الجمهورية قد يمنعهم من الثورة ضد الهيئات الجمهورية، لكنه لن يجلب للحكومة الألمانية القائمة حب فرد واحد من أفراد الشعب الألماني. وقد تعرضت الجمهورية إلى نقد شديد بسبب قلقها المستمر على حماية نفسها من مواطنيها بإصدار القوانين وصدور الأحكام بالسجن على بعضهم.

كما أنه ليس من العدل أن نقول: إن الدولة الألمانية فقدت شعبيتها بسبب تصرفاتها المستبدة فيما يخص بعض حقوق السيادة التي كانت تستمتع بها الولايات. فإذا افترضنا أن الدولة الألمانية لم تمد سلطاتها في الولايات، فليس هناك من سبب للاعتقاد بأنها ستجد تأييداً في هذه الولايات إن كانت الالتزامات العامة لا تزال ثقيلة جداً كما هي الآن. ولكن على العكس، فإذا كانت الولايات مضطرة إلى دفع نصيبها في التعويضات المتزايدة التي تضطر الدولة الألمانية إلى دفعها الآن حتى تتمكن من الوفاء بأوامر معاهدة فرساي فإن عداة تلك الولايات تجاه الدولة الألمانية سيتزايد بلا شك. وعندئذ لن يصبح جمع المساهمات المستحقة للدولة من الولايات الفيدرالية صعباً فقط بل ستضطر الدولة إلى استخدام الطرق الإجبارية لدفع تلك الالتزامات. فالدولة ملتزمة بشروط معاهدات السلام وليس لديها الشجاعة ولا النية لخرقها. فإذا كان الأمر كذلك، فلا بد لها أن توفي

بالالتزامات التي قطعتها عليها اتفاقيات السلام. وتقع المسؤولية هنا فقط على عاتق الأحزاب التي لا تتوقف عن الحديث عن ضرورة الحصول على حكم ذاتي أمام الناخبين في الولاية، بينما هم في نفس الوقت يقترحون على الدولة بـ"ضرورة" اتباع سياسة تؤدي إلى إلغاء كل ما يسمى بحقوق السيادة.

❖ الفرق بين الدولة الألمانية في الماضي والحاضر..

وأنا أقول "ضرورة" لأنه لم يصبح أمام الدولة أي حل ممكن آخر سوى تحمل العبء الذي ألغته عليها السياسة الداخلية والخارجية التي لا ترحم. فكل دين جديد توافق عليه الدولة يتطلب ضربة قوية جديدة توجه إليها، وهذه الضربة تتطلب خطوة جديدة تقوم بها نحو إلغاء الحقوق السيادية لكل ولاية على حده. وذلك حتى لا تسمح للمعارضة بالتحرك أو حتى بالوجود.

إن الاختلاف الرئيسي بين سياسة الدولة الألمانية الحالية وبين ما حدث في الماضي هو : أعطت الدولة الألمانية القديمة شعبها حرية داخلية وأظهرت قوتها أمام العالم الخارجي، بينما نجد أن الجمهورية تبدو ضعيفة أمام العالم وتظلم شعبها في الداخل. وفي كلا الحالتين كانت النتائج منطقية، حيث إن الدولة القوية لا تحتاج إلى قوانين داخلية كثيرة، وذلك لأن شعبها يحبها ويتعلق بها. أما الدولة المستعبدة للمصلحة الدولية فهي تستطيع العيش فقط من خلال إجبار شعبها على دفع الضرائب الباهظة. لذلك فمن بين الادعاءات الكاذبة للنظام الحالي أنه يتحدث عن "المواطنين الأحرار". ألمانيا القديمة فقط هي من يستطيع التحدث بهذه الطريقة. لكن الجمهورية الحالية ما هي إلا مستعمرة من العبيد الذين يخدمون الأجانب. وهي لها رعايا في أفضل الأحوال وليسوا مواطنين. لذلك فهي ليس لها علم قومي ولكن علامة تجارية أصدرتها وحمتها التشريعات والقوانين الرسمية فقط. كما جعلت الجمهورية من نفسها مجرد فاصل في مسرحية التاريخ الألماني. ولذلك فإن هذه الدولة تصر على الحد من حقوق السيادة للولايات أكثر وأكثر ليس لأسباب عامة تخص الحالة المالية فقط بل لأن ذلك من مبادئها. وذلك لأن تطبيقها لسياسة الابتزاز المالي إلى آخر قطرة من دماء الشعب يدفعها أيضاً إلى حجب حقوقهم عنهم، وذلك خشية تزايد السخط العام في يوم ما فيتحول إلى تمرد علني.

لكننا نحن الاشتراكيين القوميين عكسنا هذه الوصفة وسوف نتبع ما يلي : إن الدولة الألمانية القوية التي تؤمن وتحمي أكبر قدر ممكن من الحقوق لشعبها في داخل وخارج حدودها يمكنها أن تسمح بالحریات داخل الدولة دون خوف على أمن الدولة. ومن جهة أخرى فإن الدولة القومية القوية يمكنها أن تتدخل - إلى حد معين - في حريات أفرادها

وحريات الولايات التي تتكون منها الدولة دون المساس بمثل الدولة، ويمكنها أن تفعل ذلك وهي مدركة تماماً لمسئوليتها عن المثاليات التي تدافع عنها، وذلك حتى يشعر المواطن أن هذه الإجراءات ما هي إلا وسيلة لرفع مكانة الأمة ككل.

وبالطبع، فإن كل دولة في العالم عليها أن تواجه قضية توحيد نظامها الداخلي. وألمانيا ليست مستثناة من ذلك. واليوم، من العيب أن نتكلم عن "سيادة الولايات" وذلك لصغر حجم كثير منها إلى أبعد مدى. أما في مجالي التجارة والإدارة فإن أهمية الولايات كل على حده في تراجع مستمر. فقد أدت الطرق الحديثة للاتصالات والتقدم الميكانيكي إلى التغلب على بعد المسافات والمساحات. لذلك فما كانت ولاية في وقت ما تعتبر اليوم منطقة وأصبحت الولاية تقترب في مساحتها من مساحة القارة. كما أن الصعوبات التقنية في إدارة دولة مثل ألمانيا لا تزيد صعوبات إدارة منطقة مثل "براندنبرج"⁽¹⁾ قبل مائة عام. والآن من الممكن أن نقطع المسافة بين "ميونخ" و"برلين" بسهولة أكثر ما لو كنا مسافرين من "ميونخ" إلى "سترانبرج" قبل مائة عام. أما فيما يخص وسائل المواصلات الآن، فإن كامل مساحة الدولة الألمانية تعتبر أقل من بعض مساحات الولايات الألمانية في عهد حروب نابليون. فإذا ما تجاهلنا هذه الحقائق فمعنى ذلك أننا نعيش في الماضي. لكن، طالما أن هناك ماضياً فلا بد من وجود المستقبل. وقد تتراجع الأحوال في المستقبل لكنها لا توقف عجلة الزمن.

❖ اضطهاد المعارضين..

لكننا نحن الاشتراكيين القوميين لا يمكننا أن ندع هذه النتائج تمر أمامنا دون أن نلاحظها، ولا يجب أن ننخدع أيضاً بما يقوله أعضاء الأحزاب البرجوازية من "عبارات". وأنا أقول "عبارات" لأنهم لا يعتقدون أنهم يمكنهم تحقيق أهدافهم ولأنهم هم أنفسهم المتهم الرئيسي لأنهم شركاء في جريمة الوضع الحالي. وفي بافاريا خاصة كانت المطالبة بتوقف المركزية ليست سوى حركة حزبية بلا أي أفكار حقيقية تساندها. فإذا كانت هذه الأحزاب يمكنها أن تنتقل من مرحلة مجرد استخدام العبارات إلى مرحلة الأفعال العملية فإن مشهدهم سيكون مؤسفاً. وكل حدث يسمى بـ"سرقة حقوق السيادة" على يد حكومة الدولة لم يجد أي مقاومة عملية سوى عواء أحرق كدليل على الاحتجاج. وفي الحقيقة فإن كل من كان يبدي اعتراضه الشديد على التعنت الواضح في تنفيذ نظام المركزية كانت

(1) براندنبرج: دوقية ألمانية سابقة تقع في شمال وسط ألمانيا وكانت هي المركز التي توسعت «بروسيا» من حوله، وهي الآن مقسمة بين ألمانيا وبولندا. (الناشر).

نفس هذه الأحزاب ترد عليه قائلة بأنه لا يعرف شيئاً عن طبيعة الولاية واحتياجاتها اليوم. ثم يشوهون سمعته ويضطهدوه إلى أن يخلق فمه تماماً في السجن أو يُحرم رسمياً من التحدث أمام عامة الناس. وعلى ضوء هذه الحقائق ازداد أتباعنا اقتناعاً بأن الفيدرالية تتميز بالرياء الشديد. وهم يستفيدون من المذهب الفيدرالي كما يستفيدون من الدين، فما هما إلا وسائل يخفون بها الاهتمامات الوضيعة لأحزابهم.

فتوحيد وسائل المواصلات مثلاً يبدو ضرورياً، لكننا نحن الاشتراكيين القوميون نجد أن من واجبنا أن نعارض ذلك الآن في الدولة الحديثة، وخاصة إذا كان ذلك سيحدث فقط من أجل هدف وحيد وهو تطبيق سياسة أجنبية مخربة وتذليل الصعاب أمامها. وذلك لأن الدولة الاتحادية الألمانية إن هي سيطرت على السكك الحديدية والوظائف والشئون المالية، فلن يكون ذلك نابع من سياسة قومية، بل من أجل السيطرة على ما يمكنها من إنجاز السياسة المفروضة عليها بنجاح. ولهذا السبب يجب علينا نحن الاشتراكيين القوميون أن نتخذ الخطوات اللازمة لإعاقة هذه السياسة أو منعها تماماً إن أمكن ذلك. كما يجب أن نحارب دمج الأجهزة شديدة الحيوية للشعب، وذلك لأن هذه السياسة تستخدم لغرض واحد وهو تسهيل دفع المليارات وتحويل الضمانات إلى الدول الأجنبية وذلك طبقاً لشروط ما بعد الحرب التي قبلها رجال السياسة في دولتنا.

ولهذه الأسباب أيضاً كان على الحركة القومية الوطنية أن تتخذ موقفاً ضد هذه الاتجاهات.

❖ | تمزيق الولايات حتى الإبادة..

كما أننا يجب أن نعارض هذه المركزية أيضاً وذلك لأنها تساعد على دعم نظام حكم داخلي تسبب في كل نكبات الأمة الألمانية. فالدولة الألمانية الديمقراطية اليهودية الحالية - والتي أصبحت لعنة حلت على الشعب الألماني - تسعى إلى تعطيل جهود الولايات الفيدرالية كلها لأنها لم تنتشر روح العصر، كما تحاول تنفيذ سياستها بتمزيق هذه الولايات حتى تصل إلى مستوى الإبادة. وفي مواجهة ذلك يجب علينا نحن الاشتراكيين الديمقراطيين أن نحاول دعم المعارضة في الولايات بأسس تمكنها من النجاح. ويجب علينا أن نحقق ذلك من خلال تحويل كفاحنا ضد المركزية إلى شيء آخر يشمل الدفاع عن كل مصالح الأمة الألمانية ككل. لذلك، فبينما يعمل حزب الجماهير البافاري من خلال وجهة نظرة الضيقة والمحدودة ويحارب من أجل الحصول على "حقوق خاصة" لمقاطعة بافاريا، فلا بد لنا أن نتمسك بأسس مختلفة في صراعنا من أجل نفس الحقوق. وهذه الأسس هي المصالح العليا للأمة ككل في مواجهتها مع ديمقراطية نوفمبر.

ولا يزال هناك سبب آخر لمعارضة هذا النوع من النظام المركزي وهو نابع من القناعة بأن ما يسمى بالـ "تأميم" لا يحدث من أجل الاتحاد إطلاقاً ويحتاج إلى مزيد من الإيضاح. فهو يستخدم في كثير من الحالات لاستبعاد بعض الهيئات من السيادة المحلية للولايات، وهي هيئات تود الحكومة أن تسيطر عليها أحزاب الثورة. ولم تكن الأولويات من قبل في تاريخ ألمانيا بمثل هذه الدناءة التي تحدث في الجمهورية الديمقراطية. فجزء كبير من هذه المركزية الحالية مخصص للأحزاب التي تلقت وعداً في يوم ما بأنها ستتمكن من تحسين مهارات كوادرها أي كل الوظائف والمكاتب ستكون من نصيب أنصارها. فمنذ أن قامت الثورة حصل اليهود بصفة خاصة على مراكز في الهيئات الاقتصادية التي تسيطر عليها الدولة المركزية بالإضافة إلى مراكز في الإدارة المحلية.

❖ يجب محاربة المركزية..

ولأسباب تكتيكية، فإن هذا الاعتبار الأخير يلزمنا بأن نهتم تماماً بكل محاولات المركزية وأن نحارب كل خطواتها. لكن يجب علينا ونحن نفعل ذلك أن يكون اهتمامنا الأول هو السياسة القومية السامية وليست التوافه الخاصة.

وهذه الملاحظة الأخيرة ضرورية، فقد يخرج أحد مؤيدينا برأي يقول: إنه ليس لنا أن نمنع الدولة من حقها في سيادتها على بعض الهيئات داخل الولايات فهي السلطة الأعلى. ونحن لا نشكك في هذا الحق إطلاقاً. وذلك لأننا نرى أن الولاية ما هي إلا مجرد شكل. لكن محتواها أو مضمونها هو الشيء الأهم، وهو الشعب. فمن الواضح إذن أن أي حق في تلك الولاية هو للشعب وليس لحكومة الولاية. كما أننا لا يمكننا أن نمنح أي ولاية حقاً من حقوق السيادة لحكومة الدولة. أما ما تمارسه بعض الولايات من تبادل للمندوبين فيما بينهم، فهذا هراء لا بد أن يتوقف، وسوف يتوقف. وإلى أن يحدث ذلك لا يجب أن نندش إن تشككت بعض الدول الأجنبية في وحدة الدولة الألمانية وتصرفت بناء على ذلك. إن عبثية هذا "التمثيل المتبادل" تتسبب في مضرة كبرى ولا تحقق أي فائدة. فإن لم يحمي سفير الدولة الألمانية مصالح الألمان في الخارج فهل من الممكن أن يحميها وزراء فيدراليون في ولاية، هذا الأمر يبدو سخيفاً أمام العالم. والحقيقة الواضحة هي أن هذه الولايات الصغيرة تستخدم كنقاط لانطلاق محاولات الانفصال، وهذا يروق لبعض الدول الأجنبية. ويجب علينا نحن الاشتراكيين القوميين ألا نسمح للعرق النبيل الذي تدهور بمرور الزمن أن يبدأ في غرس بذور له خارج الدولة عن طريق التمثيل الدبلوماسي. فقد كان تمثيلنا الدبلوماسي في الخارج في الدولة القديمة تجربة سيئة لا يجب أن تتكرر.

ومن المؤكد أن أهمية الشخصية الفردية للولايات ستتحول في المستقبل إلى مجال السياسة الثقافية.

ويجب أن يعلم الجيش بوضوح تأثير تلك الولايات كل على حده. فلا يجب أن تقع الدولة القومية الاشتراكية القادمة في أخطاء الماضي بأن تفرض على الجيش مهمة خارج نطاق عمله ولن تكون أبداً من مهامه. فالجيش الألماني لم ينشأ من أجل أن يكون مدرسة نجرب فيها المصالح الخاصة، بل هو ضروري ويجب أن نحافظ عليه، فهو مدرسة يتعلم فيها كل الألمان تعديل عاداتهم تجاه بعضهم البعض. ومهما كانت آثار الميول الانفصالية في حياة الأمة، فلا بد لها ألا تؤثر على الجيش سوى بالتوحد. وعلى الجيش أن يرفع الفتى الألماني من الأفق الضيق للإقليم الذي يعيش فيه ويطلع على الصورة الكاملة للأمة. وعلى الشباب أن يتعلم كل شيء عن وطنه الكبير وليس فقط عن الإقليم الذي يعيش فيه، وذلك لأنه سيدافع عن هذا الوطن الكبير في يوم ما. فمن العبث إذن أن يؤدي الشباب الألماني تدريبه العسكري في نفس الإقليم الذي يعيش فيه، فعليه أن يعرف ألمانيا في هذه الفترة. وهذا مهم جداً اليوم، وذلك لأنه من النادر أن يسافر الشاب الألماني بمفرده كما كان يفعل في السابق من أجل زيادة معارفه. لذلك، فمن العبث أن نجعل شباباً من بافاريا مجندين في ميونخ وأبناء بادن يجندون في بادن وهكذا. أليس من الأفضل أن نجعل أهل بافاريا يرون نهر الراين وبحر الشمال، وأن يرى أبناء هامبورج جبال الألب، كما يرى فتيان شرق بروسيا جبال وسط ألمانيا؟ فالقوات المقاتلة لابد أن تكون على علم بطبيعة المنطقة وليس المتدربين. وقد نرفض كل محاولة للاتحاد، لكننا لا نرفض بالطبع وحدة الجيش. وعلى العكس تماماً، فحتى إذا كنا لا نرحب بأي نوع آخر من الاتحاد إلا أننا نشدد على الترحيب بوحدة الجيش ونسعد بذلك.

وفي النهاية، هناك فكرة جديدة ومبشرة بالنصر، ينبغي أن تفكك كل الجهود التي تعوق الاندفاع إلى الأمام. حيث يجب أن تطالب الاشتراكية القومية بحقها في فرض مبادئها على كل الأمة الألمانية بغض النظر عن حدود الدولة الاتحادية في ذلك الوقت. كما يجب علينا أن نعلم الأمة الألمانية أفكارنا ومبادئنا. وكما أن الكنائس لا تشعر بأنها مرتبطة بالحدود السياسية ولا محصورة فيها، فإن فكرة الاشتراكية القومية لا تشعر بأنها محدودة بأراضي الولايات الفيدرالية التي يتكون منها الوطن.

إن العقيدة الاشتراكية القومية ليست خادمة للمصالح السياسية للولايات الفيدرالية بمفردها، بل ستكون في يوم من الأيام معلماً لكل الولايات الألمانية. فيجب أن تتخذ قراراً في حياة الشعب كله وتشكل هذه الحياة من جديد. ولهذا السبب يجب أن نطالب بالحاح بحقنا في التخلي عن كل التطورات السياسية السابقة التي تبرأنا منها.

فكلما اكتملت الأفكار القوية التي تحقق النصر، استطاع شعبنا أن يعيش حراً في بلاده.

الفصل الحادي عشر الدعاية والنظيم



كان عام 1921 ذا أهمية خاصة بالنسبة لي لعدة أسباب.

فعندما دخلت حزب العمل الألماني توليت فوراً مسؤولية الدعاية، وذلك لاعتقادي بأن هذا العمل هو الأكثر أهمية في ذلك الوقت. وفي تلك الفترة لم يكن من المفيد أن أشغل بالي بالتفكير في مشكلات تنظيم الحركة. فقد كان نشر أفكارنا بين أكبر عدد من الناس من أهم الضروريات في ذلك الوقت. وكان على الدعاية أن تتقدم كثيراً وتوفر العدد اللازم من الناس للحركة لتعمل من خلالها. وأنا لم أؤيد أبداً الطريقة المتسريعة وذلك لأنها تؤدي في أغلب الحالات إلى آلية مينة وليس إلى آلية حية مؤثرة. كما أن التنظيم يستمد وجوده من حياتنا وتطورنا العضوي. فعندما تجد هذه الأفكار مكاناً لها في عقول عدد محدد من الناس فإنهم يميلون بطبيعتهم إلى نوع ما من التنظيم وهنا ينشأ شيء ذو قيمة كبيرة. ويلزمنا في ذلك الموقف - كما في أي موقف آخر - أن نضع في حساباتنا ذلك الضعف البشري الذي يؤدي بالإنسان إلى التردد - وخاصة في البداية - والاستسلام أمام عقل أكبر. فإذا فرضنا نظاماً يتجه من أعلى إلى أسفل بطريقة آلية، فمن الخطر أن يتمكن أحدهم من الاندفاع إلى القمة دون أن نعرف من هو وماذا يمكن أن يحدث بسبب الغيرة، فقد يحاول إعاقة من هو أقدر منه عن تولي موقع قيادي في الحركة. وقد تؤدي الخسارة الناتجة عن ذلك إلى آثار قاتلة وخاصة في حركة جديدة.

ولذلك فقد كان من الأفضل أن ننشر أفكار الحركة بين عامة الناس ونثبتها أولاً. ويجب أن يستمر هذا العمل الدعائي إلى فترة محددة وأن يتم توجيهه من مركز واحد. وعندما تجذب أفكارنا عدداً كبيراً من الناس، يصبح من الضروري توجيه هذا البشر إلى اختيار من يملك قدرات القيادة واختبار قدراته. ومن المعتاد أن نجد أن من لم يلفت الانتباه في البداية هو نفسه خير من يصلح للقيادة.

ومن الخطأ بالطبع أن نفترض أن فهم أفكار الحركة ونظرياتها بطريقة جيدة يؤهل صاحبه لتولي موقع المسؤولية. فعادة ما يكون العكس هو الصحيح.

❖ صفات القائد..

فالأستاذة الكبار في النواحي النظرية نادراً ما يكونون إداريين عظام. وذلك لأن دور واضع النظرية ومؤسس النظام ينحصر في قدرته على اكتشاف القوانين الصحيحة ووضعها، بينما نجد أن أول شرط في المسئول عن التنظيم هو أن يكون ذا بصيرة بعلم

النفس. وعليه أن يتعامل مع الناس كما يراهم أمامه، ولذلك فلا بد له أن يعرف حقيقتهم، وعليه ألا يسيء تقدير الطبيعة البشرية لا بالزيادة ولا بالنقص. كما يجب عليه أن يدرك نقاط ضعفهم وبيئتهم وغيرها من الصفات. وبالتالي يمكنه أن يكون شيئاً من كل ذلك يوصله إلى كائن حي ذي قوة مقاومة جيدة ويصلح للدفاع عن فكرة ما للتأكد من نجاح هذه الفكرة.

لكن لا يزال من النادر أن نجد واضع نظريات وقائد عظيم في نفس الوقت. فلا بد للقائد أن يكون قادراً على إثارة المشاعر وهذا غير ممكن بالنسبة لكثير ممن يتعاملون مع المشكلات بطريقة علمية. فالقادر على إثارة مشاعر الناس ونقل الأفكار إليهم لابد أن يكون على دراية بعلم النفس حتى وإن كان غير متعلم. وهذا يجعله قائداً قديراً أكثر ممن يضع النظريات وهو لا يفكر في عالم الإنسان. فكونك قائد يعني القدرة على تحريك الجماهير. وموهبة إعداد الأفكار ليس لها علاقة من أي نوع بالقدرة على القيادة. كما أنه من غير المجدي تماماً أن نناقش أيهما أهم: القدرة على وضع الأفكار والمثل أم القدرة على تطبيقها بطريقة عملية. فليس لأي منهما قيمة بدون الآخر. وتظل أنبل المفاهيم التي عرفها الإنسان بلا معنى أو قيمة إن لم يستطع القائد تحريك الجماهير نحو تلك المفاهيم. والعكس صحيح، فما فائدة عبقرية القائد وقدراته إن لم يكن هناك علم نظري وأهداف يناضل من أجلها الإنسان؟! لكن، عندما تتحد قدرات واضع النظريات والمنظم والقائد في شخص واحد، فهذه ظاهرة نادرة جداً على كوكب الأرض. وهذا هو ما يصنع الرجال العظام.

وكما سبق أن قلت، فقد كرست أول فترة لي في الحزب للعمل في الدعاية. وكان على أنجح في جذب عدد من الناس يكونون نواة للحزب ممن يقبلون بأفكاره ويعملون بها. وبذلك يتوافر لنا أيضاً عدد كاف من المؤيدين الذين تنشأ منهم فيما بعد عناصر التنظيم. وبذلك فإن من يعمل بالدعاية يفكر فيما هو أبعد مما يفكر فيه المنظم.

فإذا ما هدفت إحدى الحركات إلى الإطاحة بنظام ما وإنشاء نظام جديد بدلاً منه. فلا بد للمبادئ التالية أن تكون واضحة ومفهومة ومنتشرة بين قادتها: فعلى كل حركة لديها عدد كاف من البشر المقتنع بأفكارها أن تقسمهم إلى مجموعتين، مؤيدين وأعضاء.

❖ مهمة العاملين بالدعاية وصفاتهم..

ومهمة العاملين بالدعاية أن يجمعوا المؤيدين، بينما مهمة اختيار الأعضاء تقع على عاتق المنظمين.

ومؤيد الحركة هو من يفهم أهدافها ويقبلها، والعضو هو من يحارب من أجل تلك الأهداف.

والمؤيد هو من حولته الدعاية إلى إتباع مذهب الحركة، لكن العضو هو من يكلفه منظمو الحركة بالعمل على ضم مؤيدين جدد يمكن أن يتحول بعضهم إلى أعضاء في الحركة.

فالمؤيد هو من يؤمن بالفكرة بطريقة سلبية لكن العضو يعرض هذه الفكرة ويحارب من أجلها. ومن بين كل عشرة مؤيدين يمكننا بالكاد أن نستخرج عضوين فقط. فكونك "مؤيداً" يعني ببساطة أنك تقبل تعاليم الحركة، لكن العضو هو رجل لديه من الشجاعة ما يجعله يشارك بطريقة إيجابية في نشر هذه التعاليم التي يؤمن بها.

وبسبب الطبيعة السلبية لغالب البشر فيكفي أن يقتنع عدد كبير من البشر بفكرة سياسية، وذلك لأن أغلبهم من الكسالى والمستسلمين. لكن من يريد أن يصبح عضواً فلا بد أن يستخدم عقله، وهؤلاء هم الأقلية.

فإذا كانت الحالة كذلك، فإن على من يعمل بالدعاية أن يسعى بلا كلل وراء كسب مزيد من المؤيدين للحركة. كما أن على المنظم أن يجتهد في البحث عن أفضل عناصر هؤلاء المؤيدين حتى يحولهم إلى أعضاء. وليس لمن يعمل بالدعاية أن يشغل تفكيره بقيمة كل فرد ممن يكسب تأييدهم للحركة. وليس له أن يفكر في قدراتهم أو ذكائهم أو شخصياتهم. وذلك لأن من يقوم بالتنظيم سيختار منهم من لديه القدرة على العمل الإيجابي حتى تصل الحركة إلى تحقيق النصر.

فمن يعمل بالدعاية يدعو كل من يقابله للقبول بتعاليم الحركة، بينما يضم من يعمل بالتنظيم الجديد من الأعضاء للحركة ممن يرى أنهم لن يعوقوا انتشار التعاليم بين المزيد من المؤيدين الجدد لمذهب الحركة.

❖ | نشر الأفكار من خلال الدعاية..

ومن يعمل بالدعاية يلقي تعاليم الحركة لجموع الناس، وهو بذلك يعدهم للوقت الذي ينتصر فيه هذا المذهب، وذلك من خلال مجموعة من الأعضاء الأكفاء الذين أثبتوا أن لديهم قدرات وإرادة قوية تمكنهم من تحقيق هذا النصر.

ويصبح النجاح النهائي لهذه الحركة سهلاً إن استطاع من يعمل بالدعاية تحويل عدد كبير من الناس إلى مؤيدين لهذا المذهب وإذا كان التنظيم المتبع من أجل الوصول إلى تلك الأهداف قوياً وصلباً وشاملاً.

فإذا ما استطاع عمل الدعاية أن يحول شعباً بأكمله إلى تأييد مذهب ما، يمكن للقائمين على التنظيم أن يحولوا نتائج ذلك إلى آثار عملية جيدة من خلال أعمال يقوم بها عدة

رجال فقط. فالدعاية والتنظيم - أي المؤيدين والأعضاء - يساعدان بعضهما البعض في علاقة متبادلة. فكلما كان عمل الدعاية أفضل، كلما كانت أعمال التنظيم أقل. وكلما زاد عدد المؤيدين، كان عدد الأعضاء أقل. والعكس صحيح. فإذا كانت الدعاية سيئة فلا بد أن تكون هناك أعمال تنظيم كبيرة. وإذا كان هناك عدد صغير جداً من المؤيدين، فلا بد أن يكون هناك عدد كبير من الأعضاء، وذلك إن أرادت الحركة أن تحقق نجاحاً بالفعل.

وأول واجبات من يعمل بالدعاية هو أن يضم من الناس من يمكن أن يعمل بالتنظيم فيما بعد. وأول واجبات من يعمل بالتنظيم هو أن يختار رجالاً يكونون قادرين على أعمال الدعاية ويدربهم. وثاني واجباته هو اختراق النظام الحالي وإيجاد موضع لنشر تعاليمه، وذلك بينما يقوم من يتولى التنظيم ضمان القوة التي تمكن من تحقيق النصر.

إن المفاهيم الثورية حول العالم ووجود الإنسان تحقق في العادة نجاحاً حاسماً عندما يتعلم شعب كامل ذلك المذهب الجديد أو يفرض عليه إن دعت الحاجة لذلك، وذلك عندما - من جهة أخرى - يكون التنظيم المركزي للحركة ذاتها تحت يد عدد قليل من الرجال الذين لا غنى للدولة الجديدة عنهم.

لكن هذا يعني - من جهة أخرى - أن على أي حركة ثورية كبرى أن تنشر أفكارها على نطاق واسع من خلال الدعاية. وعلى من يعمل بالدعاية أن يبذل كل جهده لجعل الأفكار الجديدة مفهومة للجميع وأن يشرحها للآخرين، أو على الأقل يمكنه أن يضع نفسه محل الآخرين ويحاول كسب ثقتهم حتى يقتنعوا بما قيل لهم. ولا بد لهذه الدعاية من عمود فقري، أي لا بد لها أن تقوم على تنظيم محدد. ويقوم المنظمون باختيار الأعضاء من بين المؤيدين الذين اكتسبتهم الدعاية. وبذلك يصبح التنظيم قوياً كلما تقدمت أعمال الدعاية وزادت كثافتها. وتصبح أعمال الدعاية أفضل كلما كان التنظيم الذي يقف خلفها قوياً ونشطاً.

لذلك فالمهمة الأسمى للعاملين بالتنظيم هي أن يدركوا أن أي خلاف أو تفرق يحدث بين أعضاء الحركة لن يؤدي إلى انقسامها وإعاقة العمل في داخلها. كما أن من واجبات المنظمين أيضاً أن يعلموا أن روح القتال لن تخفي في الحركة أو تخمد لكنها تزداد نشاطاً وقوة دائماً. فليس من الضروري أن يترادد عدد الأعضاء بلا حدود. لكن العكس هو الأفضل. فطبقاً للحقيقة القائلة بأن نسبة قليلة فقط من البشر هم من يملكون الشجاعة والقوة، فإن الحركة التي يترادد أعداد مؤيديها بلا نهاية ستصبح في يوم ما بلا أي نشاط. كما أن عدد الأعضاء الذي يترادد عن حد معين يفقد قدرته القتالية بالتدريج ولا يستطيع مساندة الدعاية لهذا المذهب بقدر كاف من القوة والتصميم.

❖ أكبر خطر تتعرض له الحركة الجديدة..

وكلما كان المذهب عظيماً وثورياً ، كان أعضاؤه أكثر قوة وذلك لأن القوة الكبيرة لهذا المذهب سترعب ضعاف القلوب وأصحاب العقول الضعيفة في الطبقة المتوسطة. فقد يعتقدون في مبادئ هذا المذهب من داخلهم، لكنهم يخشون النطق بذلك علناً. وبسبب ذلك فإن التنظيم الملهم بالأفكار الثورية حقاً سوف يجذب لعضويته هؤلاء الذين اقتنعوا به من خلال الدعاية فقط.

أما أكبر خطر تتعرض له حركة جديدة فهو الزيادة غير الطبيعية في أعضائها، نتيجة لنجاحها السريع. فطالما أن على الحركة أن تستمر في كفاحها الصعب المريع، فإن الضعاف والأنانيين سيقتربون جداً منها. وسيحاولون أن يكونوا مقبولين كأعضاء في الحزب في اللحظة التي يحقق فيها نجاحاً ساحقاً.

وبناء على كل ما ذكرت يمكننا أن نعلم لماذا تباطأت بعض الحركات ولم تحقق أهدافها بعد أن كانت ناجحة في البداية، ثم استسلمت بسبب ضعف داخلي بها لا يمكن تفسيره، وأخيراً اختفت من الساحة تماماً. فكثير من الأفراد المستسلمين وغير المرغوب فيهم والتافهين يصبحون أعضاء في تلك الحركة نتيجة للنجاح الساحق المبكر الذي تحققه، ثم يصبحون بعد ذلك أغلبية ويخنقون روح القتال عند الآخرين. ثم يوجه هؤلاء الدنيئين الحركة لخدمة مصالحهم الشخصية ويتراجعون بها إلى مستو منحط، ويتناسون تماماً أفكار الحركة الأصلية. وتخدم نيران البداية المتأججة وتهدأ روح القتال ويخلط الحزب الخمر بالماء" كما يقول أبناء الطبقة المتوسطة.

لذلك فمن الضروري للحركة أن تغلق باب التسجيل في عضويتها بمجرد أن تحقق النجاح. كما عليها أن تحرص كل الحرص فيما يحدث من تغيير في نظمها بعد ذلك وأن تنتقي القليل من بين من يتقدمون بطلبات انضمام لها. وبهذه الطريقة فقط يمكن الحفاظ على نواة الحركة سليمة وصحيحة ونقية. ولا بد للانتباه إلى ضرورة أن يتحكم قدامى القادة في توجيه تصرفات الحركة. وهذا يعني أن عليهم توجيه الدعاية التي تهدف إلى ضمان الاعتراف بالحركة على المستوى العام. وعلى الحركة نفسها - بعد أن تضمن كل الصلاحيات بين يديها - أن تقوم بكل الأعمال والإجراءات اللازمة للتطبيق العملي لأفكارها.

وبناء على تلك العناصر التي تقوم عليها الدولة، يحتل المنظمون للحركة كل المواقع المهمة التي تم الحصول عليها، كما أنهم يمثلون أيضاً كل أعضاء المجلس. ولا بد أن يستمر ذلك إلى أن تصبح مبادئ الحزب وقواعده أسساً تقوم عليها الدولة.

تدين كل الحركات الكبرى -سواء كانت ذات طبيعة سياسية أو دينية- بنجاحها إلى الاعتراف بتلك المبادئ وتبنيها. ولن يتحقق أي نجاح إن لم تطبق هذه القوانين⁽¹⁾.

❖ | التخلص من الحماقات.. والمسئولية المطلقة..

وقد اعتنيت وأنا مدير للدعاية في الحزب ليس فقط بإعداد الحركة لتصل إلى مراحل عظيمة بل اتخذت أيضاً خطوات شاملة تسمح بدخول أفضل العناصر فقط في عضوية الحركة. فكلما كانت دعايتي مثيرة ومختلفة، خاف الضعاف وأصحاب الشخصيات المترددة وابتعدوا، وهذا يمنهم من الوصول إلى النواة المكونة للحركة والتي كانت تنظمها في البداية. وربما يكونون قد ظلوا من بين المؤيدين إلا أننا لم نسمع أصواتهم. ولكن على العكس تماماً فقط التزموا الصمت. وقد أكد لي عدة آلاف من الناس في ذلك الوقت أنهم يتفقون تماماً معنا، لكنهم لم يستطيعوا أن يصبحوا أعضاء في حزبنا على أي حال. فقد قالوا: إن حركتنا حركة شديدة التغيير ومشاركتهم فيها تعرضهم لكثير من اللوم والمخاطر. لذلك فقد فضلوا البقاء كمواطنين أماناً ومسالمة وبقون في الظل، خلال تلك الفترة على الأقل. وذلك بالرغم من إخلاصهم الشديد لقضيتنا.

وقد كان ذلك في صالحنا، فلو كان كل من يقتنع بأفكارنا الثورية قد انضموا لحركتنا وأصبحوا أعضاء فيها، لنظر إلينا الناس كما لو كنا جمعية خيرية وليس كحركة شابة مفعمة بروح القتال.

حصنت الطريقة القتالية التي استخدمتها في الدعاية الميول الطبيعية لحركتنا وكانت النتيجة أننا سمحنا فقط لمن هم يحملون أفكاراً جديدة بعضوية الحزب.

وبسبب ما قمنا به من جهد في الدعاية اقتنع مئات الآلاف من المواطنين من داخلهم بأننا على حق وتمنوا لنا النصر، وذلك بالرغم من أنهم كانوا غير مستعدين لتقديم أي تضحيات شخصية من أجل قضيتنا المشتركة وليسوا مستعدين أيضاً للمشاركة فيها.

وحتى منتصف عام 1921م كانت جهود جميع المؤيدين كافية ومفيدة للحركة. لكن في صيف ذلك العام وقعت أحداث جعلت من المناسب أن يتمشى التنظيم مع ما حققته حملة الدعاية من نجاح.

وقد حاول بعض الوطنيين بمساندة من رئيس الحزب في ذلك الوقت أن يستأثروا بالسيطرة على الحزب وانتهت بفشل هذه الخديعة ثم التصويت الجماعي في اجتماع عام على وضع مسؤولية الحزب بالكامل بين يدي. وذلك في نفس الوقت الذي صدر فيه تشريع

(1) أي القواعد التي ذكرها في الفقرات السابقة.

يجعل المسؤولية الوحيدة للحزب في يد الرئيس، وألغى نظام اتخاذ القرارات في اللجان، واستخدم بدلاً منه مبدأ توزيع العمل الذي أثبت نجاحاً ممتازاً منذ ذلك الوقت.

ومنذ شهر أغسطس من عام 1921م تلقيت هذا الدعم من الحزب وأحاطني عدد من الرجال الممتازين. وسوف أذكرهم وأذكر أعمال كل منهم فيما بعد.

وأثناء عملي من أجل الاستفادة مما حققته الدعاية من نجاح وانعكاس ذلك على تنظيم الحزب اضطرت إلى إلغاء عدد من العادات القديمة نهائياً ووضعت ضوابط لا تستخدم في أي من الأحزاب الأخرى.

ففي عام 1920-1921م كانت تسيطر على الحركة لجنة اختارها الأعضاء في اجتماع عام. وكانت اللجنة تتكون من أمين صندوق أول وأمين صندوق ثان، وسكرتير أول وسكرتير ثان ورئيس للجنة ونائب له. وبالإضافة إلى كل هؤلاء كان هناك ممثل للأعضاء ومدير الدعاية وعدة مساعدين.

وبطريقة كوميدية، كانت اللجنة تحتوي على ما تحاربه الحركة من مبادئ بكل ما فيها من قوة، وهو مبدأ البرلمانيين. فهذا الحال كان يمثل كل ما تعارضه الحركة، وذلك بدءاً من المجموعات المحلية الصغيرة ومجموعات الأقاليم وكذلك المجموعات على مستوى الدولة واللجنة العليا ذاتها. فقد كان نظاماً نعاني منه جميعاً ولا زلنا.

وكان من الضروري أن نغير هذا الموقف فوراً، وذلك لأن هذا الأساس التنظيمي الداخلي السيئ لن يؤمن الحركة ولن يحقق أهدافها بل سيجعلها مستحيلة.

وكانت جلسات اللجنة تتبع بروتوكولاً محدداً وتستخدم نظام التصويت بالأغلبية لاتخاذ القرارات. وبذلك فقد كانت صورة مصغرة للبرلمان. كما لم يكن هناك أي إحساس بالمسؤولية. كما كنا نستخدم أيضاً تلك الطريقة الغير منطقية التي تستخدمها أكبر أجهزة الدولة عندما كنا ننتخب السكرتيرين وأمناء الصندوق وممثلي الأعضاء ومندوبي الدعاية والله أعلم بالباقي. وكان الجميع يعمل معاً في تناول كل موضوع ويتخذ القرار بالتصويت. وبذلك فإن مدير الدعاية يصوت في أمر يخص مسئول التمويل، ومسئول التمويل يصوت بدوره في أمر يخص نظام الحزب فقط، ويصوت مسئول التنظيم في موضوع يخص السكرتارية وهكذا.

فلماذا إذن نختار شخصاً محدداً نوكله بأعمال الدعاية عندما يكون من حق أمين الصندوق والكتابة وغيرهم أن يقولوا رأيهم في قضايا الدعاية؟ إن من يملك عقلاً لا يرى في ذلك أي معنى، وذلك يشبه تماماً عندما يحدد مجلس إدارة مصنع حلاً لموضوعات فنية أو يتخذ مهندسوه قرارات إدارية.

رفضت تشجيع تلك الحماقة وبعد وقت قصير توقفت عن حضور اجتماعات اللجنة. ولم أفعل أي شيء سوى حضور اجتماعات قسم الدعاية ولم أسمح لأي شخص من خارج هذا القسم أن يدس أنفه في أنشطتي. وبالتالي لم أتدخل في فيما يخص الآخرين.

وعندما تمت الموافقة على القانون الجديد واختاروني رئيساً للحزب، كنت أملك كل السلطات الضرورية وكان من حقي أيضاً أن أتخلص من كل تلك الحماقات. وبدلاً من طريقة اتخاذ القرارات بأغلبية الأصوات استخدمنا مبدأ المسؤولية المطلقة.

فأصبح رئيس الحزب مسؤولاً عن السيطرة على الحركة بالكامل. كما أنه يوزع العمل على أعضاء اللجنة التابعين له ويختار أفراداً محددين للقيام بأعمال خاصة. ويكون كل منهم هو المسؤول الوحيد عن المهمة الموكلة إليه. وهو يتبع رئيس الحزب فقط، ومن واجبات رئيس الحزب أن يشرف على تعاون الجميع ويختار العاملين ويصدر توجيهات عامة لتنسيق العمل المشترك.

وتغلغل مبدأ المسؤولية المطلقة تدريجياً في الحركة. وقد استغرق ذلك وقتاً أطول في المجموعات المحلية الصغيرة والمجموعات الإقليمية قبل أن يصبح هذا النظام سائداً تماماً وذلك لأن الشخصيات الضعيفة والمستسلمة كانت تعارضه. فقد مثلت فكرة تحمل المسؤولية المطلقة عن أي عمل بالنسبة لهم أمراً غير مرغوب فيه. فهم يحبون الاختفاء خلف أكتاف الأغلبية فيما يسمى بـ "اللجنة"، وبالتالي فإن ما يقومون به من تحصن وراء هذه الطريقة التي تخلي مسؤوليتهم. لكن الأمر بالنسبة لي كان ضرورياً ولا بد من تنفيذه والوقوف بشدة أمام هذا الرأي المعارض وتجريد هذا الخوف من مسؤولية اتخاذ القرار من كل الامتيازات حتى وإن مر وقت طويل قبل أن نتمكن من تفعيل ذلك، فهذا سيؤدي في النهاية إلى ظهور قادة لديهم القدرات المطلوبة التي تمكنهم من شغل المناصب.

❖ تأسيس الحزب.. وإعداد المقر..

وعلى أي حال، كان على الحركة التي تحارب طريقة البرلمان العقيمة أن تحصن نفسها من تلك الآفة. وهذا هو الشيء الوحيد الذي سيدعمها ويجعلها تستمر في الكفاح.

وفي الوقت الذي كان نظام الأغلبية مستخدماً فيه في كل مكان، فإن الحركة التي تقوم على مبدأ وجود قائد واحد عليه أن يتحمل مسؤولية كل الإجراءات الرسمية للحركة سوف يتمكن في يوم ما من التغلب على الوضع الراهن وينتصر على النظام القائم، فهذا أمر محسوم حسابياً.

وكان من الضروري أن نعيد تنظيم الحركة من الداخل. وقد ساعد التنظيم المنطقي

للحركة على إظهار الفروق ما بين القطاع الاقتصادي للحركة والخط السياسي العام لها. وقد امتد مبدأ المسؤولية الفردية إلى كل القطاعات الإدارية للحزب مما أدى إلى تجديد صحي وذلك بعد التحرر من المؤثرات السياسية والسماح لهم بالعمل وفقاً للمبادئ الاقتصادية فقط.

في خريف عام 1921م تم تأسيس الحزب، وكان الحزب لا يملك أي مقر رئيسي ولا يوجد به مسئولون وليس لديه ختم أو مواد مطبوعة. وكانت لجنة الحزب تعقد اجتماعاتها في مطعم ثم في مقهى. لكن تلك الحالة لم تدم. لذلك فقد اتخذت قراراً ومرت عدة مطاعم وفنادق بميونخ وأنا أفكر في تأجير غرفة في أي منها لتصبح مقراً للحزب، وفي فندق "إمبل" القديم كانت هناك غرفة ضيقة ذات سقف مقوس، وكانت تستخدم كغرفة احتفالات فيما مضى وكان يجتمع فيها مستشارو الإمبراطورية الرومانية في تافاريا. كانت مظلمة وكئيبة ومناسبة للغرض منها فيما سبق، وبالرغم من عدم مناسبتها للغرض الجديد إلا أنني اخترتها. وكان الشارع الصغير الذي تطل عليه نافذتها الوحيدة ضيقاً لدرجة أن الغرفة كانت تظل معتمة حتى في أيام الصيف المشمس. وقد أصبحت تلك الغرفة أول مقر لنا. وكان الإيجار يصل إلى خمسين ماركاً في الشهر، كان مبلغاً كبيراً بالنسبة لنا في ذلك الوقت. وكان علينا أن نعتدل في متطلباتنا. فلم نتجرأ على الشكوى حتى عندما أزالوا الكسوة الخشبية بعد أيام من إيجار الغرفة. فقد وضعت كسوة الجدار هذه خصيصاً لمستشاري الإمبراطورية. وبذلك أصبح المكان لا يبدو مقراً مكتبياً فقط بل كهفاً.

وعلى أي حال كانت تلك خطوة للأمام، وبعد ذلك قمنا بتركيب إضاءة كهربائية وإدخال الهاتف. أحضرنا منضدة وبعض الكراسي المستعارة وحاملاً للورق ثم دولاباً فيما بعد، واستخدمنا بوفيهين جانبيين ملكاً لصاحب العقار لتخزين الأوراق والإعلانات وغيرها.

وكلما مر الوقت أصبح من المستحيل توجيه الحركة من خلال اجتماعات اللجنة كل أسبوع فقط. كما أصبحت إدارة أعمال الحركة في ذلك الوقت غير قابلة للانتظام سوى من خلال مسئول يتلقى راتب.

لكن ذلك كان صعباً جداً بالنسبة لنا. فقد كان أعضاء الحركة لا يزالون قليلين وكان من الصعب إيجاد شخص مناسب من بينهم يتولى تلك الوظيفة ويرضى بالقليل، وفي نفس الوقت يكون مستعداً لتلبية طلبات الحركة الكثيرة التي سوف تستهلك وقته وطاقته.

وبعد بحث طويل اكتشفنا وجود جندي وافق على أن يصبح أول مدير لنا. وكان اسمه

"شوسلر" وهو رفيق سلاح قديم لي. وفي البداية كان يأتي إلى مكتبنا يومياً ما بين السادسة والثامنة مساءً. وفيما بعد كان يأتي من الخامسة إلى الثامنة مساءً. وبعد ذلك كان يقضي الفترة المسائية كلها هناك. وأخيراً أصبحت تلك الوظيفة هي وظيفته طوال الوقت وبدأ يعمل في المكتب منذ الصباح وحتى وقت متأخر من الليل. وكان مجتهداً ومستقيماً وأميناً جداً، كما كان مخلصاً لعمله وللحركة. وكان يحضر معه آلة كاتبة خاصة به، وكانت أول آلة تستخدم في خدمة هذا الحزب. وفيما بعد اشتراها الحزب بالتقسيط. وقد كنا في احتياج لخزينة صغيرة لحفظ الأوراق وسجلات العضوية خشية السرقة وليس لحماية أموالنا الكثيرة، فلم تكن هناك أموال كثيرة في ذلك الوقت. بل على العكس تماماً، كان موقفنا المالي بائساً للغاية لدرجة أنني كنت أمد يدي لأخذ أموالاً من مدخراتي الشخصية.

وبعد ثمانية عشر شهراً، أصبح المقر ضيقاً بالنسبة لنا بدرجة ملحوظة، فانتقلنا إلى مقر جديد في "كورنيلوس ستراس". ومرة أخرى كان مكتبنا في داخل مطعم، ولكن بدلاً من غرفة واحدة أصبح الآن لدينا ثلاث غرف صغيرة وغرفة كبيرة بنوافذ واسعة. وكنا مبهورين بذلك في حينه. وقد بقينا هناك حتى نهاية شهر نوفمبر عام 1923م.

❖ | صحيفة شعبية أمام الصحف اليهودية الهائلة..

وفي شهر ديسمبر من عام 1920م حصلنا على صحيفة "فولكشر بوباشتر". وهي صحيفة - كما هو واضح من اسمها - تدافع عن مطالب الشعب، وقد أصبحت الآن الأداة التي يستخدمها حزب العمال الاشتراكي الألماني القومي. وكانت تصدر مرتين في الأسبوع في البداية، ولكن مع بداية عام 1928م أصبحت صحيفة يومية. وفي نهاية شهر أغسطس من نفس العام بدأت تصدر في حجمها الكبير المعروف الآن.

وقد تعلمت الكثير من الدروس في عالم الصحافة الذي كنت غريباً عنه تماماً، وكان على أن أدفع ثمناً باهظاً مقابل ذلك.

وكانت هناك في ذلك الوقت صحيفة واحدة فقط تدافع عن قضايا الشعب وتواجه عدداً هائلاً من الصحف اليهودية. وقد كان ذلك موضع اهتمام كبير. فقد علمتني التجربة أن سبب ذلك الوضع يرجع إلى إدارة الجانب التجاري فيما يسمى بالصحف الشعبية. وقد كانت تدار طبقاً لقاعدة سيادة الرأي وليس العمل المنتج. وهذا خطأ كبير لأن الرأي ما هو في حد ذاته إلا شيء داخلي يجد طريقاً للتعبير عنه من خلال النشاط الإنتاجي. فمن يقوم بعمل قيم جداً لشعبه يعبر عن ذلك ببراعة، لكن من يتحدث فقط عن آرائه ولا يفعل أي شيء ذي قيمة أو فائدة للشعب ويفتقد بذلك طريقة التفكير الصحيح. كما أن سلوكه هذا يضر المجتمع.

وكانت صحيفة "فولكشر بوباشتر" تعتبر واحدة من تلك الصحف المسماة بالصحف الشعبية، كما هو واضح من اسمها. وكانت تتصف بكل الصفات الجيدة، لكنها تحتفظ أيضاً بكل الأخطاء ونقاط الضعف المتوارثة في كل الهيئات العامة. وبالرغم من أن محتواها كان مقبولاً إلا أن إدارة أعمالها كانت مستحيلة. وهنا أيضاً ظهرت فكرة ضرورة قبول الصحف الشعبية لمساعدات مالية من الناس، لكننا لا نرى أن على الصحيفة أن تشق طريقها وتتافس الصحف الأخرى وأنه من المخزي أن نتوقع من الوطنيين المشرفين عليها أن يدفعوا اشتراكات لتعويض الصحيفة عن أخطاء الإدارة.

✦ | رجل من طراز فريد..

وقد اعتنيت بتعديل تلك الأوضاع بسرعة، فقد لاحظت ما في ذلك من خطورة. وقد حالفني الحظ في ذلك، فقد ساندني الرجل الذي قدم للحركة خدمات لا تحصى منذ ذلك الوقت، وذلك ليس فقط من خلال عمله كمدير أعمال الجريدة ولكن أيضاً كمدير أعمال الحزب. فقد تعرفت في عام 1914م أثناء الحرب على "ماكس أمان" وقد كان رئيسي في ذلك الوقت وهو الآن مدير عام أعمال الحزب. وقد تمكنت خلال أربعة أعوام أثناء الحرب أن ألحظ القدرات غير العادية والكد والمثابرة وبقطة الضمير لشريك المستقبل.

وفي صيف عام 1921م طلبت من رفيقي العسكري القديم الذي قابلته بالصدفة أن يصبح مدير أعمال الحركة. وكانت الحركة تمر في ذلك الوقت بمرحلة حرجية، وكان لدي من الأسباب ما يكفي لعدم الاقتناع ببعض المسؤولين لدينا، وكانت لي تجربة مريرة جداً مع واحد منهم. وقد أدى وجود "ماكس أمان" إلى تحسن الموقف وتوقع مستقبل أفضل معه.

وافق "ماكس أمان" على طلبي بعد تردد طويل، لكنه اشترط ألا يكون تحت رحمة لجان عديمة الكفاءة، وأن يكون مسؤولاً أمام فرد واحد فقط.

وكانت أعمال هذا المدير للحزب لا تقدر بمال، فقد كانت معرفته التجارية متوسعة جداً وعميقة، وقد تمكن من استعادة النظام والاستقامة في كل مكاتب الحزب المتعددة. وقد ظلت مثالية منذ ذلك الوقت ولم يماثلها أو يتفوق عليها أي فرع آخر من فروع الحركة. ولكن - ومثلما يحدث دائماً - فإن القدرات العالية والتفوق يثيران الحقد والكراهية، وقد كان ذلك متوقعاً في تلك الحالة وتحملناه بصبر.

ومنذ عام 1922م طبقت أنظمة صارمة، وذلك لم يشمل فقط البناء التجاري للحركة بل شمل تنظيمها أيضاً. وبدأ استخدام نظام الملفات المركزي تسجل فيه أسماء كل الأعضاء وبياناتهم. كما وصل تمويل الحزب إلى مستو مرض، فكان من الضروري أن تغطي

الواردات كل المصروفات. وهكذا وبغض النظر عما كان موجود من صعوبات في ذلك الوقت، ظلت الحركة بلا أي ديون سوى بعض الحسابات البسيطة الجارية. وقد كان تمويل الحركة يتزايد. وقد أدير الأمر كما لو كان عملاً خاصاً. وكان الموظفون يؤدون الأعمال التي تسند إليهم طبقاً لما يتناسب مع كفاءتهم ويكونون مسئولين عنها ولا يمكنهم بأي حال أن يتخفوا وراء الولاء للحزب. فعضو الحزب الاشتراكي القومي يثبت جدارته من خلال استعداده ومثابرته وقدراته التي تمكنه من أداء أي واجبات تفرض عليه. ومن لا يقوم بواجبات وظيفته لا يمكنه أن يفخر بتقصيره فيه.

وبالعناد في مواجهة أي تأثير خارجي على الحزب، تمكن مدير أعمال الحزب أن يؤكد أنه لا توجد وظائف بلا عمل في إدارة الحزب للمؤيدين أو الأعضاء الذين يحبون التعطل. فالحركة التي تحارب الفساد المنتشر في الخدمات المدنية والأحزاب الأخرى بقوة شديدة، ولا بد لها أن تحصن نفسها ضد هذا الفساد وتمنع تسله إلى داخل جهازها الإداري. وقد حدث أن بعض العاملين بالجريدة كانوا أعضاء سابقين في حزب الشعب البافاري، لكن عملهم أكد أنهم مؤهلون تماماً. وكانت نتيجة تلك التجربة ممتازة. وبسبب هذا الاعتراف بالكفاءة الفردية كسبت الحركة حب العاملين بسرعة أكبر وتعمق شديد لم يحدث من قبل. وبذلك أصبح جميع العاملين من مؤيدي الحزب واستمروا كذلك. ولم يكن ذلك بالكلمة فقط، لكنهم أثبتوه من خلال العمل المستمر بأمانة وإخلاص وتفان في خدمة الحركة الجديدة. وكان من الطبيعي أن يفضل عضو الحزب المؤهل جيداً على من يحمل نفس الكفاءة لكنه لا ينتمي للحزب. تحولت الطريقة الحادة التي طبق بها مدير الحزب الجديد تلك المبادئ ونفذها تدريجياً - بالرغم من سوء فهمها في كثير من الأحوال - إلى ميزة كبرى تميزت بها الحركة. ونحن مدنين لذلك بأننا لم نتمكن فقط خلال فترة التضخم الصعبة - التي تسببت في انهيار كثير من المشروعات وتوقفت خلالها آلاف الصحف - من الاحتفاظ بالقسم التجاري للحزب لكن أيضاً استطاعت الحركة أن توفي بكل التزاماتها واستمرت صحيفتها في التقدم وتمكنت خلال تلك الفترة أن تُصنف كواحدة من أكبر الصحف.

❖ لا للمغفلين.. والمتطفلين..

وكان عام 1921م ذا أهمية شديدة لي لأنني نجحت كرئيس للحزب في وقف انتقادات وتطفل بعض أعضاء اللجنة فيما يخص التفاصيل الإدارية للحزب. وقد كان ذلك مهماً لأننا لا يمكننا أن نوظف رجلاً قديراً في عمل يتطفل عليه فيه تسعة من المغفلين ممن يدعون أنهم يفهمون في كل شيء أفضل منه. في حين أن ما هم مسئولون عنه فعلاً لا

يجد أي اهتمام منهم. وقد تراجع هؤلاء أخيراً وبهذوء وبحثوا عن مجال آخر يناسب نشاطهم ويمكنهم من الإشراف على كل شيء وشرح طريقة عمل كل شيء. فبعضهم كان يهوى دس أنفه في كل شيء ومستعداً دائماً بخطط رائعة لكل شيء وكذلك العديد من الأفكار والمشروعات والطرق. وعادة ما كانت أفكارهم النبيلة تلك تتمخض عن تكوين لجنة تدعي أنها أداة تحكم وتحشر أنفها في كل ما يقوم به الآخرون من أعمال. وهذا على العكس مما ينادي به الحزب من مبادئ، حيث يتدخل عديمو الكفاءة دائماً في أعمال أصحاب الكفاءة. لكن محبي تكوين اللجان لم ينتبهوا لذلك جيداً. وقد شعرت في تلك السنوات بأن من واجبي أن آخذ حذري من كل من يتولى عملاً منتظماً وأن أكون مسؤولاً عن تلك المضايقات، وبذلك نمنع التلصص على أعمالهم اليومية.

وكانت أفضل طريقة لجعل اللجان عديمة الفائدة أن نجعلها تتخذ قرارات لا يمكن تطبيقها أو أن نعطيها أعمال تقوم بها. وكان من الممتع أن أراقب أعضاء اللجان وهم صامتون ثم ما يلبثوا أن يخنقوا. وقد جعلني ذلك أفكر في "الرايخ ستاج" (1) وهو جهاز كبير، وما يحدث فيه من اختفاء للأعضاء عندما يطلب منهم العمل بدلاً من التحدث، وخاصة إن تحدد لكل عضو مهمة يكون مسؤولاً عنها.

وأنا أو من في حياتي العامة - والخاصة أيضاً - أن علينا ألا نمل من البحث عن هو مناسب وكفاء للقيادة أو الإدارة في الحركة. فبمجرد أن يوجد في موقعه يمنح صلاحيات وحرية مطلقة في التصرف مع مرؤوسيه كما أنه يصبح مسؤولاً تماماً أمام رؤسائه. ولا يمكن أن يوضع أحد الأفراد موضع المسؤولية عن عدة مرؤوسين دون أن يكون أهلاً لهذا العمل الذي أوكل إليه. وخلال عامين تمكنت من تطبيق أفكاري عملياً، لذلك فهي مقبولة اليوم كأمر مسلم به.

وقد ظهر النجاح الساحق لهذا الاتجاه في يوم 9 نوفمبر عام 1923م، وذلك بعد أربع سنوات فقط من دخولي الحركة التي لم تكن تملك حتى ختماً من المطاط. وفي يوم 9 نوفمبر عام 1923م تم حل الحزب ومصادرة أملاكه. وقد قدرت قيمة مقتنيات الحزب وأوراقه بمبلغ 170000 مارك من الذهب.



(1) أي البرلمان.

مشكلة انحادات العمال



نتيجة للنمو المضطرد للحركة في عام 1922م، فقد شعرنا بأننا مضطرون لاتخاذ موقف محدد في مشكلة لم تكن قد وجدت حلاً لها حتى ذلك الوقت.

وفي سعينا من أجل الوصول إلى أسرع وأسهل طرق وصول الحركة إلى قلوب الجماهير العريضة وكنا نواجه معارضة تقول بأن العامل لا يمكنه أن ينتمي إلينا بالكامل لأن مصالحه مهنية واقتصادية فقط، وهذه المصالح تديرها منظمات سياسية يتولاها رجال تختلف مبادئهم عن مبادئنا تماماً.

وقد كانت هذه مشكلة حادة. فقد ساد الاعتقاد بعدم إمكانية وجود عامل لا ينضم لأحد الاتحادات العمالية. ليس فقط لأنه يحمي مصالحه الحرفية من خلال هذا الاتحاد ولكن لأنه لا يضمن وجود عمل مستمر دون عضوية في اتحاد للعمال. وبصفة عامة تمكنت اتحادات العمال من توجيه المعركة بنجاح نحو وضع نظام محدد للأجور، كما عقدت اتفاقيات تضمن دخل ثابت للعامل. ومما لا شك فيه أن العمال في الحرف المختلفة ممن استفادوا من تلك الحملة لا يمكنهم - وخاصة الشرفاء منهم - الاستفادة من تلك المنجزات ثم الانسحاب بعد ذلك.

وقد سبق أن ناقشت طبيعة اتحادات العمال وضرورة وجودها والغرض منها في الجزء الأول من هذا الكتاب. وكنت أرى أنه إن لم تتخذ الدولة إجراءات (وهي عادة ما تكون بلا جدوى في تلك الأحوال) أو يحدث تغيير في قيمنا التعليمية تغير من اتجاه صاحب العمل نحو العاملين لديه فلن يوجد أمام العامل أي حل سوى الدفاع عن مصالحه بنفسه والمطالبة بحقوقه العادلة عبر الطرف الذي تعاقد من خلاله طبقاً للكيان الاقتصادي الموجود بالدولة. وقلت أيضاً إن ذلك يتطابق مع مصالح المجتمع الذي يتخلص بذلك من الظلم الواقع على أفرادهِ والذي يمكن أن يحدث ضرراً بالغاً في البناء الاجتماعي الاقتصادي. كما ذكرت أنه يرى أن من الضروري عليه دائماً أن يتخذ تلك الخطوة الوقائية طالما أن هناك أصحاب أعمال لا يشعرون بواجباتهم الاجتماعية ولا بأي حق من حقوق الإنسان. وقد اختتمت قلبي بأنه إذا كانت تلك الخطوة الدفاعية ضرورية فلا بد أن تأتي في صورة جمعية عمالية تعتمد في تكوينها على اتحادات العمال.

❖ هل اتحادات العمال ضرورية؟

وقد كانت تلك هي فكرتي العامة التي ظلت كذلك حتى عام 1922م. لكنني اكتشفت طريقة أوضح وأدق. فليس لنا أن نرضى فقط بمجرد فهم القضية. فمن الضروري أن نصل إلى نتائج قابلة للتنفيذ العملي. ولابد من الإجابة على الأسئلة التالية :

1- هل اتحادات العمال ضرورية ؟

2- هل يجب على حزب العمال الاشتراكي الألماني القومي أن يعمل على أسس اتحادات العمال، أم أن على أعضائه أن يشاركوا في أنشطة اتحادات العمال بطريقة ما أو بأخرى ؟

3- ما الصورة التي يجب أن يقوم عليها اتحاد الصناعات الوطني الاشتراكي؟ وما هي المهام التي علينا أن نواجهها والأهداف التي يجب أن نحققها ؟

4- كيف يمكننا إنشاء اتحادات عمال تقوم بتلك المهام والأهداف ؟

وأعتقد أنني قد أجبت على السؤال الأول بالفعل بما فيه الكفاية. فأنا مقتنع في الوضع الراهن أننا لا يمكننا الاستغناء عن اتحادات العمال. ولكن على العكس تماماً، فهي من أهم الهيئات في الحياة الاقتصادية للأمة. وهي ليست مهمة في مجال السياسة الاجتماعية فقط بل أيضاً في مجال السياسة القومية. فعندما يتم إشباع الاحتياجات الأساسية ل جماهير الأمة من خلال حركة عمالية عادلة، فإن ذلك يزيد من قوة ودعم الأمة ويدعم وجودها.

ووجود اتحادات العمال ضروري جداً لبناء برلمان اقتصادي في المستقبل، وهو سيتكون من غرف تمثل الحرف والمهن المختلفة.

وإجابة السؤال الثاني سهلة أيضاً. فإذا كانت حركة اتحادات العمال مهمة، فمن الواضح أن على كل اشتراكي قومي أن يكون له رأي في هذه القضية، ليس فقط من الناحية النظرية ولكن عملياً أيضاً. ولكن كيف ؟ فهذا هو الأصعب.

يجب على الحركة الاشتراكية القومية التي تهدف إلى إقامة دولة الشعب الاشتراكية القومية أن تضع في حساباتها أن يكون لكل هيئات الدولة المستقبلية جذور في الحركة ذاتها. فمن الخطأ الشديد أن السيطرة على السلطة السياسية العليا تمكننا من الحصول على اعتراف تام بدون مقدمات وبلا أي دعم من رجال تدربوا على ذلك من قبل وخاصة في داخل الحركة. وهنا أيضاً ينطبق المبدأ القائل بأن الروح دائماً أهم من الشكل الخارجي المتحرك، فالشكل يمكن إيجاده بطريقة ميكانيكية بسرعة. وعلى سبيل المثال لا بد من فرض مبدأ القيادة على أي مجتمع سياسي بطريقة ديكتاتورية. لكن هذا المبدأ من الممكن

أن يصبح حقيقة بمجرد المرور بالمراحل الكافية لتطوره. وتتم هذه المراحل من الخلية الصغيرة إلى الكائن الحي وغيره. لذلك فلا بد من وجود هيئة قيادة تتكون من عدة رجال ممن مروا بعملية انتقائية امتدت عدة سنوات كما أنهم يكونون قد أصبحوا أكثر صلابة من خلال خبرات الحياة التي جعلتهم قادرين على تنفيذ هذا المبدأ عملياً.

ولا يمكننا الاعتقاد بأن بناء أجهزة الدولة يمكن أن يتم بسرعة إخراج خطة من حافظة في لحظة وفرض ما فيها من خطط من أعلى لأسفل. ويمكننا أن نجرب تلك الطريقة لكن النتيجة تكون شيئاً لا يستطيع التحمل والاستمرار. ستكون كالطفل الذي يولد ميتاً.

ويجب أن تحذر الدولة الاشتراكية القومية من المنظمات القائمة فعلاً منذ وقت طويل. فهي تشكل حياة اشتراكية قومية في حد ذاتها، وبذلك قد تكون قادرة في النهاية على جعل الدولة الاشتراكية القومية حقيقة واقعة.

وكما سبق أن قلت، فإن الخلايا الصغيرة للدولة توجد في تلك الغرف الإدارية التي تمثل مختلف الحرف والمهن، أي في اتحادات العمال. فإذا كان ممثلو الحرف والمهن والبرلمان الاقتصادي المركزي هيئات اشتراكية قومية فإن هذه الخلايا لابد أن تكون وسائل لنقل مفهوم الحياة الاشتراكية القومية. وتلك الهيئات ستؤدي إلى وجود الدولة، لأن الدولة لا تتكون من تلقاء نفسها فجأة كما لو كان ذلك نتيجة لأعمال السحر التي تقوم بها تلك الهيئات، إلا إذا كانت تلك الهيئات تحب أن تظل بلا روح.

وإذا نظرنا للموضوع من وجهة نظر أرقى فإننا سنجد أن على الحركة الاشتراكية أن تدرك ضرورة أن تكون لها سياسة عمالية خاصة بها.

❖ | اتخاذ موقف إيجابي تجاه اتحادات العمال..

ويجب عليها أن تفعل ذلك لسبب آخر من أجل تعريف أصحاب الأعمال والعاملين بمبادئ القومية الاشتراكية، ليتعاونوا معاً من خلال إطار عمل موحد للمجتمع القومي، ولهذا لا يحدث من خلال التعليم النظري، ولكن من خلال شقاء الحياة اليومية. ومن هذا المنطلق فإن على الحركة أن تعلم مجموعات اقتصادية متعددة وأن تجعلها قريبة من بعضها البعض من خلال منظور أكبر. وبدون ذلك العمل التمهيدي يكون من الخيال أن نأمل في إيجاد مجتمع قومي في الحقيقة.

لذلك كان على الحركة أن تتخذ موقفاً إيجابياً تجاه فكرة اتحادات العمال. وعليها أن تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك أيضاً. فكان عليها أن تمد العدد الهائل من أعضاء ومؤيدي حركة اتحادات العمال بالدراسة العملية الكافية التي تلبي مطالب إنشاء دولة قومية اشتراكية.

والإجابة على السؤال الثالث يمكن أن تستخرج مما قلته.

فاتحادات العمال الاشتراكية الوطنية ليست أداة لرفاهية طبقة محددة، ولكنها تمثل عدداً من الحرف والمهن. والدولة الاشتراكية القومية لا تعترف بالطبقات. لكنها تعترف فقط بالمواطنين طبقاً لقانونها السياسي، ولهم جميعاً حقوق والتزامات متساوية. كما أنها تعترف بالإضافة إلى ذلك بالراعايا الذين ليس لهم أي حقوق سياسية من أي نوع.

وبناء على المبادئ الاشتراكية الوطنية فليس من مهام اتحادات العمال أن تجمع الرجال وتحولهم تدريجياً إلى طبقة ما، وذلك لتستخدمهم في الصراع ضد مجموعات أخرى تنشأ في المجتمع بنفس الطريقة. فليس لنا بالتأكيد أن نوكل اتحادات العمال بتلك المهمة، فقد كانت تلك هي مهمتها في اللحظة التي أصبحت فيها سلاحاً في يد الماركسيين. فاتحادات العمال ليست بطبيعتها أداة لرفاهية طبقة محددة، لكن الماركسيين حولوها إلى أداة يستخدمونها في صراعهم الطبقي. فقد خلقوا السلاح الاقتصادي الذي استخدمته اليهودية الدولية بغرض تدمير قواعد اقتصاد الدولة الحرة المستقلة، وتدمير الصناعة الوطنية والتجارة، وبذلك تستبعد الأمم الحرة لتخدم المصالح المالية العالمية لليهود والتي تتجاوز كل الحدود بين الدول.

❖ نعم للإضراب.. لا لتعطيل الإنتاج..

وبالتعارض مع ذلك، فإن على اتحادات العمال الاشتراكية القومية أن تنظم مجموعات محددة تشارك في الحياة الاقتصادية للأمة وتساعد بذلك في تأمين نظام الاقتصاد الوطني ذاته ودعمه بقليل المفارقات التي تمارس تأثيراً هداماً في التكوين الاجتماعي للأمة وتحطم القوى الهامة في المجتمع القومي وتضر برفاهية الأمة وأخيراً فإنها تجلب الشر والخراب للحياة الاقتصادية نفسها.

لذلك فإن استخدام اتحادات العمال لطريقة الإضراب لا يجب أن يؤدي إلى التأثير على الإنتاج القومي وارتباكه، ولكن يجب أن يؤدي إلى زيادته وسهولته، وذلك من خلال محاربة كل من يتسببون في المضايقات بسبب شخصياتهم غير الاجتماعية التي تعوق كفاءة العمل وتقف عقبة في طريق الأمة ككل. وذلك لأن كفاءة الفرد ترتبط دائماً بعلاقة سببية مع الحالة الاجتماعية العامة ومكان الفرد من العملية الاقتصادية. كما أن كفاءة الفرد هي الجذر الذي يقوم عليه الرخاء الاقتصادي للأمة وذلك ينعكس بالتأكيد على مصلحة الفرد.

وسوف يراعي الموظف الاشتراكي القومي حقيقة أن الرخاء الاقتصادي للأمة يجلب له هو أيضاً السعادة.

كما أن على صاحب العمل الاشتراكي القومي أن يدرك أن رضا عماله شرط ضروري لوجود رخائه الاقتصادي واستمراره.

إن أصحاب العمل والعمال من المؤمنين بالاشتراكية القومية هم من يمثلون الأمة كلها. وهذا القدر الكبير من الحرية الشخصية المنوطة بهم ليقوموا بعملهم تفسرها حقيقة أن التجربة قد أظهرت أن القوى الإنتاجية عند الفرد تتحسن عندما يمنح قدراً من الحرية وليس بالأوامر الملزمة التي تصدر له من عل. ومن خلال هذه الحرية أيضاً يفسح المجال أمام عملية الانتقاء الطبيعي التي تدفع بالأكثر كفاءة وقدرة واجتهاد إلى الأمام. لذلك فإن الإضراب ما هو إلا وسيلة أمام اتحادات العمال يمكن - أو يجب - اللجوء إليها طالما أن الدولة الاشتراكية القومية لم توجد بعد. ولكن بعد إنشاء هذه الدولة فإنها - بالطبع - ستمنع الصراع الجماعي بين هاتين المجموعتين الهامتين وهما أصحاب العمل والعمال، فهو صراع نتج عنه دائماً تقليل الإنتاج القومي والإضرار بمجتمع الأمة. وبدلاً من ذلك الصراع، تتولى الدولة الاشتراكية القومية مهمة الدفاع عن حقوق الطرفين. وسوف يكون من واجبات غرفة الاقتصاد أن تحافظ على نظام الاقتصاد في الدولة ليعمل بانتظام وسهولة وإزالة أي عقبات أو أخطاء قد يعاني منها. والقضايا التي تحارب من أجلها الملايين الآن سوف تحل في داخل اتحادات المهن والحرف المختلفة وفي البرلمان الاقتصادي المركزي. وبذلك لن يجد أصحاب الأعمال والعمال أنفسهم في صراع متبادل حول الأجور وساعات العمل وذلك يؤدي بالإضرار بمصالحهما معاً. لكنهما سيحلان تلك المشكلات وفقاً لخطة عليا تراعي مصالح المجتمع والدولة وتهتدي بها أثناء المباحثات.

❖ | مصالح الدولة فوق مصالح الحزب..

وهنا، ومرة أخرى لابد من تطبيق المبدأ الصارم القائل بأن مصالح الدولة تأتي في المقدمة وتسبق مصالح الحزب.

وستتولى اتحادات العمال الاشتراكية القومية مهمة تعليم أعضائها وإعدادهم بما يتفق مع تلك المبادئ. ويمكننا أن نوضح هذه المهمة كالتالي: علينا جميعاً أن نعمل من أجل الحفاظ على الشعب وأمنه وعلى دولة الشعب، وعلى الجميع أن يساهم في ذلك بما يتناسب مع القدرات والطاقات التي منحها له الطبيعة والتي تطورها وحسنها ودربها المجتمع.

وقد كان السؤال الرابع عن : كيف يمكننا إنشاء اتحادات عمال تقوم بتلك المهام وتحقيق تلك الأهداف ؟ وهذا سؤال من الصعب جداً أن نجيب عليه.

فبصفة عامة، فإن إنشاء شيء جديد في مجتمع جديد أصعب من إنشاء شيء جديد في مجتمع قديم أرسيت مؤسساته وهيئاته. فالحي الذي لا يقوم فيه نوع محدد من الأعمال

يمكنه أن يبدأ في ذلك العمل بكل سهولة. لكن الأمر يصبح أكثر صعوبة إذا كانت الظروف تسمح بوجود مشروع واحد فقط يكون كافياً للوفاء بالغرض المطلوب. وذلك لأن المسؤولين عن ذلك المشروع سيجدون أنفسهم في مواجهة أمرين وهما مشكلة تقديم هذا العمل الجديد للناس والقضاء على الأعمال الأخرى القائمة في نفس المنطقة حتى يتمكن المشروع الجديد من الظهور.

فمن غير المجدي أن ننشئ اتحاد عمال اشتراكياً قومياً يقوم جنباً إلى جنب مع اتحادات العمال الموجودة أصلاً. وذلك لأن هذا الاتحاد سوف يتشرب بكل ما عليه من واجبات وفي نفس الوقت يتحمل وجود هيئات أخرى مماثلة وعدائية. ولذلك فلا بد له أن يصر على أن وجوده فقط هو الضروري وضرورة التخلص من بقية الاتحادات الأخرى. وهو لن يستطيع التوصل إلى حل واتفاق مع الاتحادات الأخرى بسهولة، لذلك فعليه أن يفرض وجوده هو وحده كصاحب حق وحيد.

❖ كيف نزيح اتحادات العمال الماركسية من الطريق؟

وهناك طريقتان يؤديان إلى ذلك :

1- يمكننا أن ننشئ اتحاداتنا العمالية وبعد ذلك نبدأ محاربة اتحادات العمال الخاضعة للماركسية الدولية.

2- كما يمكننا دخول اتحادات العمال الماركسية ونبت فيها روحاً جديدة، وذلك من خلال فكرة تحويلها إلى أداة تخدم المثل الجديدة.

لكنني لم أنصح بالطريقة الأولى، وذلك لأن تمويلنا كان لا يزال مصدر قلق لنا في ذلك الوقت كما كانت مواردنا هزيلة. وكانت نتائج التضخم تنتشر في كل مكان مما زاد من صعوبة موقفنا، وذلك لأنه في تلك السنوات كان من الصعب أن نتحدث عن أي مساعدة مادية يمكن أن تقدمها الاتحادات لأعضائها. وبناء على ذلك لم يكن هناك أي سبب يجعل العامل يسدد اشتراكه في الاتحاد. وحتى الاتحادات الماركسية التي كانت قائمة في ذلك الوقت كانت على وشك الانهيار إلا أن الملايين انهالت على خزائنهم فجأة بسبب سياسة السيد "كونو" وهو من يسمى بالمستشار الألماني ولا بد أن يحتقره التاريخ لأنه أنقذ اتحادات العمال الماركسية.

لا يمكننا الاعتماد على تسهيلات مالية مماثلة. ولن يضطر أحد إلى الانضمام إلى اتحاد عمال جديد لا يستطيع أن يحقق من خلاله أقل مصلحة مادية بسبب عجز موارده. ومن جهة أخرى فقد شعرت أن من واجبي أن أحذر من إنشاء هيئة تكون مأوى لكل المتهربين.

وكان موضوع العاملين بالاتحاد يلعب أيضاً دوراً هاماً في ذلك الوقت. فلم يكن لدى رجل واحد أثق فيه للقيام بهذه المهمة. وقد كان كل من يستطيع إزاحة الاتحادات الماركسية عن الطريق في ذلك الوقت ويفسح المجال أمام فكرة الاشتراكية القومية يستحق أن يعتبر من أعظم رجال الدولة وأن يوضع له تمثالاً نصفياً في مكان هام ليعجب به أبناء الأجيال القادمة.

وفي هذا المجال يجب ألا نخدع بالحقيقة القائلة بأن اتحادات العمال الدولية يديرها رجال متوسطو الأهمية، وذلك لأنه عندما قامت هذه الاتحادات لم يكن هناك أي شيء مشابهاً لها وقائماً فعلاً. واليوم يجب على الحركة الاشتراكية القومية أن تحارب وحشاً موجوداً منذ فترة طويلة ويعتمد على أساس ضخم جيد الإنشاء حتى في أدق التفاصيل. وعلى المهاجم أن يظهر ذكاءً أكبر من المدافع، إن أراد الإطاحة به. وقلعة اتحادات العمال الماركسية قد تكون تحت إمرة قادة معتدلين اليوم، لكنها لن تسقط على حين غفلة بدون وجود عبقرى شجاع ذي موهبة قيادية عالية. فإن لم يكن هذا القائد موجوداً فمن العبث أن نعانى القدر ومن الحمق أن نحاول الإطاحة بالوضع القائم دون أن نكون قادرين على إيجاد ما هو أفضل منه.

وهنا يمكننا أن نطبق المثل القائل بأنه من الأفضل أن نترك شيئاً ما كما هو بدلاً من أن ننجز نصف ما هو مطلوب من أجله أو أن نفعل ما هو مطلوب بطريقة سيئة بسبب عدم استخدام الوسيلة المناسبة.

ويمكننا أن نضيف إلى كل ذلك اعتبار آخر، وهو اعتبار مقبول. فقد كنت أعتقد بشدة في ذلك الوقت - ولا زلت - أننا عندما نبدأ كفاحاً أيديولوجياً كبيراً في مجال السياسة يكون من الخطأ الشديد أن نخلط القضايا الاقتصادية مع الكفاح السياسي وهو لا يزال في مراحله الأولى. وهذا ينطبق على الشعب الألماني بالذات، فإذا حدث ذلك فإن القضايا الاقتصادية ستستنزف القوى اللازمة للصراع السياسي. ولكن بمجرد أن يفتتح الشعب أنه يمكنه أن يشتري بيتاً صغيراً بمدخراته البسيطة فإنه سيجتهد ليزيد تلك المدخرات ولن يكون لديه أي وقت فراغ يخصصه للصراع السياسي ضد من قد يستولي على تلك المدخرات - بطريقة ما أو بأخرى - في يوم ما. وبدلاً من المشاركة في الصراع السياسي من أجل آراء يقبلونها، فإنهم سيذهبون إلى ما هو أبعد من ذلك وهو فكرة الاستقرار، وفي النهاية يجدون أنفسهم في العراء.

وحركة الاشتراكية القومية لا تزال في بداية جهادها اليوم. ولابد لها قبل كل شيء أن تكون مثالياتها وتطورها. وعليها أن تستفيد من كل قدر ضئيل من طاقاتها في جهادها من

أجل الاعتراف بتلك المثل، ولن يكون نجاح هذا السعي مقنعاً إن لم تتوحد قوى الحركة وتكون بكاملها في خدمة هذا الجهاد.

وأما اليوم مثال كلاسيكي لكيفية تجمد نشاط الشعب الذي يعاني من مشكلات اقتصادية.

❖ | درس تعلمناه من تجاربنا..

والثورة التي حدثت في نوفمبر من عام 1918م لم تقم بها اتحادات العمال، لكنها قامت رغماً عن إرادتهم. فلم يشعل الشعب الألماني أي حرب سياسية من أجل مستقبل الوطن لأنه يظن أن المستقبل يمكن أن يكون آمناً بقدر كاف من خلال العمل البناء في مجال الاقتصاد.

وعلياً أن نتعلم درساً من هذه التجربة، وذلك لأن الأمر سيتكرر معنا. لذلك فكلما تركزت جهود حركتنا في الكفاح السياسي، زادت ثقتنا بأنفسنا وبالنجاح على طول جبهتنا. لكن إذا ما شغلنا أنفسنا بمشكلة اتحادات العمال قبل الأوان ومشكلة استقرار العمال وغيرها، فسيكون ذلك في غير صالح قضيتنا بصفة عامة. وعلى الرغم من أهمية هذه القضايا فإنها لا يمكن أن تحل بطريقة مرضية إلا عندما نحصل على سلطة سياسية في أيدينا ونكون قادرين على استخدامها في خدمة هذه الفكرة. وإلى أن يأتي ذلك اليوم الذي تشل فيه هذه المشكلات نشاط الحركة، فربما تسود مصالح اتحادات العمال وتحدد اتجاه الحركة، وذلك بدلاً من أن توجه الأهداف الأيدلوجية التي وضعتها الحركة اتجاهات اتحادات العمال.

فالحركة والأمة يمكنهما الاستفادة من اتحادات العمال الوطنية الاشتراكية إن استلهمت تلك الاتحادات هذه الأفكار ورأت أنها لن تصاب بأذى إن ابتعدت عن الحركة الماركسية. وذلك لأن وجود اتحادات العمال التي تعتبر نفسها في تنافس مع الاتحادات الماركسية أسوأ من عدم وجودها. وعليها أن تعلن الحرب على الاتحادات الماركسية ليس كمجرد منظمات ولكن كفكرة قبل كل شيء. ويجب أن تعلن عداؤها لفكرة الطبقات والحرب بين الطبقات، وأن يحل محل ذلك أن تعلن أنها تدافع عن مصالح المهن والحرف المختلفة للشعب الألماني.

وبعد التفكير في كل تلك الآراء لا ننصح - ولا يجب أن ننصح - بإقامة اتحادات عمال خاصة بنا. وقد كان ذلك واضحاً جداً بالنسبة لي، على الأقل إلى أن يظهر شخص يوجهه القدر إلى حل تلك المشكلة بالذات.

ولذلك كنت أفضل الاختيار الثاني⁽¹⁾.

وقد كان بإمكاننا أن نفعل ذلك⁽²⁾ في عامي 1922-1923م بصفة خاصة. فقد شهدت تلك الفترة تضخماً وضعت الفائدة المادية المرجوة من وراء اتحاد العمال وقد كنا قادرين على تسجيل عدد قليل جداً من الأعضاء في تلك الاتحادات نتيجة لظروف الحركة المادية. وكانت المضار التي قد تنتج عن تلك السياسة كبيرة ربما لأن من ينتقدها ويعارضها كثيرون حتى من بين أعضاء الحركة ذاتها.

كما أنني لا أشجع أي تجربة توحى منذ بدايتها بأنها لن تنجح. كما أنني أعتبر أنه من الجرم أن نخاطر بحرمان العامل من دخله حتى نساعد منظمة - كما اعتقد في قرارة نفسي - لا يمكنها أن تحقق أي ميزة لأعضائها.

وإذا ما اختفى حزب سياسي عن الساحة في يوم ما، فلن يضار أحد وقد يستفيد البعض، ولن يشكو من ذلك أحد. لكن من يدفع اشتراكاً في اتحاد عمال لابد له أن يتوقع مقابلاً لذلك. فإن لم يحدث ذلك فإن مديري هذا الاتحاد يعتبرون من المخادعين أو على الأقل غير مبالين بأهم ما عليهم من مسؤوليات.

وقد أخذنا بكل تلك الاعتبار في الحسبان قبل أن نتخذ قرارنا في عام 1922م، وقد رأى آخرون غير ذلك وأنشأوا اتحادات عمال، واتهمونا بقصر النظر وعدم القدرة على توقع المستقبل. لكن هذه المنظمات اختفت بعد وقت قصير، وكان ذلك سيحدث لنا لو اتخذنا نفس الطريق. لكن الفرق بيننا وبينهم هو أننا لم نخدع أنفسنا ولا من يؤمنون بنا.



(1) وهو محاولة دخول اتحادات العمال الماركسية وبث الروح الجديدة للحركة فيها، وتحويلها إلى أداة تخدم الحركة الجديدة.

(2) أي الانضمام إلى اتحادات العمال القائمة.

سياسة التحالف الألماني بعد الحرب



كانت الطريقة الضالة التي اتبعتها ألمانيا في السياسة الخارجية ناتجة عن عدم وجود مبادئ استرشادية لتكوين الأحلاف العملية المفيدة. ولم يستمر ذلك فقط بعد الثورة ولكن ازداد سوءاً أيضاً.

وذلك لأن حالة الأفكار السياسية المتداخلة قبل الحرب بصفة عامة يمكن اعتبارها السبب الرئيسي في وجود رجال دولة غير أكفاء، لكن ذلك يعود في فترة بعد الحرب إلى عدم وجود نوايا مخصصة. فكان من الطبيعي أن الأحزاب التي تمكنت من تحقيق غرضها الهدام من خلال الثورة، كانت تشعر أنه ليس من صالحها أن تكون هناك سياسة تحالف تؤدي إلى استعادة الحرية الكاملة للدولة الألمانية. فقد كان التحسن في ذلك الاتجاه لا يتمشى مع الغرض من جريمة شهر نوفمبر. وكان عليها أن تعارض وتوقف تدويل اقتصاد الأمة الألمانية والعمل الألماني. لكن أقصى ما كانوا يخشونه هو أن المحاولات الناجحة لاستقلال الدولة الألمانية عن الدول الأجنبية قد يؤثر على السياسة الداخلية بطريقة قد تتحول في يوم ما إلى كارثة تسقط على رؤوس من هم على رأس الحكم في ألمانيا الآن. ولا يمكننا أن نتوقع صحة الأمة إن لم يسبق تلك الصحوه عملية تأميم. فكل نجاح لافتم في عالم السياسة الخارجية لابد أن يحدث رد فعل جيداً في الداخل. وكما أثبتت التجربة فإن كل كفاح من أجل الحرية يزيد من الوعي القومي ويوقظ الإحساس بالعناصر والميول المعادية للوطن.

ويمكننا أن نوضح ذلك بالقول بأن من تولوا الحكم في ألمانيا منذ عام 1918م كانوا يتخذون موقفاً سلبياً تماماً تجاه السياسة الخارجية وظلت إدارة الدولة تسير بنظام يخالف كل ما فيه صالح الأمة الألمانية. كما أن ما يبدو للوهلة الأولى أنه بمحض الصدفة يتضح - بعد فحص دقيق - أنه تطور طبيعي للطريق الذي بدأت ثورة نوفمبر في عام 1918م.

ومما لا شك فيه أننا يجب علينا أن نميز بين :

1- الإدارة المسئولة عن أحوال الدولة أو بمعنى أدق: من هم مسئولون عن ذلك.

2- أعضاء البرلمان العاديون.

3- جماهير الشعب المستسلمة سهلة الانقياد ويعود ذلك إلى عدم توافر الذكاء.

الفئة الأولى تعرف ما تريد. والمجموعة الثانية تجاري المجموعة الأولى وذلك لأنهم نشأوا على ذلك أو أنهم يفقدون الشجاعة التي تمكنهم من اتخاذ موقف يواجهون به هذا الضرر. أما المجموعة الثالثة فهي مجموعة مستسلمة لأنها على قدر من الغباء يمنعها من الفهم.

❖ | مشكلة السياسة الخارجية..

وبينما كان حزب العمل الاشتراكي القومي الألماني لا يزال كياناً صغيراً وغير معروف، كانت مشكلة السياسة الخارجية لا تمثل أي أهمية كبرى في نظر كثير من أعضائه. وقد كان الوضع كذلك لأن حركتنا كانت تنادي - ويجب أن تنادي - بأن حرية الدولة في السياسة الخارجية ليست منحة سماوية أو تمنحها إياها أي قوى على الأرض ولكنها ثمار تنمية قوانا الداخلية. فيجب علينا أولاً أن نتناول جذور المشكلة التي أدت إلى انهيارنا وأن نقضي على كل المستفيدين من هذا الانهيار. وبذلك نصبح في موقف يمكننا من مواصلة القتال لاستعادة حريتنا التي تمكننا من إدارة سياستنا الخارجية.

ومن السهل أن نعرف إذن، لماذا لا نولي أهمية كبرى للسياسة الخارجية خلال المراحل المبكرة لحركتنا الشابة وفضلنا التركيز على مشكلة الإصلاح الداخلي؟

ولكن عندما يكبر المجتمع الصغير وينمو بشدة، فإن هذه المنظمة الشابة تكفل ضمان وجود اهتمام كبير بتلك المشكلة وقد وجدنا أن من الضروري أن نتخذ موقفاً محدداً في مشكلة تطوير السياسة الخارجية. وكان من الضروري أن نضع الخطوط الرئيسية للعمل والتي لا تتماشى فقط مع الأفكار الأساسية لمذهبنا ولكنها تعتبر أيضاً امتداد لها في مجال السياسة الخارجية.

ولأن شعبنا لم يتلق أي تعليم سياسي يختص بعلاقاتنا الخارجية، فكان من الضروري أن نعلم قادة كل الفروع في حركتنا وكذلك جماهير الشعب المبادئ الأساسية التي تمكننا من توجيه وتنمية علاقاتنا الخارجية. وهذا من أهم المهمات الواجب إنجازها من أجل إعداد المسرح لممارسة سياسة خارجية تستعيد استقلال الأمة وتدير شئوننا الخارجية وتستعيد السيادة الحقيقية لألمانيا.

إن المبادئ الإرشادية الرئيسية التي يجب علينا دائماً أن نضعها في أذهاننا عند دراسة موضوع السياسة الخارجية ما هي إلا وسيلة من أجل الوصول إلى غاية، وهي الغاية الوحيدة التي نسعى إليها "رفاهية شعبنا". ويجب أن نتناول كل مشكلة من مشكلات السياسة الخارجية من خلال تلك النظرة فقط. فاستخدام أي حل من الحلول يتوقف على ما إذا كان سيفيد الشعب في المستقبل أم سيضر بمصالحه؟ فهذا هو الأهم.

وهذا هو الاهتمام الوحيد الذي يجب أن يسيطر على عقولنا حين نتعامل مع مشكلة ما. فسياسات الحزب والاعتبارات الدينية والمثل الإنسانية وكل ما يشابهها يجب أن تفسح الطريق لتحقيق هذا الهدف.

أوزار الحرب كان الهدف الرئيسي للسياسة الخارجية الألمانية وهو ضمان توفير المواد اللازمة للحفاظ على الشعب وأطفاله. ويجب أن يمهّد الطريق أمام تحقيق هذا الهدف. ويجب إقامة الأحلاف المفيدة لنا والتي تجلب لنا الدعم اللازم. والمهمة الواجب تنفيذها اليوم هي نفس تلك المهمة مع اختلاف واحد وهو: في فترة ما قبل الحرب كنا نسعى للحفاظ على الشعب الألماني، وما يسانده من قوة واستقلال، لكن مهمتنا اليوم هي أن نجعل أمتنا قوية مرة أخرى من خلال إعادة بناء دولة مستقلة وقوية. وإعادة بنا مثل تلك الدولة شرط أساسي وضروري يجب تحقيقه حتى نكون قادرين على تنفيذ سياسة خارجية تخدم وجود الشعب في المستقبل وتحقق احتياجاته وتوفر احتياجاته وتمده بكل ما ينقصه منها. أي أن الهدف الذي يجب أن تسعى إليه ألمانيا اليوم من خلال سياساتها الخارجية هو إعداد الطريق لتستعيد حريتها غداً. وفي هذا المجال هناك مبدأ هام يجب علينا الاهتمام به ووضعه نصب أعيننا وهو: إن احتمال استعادة استقلال الأمة لا يرتبط باستعادة كل أراضيها وليس من المهم أن تبقى بعض القطع الصغيرة من أرضها محتلة، على أن تكون الدولة مستقلة وقادرة على منح كل أفراد الشعب تلك الروح القتالية حتى تستطيع استعادة كل أراضيها بالقوة العسكرية.

❖ | كيف نستعيد أراضينا المقتصة؟

فعندما يكون الشعب الذي يصل تعدادده إلى مائة مليون نسمة مستعبداً فقط ليحافظ على كل أراضيه بلا انقسام أو تفتت، فهذا أسوأ من أن يحصل جزء من هذه الدولة وهذا الشعب على استقلاله التام. والوضع الطبيعي في ذلك هو أن يتمسك ذلك الجزء المستقل بواجبه ولا ينادي فقط بالاتحاد مع بقية أجزاء الوطن التي ينتمي إليها بل عليه أيضاً أن يعد العدة اللازمة للمواجهة العسكرية التي ستمكنه في النهاية من تحرير بقية الأرض التي تعاني من الظلم والتحامها من جديد لتكون وطن واحد.

وعلينا أيضاً أن نعرف أن استعادة الأجزاء المفقودة من الدولة - من الناحيتين العرقية والسياسية - يجب أن تشمل استعادة السيطرة السياسية والاستقلال للدولة الأم في البداية، ثم بعد ذلك ينظر إلى بقية القطاعات باعتبارها أمراً ثانوياً مقارنة بمهمتنا الأولى وهي تحرير الأرض الرئيسية. وذلك لأن المستعمرات والقطاعات المتعرضة للظلم لن تتحرر بسبب نواح واعتراض المضطهدين ولكن من خلال لجوء الجزء الذي استعاد حريته من الأمة إلى استخدام القوة بغرض استعادة تلك الأراضي التي كانت تابعة للأرض الأم في يوم ما.

لذلك فإن استعادة الأرض المغتصبة يتطلب أولاً أن نعمل بقوة من داخل ذلك الجزء الذي تبقى من الدولة بعد التقسيم. لذلك يجب إيقاظ همم الشعب وتوقيتها بجذب مزيد من القوى لمساندتها، وعندما تحين الساعة المناسبة يهب الجميع لتحقيق هدف واحد وهو تحرير الأمة وتوحيدها. لذلك فلا بد أن يهدف الجهاد في كل أجزاء الوطن إلى أمر واحد، وهو الحفاظ على ما تبقى من أرض الوطن فهو ما يمكننا من فرض إرادتنا على إرادة العدو وبذلك يتم تصحيح ما وقعنا فيه من أخطاء. وذلك لأن الاحتجاج لن يعيد الأرض المغتصبة إلى صدر الوطن الأم "ألمانيا". فهذا ممكن فقط من خلال استخدام السيف.

والعناية بهذا السيف واجب ينبغي أن نعتني به السياسة الداخلية التي تتبعها الحكومة الوطنية. وكل ما على السياسة الخارجية أن تفعله الآن هو أن تعترف بضرورة إعداد السلاح وتجنيد من يحملونه.

❖ كيف تتوسع ألمانيا لتؤمن لشعبها الطعام؟

وقد تحدثت في الجزء الأول من هذا الكتاب عن عدم كفاءة سياسة التحالفات في بلادنا قبل الحرب. وكانت هناك أربع طرق متاحة لتأمين الطعام اللازم لشعبنا. وقد تم اختيار أسوأ طريقة وكانت الطريقة الرابعة. فبدلاً من طريقة التوسع المعتدل في أوروبا استخدم حكمان طريقة التوسع الاستعماري والامتداد التجاري. وقد كانت سياسة خاطئة تماماً لأنهم افترضوا أنها ستجلبهم الصراع العسكري. لكنها كانت طريقة مكشوفة وأدت إلى سقوطنا على الأرض أمام الجميع. وما الحرب العالمية إلا تصفية للحساب الأخير مع ألمانيا الناتج عن سياستها الخارجية.

والطريق الصحيح الذي كان يجب علينا أن نتبعه في تلك الأيام كانت الطريقة الثالثة. فقد أشرت إلى أهمية زيادة قوة ألمانيا كقوة في قارة أوروبا عن طريق الحصول على مزيد من الأراضي الأوروبية. وفي نفس الوقت نتوسع في المستعمرات الخارجية كلما أمكن ذلك. على أن يتم ذلك كله من خلال سياسة عملية موحدة. وبالطبع لم يكن من الممكن تنفيذ هذه السياسة سوى من خلال التحالف مع إنجلترا أو من خلال تخصيص جهود مضمينة لزيادة القوة العسكرية والسلاح، وهذا هو ما ظلت المشروعات الثقافية تواريه في الخلفية تماماً خلال أربعين أو خمسين عاماً. وكان لابد من تحمل تلك المسؤولية جيداً. وذلك لأن أهمية ثقافة الأمة تعتمد في الغالب على حريتها السياسية واستقلالها. والاستقلال السياسي هو شرط أساسي لوجود حضارة عظمى أو خلقها. وعلى ذلك فلا توجد أي تضحية يمكن أن نعتبرها كبيرة أمام تأمين الحرية السياسية للأمة. فكل ما يتم خصمه من ميزانية نفقات الأغراض الثقافية -ليضاف إلى الميزانية العسكرية للدولة- يمكن أن يعاد إليها فيما بعد مع الزيادة. ولابد أن نقول أيضاً أن على الدولة بعد أن تكثف كل جهودها لغرض واحد وهو تأمين استقلالها السياسي أن تمر بفترة استعادة التوازن في

بقية المجالات الأخرى التي قدمت التضحيات. وعادة ما يحدث أن تزدهر ثقافة الأمة فجأة بعد أن كانت محددة وغير واضحة. ومثال ذلك ما مرت به اليونان من صحوة كبرى بعد فترة من اليأس عانت فيها من الحروب الفارسية. كما حولت الجمهورية الرومانية طاقاتها إلى إقامة حضارة عظيمة عندما تحررت من ضغوط حرب البونك.

وبالطبع لن تستطيع أغلبية نواب البرلمان الواهنة الغبية تحديد السياسة التي يمكن أن تخضع لها كل اهتمامات الأمة وتحددها في مهمة واحدة تعد لها الجيش وتؤدي إلى دعم أمن الدولة. وقد ضحى الأب فريدريك الأكبر بكل شيء حتى يستعد لهذا الصراع، لكن الأب المسئول عن قراراتنا البرلمانية المدموغة بخاتم اليهود لا يستطيع ذلك.

وهذا هو السبب في أن الإعدادات العسكرية الضرورية لتمكيننا من كسب أراض جديدة في أوروبا قبل الحرب كانت متوسطة، لذلك كان من الصعب علينا أن نجد دعماً حقيقياً من حلفائنا.

كما أن من وجهوا سياستنا الخارجية لم يؤمنوا بفكرة الإعداد للحرب. فقد كانوا يرفضون فكرة التوسع في أوروبا. وقد ضحوا بالتحالف مع إنجلترا في مقابل اتباع سياسة التوسع الاستعماري والتجاري. كما أنهم أهملوا طلب الدعم الروسي في نفس الوقت وقد كان ذلك منطقياً. وأخيراً فقد تورطوا في الحرب العالمية التي تخطى عنها الجميع ماعدا عائلة هابسبورج سيئة الطالع.

أما صفات سياستنا الخارجية الحالية فهي بلا أي خط محدد أو سياسة ملحوظة. وإذا كان الخطأ قبل الحرب هو أنهم فضلوا الأخذ بالخيار الرابع⁽¹⁾ كما قلت، وقد تم ذلك بطريقة واهنة، فمنذ قيام الثورة لا يستطيع أي مراقب حاد البصر أن يلحظ أي شيء في هذا المجال، فلم يكن هناك ما هو ملحوظ من جهد سوى تدمير أي إمكانية لصحوة الأمة من جديد.

وإذا ما قمنا بإجراء اختبار نزيه للموقف الحالي في أوروبا فيما يخص العلاقات بين القوى المتعددة فإننا سنصل إلى النتائج التالية :

خلال الثلاثمائة عام الماضية حددت الجهود التي قامت بها إنجلترا تاريخ قارتنا، فحرصت على بقاء الدول الأوروبية في تعارض مع بعضها البعض وعلى توازن القوى بينها، وهذا يحمي مؤخرتها وهي تنفذ سياستها العالمية.

❖ إنجلترا.. وسياستها الاستعمارية..

كانت الميول التقليدية للدبلوماسية البريطانية منذ عهد الملكة إليزابيث تسعى إلى

(1) أي غزو العالم تجارياً وإيجاد مستعمرات ألمانية بعيدة خارج أوروبا في نفس الوقت.

توظيف كل الطرق الممكنة لمنع أي قوة من تحقيق أي تفوق على بقية القوى الأوروبية والتغلب على ذلك التفوق بقوة السلاح إن دعت الحاجة لذلك. وكان الاستثناء الوحيد من ذلك هو جيش بروسيا. وقد كانت إنجلترا تريد الاستفادة من عدة قوات عسكرية لتحقيق لها أهدافها، وكانت تختارهم طبقاً للمهمة التي يجب أن تقوم بها. وكلما زادت صعوبة الموقف الإنجليزي عبر التاريخ رأت الحكومة البريطانية ضرورة تجميد الموقف السياسي للدول الأوروبية المختلفة كنتيجة للتنافس بينهم. وعندما حصلت مستعمرات شمال أمريكا على استقلالها أصبح من اللازم على بريطانيا أن تستخدم كل الجهود الممكنة للدفاع عن مؤخرتها في أوروبا. وللتمشي مع هذه السياسة فقد قللت القوات البحرية الأسبانية والهولندية إلى أبعد مدى. وعندما انتهت من ذلك، ركزت إنجلترا كل قوتها لتواجه القوة المتزايدة لفرنسا حتى تمكنت من إسقاط نابليون بونابرت وتحطيم السيطرة العسكرية الفرنسية والتي كانت تمثل العدو الأكبر الذي تخشاه إنجلترا.

وقد حدث تغير في نظرة رجال الدولة البريطانيين تجاه ألمانيا ببطء، وذلك ليس فقط لأن ألمانيا لا تمثل خطراً واضحاً على إنجلترا وذلك لأنها تقتصر إلى الوحدة القومية ولكن أيضاً لأن الرأي العام في إنجلترا - الذي كان يتطلع نحو مناطق أخرى من خلال نظام دعائي استمر لفترة طويلة - يتحول إلى أي اتجاه جديد دائماً ببطء. وكان على رجال الدولة أن يثيروا اهتمام الرأي العام ويدفعوه من أجل الوصول إلى الهدف المنشود. وعندما يحقق رجل الدولة أحد أهدافه فإنه يبحث بسرعة عن الهدف التالي. لكن التأثير في الجماهير يتم بدرجات تدريجية ويصبح توجيهها إلى الهدف الجديد للقادة السياسيين أكثر بطلاً.

وقد قررت إنجلترا موقفها الجديد في وقت مبكر يرجع إلى عامي 1870-1871م. وفي مناسبات محددة كانت تلك السياسة تتأرجح وذلك بسبب تنامي التأثير الأمريكي في الأسواق التجارية العالمية وتزايد القوى السياسية لروسيا، ولكن لسوء الحظ لم تنتهز ألمانيا تلك الفرصة وقد دعم ذلك موقف الدبلوماسية البريطانية.

نظرت إنجلترا إلى ألمانيا على أنها قوة عالمية تجارياً وعسكرياً تعتبر - بسبب ما لديها من صناعة هائلة - تهديداً لها. وقد جعل ما يسمى بالغزو السلمي للعالم من خلال التجارة - والذي رأى من يحكموننا في ذلك الوقت أنه يمثل قمة الحكمة الإنسانية - رجال الدولة الإنجليز يتبعون سياسة مقاومة لذلك. وتمثلت تلك المقاومة في عدوان منظم يناسب رجال الدولة الإنجليز الذين لا يهدفون إلى سلام عالمي غامض ولكن إلى إثبات القوى البريطانية. وعند تنفيذ تلك السياسة تحالفت إنجلترا مع الدول ذات الأهمية العسكرية الملحوظة. وهذا يتمشى مع حرصها التقليدي عند تقييم قوة عدوها وتحديد نقاط الضعف لديها.

وعندما قامت الثورة في ألمانيا، تلاشت كل مخاوف إنجلترا من سيطرة ألمانيا على العالم.

ومنذ ذلك الوقت لم تعد إزالة ألمانيا تماماً من على خريطة أوروبا مطلب إنجليزي، بل على العكس، وقد أدى الانهيار المدوي الذي حدث في نوفمبر عام 1918م بإنجلترا إلى تحقيق ما كانت تراه حلماً صعب المنال.

فقد حاربت الإمبراطورية البريطانية لمدة أربعة أعوام ونصف للتغلب على وجود قوة أخرى في القارة الأوروبية. ثم حدث انهيار مفاجئ أطاح بهذه القوة وأبعداها عن مقدمة الساحة الأوروبية. وقد بدأ هذا الانهيار واضحاً للعيان واستعيد التوازن الأوروبي خلال ثمانية وأربعين ساعة، فقد قضى على ألمانيا وأصبحت فرنسا هي القوة السياسية الكبرى في القارة الأوروبية.

أثارت الدعاية الهائلة التي تمت خلال تلك الحرب - بغرض تشجيع الرأي العام في بريطانيا على التمسك بالحرب حتى النهاية - كل الغرائز الفطرية والعواطف عند عامة الشعب وقد كان ذلك يمثل عبئاً ثقيلاً على رجال الدولة البريطانيين. فالحرب البريطانية لا تحقق أهدافها إلا بتدمير ألمانيا تجارياً واستعمارياً. وكل ما يزيد على ذلك يعتبر عبءاً أمام المصالح البريطانية. فأعداء بريطانيا فقط هم المستفيدون الوحيدون من اختفاء ألمانيا كقوة عظمى في أوروبا، ومنذ نوفمبر عام 1918م. وحتى صيف عام 1919م لم يكن من الممكن لبريطانيا أن تغير اتجاهاتها السياسية، فقد حظيت خلال الحرب - كما لم يحدث من قبل - بمشاعر عامة الشعب بصورة قوية. وكانت الروح السائدة في الشعب لا تسمح لإنجلترا بتغيير سياستها الخارجية، كما أن هناك سبباً آخر يجعل ذلك من المستحيل وهو تلك القوة التي حققتها دول أوروبية أخرى. فقد تزعمت فرنسا اتجاه المباحثات السلمية واستطاعت فرض قانونها على الآخرين. وخلال أشهر المباحثات كانت القوة الوحيدة القادرة على تغيير مسار الأحداث هي ألمانيا، لكن الحرب الأهلية مزقت ألمانيا، وأعلن من يسمون برجال الدولة فيها قبولهم وإذعانهم لكل ما يملئ عليهم.

ومن المعروف أن الدولة التي تخفق في الحفاظ على بقائها وتتوقف عن كونها عضو نشط في المجتمع الدولي تهبط إلى مستوى الأمم المستعبدة ويصبح على أراضيها أن تعاني من الاستعمار.

❖ الصراع بين إنجلترا وفرنسا على النفوذ في أوروبا..

وقد كانت الوسيلة الوحيدة أمام بريطانيا هي أن تشارك في المباحثات فقط من أجل أن تبدو كبيرة وتمنع فرنسا من تحقيق قدر أكبر من العظمة.

وفي الحقيقة، لم تحقق إنجلترا الأهداف التي دخلت الحرب من أجلها. كما أنها لم

تستطع منع القوى في القارة من تجاوز حدود واضحة تضمن لها التوازن المطلوب، لكنها حققت قدراً كبيراً التوازن وحافظت عليه.

وفي عام 1914م علقت ألمانيا بين دولتين إحداهما تملك قوة عسكرية مماثلة لها والأخرى تملك موارد عسكرية أكبر. وكان هناك أيضاً تفوق بحري بريطاني واضح. وقد تمكنت فرنسا وروسيا من كبح التقدم الألماني. وقد أدت الجغرافيا السيئة لألمانيا إلى وجود عامل آخر يزيد من صعوبة الموقف العسكري الألماني ويكبح تزايد قوتها. وكانت المؤشرات البحرية تقول: إن الموقف سيكون في صالح بريطانيا إن قام نزاع بحري معها. وعلى الرغم من أن الحدود البحرية كانت قصيرة وضيقة كانت الحدود البرية ممتدة ومكشوفة.

وقد أصبح موقف فرنسا مختلفاً اليوم حيث أنها القوة العسكرية التي لا نظير لها داخل القارة، كما أنها محمية تماماً من جهة حدودها الجنوبية باتجاه أسبانيا وإيطاليا. كما أنها كانت تأمن جانبنا بسبب الموقف الألماني الساكن. ولم تكن الطائرات الألمانية والبطاريات بعيدة المدى تستطيع مهاجمة قلب النظام البريطاني فقط بل لكن الغواصات كان يمكنها أن تهدد الطرق التجارية البريطانية. فالمعركة البحرية التي تندلع من سواحل فرنسا الطويلة على الأطلنطي وسواحل أوروبا وسواحل البحر المتوسط في شمال أفريقيا يمكن أن تؤدي إلى نتائج مدمرة في إنجلترا.

وكانت نتيجة الحرب التي قامت لمنع تقدم القوة الألمانية وإيجاد سيطرة فرنسية على القارة كالتالي: كانت النتيجة العسكرية هي تماسك فرنسا كأكبر قوة في أوروبا والاعتراف بالمساواة البحرية مع أمريكا. وكانت النتيجة الاقتصادية تتمثل في تنازل بريطانيا عن كثير من مصالحها لحلفائها وشركائها القدامى.

وقد كانت سياسة بلقنة أوروبا مطلوبة إلى درجة محددة وضرورية في الحقيقة بسبب سياسة بريطانيا العظمى، وفي نفس الوقت كانت فرنسا تريد بلقنة ألمانيا.

وكانت إنجلترا تريد دائماً - ولا تزال تريد - منع أي قوة في قارة أوروبا من الحصول على مركز عالمي مهم. لذلك فإن إنجلترا تأمل في أن تحافظ على قدر محدد من توازن للقوى بين دول أوروبا. وذلك لأن هذا التوازن يبدو شرطاً أساسياً لسيطرة إنجلترا على العالم.

وما كانت تريده فرنسا - ولا تزال تريده - هو أن تمنع ألمانيا من أن تكون قوة متجانسة. لذلك فإنها تريد الحفاظ على وجود عدة دويلات ألمانية صغيرة تتوازن قواتها مع بعضها البعض وألا تخضع جميعها لحكومة مركزية. ثم بعد ذلك - وعن طريق السيطرة على الضفة اليسرى من نهر الراين - يتحقق الشرط الأساسي لتأكيد أمنها وسيادتها في أوروبا.

والهدف الأخير للدبلوماسية الفرنسية هو أن تعارض دائماً كل ميول رجال الدولة البريطانيين.

فإذا أخذنا هذه الاعتبارات كنقطة بداية فإن كل من يمكنه أن يحسب احتمالات التحالف المتاحة أمام ألمانيا فلن يجد أمامه أي مفر من التحالف مع إنجلترا. لكن أدت سياسة الحرب الإنجليزية إلى تدمير ألمانيا. ولم يكن من الممكن أن نغض عيوننا عن الحقيقة الجلية حتى اليوم وهي أن مصالح بريطانيا لا تتطلب القضاء على ألمانيا الآن. ولكن على العكس، فالدبلوماسية البريطانية تميل الآن أكثر وأكثر وعمماً بعد عام إلى كبح جماح الرغبة الفرنسية في زيادة قوتها. وسياسة التحالفات لا يمكن أن تتم الآن ونحن نتذكر آلام الماضي، ومن الجيد أن نستفيد من تجارب الماضي. وقد علمتنا تجارب الماضي أن التحالفات التي تقوم من أجل أهداف سلبية تعاني من نقاط ضعف واضحة. فأقدار الأمم تتشابك من أجل نجاح مشترك أو مكسب مشترك أو تحقيق نصر، أو باختصار تحقيق ما يضمن قوة الأطراف المتحالفة.

❖ | التحالف مع إنجلترا وإيطاليا.. وليس مع فرنسا العدو اللدود لألمانيا..

يتضح جهل شعبنا بقضايا السياسة الخارجية من خلال تقارير الصحافة اليومية التي تتحدث عن "الود تجاه ألمانيا" الذي يظهره هذا أو ذاك من رجال الدولة، وهذه التصريحات التي تفسر على أن أصحابها سيقومون بتوجيه السياسة إلى ما فيه صالح شعبنا. وهذا كلام عبثي ومستحيل. فهذا تفسير مناسب للشخص الألماني العادي عندما يتحدث عن السياسة. فلا يوجد أي سياسي بريطاني أو أمريكي أو إيطالي يمكن أن نقول: إنه ودود تجاه ألمانيا. فأى شخص إنجليزي هو بريطاني في المقام الأول، ونفس الكلام ينطبق على كل أمريكي، ولا يوجد أي دبلوماسي إيطالي يمكن أن يتبنى سياسة ضد إيطاليا. لذلك فإن كل من يتوقع إقامة تحالفات في صالح ألمانيا بناء على ما يقوله رجال الدولة في دول أخرى إما أن يكون غيبياً أو غشاشاً. إن الشروط الأساسية لإقامة أحلاف تربط بين مصائر الأمم لا تعتمد على تعاطف أو تقدير متبادل، ولكن بناء على ما يحصده أطراف التحالف من مصالح. ومن الواضح أن أي رجل من رجال الدولة البريطانيين يعمل ما في صالح بلاده وليس ما في صالح ألمانيا. لكن من الواضح أيضاً أن بعض ما يفيد بريطانيا قد يصادف أنه من صالح ألمانيا أيضاً. ومن الطبيعي أن ذلك يمكن أن يحدث بدرجة محددة وقد ينقلب الحال تماماً في يوم من الأيام. لكن فن الحكم يتضح عندما تكون هناك في يوم من الأيام غاية ما ويجد الحلفاء أن عليهم أن يتبعوا نفس الطريق للدفاع عن مصالح مشتركة.

ويجب أن يعتمد التطبيق العملي لتلك المبادئ في عصرنا الحالي على إجابة الأسئلة التالية :

ما هي الدول التي لا تهتم بأن القوى الاقتصادية والعسكرية لفرنسا قد وصلت إلى سيطرة تامة على أوروبا بعد القضاء على ألمانيا في وسط أوروبا ؟ وما هي الدول التي تعتبر أن ذلك التطور يهدد مستقبلها ؟

الآن لابد لنا أن نستوضح النقطة التالية : فرنسا كانت وستظل عدواً لدوداً لألمانيا. أياً كانت الحكومات السابقة واللاحقة في فرنسا. وأياً كانت اتجاهاتها البرجوازية أو النابوليونية أو الديمقراطية أو الجمهورية، فإن سياستها الخارجية تتجه دائماً إلى السيطرة على حدود الراين وإلى تماسك موقف فرنسا عند النهر وإبعاد ألمانيا عنه تماماً.

وإنجلترا لا تريد أن تصبح ألمانيا قوة عالمية. وفرنسا تأمل أن تختفي أي قوة ألمانية. لكن هناك فرقاً جوهرياً. فنحن اليوم لا نقاتل من أجل أن نكون قوة عالمية ولكن فقط من أجل وجود بلادنا ووحدتها ومن أجل خبز أطفالنا. فإذا وضعنا كل ذلك في الاعتبار فلا تبقى سوى دولتين فقط في أوروبا يمكن أن نتحالف معها وهما إنجلترا وإيطاليا.

وإنجلترا لا تسعد برؤية فرنسا - التي لا تخضع قوتها العسكرية إلى أي مراقبة في أوروبا - وهي تتبع سياسة قد تتعارض مع المصالح البريطانية في يوم ما. كما أنها لن تسعد عندما ترى فرنسا وهي تسيطر على مناجم هائلة للفحم والحديد في شرق أوروبا مما يسمح لها أن تلعب في يوم ما دوراً في التجارة العالمية يهدد المصالح البريطانية. كما أن إنجلترا لن تسعد أبداً عندما ترى فرنسا وهي تثبت موقفها السياسي في أوروبا - وذلك من خلال عزل بقية الدول - وتسعى إلى مكانة سياسية عالمية أو أنها قد تضطر لذلك. وقد تتضاعف القنابل التي ألقتها المناطيد في وقت ما ألف مرة في الليلة الواحدة. لذلك فالتفوق العسكري الفرنسي يعتبر عبئاً يضغط بشدة على قلب الإمبراطورية العالمية التي تحكمها بريطانيا العظمى.

وكذلك فإن إيطاليا لم ترغب - ولن ترغب - في مزيد من القوة لفرنسا في أوروبا. فمصير إيطاليا يرتبط بأحداث البحر المتوسط وبالموقف السياسي في المناطق المحيطة بهذا البحر. أما ما دعا إيطاليا للدخول في الحرب فلم يكن رغبتها في المشاركة في زيادة قوة فرنسا ولكن من أجل توجيه ضربة قاضية لعدوها اللدود في الأدرياتيكي. لذلك فأى ترايد لقوة فرنسا في القارة يعيق تحسن مستقبل إيطاليا. وإيطاليا لا تخدع نفسها بالفكرة القائلة بأن التصاهر العرقي بين الأمم يمكن أن يقلل التنافس بينها بأي حال.

وقد أثبتت كثير من المؤشرات الهامة سابقاً أن هاتين الدولتين (بريطانيا العظمى وإيطاليا) لا تتعارض مصالحهما الطبيعية فقط مع الشروط الأساسية للوجود الألماني بل تعوقها أيضاً.

❖ الحذر من عوامل ثلاث..

لكننا عندما نفكر في احتمالات التحالف لابد أن نحذر نسيان عوامل ثلاث. أولها يخصنا والعاملان الآخران يخصان هاتين الدولتين اللتين تحدثت عنهما.

ولكن هل من الممكن أن تعقد ألمانيا تحالفاً وهي كما هي اليوم؟ وهل لأي قوة تود تدخل في تحالف رغبة في أن يساندها ويدعمها أن تتحالف مع دولة أثبتت زعمائها لسنوات عديدة عدم كفاءتهم وضعفهم وأثبتت أغلب شعبها أنه مخدوع بتعاليم الديمقراطية والماركسية، فهل يغامرون بمصالح شعبهم وبلادهم بطريقة لا يعلم خطورتها إلا الله؟ فإذا استمر الحال كما هو عليه الآن، فهل تستطيع أي قوة أن تقيم علاقات مفيدة مع دولة من الواضح أنها لا تملك الرغبة أو الشجاعة التي تمكنها من تحريك إصبع واحد من أجل الدفاع عن وجودها، أو أن تحارب معها من أجل مصالحهما المشتركة؟ ولنأخذ مثلاً بما حدث حالة التحالف الثلاثي المأساوي السابق⁽¹⁾. فهل لهذا التحالف أن يتخذ موقف "إما الحياة أو الموت" من أجل دولة تسودها صفات الخنوع الشديد في العلاقات الخارجية والخضوع المخزي داخلياً؟ وهل لهذه القوة أن ترتبط بدولة خالية من أي شيء عظيم وذلك لأن سياستها بالكامل لا تستحق ذلك؟ وهل من الممكن أن تقوم التحالفات مع حكومات خاضعة لرجال مكروهين من مواطنيهم وبالتالي يفقدون لأي احترام خارج حدود الدولة؟

لا... فالدولة التي تحترم نفسها وتتوقع من تحالفاتها أكثر من مجرد ما يقدمه البرلمانيون من لجان وقرارات لا يمكنها أن تتحالف مع ألمانيا اليوم. إن عجزنا الحالي عن إيجاد تحالف يساعد أعداءنا على نهب ثرواتنا. وإذا كانت ألمانيا لا تدافع عن نفسها بأي طريقة أخرى سوى الاعتراض الكريه لنواب البرلمان، فلماذا يهب بقية العالم للدفاع عنا. والله لا يمنح الحرية لأمة من الجبناء، وذلك بالرغم من كل ما لدينا من أحاسيس وطنية. لذلك فإن تلك الدول التي ليس لها مصالح مباشرة في القضاء علينا ليس أمامها سوى مشاركة فرنسا في حملة النهب حتى تجعل من المستحيل على فرنسا أن تنفرد بالقوة وحدها.

وفي المرتبة الثانية، علينا ألا ننسى أن الدعاية تمكنت من تغيير رأي الشعب في بعض الأمم التي كانت تعادينا في الماضي ووجهت أحاسيس قطاعات كبيرة منه إلى اتجاه محدد. فعندما نصف أمة أجنبية للشعب على أنها جماعات من الغوغاء والهمج واللصوص.. إلخ، فلا يمكننا أن نقدمها له فجأة في صورة مختلفة، فعدو الأمس لا يمكن أن يصلح حليفاً اليوم.

(1) يقصد التحالف بين ألمانيا والنمسا وإيطاليا قبل الحرب.

لكن العنصر الثالث يستحق الانتباه، وذلك لضرورة تواجد تحالفات في أوروبا في المستقبل.

﴿ اليهودي هو المحرض الأول على تدمير ألمانيا.. ﴾

فمن الناحية السياسية، لا تطمح بريطانيا إلى إحداث مزيد من الخراب في ألمانيا، فهذا الخراب سيكون في صالح أسواق المال الدولية التي يسيطر عليها اليهود. كما أن الشقاق بين رجال الدولة الرسميين في بريطانيا واليهود المسيطرين على أسواق المال لا يتضح بشدة سوى في موضوع السياسة الخارجية البريطانية. وبالتعارض مع مصالح بريطانيا، فإن التمويل اليهودي لا يهدف فقط إلى تدمير ألمانيا اقتصادياً بل يهدف أيضاً إلى استعبادها تماماً من الناحية السياسية. إن تدويل نظامنا الاقتصادي الألماني أو تحويل نظام الإنتاج لدينا ليصبح تحت سيطرة التمويل الدولي اليهودي يمكن أن يتم في دولة تمت بلشفتها تماماً. لكن القوات الماركسية التي تأتمر بأوامر اليهود المسيطرين على البورصة الدولية لم تستطع تحطيم المقاومة الوطنية في ألمانيا دون مساعدة من الخارج. ولهذا الغرض تأتي القوات الفرنسية لتتغزو أرض ألمانيا وتحدث فوضى عارمة، ثم تستسلم الدولة لهجوم شيوعي عارم يعمل في خدمة التمويل الدولي اليهودي.

لذلك فاليهودي هو المحرض الأول الآن على تدمير ألمانيا تماماً. وعندما نسمع عن هجمات ضد الألمان تحدث في أي مكان في العالم، يكون اليهودي دائماً هو المحرض. وفي وقت السلام أو وقت الحرب تعمل صحافة اليهود الخاصة بسوق المال بصفة منتظمة على إثارة العداء ضد ألمانيا، وهذا يجعل الدول تتخلى عن حيادها دولة تلو الأخرى وتدخل في تحالف دولي حتى وإن كان ضد المصالح الحقيقية لشعبها.

إن إدارة اليهود لذلك الأمر واضحة جداً. فبلشفة ألمانيا أو لنقل القضاء على الوطنيين والمفكرين الوطنيين في ألمانيا يجعل إخضاع العمال الألمان للتمويل الدولي ممكناً حيث يصبح ذلك هو الحل الوحيد أمام حركة العمال وبذلك يفرض اليهود سيطرتهم على العالم. وكما حدث عدة مرات من قبل في التاريخ، فإن ألمانيا هي الهدف الرئيسي لهذا الصراع الهائل. فإذا سقط شعبنا ودولتنا كضحايا لمن يضغطون على الأمة ويتشوقون للدماء والمال، يصبح العالم أجمع ضحية لهذه الحملة. أما إذا تحررت ألمانيا من قبضة اليهود، فسوف نتراجع قدرتهم على تهديد عدد كبير من بقية دول العالم.

من المؤكد أن اليهود يستخدمون ما لديهم من أنشطة خفية ليس فقط بغرض إبقاء العداء القديم للأمم ضد ألمانيا، ولكن أيضاً لنشر هذا العداء وجعله أكثر حدة كلما أمكن. كما كان من المؤكد أن هذه الأنشطة تتحيز لمصالح تلك الأمم التي ينشر اليهود سمومهم بين أبنائها. وبصفة عامة، يستمر اليهود في حملتهم في عدة دول عن طريق استخدام الطرق المناسبة لعقلية تلك الأمم والتي تؤدي إلى تحقيق النتائج المطلوبة، وذلك لأن

اليهود يعرفون الاتجاهات العامة لكل شعب من تلك الشعوب. ففي فرنسا يستفيد اليهود من روح المغالاة في الوطنية، وفي بريطانيا استفادوا من التجارة والنظرة السياسية للعالم. وباختصار، فهم دائماً ينظرون إلى الصفات التي تميز عقلية كل أمة. وعندما يحققون بهذه الطريقة تأثيراً محدداً على الصعيدين السياسي والاقتصادي، فإنهم يدخلون التعديلات التي توضح نواياهم الحقيقية وأهدافهم التي يحاربون من أجلها. حيث يبدأ عملهم التخريبي بسرعة ويحولون الدول دولة تلو الأخرى إلى كتل من الخراب ليقيمون عليها إمبراطورية يهودية ذات سيادة دائمة إلى الأبد.

❖ جريمة في حق الجنس الأبيض!

وفي إنجلترا وإيطاليا أصبح التضاد فيما بين رجال الدولة والسياسة اليهودية في البورصة واضح بشدة.

وفي فرنسا فقط يبدو اليوم أن هناك تفاهماً عميقاً بين البورصة التي يسيطر عليها اليهود والسياسة التي يتبعها رجال الدولة هناك. وهذه الآراء تمثل خطراً هائلاً على ألمانيا. ولهذا السبب فقط كانت فرنسا -مستظل- أخطر أعداء ألمانيا. إن الشعب الفرنسي الذي تسيطر عليه الأفكار الزنجية أكثر وأكثر يمثل خطراً على الجنس الأبيض في أوروبا وذلك لارتباطه بحملة اليهود من أجل السيطرة على العالم. لذلك فالتلوث الذي أحدثه الاختلاط مع الدم الزنجي في ألمانيا - قلب أوروبا - يتمشى مع ذلك العداء السادي المتوارث ضد شعبنا وهو يناسب كل الحسابات اليهودية التي ستستفيد من هذه الوسيلة في إفساد قلب القارة الأوروبية وإصابة الجنس الأبيض من خلال اختلاطه مع أجناس أدنى مما يدمر القاعدة التي تقوم عليها أسس الاستقلال.

إن أنشطة فرنسا في أوروبا اليوم التي تسيطر عليها الرغبة الفرنسية في الثأر والتي يوجهها اليهود ما هي إلا جريمة في حياة الجنس الأبيض وسوف تؤدي في يوم ما إلى إثارة روح الانتقام من الفرنسيين حيث سيتم اعتبارهم مسئولين عن أصل هذه الجريمة التي ارتكبت في حق البشرية من خلال تلوين العرق.

أما ما يخص ألمانيا، فإن الخطر الذي تمثله فرنسا يفرض علينا التعاون مع كل من يخضع لنفس التهديد ولا يريد أن يمر بمعاناة بسببه ويخشى من سطوة فرنسا.

وسوف تكون هناك قوتان فقط في أوروبا يمكن لألمانيا التحالف معها من الآن ولفترة طويلة وهما بريطانيا العظمى وإيطاليا.

فإذا ما نظرنا إلى الماضي لنرى كيف أدارت ألمانيا سياستها الخارجية منذ بداية الثورة - وما قامت به حكومتها من استسلام تام وغير مبرر - فإما أن ننهار أو نشور غضباً ونهاجم هذا النظام. فالطريقة التي عملوا بها لا تنبئ بأي رغبة في الفهم، وذلك لأن قادة نوفمبر بالاشتراك مع مفكريهم الأفاضل قد أنجزوا كل ما يبدو غير مقبول لكل صاحب

عقل. فقد انحنوا أمام فرنسا واستجدوا عطفها. نعم، فخلال السنوات الأخيرة زحفوا إلى فرنسا مرات ومرات. كما هزوا ذيولهم أمام الأمة العظيمة. ولم يشارك المحركون الأساسيون لسياستنا في ذلك أبداً. وكانت فكرة إقامة صداقة مع فرنسا ما هي إلا وسيلة بالنسبة لهم يستخدمون فيها كل المحاولات الممكنة لكي تدخل ألمانيا في تحالفات. ولم يكن لديهم أي تصور عن الأهداف الفرنسية أو من هم وراء الأحداث في فرنسا. وقد فرضت عليهم حساباتهم في هذا الاتجاه واعتقدوا أن شعبنا يمكنه أن يمكس زمام المبادرة ويختار تحالفاً آخر.

من الصعب علينا بالطبع أن نعرض التحالف مع إنجلترا في المستقبل. فقد كانت الصحافة اليهودية تركز جهودها على زيادة العداء مع إنجلترا. وكثير من السذج كانوا يسقطون في هذا الشرك اليهودي. فكانوا يثرثرون عن موضوع استعادة ألمانيا لقوتها واحتجوا على سرقة مستعمراتنا. وبذلك فهم يستخدمون المادة الإعلامية التي اخترعها اليهودي من أجل عشيرته الإنجليز، وهو يستخدمها بغرض دعائي محدد. وقد قبل أبناء الطبقة البرجوازية البسطاء هذه الفكرة تدريجياً ونادوا بأن علينا أن نحارب اليوم من أجل استعادة قوتنا البحرية. وقد كان من العبث أن نوجه الأهداف الوطنية الألمانية نحو هذا الاتجاه حتى قبل الحرب وقبل أن نؤمن وضعنا على المستوى الأوروبي. وقد وصل هذا الأمل اليوم إلى قمة الاستحالة حتى يمكننا اعتباره جريمة في حق الدبلوماسية.

وعادة ما يشعر الإنسان باليأس والقفوظ عندما يرى كيف نجح محركو العرائس اليهود في تركيز انتباه الشعب على أشياء ذات أهمية من الدرجة الثانية اليوم. فهم يحرضون الشعب على التظاهر والاحتجاج بينما كانت فرنسا في نفس الوقت تمزق في أمتها إرباً إرباً وتقضي على أسس استقلال الأمة بطريقة منتظمة.

وكان عليّ أن أفكر في تلك المهارة التي أظهرها اليهودي خلال تلك السنوات، وأقصد "ساوث تيرول"⁽¹⁾ بالذات.

❖ | ساوث تيرول:

نعم "ساوث تيرول"، وسبب تناولي لتلك القضية بالذات هو أنني أطالب بمسألة ذلك الهمجى المخزي الذي اعتمد على جهل قطاعات كبيرة من الشعب وذاكرته الضعيفة وتسبب في هذا السخط، فهو جاهل بالشخصية الحقيقية لنواب البرلمان جهل الغراب بفكرة الملكية الخاصة.

(1) جنوب تيرول أحد الأقاليم المفقودة أثناء الحرب العالمية الأولى ومواطنوها من قدامى الألمان، استولت عليها إيطاليا طبقاً لمعاهدة «سان جيرمان» وتيرول منطقة تقع شرق جبال الألب، غرب النمسا وشمال إيطاليا وكانت إقليمًا نمساويًا سابقًا ثم قسمت إلى قسمين: قسم تابع للنمسا وقسم استولت عليه إيطاليا طبقاً لمعاهدة «سان جيرمان» 1919م (النشر).

وأحب أن أذكر هنا أنني كنت واحداً من أولئك الذين كانوا في مواقعهم المناسبة في الوقت الذي كان يتم فيه تحديد مصير "ساوث تايرول" أي في الفترة من أغسطس 1914م إلى نوفمبر 1918م، وقد قمت بواجب الدفاع في الجيش على أكمل وجه. وأدبت ما على من القتال خلال تلك السنوات، ليس فقط من أجل إنقاذ "ساوث تايرول" من الضياع ولكن لإنقاذ كل الأقاليم الألمانية الأخرى.

أما مقامرو البرلمان فلم يشاركوا في هذا القتال. فقد لعبوا جميعاً لعبة السياسة. ومن جهة أخرى، كنا نواصل القتال ونحن نعتقد أن النصر سيمكن الأمة الألمانية من الاحتفاظ بـ "ساوث تايرول" أيضاً. لكن الخونة أصحاب الصوت العالي حرضوا الشعب ليفعل ما يجعل هذا النصر مستحيلاً. وحدث التراجع. وكان من الطبيعي ألا تحدث الخطب الحماسية الرنانة لأعضاء البرلمان المرتدين أفخر الثياب في فيينا وميونخ أي تأثير. فالنصر كان ممكناً فقط من خلال الأعمال العسكرية على الجبهة. ومن تسبب في توقف القتال هو من ضحى بـ "ساوث تايرول" وكل الأقاليم الأخرى في ألمانيا.

وكل من يظن أن مشكلة "ساوث تايرول" يمكن حلها اليوم من خلال الاحتجاج والمظاهرات والمواكب التي تتظمها هيئات مختلفة إما أن يكون دجالاً أو ألمانياً ساذجاً.

ويجب أن يكون هذا الأمر واضحاً ومفهوماً، فلن يمكننا استعادة الأرض التي فقدناها إن اعتمدنا على الكلام فقط أو عقدنا الآمال على عصابة الأمم، لكن ذلك ممكن فقط بقوة السلاح.

وهنا يكون السؤال الوحيد المتبقى هو : من المستعد أن يحمل السلاح من أجل استعادة تلك الأرض المفقودة. ؟

أما عن نفسي، فإنني لذي الشجاعة الكافية للمشاركة في حملة استعادة "ساوث تايرول" ولكن على رأس كل الكتائب البرلمانية من الأعضاء المتبجحين وكل زعماء الأحزاب وكل مستشاري الدولة. لكن ذلك سيكون أمراً أشد فزعاً لهم مما يحدث عند دخول ثعلب في مزرعة دواجن.

وأسوأ ما في هذا العرض أن هؤلاء المتحدثين لا يؤمنون بأننا يمكننا أن نحقق أي شيء بهذه الطريقة. فكل منهم يعلم جيداً أن ما يدعونه غير ممكن ولن يجدي. وهم يفعلون ذلك فقط لأن الثثرة حول استعادة "ساوث تايرول" أسهل من الحرب من أجلها لفترة من الزمن.

فكل واحد منهم يحرص على أن يلعب دوراً يتفوق فيه في الحياة. وكنا في تلك الأيام نضحى بدمائنا، ولكن الآن، وفي يومنا هذا يحب هؤلاء الرجال استخدام أنيابهم وشحذها جيداً.

ومن المهم أن نلاحظ اليوم أن الدوائر التشريعية في فيينا تعد نفسها للعمل على استعادة "ساوث تيرول". وقد ساعدت سلالتهم الحاكمة منذ سبع سنوات في تمكين التحالف العالمي المنتصر من اغتصاب "ساوث تيرول" وذلك بعد أن حنثوا بوعودهم و خانوا العهد. والآن فإن تلك الدوائر تساند السياسة الغادرة التي اتبعتها العائلة المالكة. ولم يزعجوا أنفسهم بأي شيء يخص أقدار "ساوث تيرول" أو أي إقليم آخر، ومن الطبيعي أنه من السهل أن نبدا القتال اليوم من أجل هذه الأرض، إن كان السلاح الحالي هو سلاح العقل.

والسبب الذي جعل دوائر محددة تعتبر قضية "ساوث تيرول" محورا للعلاقات الألمانية الإيطالية خلال السنوات القليلة الماضية واضح جداً. فاليهود ومشرعو عائلة "هابسبرج" مهتمون جداً بمنع ألمانيا من مواصلة سياسة التحالف التي قد تؤدي في يوم ما إلى تحرير كل أراضي ألمانيا، وليس حباً في "ساوث تيرول". وقد تتسبب سياستهم هذه في وقوع الأضرار وليس جني الفوائد.

إن الميل إلى الكذب والبهتان من طبائع اليهود، وهذا يفسر كيف أنهم يحاولون بهدوء ووقاحة أن يعكسوا الحقائق ويجعلوها تبدو كما لو كنا نحن من يهدد "ساوث تيرول".

❖ | كيف ضاعت «تيرول»؟

وهناك إجابة واحدة واضحة يجب أن نرد بها على هؤلاء السادة، وهي:

أولاً: لقد خان "تيرول" كل ألماني صحيح وسليم البنية لم يتطوع للخدمة العسكرية على الجبهة في الفترة 1914-1918م ليقم بواجبه تجاه وطنه.

ثانياً: "ساوث تيرول" ضيعها كل من لم يساعد في دعم الأمة في تلك الفترة أو يساهم في قوة المقاومة الوطنية مما يمكن الوطن من الاستمرار في الحرب والقتال حتى النهاية.

ثالثاً : ضاعت "ساوث تيرول" بسبب كل من شارك في ثورة نوفمبر إما بالعمل المباشر أو بالسكوت والخضوع أمامها. وبهذا يسقط السلاح الأخير والوحيد الذي كان من الممكن أن ينقذها.

رابعاً: ضاعت "ساوث تيرول" بسبب كل تلك الأحزاب التي وقع مناصروها على معاهدات مجحفة في فرساي وسان جيرمان.

هكذا أصبح الحال، أيها الرجال الشجعان ... يا من تعترضون بالكلمات.

واليوم أنا أرى أن الأرض المفقودة لن تعود من خلال الكلام الجميل الذي يلقيه أعضاء البرلمان ولكن بالسيف المشحود أي بالقتال والدم الذي سيراقي.

واليوم، أنا لا أتردد في القول إنه إن لم يكن هناك من يقتلون فلن تعود "ساوث تيرول"

بالحرب، وأنا أعارض ذلك. وذلك لأنني مقتنع بأنه من غير الممكن أن نشير حماس الشعب الألماني ونحافظ عليه بطريقة مناسبة تحقق نجاح هذه الحرب. وعلى العكس تماماً فأنا اعتقد إن كان علينا أن نريق دماء الألمان مرة أخرى، فإنه من الجرم أن نفعل ذلك من أجل 200000 ألماني في حين أن هناك ملايين من الألمان المجاورين لهم ويعانون من السيطرة الأجنبية وتحول شريان ألماني مهم إلى مرتع للقنابل الإفريقية.

فإذا كان على الأمة الألمانية أن تضع نهاية للحالة التي تهدد بإزالتها من على خريطة أوروبا تماماً، فليس لها أن تقع في نفس الأخطاء التي وقعت من قبل في الحرب وتعادي العالم أجمع. لكن عليها أن تتأكد من هو ألد أعدائها حتى تركز قواتها في القتال ضده. وإذا كان من الضروري أن نقدم تضحيات حتى يستمر هذا الصراع ونحقق النصر فإن الأجيال القادمة ستدكرنا بالخير. فسوف يعلمون مقدار البؤس والتوتر الذي جعلنا نتخذ مثل ذلك القرار المرير، وبناء على ذلك فإنهم سيلاحظون مدى ما حققناه من نجاح ساحق.

ويجب أن أقول مرة أخرى أن علينا أن نهتدي بالمبادئ السياسية الأساسية التي نقول بضرورة استعادة الاستقلال السياسي والقوة في أرض الوطن أولاً كشرط أساسي لاستعادة الأقاليم الضائعة.

وأولى المهام التي يجب إنجازها هي أن نجعل هذا الاستقلال ممكناً وأن نؤمّنه بسياسة تحالف حكيمة، وأول ما تتطلبه هو الإدارة القوية للعلاقات العامة.

لكن في هذه النقطة بالذات علينا - نحن الاشتراكيين الوطنيين - أن نحذر من الانجراف في تيار الوطنيين البرجوازيين الذين ينتظرون إشارة البدء من اليهود. فسوف تحدث كارثة إن لم نعد للكفاح القادم وتنشغل حركتنا بدلاً من ذلك في مجرد الاعتراضات الشفوية.

وقد تسببت فكرة الاتحاد مع دولة هابسبرج المتفككة⁽¹⁾ في تدمير ألمانيا. كما أن التعامل غير المناسب مع السياسة الخارجية اليوم سيكون أفضل طريقة لمنع صحتنا لعدد لا حصر له من السنوات القادمة.

❖ | ثلاثة أسئلة:

وهنا لا بد لي أن أجيب على الاعتراضات التي قد تواجه الأسئلة الثلاثة التالية :

1- هل من الممكن إقامة اتحاد مع ألمانيا الحالية، ونقاط ضعفها واضحة أمام الجميع ؟

(1) إمبراطورية النمسا والمجر.

2- هل يمكن لأعدائنا السابقين أن يغيروا نظرتهم عن ألمانيا ؟

3- أليس التأثير اليهودي على الأمم الأخرى قوياً لدرجة أنه يمنعهم من إدراك مصالحهم الحقيقية، ألا يؤثر ذلك على كل نواياهم الطيبة ويفسد كل خططهم ؟

وأنا أعتقد أنني تناولت موضوعاً من الموضوعين المذكورين في السؤال الأول. فلن يقبل أحد بالتأكيد أن يدخل في تحالف مع ألمانيا اليوم. ولا توجد أي قوة في العالم تربط مصيرها بمصير دولة لا تحظى بحكومتها بأي ثقة. وكل المحاولات التي قام بها مواطنون ألمان لتفسير سلوك الحكومة بالإشارة إلى الحالة المؤسفة لعامة الناس مما يعطيها العذر، لكنني أعترض بشدة على تلك الطريقة في تناول الأمور.

إن ضعف الشخصية الذي أظهره شعبنا خلال السنوات الست الماضية يؤلمني بشدة. كما أن اللامبالاة التي يتعاملون بها مع أكثر قضايا الأمة خطورة قد تؤدي بنا إلى اليأس. إنهم جبنا ولا يملكون سوى الدعاء وطلب النجدة من السماء. لكن لابد لنا أن نذكر دائماً أننا نتحدث عن شعب قدم للعالم - منذ سنوات قليلة جداً - مثلاً - لأفضل صفات البشر - يثير كل الإعجاب. ومنذ الأيام الأولى من شهر أغسطس عام 1914م وحتى نهاية ذلك الصراع العظيم بين الأمم، لم يقدم أي شعب في العالم دليلاً على شجاعة الرجال والصبر والمثابرة والثبات أفضل مما قدمه هذا الشعب الذي يفقد عزمته ويشعر باليأس اليوم. ولا يجرو أي منا أن يؤكد أن ضعف الشخصية هي صفة أصيلة فينا. فكل ما يحدث اليوم من حولنا وعلينا أن نتحملة هو من النتائج السلبية للخيانة التي ارتكبت في التاسع من نوفمبر عام 1918م. وهنا نجد أن الشاعر صادق : "فالشر يجلب الشر". لكن وحتى في هذا العهد المؤسف، لم يفقد الشعب صفاته الحميدة بالكامل. ونحن نرى اليوم شباب ألمانيا وهم يجتمعون ويتخذون القرارات مثملاً فعلوا عام 1914م، فقد قدموا التضحيات بكامل إرادتهم من أجل بلادهم الحبيبة. وقد واصل ملايين الرجال العمل بكل حماس كما لو كانت الثورة لم تقم ولم تؤثر فيهم. وعاد الحداد إلى السندان من جديد، وعاد الفلاح إلى المحراث والعالم إلى معمله. وعاد كل منا يؤدي واجبه مرة أخرى بنفس ما كان عليه من حماس وإخلاص.

إن ما نعاني منه من ضغوط على أيدي أعدائنا لم يعد موضوعاً للسخرية كما كان في السابق بل موضوع يثير المرارة والغضب. وما من شك أن هناك تغييراً كبيراً قد حدث.

لكن هذا التطور لم يتخذ بعد شكل الحركة التي تنوي استعادة قوة الأمة السياسية واستقلالها. لكن المسئول عن ذلك هو الشعب الذي لم يتمكن من دفع ذوي الكفاءة إلى السلطة لذلك تمكن عديمو المواهب من رجال الثورة من قيادة أمتنا منذ عام 1918م نحو الدمار.

نعم، لكن كل من يتهم شعبنا اليوم يجب أن يُسأل : ماذا يمكن أن نفعل لمساعدته ؟

وماذا نقول عن الدعم السيئ الذي يقدمه الشعب لكل ما تقوم به الحكومة من إجراءات ؟ ألا يمكننا أن نقول: إنه لا توجد حكومة الآن على الإطلاق ؟ أليس لنا أن نفسر الدعم الضعيف الذي تتلقاه الحكومة على أنه علامة على وهن الأمة نفسها، أم أنه دليل على الفشل التام وإساءة استخدام الثقة في الحكومة ؟ وما الذي فعلته حكومتنا من أجل إيقاظ كبرياء الأمة واستثارة حمية الرجال ورفع روح مواجهة الأعداء ؟

وفي عام 1919م عندما فُرضت معاهدة السلام على الأمة الألمانية وكان هناك أمل أن تساعد هذه الوثيقة المليئة بالظلم على دعم صيحات المطالبة بتحرير ألمانيا. فمعاهدات السلام التي تحتوي على طلبات تنزل كالصاعقة على الشعب تتحول إلى شرارة للصحوه في المستقبل.

❖ كيف نستفيد من معاهدة فرساي المليئة بالظلم والاضطهاد؟!

فكيف استثمارنا ما ورد في معاهدة فرساي ؟

وكيف كان من الممكن لألمانيا صاحبة الإرادة القوية أن تستفيد من تلك المعاهدة المليئة بالظلم والاضطهاد في استثارة حماس الأمة إلى أبعد مدى ؟ وكيف كان من الممكن لنظام الدعاية الموجه أن يستفيد من سادية وقسوة المعاهدة حتى تتمكن من تحويل الشعب غير المهتم تماماً ليُشعر بالسخط الشديد ويقاوم بشجاعة ؟

كان من الممكن أن تُحفر كل نقطة من نقاط هذه المعاهدة في عقول وقلوب الشعب الألماني وتثير حماسهم حتى يمتلئ ستة ملايين رجل وامرأة بالحماس والشعور بالغضب والخزي، وبالتالي تتفجر نيران الأتون وتخرج منها إرادة صلبة متحدة مثل السيف. ويصبح الشعب صيحة واحدة "احملوا السلاح من جديد".

نعم ... فمعاهدة من هذا النوع يمكن أن نستخدمها في هذا الغرض. ففيها من الظلم غير المحدود والطلبات الوقحة ما يكفي لاستخدامها كسلاح للدعاية بئير الأمة ويستعيد مجدها.

كما كان من الضروري أن تستفيد تلك الدعاية من كل قصص الأطفال والصحف وكل مسرح وسينما وكل لوحة إعلانات وكل مكان خال على تلك اللوحات لخدمة هذه القضية الكبرى، وأن يستمر ذلك إلى أن يصبح الجميع ويطلبون من الله القدير أن : "يبارك في أسلحتنا عندما تحين ساعة القتال وأن يحقق لنا العدالة فهو العادل ونحصل على حريتنا الآن. اللهم بارك جهادنا."

وقد أهملت كل تلك الفرص ولم يحدث أي شيء.

فمن يندهش اليوم إن لم يكن شعبنا كما كان في سابق عهده ؟ فبقية شعوب العالم تنظر إلينا على أننا خدم عندهم فقط أو كلاب تلحق يد سيدها بعد أن يضربها بالسوط.

كما أن احتمالات التحالف مع أي دولة أخرى يعوقها اللامبالاة التي يعاني منها شعبنا وتُعاني منها حكومتنا أكثر من الشعب. لقد عم الفساد بشدة لدرجة أنهم وبعد ثمانية أعوام من الظلم الشديد الذي لا يمكن وصفه لم تظهر سوى رغبة ضعيفة جداً في التحرر.

وبسبب أن أننا قد نتبع أسلوب التحالف في المستقبل، فلا بد لأمتنا الآن أن تستعيد هيبته بين الأمم ولا بد أن يكون لها حكومة مهيبة ليست مجرد أداة في يد الدول الأجنبية تراقب بها هذا الشعب، بل عليها أن تعبر عن إرادة الأمة.

فإذا ما كان لدينا حكومة تعتبر أن هذه هي مهامها، فلن تمر سنوات ست دون أن يكون لنا سياسة خارجية شجاعة وواضحة يدعمها الشعب الذي يشعر بأن ذلك يزيد من شجاعته ويسأله.

❖ كيف نحول العدو السابق إلى حليف مخلص؟

أما الصعوبة الثالثة وهي تحول الأمم التي كانت عدواً في السابق إلى حلفاء مخلصين، فالإجابة على ذلك ما يلي :

إن هوس معاداة ألمانيا الذي تنامي في دول أخرى من خلال حرب دعائية لا بد أن يستمر بالضرورة طالما أن الشعب الألماني لا يبدي أي مقاومة. لذلك فلا بد أن تعود ألمانيا من جديد وتصبح دولة قادرة على لعب دور فعال على رقعة شطرنج السياسة الأوروبية ولا بد أن تشعر بقية الدول أنها يمكنها أن تشاركهم اللعب. وعندما تشعر الحكومة والشعب بقدرتهم على مواصلة سياسة التحالف، فإن قوة ما أو أخرى ممن يشعرون بأن مصالحهم تتماشى مع مصالحنا سوف تستخدم ما لديها من وسائل للدعاية لتغيير الرأي العام لشعبها عنا. ومن الطبيعي أن يستغرق ذلك عدة أعوام من العمل الجاد والمثابرة حتى تتحقق تلك النتيجة. ولأننا نحتاج إلى وقت طويل لتغيير الرأي العام في دولة، فمن الواجب أن نفكر بهدوء قبل أن نبدأ في هذا العمل. وهذا يعني أن ذلك العمل لا يمكن أن يبدأ إلا بعد توافر قناعة تامة بأنه يستحق الجهد المبذول من أجله وأنه سيحقق الأهداف المرجوة منه والمفيدة في المستقبل. كما لا يجب أن نحاول تغيير آراء وأحاسيس الشعب عن طريق تملق يقوم به وزير الخارجية إن لم يكن هناك أي ضمان بأن ذلك مفيد، وإلا فإن الرأي العام في الدولة موضوع تلك المحاولة يرتبك تماماً. وأكثر ما يضمن إمكانية الدخول في تحالف مع دولة ما لا يأتي بالثروة والمجاملة التي يقوم بها بعض أعضاء الحكومة بل عن طريق سياسة واضحة ومحددة وعملية تتبعها الحكومة ككل، بالإضافة إلى الدعم الذي يقدمه الرأي العام لهذه السياسة. كما أن ثقة الشعب في هذه السياسة تتضاعف إن نظمت الحكومة دعاية فعالة تشرح تلك الجهود للشعب وتضمن دعم الرأي العام لها وبذلك يكون رد فعل الشعب على ذلك هو التأييد المطلق.

لذلك فإن الأمة التي توضع في موقف أمتنا يمكن اعتبارها دولة حليفة إن ساند الشعب سياسة حكومته وإذا اتحد الاثنان تحت إرادة واحدة قوية تصر على مواصلة القتال من أجل تحرير الأمة. ولا بد من التأكد من توفر هذه الشروط قبل البدء في أي محاولة لتغيير الرأي العام في دول أخرى تأمل أن يكون لها رفيق لها يمكنه الدفاع عن مصالحها. ومعنى ذلك أنهم سيكونون مستعدين لعقد تحالف.

وهناك شيء واحد مهم لهذا الغرض على أي حال. فإذا رأينا أن مهمة خلق تغيير جذري في رأي العام في دولة ما يتطلب جهداً شاقاً - وقد لا يعرف الكثير منا معنى ذلك في البداية - فمن الحمق والجرم أن نرتكب أخطاء يمكن أن تستخدم كأسلحة في أيدي من يعارضون حدوث هذا التغيير.

وعلينا أن ندرك أن تغيير رأي الشعب تماماً يستغرق وقتاً طويلاً حتى يدرك الشعب أهداف الحكومة، فليس من الممكن أن نشرح أسباب الإعدادات الكبيرة التي تحدث من أجل تنفيذ هذه السياسة للجميع.

لذلك فمن واجب الجميع ألا يسمح بسقوط أي سلاح في أيدي الذين يتدخلون في موضوع التوصل إلى تفاهم متبادل بين الأمم. وهذا ينطبق بشدة علينا حيث يجب علينا أن نرد على الدعايات والحديث الرنان حول الوطنية التي يدعيها أبناء الطبقة البرجوازية في المقاهي. وذلك لأن استعادة أسطولنا الحربي ومستعمراتنا وغيرها لا يمكن أن يتحقق عملياً إن لم نفكر بهدوء وجدية. إن هؤلاء المنفذين أنصاف المجانين يساعدون العدو في تحقيق أهدافه القاتلة. وكل ما يحدث يفيد السياسة البريطانية ولا تستفيد منه ألمانيا.

إنهم يشنون طاقاتهم في مظاهرات لا جدوى منها تتحدى العالم أجمع. وهذه المظاهرات تضر مصالحنا ومن يشترك فيها يتناسى المبادئ الأساسية التي تضمن أي نجاح. لذلك "عندما تفعل أي شيء، يجب عليك أن تفعله بدقة". فلماذا نستمر في النجاح ضد خمس دول أو عشر ونفشل في تركيز قوانا الوطنية والبدنية لنوجه ضربة إلى قلب العدو. وبذلك نضحى باحتمال ضمان تحالف يمكننا من استعادة قوتنا في ذلك النزاع.

❖ شعبنا والأهداف الكبيرة..

وهنا نجد أن أمام الحركة الاشتراكية القومية مهمة يجب عنيها أن تنجزها. فعليها أن تعلم شعبنا ألا يركز اهتمامه على أشياء صغيرة بدلاً من الأهداف الكبيرة وألا يضع طاقته في موضوعات ثانوية وألا ينسى أن علينا أن نحارب من أجل وجود شعبنا وأن العدو الوحيد الذي نواجهه هو تلك القوى التي تسرق وجودنا.

ويبدو أن علينا أن نتحمل عبئاً ثقيلاً، لكن ذلك لا يعني أن نرفض الاستماع لصوت العقل ونستمر في الصباح غير المتعقل ضد بقية دول العالم، وذلك بدلاً من تركيز قوانا في مواجهة عدونا اللدود.

بالإضافة إلى أن الشعب الألماني ليس له أي حق في الشكوى من الطريقة التي تتصرف بها بقية دول العالم معنا، وذلك لأن هذا الشعب نفسه لم يستدع المجرمين المسؤولين عن بيع الوطن لمحاكمتهم. ولا أمل لنا في تعامل جاد معنا إن انشغلنا في الاعتراض على إنجلترا وإيطاليا شفهيًا لفترة طويلة، فذلك يسمح للأوغاد بالتجمع في بلادنا ونزع السلاح من أيدينا وكسر العمود الفقري لمقاومتنا والمقايسة على دولة ألمانيا في مقابل ثلاثين قطعة من الفضة. لقد قام العدو بما كان متوقعًا منه. وعلينا أن نتعلم من الموقف الذي اتخذته والطريقة التي تصرف بها.

وعلى أي حال، فمن لا يستطيع الارتقاء إلى هذا المستوى لابد أن يعلم أنه لا يوجد طريق آخر لتحقيق سياسة التحالف في المستقبل. فإذا كنا لا نستطيع أن نتحالف مع إنجلترا لأنها سرقت منا مستعمراتنا ولا مع إيطاليا لأنها تسيطر على "ساوث تيرول" ولا مع بولندا ولا تشيكوسلوفاكيا، فلن يكون هناك أي احتمال آخر للتحالف في أوروبا سوى مع فرنسا التي سرقت منا "الألزاس واللورين".

وقد لا يكون هناك أي شك في إمكانية وجود مصالح للشعب الألماني في هذا التحالف. لكن عندما نجد أن هناك من يتبنى ذلك الرأي فلا بد لنا أن نعتبره إما ساذجًا أو داهية مكرًا.

إن تغير مشاعر عامة الناس في تلك الأمم والتي لا تزال عدوًا لنا حتى الآن والتي سنتلاقى مصالحها مع مصالحنا في المستقبل إن أظهرت قوتنا الداخلية وإرادتنا التي تساعد في الحفاظ على وجودنا ونبدو كحلفاء مفيدين. بالإضافة إلى أنه من الضروري أن نتخلص من الطريقة عديمة الكفاءة في إنجاز المهمات ومن السلوك الإجرامي تجاه بعض الموضوعات حتى لا تجد الدعاية المعادية ما تستفيد منه لمصلحة من يريدون تعطيل مشروعاتنا التحالفية مع بعض أعدائنا القدامى.

ولا تزال الإجابة عن السؤال الثالث صعبة جدًا، فهل يمكن إقناع من يمثلون مصالح هذه الأمم التي يمكن أن تكون حليفة لنا في المستقبل بتطبيق أفكارهم رغما عن الإرادة اليهودية التي تعتبر العدو القاتل لكل الدول المستقلة ؟

❖ كيف نوقف التأثير اليهودي المدمر؟

وعلى سبيل المثال هل يستطيع رجل الدولة التقليدي في بريطانيا العظمى أن يوقف هذا التأثير اليهودي المدمر ؟

هذا السؤال كما قلته أنا تمامًا يعتبر سؤالاً صعبًا جدًا. فالإجابة تعتمد على عوامل كثيرة يستحيل اجتماعها من أجل إيداء الحكم الصائب. لكن هناك شيئًا واحدًا فقط مؤكدًا وهو إمكانية دعم قوة حكومة أي دولة في فترة ما بما يخدم مصالح الدولة وذلك عن

طريق منع القوى اليهودية من وضع المعوقات في طريق الإجراءات الدبلوماسية الضرورية.

وما الحرب الفاشستية التي أضرمتها إيطاليا ضد أسلحة اليهود الرئيسية الثلاثة - والتي لا أعرف أسبابها الحقيقية - إلا خير دليل على أن أنياب السم منتشرة في كل الدول حتى وإن كانت بطريقة غير مباشرة. وسوف يؤدي تحريم الماسونية والجمعيات السرية وإلغاء الصحافة الدولية والإلغاء التام للماركسية مع التزايد المستمر للفاشية إلى تمكين الحكومة الإيطالية - خلال أعوام - من التقدم أكثر وأكثر وتحقيق مصالح الشعب الإيطالي دون أدنى اهتمام بمحاولات اليهود.

والموقف الإنجليزي ليس مستساغاً. ففي هذه الدولة التي تتمتع بـ "كامل الحرية" يملئ اليهودي إرادته على من حوله ولا يقف عند حدود ولكن بطريقة غير مباشرة من خلال تأثيره على الرأي العام، لذلك فهناك صراع مستمر في إنجلترا بين من أوكل إليهم الدفاع عن مصالح الدولة وأبطال الدكتاتورية اليهودية العالمية.

وبعد الحرب اتضحت حدة هذا التضاد لأول مرة عندما اتخذ رجال الدولة الإنجليز موقفاً موحداً من مشكلة اليابان واتخذت الصحافة موقفاً آخر.

وبعد نهاية الحرب مباشرة ظهر العداء القديم بين أمريكا واليابان مرة أخرى. وكان من الطبيعي ألا تظل القوى الأوروبية غير مهتمة بدورها الجديد. وفي إنجلترا كانت هناك مشاعر الغيرة والقلق تجاه الأهمية المتزايدة للولايات المتحدة في كل مجالات الاقتصاد والسياسة الدوليين بالرغم مما بين البلدين من صلات النسب. ويبدو أن الدولة التي كانت مجرد مستعمرة في السابق - الابنة الكبرى - ستصبح سيدة العالم⁽¹⁾، لذلك فمن الواضح أن إنجلترا تعيد حساباتها مع حلفائها القدامى اليوم وأن رجال الدولة البريطانيين يتابعون بقلق ذلك الخطر الذي يمكن أن يحدث في أي وقت عندما تتغير الصيغة من "بريطانيا تحكم البحار" إلى "البحار ملك للولايات المتحدة".

فالدولة الكبرى التي تقع في قارة أمريكا الشمالية بما لها من موارد هائلة تتمثل في تربتها البكر منيعة أكثر من الدولة الألمانية المحاطة بالخطر من جميع الجهات. فهل سيأتي اليوم الذي تتحدد فيه مصائر الأمم من داخل هذه الدولة⁽²⁾.

وعلى الرغم من أن بريطانيا واليابان كانوا يحاربون جنباً إلى جنب في أرض المعركة في أوروبا إلا أن الحكومة البريطانية لم تقرر عقد تحالف مع شريكها الآسيوية، كما أن الصحافة اليهودية تمنع فكرة قيام أي تحالف مع اليابان.

(1) وصدقت نبوءة هتلر.. فقد أراحت الولايات المتحدة إنجلترا وحجمتها وأصبحت هي القوة الأولى في العالم بعد الحرب العالمية الثانية وتحكمت في مصائر العالم. (الناشر).

(2) يقصد الولايات المتحدة بالطبع.

ولكن كيف نفسر حقيقة أن الصحافة اليهودية ساندت سياسة الحكومة البريطانية ضد ألمانيا حتى عام 1918م وفجأة بدأت الصحافة في شق طريقها المنفرد وأظهرت عدم ولائها للحكومة.

فلم يكن من صالح بريطانيا القضاء على ألمانيا، ولكنه كان في صالح اليهود في المقام الأول. واليوم فإن القضاء على اليابان يعتبر في صالح السياسة البريطانية لكنه لا يخدم من يريدون إقامة إمبراطورية يهودية عالمية. فبينما تبذل إنجلترا كل جهدها للحفاظ على مكانتها في العالم، يعد اليهودي خطته للتغلب على ذلك.

واليهودي اليوم يرى أن الدول الأوروبية ما هي إلا أدوات مرنة بين يديه، سواء كان ذلك بطريقة غير مباشرة من خلال ما يسمى بالديمقراطية الغربية أو بطريقة مباشرة عبر روسيا البلشفية. وهذا الخطر اليهودي لم يغزو العالم القديم فقط ويوقعه في شراكه، بل هدد العالم الجديد أيضاً. فاليهود يسيطرون على القوى المالية في البورصة الأمريكية. وعاماً بعد عام يزيد اليهودي قبضته على قطاع العمال في أمة يزيد تعدادها على 120 مليون نسمة. لكن لا يزال هناك قطاع صغير جداً مستقل وهو السبب في غضب اليهود. وقد أظهر اليهود براعة شديدة في التعامل مع الرأي العام والاستفادة منه باستخدامه كوسيلة يؤمنون به مستقبلاً.

إن كبار قادة اليهود مقتنعون بأن الأمر الوارد في العهد القديم سوف يتحقق وأن اليهود سيلتزمون بقية أُمم العالم أجمع.

❖ لماذا يعادل اليهودي اليابان؟

لكن يمكن لدولة واحدة فقط من بين كل تلك الدول التي يتم تجريدها من قوميتها وسيطر عليها اليهود بتحويلها إلى مستعمرات يهودية أن تهدم كامل هذا البناء في اللحظة الأخيرة. وسبب حدوث ذلك هو أن البلشفية لا يمكن أن تستمر كنظام عالمي دون أن تسيطر على العالم أجمع. فإذا ما أظهرت دولة واحدة قدرتها على الحفاظ على قوميتها وعظمتها، عندئذ تخضع الإمبراطورية اليهودية لفكرة القومية مثلها في ذلك مثل أي حكم استبدادي آخر.

ونتيجة لخبرة اليهودي التي استمرت لعدة آلاف من السنين في التأقلم مع الظروف المحيطة به، فهو يعرف أن بإمكانه إضعاف الأمم الأوروبية من خلال تلوين الأجناس، لكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك مع دولة آسيوية مثل اليابان. فهو يستطيع اليوم خداع الألمان والإنجليز والأمريكان والفرنسيين، لكنه لا يملك أي وسيلة لخداع الآسيوي الأصفر. لذلك فهو يسعى لتدمير القومية اليابانية وهو يستفيد في ذلك مما تفعله أُمم أخرى يستخدمها كأدوات لتحقيق هدفه. وبذلك يخلص نفسه من خصم خطير قبل أن يتمكن من السيطرة

على آخر أمة ويحول هذه السيطرة إلى استبداد وظلم يعاني منه من ليس لديهم أي حيلة. واليهودي لا يريد أن يرى دولة يابانية في هذا الوجود عندما ينتهي من إقامة دولته في المستقبل ولذلك يود القضاء على اليابان قبل أن يبدأ في وضع الأساس لإمبراطوريته.

ولذلك فإن اليهودي مشغول اليوم بإحكام العداء ضد اليابان وأمم أخرى منها ألمانيا. فإذا تصادف أن رجال الدولة البريطانيين لا يزالون يبذلون جهداً للتحالف مع اليابان فقد تقود الصحافة اليهودية في إنجلترا في نفس الوقت حركة عدائية ضد هذا التحالف كما تعدّ لحرب مدمرة تدعى أنها في صالح الديمقراطية وتطلق في نفس الوقت صيحة الحرب التي تقول "تسقط اليابان المتسلطة المستعمرة".

لذلك فإن اليهودي في إنجلترا اليوم يعارض سياسة الدولة. كما أن الصراع ضد الخطر اليهودي العالمي سيبدأ في يوم ما داخل هذه الدولة أيضاً⁽¹⁾.

ومرة أخرى، فإن الحركة الاشتراكية القومية تواجه مهمة كبرى.

لا بد أن تفتح عيون شعبنا على الأمم الأجنبية وأن تذكره دائماً بالعدو الحقيقي الذي يهدد عالم اليوم. وبدلاً من تعميق العداء مع الآريين الذين يمكن أن ننفصل عنهم لفترة لكن لا بد لنا أن نظل مرتبطين بهم بسبب صلات الدم والصفات المشتركة والحضارة المشتركة التي توحدنا، يجب علينا أن نخلص في إثارة السخط العام ضد عدو الإنسانية الواضح والسبب الحقيقي لكل ما ألم بنا من محن.

ويجب على الحركة الاشتراكية القومية أن تدرك أن العدو القاتل في بلادنا معروف وأن الحرب ضده قد تكون إشارة تنبيه لأمم أخرى ترشدتهم إلى مستقبل أفضل وتثير طريق الخلاص للجنس الآري في صراعه من أجل البقاء.

وأخيراً، فليكن العقل هو ما نسترشد به وقوة الإرادة هي ما يدعمنا. وأتمنى أن نقوم بالواجب المقدس الذي سيحقق لنا بمزيد من الصبر والمثابرة، وأن تكون عقيدتنا هي ملجأنا الأسمى.



(1) يبدو أن توقعات هتلر كانت صائبة فهام أحرار بريطانيا يقفون إلى جانب الشعب الفلسطيني المضطهد ويهددون بمحاكمة مجرمي الحرب الإسرائيليين ومحاسبتهم على جرائمهم ضد الإنسانية. (الناشر).

سياسة ألمانيا في شرق أوروبا



هناك اعتباران يفرضان عليّ أن أحلّ موقف ألمانيا تجاه روسيا وهما :

- 1- قد ثبت أن هذا الموضوع هو أهم موضوعات السياسة الخارجية الألمانية.
- 2- تمثل المشكلة التي يجب علينا حلها في هذا المجال محكاً رئيسياً لقياس القدرات السياسية للحركة القومية الاشتراكية الوليدة وقدرتها على التفكير السليم واتخاذ القرارات السليمة.

ولابد أن أعترف أن ذلك الاعتبار الثاني كان دائماً مصدر توتر كبير لي. فأعضاء حركتنا لا ينتمون إلى تلك الدوائر التي كانت غير مهتمة بالعلاقات العامة، لكنهم ممن لهم آراء أقل تشدداً في هذا الموضوع. وإذا كان الحال كذلك، فمن الطبيعي أن يعاني فهمهم للسياسة الخارجية من بعض التحيز وقلة المعرفة السياسية التي تعاني منها الدوائر التي كانوا ينتمون إليها في السابق. ولا ينطبق ذلك على من أتانا من اليسار فقط، ولكن على العكس فمهما كانت التعاليم التي تلقوها في السابق مدمرة وغير مفيدة في تلك المشكلات، فذلك كان يلقي رفضاً منهم في كثير من الحالات على أقل تقدير. وفي هذه المواقف فمن الضروري أن تحل تعاليم جديدة محل ما تلقوه في السابق وأثر عليهم. وذلك لكي تتحول الصفات الطبيعية المتوافرة لديهم إلى دعم ذي قيمة.

ومن جهة أخرى، فمن الصعب أن نفرض أفكاراً سياسية محددة على عقول رجال لا تختلف عقلياتهم وخبراتهم السياسية عن مؤيدي اليسار في شيء. فقد ضحوا بما تبقى لديهم من غرائز طبيعية من أجل نظرية موضوعية بالكامل. ومن الصعب أيضاً أن نفرض على مفكرينا أن يتخذوا رأياً واقعياً فيما يخص مصالحهم ومصالح أممتهم حول السياسة الخارجية، فعقولهم محملة بأعباء ثقيلة. ولذلك فعلى الحركة القومية الاشتراكية أن تخوض حرباً صعبة ضد هؤلاء أيضاً. وهذه هي الحرب الأصعب وذلك لأنهم عادة ما يكونون عديمي الكفاءة تماماً ومغرورين لدرجة أنهم ينظرون إلى الناس العاديين باحتقار دون أي داع لذلك. ولا يستطيع هؤلاء المتكبرون المتعجرفون الذين يدعون أنهم يعرفون أكثر من بقية الناس تحليل المشكلة بهدوء وقياس ما لها وما عليها، وهذا هو الشرط الأساسي لاتخاذ أي قرار أو إجراء في مجال السياسة الخارجية.

ونفس هؤلاء هم من يوجهون سياستنا الخارجية الآن نحو مزيد من الدمار وإبادةها عن رعاية مصالح الأمة. وهم يرون أنهم يفعلون ذلك لصالح سياساتهم المدهشة، لذلك أجد أنه من الضروري أن أتحمّل الصعاب حتى أضع أمام رفاقي صورة واضحة لأهم قضايا السياسة الخارجية وهي علاقتنا الحالية مع روسيا. وسوف أتناول هذا الموضوع بالتفصيل قدر المستطاع حتى يتم فهمه بالتدريج وبقدر ما تسمح به حدود هذا الكتاب. وأبدأ بوضع الفرضية التالية :

عندما نتحدث عن السياسة الخارجية فإننا نعني الأهداف التي يجب أن تضعها الحكومة أمامها وهي تنجز مهمة إدارة علاقة الأمة مع بقية دول العالم. لذلك يجب أن تقوم المبادئ الإرشادية في هذا المجال على حقائق محددة ومعروفة. بالإضافة إلى أننا كاشتراكيين قوميين لابد أن نؤكد على المبدأ التالي فيما يخص السياسة الخارجية التي يجب أن تتبعها دولة الشعب :

لابد للسياسة الخارجية لدولة الشعب أن تضع في حسابها قبل كل شيء أن عليها واجب تأمين وجود الجنس الآري لشعب هذه الدولة. وهذا يحدث من خلال وضع تناسبا صحيا وطبيعيا بين نمو تعداد السكان من جهة والموارد المتوفرة لدى الدولة وأراضيها من جهة أخرى. ولابد أن يلتزم هذا التوازن بالضروريات الملحة لهذا الشعب.

ويعني ما أسميه أنا بالتناسب الصحي ذلك الدعم الذي يضمن للشعب موارد الدولة وما يتبعها من أراض. وكل موقف يعجز عن تحقيق ذلك يعتبر موقفاً غير صحي حتى لو استمر لعدة قرون أو ربما ألف عام. ولابد أن يؤدي ذلك إن عاجلاً أم آجلاً إلى فناء الشعب موضوع الحديث أو أفول حضارته. وما يضمن الوجود المستقل لأي شعب هو موطن متسع مريح وكاف على وجه هذه الأرض.

❖ | مساحة ألمانيا لا تؤهلها لتكون قوة عالمية..

وليس لنا أن نقيس مقدار التوسع الإقليمي المطلوب لاستيطان أبناء الأمة طبقاً لمتطلبات اليوم ولا لأهمية الإنتاج الزراعي وعلاقته بعدد السكان. وفي الجزء الأول من هذا الكتاب شرحت سياسة التحالف الألمانية قبل الحرب وأوضحت أن الأبعاد الجغرافية للدولة مهمة ليس لأنها مصدر يمد الأمة بالغذاء والمواد الخام فقط ولكنها مهمة من الناحيتين السياسية والعسكرية أيضاً. وبمجرد أن يصبح الشعب متأكداً من قدرته على العيش باستخدام ما لديه من موارد في أرضه، فلا بد له أن يفكر في كيفية الدفاع عنها. والأمن القومي يعتمد على القوة السياسية للأمة وهذه القوة تعتمد بدورها على الاحتمالات العسكرية التي يملها الموقف الجغرافي.

لذلك فالأمة الألمانية يمكنها أن تضمن مستقبلها فقط إن كانت قوة عالمية. وقد كان الدفاع عن أمتنا لمدة ألفي عام موضوعاً سائداً في التاريخ العالمي، وهذا واضح من خلال سياستنا الخارجية الناجحة أيضاً. وقد شاهدنا ذلك بأنفسنا، فقد استمر الصراع الضخم لفترة طويلة امتدت من 1914م إلى 1918م فقط من أجل بقاء ألمانيا على وجه هذه الأرض. وعُرف هذا الصراع في تاريخ العالم باسم "الحرب العالمية".

فعندما دخلت ألمانيا هذا الصراع كان يفترض أنها قوة عالمية. وأقول "يفترض" لأنها لم تكن في الحقيقة كذلك. فلو كان هناك توازن مختلف في عام 1914م بين تعداد السكان ومساحة الأرض، لكانت ألمانيا بالفعل قوة عالمية ولكانت نتيجة الحرب في صالحنا إن تغاضينا عن بقية العوامل.

وليس من واجبي هنا ولا أنوى أن أناقش ما كان يمكن أن يحدث إن تحققت شروطاً محددة. لكنني أجد لزاماً على أن أوضح الموقف الحالي على حقيقته دون تزيين، وأركز على الضعف المتوارث في هذا الموقف وذلك حتى تصل هذه الصورة واضحة إلى كوادرات الحركة الاشتراكية الوطنية.

فألمانيا ليست قوة عالمية اليوم على الإطلاق، حتى وإن كان من الممكن أن نتغلب على ضعفنا العسكري الحالي فلن يحق لنا الادعاء بأننا قوة عالمية. فأبي قوة مهمة تملكها أمة يكون التوازن فيها بين عدد السكان ومساحة الأرض سيئاً إلى ذلك الحد كما هو الحال في ألمانيا ؟ ففي عصر يُقسَّم فيه العالم بين أمم يسيطر بعضها على قارات كاملة لا يمكننا الحديث عن قوة عالمية عبارة عن دولة انتزعت من أراضيها الأصلية خمسة آلاف كيلومتر مربع.

فإذا نظرنا إلى الموضوع من حيث مساحة الأرض، فإن مساحة ألمانيا لا تذكر إذا ما قورنت مع الدول الأخرى التي تسمى بالقوى العالمية. ولا يمكن استخدام إنجلترا هنا كمثال يناقض هذا الكلام، لأن إنجلترا تمتد لتشمل ربع مساحة العالم، ويليها الاتحاد الأمريكي كدولة ضخمة، ثم روسيا والصين⁽¹⁾. وبعض هذه الدول الضخمة يزيد عن عشرة أضعاف مساحة ألمانيا. ويمكن اعتبار فرنسا قوة عظمى أيضاً، وذلك ليس فقط لأنها تزيد من قدرات جيشها باستمرار عن طريق تجنيد قوات من الملونين الموجودين في مستعمراتها الضخمة ولكن لأنها أيضاً تتجه إلى الامتزاج مع الزنوج بسرعة لدرجة أننا

(1) إنجلترا وحدها محدودة المساحة ولكنها ضخمة المساحة بمستعمراتها وإمبراطوريتها التي كانت لا تغيب عنها الشمس وأمريكا ذات مساحة كبيرة تزيد عن 7 مليون كيلو متر مربع وفرنسا لها نفس وضع إنجلترا والصين تقترب مساحتها من مساحة أمريكا.. أما كبيرتهم روسيا فهي تشغل مساحة ضخمة تقترب من 15 مليون كيلو متر مربع تقريباً. (الناشر).

يمكننا أن نقول: إن دولة أفريقية توجد الآن على التربة الأوروبية. ولا يمكن أن نقارن السياسة الاستعمارية الفرنسية مع السياسة الاستعمارية الألمانية في الماضي. فإذا ما استمرت فرنسا في نفس الطريق الذي تسير فيه الآن لمدة ثلاثمائة عام تالية، فإن كل آثار الجنس الفرنسي ستمتزج تماماً مع الجنس الأفريقي. وهذا يعني جود مستعمرات ضخمة تمتد من نهر الكونغو إلى الراين يسكنها جنس وضيع⁽¹⁾ ناتج عن عملية بطيئة ومستمرة لاختلاط للأجناس.

وهذا هو ما يوضح الفرق بين سياسة فرنسا الاستعمارية والسياسة التي اتبعتها ألمانيا. فسياسة ألمانيا الاستعمارية السابقة كانت تعتمد على أنصاف الحلول، مثلها في ذلك مثل أي شيء آخر في ألمانيا في ذلك الوقت. لذلك فلم تتوسع ألمانيا في أراض مستعمرة كبيرة توطن فيها أبناءها ولم تحاول دعم قوتها باستخدام قوات من الزنوج لأن ذلك قد يعتبر جريمة. لذلك فالجنود الذين وجدوا في شرق أفريقيا كانوا عبارة عن خطوة مترددة وضعيفة في هذا المجال، وهم في الحقيقة لم يقدموا أي شيء سوى الدفاع عن المستعمرة فقط. كما أن فكرة إحضار الجنود السود إلى مسرح الحرب في أوروبا - بغض النظر عن كون ذلك كان مستحيلاً عملياً أثناء الحرب العالمية - لم يشكل اقتراحاً يمكن تحقيقه في الأوقات المناسبة على الإطلاق. وعلى العكس تماماً من لك، نجد أن فرنسا تفكر بهذه الطريقة دائماً عندما تفكر في أنشطتها الاستعمارية.

❖ مشكلة ألمانيا جغرافية وسكانية..

لذلك يمكننا أن نجد في عالم اليوم دولاً أعظم من ألمانيا من حيث تعداد السكان والموارد التي تدعم قوتها السياسية. وذلك لأن التوازن بين موارد ألمانيا وعدد سكانها لم يكن سيئاً كما هو عليه اليوم إلا عندما بدأ التاريخ الألماني منذ ألفي عام. لكن منذ ألفي عام كنا أمة صغيرة في عالم من الأمم الكبرى المتهاكمة، وكان آخر عملاق فيها هو "روما" التي ساهمنا في إسقاطها. واليوم نجد أنفسنا في عالم من الدول الكبرى القوية التي تتضاءل أمامها أهلية دولتنا وتراجع أكثر وأكثر مع مرور الوقت.

وعلينا نأسف أن نواجه تلك الحقيقة المرة بعقول صافية وهادئة. كما يجب أن ندرس المنطقة وعلاقة تعداد السكان الألمان بالدول الأخرى ونقارن بينها خلال عدة قرون. وسوف نتوصل إلى ما قلته وهو أن ألمانيا ليست قوة عظمى سواء كانت قوتها العسكرية كبيرة أم لا.

(1) ما زال هتلر غارقاً في عنصريته ساخراً أو مستخفاً بالشعوب المغلوبة على أمرها والتي عانت من الاستعمار والاستغلال وليس لها ذنب سوى أن الله سبحانه خلقهم ببشرة سوداء. (الناشر).

فلا يوجد أي تناسب بين موقفنا ومواقف الدول الأخرى في العالم. ويعود انعدام هذا التناسب إلى أن سياستنا الخارجية لم يكن لديها هدف محدد أبداً. كما أننا افقدنا كل ما يدفعنا للحفاظ على الذات.

وحتى يكتب المؤرخون عن حركتنا في المستقبل أنها كرست جهدها لمهمة مقدسة في صالح شعبنا لأبد لهذه الحركة أن تدرك حقيقة موقفنا الحالي مقارنةً ببقية دول العالم. ومهما كانت هذه المهمة مؤلمة فلا بد للحركة أن تستمد منها الشجاعة وتعمل بكل ما أوتيت من قوة على تصحيح سياستنا الخارجية. وبذلك تتمكن الحركة من إنقاذ الشعب الألماني من خطر الفناء أو العبودية والتبعية لشعب آخر.

وعلى حركتنا أن تسعى للتغلب على كارثة هذا التوازن الحالي بين الشعب ومساحة الدولة، وأن تعتبر أراضي الدولة مصدراً للحفاظ على الشعب أو كأساس للقوة السياسية. كما عليها أن تكافح من أجل إلغاء هذا التناقض بين ما كنا عليه في الماضي وما نحن فيه اليوم. ولابد لها أن تضع في اعتبارها أثناء ذلك أننا أرقى جنس من أجناس البشر على هذه الكرة الأرضية⁽¹⁾، وبالتالي فعلينا واجب مهم. وأننا يمكننا إنجاز هذا الواجب فقط عند تشعب الشعب الألماني بفكرة الأجناس هذه وعندما يصبح حريصاً ليس فقط على تربية الكلاب والقطط والحياد ولكن قبل ذلك يحرص على نقاء الجنس الذي ينتمي إليه.

وعندما أقول إن السياسة الخارجية التي اتبعتها ألمانيا حتى الآن كانت بلا هدف وغير فعالة، فإن الدليل على كلامي يتضح بشدة في فشل تلك السياسة. فإذا كان شعبنا هذا متخلفاً أو جباناً فإن النتيجة النهائية لن تكون أسوأ مما نراه اليوم.

إن ما حدث خلال العقود التي سبقت الحرب لا يسمح بأي خداع في هذا المجال، فليس لنا أن نقيس قوة أي دولة بمفردها، ولكن بالمقارنة مع دول أخرى. وهذه المقارنة توضح حالياً أن الدول الأخرى تزايدت قوتها ليس فقط إلى درجة تتوازن مع ألمانيا ولكن إلى درجة تجعلها تتفوق عليها، ولذلك فإن العبرة ليست بالمظهر، فقد تراجعت قوة ألمانيا باستمرار إلى أن وصلت إلى درجة سيئة ليست في صالحها. وقد أصبحنا متأخرين جداً عن تلك الدول حتى من حيث تعداد السكان، ولا تزال الخسارة مستمرة. وعلى الرغم من أن شجاعة شعبنا لا يفوقها أي شعب آخر في العالم، وأن هذا الشعب قد أراق الدماء في الدفاع عن وجوده بدرجة لم تصل إليها أي أمة أخرى، فقد تحقق الفشل بسبب سوء توجيه هذه الشجاعة.

(1) ما الفرق بين الجنس الآري المتفوق والراقي وبين الصهيونية العالمية التي تزعم أن اليهود هم شعب الله المختار؟! إنها نظرية واحدة عنصرية بغیضة جمعت بين النازية والصهيونية.. (الناشر).

❖ | ثلاث ظواهر مثمرة..

ولو حاولنا نتبع التقلبات السياسية التي مر بها شعبنا خلال ألف عام من هذا المنطلق وأن تذكر الصراعات والحروب التي لا تحصى ونحللها جميعاً على ضوء النتائج التي توصلنا إليها حالياً فلا بد لنا أن نعترف بأن هذا المحيط من الدماء لم يسفر سوى عن ثلاث ظواهر مثمرة فقط في سياستنا الخارجية :

1- استعمار الشرق الألماني.

2- إخضاع المنطقة الشرقية من الألب واستيطانها.

3- إنشاء دولة بروسيا باندنبرج والتي أصبحت بعد ذلك نموذجاً لدولة ألمانيا الجديدة.

بالإضافة إلى درس نستفيد منه في المستقبل.

فقد تحولت النجاحات الأولى (الأول والثاني) لتصبح ضرورية على المدى الطويل، فبدونها لن يلعب شعبنا أي دور في عالم اليوم. وقد كانت تلك المنجزات هي الأولى والوحيدة - للأسف - التي تحقق نجاحاً بين عدد السكان والأرض التي نعيش عليها. ولا بد أن ننظر لذلك باعتباره مهماً جداً لكن المؤرخين الألمان لم يعطوه حق قدره باعتباره مهماً جداً للكثير من الأجيال التالية. بل على العكس تماماً، فقد امتدح المؤرخون أشياء أخرى كثيرة مثل البطولات الخالدة والحروب دون أن يشعروا أنها لم تكن ذات تأثير على تطور أمتنا بأي طريقة كانت.

أما الإنجاز الثالث لدبلوماسيتنا فكان إنشاء دولة بروسيا، وهذا هو السبب أيضاً في تنمية روح الدفاع عن النفس والحفاظ عليها في أفراد الجيش الألماني. وهذا إنجاز يناسب العصر الحالي. وذلك لأن تحول فكرة الدفاع عن النفس من واجب فردي إلى واجب الأمة قد نشأ في دولة بروسيا وما أرسته من مبادئ جديدة تخص الدولة. ويصبح من المستحيل أن نغالي في تقدير أهمية هذا الحدث التاريخي. فقد كانت ألمانيا ممزقة بسبب الفردية المفرطة لدرجة تدخل الجيش البروسي في ضبط النظام بدرجة تمكنه من الحفاظ على تماسك الأمة. لذلك فإن إلغاء التجنيد الإلزامي - الذي ربما لا يعني أي شيء للأمم أخرى - قد كان له آثار خطيرة علينا. فقد مرت عشرة أجيال من الألمان دون تلقي أي تعليم أو تدريب عسكري وتركوا فريسة للنزاعات والشقاق بين أبناء الجنس الواحد. وكان من الممكن أن تؤدي هذه الأجيال بشعبنا إلى فقدان كل آثار الوجود المستقل على الكرة الأرضية.

وكان من الممكن أن يؤدي الشعب الألماني واجبه الحضاري من خلال المساهمات

الفردية تحت حكم أمم أجنبية لذلك يبقى أصل هؤلاء الأفراد غير معروف. وبذلك يظنون كالمسادم المخصب لأرض الحضارة إلى أن يختفي آخر عناصر الجنس الآري أو تفسد.

ومن المعروف أن أعداءنا يحترمون النجاح السياسي الحقيقي الذي أحرزه شعبنا خلال كفاحه لمدة ألف عام ويقدرونه أكثر مما نحترمه نحن. فلازلنا حتى اليوم نتحمس للبطولة التي سرقها ملايين من أفضل أفراد شعبنا ممن ينتمون إلى أفضل الأجناس وانتهى الأمر بفشل تام.

إن الفرق بين النجاح السياسي الحقيقي الذي حققه شعبنا خلال تاريخه الحافل والنتائج العقيمة التي أرقنا من أجلها دماء أبنائنا مهم جداً في تحديد سياستنا الحالية والمستقبلية.

❖ | هدفان سياسيان:

ويجب علينا - نحن الاشتراكيين القوميين - ألا نسمح لأنفسنا بأن نكرر الصيحات الوطنية التي تستخدمها الطبقة البرجوازية الحالية. وكان من الخطأ الفاحش لو أننا تركنا المؤشرات التي وقعت قبل الحرب تختار لنا الطريق. ويمكننا أن نتعلم درساً واحداً من الماضي وهو أن سلوكنا السياسي يجب أن يهدف إلى شئتين وهما :

1- الهدف الرئيسي للسياسة الخارجية هو الحصول على مزيد من الأرض.

2- تأسيس قاعدة جديدة متحدة كهدف تقوم عليه سياستنا الداخلية بما يتمشى مع مذهبنا السياسي.

وسأتناول باختصار قضية مدى تحقيق أهدافنا التوسعية وتبريرها طبقاً للمبادئ الأخلاقية والأدبية. وهذا أمر شديد الأهمية هنا لأن هناك كثير من الجمل المقبولة ظاهرياً والمنتشرة في الدوائر السياسية تحاول إقناع الشعب الألماني بأن الهدف الأسمى لسياستنا الخارجية هو تصحيح أخطاء عام 1918م بينما هم وفي نفس الوقت يعتبرون أن من واجبهم إقناع العالم أجمع بروح الأخوة عند الشعب الألماني وتعاطفه مع بقية الأمم.

وفيما يخص هذه النقطة أود أن أذكر التعليق التالي: إن مطلب استعادة حدود عام 1918م ما هو إلا عبث سياسي مليء بالصفات التي تجعله يبدو كما لو كان جريمة في حد ذاته. فقد كانت حدود الدولة عام 1914م غير منطقية بالمرّة، لأنها لم تكن مكتملة، بمعنى أنها لم تكن تشمل كل الدول أعضاء الأمة الألمانية. كما أنه مطلب غير معقول لأنه لا يراعي مطالب الدفاع العسكري. وهذه الحدود لم تنتج عن خطة سياسية مدروسة جيداً تم تنفيذها، بل كانت حدوداً مؤقتة ناتجة عن صراع سياسي لا بد أن ينتهي، وكانت تلك الحدود ما هي إلا فرصة ناتجة عن الظروف المحيطة بذلك الوقت. وعلينا أن نختر وقتاً

آخر من تاريخنا أفضل من عام 1914م ثم نطالب بتوجيه سياستنا طبقاً لما كان في ذلك الوقت من ظروف طيبة. والمطالب التي ذكرتها ما هي إلا مطالب تقليدية تقدمها الطبقة البرجوازية، وهم بذلك لا يفكرون في النواحي السياسية المستقبلية، فهم يعيشون في الماضي فقط أو - إن أردنا الدقة - في الماضي القريب فقط. فذاكرتهم لا تعود إلى ما هو أبعد من عصرهم. كما أن نظرية القصور الذاتي تربطهم بما حولهم من أشياء فقط، مما يجعلهم يعارضون كل محاولة لتغيير الحاضر. لكن معارضتهم هذه لا تصل على أي حال من الأحوال إلى مستوى الدفاع العملي. فهم يكتفون بالعناد السلبي. لذلك فعلينا أن نرى أنه من الطبيعي أن الأفق السياسي لمثل هؤلاء الناس لا يتجاوز عام 1914م. ومطالبتهم بالعودة إلى حدود عام 1914م تساعد على رأب الصدع الذي بدأ في الظهور في العصبية التي كونها العدو ضدنا. وبناء على ذلك فقط يمكننا تفسير مرور ثماني سنوات بعد الحرب العالمية وخلالها بدأ عدد من حلفاء الحرب في تمني ما يتعارض مع مصالح الآخرين إلا أن هذا التحالف المنتصر لا يزال صلباً على أي حال.

وقد استفادت كل تلك الدول المتحالفة من انهيار ألمانيا. وقد كانت كل دولة منهم تشعر بالخوف منا قبل أن نتسبب في إظهار مدى قوتهم، إلا أن تلك القوى الكبرى كانت تلتزم بالصمت ولا تظهر مشاعر الحقد على بعضها البعض. ولقد رأت تلك الدول أن أفضل ضمان لعدم عودة القوة الألمانية من جديد هو أن تجزء بلادنا وتفصلها عن بعضها البعض قدر الإمكان. وقد تسبب سوء النية والخوف من قوة شعبنا إلى دعم هذا التحالف وتماسكه حتى هذه اللحظة.

❖ | حدود.. وعيوب..

كما أننا لم نسع إلى تغيير الوضع الراهن. وكلما زاد تمسك أبناء الطبقة البرجوازية بمطالب العودة إلى حدود عام 1914م وجعلوه هدفاً للسياسة الألمانية، ازداد تمسك أعضاء هذا التحالف به بعد أن يقتربوا من الابتعاد عنه. وكل دولة من دول هذا التحالف تعتبر نفسها هدفاً يهدده هذا البرنامج. وما هو إلا برنامج عبثي لسببين اثنين، هما ما يلي :

1- لا توجد أي وسيلة متاحة يمكن من خلالها تحقيق هذا البرنامج وتحويله إلى حقيقة واقعة.

2- إن كان من الممكن حقاً تنفيذ هذا البرنامج فستكون النتائج بائسة جداً لدرجة أنها لا تستحق المخاطرة بدماء شعبنا مرة أخرى من أجل تحقيقها.

وليس هناك شك من أي نوع في أننا يمكن أن نستعيد حدود عام 1914م سوى بسفك الدماء. ولا بد لعقولنا أن تكون ساذجة مثل عقول الأطفال حتى نصدق أن مراجعة بنود

معاهدة فرساي والالتفاف عليها مع تجنب استئثار العدو ممكنة. فهذا أمر يحتاج إلى سياسيين متمرسين غير متوافرين لدينا. وذلك لأن خمسين بالمائة من رجال السياسة عندنا مراوغون مهرة ولا يتمتعون بأي حب أو تعاطف تجاه الشعب، بينما الخمسون بالمائة الأخرى تتكون من رجال مسالمين طبيين عديمي الكفاءة. وقد تغير الحال كثيراً منذ عهد برلمان فيينا. فلم يعد الأمراء ورجال القصر هم المدافعون عن الحدود، بل يتحدث عنها اليهودي العالمي⁽¹⁾ العنيد من أجل مصالحه الشخصية. لكن السيف هو الوسيلة الوحيدة التي تحسم بها الأمم مشكلاتها. وعندما يتم تركيز عواطف المواطنين وهمهم بطريقة فعالة يمكن تحديد التهديد الدولي الذي يهدف إلى استعباد الدول، لكن هذا الطريق محفوف بالدماء دائماً.

فإذا ما جاء الوقت الذي نفتتح فيه بأن مستقبل ألمانيا يتطلب التضحية - بطريقة ما أو بأخرى - يكون علينا أن نطرح كل اعتبارات التعقل السياسي جانباً ونقدم أنفسنا جميعاً من أجل مستقبل أفضل تستحقه بلادنا.

وحدود عام 1914م ليس لها أي علاقة بمستقبل الأمة الألمانية. فلم تحمينا هذه الحدود في الماضي وهي كذلك لن تقدم لنا أي شيء يضمن الحماية في المستقبل. فالشعب الألماني لن يستطيع من خلال هذه الحدود أن يحافظ على نفسه كشعب متماسك. أما من الناحية العسكرية، فهذه الحدود ليست متميزة ولا تثير أي قلق. فإذا ما ارتبطنا بهذه الحدود فلن نستطيع أن نحسن موقفنا الحالي ولا علاقاتنا مع القوى العالمية. كما لن نستطيع إيقاف هذا التناقض بين ما لدينا من أرض وما لدى بريطانيا العظمى ولن نصل إلى أهمية الولايات المتحدة الأمريكية. وليس ذلك فقط بل أيضاً لن نستطيع تقليل قيمة فرنسنا في السياسة الدولية.

وهناك شيء واحد مؤكد وهو أن محاولة استعادة حدود عام 1914م - حتى وإن حققت نجاحاً - تحتاج إلى إراقة دماء شعبنا، حيث لا مفر من ذلك من أجل ضمان وجودنا كأمة. لكن تكملة هذا النجاح السطحي تستدعي المزيد وذلك من أجل استعادة ما يسمى بـ "كرامة الأمة" وفتح ميناء واحد فقط لتجارتنا على الأقل.

وفي مقابل كل ذلك يجب علينا - نحن الاشتراكيين الوطنيين - أن نتمسك بالهدف الذي وضعناه لسياستنا الخارجية وهو أن على الشعب الألماني أن يتأكد من وجود المساحة الكافية لوجوده على هذه الأرض. وكل ما يتم من أجل تحقيق ذلك ويرى الشعب

(1) يرى هتلر أن اليهود شعب متطفل بلا دولة ولذلك فهو أحياناً يستخدم كلمة "عالمي" في وصفه لهم، وذلك بمعنى أنهم اعتادوا الحياة في أي دولة.

الألماني أنه حق أمام الله وأمام أجيالنا القادمة وأن تراق الدماء من أجل تحقيق هذا الهدف. وأمام الله، نحن أمة أرسلت إلى هذا العالم وكلفت بمهمة وهي البحث عن لقمة العيش اليومي، كما أننا مخلوقات يتوجب عليها أن تحافظ على مكانتها كأسدياد للعالم باستخدام ما لدينا من شجاعة وذكاء. ولا بد أن يكون ذلك واضحاً أيضاً أمام أجيالنا الألمانية القادمة، فكل من يراق دمه من أجل الأمة ينقذ ألف نفس من أبنائنا ويضمن لهم الحياة. فالأرض التي سيعيش عليها الفلاحون الألمان في المستقبل ويربون عليها أبناء أقوىاء سبب كاف لتبرير التضحية بدماء أبنائنا اليوم. وقد يعاني رجال الدولة الذين يقدمون هذه التضحية من كراهية معاصريهم، لكن الأجيال التالية ستبرئهم من كل إثم.

وهنا فإنني أعترض بشدة ووضوح على بعض الكتاب القوميين الذين يدعون أن هذا التوسع الإقليمي يعتبر "انتهاكاً لحقوق الإنسان" ويصبون غضبهم الشديد على هذه الفكرة. وأنا لا أعرف القوى الخفية وراء نشاط هؤلاء. لكن من المؤكد أن القوضى التي يحدثونها تناسب اللعبة التي يلعبها أعداؤنا ضد أمتنا وتنمشى مع أهدافهم. وهؤلاء الكتاب يتخذون موقفاً يساعد على إضعافنا من الداخل ويدمر إرادة شعبنا من أجل صالح هؤلاء الأفراد فقط، وذلك لأنه لا توجد أمة على وجه الأرض تملك ياردة مربعة واحدة بقرار صادر من صاحب مكانة عالية. فالحدود الألمانية ما هي إلا محض صدفة، كما أنها مجرد حدود مؤقتة⁽¹⁾ أقيمت نتيجة لصراع سياسي جرى على مدى العصور. ونفس الشيء يقال عن حدود الأمم الأخرى. والمعتوه فقط هو من ينظر إلى الحدود الجغرافية على الكرة الأرضية على أنها ثابتة وغير قابلة للتغيير، بينما هي في الحقيقة تمثل مجرد مرحلة من مراحل التطور، ويمكن لقوة أكثر قدرة على التخريب والتغيير أن تغير هذه الحدود غداً. لذلك فإن حدود الأمم قابلة للتغيير بسبب حاجتها لتأمين مصادر معيشتها. فحدود الدول وضعها الإنسان ويمكن أن يغيرها الإنسان⁽²⁾.

✦ | التوسع الجغرافي ولو بالسيف!

كما أن حصول أمة على قدر كبير من الأراضي لا يعتبر سبباً كافياً يجعلها تسيطر على تلك الأراضي إلى الأبد. إن السيطرة على تلك الأراضي لا تعني سوى قدرة المنتصر الذي تمكن من السيطرة وضعف من استسلم له. فحق التملك لا يخضع سوى

(1) لاحظ فكر هتلر النازي لم يختلف عن فكر الصهاينة في أرض فلسطين فإسرائيل لا تكفي بالأراضي التي استولت عليها بل هي تطمح إلى أوسع من ذلك؛ من النيل إلى الفرات. (الناشر).

(2) من الواضح أن هتلر لا يريد أن يستعيد الأراضي الألمانية التي اقتطعها الحلفاء في الحرب العالمية الأولى من ألمانيا فقط بل هو يريد المزيد وإن غزوه للاتحاد السوفيتي بعد ذلك أصق دليل على ذلك. (الناشر).

لمبدأ القوة. وإذا كان الشعب الألماني مسجون في نطاق ضيق من الأرض وهو لذلك يواجه مستقبلاً بائساً، فإن ذلك ليس أمراً إلهياً لا يمكن الاعتراض عليه. لذلك فلا ذنب للألمان إذن في ذلك التوزيع غير العادل للأرض. فالأرض التي نعيش عليها الآن ليست منحة من السماء هبطت على أجدادنا القدامى. ولكن كان عليهم أن يغزوها ويضحوا بأرواحهم من أجلها. ولذلك فإن شعبنا لن يحصل على أراض تمكنه من الاستمرار في الوجود في المستقبل كمنحة مقدمة من شعوب أخرى ولكن عن طريق الانتصار واستخدام السيف.

واليوم نحن جميعاً مقتنعون بضرورة توحيد موقفنا تجاه فرنسا، لكننا لن ننجح في ذلك إن قامت سياستنا الخارجية على إلغاء التفكير في كل ذلك. وكان من الممكن أن يكون ذلك مقنعاً لنا إن كان يحميننا خلال صراع التوسع الضروري لشعبنا في أوروبا. وذلك لأن التوسع الاستعماري لن يحل المشكلة. فهي من الممكن أن نحل فقط عن طريق استيطان أبنائنا وتوسعنا في المجتمعات القريبة وفي أرضهم الأم، كما أن هذا التوسع على الأرض الأم يكفل اتحاد الشعب في كيان سياسي واحد.

ولا يجب أن تكون الحركة القومية مدافعة عن الأمم الأخرى ولكن عليها أن تدافع عن أمتها فقط. وقد عانت السياسة الألمانية القديمة من خطأ الالتزام بآراء الأسر الحاكمة. وعلى السياسة الألمانية الحديثة ألا تتبع العواطف العالمية لبعض الوطنيين. وقبل كل شيء، ليس من واجبنا أن نقوم بدور الجندي الذي يحمي الأمم الصغيرة ولكن علينا أن نكون جنوداً نحمي أمتنا الألمانية.

لكننا نحن الاشتراكيين القوميين ذهبنا إلى ما هو أبعد من ذلك. وهو أن الحق في الحصول على الأرض قد يتحول إلى واجب عندما تكون أمة كبرى على وشك الانحدار إن لم توسع أراضيها. وهذا صحيح خاصة وإن كانت تلك الأمة الكبرى ليست مجرد مجموعة من الزوجات ولكنها الأمة الألمانية التي منحت العالم الحديث مظهره الحضاري. فإن لم تصبح ألمانيا قوة عظمى فلن يكون لها وجود على الإطلاق. لكن لكي تصبح قوة عظمى لا بد لها من أراض شاسعة تعطيها الأهمية اللازمة اليوم وتضمن بقاء مواطنيها⁽¹⁾.

❖ | روسيا هي الحل!

لذلك فقد وضعنا نحن الاشتراكيين الوطنيين خطأ جديداً للسياسة الألمانية الخارجية. وقد وضعنا حداً للسير في اتجاه جنوب وغرب أوروبا واتجهت عيوننا نحو شرق أوروبا.

(1) ومن غير «روسيا» التي سوف تمنح هتلر هذه الأراضي الشاسعة؟! (الناشر).

وقد وضعنا نهاية لسياسة المستوطنات والسيطرة على العالم عن طريق التجارة التي طبقت قبل الحرب، واستخدمنا سياسة التوسع في المستقبل.

لكننا عندما نتحدث عن أراض جديدة في أوروبا اليوم فلا بد لنا أن نفكر في روسيا⁽¹⁾ والدول المجاورة لها.

ويبدو أن القدر يشير لنا لننتجه إلى ذلك الاتجاه. فدخل روسيا في النظام الشيوعي يحرم الشعب الروسي من تلك الطبقة الذكية التي خلقت الدولة الروسية في يوم ما وضمنت بقاءها. وذلك لأن قيام الدولة الروسية لم يكن نتيجة لجهود العنصر السلافي في روسيا، ولكنه جاء على أيدي سلالة ألمانية وشعب من درجة أدنى. وبهذه الطريقة تكونت كثير من الإمبراطوريات حول العالم. فقد تمكنت أجناس دنيا بإشراف وحكم ألماني من أن تقيم دولاً كبرى، وقد استمر وجود تلك الدول طوال وجود النواة التي ساهمت في خلق كل دولة من تلك الدول. ولذلك فإن ألمانيا تدين بوجودها لعدة قرون لتلك النواة الألمانية التي تكونت منها طبقتها الحاكمة. لكن هذه الطبقة تفككت وزالت الآن. وحل محلها اليهود. وكما أنه يستحيل على الروس اقتلاع اليهود وإضعافهم يستحيل أيضاً على اليهود الحفاظ على بقاء هذه الدولة الشاسعة لفترة طويلة. فاليهودي في حد ذاته ليس عنصراً من عناصر التنظيم بل عاملاً من عوامل التحلل. فهذه الدولة الكبيرة في الشرق على وشك التفكك. ونهاية سيطرة اليهود على روسيا ستكون أيضاً نهاية دولة روسيا. وقد اختارنا القدر لنشهد هذه المأساة التي تعتبر أكبر دليل على صدق نظرية الأعراق.

لكن من واجبنا - وهذه مهمة الحركة الاشتراكية القومية - أن ننمي في شعبنا العقائدية السياسية التي تمكنه من إدراك أن الهدف الذي يجب أن يضعه الشعب نصب عينيه هو لا يجب أن يكون مثل ما قام به الإسكندر الأكبر من مغامرات حماسية، ولكن عمل شاق ومثمر في أراض يجلبها له السيف.

ولابد أن يعلن اليهودي عداؤه لهذه السياسة، فهذا أمر طبيعي. وذلك لأن اليهود يدركون معنى تنفيذ هذه السياسة وأثرها على مستقبلهم. ولا بد أن يعلم كل الوطنيين المخلصين هذه الحقيقة وهي أن هذا الاتجاه الجدي حق عادل. لكن للأسف ما يحدث هو العكس. وهذا لا يحدث فقط بين أعضاء الحزب الوطني الألماني ولكن يوجد في الدوائر السياسية الأخرى عداً عنيف ضد سياسة الشرق هذه. وفي هذا المجال - وكما يحدث دائماً - استخدمت أسماء كبيرة في هذه المعارضة. وزج باسم بسمارك في الدفاع عن

(1) لو قرأ «ستالين» طاغية روسيا والاتحاد السوفيتي كتاب هتلر «كفاحي» لكان في موقف دفاعي أفضل أثناء غزو الاتحاد السوفيتي بالجبال الهنترية.. ولكنه كان مستبدًا وجاهلاً (الناشر).

السياسة الغيبية المستحيلة. فهم يقولون أن بسمارك كان يولي أهمية كبرى للعلاقات الطيبة مع روسيا. وهذا صحيح إلى حد ما. لكنهم نسوا تماماً أنه كان يركز بشدة أيضاً على العلاقة الطيبة مع إيطاليا، وقد وقع بسمارك نفسه على تحالف مع إيطاليا ليسوي حساباته مع النمسا. فلماذا أصبحت هذه السياسة غير صالحة الآن؟ سيرزودون بأن إيطاليا اليوم ليست هي إيطاليا في ذلك الوقت في الماضي. حسن... لكن أيها السادة المحترمون، اسمحوا أن أقول: إن روسيا اليوم غير روسيا في ذلك الوقت أيضاً. كما أن بسمارك لم يضع سياسة ملزمة لنا إلى الأبد وتصلح لكل الظروف ولا بد من الالتزام التام بها. فقد كان زعيم تلك الفترة وكان يتحمل أعباء ما يلتزم به. لذلك فالمشكلة ليست فيما فعله بسمارك في ذلك الوقت، بل ما يمكن أن يفعله اليوم إن كان لا يزال موجوداً. والإجابة على هذا السؤال سهلة جداً. لم تكن حكمته السياسية ستسمح له على الإطلاق أن يتحالف مع دولة كتب عليها الفناء.

كما أن بسمارك كان ينظر إلى سياسة المستعمرات والتجارة التي طبقت في عصره بمشاعر متباينة، وذلك لأنه كان يرغب في تأمين أفضل الاحتمالات التي تمكنه من تماسك النظام الداخلي للدولة والمحافظة على ذلك النظام الذي أنشأه بنفسه. وهذا هو الأساس الوحيد الذي جعله يرحب بمشاركة روسيا في الدفاع عن وجودنا حتى يصبح أكثر قدرة على مواجهة ما يحدث في الغرب. لكن ما كان مفيداً لألمانيا في الماضي قد يكون ضاراً الآن.

❖ عصبة الأمم المضطهدة!

وفي عامي 1920-1921م عندما كانت الحركة لا تزال وليدة في الأفق السياسي، وكانت حركات تحرير الأمة الألمانية تنشأ هنا وهناك. وقد تلقى الحزب دعوات للارتباط بحركات التحرر في دول أخرى. وكان ذلك يتمشى مع خطط "عصبة الأمم المضطهدة" التي أعلن عنها في كثير من الأماكن وتكونت في الأساس من مندوبين لعدد من دول البلقان ومصر والهند. وقد كنت أعتبرهم من النصابين المدعين الذين لا يعرفون أي شيء. وقد اتخذ كثير من الألمان - باستثناء عدد قليل من المعسكر الوطني - بالكلام الرنان لهؤلاء الشرقيين. وكانوا يعلمون أن وجود طالب هندي أو مصري أمامهم يعني وجود مندوب عن مصر أو الهند. ولم يدركوا أنهم كانوا في أغلب الأحوال يتعاملون مع فرد لا يلقى أي تأييد من أي نوع كان، وليس من حقه أن يبرم اتفاقاً من أي نوع. لذلك فبالنتيجة الحتمية لكل مباحثات تجري مع هؤلاء الأفراد لا قيمة لها ويعتبر الوقت الذي استغرقته تلك المباحثات وقتاً ضائعاً تماماً. وكنت حذراً تماماً من تلك المحاولات. وذلك

ليس فقط لأنني لديّ ما يمكن أن أفعله أفضل من إضاعة عدة أسابيع في مباحثات عقيمة، ولكن أيضاً لأنني أعتقد أنني لو كنت أتعامل مع ممثلين حقيقيين لتلك الدول، فلا جدوى من كل ما يحدث إن لم يكن أثره ضاراً.

وقد وجه اللوم لسياسة التحالف في وقت السلم - وذلك لأنها لم يكن لها أهداف عسكرية - لأنها انتهت إلى تحالف دفاعي مع دول عتيقة أحييت على التقاعد في تاريخ العالم. لم يكن التحالف مع النمسا ولا مع تركيا مفيداً. بينما تجمعت كبرى دول العالم من الناحية العسكرية في عصابة من أجل أغراض العدوان، كما تجمعت معها عدة دول قديمة وعاجزة في محاولة لمواجهة التحالفات العالمية الفعالة. وكان على ألمانيا أن تدفع ثمناً باهظاً لسياستها الخارجية الخاطئة. لكن ذلك لم يمنع الفاسدين منا من أن يقعوا في نفس الخطأ مرة أخرى، وذلك لأن محاولة تجريد كل الدول القوية من السلاح والتي تبنتها "عصابة الأمم المضطهدة" لم تكن مضحكة فقط لكنها كانت كارثية. وهي كارثية لأن الشعب الألماني يقع مرة أخرى فيما يبعده عن الاحتمالات الحقيقية المتاحة أمامه التي يهجرها من أجل آمال وأوهام عديمة الفائدة. فألمانيا اليوم تشبه الغريق الذي يتعلق بقشة طافية بالقرب منه. والآن يفعل ذلك أناس متعلمون تعليماً عالياً. فكلما لاح أمل يبدو أن في الجري وراءه في الحال. ولذلك فسوف تجد جماعة "عصابة الأمم المضطهدة" وغيرها من الجماعات تأييداً من بعض الناس على أي حال.

❖ | الآمال الطفولية!

وأنا أتذكر جيداً الآمال الطفولية غير المفهومة التي ظهرت فجأة في الدوائر السياسية في عامي 1920-1921م بأن انجلترا تقترب من فقدان سيطرتها على الهند. فقد تغلغل بعض الدجالين - الذين يقدمون أنفسهم باسم "المدافعين عن حرية الهند" - في أوروبا ونجحوا في إقناع كثير من العقلاء بأن الإمبراطورية البريطانية - التي حققت أغراضها في الهند - سوف تنهار هناك قريباً⁽¹⁾. ولم يدركوا أبداً أن هذه الفكرة ما هي إلا نتاج رغبتهم هم. ولم يدركوا أيضاً أن رغبتهم هذه ليست واقعية. وبقدر ما توقعوا انهيار سيادة الإمبراطورية البريطانية على الهند بقدر ما اعتقدوا هم أنفسهم بأهمية الهند عند بريطانيا.

والآن أصبحت كل أسرار هذا الموضوع معروفة ليس فقط للعارفين بالقومية الألمانية ولكن أيضاً للعارفين بتاريخ بريطانيا. فمن السذاجة أن نفترض أن أهمية الهند غير واضحة في داخل الإمبراطورية البريطانية ذاتها. وهذا يعني أننا لم نتعلم أي شيء من

(1) أصابوا وأخطأ «هتلر» فقد رحلت إنجلترا عن الهند ونالت استقلالها 1947م. (الناشر).

الحرب العالمية ولا نعرف أي شيء عن الإرادة البريطانية. فعندما يتخيلون أن بريطانيا يمكن أن تفقد الهند دون أن تبذل كل جهدها في التمسك بها فذلك يوضح أيضاً جهل ألمانها التام بالطريقة التي تسيطر بها بريطانيا على إمبراطوريتها. فانجلترا لن تتنازل أبداً عن الهند إلا إذا سمحت باختراق آلية إدارتها (وهذا أمر غير وارد على الإطلاق في الهند الآن) أو إذا اضطرت للتخلي عنها بسبب الحرب مع قوة أكبر منها. لكن ذلك لن يحدث أبداً على أيدي الهنود. فنحن الألمان نعرف أن الكراهية تجاه الإنجليز أمر صعب جداً. وبغض النظر عن كل ذلك فإنني كألماني أفضل أن أرى الهند تحت السيادة البريطانية على أن أراها تحت سيادة أي أمة أخرى.

كما أن الآمال البطولية الموجودة في مصر⁽¹⁾ على نفس القدر من الخيال. وقد يظن السذج في بلادنا أن الحرب المقدسة قد تحقق لنا تلك الأوهام بعد سفك دماء الآخرين. وفي الحقيقة، هذا التفكير الجبان هو ما أدى إلى وجود تلك الآمال. لكن هذا الوهم سرعان ما يتلاشى أمام الحقيقة الواقعة بعد وابل من طلقات المدافع الآلية والقنابل البريطانية.

إن تحالف العاجزين لا يمكن أن يواجه دولة عظمى ذات إرادة، مستعدة - إن لزم الأمر - أن تريق آخر نقطة دماء تملكها من أجل الحفاظ على وجودها. وأنا كمناد بالقومية يقدر قيمة الأعراق في إقامة الحضارات الإنسانية، كان لابد لي أن ألاحظ دناءة أجناس⁽²⁾ ما يسمى "بالأمم المضطهدة" وهذا كاف لكي أمتنع عن ربط مصير شعبي بمصير تلك الأعراق الدنيئة.

❖ التحالف مع روسيا.. هل هو ممكن؟

واليوم علينا أن نتخذ نفس الموقف من روسيا. فروسيا اليوم خالية من الجنس الألماني الحاكم لا تصلح لأن تكون حليفاً لألمانيا الحرة، وذلك بغض النظر عن لتنظيمات الداخلية التي لحكامها الحاليين. ومن الناحية العسكرية البحتة، فلو أشعل تحالف بين ألمانيا وروسيا حرباً ضد غرب أوروبا أو ضد العالم أجمع الآن، فلن يكون ذلك سوى كارثة علينا. وذلك لأن الحرب لن تكون على أراضي روسيا بل على أراضي ألمانيا دون أن تتلقى أي دعم من روسيا وإن كان قليلاً. وما هو متاح من القوة لألمانيا الآن قليل جداً غير كاف لبدء حرب بدرجة تجعل من المستحيل علينا حماية حدودنا مع غرب أوروبا ومن بينها

(1) وتم جلاء الإنجليز عن مصر سنة 1956م. (الناشر).

(2) أرايت.. كيف يحقر هتلر الشعوب غير الألمانية خاصة مصر والهند ودول البلقان بل والروس السلاف بالرغم من أن دولاً مثل الهند ومصر أصحاب حضارات وتاريخ ناصح. (الناشر).

إنجلترا. كما أن المنطقة الصناعية في ألمانيا ستظل بلا حماية وتتعرض لهجوم مكثف من الأعداء. كما يجب أن أضيف أن هناك دولة بولندا التي تقع بين روسيا وألمانيا وهي خاضعة لفرنسا تماماً. وفي حالة إذا ما شنت ألمانيا وروسيا الحرب على أوروبا الغربية، فإن روسيا ستخلى عن بولندا قبل أن يصل أول جندي روسي إلى الجبهة الألمانية. لكن الأمر لا يتوقف فقط على الجنود بل على المعدات التقنية. وهكذا نواجه نفس الموقف الذي واجهناه في الحرب العالمية ولكن بقسوة شديدة هذه المرة. وفي هذا الوقت يكون على الصناعة الألمانية أن تستنفذ لصالح حليفنا الضخم، ومن الناحية التقنية فإن على ألمانيا أن تخوض الحرب بمفردها تقريباً. وفي هذه الحرب الافتراضية لن تقدم روسيا أي شيء من الناحية التقنية. وليس لدينا ما نقدمه لمواجهة الميكنة التي انتشرت على مستوى العالم في كل شيء والتي سوف تتضح بشدة في الحرب التالية. وفي هذا المجال بالذات لا تزال ألمانيا متأخرة كثيراً فقط بما يدعو للخزي بل ستمد روسيا أيضاً بالقليل الذي تملكه في هذا المجال، فهي لا تملك الآن مصنعاً واحداً يستطيع إنتاج عربة مدفع آلي. وفي مثل تلك الظروف تكون الحرب مجرد دعوة لذبح أبنائنا. وسوف يضطر الشباب الألماني إلى تقديم مزيد من الدماء أكثر مما قدم في الحرب العالمية. وذلك لأن واجب القتال سيقع على عاتقنا نحن فقط كالمعتاد، وتكون النتيجة مأساة لا مفر منها. وحتى في حالة حدوث معجزة لن تنتهي هذه الحرب بالقضاء تماماً على ألمانيا، ستكون المحصلة النهائية أن الأمة الألمانية ستفقد دماء الجنس الأبيض وتحاط بدول عسكرية. ولن يتحسن وضعها الحقيقي على الإطلاق.

ومن غير المجدي أن نعترض هنا بأنه في حالة التحالف مع روسيا لا يجب علينا أن نفكر في قيام الحرب فوراً أو أننا سنستعد للحرب على أي حال. لا ... فالتحالف الذي لا يهدف إلى شن الحرب لا معنى ولا قيمة له. وحتى إن كان احتمال الحرب بعيداً عند توقيع اتفاق التحالف إلا أن فكرة حدوث الحرب تظل هي السبب الأساسي للدخول في التحالف. ولا مجال للتفكير في أن بقية الدول لن تدرك الهدف من هذا التحالف. وأي تحالف بين روسيا وألمانيا قد يظل حبراً على ورق وفي هذه الحالة لن يكون له أي معنى بالنسبة لنا - أو أن يتم تطبيقه وفي هذه الحالة سيتنبه إليه العالم أجمع. وقد يكون من السذاجة أن نعتقد أن إنجلترا وفرنسا ستنظران في تلك الحالة لمدة عشر سنوات حتى ينتهي التحالف الألماني الروسي من الاستعداد التقني. لا ... بل ستهب العاصفة على ألمانيا فوراً. لذلك فإن إقامة تحالف مع روسيا معناه إنذار بحدوث حرب جديدة. وتكون نهاية ألمانيا هي النتيجة الحتمية لذلك.

❖ | حكام الروس غادرون ولا أمان لهم!

ولابد من إضافة الاعتبارات التالية :

1- المسؤولون الروس الحاليون ليس لديهم أي فكرة عن إقامة تحالف محترم أو الحفاظ على ولائهم له إن تم إبرامه فعلاً.

ولابد ألا ننسى أبداً أن الحكام الحاليين في روسيا مجرمون ملطخون بالدماء. فقد تمكنت مجموعة من حثالة البشر - وساعدتهم الظروف على ذلك - من القضاء على ملايين المتعلمين من الشعب لمجرد التشوق للدماء. والآن مرت عشر سنوات وهم يمارسون الحكم الاستبدادي الذي لم يسبق له مثيل. ويجب ألا ننسى أن هؤلاء الحكام ينتمون إلى شعب تنسب إليه القسوة الشديدة والكذب المحكم ويصدق نفسه⁽¹⁾، كما أن هؤلاء الحكام يودون نشر هذا الحكم الدموي في بقية أنحاء العالم. ويجب ألا ننسى أن اليهودية العالمية التي تتسيد روسيا اليوم لا تنظر إلى ألمانيا كحليف بل كدولة ستلقى نفس مصير روسيا. وليس هناك من يتحالف مع من يود أن يدمر شريكه. وقبل كل شيء لا يدخل أي منا في تحالف مع شعب لا يحترم أي اتفاق. إن من يعتقد أنه يمكنه أن يرتبط بمعاهدة مع طفيليين يشبه الشجرة التي تظن أنها يمكنها أن تعقد مباحثات مفيدة مع اللباب الذي يتطفل عليها ويتسلفها.

2- إن التهديد الذي خضعت له روسيا في يوم ما يتقدم ببطء نحو ألمانيا.

والبرجوازي الساذج فقط هو من يصدق أن الشيوعية يمكن ترويضها. فهو لا يشك أبداً - بسبب تفكيره السطحي - في أننا نتعامل مع ظاهرة لها علاقة بالعرق وهي رغبة الشعب اليهودي في السيطرة على العالم. وهذه الرغبة رغبة طبيعية مثل رغبة الإنجليز في الجلوس على كل مقاعد الحكم في العالم. وكما أن الإنجليز اختاروا طريقة محددة للوصول إلى تلك الأهداف وحاربوا من أجلها فذلك هو ما فعله اليهودي أيضاً. فاليهودي يشق طريقه في أجساد الأمم وينخرها من الداخل. والأسلحة التي يستخدمها هي الكذب والخداع والسموم التي يبيثها إلى أن يحطم خصمه الكريه. وعلمنا أن نلاحظ المحاولات التي يقوم بها اليهود في روسيا البلشفية في القرن العشرين ليضمن سيطرته على العالم. كما أنه يعمل على تحقيق نفس الهدف في دول أخرى بطرق مختلفة بالرغم من تشابهها من الداخل. واليهودي لا يمل أبداً من السير في اتجاه السيطرة على العالم ولا تتوقف

(1) كان «هتلر» بعيد النظر في نظرته إلى حكام روسيا من الشيوعيين الدمويين وعلى رأسهم الطاغية «ستالين» الذي سفك دماء ملايين الأبرياء وكان بحق سفاح القرن العشرين بلا منازع.. وهؤلاء المجرمون لا عهد لهم ولا أمان. (الناشر).

دوافعه أو تخمد أبداً. وهو يتراجع عن طريقه هذا فقط إن اضطرته قوة لذلك قوة خارجية عن إرادته وذلك لأن رغبته في السيطرة على العالم تنتهي بنهايته هو نفسه. والقضاء على الأمم وإصابتها بالشيخوخة والعجز لا يتم إلا من خلال تلويث دمائها. والشعب اليهودي هو أكثر شعوب الأرض حرصاً على الحفاظ على نقاء دمائه. ولذلك فهو يسير في طريقه المحتوم إلى أن يواجه قوة لا يستطيع مقاومتها.

❖ | البلشفية جريمة دنيئة ضد الإنسانية!

واليوم تعتبر ألمانيا أرض المعركة التالية للبلشفية الروسية. ولذلك فإننا نحتاج إلى أفكار تبشيرية جديدة لنتهض أمتنا من جديد ويتم إنقاذها من أنياب الأفعى الدولية ويتوقف الفساد الذي ينخر فينا من الداخل وذلك حتى تتمكن قوات أمتنا - بمجرد تحريرها - من الحفاظ على جنسيتها وتمنع تكرار المأساة قبل أن تحدث مرة ثانية في المستقبل البعيد. فإذا كان هذا هو هدفنا الذي وضعناه لأنفسنا فمن الحماسة أن نتحالف مع دولة يسيطر عليها العدو اللدود لمستقبلنا. فكيف لنا أن نخلص شعبنا من قبضة هذا العدو ونحاول في نفس الوقت أن نرمي بأنفسنا فيها ؟ كيف يمكننا أن نعلم العامل الألماني أن البلشفية جريمة دنيئة ضد الإنسانية ونحن نتحالف مع من أقامها ونعتبر وجودها شرعياً. وبأي حق يمكننا أن نحاول منع جماهير الشعب من التعاطف مع مذهب ما إن كان قادة بلادنا قد اختاروا ممثلي هذا المذهب كحلفاء لهم ؟ يتطاب الكفاح ضد البلشفية اليهودية أن نعلن موقفنا من روسيا السوفيتية. لكننا لا يمكننا القضاء على الشيطان. فإذا ما تحمست الدوائر الوطنية اليوم لفكرة التحالف مع البلاشفة، فلينظروا حولهم في ألمانيا فقط ليروا من يسانداهم. هل يعتقد هؤلاء الوطنيون أن السياسة التي أوصت بها الصحافة الماركسية العالمية ودعت إليها مفيدة للشعب الألماني ؟ ومنذ متى كان اليهود هم حماة الوطنية العسكرية؟

وأحد أهم الانتقادات التي يمكن أن توجه إلى الدولة الألمانية فيما يخص سياسة التحالف هي أنها أفسدت علاقاتها مع الجميع بتذبذبها مرة في هذا الاتجاه ومرة في ذاك وكذلك اتضح ضعفها وسعيها لتحقيق السلام العالمي بأي ثمن. لكن لا يمكن أبداً أن نلومها على توقف علاقاتها الطيبة مع روسيا.

وأنا أعترف بصراحة شديدة أنني كنت أعتقد قبل الحرب أن من الأفضل لألمانيا أن تتخلى عن سياستها الاستعمارية وسياساتها البحرية وتتضم إلى تحالف بريطانيا ضد روسيا. وكان ذلك سيجردها من سياستها الدولية الضعيفة ويستبدلها بسياسة أوروبية قوية، ثم تتمكن من الحصول على أراض جديدة في القارة. ولا أنسى التهديدات الوقحة المستمرة التي أطلقتها روسيا السلافية ضد ألمانيا. كما لا أنسى التحركات التجريبية المستمرة التي

كانت تهدف فقط إلى إثارة ألمانيا. ولا أستطيع أن أنسى اتجاه الرأي العام في روسيا الذي تفوق على نفسه في كراهية أمتنا وبلادنا في فترة ما قبل الحرب. ولا يمكنني أن أنسى كبريات الصحف الروسية التي دأبت على مساندة فرنسا ضدنا.

ولكن - بالرغم من كل شيء - فقد كان ذلك من الممكن قبل الحرب. كان من الممكن أن نتلقى دعماً من روسيا ونفترغ لإنجلترا. لكن الظروف مختلفة تماماً اليوم. وكان ذلك ممكناً إذا كنا قد تخلينا عن كل المشاعر العاطفية قبل الحرب واتخذنا موقفاً يساند روسيا وذلك مستحيل أن يحدث اليوم. فقد تحركت عقارب الساعة العالمية ودقت الساعة مرات ومرات بصوت عال وكان علينا أن نقرر مصيرنا بطريقة ما أو بأخرى.

❖ | قطعة من الأرض تستحق التضحيات وإراقة الدماء!!

إن تحالف كبريات الدول في العالم ما هو إلا آخر رسالة تحذيرية لنا لننظر في شئوننا ونجعل شعبنا يتطلع إلى المستقبل، فهذا الشعب هو من سيحقق انتصار بلادنا مرة أخرى.

وإذا تخلت الحركة الاشتراكية القومية عن كل الأوهام من أجل هذه المهمة الكبرى الملقاة عليها واستخدمت العقل كوسيلة وحيدة للهداية فقد تتحول كارثة عام 1918م إلى نعمة نعم على أمتنا في المستقبل. فمن الممكن لها أن تتعلم من درس الانهيار التام وتعد سياسة خارجية جديدة بالكامل. كما يمكن للأمة الألمانية مدعومة بالمذهب الداخلي الجديد قد تصل إلى توطيد سياستها مع العالم الخارجي. وقد يؤدي ذلك إلى حصولها على ما حققته إنجلترا أو روسيا أو حتى ما حققته فرنسا وتستفيد منه في وضع القرارات الصحيحة التي تدعم مصالحها الخاصة وهو ما يعتبر ميثاقاً سياسياً. ويجب على الميثاق السياسي الألماني أن يضع القواعد التالية وهي صالحة دائماً للتعامل مع العالم الخارجي :

عدم السماح لأي قوتين قاريتين بالتواجد في أوروبا. فإذا ما قامت أي محاولة لإقامة دولة عسكرية قوية قريبة من حدود ألمانيا، وكان ذلك يعني احتمال حدوث أعمال عدوانية ضد ألمانيا، فذلك لا يعطي ألمانيا الحق في منع هذه المحاولة وسحقها تماماً بكل الطرق فقط ومن بينها الطرق العسكرية ولكنه يجعل ذلك واجباً مفروضاً عليها أيضاً. وذلك لأن دولتنا لا تقوم على مستعمرات بل تقوم على الأرض الأم في أوروبا⁽¹⁾. ولذلك ليس لنا أن نعتبر ألمانيا آمنة إلا إذا كانت قادرة على منح كل فرد من أجيالنا القادمة -ولعدة قرون- قطعة من الأرض ليتملكها. ولا بد ألا ننسى أن أهم حق من حقوق الإنسان هو حقه في الأرض التي يزرعها لنفسه وأن أعز ما يقدمه من تضحيات هو إراقة الدماء من أجلها.

(1) حينما بدأ هتلر غزو الاتحاد السوفيتي في 1941م أطلق على روسيا لقب «الوطن الأم». (الناشر).

❖ كيف نعزل فرنسا العدو اللدود لشعبنا؟

وأنا لا أود أن أنهي هذا الفصل دون أن أشير مرة أخرى إلى الاحتمالات الوحيدة القائمة أمامنا للتحالف في أوروبا في الوقت الحالي. فقد ذكرت في هذا الفصل أن ألمانيا ليس لديها سوى فرص التحالف مع إنجلترا وإيطاليا، فهاتان هما الدولتان الوحيدتان اللتان من الممكن أن نسعى جاهدين للتحالف معهما تحالفاً وثيقاً ويكون ذلك التحالف مفيداً. كما أود أن أؤكد مرة أخرى على الأهمية العسكرية لمثل هذا التحالف.

إن النتائج العسكرية لهذا التحالف ستكون على العكس تماماً مما يحدث لو تحالفنا مع روسيا. لكن الأهم من كل ذلك هو أن التقارب مع إنجلترا وإيطاليا لا بد له أن يعرضنا لخطر الحرب. فالقوة الوحيدة التي ستعترض على هذا التحالف هي فرنسا. وفرنسا لن تكون في موقف يسمح لها بشن حرب. لكن هذا التحالف قد يمكن ألمانيا من الإعداد لكل ما يمكنها من أن تبدو كجزء مهم من حسابات فرنسا. وذلك لأن المعنى الكامل لهذا التحالف هو ألا تتعرض ألمانيا لغزو مفاجئ. فالتحالف ضدها سينتهي بطريقة آلية أي أن التحالف الذي انتصر علينا سيخفي تماماً. وبهذا تعزل فرنسا وهي العدو اللدود لشعبنا. وعلى الرغم من أن هذا النجاح سيتطلب التزام أخلاقي، فيكفي أن تحصل ألمانيا على حرية التصرف التي لا يمكننا تصورها الآن. وذلك لأن التحالف الجديد بين إنجلترا وألمانيا وإيطاليا سيمكك زمام المبادرة السياسية وليس فرنسا.

كما أن هناك نوعاً آخر من النجاح سيتحقق وهو أن ألمانيا ستتحرر من موقفها الاستراتيجي السلبي الحالي. فهي ستكون محمية من جهة، ومن جهة أخرى ستضمن استيراد غذائها وموادها الخام وتلك فائدة أخرى من فوائد هذا التحالف. لكن الأهم هو أن هذا التحالف يتم مع دول تمتلك تقنيات تكمل بعضها البعض. ولأول مرة سيكون لألمانيا حلفاء لا يمسون دماء اقتصادها بل سيساهمون في استكمال معداتها التقنية. كما ينبغي ألا ننسى حقيقة أخيرة وهي: أننا في تلك الحالة لن نكون في تحالف يشبه تحالف تركيا وروسيا اليوم.

وكما قلت من قبل، هناك صعوبات طبيعية كبرى تعوق الاتفاق على هذا التحالف. ولكن، أليس تكوين التحالف أكثر صعوبة؟ لكن ذلك سيصبح ممكناً إن تمكن الملك إدوارد السابع من التخلي عما يضر بمصالحنا وإذا تمكننا من التصرف بمهارة للتغلب على مشاعرنا وأنجزنا هذه المهمة السياسية. يصبح ذلك ممكناً عندما نحدد هدفاً وتعمل على تحقيقه بطريقة منتظمة بدلاً من السياسة الخارجية المعيبة التي اتبعناها في العقود الماضية والتي لم يكن لها أي أهداف محددة أبداً.

يجب ألا يكون الهدف المستقبلي لسياستنا الخارجية هو الاتجاه نحو الشرق أو الغرب، لكن يجب أن تكون سياستنا شرقية تضع في اعتباراتها ضرورة الحصول على الأراضي اللازمة للشعب الألماني. ولكي يتم تنفيذ هذه السياسة لابد لنا من القوة الكافية التي جردنا منه عدونا اللدود فرنسا، بعد أن سيطرت علينا ووضعتنا في قبضتها وسرقت كل قوانا. لذلك فلا يجب علينا أن نتوقف أمام أي تضحية من أجل تحطيم السيطرة الفرنسية على قارة أوروبا. كما أننا سنتحالف مع أي قوة أوروبية حالية نرى أن سيادة فرنسا على القارة أصبحت غير محتملة. فمحاولات الاقتراب من تلك القوى ليست صعبة وليس هناك من التضحيات ما يمكن اعتباره جسيماً، وذلك إن كنا سنتمكن في النهاية من الإطاحة بـعدونا الأثيم. كما أن ما سنصاب به من جروح طفيفة سيداويها الزمن، وذلك بعد أن يتم الانتهاء من أكبر الجروح بالكي ثم الالتئام وهو الجرح الخاص بالحصول على الأرض.

ومن الطبيعي أن يثور الأعداء الموجودون بالداخل ضد شعبنا. لكن هذا لن ينجح في دفعنا نحن الاشتراكيين الوطنيين إلى التوقف عما نراه ضروري جداً. وعلينا أن نعارض تيار الرأي العام الذي سيردد مكر اليهود ويدعي أن هذا تفكير ألماني طائش. فهناك دائماً موجات من هذه الآراء العامة التي تهاجمنا و تثار ضدها، لكن من يسبح ضد التيار يلفت الانتباه أكثر ممن يسبح مع التيار. واليوم، فإننا نشبه الحجر الذي يلقي في النهر. ومع مرور السنين سنتحول إلى سد منيع تتحطم أمامه كل التيارات وتسير في اتجاه جديد. لذلك فلا بد أن تبدو حركتنا في عيون العالم كحركة تمثل برنامجاً سياسياً محدداً وواضحاً.

وعندما نكون على وعي بأن هناك ضرورات لا مفر منها تحدد سياستنا الخارجية، فإن ذلك الوعي سيمدنا بالصلابة التي نحتاج إليها حتى نتحمل كل هجوم شرس نتعرض له من صحافة العدو ونظل ثابتين عندما تهمس الأصوات بأن علينا أن نتنازل هنا وهناك حتى لا يقف الجميع ضدها وأن علينا أن نساير التيار السائد ونعوي أحياناً مع الذئاب.



حق الدفاع عن النفس



بعد أن ألقينا السلاح في نوفمبر عام 1918م اتبعت سياسة كانت لابد أن تؤدي إلى الخضوع التام وفقاً لكل مقاييس الاحتمالات البشرية. وتوضح أمثلة تاريخية مشابهة أن الدول التي تلقي السلاح دون أن تكون مضطرة إلى ذلك تماماً تفضل الاستسلام أمام الإهانات الكبرى والابتزاز على أن تحاول تغيير مقدراتها بالجوء إلى استخدام السلاح من جديد.

وهذا مفهوم جداً وواضح، فالمنتصر الجبار يفرض دائماً ما يريد على المهزوم تدريجياً وإلى أقصى حد ممكن. ثم بعد ذلك يدرك أن الشعب الذي فقد كل القوة - ذلك هو حال كل أمة تخضع بإرادتها أمام تهديدات عدوها - لن يرى أن تلك الأعمال الظالمة سبباً كافياً لحمل السلاح من جديد. وكلما زاد الابتزاز وتم قبوله بطريقة سلبية استسلامية، قلت فرص شعور الأمم الأخرى بمبررات المقاومة، عندما ينتهي المطاف بالأمة المهزومة بالثورة ضد الظلم المتكرر. ويكون الحال كذلك خاصة إن قبلت تلك الأمة بصبر وصمت دفع ضرائب عالية ومجحفة.

إن سقوط قرطاجة مثال فظيع على معاناة الشعب التي تنتهي بالدمار الذي سببته أخطاء الشعب ذاتها.

وقد كتب "كلوزويتز" ثلاثة موضوعات عن الإخلاص شرح فيها هذه الفكرة وقال: "لا يمكن محو وصمة العار الناتجة عن الاستسلام الجبان أبداً. إن قطرة السم التي تدخل جسد أمة ستنتقل إلى كل الأجيال القادمة، وسوف تضعف الأمة وتشل حركة الأجيال القادمة." لكنه أضاف ما هو عكس ذلك وقال: "يضمن فقدان الحرية والتعرض إلى صراع دموي مولد الأمة من جديد ويعتبر نواة تنمو منها شجرة قوية ذات جذور ثابتة في المستقبل."

ومن الطبيعي أن الأمة التي فقدت كل شعور بالكرامة وكل قوة لن تشعر بقوة مذهبها. وكل أمة تؤمن بهذا المذهب لن تسقط إلى الحضيض أبداً. ولابد أن ينهار الذين تناسوا هذا المبدأ أو رفضوا الإيمان به. ولا يمكن أن نتوقع ممن كانوا مسئولين عن الاستسلام الجبان أن يفكروا فجأة في تغيير سلوكهم القديم ويوجهونه نحو الطريق الذي يشير إليه التجارب الإنسانية والعقل. فهم - على العكس تماماً من ذلك - يتبرأون من هذه الأفكار تماماً إلى أن يعتاد الشعب نير العبودية أو أن تشق العناصر الأفضل من أبناء الشعب طريقها إلى

المقدمة وتمسك بزمام الحكم بالقوة وتحتي ذلك النظام الفاسد المخزي. وأول من سيسعد بذلك هم من كانوا مسؤولين عن الحكم لأن الدول المنتصرة كلفتهم بمهمة الإشراف على العبيد. وقد مارس هؤلاء المسؤولون معدومو الشخصية كل ما يضر بشعبهم بطريقة تزيد قسوتها عن أي عدو غريب قاسي الفؤاد يختاره عدونا.

❖ | عدونا قاسي جداً وعديم الرحمة..

وقد أثبتت الأحداث التي وقعت في ألمانيا في الفترة التي تلت عام 1918م أن عدونا عديم الرحمة حيث انعكس الاستسلام غير المشروط الذي أصر عليه على سلوك جماهير الشعب. وأنا أذكر ذلك بوضوح وذلك لأنني لا أستطيع إقناع نفسي بأن ما قام به القادة في تلك الفترة وما تركوه ناتج عن نفس الأوهام المأساوية. وبما أن اليهود هم المسيطرون بكل وضوح على مقدراتنا التاريخية في فترة بعد الحرب، فمن المستحيل أن نفترض أن الجهل بأحوال البلاد هو السبب الوحيد لكل ما مر بنا من مأس. والنتيجة التي يمكن استخلاصها من تلك الحقائق هي أن شعبنا في طريقه إلى الدمار. فإذا ما تناولنا الأمر من هذه الناحية سنجد أن اتجاه السياسة الخارجية للدولة ليس بهذا القدر من الحق الذي يبدو عليه. فإذا ما تدبرنا الأمر قليلاً سيتضح لنا أن هذا السلوك ناتج عن حسابات دقيقة معدة جيداً ومرتبطة منطقياً بما يخدم مصالح اليهود الذين يسعون للسيطرة على العالم.

فمنذ عام 1806م وحتى عام 1813م كانت بروسيا دولة منهاره. لكن تلك الفترة كانت كافية لتجديد القوى ودعمها من جديد بروح القتال. وقد مرت بنا الآن فترة مماثلة منذ عام 1918م وحتى اليوم ولم نحقق منها أي استفادة. ولكن على العكس تماماً حيث نتراجع قوى دولتنا بانتظام. فقد مرت سبع سنوات منذ توقيع معاهدة لوكارنو في نوفمبر عام 1918م.

وكل ما حدث من تطور هو ما ذكرته سابقاً. فبمجرد التوقيع على الاتفاقية المخزية أصبح شعبنا غير قادر على استجماع الشجاعة الكافية والطاقة التي تمكنه من وقف سلوكيات أعدائنا وذلك لأن الأعمال العدائية كانت مستمرة ومتجددة. فقد كان العدو قاسياً جداً لدرجة أنه أصر على مطالبه كلها مرة واحدة. لذلك فقد توقع كل ما حدث من ظلم مستفحل وفرضت الضرائب المجحفة وقرارات بالاعتقال لكل من يعترض على ذلك. مما انعكس على أفراد الشعب ونشر روح فقدان الأمل بينهم. وهو ما سماه "كلوزويتز" بقطرة السم. فكلما عجزت الشخصية وبدا ذلك واضحاً عليها، انعكس ذلك أيضاً على تزايد المشكلة باستمرار حتى تبدو كميراث فاسد يؤثر على كل القرارات التي تتخذ في المستقبل. وقد تتحول هذه المشكلة إلى ثقل من الرصاص يعلق في رقبة الأمة لا يمكن نزعه كما أنه يدفعها إلى مزيد من العبودية.

لذلك فإن مراسيم نزع السلاح والاضطهاد ونهب الاقتصاد تتالت واحداً بعد الآخر علينا في ألمانيا حتى أصبحنا عاجزين. وقد كان من نتيجة ذلك أن كثيراً منا يرون أن خطة "داوس" مفيدة وأن معاهدة لوكارنوا نوع من النجاح. لكننا نرى أن هناك فائدة واحدة تحققت وسط عدد من المآسي وهي أننا يمكن أن نخدع الشعب ولكن عدالة السماء لا يمكن خداعها. فمذ ذلك الوقت أصبح البؤس والتواتر ملازمين لشعبنا، وأصبح الظلم هو الحليف الوحيد الذي ظل مخلصاً لنا، ولا يمكننا أن نستثني من ذلك ما حدث لنا من أقدار أيضاً. فقد أعطانا القدر ما نستحقه. فإذا كنا لا نعرف قيمة الكرامة، فقد علمنا القدر قيمة حرية البحث عن قوت اليوم. والآن وبعد أن تعلمت الأمة كيف تسعى للرزق فقد نتعلم في يوم ما البحث عن الحرية.

كان انهيار أمتنا في الأعوام التالية لعام 1918م مريعاً وواضحاً. فقد كانت تلك الفترة التي اختارها عدونا لاضطهادنا بطريقة حاقدة جداً، لهذا فإن فكل ما يمكن أن يحدث أكثر من ذلك يمكن أن نتنبأ به جميعاً. فالحكومة التي استسلم لها شعبنا حكومة ضعيفة وعديمة الكفاءة كما أنها مغرورة، وهذا واضح من تبرؤها من كل من يحذر مما يحيط بنا من شُرور. كما أننا رأينا - ولا نزال نرى إلى اليوم - أن كبار البرلمانيين السذج من صانعي القفزات والسروج - وهم لا يتاجرون فيها فقط وإلا لكان الأمر أهون - بعد أن ارتقوا إلى مناصب رجال الدولة فجأة يتعاملون مع عدونا الأثم من هذا المنطلق⁽¹⁾. فلم يكن من المهم - ولا يزال - أن يستعرض مثل هذا النوع من رجال الدولة مواهبه لمدة ستة أشهر أو أكثر في مجرد الثرثرة ثم يبدأ في إدراك ماهيته بعد أن يصبح موضع سخرية العامة واستهزائهم. وليس من أن المهم أنه قدم دليلاً واضحاً على عدم كفاءته. لا ... فهذا ليس له أي أهمية على الإطلاق. بالعكس، فكلما كانت الخدمات الحقيقية التي يقدمها البرلماني لهذا الوطن قليلة، فلن يتضرر منه من يضطهدون البرلماني الذي يثبت أن له نشاطاً ملحوظاً. كما أنهم يضطهدون كل من يجرؤ على الإشارة إلى فشل هذه الأنشطة ويتوقع فشل الأنشطة المماثلة في المستقبل. فإذا ما تمكنا من دفع أحد هؤلاء البرلمانيين إلى مواجهة الحقائق فإنه سينكر فشل كل ما قام به من أعمال وكل ما نتج عنها، كما سيجد آلاف الأعذار لكنه لن يعترف أنه هو السبب في حدوث أي شر.

❖ تفكيرك ألمانيا.. هو هدف فرنسا من الحرب..

وفي شتاء عام 1922-1923م لوحظ بصفة عامة أنه حتى بعد التوقيع على معاهدة السلام مع فرنسا، كانت فرنسا تسعى بكل جهدها وبارادة حديدية إلى تحقيق أهدافها التي

(1) أي من منطلق أنهم من عامة الناس وليسوا رجال دولة.

كنا نتصور أنها الغرض النهائي من الحرب. ولا يستطيع أي منا أن يفكر في الاعتقاد بأن فرنسا أراقت دماء أبنائها لمدة أربعة أعوام ونصف في أشد صراع مرت به في تاريخها من أجل الحصول على التعويضات ومقابل إصلاح ما تهدم. وحتى "الألزاس واللورين" كمشكلة منفصلة لم تكن سبباً كافياً يجعل فرنسا تضعهما كجزء من برنامجها المستقبلي للسياسة الخارجية. لذلك فقد كان هدف ذلك البرنامج هو ما يلي : تفكيك ألمانيا إلى عدد من الدويلات. ولهذا السبب شن الفرنسيون الحرب، وبذلك باعت فرنسا شعبها لخدمة اليهودية العالمية.

وكان من الممكن أن تتحقق أهداف فرنسا الحربية خلال الحرب العالمية، كما كانوا يأملون في باريس، إذا كان القتال قد جرى على أراض ألمانية. دعونا نتخيل أن الحرب لم تحدث في "سوم" و"فلاندرز" بل دارت على أراض ألمانية في رور وماين أو في الألزاس وقرب هانوفر وغيرها. فإذا كان ذلك هو ما حدث لثم القضاء على ألمانيا. وأنا مقتنع تماماً بأنه لو جرت الأمور في اتجاهات أخرى فلم يكن من الممكن أن تظل الدولة الألمانية قائمة إلى اليوم ولكن كانت ستبقى بعض الدويلات الألمانية وهذا هو السبب في أن الدماء التي أراقها أصدقائنا وإخوتنا في هذه الحرب لم تضع هباء.

لكن، انقلبت مجريات الأمور وفي نوفمبر من عام 1918م انهضت ألمانيا فجأة كالبرق. ولكن بعد أن وقعت الكارثة داخل الوطن كانت قواتنا لا تزال متوغلة في أرض العدو. ولم يكن شغل فرنسا الشاغل في تلك الفترة هو تمزيق ألمانيا ولكن كيفية إخراج الجيش الألماني من فرنسا وبلجيكا بأسرع ما يمكن. لذلك كان أول شيء يجب أن تفعله حكومة باريس حتى تنتهي الحرب هو نزع سلاح الجيش الألماني إن أمكن ذلك. ففرنسا لا يمكنها أن تركز اهتمامها على الأهداف الأصلية للحرب دون أن يحدث ذلك⁽¹⁾. ونفس الحال في إنجلترا، لأنها تعتبر نفسها قد كسبت الحرب فعلاً عندما تتضاءل القوة التجارية والاستعمارية الألمانية إلى أبعد مدى وتصبح من الدرجة الثانية. فليس من بين أهداف إنجلترا أن تحو الدولة الألمانية تماماً. وإن كان ذلك يروق لها أن تحتفظ بعدو تقليدي لفرنسا داخل القارة الأوروبية. لذلك اضطرت السياسة الفرنسية إلى الاستمرار في استخدام الطرق السلمية لتحقيق ما بدأت الحرب من أجله. وقد قال "كليمنصو" في بيانه : "إن السلام ما هو إلا استمرار للحرب بالنسبة له" وهذا الكلام له معنى كبير.

كانوا ينتهزون كل فرصة ويبدلون كل جهدهم لتفكيك ألمانيا. ومع استمرار إرسال الإنذارات التي تطالب بنزع السلاح من جهة وفرض العقوبات الاقتصادية من جهة

(1) أي نزع السلاح الألماني.

أخرى، كانت باريس تأمل في أن تنهار ألمانيا وتتحول إلى دويلات. وكلما زاد شعور الألمان بعدم الكرامة، استمرت الضغوط الاقتصادية وزاد تأثير هذه الضغوط كعوامل لتدمير السياسة. فإذا ما استمرت مثل هذه السياسة التي تعتمد على الظلم والإنهاك الاقتصادي لمدة عشر سنوات أو عشرين فإنها يمكن أن تدمر أي أمة مهما كان تماسكها على المدى الطويل، وفي ظروف محددة يمكنها أن تمزقها. وبذلك تكون الحرب الفرنسية قد حققت أهدافها تماماً.

❖ الصراع الألماني الفرنسي..

وبحلول شتاء عام 1922-1923م كانت النوايا الفرنسية واضحة لفترة طويلة. وكانت هناك طريقتان فقط لمواجهة هذا الموقف. فإذا كان على الأمة الألمانية أن تثبت قوتها وصلابتها فلا بد لها أن تتحدى الإرادة الفرنسية أو عليها أن تفعل ما لا بد من فعله في يوم ما، أي أن عليها أن تدافع عن نفسها. وذلك سوف يؤدي بالطبع إلى إما حياة أو موت. ويعتمد خروجنا من هذا الصراع أحياء على كون فرنسا معزولة تماماً، فألمانيا لن تحارب العالم أجمع، ولكنها ستدافع عن نفسها فقط ضد فرنسا التي دأبت على تكدير الأمن والسلام العالميين.

وأنا مقتنع بهذا الرأي ومصر عليه، وهو أن هذا الخيار الثاني لا بد أن نختاره وننفذه بطريقة أو بأخرى في يوم ما. وأنا لا اعتقد أن فرنسا ستعدل نواياها تجاهنا من تلقاء نفسها. فإذا كنت أنا أحد رجال الدولة في فرنسا وكنت أحبها كما أحب ألمانيا الآن في الحقيقة، فإنني كنت سأتصرف مثلما فعل "كليمنصو". فالأمة الفرنسية التي تحتضر ببطء شديد وتعاني من قلة السكان واختفاء العنصر الراقى⁽¹⁾ يمكنها أن تلعب دوراً عالمياً مهماً إن تم تدمير ألمانيا فقط. والسياسة الفرنسية يمكنها أن تقوم بألف النفاق حتى تحقق هدفها الثابت المنشود. لكنها تعتبر أن تدمير ألمانيا هو الغاية التي تريد الوصول إليها بأي حال وهو أغلى الأمال. ولذلك فمن الخطأ أن تظل إرادتنا في الحفاظ على بلادنا وبقائنا إرادة سلبية لا تفعل شيئاً في مواجهة الإرادة المضادة الفعالة. وطالما أن هذا الصراع بين ألمانيا وفرنسا سيظل مستمراً ولا تقوم فيه ألمانيا بأي دفاع في مقابل الهجمات الفرنسية فلن يصل إلى نهاية حاسمة وتنفذ ألمانيا مواقفها قزماً بعد قرن. فإذا ما درسنا التغيرات التي حدثت في الحدود التي تستخدم اللغة الألمانية بداخلها منذ بداية القرن العشرين وحتى اليوم فإن نشعر بأي أمل في تحقيق أي نجاح في هذه القضية المصرية الهامة بالنسبة لنا.

(1) يقصد الفرنسيين البيض الذين لم يختلطوا بشعوب المستعمرات والذين يرجع لهم الفضل الآن في الحفاظ على الشعب الفرنسي من الانقراض فالمهاجرون هم أكثر خصوبة وأكثر إنتاجاً من الفرنسيين الأصليين وفرنسا الآن بخلاف ألمانيا وإيطاليا اللتين تعانين من التناقص كل عام - هي أفضل حالاً من الناحية السكانية. (الناشر).

فإذا ما وضع الألمان كل ذلك في حساباتهم فلن يسمحوا لأنفسهم بالقضاء على إرادة الأمة والاكتفاء بالدفاع السلبي فقط، ويعملون معاً من أجل الوصول إلى صراع نهائي وحاسم مع فرنسا. وفي هذا الصراع ستحارب ألمانيا من أجل تحقيق الهدف الأساسي للأمة الألمانية. وفي ذلك الوقت فقط يصبح من الممكن أن ينتهي الصراع الألماني الفرنسي الذي أثبت عدم جدواه حتى الآن. ولابد أن نقول هنا: إن ألمانيا لا ترى أن قمع فرنسا ليس أكثر من وسيلة تمكن شعبنا من التوسع فقط. فاليوم، يعيش 80 مليون ألماني في أوروبا. ويمكن اعتبار سياستنا الخارجية سياسة عادلة عندما يصل شعبنا بعد مائة عام إلى 250 مليون نسمة يعيشون في هذه القارة⁽¹⁾. وهم عمال وفلاحون يحتاجون للأرض ويريدون تأمين وجودهم.

وفي شهر ديسمبر من عام 1922م اتجه الموقف بين فرنسا وألمانيا نحو منعطف خطير. فقد أرادت فرنسا القيام بالعديد من أعمال الاستبداد وأرادت إصدار مزيد من القرارات بذلك. وكان لابد من ضغط سياسي يسبق سرقة الاقتصاد، وكان الفرنسيون يعتقدون أن الهجوم العنيف على الجهاز العصبي المركزي لألمانيا يمكنه أن يجعل شعبنا المتمرد ينحني أمام هذا الاستعباد الفاحش. لذلك فقد اعتقدوا أن احتلال منطقة "رور" سيكسر العمود الفقري الألماني وأنها سنصل إلى حالة اقتصادية سيئة جداً ونضطر إلى الموافقة على أثقل التزامات ظلاماً.

فالقضية إذن هي إذلال ألمانيا وقهرها. وفي البداية انحنت ألمانيا ثم تفككت بعد ذلك تماماً.

❖ وماذا بعد أن احتلت فرنسا منطقة «الرور»؟

وقد مد القدر يده مرة أخرى ليساعد الشعب الألماني عندما احتلت منطقة "رور" وساعده على النهوض. فما كان يبدو للوهلة أولى ضربة قوية اتضح بعد فحص دقيق أنه يحتوي على احتمالات مشجعة قد تؤدي إلى إنهاء آلام ألمانيا.

أما ما يخص السياسة الخارجية، فإن ما قامت به فرنسا من احتلال "رور" قد أبعد ذلك إنجلترا من أول لحظة وبطريقة واضحة. وفي الحقيقة لم يتسبب ذلك في ابتعاد الدوائر السياسية البريطانية الموقعة على تحالف مع فرنسا فقط ولكنه أبعد أيضاً قطاعاً كبيراً من الشعب الإنجليزي. ولم يخف عالم الأعمال الإنجليزي بالذات دهشته لهذه الخطوة المذهلة التي زادت من قوة فرنسا في القارة. أما من الناحية العسكرية فإن فرنسا تحظى الآن بمكانة في أوروبا لم تكن لألمانيا مثلها في السابق. بالإضافة إلى أن فرنسا تتحكم الآن في

(1) الآن وبعد مرور ما يقرب من 90 عاماً على تأليف هذا الكتاب يبلغ تعداد ألمانيا 83 مليون نسمة، كما أنهم يتناقصون سنوياً بعدد يدور حول 80 ألف نسمة سنوياً.

الموارد الاقتصادية تمكنها من الاحتكار وتوحيد جهودها السياسية والتجارية أمام كل المنافسين. فكل مناجم الفحم والحديد في أوروبا الآن تحت سيطرة أمة واحدة دافعت عن مصالحها الحيوية بطريقة فعالة ومثابرة كما أن كفاءتها العسكرية في "الحرب العظمى" لا تزال حية في ذاكرة العالم أجمع. لذلك فاحتلال فرنسا لحقل الفحم في "رور" حرم إنجلترا من النجاح الذي حققته في الحرب. لذلك فالمنتصرون الآن هم المارشال فوك وفرنسا التي يمثلها وليس بريطانيا ورجال الدولة الهادئين فيها.

وفي إيطاليا أصبح الموقف تجاه فرنسا عدائياً بوضوح كما أنه لم يكن ودياً أبداً منذ نهاية الحرب. فقد جاءت اللحظة التاريخية العظمى التي قد يتحول فيها حلفاء الأمس إلى أعداء الغد. وإذا كانت الأمور قد سارت في اتجاه آخر ولم يكن الشقاق قد دب بينهم فجأة - كما حدث في حرب البلقان الثانية - كان ذلك سيحدث لأن ألمانيا ليس فيها "أنور باشا"⁽¹⁾ ولكن مجرد مستشار للدولة اسمه "كونو".

لكن على أي حال فتح الغزو الفرنسي لمنطقة "رور" احتمالات كبرى للمستقبل ليس فقط فيما يخص السياسة الخارجية الألمانية ولكن فيما يخص سياستها الداخلية أيضاً. فقد شفي قطاع كبير من شعبنا الذي كان يعتبر فرنسا - بفضل الصحافة الكاذبة - مثالا للتقدم والحرية من هذا الوهم. وقد تلاشت فكرة التماسك الدولي فجأة من عقول الطبقة العاملة في عام 1914م. وعادوا من جديد إلى عالم الصراع الأبدي حيث يتغذى الكائن بكائن آخر وحيث يعني موت الضعيف حياة للأقوى. وحدث نفس الشيء في ربيع عام 1923م.

❖ احتلال «الرور».. ولحظات حاسمة في تاريخ ألمانيا..

فعندما نفذت فرنسا تهديدها ودخلت بتردد وحذر في البداية إلى منطقة حوض الفحم في جنوب ألمانيا دقت ساعة حاسمة في تاريخ ألمانيا. كانت لحظة حرجة وحاسمة. فإذا كان شعبنا قد تغير في تلك اللحظة ليس فقط في تفكيره بل في تصرفاته أيضاً لكانت منطقة "رور" الألمانية ستعني لفرنسا مثل معنى "موسكو" عند نابليون. وفي الحقيقة كان هناك احتمالان فقط : إما أن نترك هذا التحرك يتخذ مساره الطبيعي ولا نفعل أي شيء أو أن نعتمد على شعب تلك المنطقة المتوترة الملهبة. وكان من الضروري أن يحدث شيء يثير مشاعرهم وحماسهم لكي تبدأ أي مقاومة فعالة إنهاء ذلك الإرهاب المستمر إلى ما لا نهاية وليس الخضوع له.

لكن كونو - وهو مستشار الدولة في ذلك الوقت - يمكنه أن يدعي أنه مكتشف الحل

(1) أنور باشا: (1881-1992م) جنرال عثماني عمل كقائد عام للجيش وأصبح أحد أعضاء حكومة شباب الأتراك التي حكمت تركيا خلال الفترة 1913-1918م وقد لعب دوراً مهماً في دخول تركيا الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا.

الثالث، وقد أمطرته الأحزاب السياسية للطبقة البرجوازية بالمديح وتعاطفت معه وشاركته الرأي.

وفيما يلي سأتناول الطريقة الثانية باختصار قدر المستطاع :

إن احتلال فرنسا لمنطقة "رور" يعتبر انتهاكاً فاضحاً لاتفاقية فرساي. وقد جلب لها هذا العدوان خلافات مع العديد من القوى، وخاصة مع إنجلترا وإيطاليا. وهي لا تأمل أبداً في مساندة تلك الدول لها فيما فعلته من سرقة. يمكنها فقط أن تعتمد على قواتها لكسب كل ما هو ممكن من هذه المغامرة، وذلك لأنها لا تزال في بدايتها. ولذلك لم يتبق أمام الأمة الألمانية سوى طريق واحد، وهو طريق نفضه علينا كرامتنا. في البداية كان من المؤكد أننا لا يمكننا مواجهة فرنسا بقوة مسلحة مقاومة. لكن كان من الضروري أن نلاحظ بوضوح أن المباحثات التي لا تساندها قوة عسكرية سخيصة لأنها لن تحقق أي شيء. فإذا لم يكن من الممكن أن ننظم مقاومة فعالة، فإنه من العبث أن نقول: "لن ندخل في أي مباحثات". ومن العبث أيضاً أن ندخل في مباحثات في النهاية دون أن نعد لها قوة مناسبة تساندها.

ولم يكن من الممكن أن نمنع احتلال "رور" بالطرق العسكرية. فالمجنون فقط هو من يقترح هذا القرار. لكن طبقاً للانطباعات التي أحدثها القرار الذي اتخذته فرنسا وأثناء تنفيذ هذا القرار كان من الممكن - بل من الضروري - أن نتخذ إجراءات دون النظر إلى معاهدة فرساي على الإطلاق لأن فرنسا نفسها انتهكتها. لذلك كان علينا أن نعد القوات التي ستساند المباحثات فيما بعد. فقد كان من الواضح منذ البداية أن قدر هذه المنطقة التي احتلتها فرنسا سيتحدد يوماً ما على مائدة مفاوضات ما. كما يجب أن يكون من الواضح أيضاً للجميع أنه حتى أفضل المفاوضين يمكن أن يحققوا نجاحاً محدوداً إن لم تكن الأرض التي يقفون عليها والكراسي التي يجلسون عليها ليست تحت الحماية المسلحة لشعبهم. فالشخص الضعيف لا يمكنه أن يتحدى بطلاً رياضياً والمفاوض بدون وجود أي قوة مسلحة تحمي ظهره لابد أن يقدم تنازلات. وقد كان من المؤلم أن نتابع كوميديا المباحثات التي - منذ عام 1981م - تسبق كل الأوامر المستبدة التي يفرضها علينا العدو. وقد نظر إلينا العالم أجمع من منظار الشفقة عندما دعينا إلى حضور مؤتمر - بطريقة ساخرة - لمجرد عرض القرارات والبرامج التي رسمت وصدرت منذ وقت طويل مضى، والتي سمح لنا بمناقشتها، لكنها غير قابلة للتعديل منذ البداية. وقد أظهر مفاوضونا أنهم مفاوضون ذوو قدرات عادية جداً. وذلك لأن أقصى ما فعلوه هو أنهم أكدوا ملاحظة "لويد جورج" (1) الوقحة حينما تهكم في حضور السيد/ سيمون المستشار الألماني السابق

(1) رئيس وزراء بريطانيا في الفترة 1916-1922م.

قائلاً: إن الألمان لا يحسنون اختيار أشخاص أذكىاء ليكونوا قادتهم وممثليهم. لذلك كان عدونا عازماً ومصرأً من جهة وكانت ألمانيا عاجزة وفاشلة من جهة أخرى، لذلك فلو كان المفاوضون مجموعة من العباقرة فلم يكن من الممكن لهم تحقيق سوى القليل جداً من المنجزات لصالح ألمانيا.

وفي ربيع عام 1923م كان على كل من يفكر في أن تنتهز ألمانيا فرصة غزو فرنسا لمنطقة "رور" لتعيد بناء قوتها العسكرية أن يفكر أولاً في استعادة الأمة لكل أسلحتها الأخلاقية ودعم إرادتها وإبادة كل من ساهم في تحطيم قوتها.

وكما كان يجب علينا في عام 1918م أن ندفع من دماءنا مقابل فشلنا في القضاء على أفعى الماركسية، والآن علينا أن نعاني من العقوبة التي فرضت علينا في ربيع عام 1923م لأننا لم ننتهز الفرصة التي لاحت للقضاء على كل ما قام به الماركسيون من أعمال أضرت بمصالح بلادهم وكانت مسئولة عن قتل الكثير من أبناء هذا الوطن.

❖ الماركسيون وتضليل الوطن..

وقد كانت كل فكرة تقوم على مقاومة فرنسا بالقوة فكرة حمقاء جداً، وذلك لأننا لم نقاتل ضد القوات منذ خمس سنوات مضت عندما تمكنت من تفكيك تلك المقاومة بدسيسة داخلية. كما أن عقول الطبقة البرجوازية فقط هي من يصدق أن الماركسية ربما تكون قد تغيرت الآن وأن الغوغاء زعماء فتنة عام 1918م استخدموا أجساد 2 مليون من قتلتنا كسلم يرتقون به إلى المناصب الحكومية المختلفة تغيروا فجأة في عام 1923م وأعربوا عن استعدادهم للقيام بدورهم نحو الأمة. فمن الحق الشديد أن نتوقع أن هؤلاء الخونة يتحولون فجأة إلى أبطال الحرية الألمانية. فليس لديهم أي نية في ذلك. وإذا كان الضبع لا يتخلى عن جيفة فريسته أبداً، فإن الماركسيين لن يتخلوا عن الانغماس في تضليل وطنهم أبداً. فمن غير المجدي أن نعرض هذا الاحتمال على الإطلاق، فقد ضحى كثير من العمال بدمائهم من أجل ألمانيا. عمال ألمان ... نعم وليسوا ماركسيين دوليين. وإذا كانت طبقة العمال تتكون من ماركسيين حقيقيين في عام 1914م لانتهدت الحرب خلال ثلاثة أسابيع. وكانت ألمانيا ستتهار قبل أن تظاً قدم أول جندي خارج حدودها. لكن ... لا، فقد أثبت الشعب الألماني الذي خاض الحرب أن الماركسية لم تتغلغل فيه بعمق. ولكن لأن الحرب طالت سقط الجندي والعامل الألماني في يد زعماء الماركسية. فإذا كان خمسة عشر ألفاً من اليهود الذين يفسدون الأمة قد تعرضوا لهجوم بالغاز في بداية الحرب أو حتى في أثنائها مثل مئات الآلاف من أفضل العمال الألمان القادمين من مختلف الطبقات والحرف والمهن، لم تكن كل هذه التضحيات على الجبهة لتضيع هباء. والعكس صحيح، لو كنا أبعدنا اثني عشر ألفاً من المجرمين منذ البداية وفي وقت مناسب فربما كان ذلك سبباً في إنقاذ مليون رجل محترم من رجالنا من أجل مستقبل ألمانيا. لكن رجال الدولة من الطبقة

البرجوازية اعتادوا الاستسلام دون أن ترمش جفونهم وأن يذبح ملايين الأفراد في أرض المعركة أثناء رعايتهم لعشرة آلاف أو اثني عشر ألف من الخونة والمستغلين والمرابين والغشاشين ويقدرّون ثروة الأمة الغالية التي يجب الحفاظ على أفرادها. ومن الصعب أن نقول في الحقيقة: إن أهم صفات تلك الطبقة هي: الضعف العقلي والأخلاقي والجبن والعقلية الراكعة. إنها طبقة كتب عليها أن تسقط إلى الأسفل، لكنها سبحت معها الأمة كلها إلى تلك الهوة السحيقة للأسف.

❖ القضاء على سموم الماركسية..

وكان الموقف في عام 1923م مشابهاً للموقف في عام 1918م. فقد كان الشرط الأساسي للقيام بأي عمل هو القضاء على سموم الماركسية في جسد أمتنا وذلك بغض النظر عن نوعية المقاومة التي يتم اختيارها. وقد كنت مقتنعاً في ذلك الوقت بأن أولى مهام الحكومة الوطنية هي البحث عن يحاولون القضاء على الماركسية وإطلاق يدهم في ذلك الأمر ودعمهم. فليس من واجب الحكومة أن تسعى لتحقيق "الهدوء والنظام" في اللحظة التي يوجه فيها عدونا ضربة قاتلة لبلادنا وتتخفى الخيانة العظمى في كل ناصية من نواصي شوارعنا. لا... فالحكومة الوطنية فعلاً ترحب بالفوضى والتوتر في ذلك الموقف إن كانا سبباً في إتاحة الفرصة لتسوية موضوع الماركسيين، فهم العدو اللدود لشعبنا. لكن عندما نهمل ذلك فمن الغباء أن نفكر في المقاومة بأي شكل من أشكالها.

وتسوية الحسابات مع الماركسيين ذات أهمية تاريخية بالطبع، ولا يمكن الوصول إليها من خلال خطط يضعها مجلس أو خطة يضعها أحد الوزراء. فلا بد لهذه الخطة أن تلتزم بالقوانين الأبدية للحياة على هذا الكوكب والتي كانت وستظل موضع صراع مستمر من أجل الوجود. ولا بد أن نتذكر دائماً أن الأمة القوية السليمة تنشأ في كثير من الأحوال بعد محنة الحروب الأهلية شديدة الدموية، بينما تؤدي الأحوال السلمية العادية والتي يتم الحفاظ على استمرارها بطريقة أصفناعية إلى جمود المشاعر الوطنية التي سبق أن وصلت إلى عنان السماء. فالأطفال لا يغيرون مقدرات الأمة. لذلك فقد كان من الضروري اتخاذ إجراءات قاسية في عام 1923م للقضاء على الأفاعي التي انتشرت في جسد الأمة. ولو كان ذلك قد حدث لتمكنا من تحقيق الشرط الأساسي لحدوث المقاومة الفعالة.

وفي تلك الفترة بح صوتي وأنا أحاول توضيح الأمر لما يسمى بالدوائر السياسية على الأقل، وقلت: إننا لدينا ما يمكن أن نفعله ولا نكرر أخطاء عام 1914م وما تلاه من أعوام حتى لا نواجه نفس المأساة التي وقعت عام 1918م. وكنت أناشدهم عادة أن يتيحوا الفرصة للحركة أن تتولى مسؤولية تسوية موضوع الماركسية. لكنني كنت أتحدث مع صم لم يسمعونني أبداً. وهم جميعاً يعتقدون أنهم أكثر علماً ومن بينهم قائد قوات الدفاع، وأخيراً وجدوا أنفسهم مضطرين إلى التوقيع على أحقر وثيقة استسلام عرفها التاريخ.

ثم أصبحت بعد ذلك مقتنعة بشدة بأن البرجوازية الألمانية حققت مهامها ولم تكن قادرة على القيام بأي عمل جديد بعد ذلك. كما لاحظت أيضاً أن كل الأحزاب البرجوازية كانت تحارب الماركسية بسبب التنافس فقط ودون رغبة حقيقية في القضاء عليها. وبذلك شاركوا لفترة طويلة في تدمير بلادهم، ولم يكن لديهم أي اهتمام آخر سوى تأمين مقاعد جيدة لهم في مراسم الجنازة. ومن أجل ذلك فقط استمروا في القتال.

❖ | «موسوليني» وموقف حازم مع الماركسيين..

وفي ذلك الوقت - قتلها بصراحة - كنت معجباً جداً بالرجل الذي يعيش وراء جبال الألب الذي ألهمه حبه المخلص لشعبه ألا يتفاوض مع أعداء إيطاليا في الداخل ولكنه استخدم كل ما هو متاح من طرق ووسائل للقضاء عليهم. وقد أدى القرار الذي اتخذه "موسوليني" بعدم اقتسام إيطاليا مع الماركسيين وابتعاده ببلاده عن الماركسية والقضاء على التوجه التدويلي إلى رفعة واحتلاله لمكان بارز بين كبار وعظام العالم.

ترى كيف يبدو رجال دولتنا الأقزام بالمقارنة مع "موسوليني". إن مجرد تصور تلك الوقاحة والغرور اللتين يتعامل بها هؤلاء النكرة عندما ينتقدون رجلاً أعظم منهم ألف مرة يشعرنني بالغثيان. وكم من المؤلم أن نعلم أن هذا يحدث في دولة تعتبر أن "بسمارك" قائدتها قبل خمسين عاماً وحتى اليوم.

❖ | القضاء على الماركسية يفك قيود ألمانيا!

إن الأسلوب الذي اتبعه البرجوازيين في عام 1923م والطريقة الطيبة التي تعاملوا بها مع الماركسيين حددت منذ البداية قدر أي محاولة للمقاومة الفعالة في "رور". إن وجود هذا العدو القاتل بين صفوفنا فمن العبث أن نفكر في محاربة فرنسا. وأقصى ما كان ممكن فعله في ذلك الوقت هو إشعال نار الحرب إرضاء للعنصر القومي الألماني إلى حد ما وذلك لتهديد "حالة الغليان العام" أو تخديرها، وهذا هو ما كان مقصود فعلاً. وإذا كانوا مقتنعين فعلاً بما يفعلونه، لكان عليهم أن يبحثوا عن موضع قوة الأمة قبل كل شيء وهذا لا يعني ما لديها من أسلحة بل ما لديها من قوة إرادة، كما يجب أن يتم القضاء على العدو الداخلي أولاً قبل التفكير في هزيمة العدو الخارجي. فإن لم يحدث ذلك فسوف تقع كارثة إن لم يتحقق النصر منذ أول يوم للقتال. وشبح هزيمة واحدة كاف لتعطيل طاقة الأمة كلها إن لم تكن قد تحررت من العدو الداخلي وانتصرت على عدوها انتصاراً مؤزراً.

وكان يجب علينا أن نتنبأ بكل ذلك في ربيع عام 1923م. فمن غير المجدي أن نشاءل إن كان من الممكن أن نعتمد على نجاح عسكري ضد فرنسا. وذلك لأن أي عمل نقوم به ألمانيا ضد الغزو الفرنسي لمنطقة "رور" كان يجب أن يمثل في القضاء على الماركسية في الداخل وكان من الممكن أن يحالفنا النجاح. وبمجرد أن نتجرّد ألمانيا من عدوها

الداخلي الذي يهدد وجودها في الحاضر والمستقبل، فإنها ستملك القوة التي لا يمكن أن تماثلها قوة في العالم. وفي اليوم الذي يتم فيه القضاء على الماركسية في ألمانيا فإن كل قيود ألمانيا ستتحطم وإلى الأبد. وذلك لأننا لم نهزم أبداً طوال تاريخنا أمام عدو يأتي من الخارج ولكن كان ذلك بسبب وجود العدو داخل معسكرنا.

ولأن الحكومة لم تكن قادرة على اتخاذ قرار شجاع كهذا في ذلك الوقت، فقد فضلت الطريقة الأولى وهي أن تدع الأمور تسير في مجراها ولا تقوم بأي عمل على الإطلاق.

❖ | هدية من السماء!

لكن وفي تلك اللحظة قدمت السماء لألمانيا هدية وهي عبارة عن رجل عظيم. وهو السيد/ "كونو". فهو لم يكن رجل دولة ولا سياسياً محترفاً ولا سياسياً بالفطرة. لكنه من ذلك النوع من السياسيين الذين اعتادوا على تصفية موضوعات محددة. وبغض النظر عن ذلك كان "كونو" ذا خبرة تجارية. وكان من سوء حظ ألمانيا أن رجل الأعمال هذا عندما مارس السياسة اعتبر أن السياسة مجرد أعمال يقوم بها ومهام يؤديها.

احتلت فرنسا منطقة "رور"، وماذا يوجد في "رور"؟ الفحم. لذلك تحتل فرنسا المنطقة من أجل الفحم؟ ماذا يمكن أن يدور في ذهن "كونو" حول هذا الموضوع أكثر من مجرد الإضراب الذي يمنع فرنسا من الحصول على أي كمية من الفحم؟ لذلك فلا بد لهم أن يخرجوا من "رور" يوماً ما، وهذا طبقاً لرأي "كونو" إن لم يكن هذا الاحتلال مفيداً من الناحية الاقتصادية. وقد تحدث المستشار لشعبه في "شتوتجارت" وغيرها من المدن وغرق الشعب في حبه. وبالطبع كان هناك احتياج للماركسيين في الإضراب، وذلك لأن العمال هم أول من سيشارك في الإضراب، ولأن عقول رجال الدولة من الطبقة البرجوازية مثل "كونو" يرون أن العامل والماركسي ما هم إلا نفس الشيء. لذلك كان على العامل أن ينضم إلى بقية الشعب الألماني ليكونوا جبهة واحدة. وهذا هو الرجل الوطني العبقري الذي كانوا يبحثون عنه منذ فترة طويلة. وذلك لأن الهوة التي بينهم وبين الماركسيين قد سدت تماماً الآن. وبمجرد أن احتاج كونو إلى مساعدة الماركسيين من أجل إقامة "جبهة موحدة" طلب الماركسيون أموال "كونو". لذلك استفاد الجانبان من تلك الصفقة. فقد حصل كونو على جبهته الموحدة وهي تتكون من الدجالين الذين يدعون الوطنية والغشاشين الدوليين، وعن طريق المال الذي حصلوا عليه من الدولة واصل الماركسيون مهمتهم المجيدة وهي تدمير نظام الاقتصاد القومي.

وكلنا نعرف أن الآمال لا تخلق أمة حرة. لكن تحرير الأمة بالتوقف عن العمل يحتاج إلى دليل تاريخي. وكان من الممكن أن يطلب "كونو" من كل عامل أن يعمل ساعتين إضافيتين من أجل تأسيس "الجبهة الموحدة" وكان الخداع في ذلك الأمر سيوضح خلال ثلاثة أيام فقط. فالأهم لا تتحرر بفرض العمل ولكن بتقديم المزيد من التضحيات.

لكن وعلى أي حال لا يمكن لما يسمى بالمقاومة السلبية أن تستمر طويلاً. ولا يمكن لأحد أن يتخيل أن جيش الاحتلال سيصاب بالرعب ويغادر المنطقة بسبب هذه الطرق السلبية في المقاومة إلا رجل جاهل تماماً بأمور الحرب. ومن المعروف أيضاً أن التحرك العسكري يتطلب إنفاق المليارات وذلك قد يؤدي إلى تخفيض قيمة العملة الوطنية.

❖ | المقاومة السلبية..

وبالطبع كان الفرنسيون قادرين على أن يجعلوا أنفسهم في منتهى الراحة في منطقة "رور" في نفس اللحظة التي يرون فيها هذه الإجراءات تحدث أمام أعينهم. وقد تعلموا منا كيف تتم السيطرة على الجماهير في حالة وقوع أي خطر أو تمرد على المسؤولين الذين حددهم جيش الاحتلال. فمذ تسعة أعوام فقط اجتحننا بسرعة البرق الفرق البلجيكية وجعلنا السكان المدنيين يدركون خطورة الموقف وذلك عندما كانت أنشطة تلك الفرق تهدد الجيش الألماني. ونفس الحال يمكن أن ينطبق على "رور"، فإذا تحولت المقاومة السلبية في "رور" إلى ما يشكل خطراً على الفرنسيين، فقوات الاحتلال لا تحتاج سوى ثمانية أيام وينتهي كل شيء. ولابد لنا أن نعود إلى المشكلة الأصلية في هذا الموضوع: ماذا يمكننا أن نفعل إن تسببت المقاومة السلبية في إثارة العدو إلى أن بدأ في قمعها بالقوة وسفك الدماء؟ هل نستمر في المقاومة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا لنا أن نتعرض لاضطهاد دموي. وفي تلك الحالة لابد لنا أن نواجه نفس الموقف الذي يمكن أن نواجهه إن قاومناهم مقاومة إيجابية. أي أننا علينا أن نقاتل. لذلك فما يسمى بالمقاومة السلبية منطقي فقط في حالة دعمها بإرادة قادرة على الخروج والقتال في حالة الاحتياج لذلك. وبصفة عامة، فإننا نستخدم هذا الأسلوب عندما تكون هناك فرصة لنجاحه. فعندما يتم الاستيلاء على قلعة في هجوم خاطف فلن يكون أمام المدافعين عن هذه القلعة سوى الاستسلام. وذلك لأنهم يضمنون حياتهم بتلك الطريقة بدلاً من الموت.

لذلك فإن المقاومة السلبية في "رور" لم يكن لها أي معنى عملي أو فائدة بدون جبهة فعالة تعمل على مساندتها. وهذا العمل يتطلب مجهوداً ضخماً من شعبنا.

وكانت هذه هي المناسبة التي فرضت علينا نحن الاشتراكيين الوطنيين أن نقف وقفة حسم ضد ما يسمى بكلمة الوطنيين. وهذا هو ما فعلناه. وخلال كل تلك الشهور هاجمني كثير ممن تتكون وطنيتهم من خليط من الغباء والغش، ممن يشاركون في المؤتمرات ويصرخون من السعادة عندما يقال عنهم أنهم وطنيون دون أن يتعرضوا لأي خطر من أي نوع. وكنت أرى أن تلك "الجبهة الموحدة" الحقيرة من أكثر الأشياء حمقاً وسخفاً. وقد أثبت الأحداث أنني على حق.

فبمجرد أن ملأت اتحادات العمال⁽¹⁾ خزائنها بأموال "كونو" وحانت اللحظة التي يجب فيها أن نتحول إلى المقاومة الإيجابية، وتحل الأعمال العسكرية محل الدفاع السلبي تفكك الضبع الأحمر وانفصل عن بقية أبناء الأمة وعاد يمارس ما كان يفعله دائماً. وهكذا وبدون أي إنذار عاد السيد/كونو إلى قواعده. وأضافت ألمانيا تجربة جديدة إلى تاريخها لكنها فقدت أملاً كبيراً.

❖ | محكمة التاريخ..

وحتى منتصف الصيف من ذلك العام لم يصدق عدد من الضباط أن الأمور يمكن أن تسير في ذلك الاتجاه المهيمن. وكانوا جميعاً يأملون - سواء علنياً أو سرياً - في اتخاذ الإجراءات اللازمة لجعل هذا الغزو الفرنسي المتغطرس نقطة تحول في تاريخ ألمانيا. وكان كثير من رجالنا أيضاً يأملون في تدخل مجلس العموم. وقد كان هذا الشعور متعمقاً جداً فيهم لدرجة أنه أثر بشدة على سلوكياتهم وبخاصة في تدريب أعداد كبيرة جداً من الشباب.

لكن عندما بدأ الانهيار المخزي وتم الاستسلام غير المشروط المخزي، تحول سخط كثير من أفراد شعبنا إلى شرارة. فقد أنفقت ملايين الأموال الألمانية عبثاً وضحينا بآلاف من شباب ألمانيا وكانوا من أولئك الحمقى الذين صدقوا الوعود التي قطعها حكام الدولة على أنفسهم. وأصبح الملايين من أبناء الشعب على ثقة من أن ألمانيا يمكن إنقاذها فقط بالقضاء على كل النظام القائم بكل ما فيه من جنور وفروع.

ولم تكن هناك لحظة ملائمة لذلك الحل أكثر من تلك المناسبة. فقد ارتكبت جريمة الخيانة العظمى ضد الوطن علانية وبلا خجل من جهة. ومن جهة أخرى وجدت الأمة أنها تموت ببطء من الجوع. وقد فقدت الدولة كل شروط الولاء والثقة بعد أن هزأت بحقوق مواطنيها وجعلت التضحيات التي قدمها الملايين من شبابها بلا معنى وسرقت كل ما يملك الملايين آخرين من أموال وتركتهم معدمين، وهذه الدولة لا يمكنها أن تتوقع أي شيء من شعبها سوى الكراهية. إنها كراهية من تسبب في تدمير الشعب والوطن، وكان لابد من وجود مخرج بطريقة ما أو بأخرى. وهنا يمكنني أن أستشهد بالجملة الأخيرة من خطاب ألقينته في قاعة المحكمة العليا في ربيع عام 1924م.

"لابد لقضاة هذا العصر أن يشجبوا تصرفاتنا، لكن التاريخ الحقيقي سيبتسم عندما يُمزق هذا الحكم ويبرؤنا جميعاً من التهمة التي صدر علينا هذا الحكم من أجلها."

كما أن التاريخ سوف يستدعي إلى محكمته كل من هم في السلطة اليوم ممن داسوا

(1) وكان يسيطر عليها الماركسيون كما سبق أن أشار هتلر.

على القانون والعدالة وحكموا على شعبنا بالبؤس والخراب والذين اهتموا بأنفسهم فقط وليس بالمجتمع عندما أمت المحن بالوطن.

ولن أحكي الأحداث التي أدت إلى ما حدث في الثامن من نوفمبر عام 1923م. وأنا لن أفعل ذلك لأنني أرى أن ذلك غير مفيد للمستقبل كما أنه ليس من المجدي أن ننكأ الجراح القديمة التي تمكنا من إغلاقها للتو. فربما يكون من غير اللائق أن نتحدث عن ذنوب من يحبون هذا الشعب من أعماق قلوبهم مثلي لكنهم لم يتبعوا نفس الطريق الذي اتبعته أو فشلوا في إدراك أنه الطريق الصحيح الذي يجب عليهم أن يسيروا فيه.

أما ما يخص الكارثة التي حلت بأممتنا، فيجب أن أمتنع عن تجريح أو تفريق من يمكن أن تتكون منهم جبهة موحدة في يوم ما في المستقبل، ويتكون منها الألمان الحقيقيون المخلصون ويتمكنون من مواجهة جبهة العدو وتحملها. وذلك لأنني أعلم أن الوقت سيأتي ويتعامل معنا من اعتبرونا أعداء من قبل باحترام لأننا خضنا طريق الموت الصعب من أجل شعبنا.

وأنا أهدي الجزء الأول من هذا الكتاب لثمانية عشر بطلاً من أبطالنا، وهنا وفي نهاية الجزء الثاني من الكتاب دعوني أعيذ هؤلاء الأبطال إلى ذاكرة أنصار أفكارنا ومؤيدينا، فهم أبطال ضحوا بحياتهم وهم يدركون تماماً ما يفعلونه من أجل أن نحيا جميعاً. ويجب علينا أن نتذكر تلك الأسماء حتى يتشجع الضعيف والمتردد فينا ويلبي نداء الواجب، إنه الواجب الذي نقوم به بكل ترحاب حتى وإن كانت نتائجه صعبة. وإلى هؤلاء الأبطال جميعاً أضيف واحداً يعتبر من أفضلهم جميعاً. وأحب أن أذكر اسمه، فهو رجل كرس حياته لإيقاظ شعبه وشعبي، وذلك من خلال كتاباته ومثله وأخيراً من خلال العمل الإيجابي. وهو : "ديترش إيكارت".



خاتمة الكتاب



في يوم التاسع من نوفمبر من عام 1923م وبعد مرور أربعة أعوام ونصف من التأسيس صدر أمر بحل حزب العمال الاشتراكي القومي الألماني وحظره في جميع أنحاء ألمانيا. واليوم وفي شهر نوفمبر من عام 1926م أعيد إنشاء الحزب من جديد في أنحاء البلاد وهو يتمتع بكامل الحرية، لكنه أقوى وأكثر تماسكا من الداخل عما كان من قبل.

فلم يفلح كل ما تعرضت له الحركة وزعمائها من اضطهاد وكل الدسائس التي حيكت حولها في القضاء عليها. وذلك بفضل عدالة أفكار هذه الحركة وتكامل أهدافها وروح نكران الذات المنتشرة بين أفرادها، لذلك تمكنت من التغلب على الظلم وزيادة قوتها أثناء المحنة. فإذا ما ظلت حركتنا منتبهة لعالم الفساد البرلماني الذي نعيش فيه الآن ومدرسة لطبيعة الصراع الذي نمر به، وأدركت أنها تمثل قيم أفراد هذا الجنس الآري وتتصرف بناء على ذلك، فلا بد لها أن تحقق نصراً مؤزراً في يوم ما في المستقبل. ولا بد لألمانيا أن تفوز مرة أخرى بالمكانة التي تليق بها على وجه هذه الأرض إن تمت إدارتها وتنظيمها طبقاً لنفس المبادئ.

حيث تكرس الأمة التي تتعرض لفترة من اختلاط الأعراق جهودها لمهام الحفاظ على أفضل عناصرها العرقية وهذا يجعلها في يوم ما سيدة هذه الكرة الأرضية.

وعلى من يؤيد حركتنا هذه أن يتذكروا ذلك دائماً كلما ينتابهم الشك حول ضخامة التضحيات المطلوبة منهم واحتمالات تحقيق النجاح.



❖ الفهرس ❖

المصفحة	الموضوع
3	كلمة المترجم
7	هتلر في سطور
8	نهاية هتلر
9	كتاب كفاحي
11	مقدمة المؤلف
	الجزء الأول: ذكريات
13	الفصل الأول : في بيت أسرتي
26	الفصل الثاني : سنوات الغربة والمعاناة في فيينا
65	الفصل الثالث : أفكار سياسية نتجت عن إقامتي في فيينا
117	الفصل الرابع : ميونخ
142	الفصل الخامس : الحرب العالمية
156	الفصل السادس : الدعاية الحربية
164	الفصل السابع : الثورة
179	الفصل الثامن : بداية نشاطي السياسي
186	الفصل التاسع : حزب العمل الألماني
192	الفصل العاشر : لماذا انهار الرايخ الثاني ؟
236	الفصل الحادي عشر : الجنس والشعب
275	الفصل الثاني عشر: المرحلة الأولى من مراحل تطور حزب العمل
	الجزء الثاني: الحركة الاشتراكية القوعية
305	الفصل الأول : المذهب الجديد والحزب
314	الفصل الثاني : الدولة

المصحة	الموضوع
356	الفصل الثالث : مواطنو الدولة ورعاياها
359	الفصل الرابع : صفة دولة الشعب وهدفها
367	الفصل الخامس : المذهب الجديد والتنظيم
376	الفصل السادس : الفترة الأولى من كفاحنا
388	الفصل السابع : الصراع مع القوات الحمراء
408	الفصل الثامن : القوي يكون أقوى بمفرده
415	الفصل التاسع : أفكار رئيسية خاصة بطبيعة وتنظيم قوات العاصفة
442	الفصل العاشر : قناع الفيدرالية
458	الفصل الحادي عشر : الدعاية والتنظيم
471	الفصل الثاني عشر : مشكلة اتحادات العمال
480	الفصل الثالث عشر : سياسة التحالف الألماني بعد الحرب
505	الفصل الرابع عشر : سياسة ألمانيا في غرب أوروبا
520	الفصل الخامس عشر : حق الدفاع عن النفس
541	خاتمة الكتاب

